

الم مدن الكبري

في الشرق الأدنى القديم

الجزء الثاني

الشرق الأدنى القديم



تأليف : د. محمد بيومي مهران

مصر والشرق الأدنى القديم
(١٨)

المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم

الجزء الثاني
الشرق الأدنى القديم

الأستاذ الدكتور
محمد بيومي مهران
أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش. سويتية - المنار بطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش. قتال السويح - الكيلن - ت ٥٩٧٣١٤٦

مصر والشرق الأدنى القديم

(١٨)

المدن الكبرى
فى
مصر والشرق الأدنى القديم

الجزء الثانى
الشرق الأدنى القديم

الأستاذ الدكتور

محمد بيومى مهران

أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دارالمعرفة الجامعية

٤٠ شارع سويعية، القنطرة - ١٦٢-٤٨٣
٣٨٧ شارع النصارى، الإسكندرية - ٥١٧٣١٤٦

تقديم

تحدثنا فى «الجزء الأول» من هذا الكتاب (المدن الكبرى والمراكز الأثرية فى مصر والشرق الأدنى القديم) - عن مصر.

وتحدثت فى هذا «الجزء الثانى» من نفس الكتاب، عن المدن والمراكز الأثرية فى «الشرق الأدنى القديم» - فى بلاد العرب، وفى العراق القديم، وفى بلاد الشام (فلسطين - لبنان - سورية - شرق الأردن)، وفى السودان والمغرب القديم، ثم فى إيران وآسيا الصغرى.

وسوف يرى القارئ - كما قلنا فى الجزء الأول من هذه الدراسة - أن هناك من المدن التاريخية القديمة ما تغير اسمه القديم، حتى نسيه الناس - أو يكادون - على أن هناك نوعاً آخر من المدن التاريخية، لم يحفظ له أهميته غير مكاته الدينية ومثالنا فى ذلك مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف

وأما «مكة المكرمة»: حيث الحرم المكى الشريف، حيث الكعبة البيت الحرام، ومقام إبراهيم^(١) وزمزم^(٢).

وفى مكة المكرمة، ولد سيد الأولين والآخرين - سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ﷺ وفيما نبي، ومنها خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض - ولم تكن هناك دعوة عامة من قبل، وإليها يحج المؤمنون بهذه الدعوة من كل الأجناس، وصدق الله العظيم، حيث يقول: «وأذن فى الناس بالحج، يأتوك رجالاً، وعلى كل ضامر، يأتين من كل فج عميق»^(٣).

والمدينة المنورة: مدينة الرسول - ﷺ - ودار الهجرة، التى نصرت الإسلام، وأعزت كلمة المسلمين، فاستحقت التكرين والتخليد، حتى يقوم الناس لرب

(١) أنظر: سورة البقرة: آية ١٢٥.

(٢) محمد يوسى مهراڤ: تاريخ العرب القديم ١٢٧ / ٢ - ١٣٣، يحيى حمزة كوشك: زمزم، ط١٩٨٣.

ط١٩٨٣، وشفاء سقم - مجلة ١٩٨٣، وأنظر: نيل الأوطار ٨٦ / ٥ - ٨٨، صحيح مسلم ٦٣ / ٩ -

٦٤، صحيح البخارى ٢٢١ / ٤، محمد بن علوى: فى رحاب البيت الحرام - جدة ١٩٧٩.

(٣) سورة الحج: آية ٢٧.

العالمين، ثم شئت إرادة الله - الكريم المنان، ذى الفضل العظيم - ولا راد لمشيئة - أن تعطى المدينة المنورة، ما لم تعطه لغيرها من المدائن، وأن تخصصها بميزة لا تتناول إليها واحدة من مدائن الدنيا، حيث شرفت بأن تضم فى ثراها جثمان سيد الأولين والآخرين، جدنا ومولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ.

هذا إلى أن بالمدينة المنورة لثانى الحرمين الشريفين، فضلا عن أنها البلد الذى اختاره الله، ليكون أول عاصمة إسلامية فى التاريخ، تخرج منها جيوش النور، تحمل راية الإسلام، وهداية القرآن، إلى جميع أنحاء المعمورة.

ومسجد الرسول بالمدينة، أحد المساجد الثلاثة، التى لا تشد الرحال إلا إليها، (المسجد الحرام - المسجد النبوى الشريف - المسجد الأقصى)، هذا إلى أن الصلاة فى مسجد الرسول، خير ألف صلاة، فيما سواه، إلا المسجد الحرام^(١).

وفى مسجد سيدنا رسول الله - ﷺ وآله وسلم - بالمدينة المنورة والروضة الشريفة، والتى هى روضة من رياض الجنة^(٢).

والقدس الشريف: هى المدينة الوحيدة فى العالم التى يجمع أصحاب الديانات السماوية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - على قدسيتها، ومن ثم فقد كانت - وما تزال وستظل إن شاء الله أبداً - رمزاً للبشرية المتدينة، على اختلاف مللها ونحلها ومذاهبها، فاليهود يقدسونها، لأن لهم فيها ذكريات دينية وسياسية، ويقدسها المسيحيون لأنها موطن السيد المسيح، ومنبت هدايته، ولأبها كنيسة القيامة التى يحجون إليها، لأن جثمان السيد المسيح الطاهر - فيما يعتقدون - قد

(١) نَظَر صحيح البخارى ٧٦ / ٢، صحيح مسلم ١٦٣ / ٩ - ١٦٨، محمد يومية مهراذ، السيرة النبوية الشريفة ١١١ / ٣ - ١٤١، تاريخ العرب القديم ٢ / ٢٥٢ - ٢٥٧.

(٢) صحيح البخارى ٧٧ / ٢، صحيح مسلم ١٦١ / ٩ - ١٦٣، محمد يومية مهراذ السيرة النبوية الشريفة ١٣٨ / ٣ - ١٤١، تاريخ العرب القديم ٢ / ٢٥٧ - ٢٦٢، الدكتور السيد المالكي: الذخائر المحمدية ص ٧٧ - ٨١، السهمودي: وفاة الوفا بأخبار دار المصطفى ٢ / ٤٢٦ - ٤٣٩، على الملا القارى: شرح الشفا ١٦٣ / ٢ - ١٦٥، القاضي عياض الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢ / ٩١ - ٩٩.

دفن في مكان هذه الكنيسة ثم رفع إلى السماء^(١).

وبقدسها المسلمون لأنها أولى القبلتين، وبها ثالث الحرمين الشريفين^(٢)،
ولأنها مسرى مولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ - وصدق الله العظيم حيث يقول
«سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي
باركنا حوله»^(٣).

وعن أبي الدرداء، عن النبي - ﷺ - أنه قال «فضلت الصلاة في المسجد
الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفي مسجدي بألف صلاة، وفي مسجد بيت
المقدس بخمسائة صلاة»^(٤).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: البيت المقدس بته الأنبياء،
وسكنته الأنبياء، ما فيه موضع شبر، إلا صلى فيه نبي أو قام فيه ملك^(٥).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك كثيراً من عواصم الشرق
القديم لا يعرف عامة الناس عنها شيئاً، بل إن بعضاً من المثقفين لا يكادون يعرفون
عنها شيئاً ذا قيمة علمية، فماذا يذكر الناس عن: قرناو - شبره - تمنع -
صرواح، وكلها كانت عواصم لدول في بلاد العرب (معين وحضر موت وقتبان
وسبأ)، كانت يوماً ما، ملء السمع والبصر.

وماذا يذكر الناس مثلاً عن عواصم الآشوريين في العراق القديم: آشور -

(١) لوقا ٢٤ / ٢١ - ٥٢، فيلب حتى تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ١ / ٢٨٧، عمر كمال توفيق؛

تاريخ الإمبراطورية البيزنطية - ١٩٦٧، ص ٢٩ لم قارن؛

Eusebius, Bk, IX, ch. 5, 2 وكذا Sozomenus, bk, i, ch. 4

(٢) صحيح مسلم ٩ / ٥ - ١١، صحيح البخاري ١ / ١١٠ - ١١١، ٢٥ / ٦، إرواء الغليل ١ /

٣٢٢، محمد يومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ١ / ٣٥٠ - ٣٥٤، سيرة ابن هشام ١ /

٤٠١، ابن كثير: السيرة ٢ / ٣٧٢ - ٣٧٣، التفسير ١ / ٢٨٦ - ٢٨٨.

(٣) سورة الإسراء: آية ١.

(٤) مجير الدين الحنبلي: الأنس الحليل بتاريخ القدس والخليل ١ / ٢٩٩ الشيخ محمد محمود

الفحام: المسلمون واسترداد بيت المقدس، القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٢.

(٥) مجير الدين الحنبلي: المرحع السابق، ص ٢١١.

كالح، «كار - توكلتى - نتورتا» - دور شاروكين - فينوى». وماذا يذكر الناس عن عواصم آسيا الصغرى، بل عن المغرب والسودان القديم. ويدهى أن هذا الأمر، إنما ينطق على مدن ومواقع أثرية كثيرة، في مصر والشرق الأدنى القديم، لم نشأ أن نتبع فيها طريقة المعاجم التقليدية، وإنما اخترنا أن نسير فيها، طبقاً للتسلسل التاريخي لكل بلد على حدة -- قدر الإمكان - ومن ثم فقد قدمنا في كل جزء منها فهرست بالمدن والمواقع، حتى يستطيع القارئ الرجوع إلى مكان الموقع الذى يريده فى الدراسة.

والله العلى الكريم، ذو الفضل العظيم، أسأل أن يكون فى هذه الدراسة بعض النفع للقارئ المتخصص، فضلاً عن القارئ العادى.

«وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب»

الاسكندرية فى ٢٥ رمضان ١٤١٩هـ

١٣ يناير ١٩٩٩

دكتور

محمد بيومى مهران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

سيدنا ومولانا محمد وآله الطيبين الطاهرين

اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد، كما صليت
على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل
محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم في
العالمين، إنك حميد مجيد

الفصل الأول

في شمال الجزيرة العربية

(١) مكة المكرمة

(١) موقع مكة الجغرافي وأهميته:

تقع مكة المكرمة في منتصف الطريق السالك بين اليمن والشام، وعلى بعد ٨٠ كيلو من البحر الأحمر، في واد غير فسيح من أودية جبال السراة تحيط به الجبال من كل جانب، وتكاد تحجبه إلا من ثلاثة منافذ، يصله أحدها بطريق قريب من البحر الأحمر، عند مرفأ «الشممية» - مرفأ مكة في عصر النبوة وما قبله، وبعدة، حتى عصر عثمان بن عفان رضى الله عنه (٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م)، حيث بنى ميناء جدة - وأما المنفذ الثالث، فيصل المدينة المقدسة، بالطريق المؤدى إلى فلسطين^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن الأبحاث العلمية الحديثة، إنما قد أثبتت أن «الكعبة المشرفة» في قلب مكة المكرمة، إنما هي «مركز الأرض» ففي الخامس عشر من شهر يناير من عام ١٩٧٧ م، أعلن الأستاذ الدكتور حسين كمال، رئيس قسم الهندسة المدنية في كلية الهندسة - جامعة عين شمس، في حديث له نشر في صحيفة «الأهرام» بأنه توصل إلى ما يشبه النظرية الجغرافية التي تؤكد أن «مكة المكرمة» في مركز اليابس من الكرة الأرضية - أي «مركز الأرض».

ولعل مما يجدر الإشارة إليه هنا، أنه من المعروف - تاريخياً ودينياً، قبل الإسلام، وفي الإسلام - أن «الحجر الأسود» هو علامة بدء طواف الطائفين حول الكعبة، وأن هؤلاء الطائفين إنما يبدأون طوافهم منه، جاعلين الحجر الأسود من أسرارهم، ويسرون شكلها في سائر طوافهم حول الكعبة، حتى يختموا طوافهم

(١) أحمد إبراهيم الشريف: الحجاز قبل ظهور الإسلام، ص ٢٧ (الجزيرة العربية في عهد الرسول والخلفاء الراشدين - الجزء الأول - الرياض ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م).

بالحجر الأسود أيضاً، في إطار مسيرتهم، وهو على أيسارهم - ما عدا
الحمس -.

ومن ثم فإذا قارنا بين نظرية مركزية الكعبة المشرفة في مكة المكرمة للأرض،
وبين عملية الطواف الذي يمشى فيه الطائفون صوب اليسار، وأضفنا إلى ذلك
دورة الكرة الأرضية العامة من هذه الناحية، فنكون حينئذ قد أدركنا جزءاً كبيراً
من سر الطواف صوب اليسار، خلافاً للتيامن، الذي عليه آداب الإسلام، في
الأعمال والأحوال ومختلف الشؤون الإسلامية العامة.

ولعلنا الآن نفهم الحكمة الإلهية من اختيار مكة المكرمة، مقراً لبيت الله
الحرام، ومنطلقاً للرسالة الخاتمة - رسالة سيد محمد ﷺ - وهكذا كانت مكة
المكرمة، مكاناً مقدساً، شرف بمولد - وكذا بيعت - النبي الخاتم، سيدنا ومولانا
وجدنا، محمد رسول الله - ﷺ - ومهبطاً للوحي، ونقطة انطلاق الدعوة
الإسلامية إلى العالم أجمع^(٢)، حيث بعثه ربه إلى الناس كافة، قال تعالى: «وما
أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً»^(٣).

وهكذا أصبحت مكة المكرمة - بموقعها المتوسط بين الشرق والغرب
والشمال والجنوب - محطة صالحة لطرق القوافل الطوال، وهكذا أصبحت ملتقى
القوافل بين الجنوب والشمال، وبين الشرق والغرب، وكانت لازمة لمن يحمل
تجارة اليمن إلى الشام، ولمن يعود بتجارة من الشام يحملها إلى شواطئ جنوب
الجزيرة العربية.

والواقع أن موقع مكة الممتاز جغرافياً، إنما كان سبباً في أن يجعل من المدينة
المقدسة عقدة تتجمع فيها القوافل، التي ترد من الجنوب ترهيد الشام، أو القادمة
من "سبم ترهيد اليمن"، حتى إذا ما كان القرن السادس الميلادي، كتب للقرشيين

(٢) محمد يورمي مهران، الحضارة العربية القديمة، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٣٠٣، عبد القدوس
الأصاوي، الكعبة، (الجزيرة العربية قبل الإسلام - الرياض، ١٩٨٤، ص ١٢٥)، الحم عمر
بر ههد، إتحاف الوري بأحبار أم القرى، ص ٦٦ - ٦٧.

(٣) سورة ساء نة ٢٨.

نُجِّحاً بعيد المدى في احتكار التجارة في بلاد العرب، فضلاً عن السيطرة على طرق القوافل التي كانت تربط اليمن بالشام من ناحية، والعراق من ناحية أخرى^(٤).

(٢) أسماء مكة المكرمة:

لاريب في أن مكة المكرمة، إنما هي أهم مواضع الحضر في الحجاز الشريف، ولاريب كذلك في أنها إنما ترجع - في نشأتها الأولى - إلى عهد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق. م.)، وولده إسماعيل عليه السلام (١٨٥٤ - ١٧١٧ ق. م.)^(٥)، وأن سكانها إنما كانوا من أبناء إسماعيل عليه السلام، إلى جانب قبائل عربية أخرى، لم يقدم لنا المؤرخون عنها معلومات دقيقة - أو حتى شبه دقيقة كالمعاليق وجرهم وخزاعة^(٦)، وأن الإسماعيليين - أو العدنانيين كما يسميهم المؤرخون المسلمون - كانوا يتكلمون اللغة العربية التي لم تصلنا بها نقوش مكتوبة، ربما بسبب عدم وجود خط متميز لهم قبل الإسلام - كخط المسند في الجنوب - وربما لأن طبيعة السكان في الحجاز لم تكن تميل إلى الكتابة^(٧)، وإن وجدت كتابات لغبر الإسماعيليين في الحجاز، كالشموديين مثلاً.

(٤) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدنية في الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٥٤، وكذا:

S. A. Huzayyin, Arabia and The Near East, Cairo, 1942, p. 142

- 143 W. M. Watt, Muhammad at Mecca, Oxford, 1953, p. 3.

وفي الترجمة العربية (محمد في مكة - قهراب شعان بركات) ص ١٨ - ٢٠.

(٥) أنظر: (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١ / ١٢١ - ١٢٧، ١٩٥٠ (الرياض ١٩٨٠).

(٦) أنظر ابن قتيبة: المعارف ص ٣١٣، الأغاني ١٩ / ٩٤، وأنظر عن المعاليق (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢ / ٥٦٣ - ٥٧١).

(٧) النويري ٢ / ٢٧٨، كشف الظنون ١ / ٢٥ - ٢٦، أصل المخط العربي ص ٧، عبد المنعم ماجد، E. Gibbon, the decline and fall of, وكذا: ٧٧ / ١، التاريخ السياسي للدولة العربية the Roman Empire, p. 220).

ويختلف المؤرخون في اشتقاق كلمة «مكة»، فذهب فريق إلى أنها إنما سميت مكة كذلك، لأنها تمك الجبارين، أى تذهب نخوتهم، وذهب فريق ثان إلى أنها إنما تقع بين جبلين مرتفعين عليها، وهى فى هبطة بمنزلة المكوك، وذهب فريق ثالث إلى أن الكلمة مشتقة من «أمتك» من قولهم: أمتك الفصيل ضرع أمه، إذا مصه مصاً شديداً، ولما كانت مكاناً مقدساً للعبادة فقد امتكت الناس، أى جذبتهم من جميع الأطراف^(٨)، إلى غير ذلك من التفسيرات المألوفة عند الاخباريين فى تفسير الأسماء التى لاعلم لهم بها.

غير أن إسم مكة لما كان سابقاً لتفسيرات الاخباريين هذه، ولما كان الجنوبيون قد سكنوا مكة مع الإسماعيليين، فإن هناك من يرجح أن الاسم إنما أخذ من لغة الجنوب، مستنداً إلى البيت الحرام، فمكة أو «مكرب» - فى رأى هذا الفريق من العلماء - كلمة بمعنى مكونة من «مك» و«رب»، ومك بمعنى بيت، فتكون «مكرب» بمعنى «بيت الرب» أو «بيت الإله»، ومن هذه الكلمة أخذت مكة إسمها، - بكة بقلب الميم باء على عادة أهل الجنوب - ويرى «بروكلمان» أنها مأخوذة من كلمة «مقرب» العربية الجنوبية، ومعناها «الهيكل»^(٩).

هذا وقد أطلق القرآن الكريم على مكة عدة أسماء، منها «بكة» لقول الله تعالى: «إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين»^(١٠)، وهنا يحاول الاخباريون أن يفرقوا بين مكة وبكة، فالأولى هى القرية كلها، والثانية

(٨) ياقوت ١ / ١٨١ - ١٨٢، ابن هشام ١ / ١٢٥ - ١٢٦، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٤٣٩١.

(٩) أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٩٧ - ٩٨، كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ٣٣، وكذا:

Gerald De Gaury, Rulers of Mecca, London, 1951, p. 24.

(١٠) سورة آل عمران: آية ٩٦، ويرى أن رجلاً سأل الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، أهو أول بيت، قال لا، وقد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً، وأول من بناء إبراهيم عليه السلام (تفسير الكشاف ١ / ٤٤٦، تفسير الطبرى ٣ / ٦٩، ٧ / ١٩، ثم قارن ١٧ / ٢٠، البدلة والنهاية ٢ / ٢٩٩).

موضع الكعبة البيت الحرام، أو أن «بكة» هي موضع البيت الحرام ومكة ما سوى ذلك» (١١).

كذلك أطلق القرآن على مكة «أم القرى» في قوله تعالى «ولتنذر أم القرى ومن حولها» (١٢)، ولعل هذه التسمية القرآنية إنما تدل على أن مكة إنما هي أعظم مدن الحجاز، ولأنها شرفت ببيت الله، أول بيت وضع للناس في الأرض، فيه الهدى، وفيه البركة، وفيه الخير الكثير، جعله الله مثابة للناس وأماناً، وهو كذلك للأحياء جميعاً، ومنه خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض جميعاً - ولم تكن هناك دعوة عامة من قبل - وإليه يحج المؤمنون بهذه الدعوة من كل البقاع، ومن كل الأجناس (١٣)، وصدق الله العظيم حيث يقول «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق» (١٤).

وهناك الاسم القرآني «البلد»، لقول الله تعالى: «لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد» (١٥) وهناك «البلد الأمين» لقول الله تعالى: «والتين والزيتون، وطور سنين، وهذا البلد الأمين» (١٦).

هذا وقد أورد أصحاب التواريخ والمعاجم اللغوية ومعاجم البلدان، أسماء كثيرة للبلد الحرام (١٧). وقد نظم «القاضي أبو البقاء بن الضياء الحنفى» سبعة أبيات،

(١١) الأزرقي ١ / ١٨٨، تفسير للنار ٧ / ٤، تفسير الطبري ٧ / ٢٣ - ٢٧، تفسير البيضاوي ١٧٢ / ١.

(١٢) سورة الأنعام: آية ٩٢، سورة الشورى: آية ٧.

(١٣) في ظلال القرآن ٧ / ١١٤٨، ٣١٤٢ / ٢٥.

(١٤) سورة الحج: آية ٢٧.

(١٥) سورة البلد: آية ١ - ٢.

(١٦) سورة التين: آية ١ - ٣.

(١٧) انظر (معجم البلدان لياقوت الحموي ١ / ٤٧٥، ١٨١ - ١٨٢، الفاسي: العقد الثمين ١ /

٣٦-٣٥، سيرة ابن هشام ١ / ١٢٥ - ١٢٦، الديري: نهاية الأرب ١ / ٣١٣ - ٣١٤،

القاموس المحيط ١ / ٢٣٥، ٢٣٩، ٩٧ / ٣، ٣١٩، كتاب الإعلام بإعلام بيت الله الحرام ص

١٨، صبح الأعشى ٤ / ٢٤٨، بلوغ الأرب ١ / ٢٢٨، تاريخ الخميس ص ١٢٥، تفسير القرطبي

٢٠ / ٥٩ - ٦٠، تفسير البيضاوي ٣ / ٥٥٩، تفسير المعثر الرازي ٣١ / ١٨٠، تفسير الطبري

١٧ / ١٩ - ٢٦، ٣٠ / ١٩٣ - ١٩٤).

جمع فيها أسماء مكة المكرمة نحو الثلاثين اسماً، نقلها «ابن ظهيرة» في كتابه «الجامع اللطيف»، وهي:

لمكة أسماء ثلاثون عُددت	ومن بعد ذلك اثنان منها اسم بكّة
صلاح وكوني والحرام وقادس	وحاطمة البلد العريش بقريّة
ومعطش أم القرى رحم باسة	ونساسة رأس بفتح الهمزة
مقدسة والقادسة نائسة	ورأس وتاج أم كسوني كسيرة
سبوحة عرش أم رحمن عرشنا	كذا حرم البلد الأمين كبلدة
كذلك اسمها البلد الحرام لأمنها	وبالمسجد الأسنى الحرام نسمت
وما كثرة الأسماء إلا لفضلها	جباها به الرحمن من أجل كعبة ^(١٨)

(٣) نشأة مكة المكرمة:

لعل أقدم ذكر لمكة البلد الحرام في النصوص القديمة، إنما يرجع إلى القرن الثاني الميلادي، إذ يحدثنا الجغرافي اليوناني التميمصر - بطليموس - (١٢١ - ١٥١ م) من بطلمية (النشأة الحالية بمحافظة سوهاج)^(١٩)، عن مدينة دعاها «مكرية» (ماكورابا Macoraba)، رأى العلماء أنها المدينة المقدسة - مكة المكرمة^(٢٠).

هذا ويذهب «ألوجست ميلر» وغيره، إلى أن المعبود الذي ذكره «ديودور الصقلي» (القرن الأول ق.م) في أرض قبيلة عربية، دعاها (Bizomeni) إنما يعني به «بيت مكة»، أمر غير مقبول، فهو يقع بعيداً عن مكة المكرمة في «حسمى» في مكان دعاها «ألويس موسل» باسم «عوافة»، حيث بنت قبيلة ثمود،

(١٨) الأزرقى: أنبار مكة ٢٨٣ / ١ (مكة المكرمة ١٩٨٣).

(١٩) أنظر (محمد يوسى مهران: مصر ٨٧ / ١ - ٨٨).

(٢٠) أنظر:

Ptolemy, VI, p. 7, 32.

Gerald De Gaury, Rulers of Mecca, London, 1951, p. 24. وكذا.

فيما بين أخريات عام ١٦٦ م، وبداية عام ١٦٩ م، معيداً هناك^(٢١)، وربما كان هذا المعبد هو الذي أشار إليه «ديودور» على أنه المعبد الذي يقدمه العرب^(٢٢).

وليس هناك إلى سبيل من ريب، في أن المدينة المقدسة، إنما ترجع إلى ما قبل عصر بطليموس (١٢١ - ١٥١ م)، حيث كتب كتابه «الجغرافيا» والمعروف باسم «جغرافية بطليموس» حوالي عام ١٥٠ م^(٢٣).

ومن ثم فقد ذهب فريق من العلماء إلى أن مكة المكرمة، إنما هي سابقة لكتابة أسفار التوراة (العهد القديم)^(٢٤)، فإنما هي «ميشاء» المشار إليها في سفر التكوين^(٢٥)، وهي «ميشاء» التي يرى الرحالة «برتون» أنها كانت بيتاً مقصوداً لعبادة أناس من الهند، ويقول الرحالة الشرقيون أنها كانت كذلك بيتاً مقصوداً للعابثين، الذين أقاموا في جنوب العراق قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون^(٢٦).

على أنه من الغريب أن بعض المؤرخين العرب إنما يذهب إلى أن تأسس المدينة المقدسة، إنما كان في منتصف القرن الخامس الميلادي^(٢٧)، ومن ثم فإنه

(٢١) أنظر عن معبد العوفة:

Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 15.

J. B. philby, The Land of Middian, MEG, 9, 1955, p. 127 F. وكذا:

Gerald De Gaury, op. cit., p. 12.

وكتا: BIOR, 15, 1958, p. 8 - 9.

(22) Gerald De Gaury, op. cit., p. 12.

C. H. Oldgather, Diodorus Siculus, Bibliotheca Book, III, وكذا: XXXI.

(٢٣) أنظر:

Ptolemy, Geographia, Edited by C. F. Nobble, 3 Vols 1843 - 1845.

(٢٤) أنظر عن تأريخ كتابة أسفار التوراة (محمد يومى مهران: إسرائيل، الجزء الثالث، التوراة، الإسكندرية ١٩٧٩، ص ١٨ - ٩٦).

(٢٥) تكوين ١٠ / ٣٠.

(٢٦) عباس العقاد: مطلع النور، ص ١١٣.

(٢٧) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ٤٥/١، صبح الأعشى، ٢٥٠ / ٤.

يتأخر بتاريخها حوالي ثلاثة وعشرين قرناً، لسبب لا أدريه، وإن كان يخل إلى أنه اعتبر تاريخ مكة لا يبدأ إلا بقصى بن كلاب، الذي حدد له القرن الخامس الميلادي^(٢٨)، وطبقاً لرواية الإخباريين التي ذهبت إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة إلى أن تولى أمرها «قصي بن كلاب» ذلك لأن جرهم وخزاعة - فيما يزعمون - لم يكونوا يراغبين في إقامة بيوت بجوار بيت الله الحرام^(٢٩)، وكأنما يريد هؤلاء الإخباريون أن يقولوا لنا أن مكة ظلت على بدوئتها، منذ أقام بها اسماعيل، عليه السلام، في القرن التاسع عشر ق. م، وحتى أصبح أمرها بيد «قصي بن كلاب» في القرن الخامس الميلادي، وتلك مبالغة - فيما أظن - غير مقبولة.

هذا وقد ذهبت آراء أخرى إلى أن تاريخ مكة، إنما يرجع إلى القرن الأول ق. م، اعتماداً على رواية «ديودور الصقلي» - الآنف الذكر - ورغم أن ديودور لم يذكر تاريخ واسم المعبد، إلا أن أصحاب هذا الاتجاه إنما رأوا أن وصف ديودور للمعبد بأنه كان محجة للعرب جميعاً، لا ينطبق إلا على الكعبة المشرفة^(٣٠)، ولكن «ديودور» لم يحدد لنا بدء سكنى المدينة المقدسة، فضلاً عن تحديد تاريخ بناء المعبد نفسه، ومن ثم فربما اعتمد المؤرخون في تحديدهم للقرن الأول ق. م، كباية لسكنى مكة، على أنه العصر الذي عاش بعده ديودور الصقلي.

ويذهب «دوزي» إلى أن تاريخ مكة إنما يرجع إلى أيام داود عليه السلام، حيث أقام بنو شمعون بن يعقوب - والذين يسميهم الإخباريون جرهم - الكعبة^(٣١)، في القرن العاشر ق. م^(٣٢)، وتلك أكذوبة كبرى لأسباب منها (أولاً)

(٢٨) حسن إبراهيم: المرجع السابق، ص ٤٦.

(٢٩) تاريخ الحقوقي، ١/ ١٩٧.

(٣٠) جواد علي ٤/ ١٢، وكذا: R. Dozy, Die Israeliten zu Mekka, p. 13.

• E. Gibbon, op. cit., p. 50. وكذا:

Caussin de Perceval, op. cit., I, p. 174. وكذا:

(31) R. Dozy, op. cit., p. 15.

(٣٢) انظر عن تاريخ داود، كتابنا إسرائيل، ص ٤١٧ - ٤١٨.

أن قبيلة شمعون الإسرائيلية لم تهاجر أبداً إلى مكة، وإنما كل ما جاء عنها - وطبقاً لرواية التوراة نفسها^(٣٣) - أنها هاجرت على أيام حزقيا ملك يهوذا (٧١٥ - ٦٨٧ ق.م) إلى الجنوب الغربي من واحة معان، ثم تابعت سيرها حتى نهاية الجنوب الغربي لجبل سمير، حيث قضوا على بقايا ضعيفة، أو جيوب صغير للعمالق هناك^(٣٤)، ومنها (ثانياً) أن قبيلة شمعون كانت من أضعف القبائل الإسرائيلية حتى عشية موت سليمان، عليه السلام، في عام ٩٢٢ ق.م، وانقسام الدولة بعد ذلك مباشرة، إلى يهوذا وإسرائيل، ويكاد يجمع المؤرخون اليهود أنفسهم على أن قبيلة شمعون إنما كانت دائماً وأبداً تعيش على هامش القبائل الإسرائيلية، وأنها أبداً لم تحتل المكانة التي تجعلها تقوم بدور مستقل في العصر التاريخي الإسرائيلي^(٣٥)، فضلاً عن أن تقوم بهجوم ساحق على بلاد العرب وتستولي على مكة.

ومنها (ثالثاً) أن التوراة نفسها تكاد تتجاهل سبط شمعون، دون غيره من أسباط إسرائيل، ربما لضآلة شأنه، حتى أنها لا تكاد تتعرض لذكر هذا السبط، إلا عند دخول بني إسرائيل أرض كنعان^(٣٦)، وإلا بعد طلب من يهوذا^(٣٧)، ثم مرة أخرى، عند رحيله من جنوب يهوذا إلى واحة معان، في أخريات القرن الثامن وأوائل القرن السابع ق.م، كما أشرنا من قبل، مما دفع بعض الباحثين إلى أن يذهبوا بعيداً، فيرون أن سبط شمعون لم يكن له وجود في عالم الحقيقة^(٣٨).

ومنها (رابعاً) أن هذا الرأي إنما يؤمن به غير حدود بما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن الخليل عليه السلام، لم يذهب إلى الحجاز، وبالتالي لم يقيم

(٣٣) أنبار لهم ٤١ - ٤٢.

(٣٤) الرئيس موسل: شمال الحجاز، ص ٥ - ٩، وكنا؛

D. S. Margoliouth, op. cit., p. 51.

(35) M. Noth, The History of Israel, p. 23.

(٣٦) يتروج ١: ١٩ - ٩.

(٣٧) قصة ١: ٣.

(38) C. F. Burney, Israel's Settlement in Canaan, p. 37 - 58.

مع ولده اسماعيل يبناء الكعبة، وهو زعم لا يعتمد إلا على التعصب ضد العرب، وعلى معارضة الحقائق التاريخية، فضلاً عما جاء في القرآن الكريم بشأن هذه الأحداث الثابتة^(٣٩)، ومنها (خامساً) أنه يتأخر بتاريخ مكة المكرمة قرابة قرون تسعة.

وهناك رواية اخبارية يزعم أصحابها أن العماليق إنما كانوا يعيشون في مكة والمدينة وبقيّة مدن الحجاز، وأنهم قد عاثوا في الأرض فساداً، ومن ثم فقد أرسل إليهم موسى، عليه السلام، جيشاً قضى عليهم، وسكن اليهود المنطقة بدلاً عنهم^(٤٠) ولا ريب في أن هذا زعم كذوب من أساسه - الأمر الذي سوف نناقشه بالتفصيل عند الحديث عن المدينة المنورة - وعلى أى حال فإن موسى إنما كان يعيش في القرن الثالث عشر ق.م، وأنه خرج بالإسرائيليين من مصر حوالي عام ١٢١٤ ق.م، كما حددنا ذلك في كتابنا إسرائيل^(٤١).

والرأى عندى أن تاريخ مكة إنما يرجع إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ذلك أننا نعرف - تاريخياً ودينياً - أن الخليل عليه السلام، قد أتى بولده اسماعيل وزوجه هاجر من فلسطين، وأسكنهما هناك في هذه البقعة المباركة^(٤٢)، طبقاً لصريح القرآن الكريم، حيث حيث يقول «ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة

(٣٩) انظر كتابنا إسرائيل، ص ١٨٣ - ١٨٩، وكتابنا دراسات في التاريخ القرآني، الفصل الرابع، من الجزء الأول ص ١٨١ - ٢٣٥.

(٤٠) حواد على ١٣ / ٤، الأخلاق النفسية، ص ٦٠ وما بعدها.

(٤١) أنظر (محمد يوسى مهران) إسرائيل ٢٥١ / ١ - ٤٥٦، وأنظر طبعة ١٩٩٩ ص ٢٥٩ - ٤٤٢.

(٤٢) تاريخ الطبري ٢٥١ / ١ - ٢٥٩، ابن الأثير ١ / ١٠٢ - ١٠٥، ابن كثير ١ / ١٥٤ -

١٥٤، المقدسي ٣ / ٦٠، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٣٦ - ٣٧، شفاء العمام ٢ / ٣، تاريخ الخميس

ص ١٠٦، تاريخ الجعقوبي ١ / ٢٥، تفسير روح المعاني ١٣ / ٢٣٦ - ٢٣٧، تفسير الطبري

١٣ / ٢٣٠ - ٢٣٣، تفسير الفخر الرازي ١٩ / ١٣٦، الأزرقى ١ / ٥٤ - ٥٦.

من الناس^(٤٣) تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون^(٤٤).

والتاريخ يحدثنا أن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - قد فقد الأمل في إيمان القوم في العراق القديم - بعد المناظرة التي جرت بينه وبين ذلك الذي وصفه القرآن بأنه الذي آتاه الله الملك^(٤٥) - فإن الله لا يهدى القوم الظالمين.

وهكذا اتجه الخليل عليه السلام، من بلده «حاران» (حاران) - وتقع على نهر بلخ، على مبعده ٩٦ كيلا إلى الغرب من نل حلفا - إلى كتمان، وقيم الخليل عليه السلام، ما شاء الله له أن يقيم في أرض كتمان، ثم يرحل عنها - لأسباب كثيرة، لاريد أن أهمها الدعوة إلى الله تعالى^(٤٦) - صوب أرض الكنانة الطيبة، ويرجع العلماء - أو يكادون - أن وصول أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، إلى مصر، إنما كان على أيام الأسرة الثانية عشرة المصرية (١٩٩١ - ١٧٨٦ ق.م)^(٤٧).

ثم يعود أبو الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - إلى فلسطين مرة أخرى، وقد تزوج في مصر من السيدة هاجر^(٤٨)، وضوان الله عليها، وقيم في فلسطين،

(٤٣) نذهب كتب التفسير إلى أن الله سبحانه وتعالى لو قال «أفعدة الناس» ولم يقل «أفعدة من الناس»، لاردح عليهم القرس والروم والناس كلهم، ولحجت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال «أفعدة من الناس» فاختص به المسلمون (انظر: تفسير ابن كثير ١٤٢/٤، تفسير البياض ١/٥٢٣، تفسير القرطبي ٩/٣٧٣، التفسير الكبير للفخر الرازي ١٩/١٣٧، تفسير التنقي ٣/٢٦٤، تفسير روح المعاني ١٣/٢٣٨ - ٢٣٩، تفسير الطبري ١٣/٢٣٣ - ٢٣٤).

(٤٤) سورة إبراهيم: آية ٣٧، وانظر: تفسير روح المعاني ١٣/٢٣٦ - ٢٤١، مجمع البيان للطبري ١٣/٢٢٤ - ٢٣٠، تفسير الطبري ١٣/٢٢٩ - ٢٣٥، تفسير ابن كثير ٤/١٤١ - ١٤٠، تفسير الكشاف ٢/٣٨٠).

(٤٥) انظر (محمد يوسى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الرابع - بيروت ١٩٨٨، ص ١٤٧ - ١٥٦).

(٤٦) انظر عن هجرات إبراهيم عليه السلام (محمد يوسى مهران: إسرائيل ١/٨٢ - ١٣٢، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/١٢٧ - ١٥٩).

(٤٧) انظر (محمد يوسى مهران: مصر، الجزء الثاني، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٤٣٠ - ٤٣٦).

(٤٨) انظر عن السيدة هاجر (محمد يوسى مهران: إسرائيل ١/١٧٥ - ١٨٤)، وانظر طبعة ١٩٩٩، ص ١٦٤ - ١٧١.

حيناً من الدهر - شهوراً وربما سنين عدداً - ثم يتجه إلى أرض الحجاز الشريف،
بولده إسماعيل، وزوجه هاجر^(٤٩).

هذا وروى البخاري عن «سميد بن جبيرة» (٤٥ - ٩٥ هـ / ٦٦٥ -
٧١٤ م) عن «عبد الله بن عباس»^(٥٠) (٣ ق. هـ / ٦١٩ م - ٦٨ هـ / ٦٨٧ م)
قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل، أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفى أثرها
على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل - وهي ترضعه - حتى
وضعها عند البيت، عند دوحه فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ
أحد، وليس بها ماء، فوضعها هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء
فيه ماء.

ثم قفى إبراهيم متطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب،
وتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل
لا يتلفت إليها، فقالت له: أ الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذا لا يضيئنا، ثم
رجعت.

فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثانية، حيث لا يروته، استقبل بوجهه
البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات^(٥١)، ورفع يديه، فقال: «ربنا إني أسكنت من

(٤٩) أنظر (محمد يرمى مهرا، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١ / ١٣٨ - ١٥٩)

(٥٠) أنظر عن ابن عباس (طبقات ابن سعد ٢ / ٣٦٥ - ٣٧٢ ط بيروت حلية الأولياء ١ / ٣١٤ -

٣٢٩، طبقات العتقاء للشهرآزي ص ١٨ - ١٩، تذكرة الحفاظ للذهبي، ص ٤٠ - ٤٢،

نكت الهميان للصفدي، ص ١٨٠ - ١٨٢، تهذيب التهذيب لابن حجر ٥ / ٢٧٦ - ٢٧٩،

الأعلام للزركلي ٤ / ٢٢٨، الإصابة في تمييز الصحابة ٢ / ٣٣٠ - ٣٣٤، الاستيعاب لابن

عبد البر ٢ / ٣٥٠ - ٣٥٧، فؤاد سركين: تاريخ التراث العربي ١ / ٦٣ - ٦٩، وفيات الأعيان

٣ / ٦٢ - ٦٩، شذرات الذهب ١ / ٧٥ - ٧٦).

(٥١) ابن كثير: البداية والنهاية ١ / ١٥٤ - ١٥٧، قصص الأنبياء ١ / ٢٠٣، تفسير القرطبي

٣٥٩٧، ٣٥٩٨، صحيح البخاري ٤ / ١٧٢ - ١٧٧.

ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات، لعلهم يشكرون» (٥٢).

وسرعان ما فرغ الطعام والماء، فعطشت هاجر، وعطش وليدها، وراح يتلطف، ونظرت إليه، وهو يتلوى من العطش، فأحست نياط قلبها يتمزق وكاد عقلها أن يطيش، وراحت تسمى بين الصفا والمروة، تتلهف على رؤية أحد ينقذ وليدها من الموت عطشاً، حتى إذا ما أتمت السعى سبع مرات، عادت إلى اسماعيل، فإذا الماء قد ظهر عند قدميه، فجعلت تخوضه فى فرح، وتغرف الماء فى سقائها، وأرضعت وليدها، وإذا بملك عند زمزم يقول لها: لا تخافى الضيمة، فإن هذا بيت الله الحرام، بينه هذا القلام وأبوه، وأن الله لا يضيع أهله» (٥٣).

وهكذا كتب الله الرؤوف الرحيم لإسماعيل وأمه النجاة، وكان السعى بين الصفا والمروة من شعائر الله، وصدق عز من قال: «إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر، فلا جناح عليه أن يطوف بهما، ومن تطوع خيراً، فإن الله شاكراً عليم» (٥٤)، ويروى ابن عباس - جبر الأمة، وترجمان القرآن - عن سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله (ﷺ) قوله: «فلذلك سعى الناس بينهما» (٥٥).

ولست أدري: هل كان يدور بخلد جلتنا العظيمة، أم اسماعيل، عليهما

(٥٢) سورة إبراهيم: آية ٣٧، وانظر: تفسير روح المعاني ١٣ / ٢٣٦ - ٢٤١، تفسير السعدي ٤ / ٦٩ - ٧٣، تفسير الطبري ١٣ / ٢٢٩ - ٢٣٥، الطبرسي ١٣ / ٢٢٤ - ٢٣٠، تفسير ابن كثير ٢ / ٨٣٧، تفسير الكشاف ٢ / ٣٨٠، فى ظلال القرآن ٤ / ٢١٠٩ - ٢١١٠، صهوة النفاير ٢ / ١٠٠، زاد السير ٤ / ٣٦٧ - ٣٦٨، تفسير النسفي ٢ / ٢٦٣ - ٢٦٤، تفسير القرطبي، ص ٣٥٩٧ - ٣٦٠٣.

(٥٣) معجم باقوت ٣ / ١٤٨ - ١٤٩، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٣٦، شفاء الغراء ٢ / ٣ - ٤، المقدسي ١٣ / ٦٠ - ٦٢، الأزرقى ١ / ٥٤ - ٥٥، ٢ / ٣٩ - ٤٠، وانظر: القصة كاملة فى: صحيح البخارى ٤ / ١٧٢ - ١٧٩ (دار الحديث - القاهرة).

(٥٤) سورة البقرة: آية ١٥٨.

(٥٥) صحيح البخارى ٤ / ١٧٣.

السلام، أن ملايين المسلمين على مر السنين، سوف يسمعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط، تخليداً للذكرى ما كان في ذلك السعي من خير وبركة^(٥٦).

ويمر نفر من «جرهم» - أو من العماليق في رواية أخرى - بوادي قريش من مكة، ويعرفون بأمر «زمزم»، ثم لم يلبثوا إلا قليلاً، حتى يعرضوا على السيدة الجليلة - أم إسماعيل - أن يقيموا في جوارها على أن يكون الماء ماءها، فأذنت لهم، وشب إسماعيل بينهم، وتعلم العربية منهم - فضلاً عن المصرية التي أخذها عن أمه - ثم تزوج بواحدة من بناتهم^(٥٧)، وإن كانت الثروة إنما تذهب إلى أن هاجر قد أخذت لولدها إسماعيل زوجة من أهلها، من مصر^(٥٨).

ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن هناك من المؤرخين المسلمين من تنبه إلى الفارق بين لغة قريش - لغة القرآن الكريم - ولغة عرب الجنوب، أي بين لغة العدنانيين ولغة القحطانيين، فلو كان إسماعيل قد تعلم العربية من «جرهم» لكانت لغته موافقة للغتهم، أو لغة غيرهم ممن نزل مكة، فضلاً عن أن منزلة «عرب» عند الله، ليست بأعلى من منزلة إسماعيل، عليه السلام، كما أن منزلة «قحطان» ليست بأعلى عند الله من منزلة إبراهيم، خليل الرحمن، وأبي الأنبياء، حتى يمنح إسماعيل فضيلة اللسان العربي، التي أعطيت لعرب بن قحطان^(٥٩)، ومن ثم فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن إسماعيل إنما كان أول من ألهم هذا اللسان العربي المبين^(٦٠)، بل أن هناك من يذهب إلى أن قحطان

(٥٦) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٣٦ / ١٩، تفسير القرطبي ٣٦٩ / ٩ - ٣٧٠، تفسير الطبري ١٣ / ٢٣٠ - ٢٣٢، شفاء الغرام ٣ / ٢ - ١٦، ٦ - مروج الذهب ٢ / ٤٦ - ٤٧، ابن كثير: قصص الأنبياء ١ / ١٠٥، الأزرقي: أخبار مكة ٢ / ٤٠.

(٥٧) صحيح البخاري ٤ / ١٧٤، الكامل لابن الأثير ١ / ١٠٣ - ١٠٤، مروج الذهب ٢ / ٤٦ - ٤٧، تاريخ الطبري ١ / ٢٥٨، تفسير الطبري ١٣ / ٢٣٠، تفسير البخاري ١ / ٥٢٣، تفسير الألوسي ١٣ / ٢٣٧، تفسير القرطبي ٩ / ٢٧٤، الأزرقي ١ / ٥٧، ٢ / ٤٠، شفاء الغرام ٢ / ٤، تاريخ ابن خلدون ١٢ / ٣٧، ٣٣١، ٣٣٢، الإكليل ١ / ٩٨ - ١٠٢.

(٥٨) تكوين ٢١ / ٢١.

(٥٩) مروج الذهب ٢ / ٤٦.

(٦٠) تاريخ ابن خلدون ١٢ / ٨٦، تاريخ الخميس ص ١١٠، تاريخ نيقومي ١ / ٢٢١، لسان العرب ٢ / ٧٥.

نفسه من ولد اسماعيل^(٦١).

هذا وقد اعتمد أصحاب هذا الاتجاه - أن قحطان من ولد اسماعيل - على ما روى عن سيدنا رسول الله - ﷺ - أنه قال كل العرب من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام^(٦٢)، هذا فضلا عن أن سيدنا رسول الله - ﷺ - مر بناس من أسلم خزاعة - وهم من قحطان - وكانوا يتناضلون، فقال: إرموا بنى اسماعيل، فإن أباكم كان راميا^(٦٣)، ومن ثم فإن ابن خلدون^(٦٤) (٧٣٢ - ٨٠٨هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦م) إنما يذهب إلى أن جميع العرب إنما هم من ولد اسماعيل، لأن عدنان وقحطان، إنما يسبوعيان العرب العدنانية والقحطانية^(٦٥).

وفي إحدى زيارات الخليل لولده اسماعيل، وجده يصلح نبلا له، من وراء زمزم، فقال له: «يا اسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني، قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت فجعل اسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه السلام، وهو يبنى: واسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم^(٦٥).

ثم قال إبراهيم لاسماعيل، عليهما السلام: إئتني بحجر حسن، أضعه على

(٦١) الأكليل ١٣٠/١ - ١٠٥، الفلقشندي: نهاية الأرب ص ٣٩٦ - ٣٩٧، تاريخ ابن خلدون ٢٤١ ١/٢ - ٢٤٢

(٦٢) طبقات ابن سعد ٢٥/١ (دار التحرير - القاهرة ١٩٦٨).

(٦٣) الأكليل ١٠٣/١ - ١٠٥، وفي صحيح البخاري (١٧٩/٤): «مرن النبي ﷺ، على نفر من أسلم يتناضلون، فقال رسول الله ﷺ: إرموا بنى اسماعيل، فإن أباكم كان راميا، وأنا مع بنى فلان، قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: ملاكم لا ترمون؟ فقالوا: يا رسول الله نرمى وأنت معهم، قال: إرموا، وأنا معكم كلكم».

(٦٤) تاريخ ابن خلدون ٢٤١/٢، نهاية الأرب للفلقشندي ص ٣٩٦ - ٣٩٧، الأكليل ١٠٣/١ - ١٠٥، قارن جواد علي ٤٨١/١ - ٤٨٢.

(٦٥) شرح السجدة ١٧٥/٤، ومسنود ١٧٧/٤.

الركن، فيكون للناس علماء، وذهب إسماعيل بالشمس لأبيه حجراً، فأنه به، ولكنه رجده قد ركب الحجر الأسود في مكانه، فقال: يا أيت من أتاك بهذا الحجر؟ فقال: أتاني به من لم يحكل على بناتك، أتاني به جبريل من السماء (٦٦).

ولعل من الجدير بالإشارة هنا، أن تقليد الحجر الأسود، وبما نجم من ارتباطه بشيء مقدس، فقد يكون رمزاً للعهد الذي أخذه إبراهيم على نفسه وولده، يجعل هذا البيت مثابة للناس وأمتنا، أو يكون قد أقامه إبراهيم حجة عليه وعلى ولده، بأن هذا قد انتقل من ملكهم إلى الله تعالى، ليكون للناس مصلى، ومسجداً للطائفين ولما كفن والركع السجود، ومن ثم فقد وضعه في الركن الأقرب إلى الباب، ليكون أول حدود هذا البيت المكرم، الذي يتأ من الطائفون، ومن ثم فقد كان الحجر الأسود محترماً من إبراهيم، محترماً من ولده، مقدساً عند المسلمين إلى اليوم، وإلى الغد، وإلى أن يغير الله هذه الأرض غير الأرض (٦٧).

هذا وليس صحيحاً أن الحجر الأسود إنما قد اختار له إبراهيم اللون الأسود، لسهولة تعيينه، وتحديد مكانه، كما أنه ليس صحيحاً ما يزعمه بعض المستشرقين من أن الحجر الأسود إنما هو من نوع «التيازك»، وأن تلؤلؤه دليل على أنه كان ذي لون غير السواد، وذلك لأن هذا اللون الأسود الذي نراه الآن إنما كان سببه خطايا الجاهلية وأرجاسها (٦٨).

روى الحافظ الدمياطي (أبو محمد شرف الدين حميد المؤمن بن خلف الدمياطي - ٦١٣ - ٧٠٥ هـ / ١٢١٧ - ١٣٠٦ م) في «المتجر الرابع» عن ابن

(٦٦) تاريخ الطبري ٢٥٠/١ - ٢٦٠، تفسير الطبري ٦٦/٢ - ٧٠، الكامل لابن الأثير ١٠٦/١، ابن كثير: البداية والنهاية ١٥٦/١، ١٦٢ - ١٦٦، تفسير القرطبي ١٢٢/٢، تاريخ الخلفاء من ١١٣، شفاء للفرام ٤/٢ - ٨.

(٦٧) حاشي حسن الخروطى: الكعبة على مر العصور - القاهرة ١٩٦٧ من ١٩ - ٢٠، لطفي جصاص: ثورة الإسلام من ٥٩، الهجرى: كتاب الحج من ٢٥، وانظر: العقد الثمين ٦٧/١ - ٦٨.

(٦٨) عبد القدوس الأنصاري: الكعبة من ٢٣٦ (الجزيرة العربية قبل الإسلام - الرياض ١٩٨٤)، إدوارد خالب: الموسوعة في علوم الطبيعة ٥٩٢/١.

عباس، رضى الله عنهما، قال قال رسول الله ﷺ: «الحجر الأسود ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة، وإنما سودته خطايا المشركين، يبعث يوم القيامة مثل أحد، يشهد لمن استلمه وقبله من أهل الدنيا» - رواه ابن خزيمة -.

ورواه الترمذى مختصراً قال: نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضاً من اللبن، فسودته خطايا بني آدم» - قال الترمذى حديث حسن صحيح^(٦٩).

ولعل مسائلًا يتساءل: متى انتقل إبراهيم الخليل بولده وزوجه إلى مكان البيت الحرام في مكة المكرمة؟ وبعبارة أخرى متى بدأ تاريخ مكة المكرمة؟ ثم متى بنيت الكعبة المشرفة؟

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أننا قد توصلنا في دراسات سابقة إلى أن سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إنما عاش في الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م)^(٧٠)، وأنه رزق بولده إسماعيل، وهو في السادسة والثمانين من عمره^(٧١)، ومن ثم فإن إسماعيل يكون قد ولد في عام ١٨٥٤ ق.م، ولما كان قد عاش ١٣٧ عاماً - طبقاً لرواية التوراة^(٧٢) - فإنه يكون قد عاش في الفترة (١٨٥٤ - ١٧١٧ ق.م).

هذا وإذا ما كان صحيحاً ماذهب إليه بعض المؤرخين من أن إسماعيل قد شارك أباه إبراهيم، عليهما السلام، في بناء الكعبة، وهو في الثلاثين من عمره^(٧٣)، تصديقاً لقول الله تعالى «وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»^(٧٤)، فإن بناء الكعبة إنما كان

(٦٩) الحافظ الديلمى: لتجر الربيع في ثواب العمل الصالح - تحقيق عبد الملك بن دهب من ٣٠٤ (مكة المكرمة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

(٧٠) أنظر: محمد يرمى مهران إسرائيل ٧٢/١-٨٢، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١٢٧/١-١٢٨ (الرياض ١٩٨١) - دراسة حول التاريخ للأسماء من ٨٩ - ١٧٨ (مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - العدد ٣٩ لعام ١٩٩٢م).

(٧١) تكمين ١٦/١٦.

(٧٢) تكمين ١٨/٣٥.

(٧٣) مروج الذهب ٣٦٧/١ (ط بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

(٧٤) سورة البقرة: آية ١٢٧.

حوالى عام ١٨٢٤ ق.م، ونظرا لأن إسماعيل قد جئ به إلى مكان الحرم، وهو ما يزال رضيعا، أى حوالى ١٨٥٤ ق.م، فإن بدء سكنى مكة إنما كان حوالى عام ١٨٥٤ ق.م، وهذا يعنى أن مكة قد عمرت منذ حوالى منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وهو تاريخ يجعلها واحدة من أقدم مدن بلاد العرب - الجنوبية والشمالية سواء بسواء-.

وهكذا يمكن القول: إن تاريخ الحجاز القديم، لن يكون مفهوما، إلا عن طريق دراسة تاريخ أبى الأنبياء، سيدنا إبراهيم وولده سيدنا إسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - وعلى أية حال، فإن سيدنا إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، إنما هو أبو العرب^(٧٥)، وهو باني كعبتهم^(٧٦)، وهو الذى دعا الله تعالى أن يجعل مكة أقدس بقاع الأرض^(٧٧)، وهو أول من أذن فى الناس بالحج^(٧٨)، وأول من دعا لهذه الأرض الطيبة من الحجاز الشريف بالأمن والسكينة، والخير والبركة^(٧٩).

وهكذا كان الحجاز الشريف مهد خاتم الأنبياء والمرسلين - سيدنا ومولانا رجلا محمد، ﷺ - ومهبط الوحى، ومنزل القرآن، تتجه إليه ملايين - بل بلايين - قلوب المسلمين ووجوههم، فى كل يوم خمس مرات^(٨٠) وتؤمهم كل سنة الملايين من الحجيج، إستجابة لدعوة إبراهيم، وأداءا للفریضة الخامسة من فرائض الإسلام - الحج -^(٨١).

وهكذا يبدو بوضوح أن أبأ الأنبياء - إبراهيم عليه الصلاة والسلام - لم يرتبط بدين من الأديان، كما ارتبط بالإسلام، ولم يؤمن أصحاب دين بالخليل،

(٧٥) سورة الحج: آية ٧٨.

(٧٦) سورة البقرة: آية ١٢٧.

(٧٧) سورة آل عمران: آية ٦٩.

(٧٨) سورة الحج: آية ٢٧.

(٧٩) سورة البقرة: آية ١٢٦.

(٨٠) أوقات الصلاة الخمس.

(٨١) سورة البقرة: آية ١٤٤.

كما آمن به المسلمون، ولم يتباه جنس بانتسابهم إلى الخليل، كما يتباهى العرب بعامة - وقريش بخامة - ولم يتمسك أصحاب دين بدعوة الخليل، كما تمسك به المسلمون، رغم مزاعم اليهود والنصارى - أنهم ورثة الخليل، في الإيمان والتوحيد الصحيح^(٨٢).

(٤) تحريم مكة المكرمة:

من المعروف - دينياً - أن مكة المكرمة، إنما قد حرمها الله - سبحانه وتعالى - بنص الكتاب والسنة.

(١) فمن الكتاب قول الله تعالى: «إنما أمرت أن أعبد رب هذا البلدة الذي حرمها، وله كل شيء، وأمرت أن أكون من المسلمين»^(٨٣)، وقول الله تعالى: «وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا، أو لم نمكن لهم حرماً آمناً، يحسبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا، ولكن أكثرهم لا يعلمون»^(٨٤)، وقول الله تعالى: «أو لم يروا أننا جعلنا حرماً آمناً، ويتخطف الناس من حولهم، أفبالباطل يؤمنون، وبنعمة الله يكفرون»^(٨٥). وروى البخارى (١٧٧/٤) بسند عن أنس: أن رسول الله ﷺ، طلع له أحد، فقال: هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم ما بين لابتها (أى المدينة).

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن مجاهد أن رسول الله - ﷺ، قام يوم الفتح فقال: إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهى حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لم تحل لأحد قبلى، ولا تحل لأحد بعدى، ولم تحل لى إلا ساعة من الدهر، لا ينفر صيدها، ولا يعضد شوكها، ولا يختلى خلخالها، ولا تحل لقطعتها،

(٨٢) محمد بيومى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١١٥/١ - ١١٦.

(٨٣) سورة النمل: آية ٩١.

(٨٤) سورة القصص: آية ٥٧.

(٨٥) سورة التنبؤ: آية ٦٧، ثم أنظر عن تفسير الآيات الثلاثة الأخيرة (تفسير ابن كثير: ٦٠٤/٣ -

٦٠٥، ٦٣٠، ٦٧١ - ٦٧٢، تفسير القرطبي ٤٩٦٢، ٥٠١٥، ٥٠٧٩، ٥٠٨٠، تفسير

النسقى ٢٢٤، ٢٤٠-٢٤١، ٢٦٤، فى ظلال القرآن ٢٦٦٩/٥ - ٢٦٧٠، ٢٦٧٠، ٢٧٠٣ -

٢٧٠٤، ٢٧٥٢، صفوة التفسير ٤٢١/٢، ٤٤٠، ٤٦٨، تفسير البحر المحيط ١٢٦/٧).

(٨٦) صحيح البخارى ١٩٤/٥.

الا لمنشد، فقال العباس بن عبد المطلب، إلا الأذخر يارسل الله، فإنه لا بد منه
للقين والبيوت، فسكت ثم قال، إلا الأذخر فإنه حلال (٨٦).

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى شريح العدوى أنه قال لعمر بن
سعيد - وهو يبعث البعوث إلى مكة - إئذن لى أبها الأمير، أحدثك قولاً قام به
رسول الله - ﷺ - الغد يوم الفتح، سمعته أذنأى، ووعاه قلبى وأبصرته عينأى،
حين تكلم به، حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها
الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها
شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله - ﷺ - فيها، فقولوا له: إن الله أذن
لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها
اليوم، كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب (٨٧).

وروى البخارى فى صحيحه (باب لا يحل لقتال بمكة)، وقال أبو شريح
رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: ولا يسفك بها دماً، وعن ابن عباس، رضى الله
عنهما قال: قال النبى ﷺ - يوم فتح مكة - «لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا
استنفرتم فاتقروا، فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام
بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى، ولم يحل لى، إلا
ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكة، ولا ينفر
صيده، ولا يلتقط لقطته، إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها، قال العباس: يارسل
الله، إلا الآخر، فإنه لقينهم، وليبوتهم، قال: إلا الأذخر، (٨٨)؛

وعن أبى شريح العدوى أنه قال لعمر بن سعيد - وهو يبعث البعوث إلى
مكة - إئذن لى أبها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله - ﷺ - للغد من يوم
الفتح، فسمعته أذنأى، ووعاده قلبى، وأبصرته عينأى - حين تكلم به - إنه حمد
الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل
لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجرة، فإن
أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ﷺ، ولم يأذن

(٨٧) صحيح البخارى ١٩٠/٥.

(٨٨) صحيح البخارى ١٨٢/٣ - ١٩.

لكم، وإنما أذن لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس،
وليبلغ الشاهد الغائب. فقيل لأبي شريح ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك
منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيد عاصيا ولا فارا بدم، ولا فارا بخربة خربة
بليدة^(٨٩).

وروى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال قال
النبي ﷺ، بمعنى، أتدرون أي يوم هذا؟ قال: الله ورسوله أعلم، فقال: فإن هذا يوم
حرام، أفأنتدرون أي بلد هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: بلد حرام، أفأنتدرون أي
شهر هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم؟ قال شهر حرام، قال: فإن الله حرم عليكم
دماءكم وأموالكم وأعراضكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم
هذا^(٩٠).

وروى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن منصور عن مجاهد عن طاوس
عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ، يوم الفتح - فتح مكة - «الهِجْرَة، جِهَاد
وَنِيَّة وَإِذَا اسْتَفْرَغْتُمْ فَاغْفِرُوا، وَقَالَ يَوْمَ الْفَتْحِ - فَتْحُ مَكَّةَ - «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ
يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَعْصِدُ
شَوْكَةً، وَلَا يَنْفِرُ صَيْدُهُ، وَلَا يُلْتَقِظُ، إِلَّا مِنْ عَرْفِهِ، وَلَا يَخْتَلِي خِلَالَهَا، فَقَالَ الْعَبَّاسُ:
يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا الْأَذْخَرُ، فَإِنَّهُ لَقَيْنَهُمْ وَلَبِيتُهُمْ، فَقَالَ: إِلَّا الْأَذْخَرُ^(٩١).

وروى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي الزبير عن جابر قال سمعت النبي
ﷺ، يقول: لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح^(٩٢).

وعن أبي هريرة قال: لما فتح الله عز وجل على رسول الله ﷺ، مكة، قام في
الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها
رسوله والمؤمنين، وإنها أحلت لي ساعة من نهار، وإنها لن تخل لأحد

(٨٩) صحيح البخاري ١٧/٣ - ١٨.

(٩٠) صحيح البخاري ٢١٦/٢ - ٢١٧.

(٩١) صحيح مسلم ١٢٣/٩ - ١٢٦.

(٩٢) صحيح مسلم ١٣٠/٩.

بعدي، فلا ينفر صيدها، ولا يختلي شوكتها، ولا تخل ساقطتها، إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يقدى، وإما أن يقتل، فقال العباس: إلا الأذخر يارسول الله، فإنما نجعله في قبورنا وبيوتنا، فقال رسول الله ﷺ: إلا الأذخر^(٩٣).

وفي زاد المعاد: فلما كان الغد من يوم الفتح، قام رسول الله ﷺ، في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال: يا أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرم بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يهل لأمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفلك فيها دماً، أو يعضد بها شجرة، فإن أحداً ترخص لقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم، وإنما حلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب^(٩٤).

وروى أبو داود في سننه عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: لما فتح الله تعالى على رسول الله ﷺ مكة، قام النبي ﷺ، فيهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنما أحلت لي ساعة من النهار، ثم هي حرم إلى يوم القيامة لا يعض شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تخل لقطتها، إلا لمنشد، فقال عباس أو قال: العباس: يارسول الله، إلا الأذخر، فإنه لقبورنا وبيوتنا، فقال رسول الله ﷺ: إلا الأذخر^(٩٥).

وروى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي الزبير عن جابر قال، قال رسول الله - ﷺ - «إن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت المدينة، ما بين لابتيها^(٩٦)، لا يقطع عضاهها، ولا يصاد صيدها^(٩٧).

(٩٣) صحيح مسلم ١٢٨/٩ - ١٢٩.

(٩٤) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد - تحقيق شعيب الأرنؤوط - الجزء الثالث من ٤١١ - ٤١٢ (بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) وأخرجه السلي ٢٠٣/٥ - ٢٠٦، مسند الإمام أحمد ٣١/٤ - ٣٢، والترمذي.

(٩٥) سنن أبي داود ٤٦٥/١ (ط المطبى - القاهرة ٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م).

(٩٦) اللابا (اللافا)، هي حرة فيها شيء مستطيل غير واسع، وهي على لبة حقل صغير بركابية، ولما لايتا المدينة فهما حرة وأقم والوردة حيث تحصر المدينة بينهما.

(٩٧) صحيح مسلم ١٣٦/٩.

وفي نيل الأوطار: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ - يوم فتح مكة - إن هذا البلد حرام، لا يعضد شوكه، ولا يختلي خلاه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته، إلا لمعرف، فقال العباس: إلا الأذخر، فإنه لا بد منه، فإنه للقيون والبيوت، فقال، إلا الأذخر^(٩٨).

وعن عطاء أن غلاما من قريش قتل حمامة من حمام مكة، فأمر ابن عباس أن يفدى عنه بشاة - رواه الشافعي وابن أبي شيبة والبيهقي^(٩٩).

وفي تهذيب الآثار بسنده عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل حرم مكة، فلم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، لا يختلي خلاليها، ولا يعضد شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تلتقط لقطتها، إلا لمعرف، قال العباس، إلا الأذخر، لصاغت لنا وقبورنا، قال: إلا الأذخر^(١٠٠).

(٥) حدود الحرم:

من البدهي - وقد أصبحت مكة حرما بأمر الله تعالى - أن تحدد حدود هذا الحرم، وهي - على أية حال - معروفة، وقد نصبت فيها حجارة تعرف باسم «أنصاب الحرم»، فما رواه حل، وما دونه حرم، وأول من نصب هذه الحجارة (أنصاب الحرم) سيلفا إبراهيم عليه السلام، دله على مواضعها جبريل، عليه

(٩٨) محمد بن علي الشوكاني: نيل الأوطار، شرح متقي الأخبار من أحاديث سيد الأخبار - الجزء الخامس ص ٢٤ (ط الكتب العلمية - بيروت).

(٩٩) نفس المرجع السابق ص ٢٥

(١٠٠) الإمام الطبري: تهذيب الآثار - مسند عبد الله بن عباس نخرج أحاديثه محمود محمد شاكر - السفر الأول ص ٧، وأنظر شرح الحديث ٨/١ - ٥٤ (ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م)، وأنظر أحاديث ٣٠/٥ - ٣١.

وقوله: «لا يعضد شوكه» أي لا يقطع، وقوله: «ولا يختلي خلاه» الحلا: هو الرطب من النبات واختلاؤه قطعه واحتشائه، وقوله: «إلا الأذخر» الأذخر: نبات معروف عند أهل مكة طيب الريح، له أصل متدفق وقضبان دفاق - ينبت في السهل والحر، وأهل مكة يسقون به البيوت بين الحشب ويسدون به الخلل بين اللغات في القبور (أنظر: نيل الأوطار ٢٤/٥ - ٢٥، تهذيب الآثار - مسند عبد الله بن عباس ٨/١ - ٥٤).

السلام، ثم حوُظ عليها بعد ذلك، قبل الإسلام، وبعده، وإلى الآن، وإلى الغد إن شاء الله.

وتروى المراجع أن أنصاب الحرم، إنما قد جددت، بعد إبراهيم، فى عهد ولده إسماعيل عليهم السلام، ثم فى عهد «قصى بن كلاب» (فى القرن الخامس الميلادى).

وفى عصر النبوة، أمر سيدنا رسول الله - ﷺ - «نسيم بن أسد الخزاعى» بتجديد أنصاب الحرم، يوم فتح مكة (٨ هـ = ٦٣٠ م)، ثم جددت فى عهد الفاروق عمر، رضى الله عنه (١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤ م)، فبعث أربعة كانوا يشتدون فى يواذيتها - فجددوا أنصاب الحرم، منهم مخزومة بن نوفل وأبو هود سعيد بن يربوع المخزومى، وحويطب بن عبد العزى، وأزهر بن عبد عوف - الزهرى - وهم من قريش، فجددوها.

وفى العام السادس والعشرين للهجرة (٦٤٥/٦٤٦ م) جدد ذو النورين عثمان بن عفان، رضى الله عنه (٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٦٤ - ٦٥٦ م) أنصاب الحرم وذلك عندما بعث «عبد الرحمن بن عوف» رضى الله عنه، على الحج، وأمره أن يجدد أنصاب الحرم، فبعث عبد الرحمن نفرا من قريش - منهم حويطب بن العزى، وعبد الرحمن بن أزهر، وكان سعيد بن يربوع قد ذهب بصره فى آخر خلافة عمر، وذهب بصر مخزومة بن نوفل فى خلافة عثمان، فكانوا يجددون أنصاب الحرم.

وفى العهد الأموى (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م) جددها عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م).

وفى العصر العباسى (١٣٢ - ٦٥٦ هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨ م) جددها الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م) فى عام ١٥٩ هـ (٧٧٦ م)، كما جددها «المقتدر بالله» (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)، وفى عام ٣٢٥ هـ (١٣٦ م) أمر «الراضى بالله» العباسى بعمارة العلمين - جهة التنعيم، وفى عام ٦١٦ م (١٢١٩ م) أمر «المظفر» صاحب أربيل بعمارة العلمين من جهة عرفة،

كما جددتها السلطان أحمد الأول العثماني في عام ١٠٢٢ هـ (١٦١٤).

ولما أخرج من جددتها فهو الملك عبد العزيز آل سعود (١٨٨٠ - ١٩٥٣ م) من جهة عرفة. هذا ومن الجدير بالإشارة، أن حدود الحرم الغربية والشرقية إنما تبعد عن الكعبة المشرفة ٢٠ كيلا، ومن الجنوب ١٣ كيلا، حيث الآكام التي تحف بوادي عرفة، ومن الشمال مسجد العمرة (مسجد السيدة عائشة على رأس وادي التنعيم، وعلى مبعدة ٨ كيلا من الكعبة المشرفة)، وهذا يعني أن حدود حرم مكة المكرمة، إنما هو ٨٨٢ كيلا مربعا تقريبا (١٠١).

(٦) أمان مكة:

قال الله تعالى: «إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا، وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، وَوَعَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا يَتَنَبَّئُ لِلطَّائِفِينَ وَالْمَاكِفِينَ وَالرَّكْعِ وَالسُّجُودِ، إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ، مِنْ أَمْنٍ مِنْهُمْ بِاللَّهِ يَوْمَ الْآخِرِ، وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا، ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (١٠٢).

والآيات الكريمة إنما تؤكد أن الله تعالى، إنما أراد أن يكون هذا البيت ماثبة يثوب إليها الناس جميعا، فلا يروعه أحد، بل يأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم، فهو ذاته آمن وطمأنينة وسلام (١٠٣).

ولقد أمروا أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، ومقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله - وهذا ما اختاره في تفسيره (١٠٤) - فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو

(١٠١) أنظر: الأزرقى: أخبار مكة ١٢٥/٢ - ١٣١، ٣٠٩/٢ محمد بيومي مهران: في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين - السيرة النبوية الشريفة ٢٦٠/١ (بيروت ١٩٩٠ م).

(١٠٢) سورة النقرة: آية ١٢٥ - ١٢٦، وأنظر: تفسير القرطبي ص ٤٩٦ - ٥٠٥، تفسير السفي ٧٣/١ - ٧٥، صفوة التفاسير ٩٢/١ - ٩٤، تفسير السعدي ٦٥/١ - ٦٦، تفسير الطبري ٢٥/٢ - ٥٦، تفسير المنار ٣٧٨/١، تفسير ابن كثير ٢٥٠/١ - ٢٥١.

(١٠٣) في ظلال القرآن ١١٣/١.

(١٠٤) اختلف المفسرون في المراد بمقام إبراهيم، فقيل هو المقام المعروف، وقيل هو الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء الكعبة، وقيل هو الحرم كله، وروى ابن عباس وعطاء أنه موافق الحج كلها، وقيل عرفة ومزدلفة والجمار، ومن عائشة رضي الله عنها: أن المقام كان زمان رسول الله ﷺ، وزمان أبي بكر، رضي الله عنه، ملتصقا بالبيت، ثم أخرجه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وقيل كان المقام عند البيت، فحوله رسول الله ﷺ إلى موضعه هذا (أنظر تفسير المنار ٣٧٩/١، تفسير ابن كثير ٢٥١/١ - ٢٥٤).

الأمر الطبيعي، الذي لا يثير اعتراضاً، وهو أول قبيلة يتوجه إليها المسلمون - ورثة إبراهيم بالإيمان والتوحيد الصحيح - بما أنه بيت لقصاده وعباده من المؤمنين، بيت الله، لا بيت أحد من الناس، وقد عهد الله - صاحب البيت - إلى عبدين من عباده صالحين، أن يقوموا بتطهيره وإعداده للطائفتين والعاكفين والركع السجود، - أي للحجاج الوافدين عليه، وأهله العاكفين فيه، والذين يصلون فيه ويركعون ويسجدون - فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكاً لهما، فيورث بالنسب عنهما، إنما كانا سادتين له بأمر ربهما، لإعداده.

ثم مرة أخرى يؤكد دعاء إبراهيم صفة الأمن للبيت وللبلد، ويدعو للمؤمنين من سكانه أن يبرزقهم الله من الثمرات^(١٠٥).

وعن أبي المالية في قوله تعالى «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً»، يقول: وأمناً من العدوان، وأن يجعل فيه السلام، وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يسيون.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فيه، فلا يعرض له، كما وصفه الله - في المائدة - «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس»، أي يدفع عنهم بسبب تعظيمها سوء^(١٠٦).

ولقد أكد الله تعالى الأمن للبلد الحرام، في سورتي القصص والعنكبوت^(١٠٧) - كما أشرنا من قبل -.

(٧) مكة في عهد إسماعيل وولده:

عاش إسماعيل - عليه السلام - بجوار بيت الله الحرام، وتزوج من امرأة مصرية، على رواية التواتر^(١٠٨)، ومن يمتيه على رواية الإخباريين^(١٠٩) وقد أنجب

(١٠٥) في ظلال القرآن ١١٣/١ - ١١٤.

(١٠٦) تفسير ابن كثير ٢٥١/١، وأنظر: تفسير القرطبي ص ٤٩٦ - ٤٩٧.

(١٠٧) سورة القصص: آية ٥٧، سورة العنكبوت: آية ٦٧.

(١٠٨) تكملة ٢١ - ٢١٠.

(١٠٩) ابن كثير ٢/١ - ١ - ١٩٣، تاريخ الطبري ٣١٤/١، ابن الأثير ٤/١ - ١ - ١٠٥، ١٢٥.

الأردني ٨٦/١، مروج الذهب ٢/٢ - ٢١، تاريخ ابن خلدون، للعارف ص ١٦.

من زوجته المصرية أو اليمنية - لست أدى على وجه التأكيد - أولاده إلاثني عشر، وهم - طبقا لرواية التوراة^(١١٠) - «بنايوت وقيدار وأدبيل وميسام ومشماع ودرمه ومسا وحدار وتيما ويطور ونافيش وقدمه» وقد نقلهم الأخباريون في كتبهم بشيء قليل أو كثير من التحريف^(١١١).

وأيا ما كان الأمر، فإن إسماعيل قد ظل - بعد إبراهيم - يدعو الناس إلى عبادة الله في مكة ومجاورتها، حتى إذا ما انتقل إلى جوار ربه الكريم قام بنوه من بعده على السلطة الزمنية في مكة، وعلى خدمة البيت الحرام غير أن «جرهم» - طبقا لرواية الاخباريين - سرعان ما تولت أمر البيت، وأبناء إسماعيل مع أخوالهم لا يرون أن ينازعوهم الأمر، لخزولتهم وقرابتهم وإعظاما للحرمة أن يكون بها بني أو قتال، إلى أن قدمت قبائل «الأزد» مهاجرة من اليمن، في فترة لانستطيع تحديدها على وجه اليقين، ونازعت واحدة من هذه القبائل (خزاعة) جرهم أمر البيت، حتى استولت عليه وطردت جرهم من مكة، ولم يلبث أبناء إسماعيل أن انتشروا في أنحاء شبه الجزيرة العربية، وخاصة في شمالها، وليست أسماء القبائل التي نسب إلى إسماعيل، إلا أسماء أبنائه أو أحفادهم^(١١٢).

وتاريخ بني إسماعيل من هذه الفترة، وحتى عهد قصي، غامض غموضا شديدا، ولا يعرف حتى المؤرخون العرب كيف يملأون فراغ هذه القرون المتطاولة، ولا تبرز شمسهم - مشبعة بالغيوم - فوق أفق التاريخ الحقيقي - إلا من عهد قصي في منتصف القرن الخامس الميلادي، على أن هذا لا يمنعنا أن نذكر - طبقا لروايات الاخباريين - أنهم هم الذين قاموا على الحكومة والبيت في مكة،

(١١٠) تكوين ٢٥: ١٤ - ١٦.

(١١١) ابن الأثير ١٢٥/١، تاريخ الطبری ٣١٤/١، ابن كثير ١٩٣/١، مروج الذهب ٢١/١ - ٢٢، تاريخ ابن خلدون ٣٩/٢، الأخبار الطوال ص ٩، تاريخ الخميس ١١١، جمهرة أساب العرب ص ٧، ٩ - ١٥، شفاء الغرام ١٧/٢ - ١٨.

(١١٢) مروج الذهب ٢٢/٢ - ٢٤، الأخبار الطوال ص ٩ - ١٠، صبح الأعشى ٣١٥/١، العقد الشمسي ١٣١/١ - ١٣٢، تاريخ الخميس ص ١٢٤ - ١٢٦، أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدنية في الجاهلية وعصر الرسول ص ١٠١، مبروك مافع، المرجع السابق ص ١٣٢، ابن هشام ١٢٥/١.

الخليل، عليهما السلام^(١١٦)، وإلى هذا يشير الحديث الشريف «اختار الله من ولد إسماعيل كنانة، واختار قريشا من كنانة، واختار بنى هاشم من قريش، واختارني من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار^(١١٧)» وفي رواية مسلم في صحيحه (٣٦/١٥): «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم».

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن قصياً إنما هو أول رئيس من رؤساء مكة يمكننا الحديث عنه، دون أن يخالفنا رب فيما نقول، فالرجل قد خلّد ذكره في التاريخ بأعماله العظيمة في مكة، رغم رب المرتابين، والرجل قد أوجد من النظم في تنظيم الحج إلى بيت الله الحرام، ما بقى بعده مئات السنين، والرجل هو الذي جعل البلد الحرام خالصاً لأهله من بنى كنانة من ولد إسماعيل، عليه السلام، بعد أن أبعد عنه المفتصبين من خزاعة.

وقد قام قصي بعدة إصلاحات في مكة، فبعد أن جمع القرشيين المبعثرين في نواحي متعددة إلى وادي مكة، جعل لكل بطن حياً خاصاً به على مقربة من الكعبة، حتى تكون منازل القوم بجوار البيت الحرام، فيتعهدونه بالصيانة، ويدفعون عنه الخطر، ومن ثم فإنه لم يترك بين الكعبة والبيوت التي بنتها بطون قريش، إلا بمقدار ما يسمح للناس بالطواف، وإن كان أهم أعماله إنما هو إنشاء «دار الندوة»، حيث كان يدار فيها - تحت رياسته، كل أمر قريش - وما أرادوه من حرب أو تجارة أو مشورة أو نكاح - فما كان لرجل ولا لأمراة أن يتزوج إلا فيها، وما كان لفتاة من قريش أن تدرع إلا فيها، ومن ثم فقد كان على صاحب الدار أن يشق درعها بيده، وكان القوم يفعلون ذلك بيناتهم إذا بلغن الحطم، وربما كان الغرض من ذلك التعريف بالبالغين من قريش - ذكوراً كانوا أم إناثاً - وأما

(١١٦) تاريخ الطبري ٢٥٤/٢ - ٢٧٥، ابن الأثير ١٨/٢ - ٣٣، ابن خلدون ٢/٢٩٨، تاريخ الاسلام للذهبي ١٧/١، الاشتقاق ٢٠/١ - ٣٢، الاكليل ١١٠/١ - ١١٦، أنصار الزمان للمسموعي ص ١٠٤، الفلستندى: نهاية الأرب في معرفة أساب العرب ص ٢٣ - ٢٥ (القاهرة ١٩٥٣)، المعارف ص ٢٩ - ٣٢، الزبيرى: كتاب نسب قريش، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٣-١٤

(١١٧) ابن كثير. البداية والنهاية ٢٠٢/٢، وانظر: اللوالب للتسلطاني ١٣/١.

الخليل، عليهما السلام^(١١٦)، وإلى هذا يشير الحديث الشريف «اختار الله من ولد إسماعيل كنانة، واختار قريشا من كنانة، واختار بنى هاشم من قريش، واختارني من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار»^(١١٧) وفي رواية مسلم في صحيحه (٣٦/١٥): «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم».

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن قصياً إنما هو أول رئيس من رؤساء مكة يمكننا الحديث عنه، دون أن يخالفنا ريب فيما نقول، فالرجل قد خلد ذكره في التاريخ بأعماله العظيمة في مكة، رغم ريب المرتابين، والرجل قد أوجد من النظم في تنظيم الحج إلى بيت الله الحرام، ما بقى بعده مشات السنين، والرجل هو الذي جعل البلد الحرام خالصاً لأهله من بنى كنانة من ولد إسماعيل، عليه السلام، بعد أن أبعد عنه المفتصبين من خزاعة.

وقد قام قصي بعدة إصلاحات في مكة، فبعد أن جمع القرشيين المبعثرين في نواحي متعددة إلى وادي مكة، جعل لكل بطن حياً خاصاً به على مقربة من الكعبة، حتى تكون منازل القوم بجوار البيت الحرام، فيتعهدونه بالصيانة، ويدفعون عنه الخطر، ومن ثم فإنه لم يترك بين الكعبة والبيوت التي بنتها بطون قريش، إلا بمقدار ما يسمح للناس بالطواف، وإن كان أهم أعماله إنما هو إنشاؤه «دار الندوة»، حيث كان يدار فيها - تحت رياسته، كل أمر قريش - وما أرادوه من حرب أو تجارة أو مشورة أو نكاح - فما كان لرجل ولا لأمراة أن يتزوج إلا فيها، وما كان لفتاة من قريش أن تدرع إلا فيها، ومن ثم فقد كان على صاحب الدار أن يشق درعها بيده، وكان القوم يفعلون ذلك بيناتهم إذا بلغن الحلم، وربما كان الغرض من ذلك التعريف بالبالغين من قريش - ذكوراً كانوا أم إناثاً - وأما

(١١٦) تاريخ الطبري ٢/٢٥٤ - ٢٧٥، ابن الأثير ٢/١٨ - ٣٣، ابن خلدون ٢/٢٩٨، تاريخ الإسلام للذهبي ١/١٧، الاشتقاق ١/٢٠ - ٣٢، الأكليل ١/١١٠ - ١١٦، أثمار الزمان للمسمودي ص ١٠٤، الفلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص ٢٣ - ٢٥ (القاهرة ١٩٥٣)، المعارف ص ٢٩ - ٣٢، الزهري: كتاب نسب قريش، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٣-١٤.

(١١٧) ابن كثير: البداية والنهاية ٢/٢٠٢، وانظر: المولعب للتسلاطي ١/١٣١.

أعضاء دار الندوة هذه، فكانوا جميع ولد قصي، وبعضاً من غيرهم، على شريطة أن يكون الواحد منهم قد بلغ الأربعين من عمره، أو كان من ذوى القدرات الخاصة^(١١٨)، وهكذا كانت دار الندوة بمثابة دار مشورة ودار حكومة في آن واحد، يديرها الملأ من القوم - الذين كانوا يشبهون إلى حد ما أعضاء مجلس الشيوخ الأثيني^(١١٩) - ويتكونون من رؤساء العشائر وأصحاب الرأي والحكمة فيهم، للنظر فيما يعترض للقوم من صعاب^(١٢٠).

ركان قصي شديد العناية بالبית الحرام، حتى ذهب البعض إلى أنه أعاد بناءه، ومن ثم فإن قصياً إنما هو أول من جدد بناء الكعبة من قريش ثم سقفها بخشب الدوم، وجريد النخل.

ويشير الأزرقى إلى استعانة قصي بأخيه لأمه «زراح بن ربيعة»، وهو ييلاد قومه «بنى عذرة» من قضاة، وأن قصياً - وقد انتصر على أعدائه من خزاعة، وأصبح سيد المدينة المقدمة - إنما قال في ذلك شعراً يشكر فيه لأخيه «زراح بن ربيعة»:

أنا ابن المعاصمين بنى لؤى	بمكة مولدى وبها ربيت
ولى البطحاء قد علمت معد	ومروتها رضىت بها رضىت
وفيهما كانت الآباء قبلى	فما شويت أخى ولا شويت
فلست لغالب إن لم تأئل	بها أولاد قيس والنبيت
زراح ناصبرى وبه أسامى	فلست أخاف ضيماً ما حيت ^(١٢٠)

(١١٨) عبد الحميد العبادى: المرجع السابق ص ٨ - ٩، الأغاني ٤ / ٢٨٤، الألويسى ١ / ٢٤٨، ابن هشام ١ / ١٣٤ - ١٣٦ (مكتبة الجمهورية بمصر)، ابن سعد ١ / ٣٩ - ٤٠، المقدسى ٤ / ١٢٧، الأزرقى ١ / ٢٠٧ - ٢٠٩، ياقوت ٥ / ١٨٦ - ١٨٧، تاريخ الطبرى ٢ / ٢٥٧ - ٢٥٩، تاريخ يعقوبى ١ / ٢٤٠، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٢٣٥، أساب العرب للبلاذرى ١ / ٥٢، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٤٣٠٠، شفاء الغرام ٢ / ٨٦ - ٨٧، الإشتقاق ١ / ١٥٥، تاريخ مكة ص ٤٥، حياة محمد ص ١١١، أحمد إبراهيم: المرجع السابق، ص ١١٥.

P. K. Hitti, op. cit., p. 104.

(119) W. M. Watt, op. cit., p. 9.

De Lacy O'Leary, op. cit., p. 183.

(١٢٠) جراد على ٤ / ٤٧، وكذلك:

هذا وقد نص الشعر العربي الجاهلي على بناء «جرهم للبيت الحرام» ومن ذلك قول «زهير بن أبي سلمى المزني» (ت. ٦٠٩ م) في معلقته:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم (١٢١)
وقول الأعشى (ميمون بن قيس ت. ٦٢٩ م):

فباني وثوبى راعب اللج والتي بناها قصى والمضاض بن جرهم (١٢٢)
وقول الأستاذ الأنصاري: ولما كانت «الواو» في اللغة العربية حرف عطف، لا يقتضى الترتيب الزمني فيما عطف بها، وعليه فتقديم «قريش» و «قصى» في البيتين على «جرهم»، ليس معناه أن بناء قريش وقصى - الذي نرى أن المعنى به بناء قريش - هو سابق في الزمن لبناء جرهم، فإن الأمر بالعكس من ذلك، كما هو معلوم ومعروف، بالبداية من التاريخ (١٢٣).

وكان قصى أول من أظهر «الحجر الأسود» وجريد النخل، كما كان أول من أظهر الحجر الأسود بعد أن دفتته «إياد» في جبال مكة، ثم أوكّل أمره من بعده إلى جماعة من قريش، حتى أعاد القوم بناء الكعبة في عام ٦٠٦ م (١٥ ق. هـ)، فوضعوه في ركن البيت بإزاء باب الكعبة في آخر الركن الشرقي، ويحدثنا التاريخ أن القوم كادوا يقتتلون على من يحوز شرف إعادة الحجر الأسود إلى مكانه، لولا حكمة سيد الأولين وآخرين - محمد ﷺ - وذلك بأن وضع الحجر في ثوب، ثم أمر بأن تأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم رفعوه جميعاً، فلما بلغوا موضعه، وضعه بيده الشريفة، ثم بنى عليه (١٢٤).

(١٢١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١٤.

(١٢٢) ديوان الأعشى، ص ١٥.

(١٢٣) عبد القدوس الأنصاري: الكعبة (الجزيرة العربية قبل الإسلام، الرياض، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م).

(١٢٤) مروج الذهب ٢/ ٢٧٢ - ٢٧٣، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ٢٥ - ٢٦، تاريخ الطبری ٢/ ٢٨٨ - ٢٩٠، ابن كثير ٢/ ٢٩٩ - ٣٠٤، ابن الأثير ٢/ ٤٤ - ٤٥، ياقوت ٤/ ٤٣٦٦، ابن هشام ١/ ١٩٩ - ٢٠٠، الأزرقى ١/ ١٥٧ - ١٦٤، تاريخ الخلفاء، ص ١٢٦ - ١٣١، للقدسي ١/ ١٤٠، ابن سعد ١/ ٩٣ - ٩٥، تفسير القرطبي ٢/ ١٢٢ - ١٢٣، هيكّل: حياة محمد، ص ١٤١ - ١٤٢.

ولعل من أهم أعمال قصى أنه جعل وظيفة «سدانة الكعبة» - وهي خدمة البيت الحرام - من أهم الوظائف في عهده، والأمر كذلك بالنسبة إلى وظيفة «السقاية»، بخاصة في بلد شحت مياهه في وقت كان يستقبل فيه أكثر مما يطيق من الحجيج، ومن ثم فقد كان على صاحب السقاية توفير المياه لزوار بيت الله الحرام، حتى يسر لهم مهمة الحج، ويجعل الإقبال عليه كبيراً، ومن ثم يذهب الاخباريون إلى أن قصياً قد حفر بئراً سماها «المجول»، وكانت «الرفادة» - وهي خرج تدفعه قريش من أموالها إلى قصى ليصنع منه طعاماً للحجاج ممن لم يكونوا على ميسرة - من الوظائف الهامة التي ظهرت في مكة على أيام قصى، وتروى المصادر العربية أن قصياً قال لقومه: «إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وأن الحاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشرباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم»، ففعلوا فكانوا يخرجون من أموالهم فيصنع به الطعام أيام «منى»، فجرى الأمر على ذلك في الجاهلية والإسلام، وأخيراً كان من أعمال قصى «اللواء» - وهو رئاسة الجيش في الحروب - ويسند لمن بيده اللواء، يسلمونه إليه عند قيام الحرب (١٢٥).

ويجمع المؤرخون على أن قصياً إنما ظل يمسك بهذه الوظائف جميعاً حتى وفاته، كما ظل كذلك الرجل الوقور المطاع في قومه، لا يخالف، ولا يرد عليه شيء أقرب، ولعله في جمعه لرئاسة دار الندوة وعقده اللواء وجمعه الرفادة، يقابل في اصطلاحاتنا الحديثة، رئاسة السلطات التشريعية والحربية والمالية - إن جاز هذا التعبير (١٢٦).

ولعل هذا هو الذى دفع «الأب هنرى لامانس» إلى القول، بأن مكة إنما

(١٢٥) ابن الأثير ٢/ ٢١ - ٢٣، الطبرى ٢/ ٢٥٨ - ٢٦٠، ابن هشام ١/ ١٢٤ - ١٤٠، باقوت

١٨٧٦/ ٥، ابن سعد ١/ ٤١، البلاذرى ١/ ٥١، ابن خلدون ٢/ ٢٣٥، المحققين ١/ ٢٤٠

- ٢٤٢، الأزدى ١/ ٦٢، ١٢٧.

(١٢٦) محمد مبروك نافع: المرحع السابق، ص ١٣٩.

كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية، وقد يكون لشخصية «قصي» الفذة تأثيره في ذلك، إلا أن تنظيمات قريش لم تكن في واقع الأمر، إلا تنظيمات قبلياً في جرمه، وإن بدا في ظاهره تنظيماتاً جمهورياً، لأن الزعيم لم يكن يحمل لقباً معيناً، فضلاً عن أن هناك من الأدلة ما يشير إلى أن العشيرة إنما كانت تتمتع بحرية كاملة، ولا تخضع لسلطان غيرها في كثير من الأحيان، بل إن كثيراً من الأفراد إنما كانوا يخرجون على رأى العشيرة نفسها، ومن النوع الأول عدم مشاركة بنى زهرة لقريش في موقعة بدر، رغم موافقتها على القتال وخروجها إليه، بل إن بنى عدى لم يخرجوا للقتال أصلاً، ومن النوع الثاني خروج أبى لهب على رأى بنى هاشم، وانضمامه إلى بقية بطون قريش في مقاطعتها لبني هاشم، وبقاء العباس على علاقاته الودية ببطون قريش. رغم تضامته مع بنى هاشم، هذا إلى جانب أن العشيرة إنما كانت تخرج أحياناً على رأى مجلس القبيلة، ومثال ذلك اجتماع بنى هاشم والمطلب على حماية المصطفى - ﷺ - ومواجهة قريش (١٢٧).

ويرى الدكتور طه حسين - يرحمه الله - أنه من العسير أن نحدد لمكة نظاماً من نظم الحكم التي يعرفها الناس، فلم يكن لها ملك، ولم تكن جمهورية أرستقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة، ولم تكن جمهورية ديمقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة أيضاً، ولم يكن لها طاغية يدير أمورها على رغمها، وإنما كانت قبيلة عربية احتفظت بكثير من خصائص القبائل البادية، فهي منقسمة إلى أحياء وبنون وفصول، والتنافس بين هذه جميعاً قد يشتد حيناً ويلين حيناً آخر، ولكنه لا يصل إلى الخصومات الدامية، كما هو الحال في البادية، وأمور الحكم، تجري كما تجري في البادية، وكل ما وصلت إليه قريش من التطور في شؤون

(١٢٧) أحمد إبراهيم الشريم: المرجع السابق، ص ١١٢ - ١١٣، ابن هشام ١/ ٣٦٥، الطبري ٢/ ٣٢٣ - ٣٢٨، ٤٢٩، ٤٣٨، ٤٤٣، ابن الأثير ٢/ ٨٧، ١٧، ١٢١، ابن كثير ٣/ ٨٤ - ٨٨، ٢٥٧، ٢٦٦، وكذا.

H. Lammens, La Republique Marchand de la Mecque.

الحكم هو أنها لم يكن لها سيد أو شيخ يرجع إليه فيما يشكل من الأمر، وإنما كان لها سادة أو شيوخ يلتزم منها مجلس في المسجد الحرام، أو في دار البدوة (١٢٨).

ويذهب الدكتور الأنصاري إلى أن أقرب مسمى ينطبق على مكة المكرمة لعله المسمى الذي كان معروفاً منذ القدم، وهو «ممالك المدن»، وإن كانت قريش لم تأخذ بمميزات هذه الممالك، إلا أن ما قام به «قصي» من تنظيمات تجعلنا نعتقد أن تأثير التنظيمات السياسية في بلاد الشام، إنما كان واضحاً فيها، ومن المعروف أن قصياً إنما قد عاد يافعاً من أطراف بلاد الشام، فلعله شاهد فيها تنظيمات المدن (١٢٩)، ووجد مكة مهيأة لذلك، ووجد في قريش عنصراً مساعداً على تفهم الأهداف التي يرمى إليها، وإن كان الأمر أصبح وراثياً، فيما وزعه بين أبنائه من سلطات وأعمال كلفوا بها.

وأما أقدم ذكر لقريش في النصوص العربية الجنوبية القديمة، فربما كان - كما أشرنا من قبل - يرجع إلى أيام الملك الحضرمي «العزيط»، والذي حكم في القرن الأول قبل الميلاد على رأي، وفي القرن الثالث الميلادي على رأي آخر (١٣٠)، فهناك ما يشير إلى أن عشر نساء قرشيات رافقن الملك «العزيط» إلى حصن «أنو»، فإذا كان النص يعني حقاً قريشاً، قريش صاحبة مكة، فإننا نكون وقفنا لأول مرة على اسم قريش في وثيقة ملونة من عصر هذا الملك (١٣١).

(١٢٨) طه حسين: مرآة الإسلام، ص ٢٢.

(١٢٩) فؤاد حسين. المرجع السابق، ص ٢٧٤ - ٢٧٩، وكذا:

H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., p. 114.

BASOR, 119, p. 14.

وكذا:

(١٣٠) حراد علي ١٢ / ١٤٥، وكذا:

Le Museon. 1964, 3 - 4, p. 484.

(٩) بنو هاشم:

وأياً ما كان الأمر، فلقد أنجب قصى ثلاثة أبناء - عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى - ورغم أن عبد الدار كان أكبر أخوته، إلا أن عبد مناف كان أكثر شهرة، وأرفع شأنًا، وأعظم مهابة، ومن ثم فقد رأى قصى أن يعوض عبد الدار عما فقده من مقومات الزعامة، فأسند إليه كثيراً من الوظائف ليقاوم شخصية أخيه القوية، وتسعى الأبنام ويورث الأبناء الآباء، ويقوم النزاع بينهم، حتى ينتهى آخر الأمر، بأن يتولى عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة (مفاتيح الكعبة) واللواء ورياسة دار الندوة لبنى عبد الدار (١٣٢).

ويتولى هاشم السقاية والرفادة بعد أبيه عبد مناف، ويروى المؤرخون أنه كان غياث قومه فى عام الهجرة، فرحل إلى فلسطين حيث اشترى كميات من الدقيق وقدم بها إلى مكة، فبذل طعامه لكل نازل بالبلك المقدس أو وارد عليه، وسمى بالهاشم من ذلك اليوم لهشمه الشريد ودعوة الجياح إلى قصاعه بدلاً من اسمه الأصلي عسرو، وما يروى عنه كذلك أنه أول من سن الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء والصيف، وحقيقة ذلك فيما يخلص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يحمى تلك الرحلات وينظمها، فنسب إليه أنه أول من سنها (١٣٣).

هذا بالإضافة إلى أن الرجل العظيم قد عقد بنفسه مع الامبراطورية الرومانية، ومع أمير غسان، معاهدة حسن جوار ومودة، وحصل من الامبراطور الرومانى على

(١٣٢) ابن الأثير ٢/ ٢١٢، تاريخ الطبرى ٢/ ٢٥٥، ٢٥٩، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٣٥-٣٣٦، تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٤١، تاريخ الكعبة المعظمة، ص ٢٨٤، ابن سعد ١/ ٤١ - ٤٢، المهيرو، ص ١٦٦، المعارف، ص ٦٠٤، أنساب الأشراف ١/ ٦٠، العقد النحس ١/ ١٤٨، شعاع الثغرام ٢/ ٧٥ - ٧٦، ٨٧، نسب قريش ص ١٤، باقوت ٥/ ١٨٧، جمهرة أنساب العرب، ص ١٤. نهاية الأرب ١/ ٢٤٨، الأزرقي ١/ ١٠٩ - ١١٠.

(١٣٣) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٥١ - ٢٥٢، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٣٦ - ٣٣٧، تاريخ الكعبة المعظمة، ص ٢٨٥ - ٢٨٦، ابن هشام ١/ ١٤٥ - ١٤٦، أنساب الأشراف ١/ ٥٨، الاشتقاق ١/ ١٣، المقدسى ٤/ ١٢٨ - ١٢٩، ابن سعد ١/ ٤٣ - ٤٤، ذيل الأمالي والبرادر ص ١٩٩ - ٢٠٠، حياة محمد ص ١١٢، العقاد. المرحع السابق، ص ٢٠، الأزرقي ١/ ١١١، تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٤٢ - ٢٤٣، صبيح الأعشى ١/ ٢٥٨، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٣٩٥، العقد النحس ١/ ١٤٨، بلوغ الأرب ٢/ ٢٨٤، شعاع الثغرام ٢/ ٧٧، ٨٨.

الإذن لقريش بأن تجوب الشام في أمن وطمأنينة، كما عقد نوفل والمطلب حلفاً مع فارس، ومعاودة تجارية مع الحميريين في اليمن (١٣٤).

ويذهب الاخباريون إلى أن هاشماً وعبد شمس نؤمان، وأن أحدهما ولد قبل الآخر وأصبح له ملئصة بجبهة صاحبه، فنحيت فسال الدم، فقبل يكون بينهما دم، ومن ثم فإنهم يرون أن أمية بن عبد شمس قد حسد هاشماً على رياسته وإطعامه، فتكلف أن يصنع مثله، ولكنه قد عجز، ومن ثم فقد شمت به ناس من قريش، وتنافر هو وهاشم، وانتهى الأمر بجلاء أمية ع. مكة عشر سنين، فكان ذلك أول خلاف بين بني هاشم وبني أمية (١٣٥).

وفي الواقع - كما يقول الأستاذ العقاد - فلقد كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية ووسامة، وكان بنو أمية أصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء، ويتعقد الإجماع - أو ما يشبه الإجماع - على أخبار الجاهلية التي تتم على هذه الخصال في الأسرتين، وبقي الكثير منها إلى ما بعد قيام الدولة الأموية فلم يفتندوه (١٣٦).

وهناك ما يشير إلى أن المتنازعات بين البيتين - الهاشمي والأموي - قد استمرت، وذلك أمر لا غرابة فيه، فالبيتان - فيما نظن - على طرفي تقيض، وربما خفي السبب الذي يرجع إليه هذا الفارق بين الأسرتين، فقد يرى بعضهم أنه يرجع إلى النسب المدخول، وقد رمى الأمويون الأوثال بشبهات كثيرة عمود

(١٣٤) تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٤٢ - ٢٤٣، تفسير الفجر الرازي ١/ ٣١، ١٨٠، نمار القلوب للثعالبي ص ١١٥ - ١١٦، ذيل الأمل والتوادر، ص ١٩٩، حياة محمد ص ١١٥، وكذا:

L. Caetani, Annali dell'Islam, 1905, p. 109.

(١٣٥) ابن الأثير ١/ ١٦ - ١٧، تاريخ الطبري ١٢/ ٢٥٢ - ٢٥٤، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٤٢، ابن سعد ١/ ٤٤، ٥٢، شفاء العرق ١/ ٢١، ٨٥، نسب قريش ص ١٤، بلوغ الأرب ١/ ٢٨٣ - ٢٨٤، نهاية الأرب ١/ ٣٠٧ - ٣٠٨، للقرنبي: كتاب النزاع والشخص فوما بين بني أمية وبني هاشم ص ٢، ٧، حوادث على ١/ ٧١ - ٧٢، عبد المنعم ماحد: المرجع السابق ١/ ١٠٣ - ١٠٤، قارن: تفسير للشار ١/ ٩٧.

(١٣٦) العقاد: مطلق النور، ص ١١٨.

النسب، وعرض لهم بذلك أناس من ذوى قرباهم فى صدر الإسلام، وأشهر ما اشتهر من هذه الشبهات قصة «ذكوان» الذى يقولون أنه من آبائهم، ويقول النسابون أنه عبد مستلحق على غير سنة العرب فى الجاهلية.

فلقد روى «الهيثم بن عدى» فى كتاب «المثالب» أن «دغفلا» النسابة دخل على معاوية بن أبى سفيان - وهو خليفة - فقال له معاوية: من رأيت من عليّ قريش؟ فقال: رأيت عبد المطلب بن هاشم، وأمّية بن عبد شمس قال: فصّف أمّية، قال: رأيت شيخاً قصيراً، نحيف الجسم، ضريباً يقوده عبده «ذكوان»، فقال: مه، ذاك ابنه أبو عمرو، فقال: هذا شئ قلتموه وأحدثتموه، أما الذى عرفت، فهو الذى أخبرتك (١٣٧).

وفى العقد الفريد، «قيل للإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه، وكرم الله وجهه فى الجنة - أخبرنا عنكم وعن بنى أمّية، فقال: بنو أمّية أغدر وأمكر وأفجر، ونحن أصبح وأفصح وأسمح».

وعلى أى حال، وأياً ما كان سر هذا الفارق البين، فلقد كان بنو هاشم - أسرة النبى ﷺ - أصحاب رثامة، وكانت لهم أخلاق رثامة، عرفوا بالنبل والكرم والهمة والوفاء والعفة، وبرزت كل خليقة من هذه الخلائق فى حادثة ماثورة مذكورة، فلم تكن خلائقهم هذه من مناقب الأماديج التى يتبرع بها الشعراء، أو من الكلمات التى ترسل لإرسالاً على الألسنة ولا يرد بها معناها.

ويبلغ هذا التنافر بين الأسرتين شأواً بعيداً، فيما بين عبد المطلب وحرب بن أمّية، إذ كان كلاهما نمطاً فى بابه، ويرى المؤرخون أن حرباً نافر عبد المطلب إلى نفيل جد عمر بن الخطاب - وإن رأى البعض أن المنافرة إنما كانت مع هاشم - وأن نفيلاً قد قضى فيها لعبد المطلب، وأنه خاطب حرباً قائلاً: «أتنافر

(١٣٧) انظر. العقد: مطلع البر، ص ١١٨ - ١٢٠، ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلى، القاهرة ١٩٦٢، ص ٣٢٢، الأعلى ١/ ١٢.

رجلاً هو أطول منك قامه، وأعظم منك هامة وأوسم منك وسامة، وأقل منك لامة، وأكثر منك ولداً، وأجزل منك صفداً، وأطول منك مذوداً (١٣٨).

وأما في الإسلام، فقد كان بنو أمية حجر عثرة في سبيل الدعوة الإسلامية وناصبوها العداء الشديد، إلا قليلاً منهم نحن ندهامهم الله للإسلام، وبعد هجرة الرسول - ﷺ - إلى المدينة المنورة، واشتباك المسلمين مع مشركي قريش، كان عتبة بن ربيعة بن عبد شمس قائد الجيش في غزوة بدر، وكان أبو سفيان قائد العير، وفي غزوتي أحد والأحزاب كان أبو سفيان قائداً للجيش، بل إن أبا سفيان، حتى بعد إسلامه يوم فتح مكة، فقد كان - وكذا ولده معاوية - من الطلقاء ومن المؤلفة قلوبهم، فضلاً عن أنه هو القاتل بعد اضطراب المسلمين في غزوة حنين والأزلام في كنانته «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر»، تعبيراً عما في نفسه من الضغن على الإسلام ورسول الإسلام (١٣٩).

هذا وقد تميز عهد عبد المطلب بأمر كبير هام، لعل أهمها: إعادة حفر زمزم، وحملة القيل على مكة، على أن أهم الأحداث من عهده دون منازع - ليس في تاريخ مكة فحسب، وإنما في تاريخ البشرية جمعاء - إنما كان مولد جدنا ومولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ - وبهذا كتب للرجل العظيم أن يكون جد سيد الأولين والآخرين، جد المصطفى ﷺ.

وعلى أية حال، فإن كتب السيرة إنما تروى أن عبد المطلب، إنما قد شرف
في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه، وعظم خطره فيهم حتى أنه

(١٣٨) العقاد: مطلع النور، ص ١١٨ - ١٢٠، وانظر: بلوغ الأرب ١/ ٢٠٧ - ٢٠٨، أعلام النبوة للمصنوعي، ص ١٢٨ (القاهرة ١٩٣٥)، عهد الفتاح شجاعه: تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام ٢/ ٢٤٩ - ٢٥٠.

(١٣٩) عبد الفتاح نعلان: المرجع السابق، ص ٢٥٠، ابن الأثير ١٢ / ١٢٤ - ١٢٤، ١٤٩، ١٧٨، ٢٦٣، ابن كثير ١٣ / ٢٦٩ - ٢٧٠، ١١ / ٤، ٩٥، ٣٢٧، تاريخ الطبري ١٢ / ٤٤٢ - ٤٤٣، ٥٠١، ٥٦٦، ١٣ / ٧٤، المعارف ص ٧٥، الخبير ص ٤٧٣، تفسير الطبري ١٤ / ٣١٣ (دار المعارف ١٩٥٨) نهاية الأرب للفيثندي ص ٧٩٨ (بمبدأ ١٩٥٨)، عبد الحميد ماجد: المرجع السابق، ص ١١٣، ١١٥ - ١١٧

كان يفرش له فراش حول الكعبة، فيجلس عليه، ويجتمع حوله رؤساء قريش، لا يجرؤ أحد على أن يجلس على فراشه، إلا النبي ﷺ (١٤٠).

وروى ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال: كان لعبد المطلب مفرش في الحجر يجلس عليه، لا يجلس عليه أحد غيره، وكان رؤساء قريش يجلسون حوله - دون المفرش - فجاء رسول الله ﷺ - وهو غلام لم يبلغ الحلم - فجلس، فجذبه رجل فبكى، فقال عبد المطلب: ما لابنى يبكى؟ قالوا: أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه، فقال عبد المطلب: دعوا ابني يجلس، فإنه يحس في نفسه الشرف، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لا يبلغه عربى - قبله ولا بعده - فكانوا بعد ذلك لا يردونه عنه حضر عبد المطلب أو غاب.

هذا وقد دلت شفاعية عبد المطلب على ما للنبي ﷺ من شأن عظيم، فأحبه حباً ما أحبه أحد مثله، وفي كل مناسبة كان يأخذ بيد ولده أبى طالب، ويضعها في يد حفيده محمد - ﷺ ويقول له: «يا أبا طالب سيكون لابنى هذا شأنًا، فاحفظه ولا تدع مكروهاً يصل إليه».

هذا وتروى كتب السيرة أيضاً أن عبد المطلب إنما كان مجاب الدعوة، وكان يقال له «القياض» لجوده، و«مطعم طير السماء»، لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال، كما كان من حلماء قريش وحكمائها.

وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغى، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن ذنوبهم الأمور، وكان يقول - كما في السيرة الحلبية - «لن يخرج من الدنيا ظلم حتى ينتقم منه، وتصيبه عقوبة، إلى أن هلك رجل من أهل الشام لم نصبه عقوبة، فقيل لعبد المطلب في ذلك ففكر ثم قال: والله إن وراء هذه الدار داراً يجرى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بأساعته».

هذا وقد رفض عبادة الأصنام - في آخر عمره على الأقل - وروى الله سبحانه وتعالى، وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها، وجاءت السنة بها، منها الوفاء

بالنذر، والمنع من نكاح المخارم، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل المؤرودة، وتخريم الخمر والزنا، وأن لا يطوف بالبيت عريان (١٤١).

وكان عبد المطلب - أو شعبة الحمد، وهذا اسمه الأصلي (١٤٢) - قوى الشخصية، عريض الجاه، مسموع الكلمة، روى أن رجلاً من «نميم» (١٤٣) تقدم حرب بن أمية، فقال له حرب: موعذك مكة، فبقى النميمي دهرًا، ثم أراد دخول مكة، وأخذ يبحث عن مجير له، فقبل له: لا يجيرك إلا عبد المطلب، فأتى ليلاً، ودخل دار الزبير بن عبيد المطلب بن هاشم - أول من دعا إلى حلف الفضول (١٤٤) - وأخبره القصة، فقال له الزبير: تقدم إلى المسجد، فإننا لا نتقدم من نجيره، فرآه حرب بن أمية، فقلطمه، فغدا عليه الزبير بالسيف، فأخذ حرب يعدو، حتى دخل دار عبد المطلب - والد الزبير - وقال له: أجزني من الزبير، فأكفا عليه جفنة كان أبوه هاشم يطعم الناس فيها، فبقى تحتها ساعة، ثم قال له عبد المطلب: أخرج، فقال حرب: كيف أخرج، وسبعة من ولدك قد اجتمعوا يسيرهم على الباب، فألقى عليه عبد المطلب رداءة، فعلم أنبأؤه أنه أجاره، ففترقوا.

والى هذه القصة أشار عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، حين دخل على معاوية بن أبي سفيان بن حرب في خلافته، وعنده وفود العرب، فذكر كلاماً عن حرب بن أمية، فقال له ابن عباس: «من أكفا عبيد المطلب إنباء، وأجاره بردائه، فسكت معاوية تماماً» (١٤٥).

وروى أن يهودياً - كان في جوار عبد المطلب - أغلظ القول لحرب بن أمية في سوق نهامة، فأعزى به من قتله، فلم يتركه عبد المطلب حتى أخذ منه مائة

(١٤١) انظر السير الحلبية ٦ / ١ - ٧.

(١٤٢) أساب الأشراف ١ / ٦٤ - ٦٥، ابن كثير، السيرة النبوية ١ / ١٨٤ - ١٨٥، سيرة ابن هشام ١ / ١٣٧ - ١٣٨، السيرة الحلبية ١ / ١٠ - ١١.

(١٤٣) نميم: قبيلة عربية في نجد، لها بطون كثيرة (كحالة)، مجمع قبائل العرب القديمة والحديثة ١ / ١٢٥ - ١٢٣.

(١٤٤) انظر: السيرة الحلبية ١ / ٢١١ - ٢١٥، ابن كثير، السيرة النبوية ١ / ٢٥٧ - ٢٦١.

(١٤٥) انظر: محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ١ / ٨٣.

ناقة، دفعها لابن عم اليهودي، الذي كان في جواره، ثم ترك منادمة حرب، ونادم عبد الله بن جدعان^(١٤٦).

هذا وقد تنازع العلماء في دين عبد المطلب، فذهب فريق إلى أنه كان على ملة إبراهيم - أي أنه لم يعبد الأصنام، على أن هناك وجهاً ثانياً للنظر، يذهب إلى أن الله أحياء - بعد حديث النبي - ﷺ - أنه من أصلاب الطاهرين وأرحام الطاهرات، دليل على أن آباء النبي - ﷺ - وأمهاته إلى آدم، ليس فيهم كافر، لأن الكافر لا يوصف بأنه طاهر، روى ابن الجوزي^(١٤٧) في الوفاء عن ابن عباس، أن رسول الله - ﷺ - قال: «لم يلتق أبواي قط على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة، مصفى مهذباً، ولا تشعب شعبتان، إلا كنت في خيرهما».

وعن أبي هريرة أنه ﷺ، قال: «ما ولدني بغي قط، منذ خرجت من صلب آدم، ولم تتنازعني الأم كائناً عن كائناً، حتى خرجت من أفضل حييين من العرب، هاشم وزهرة»، وفي هذا دليل على طهارة آباءه وأمهاته من الكفر.

وأورد «ابن عساكر» من حديث عاصم عن شعيب عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى «وتقلبك في الساجدين»^(١٤٨) قال: «من نبي إلى نبي، حتى أخرجت نبياً».

وروى البزار وابن أبي حاتم من طريقين عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: يعني قلبه من صلب نبي إلى صلب نبي، حتى أخرجه نبياً^(١٤٩).

وفي تفسير القرطبي: وقال ابن عباس: أي في أصلاب الأنبياء آدم ونوح

(١٤٦) انظر: أنساب الأشراف ١/ ٧٣ - ٧٤، السيرة الحلبية ١/ ٦، محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ١/ ٨٣.

(١٤٧) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي: الوفاء بأحوال المصطفى - الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٦.

(١٤٨) سورة الشعراء: آية ٢١٩.

(١٤٩) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٣.

وابراهيم حتى أخرجه نبياً (١٥٠).

هذا وقد حكم الإمام القرطبي أن من مات قبل البعثة - زمن الفترة - إنما يموت ناجياً، ولا يعذب، ويدخل الجنة (١٥١)، لقول الله تعالى «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» (١٥٢).

وقد طبقت الأئمة الأشاعرة من أهل الأصول، والشافعية من الفقهاء، على أن من مات، ولم تبلغه الدعوة، يموت ناجياً، ويدخل الجنة، ونص على ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه (١٥٠ - ٢٠٤ هـ - ٧٦٧ - ٨٢٠ م) في درته الفريدة «الأم» (١٥٣)، ومن ثم فإن عبد المطلب إنما كان مؤمناً، أو أنه لم يشرك بالله عز وجل.

وفي السيرة الحلبية، عن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، قال رسول الله - ﷺ - «يبعث جدى عبد المطلب فى زى الملوك، وأبهة الأشراف» (١٥٤).

على أن هناك وجهاً رابعاً للنظر إنما يذهب أصحابه إلى أن عبد المطلب إنما كان مشركاً - هو وغيره من آل النبي - ﷺ - إلا من صح إيمانه، وهذا أمر فيه تنازع بين الإمامية والمعتزلة والخوارج والمرجئة وغيرهم من الفرق فى النص والاختيار (١٥٥).

(١٥٠) تفسير القرطبي، ص ٤٨٦٠.

(١٥١) تفسير القرطبي، ص ٣٨٤٧ - ٣٨٤٨.

(١٥٢) سورة الإسراء: آية ١٥، وانظر تفسير ابن كثير ٤٧ / ٣ - ٥٤، تفسير النسفي ٢ / ٢٠٩، فى ظلال القرآن ٤ / ٢٢١٦، صفوة التفاسير ١٥٤ / ٢ تفسير القرطبي، ص ٣٨٤٧ - ٣٨٤٨.

(١٥٣) انظر: الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، - الأم - (كتاب الشعب - القاهرة ١٩٦٩، ٧ أجزاء).

(١٥٤) على بهمان الدين الحلبي: السيرة الحلبية (إنسان الميرون فى سيرة الأئمين للمؤمن) الجزء الأول، القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م، ص ١٨٤.

(١٥٥) انظر عن الآراء المختلفة فى عقيدة عبد المطلب (محمد يوسى بهران: فى رحاب النسي وآل بيت الطاهرين - السيرة السوية الشريفة - الجزء الأول، بيروت، ١٩٩٠، ص ٧٩ - ٨٦).

(١٠) مكانة مكة المكرمة:

أصبحت مكة منذ آل أمرها إلى قريش على أقدام قصى مركزاً للحياة الدينية في شبه الجزيرة العربية، تشد إليه الرحال، وتنشخص إليه الأبصار وفيها أكثر من كل جهة سواها، كانت ترمي الأشهر الحرم، بسبب وجود الكعبة المشرفة هناك، لذلك كله، ولمركزها الممتاز في تجارة العرب، كانت تعتبر وكأنها عاصمة شبه الجزيرة العربية.

وفي الواقع أنه رغم وجود «البيوت الحرم» في بلاد العرب، كبيت الأقيصر وبيت ذى الخلصة وبيت صنعاء وبيت نجران وغيرها من البيوت الحرم^(١٥٦)، فإن واحداً منها لم يجتمع له مثل ما اجتمع لبيت مكة، ذلك لأن مكة إنما كانت ملتقى القوافل بينَ الجنوب والشمال، وبين الشرق والغرب، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام، ومن يعود من الشام بتجارة يحملها إلى شواطئ الجنوب، وكانت القبائل تلوذ منها بمشاة مطروقة تتردد عليها، ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل في باديتها أو في رحلاتها، فليست مكة دولة كدولة التبابعة في اليمن، أو المناذرة في الحيرة، أو القساسنة في الشام - وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان، كسلطان الروم أو الفرس أو الأحباش، وراء الإمارات العربية المتفرقة على الشواطئ، أو بين بوادي الصحراء - وإنما كانت مكة بمشاة عبادة وتجارة، وليست في حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش ولا يبالى من عداه، وهي إن لم تكن كذلك من أقدم زمانها، فقد صارت إلى هذه الحالة بعد عهد جرهم والعماليق، الذين روى عنهم الرواة أنهم كانوا يعشرون كل ما دخلها من تجارة^(١٥٧).

وزاد من قيمة مكة، أن اليمن - بعد الاحتلال الحبشي في عام ٥٢٥هـ -

(١٥٦) أنظر: بالقصود ١/ ٢٣٨، ٣/ ٤٢٧، ٤/ ٣٩٤ - ٣٩٥، ٥/ ٢٦٨ - ٢٦٩، بلوغ الأرب

١/ ٣٤٦ - ٣٤٧، ٢/ ٢٠٢، ٢٠٧ - ٢٠٩، ١١٢، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٩٣.

الأصنام ص ٣٨، الفروض الألف ١/ ٦٦، الأغاني ٣/ ١٧٢

(١٥٧) المقادير، مطلع البور، ص ١١٢ - ١١٣

لم تنجح في سد الفراغ الذي تركته البحرية الرومية، ربما لظروف جغرافية أكثر منها سياسية، ومن ثم فقد أصبح الطريق البري - عبر تهامة والحجاز - هو الطريق الوحيد المفتوح أمام التجارة، وكان لابد - بعد زوال النشاط اليمني - أن يوجد من يسد هذا الفراغ ويقوم بدور الوسيط المحايد بين المتنازعين، لنقل التجارة، وقد وجد هذا الوسيط ممثلاً في مكة (١٥٨)، التي حظيت منذ منتصف القرن الخامس الميلادي بمكانة ممتازة بين عرب الشمال فضلاً عن طرفي الصراع الدولي (الفرس والروم) وقت ذاك، وساعد على ذلك رغبة الفريقين المتنافسين في وجود مثل هذا الوسيط المحايد من ناحية، وبعد مكة وصعوبة الوصول إليها من ناحية أخرى (١٥٩).

وهكذا كان موقع مكة الجغرافي سبباً في أن يجعل من المدينة المقدسة عقدة تتجمع فيها القوافل، التي ترد من العربية الجنوبية تريد الشام، أو القادمة من الشام تريد اليمن، حتى إذا ما كان القرن السادس الميلادي نجح القرشيون في احتكار التجارة في بلاد العرب، فضلاً عن السيطرة على طرق القوافل التي تربط اليمن بالشام من ناحية وبالعراق من ناحية أخرى (١٦٠).

وقد بلغت شهرة القرشيين في التجارة ومهارتهم فيها، إلى أن يذهب البعض إلى القول بأن «قرشياً» إنما سميت كذلك لاحترافها التجارة، لأن القرش إنما هو التجارة والاكتساب (١٦١)، وإلى أن تذكر رحلاتهم التجارية في القرآن الكريم،

(١٥٨) أحمد إبراهيم: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٥٤.

وكدًا. S. A. Huzayyin, Arabia and the Far East, p. 142 - 3.

وكدًا: E. Gibbon, op. cit., 5, p. 213.

(١٥٩) أنظر كتابها «دراسات تاريخية من القرآن الكريم»، الجزء الأول.

(160) W.M. Watt, Muohammed at Mecca, Oxford, 1963, p. 3.

(١٦١) ابن هشام ١/ ٦٠، باقوت ٤/ ٣٣٦، مجمع الأمثال ٢/ ٧٢، نهاية الأرب ص ٣٦٤ (بنداد

١٩٥٨)، فحسب الإسلام ص ١٣ - ١٤، تاريخ مكة، ص ٥٩، السلاوي ١/ ٥٩، راجع

تفسيرات أخرى في: باقوت ٤/ ٣٣٦ - ٣٣٧، تفسير روح المعاني ٣٠/ ٢٣٨ - ٢٣٩، تفسير

الفخر الرازي ٣٢/ ١٠٦

حيث يقول سبحانه وتعالى: «إبلان قريش، إبلانهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» (١٦٢).

هذا وقد كانت قوافل مكة أشبه بالحملات تكون بالآلاف الإبل، التي يقوم على حمايتها جيش خاص دعوة الأحابيش (١٦٣) لعلهم من العرب أو السودان، فكانت مكة أشبه بينك كبير، فلم تكن القوافل ملكاً لشخص واحد وإنما كانت هناك طريقة لجمع المال من عدة أسر معروفة، كهاشم وأمية ومخزوم ونوفل (١٦٤)، وقد أدى ذلك إلى تضخم أموال قريش، حتى بلغت قوافلهم التجارية في عهد غزوة بدر (١٦٥) ألف بعير، مضافاً إليها خمسون ألف دينار منقولة بين أنفالهم، بل إن رجلاً واحداً - هو سيد بن العاص (أبو أحيحة) - استطاع أن يسهم في رأس مالها بثلاثين ألف دينار، كما بلغت قوافلهم في بعض المرات ألفين وخمسمائة بعير، وهي نسبة لها قيمتها المادية. إذا قيست بالثروات في عهدها، هذا وقد بلغ ثراء قريش إلى أنها قد استطاعت في غزوة بدر أن تفتدي أسراها من المكيين

(١٦٢) سورة قريش، وانظر: تفسير القرطبي ٢٠٠ / ٢٠ - ٢٠٩ (دار الكتب المصرية)، تفسير الفهر

الرازي ١٠٣ / ٣٢ - ١١٠، تفسير البيضاوي ١٢ / ٥٧٧، تفسير الطبري ١٢٠ / ٣٠٥ - ٣٠٩

(طبعة الحلبي)، تفسير روح المعاني ٣٠ / ٢٢٨ - ٢٤١.

(١٦٣) انظر عن الأحابيش: تاج العروس ٤ / ١٣٠، ٩ / ٢٠٠، تاريخ الطبري ٢ / ٥٠١، تاريخ

اليعقوبي ١ / ٢٤١، تاريخ مكة ص ٥٢، نسب قريش ص ٢٨٩، ابن الأثير ٢ / ١٤٩، المعارف

ص ٣٠٢ - ٣٠٣، الصفحة ٢ / ١٩٤، اللسان ٦ / ٢٧٨، البلاذري ١ / ٥٢، ٧٦، المعبر ص

٢٤٦، ٢٦٧، العبادي، المرجع السابق، ص ١٢ - ١٣، حواد علي ٢ / ٣٠ - ٣٦.

(١٦٤) تاريخ الطبري ٢ / ٤٢١ - ٤٢٢، تاريخ ابن خلدون ٢ / ١٧، الطنقات الكبرى ١ / ٤٠، عبد

المنعم ماجد ١ / ٧٩، وكلاء:

Essad Bey, La Vie de Mahomet, p. 42.

(١٦٥) انظر عن غزوة بدر (يوم الجمعة ١٧ رمضان ٢ هـ = ١٤ مارس ٦٢٤م)، تاريخ الطبري

٢ / ٤٢١ - ٤٧٩، تاريخ ابن خلدون ٢ / ١٧ - ٢١، ابن الأثير ٢ / ١١٦ - ١٣٧، ابن كثير

٢ / ٢٥٦ - ٣٤٤، وفاء الوفا ١ / ١٩٦ - ١٩٧، ابن هشام ٢ / ٦٣ - ٤، المعارف ص ٧٥

- ٧٨، الأغاني ٤ / ١٧٦ - ٢٠٩، ياقوت ١ / ٣٥٧ - ٣٥٨، المعري ١ / ٢٤١ - ٢٣٢

تفسير الطبري ١٣ / ٤٠٩، ٤٤٣، ٥٧٨.

بأربعة آلاف درهم للرجل، إلى ألف درهم، إلا من عفا عنهم النبي - ﷺ - من المعدمين (١٦٦).

وعلى أى حال، فإن ظروف مكة السياسية والاقتصادية والجغرافية قد جعلت منها مدينة عربية لجميع العرب، فلم تكن كسروية أو قيصرية، ولا تبعية أو نجاشية، كما عساها أن تكون لو استقرت على مشارف الشام، أو عند تخوم الجنوب، ولهذا تمت لها الخصائص التي كانت لازمة لمن يقصدها، ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والإكراه (١٦٧).

وقد عملت قريش على توفير الأمن في منطقة مكة، وهو أمر ضروري في بيئة تغلب بالفنارات وطلب الثأر، حتى يكون البيت الحرام ملاذاً للناس وأمناء، وحتى يجد فيها من تضيق به الحياة، ويتعرض لطلب الثأر، الأمن والحماية، ولعل هذا هو السبب في أن تحافظ قريش على الأشهر الحرم في موسم الحج، حتى يأمن الناس فيه على أنفسهم وأموالهم، هذا فضلاً عن حركة اصلاح أخرى قامت بها قريش، مؤداها ألا تقرر بمكة ظلماً، سواء أكان من أهلها أم من سائر الناس، فعقدت من قبائلها ومع القبائل الأخر المجاورة حلفاً عرف «بحلف الفضول»، يروى المؤرخون أن قبائل من قريش تلتعبت إلى حلف، فاجتمع في دار «عبد الله بن جدعان» بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم، وتعاهدوا على أن لا يظلم بمكة غريب ولا قريب، ولا حر ولا عبد، وإلا كانوا معه يأخذون له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم، وعهدوا إلى ماء زمزم فجعلوه في حفة وبعثوا به إلى البيت الحرام فغسلت به أركانته وشربوه، ومن عجب أن الأمويين وبنو عبد شمس قد أبوا على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف، وقد روى عن رسول الله (ﷺ) أنه قال «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان

(١٦٦) أحمد السباعي: تاريخ مكة، ص ٣٦ - ٣٧. وانظر: الراقي: كتاب المغازي، ١٣٨/١ -

١٤٥ بيروت ١٩٨٤.

كندا. P K.Hitti. op.cit.,p 104.

(١٦٧) تلغداد. مطابع النور ص ١١٣.

حلفاً مما أحب أن لى به حمسر النعم، ولو ادعى به فى الإسلام لأجبت» (١٦٨).

وأم تكثف قريش بذلك، وإنما عملت على توفير الماء والطعام للحجيج فى منطقة يشع فيها الماء ويقل الطعام، ومن ثم فقد قامت بحفر الآبار فى منطقة مكة وأنشأت فيها أماكن للسقاية، ثم أوكلت سقاية الحاج إلى البطون القرية منها، وهكذا غدت سقاية الحاج - بحانب عمارة البيت وسدائه - عملاً يراه القوم فى قمة مفاخرهم وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد فى سبيل الله» (١٦٩).

وكان أمر ضيافة الحجيج عملاً لا يقل عن سقائهم، وقد أسندتها قريش إلى الأغنياء من رجالائها، لأن قدوم الحجاج من أماكن بعيدة من شبه الجزيرة العربية، يصعب معه حمل الزاد، ومن ثم فقد كانت الرفادة تكلف أصحابها الكثير من أموالهم، بجانب ما تقدمه قريش لهم، إلا أن هذا الأمر فى الوقت نفسه قد أفاد قريشاً كثيراً، إذ كانت المؤاكلة فى نظر العرب، إنما هى عقد حلف وجوار، فضلاً عن أن الضيافة فى ذاتها من أكبر ما يحمد الرجل عليه، وهكذا كانت قريش بعملها هذا، وكأنها تعقد حلفاً مع كل القبائل العربية، تحمى به تجارتها، وتسبغ على رجالائها نوعاً من التقدير والاحترام عند العرب، لا يتوفر لغيرهم (١٧٠).

(١٦٨) المقادير المرجع السابق، ص ١١٢. ١١٩، ابن هشام ١/ ١٤٣ - ١٤٥ (مكتبة الجمهورية بمصر)، المغير ص ١٦٧، المعارف ص ٢٩٤، ابن كثير ٢/ ٢٩١ - ٢٩٢، ابن الأثير ٢/ ٤١ - ٤٢، السيرة العلية ١/ ١٥٧، الروض الأنف ١/ ٩١، مسار القلوب للشمس ص ١٤١، تاريخ اليمقوى ١٧/ ٢ وما بعدها، عبد المنعم ماجد ١/ ٨٣، محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ١٣٥ (القاهرة ١٩٧١).

(١٦٩) سورة التوبة: آية ١٩، وانظر: تفسير الطبرى ١٤/ ١٦٨ - ١٧٣، تفسير المنار ١٠/ ٢١٥ - ٢٢٠، الكشاف ٢/ ١٨٠، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٣ - ٣٧٤، تفسير القرطبي ٨/ ٩١ - ٩٢، فى طلال القرآن ١٠/ ١٦١٤ - ١٦١٥، تفسير الملى التقدير ٢/ ٢١٦ - ٢١٧ (١٧٠) ابن هشام ١/ ١٤٥، ابن سعد ١/ ٥٨.

وخطت قرش خطوة أخرى في اجتذاب القبائل العربية، فنصبت أصنام جميع القبائل عند الكعبة^(١٧١)، فكان لكل قبيلة أوثانها تأتي في الموسم لزيارتها وتقديم القرابين لها، وهكذا أخذ عدد الأصنام يزداد عند الكعبة بمرور الزمن، حتى جاء وقت زاد عددها على ثلاثمائة، كان منها الكبير ومنها الصغير، ومنها ما هو على هيئة آدميين أو على هيئة بعض الحيوانات أو النباتات، وإن كان أكبرها جميعاً إنما هو «هبل» الذي جعله النور على هيئة إنسان من عقيق أحمر^(١٧٢).

ويذكر أن الأساس الذي قامت عليه مكانة الكعبة، أن البيت الحرام بجملته كان هو المقصود بالقداسة، غير منظور إلى الأوثان والأصنام التي اشتمل عليها، وربما اشتمل على الوثن المعظم تقدسه بعض القبائل، وتزديده قبائل أخرى، فلا يفض ذلك من مكانة البيت عند المعظمين والمزدرين، واختلفت الشعائر والدعوى التي يدعيها كل فريق لصنمه ووثنه ولم تختلف شعائر البيت - كما يتولاها مدنته المقيمون إلى جواره والمتكلفون بخدمته - فكانت قداسة البيت هي القداسة

(١٧١) تعرضت الكعبة قبيل الإسلام لعدة سيول في أوقات مختلفة، أدت إلى تصدع جدرانها، مما اضطر للقوم إلى عديمها وإعادة بنائها، ويكاد يجمع المؤرخون أن ذلك تم، والمصطفى (ع) في الخامسة والثلاثين من عمره الشريف، فإذا كان ذلك كذلك، وإذا كان المولد النبوي في ٢٠ أبريل ٥٧١م - كما حدده محمود الفلكي - فإن إعادة بناء الكعبة إنما كان في عام ٦٠٦م (انظر: الطبري ١٨٧/٢ - ٢٩٠، ابن الأثير ٤٢/٢ - ٤٥، المسعودي ٢٧١/١ - ٢٧٣، ابن كثير ٢/٢٩٩، ٢٠٤، بالقوت ٤/٤٦٦، الأزرقي ١/٢٥٤ - ٢٥٥، المصري ١/٦٤، المقدسي ٤/١٣٩ - ١٤٠، ابن هشام ١/١٩٢ - ١٩٩، التنوير العربي قبل الإسلام ص ٣٨، تفسير الطبري ٢/١٢٢ - ١٢٣، تاريخ الخميس، ص ١٢٦ - ١٣٦، نهاية الأرب ١/٢٣٢، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ٢٥ - ٢٧٦، وكذا:

A.Guillaume, op.cit, p. 23

وكذا:

I.Sahid, In CHI, I. 1970, p. 31

(١٧٢) تاريخ اليعقوبي ١/٢٥٤ - ٢٥٥، الروض الأف ٢/٢٧٦، الأزرقي ١/١٢٠ - ١٢١، نوري حصاره نمرب ص ١٢٤، تاريخ التمدد الإسلامي ١/٢٧، الأصنام ٢٧ - ٢٨، E.Gibbon, op.cit., p. 225 وكذا:

التي لا خلاف عليها بين أهل مكة وأهل البادية، وجاز عندهم - من ثم - أن يحكموا بالفضالة على اتباع صنم معلوم، ويعطوا البيت غاية حقه من الرعاية والتقدير (١٧٣).

وبقيت الكعبة المشرفة هكذا بأصنامها (٣٦٠ صنماً) حتى العام الثامن للهجرة، حيث أكرم الله تعالى رسوله والمؤمنين بفتح مكة في رمضان ٨ هـ (ديسمبر ٦٣٠)، فقام المسلمون بتحطيم الأصنام، ويروى أن النبي ﷺ، رأى صورة إبراهيم، وهو يستقسم بالأزلام، فقال: قاتلهم الله، جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ، لما قدم مكة، أتى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، قال: فأمر بها فأخرجت، فأخرجوا صورة إبراهيم واسماعيل في أيديهما، لأزلام، فقال رسول الله ﷺ: قاتلهم الله، أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قطه (١٧٤)، ثم حكم رسول الله ﷺ، برفع كل التماثيل والصور، وهو يقول «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» (١٧٥).

وفي ثاني يوم الفتح، خطب النبي ﷺ، خطبته المشهورة التي وضع فيها مآثر الجاهلية، إلا سداً للبيت وسقاية الحاج، ثم قال: يا أهل قريش، يا أهل مكة، ما ترون أنني فاعل بكم، قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وهكذا اعتقهم رسول الله ﷺ، وكانوا له فيئاً، ومن ثم فقد سمى سكان مكة يوم الفتح «بالطلقاء»، ثم أعلن رسول الله ﷺ، أن مكة سوف تبقى

(١٧٣) المقاد: مطلع النور، ص ١١٥.

(١٧٤) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد ٢/ ٢٩٦ (بيروت ١٩٨٥)، صحيح البخاري ٣/ ٣٧٥ - ٣٧٦، سنن أبي داود ١/ ٦٤٧، السهيلي: الروض الأوفى ٢/ ٢٧٤ - ٢٧٦، صحيح مسلم ٥/ ١٧٣، إرشاد الساري ٧/ ٢١٠، السيرة العلية ١/ ١٤٤، ٣/ ٨٧، الفاسي: المقاد السمين ١/ ١٥٧، ٢١٢، ابن الكلبي: الأصنام ص ٣١ - ٣٣، الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٦٨ - ١٦٩.

(١٧٥) سورة الإسراء. آية ٨١.

حرماً آمناً لا يقاتل فيها، وأن تكون الكعبة هي بيت الله الحرام، يحج إليها العرب حتى للمشركون منهم (١٧٦).

وفي العام التاسع للهجرة (٦٣٠ - ٦٣١ م) - عام الوفود - بقى المصطفى ﷺ في المدينة يستقبل الوفود، حيث كان ما يزال في بلاد العرب من لم يؤمن بعد بالله ورسوله، وإن كانوا في الوقت نفسه، ما يزالون - كما كانوا في الجاهلية - يحجون إلى الكعبة في الأشهر الحرم، ومن ثم فليبق سيدنا رسول الله ﷺ، إذا بالمدينة، حتى يتم الله كلمته، وحتى يأذن الله له بالحج إلى بيته، وليخرج أبو بكر حاجاً بالناس (١٧٧).

على أن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، سرعان ما أسر الإمام على بن أبي طالب، رضى الله عنه، وكرم الله وجهه، أن يسرع إلى مكة قبل أن تصل إليها وفود الحجاج من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، ليلتهم بسورة نزل بها الوحي من السماء، والتي عرفت بسورة براءة، ويقوم سيدنا الإمام على بالمهمة خير قيام، ويبلغ رسالة النبي الأعظم ﷺ، إلى الناس في اجتماعهم العام هذا «يوم الحج الأكبر» في «منى» وقبل الوقوف في «عرفات»، وقد جاء في هذه الرسالة، قول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله، إن شاء، إن الله عليم حكيم» (١٧٨).

(١٧٦) تاريخ الطبري ٣ / ٧٦١، البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٢، النويري: تهذيب الأسماء، واللغات ١ / ٢٩٨، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٤٤ - ٤٥، المعهودى مروج الذهب ٢ / ٢٩٠، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢ / ٢٥٥، ابن كثير، البداية والنهاية ٤ / ٣٠١
(١٧٧) ابن هشام: سير النبي ﷺ ٢ / ٩١٩، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢ / ٢٨٦ - ٢٩٢، ابن قتيبة: المعارف ص ٨٢، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٥١ - ٥٨، فيلب حتى: المرجع السابق، ص ١٦٤ - ١٦٥، لرفع: حياة محمد ص ٢٢٩، محمد حسين هيكل: حياة محمد ص ٤٧٠ - ٤٧٦، المصديق أبو بكر، ص ٥٣.

(١٧٨) سورة التوبة: آية ٢٨، وانظر: تفسير الطبري ١٤ / ١٩٠ - ١٩٨، تفسير البحر المحيط ٥ / ٢٧ - ٢٩، في ظلال القرآن ٣ / ١٦١٨ - ١٦١٩، تفسير الحلالين ص ١٧٠، ١٧٣، تفسير القرطبي ص ٢٩٤٢ - ٢٩٤٨، تفسير المار ١٠ / ٢٤٠ - ٢٤٧، تفسير السفي ٢ / ١٢٢ -

ويعلم الإمام على بن أبي طالب، رضى الله عنه، وكرم الله وجهه فى الجنة، بأمر رسول الله ﷺ، «يا أيها الناس: إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد اليوم مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عد رسول الله ﷺ، عهد فهو إلى مدته، وأجل على الناس أربعة أشهر بعد ذلك، ليرجع كل قوم إلى بلادهم، ومن يومئذ لم يحج بالبيت مشرك، ولم يطوف بالبيت عريان»، وهكذا أعاد الإسلام إلى الكعبة وجهها الصحيح، كما كان على أيام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، بيتاً لله وحده، لا يعبد فيه أحد غيره» (١٧٩).

وهكذا ازدادت الكعبة المشرفة شرفاً وفضلاً فى الإسلام، فقد جعل الله تعالى الكعبة البيت الحرام قبلة المسلمين فى صلاتهم، وجعل الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فى غيره، كما أن الحج - ركن الإسلام الخامس - لا يتم إلا بالطواف حول الكعبة المشرفة، فهذان ركنان من أركان الإسلام الخمسة - الصلاة والحج - لا يتم الواحد منهما إلا بالإتجاه إلى الكعبة المشرفة فى مكة المكرمة. ولا يصح الثانى إلا فى مكة ومجاورتها (عرفة - المزدلفة - منى)، وهكذا، ومنذ السنة التاسعة للهجرة النبوية الشريفة (عام ٦٣٠/٦٣١ م) أصبحت مكة المكرمة مدينة الإسلام المقدسة، يحج إلى كعبتها كل عام عدد من البشر يفوق - على وجه اليقين - أى عدد آخر من الحجاج إلى أى مكان آخر على ظهر الأرض، يقصدون إليها لأداء فريضة الحج والصلاة فى بيتها الحرام، والطواف حول كعبتها

١٢٣ = صفوة التفاسير ١/ ٥٣٠، تفسير أبى السعود ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥، تفسير ابن كثير ١٢/ ٥٤١ - ٥٤٢، صحيح البخارى ٦/ ٨١.

(١٧٩) ابن هشام: سير النبى ﷺ ٤/ ٢٠١ - ٢٠٥، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢/ ٢٩١، المسعودى: مروج الذهب ٢/ ٢٩٠، التنبيه والإشراف ص ١٨٦ - ١٨٧، تاريخ ابن خلدون ١٢/ ٥٣، تفسير الطبرى ١٤/ ٩٥ - ١١٢، تفسير البىضاوى ١/ ٢٨٢، محمد بن عبد الوهاب: مختصر زاد للمعادى ٢/ ٣٦٧ - ٣٦٨، الخريوطى المرجع السابق، ص ٨٨٩، محمد حسين هيكلى: حياة محمد ص ٤٧٦، الساعى: تاريخ مكة، ص ٥٤، فيلب حتى: المرجع السابق ص ١٦٣ - ١٦٤، محمد اشتوى المرجع السابق، ص ١٧.

هذا وقد وردت عدة أحاديث شريفة في فضائل الكعبة المشرفة - فضلاً عن مكة نفسها - من ذلك ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما بسنده عن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ أنه قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعصد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فيها، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب»، روى الترمذي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إلى ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»، وفي رواية للإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان عن ابن الحمرء أن رسول الله ﷺ قال: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»، روى مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ، قال: «لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة سلاح».

وروى أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجدى هذا (أى مسجد الرسول بالمدينة) خير من ألف صلاة، إلا في المسجد الحرام، وفضل المسجد الحرام فضل مائة صلاة» وعن عطاء بن أبي رباح عن ابن الزبير قال، قال رسول الله ﷺ «فضل المسجد الحرام على مسجدى مائة صلاة»، وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: صلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام»، وروى النووي في شرح صحيح مسلم عن عبد الله بن الزبير قال قال ﷺ: «صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدى»، وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدى هذا، والمسجد الحرام، ومسجد الأقصى» (١٨٠).

(١٨٠) انظر: صحيح مسلم ١/ ١٢٣ - ١٦٩ (بيروت ١٩٨١)

(٢) المدينة المنورة

(١) موقع المدينة الجغرافي وأهميته:

تقع المدينة المنورة - بئر - على مبعدة ٤٨٠ كيلا شمالى مكة المكرمة، فى واحة محصية، غزيرة المياه، بين لابتين بركانيتين: الأولى: حرة واقم، وهى الحرة الشرقية، وتسمى أيضاً حرة بنى قريظة، لأنهم كانوا بطرفها القبلى، وحرة زهرة، لمجاورتها لها، وتنقسم حرة واقم، باعتبار المنازل الواقعة فيها قديماً، إلى خمس مناطق متجاورة، منطقتان كانتا لليهود، وثلاث كانت للأوس من الأنصار، ففي زهرة منازل بنى النضير، وفى شمالها منازل بنى قريظة، وفى شمال هذه - أى منازل بنى قريظة، تقع منازل بنى ظفر من الأنصار، وبجانبهم نحو الشمال كذلك منازل بنى عبد الأشهل، مع بنى زعور بن جشم الأنصارين، وفى منازل بنى عبد الأشهل كان حصنهم «واقم» وهو الذى سميت به الحرة، وشمالهم منازل بنى حارثة إلى نهاية الحرة شمالاً^(١).

ويذهب الأستاذ الأنصارى: إلى أنه قد عثر فى «حرة واقم» هذه، على آثار مصنع قديم فيه أنواع القطع الفخارية المدهونة من كل لون، وبجانب هذا المصنع صهريج ماء مطلى بالرصاص بالداخل، وبشرقه غدير^(٢).

هذا وفى حرة واقم هذه كانت وقعة الحرة المشهورة (يوم الأربعاء ٢٨ ذى الحجة ٦٣ هـ - ٢٨ سبتمبر ٦٨٢ م)، حيث قتلت جيوش يزيد بن معاوية ابن أبى سفيان (٦٠ - ٦٣ هـ / ٦٨٠ - ٦٨٤ م) خلقاً كثيراً، واستبيحت مدينة الرسول (ﷺ) ثلاثة أيام، وذهبت بعض المصادر إلى أن عدد القتلى بلغ ألف

(١) السهمودى: وفاء الرفا بأنصار دار المصطفى ١/ ١١٨٨ (بيروت ١٣٩١ هـ / ١٩٧١)، عبد القدوس الأنصارى: آثار المدينة المنورة ص ٢١٠، (للطبعة السلفية، المدينة المنورة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م).

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢١١.

وسبعمائة من بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التامعين، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف، سوى النساء والصبيان، وقتل من حملة القرآن سبعمائة، ومن قريش ٩٧ قتلوا صبراً، وانتصت ألف عذراء، روى ابن الجوزي بسنده إلى المدائني عن أبي قرة، قال هشام بن حسان: ولدت بعد الحرة ألف امرأة من غير زواج، وروى المدائني بسنده عن أم الهيثم ابنة يزيد قالت: رأيت امرأة من قريش تطوف، فعرض لها أسود فعاثته فقبلته، فقلت: يا أمة الله، أتفعلين هذا بهذا الأسود، فقالت: هو ابني، وقع على أبوه يوم الحرة، ومن المؤلم المحزى أن يكتب مسلم بن عقبة المري - قائد جيش زياد في الحرة- بما فعله بأهل المدينة، ثم يوقع كتابه «فلانأس على القوم الفاسقين»^(٣).

والثانية - حرة الوبرة: وكانت تقع بضاحية المدينة الغربية - وعلى مبعدة ٤ كيلا من المدينة - وكانت أقرب إلى المدينة من حرة واقم، وتمتاز بكثرة الهضاب والمستنقعات وللتخفيضات والمرتفعات، وفي هذه الحرة المدرج الذي يقال أنه وثنية الوداع^(٤)، وفي طرفها الشمالي الشرقي منازل بنى سلمة، ومن تحت طرفها الغربي بشر عروة وقصره ومزارعه، وبطرفها الشمالي مسجد القبلتين، وبطرفها الغربي أطم الصيحات وقلعة قباء.

هذا ومن المعروف أن حرة الوبرة هذه، وحرة واقم، أنهلما اللاتبات اللتان تحدان حرم المدينة، وأنهما تلتقيان في ناحيتهما الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية، بالنسبة للمدينة^(٤).

(٣) أنظر عن واقعة الحرة (تاريخ الطبري ٥/ ٤٨٢ - ٤٩٥، ابن الأثير. الكامل في التاريخ ٤/ ١١١ - ١٢١، المسعودي مروج الذهب ٢/ ٩٢، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي ١/ ٢٨٦ - ٢٨٧، تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٥٠ - ٢٥١، منجد يهومي مهران: في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين، الحرة الثامن، الإمام الحسين بن علي، ص ١٨٣ - ١٨٩ (بيروت ١٩٩٠)، المقد النريد ٤/ ٢٨٦، ٥/ ١٣٦ - ١٤٠، حسين محمد يوسف: الحسين بن علي، ص ٢٧٨ - ٢٨٤ (القاهرة ١٩٧٣)، ابن كثير: البداية والنهاية ٨/ ١٩٨ - ٢١٩، ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، ص ٦٩٠ - ٦٩١.

(٤) المسعودي الوفاء ٤/ ١١٨٨ - ١١٩٠، عد القدوس الأنصاري. المرجع السابق، ص ٢١٢ -

هذا وبعد المدينة المنورة من الشمال «جبل أحد»، كما يقع «جبل عير» على حدها الجنوبي، وتكتنف الوديان الحرتين من الشرق والغرب، منحدره من الجنوب والشرق، محيطة بالمدينة من جهاتها الجنوبية والشمالية والغربية حتى تجتمع في شمالها الغربي، وتسير في انحدارها مياه الأمطار فتجعل من أرض المدينة جنات ذات زرع، زاهية بالخضرة، وبساتين تنبت أشجار النخيل والفاكهة، ولذلك فقد كانت حياة السكان في المدينة إنما تعتمد في المقام الأول على تملك الأرضين الزراعية واستثمارها.

وأما أودية المدينة فهي ستة: ١- وادي العقيق (في ضاحيتها الغربية) ٢- وادي راتوناء (في ضاحيتها الجنوبية الغربية) ٣- وادي بطحان (في ضاحيتها الجنوبية) ٤- وادي مذيب (في ضاحيتها الجنوبية الشرقية) ٥- وادي مهزور (في ضاحيتها الشرقية) ٦- وادي قناة (في ضاحيتها الشمالية الشرقية).

هذا ويسيل وادي العقيق وقناة في خارج المدينة، أما الوديان الأربعة الأخرى (راتوناء - بطحان - مذيب - مهزور) فتجتمع في وادي بطحان من جنوب المدينة، وتسير ممتزجة مع بعضها حتى تدخل المدينة من الأبواب الحديدية التي كانت معمولة لها قديماً تحت باب قباء بشرقيه.

هذا وتشق الأودية الأربعة المدينة ممتزجة، إلى الشمال، وذلك في المسيل المعروف باسم «أبو جيدة» حتى تخرج من باب «البرابيخ»، ونفيض في «صفاصف» إلى أن تبلغ سفح جبل «ملع» ثم تفيض إلى «زغابة» حيث تجتمع بسيل العقيق وادي قناة^(٥).

ولعل من الأهمية بمكان أن أهل المدينة (بثرب) إنما كان مدار شربهم في الجاهلية على الآبار وهي:

١- بئر أبيس: نسبة إلى صاحبها، وتقع غربي مسجد قباء بحوالي ٢٨ م،

(٥). انظر دهب المدينة (عبد القدوس الأنصاري، قار المدينة المورة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م، ط ١)، ط ١، ص ٢١٥ - ٢٢٧.

وعمقها ١٢ متراً وفي أسفلها فتحتان يجرى منها الماء إلى البحر، وثلاثة تصلها بمجرى العين الزرقاء، وماؤها غزير، وهو عذب خفيف، وكثيراً ما جلس النبي (ﷺ) على قفها، وقد عرفت باسم «بئر الخاتمة» منذ وقع فيها خاتم النبي من يد عثمان بن عفان في السنة السادسة من عهده والبحر الآن جافة.

٢- بئر رومة: وتقع في عرضة المعيق الكبرى، قرب مجتمع الأسياال (زغابة) بشمال غربي المدينة، وقطرها ٤ م، وعمقها ١٢ م، وهي غزيرة الماء، وماؤها عذب صاف، خفيف للغاية، ولذا فقد رغب النبي (ﷺ) أصحابها على شرائها، ووقفها على المسلمين، وقد فعل ذلك عثمان بن عفان فاشتراها من صاحبها اليهودي بمشرين ألف درهم ثم أوقفها على المسلمين.

٣- بئر غرمس: وكان النبي (ﷺ) يشرب منها، بل وأوصى بفلسه بمائها بعد وفاته، وكانت وقت ذلك لسعد بن خيثمة الأنصاري.

٤- بئر حاء: وتقع خارج سور المدينة، وكانت ملكاً لأبي طلحة الخزرجي، وقد أوقفها على أقاربه، وآل قسم منها إلى حسان بن ثابت، ثم اشتراها كلها معاوية بن أبي سفيان وبني بها قصراً (قصر بني جديلة لوقوعه في منازلهم)، ليأوى إليه بنو أمية، إذا وقعت بهم التوابع، كما كان متوقفاً.

٥- بئر بضاعة: وتقع قريباً من سقيفة بني ساعدة، وهما لبنى إساعة.

٦- بئر السقيا: وتقع جنوبي مبنى السكة الحديدية، ويفصل بينهما طريق مكة، وهي عميقة محفورة في الصخر، وقد شرب منها النبي (ﷺ) وتوضأ، وعلى أرضها - وتدعى الفلجان - عرض النبي (ﷺ) الجيش الذهاب إلى «بدر»، وكانت ملكاً لذكوان الزرقى، ثم اشتراها منه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

٧- بئر أبي أيوب: ولعله أبو أيوب التجارى الخزرجي الأنصاري، الذي تنسب إليه بئران أو ثلاثة، - وهو الذي شرف بنزول النبي (ﷺ) - بمنزله عند قدومه المدينة في الهجرة عام ٦٢٢ م (١هـ) - وتعرف حتى الآن ببئر أبي أيوب، وتقع شرقي البقيع، وكان ماؤها بين العذب والمالح.

٨- بحر ذروان: وتنسب إليها حادثة السحر المزعومة^(٦)، وتقع في منازل بني زريق وهم أصحاب الشمر، وتقع حوى المدينة.

٩- بحر عروة بن الزبير، وتقع في طرف حرة الوبرة الغربى بالنسبة إلى المدينة، عن يسمين المسافرين في الطريق إلى مكة، وماؤها أرق مياه المدينة وأعذبها وأخفها، ويقول ابن خلكان: ليس في المدينة بحر أعذب منها.

(٢) بين مكة ويثرب:

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك خلافاً بين الأوضاع الجغرافية والسكانية والاقتصادية بين كل من المدينتين المقدستين - مكة المكرمة والمدينة المنورة - فإذا كانت مكة المكرمة قد نمتعت بالنظام، وسادها جو من الهدوء والاستقرار، وكانت العوامل التي تربط بين الجماعة فيها، تؤدي وظيفتها على نحو مرض إلى حد كبير، وذلك بسبب وحدة السكان فيها، واجتماعهم على غاية واحدة هي: رعاية البيت الحرام، والقيام على تنظيم التجارة الداخلية والخارجية، والتي كانت أهم موارد الرزق في البلد الحرام^(٧).

إذا كان ذلك كذلك في مكة المكرمة، فإن «يثرب» (المدينة المنورة) لم تكن كذلك، فسكانها من عنصرين مختلفين (عرب ويهود)، وكذلك؛ لم تكن لهم غاية مشتركة يحرصون عليها، ويترابطون من أجلها، ومن ثم فقد سادها الإضطراب، وعمتها المنازعات.

وإذا كانت حياة الزراعة من طبيعتها، أن تربط الناس بالأرض، وتفرض عليهم الاستقرار، فإنها في مجتمع المدينة، وهو مجتمع قبلي، إنما تكون مثاراً للنزاع الدائم، حيث لا توجد في هذا المجتمع قوة فوق قوة القبائل والعشائر، تستطيع أن تقر الحقوق، وتفرض السلم، وتعاقب من يخل به.

(٦) انظر عن قصة سحر النبي ﷺ (محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة، الجزء الثالث، بيروت ١٩٩٠، ص ١٦٩ - ١٨٩)

(٧) عبد القدوس الأنصاري آثار المدينة المنورة - المدينة المنورة ١٩٧٣ من ٢٤١ - ٢٥٦ إبراهيم رفعت مرآة الحرمين ١/ ٤٢٨ - ٤٣٠، على حافة قصر من خارج المدينة، ص ١٦٩

ومن ثم، فما كان من شأنه أن يؤدي إلى الاستقرار، كان هو في ذاته، عامل من عوامل النزاع والاضطراب، حيث كان كل فريق يتطلع إلى أن تكون أخصب البقاع في يده، وكان السعي عن طريق القوة هو الطريق أو السبيل المألوف لتوسيع الأملاك، والحصول على أفضل البقاع الزراعية.

ولما كانت المدينة مكونة من عنصرين من السكان (عرب ويهود) فقد انقسمت إلى معسكرين متعادين، يترقب الواحد منهما الفرصة لقهر الآخر والحصول على ما في يده - أو خير ما في يده -.

على أن كلا من هذين القسمين - العرب واليهود - إنما انقسم بدوره إلى وحدات متصارعة، ولم يربط بين هذه الوحدات في المعسكر الواحد، إلا ما كان يربطها من تقاليد العصبية القبلية، والشعور بأن الفرد وحده، إنما هو عاجز عن حماية نفسه ضد الآخرين، ومن ثم فقد ساد المدينة جو من عدم الأمن، جعل الحياة في يثرب - قبل الإسلام - أمراً عسيراً.

وهكذا اتجه ميل السكان في يثرب - قبل الإسلام - رغبة في الحفاظ على النفس والمال إلى إقامة الحصون والآطام، للاحتماء بها عند الحاجة، حتى امتلأت المدينة بالحصون، وحتى كان لليهود وحدهم - كما يقول السهمودي - تسعة وخمسون إاطماً، ولم يكن العرب أقل منهم رغبة في بناء الآطام، حتى كان لبطن واحد منهم، تسعة عشر إاطماً^(٨).

هذا وقد اختلفت يثرب عن مكة في أنها إنما تتميز عنها بمزايا لم تعرفها مكة، من طيب الهواء، وجودة التربة، كما أنها لم تكن على طريق القوافل التي تحمل الطيب بين اليمن والشام فحسب، وإنما كانت كذلك راحة حقيقية، ذات تربة صالحة لزراعة النخيل - وهو كثير فيها - ومن ثم فقد أصبحت واحدة من أمهات المراكز الزراعية في بلاد العرب^(٩).

(٨) السهمودي، وفاء الوفا ١٩٠١ - ٢٢٠ (بيروت ١٩٧١)؛ أحمد إبراهيم الشريف، الحجاز قبل ظهور الإسلام، ص ٣٢ - ٣٣ (الحزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، الجزء الأول، الرياض، ١٩٨٩م).

(٩) P. K. Hitti, History of Arabs, 1960, p. 104.

ولم تقتصر الخلافات بين مكة والمدينة (يثرب) على النواحي الجغرافية والسكانية والإقتصادية، وإنما امتدت كذلك إلى النواحي الدينية، ذلك أن مكة جميعها تسكنها قبيلة عربية واحدة - قريش - تدين بدين واحد - الوثنية - أما المدينة (يثرب) فكان فيها العرب وثنيين، واليهود يدينون باليهودية.

(٣) أسماء المدينة المنورة:

لم تكن المدينة المنورة تعرف بهذا الاسم - أي المدينة - قبل نصرتها للإسلام وهجرة سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله (ﷺ) إليها في الثاني عشر من ربيع الأول - في السنة الثالثة عشرة من المبعث (٢٤ سبتمبر عام ٦٢٢ م)، وإنما كانت تسمى «يثرب»، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: «وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا» (١٠).

وقد ذكرت يثرب في الكتابات للمعينة، ربما بسبب وجود جالية معينة كانت تقيم هناك، خلفتها أخرى مسيحية، بعد أن ورث المسيحيون دولة معين في اليمن، ومستعمراتها في شمال غرب شبه الجزيرة العربية، ولعل هذا هو السبب الذي دفع بالنسابين من بعد أن يروا في سكان يثرب من العرب، أزدًا من قحطان (١١).

هذا وقد كثرت أسماء المدينة في العصر الإسلامي، حتى بلغت عشرة أسماء، على رأى، وأحد عشر اسماً، على رأى آخر، وتسعة وعشرين على رأى

(١٠) سورة الأحزاب: آية ١٣، وانظر: تفسير القرطبي ١٤ / ١٤٧ - ١٤ (دار الكتب)، تفسير الفخر الرازي ٢٥ / ١٩٩ - ٢٠٠، تفسير روح المعاني ٢١ / ١٥٨ - ١٦١، تفسير البهضاوى ٢ / ٢٤٠ - ٢٤١، تفسير الطبري ٢١ - ١٣٤ - ١٣٧، تفسير أبي السعود ٣ / ٢٠٥، الدر المنثور في التفسير بالأنوار ٥ / ١٨٧ - ١٨٨، تفسير العلي القدير ٣ / ٣٥٥ - ٣٥٦، تفسير الكشاف ٣ / ٢٥٤، في ظلال القرآن ٢١ / ٢٨٣٨ - ٢٨٣٩.

(١١) جواد على ٤ / ١٢٨، وكذا:

Ency. of Eslam, III, p. 83. p. 118.

H Winkler, Arabisch-Semitsch Orientalisch, in MVG, 1901, وكذا: p 63.

ثالث، وأربعة وتسعين على رأى رابع، وإن كان أهمها جميعاً: المدينة وشرب وطيبة وطابة والعاصمة والقاصبة والجدة والمحجوبة والمؤمنة والمباركة والمحفوطة والمختارة والجابرة والعذراء والغراء والبارة والمقدسة والناجية وذات الحرار ومدخل صدق وقرية الأنصار وسيدة البلدان والخيرة وأرض الهجرة ودار الهجرة ودار الأخيار ودار الإيمان ودار الأبرار ودار السنة وبيت الرسول ومدينة الرسول ومضجع الرسول وحرَم رسول الله ﷺ (١٢).

ومن أسف أن تاريخ يثرب القديم مجهول، فلا توجد مدونات يمكن الرجوع إليها، ولم نَقم بها حفريات علمية يمكن أن تقدم لنا معلومات ذات قيمة عن تاريخ المدينة المقدسة القديم، وإن كانت هناك حفريات قد أجريت دون أن يقصد بها ذلك الهدف العلمى - كالتى حدثت فى الأعوام ١٢٣٣، ١٢٣٥، ١٣٥٢ هـ - فى أحد البساتين، إبان حفر أساس القسم الشمالى لمدرسة العلوم الشرعية الواقعة بقرب باب النساء، وفى المناخية جنوب السيل، إلا أنها قد كشفت عن بعض أشياء قد تشير إلى أن المدينة الحالية، إنما قامت على أنقاض مدينة أخرى - الأمر الذى أشار إليه السمهودى منذ القرن التاسع الهجرى - ومن ثم فإن معلوماتنا الحالية، إنما تعتمد فى الدرجة الأولى على زواياك الاخباريين، وأكثرها من ذلك النوع الذى عرفناه من قبل (١٣).

(٤) سكان المدينة:

يروى الأخباريون أن سكان يثرب إنما كانوا من العماليق، ثم من اليهود، ثم العرب - من أوس وخزرج - وأن العماليق إنما كانوا أول من زرع الزرع واتخذ

(١٢) رفا الوفا ١/ ٧ - ١٩، خلاصة الوفا ص ٧ - ١٧، الدرر الثمينة فى تاريخ المدينة (ملحق بالجزء الثانى من شفاء العمام)، ص ٣٢٣، المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٣٠ (لیدن ١٩٠٦)، الأعلام ص ٥٩، ٨٧، البكرى ١/ ٤ - ١٢٠١، ١٢٠٢، ياقوت ٥/ ٨٢ - ٨٣، ٤٣٠، عمدة الأخبار ص ٤١، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٥٣٨.

(١٣) عبد القدوس الأصبارى: آثار المدينة المنورة، ص ١٩٢ - ١٩٤، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٢٩٠ - ٢٩١، محمد حسنى هيكل فى منزل الوحى، ص ٥١٢ - ٥١٤.

بها النخيل، وعمر بها الدور والآطام، واتخذ الضياع، وأنهم يرجعون في نسبهم إلى عملاق ابن أرفخشذ بن سام^(١٤).

غير أن التاريخ لا يحدثنا عن سكان المدينة إلا عن اليهود والعرب.

(١) اليهود:

يقدم لنا الاخباريون روايات ترجع بوجود اليهود في يثرب إلى عصر موسى عليه السلام (الأمر الذي ناقشناه في كتابنا «إسرائيل»^(١٥))، وقد ناقشنا هذه الروايات في كتابنا «تاريخ العرب القديم»^(١٦)، ورفضناها جميعاً، غير أن هناك حقيقة تاريخية نقول: إن اليهود كانوا يسكنون يثرب، حتى أجلاهم عنها سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ، بل عن الحجاز كله، بعد غزوات: بني قينقاع^(١٧)، وبني النضير^(١٨)، وبني قريظة^(١٩)، وخيبر^(٢٠)، ثم عن بلاد العرب كلها، فلقد روى عن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجن اليهود والتصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع فيها إلا مسلماً» - رواه أحمد ومسلم والترمذي وصححه^(٢١).

(١٤) وفاء الوفا ١/ ١٠٧، ١١، خلاصة الوفا، ص ١٥٤ - ١٥٦، ياقوت ٥/ ٨٤ (مادة مدينة).

(١٥) أنظر عن عصر موسى والآراء التي دارت حوله (محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل ١/ ٢٢٤ - ٤١١ (طبعة ١٩٩٩).

(١٦) أنظر (محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم ٢/ ٢٠٦ - ٢٢٤ (الطبعة السادسة عشرة ١٩٩٥).

(١٧) أنظر عن «غزوة بني قينقاع» (محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ٢/ ٢٦٧ - ٢٧٥ (بيروت ١٩٩٠).

(١٨) أنظر عن «غزوة بني النضير» (محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ٢/ ٢٧٧ - ٢٨٦ (بيروت ١٩٩٠).

(١٩) أنظر عن «غزوة بني قريظة» (محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ٢/ ٢٨٧ - ٣٠٢ (بيروت ١٩٩٠).

(٢٠) أنظر عن «غزوة خيبر» (محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ٢/ ٣٠٣ - ٣٣٤ (بيروت ١٩٩٠).

(٢١) الشريكاتي - الأقطار من أحاديث سيد الأحرار - شرح مفتي الأحبار، الجزء الخامس من ٦٤، (بيروت - دار الكتب العلمية).

وعن عائشة قالت: آخر ما عهد رسول الله ﷺ، أن قال: لا يترك بجزيرة العرب دينان» - رواه أحمد (٢٢).

وعن ابن عمر: أن عمر أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز، وذكر يهود خيبر، إلى أن قال: أجلاهم عمر إلى يثماء وأريحا - رواه البخاري (٢٣).

وعن أبي عبيدة بن الجراح قال: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ: أخرجوا يهود أهل الحجاز، وأهل نجران من جزيرة العرب» - رواه أحمد (٢٤).

في الواقع أن الآراء متضاربة في هذا الأمر إلى درجة أننا لا نستطيع التوفيق بينهما، إذ تذهب بعض الآراء إلى أن ذلك إنما حدث في القرن الثالث عشر ق.م (٢٥)، بينما تذهب آراء أخرى إلى أنه إنما كان في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد (٢٦)، والفرق بينهما جد شاسع، قد يصل إلى حوالي أربعة عشر قرناً، ومن هنا كانت الصعوبة في التوفيق بين هذه الآراء المختلفة أحياناً، والمتضاربة أحياناً أخرى.

وهناك رأى ثالث يذهب إلى أن اليهود لما قدموا إلى بلاد العرب في القرن الثامن قبل الميلاد؛ بعد سقوط السامرة - عاصمة إسرائيل - في أيدي الآشوريين عام ٧٢٢ ق.م (٢٧)، وليس من شك في أن هذا الاتجاه قد تركز إلى حد كبير

(٢٢) نفس المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢٣) نفس المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢٤) نفس المرجع السابق، ص ٦٤ - ٦٥، وانظر: محمد أبو زهرة، خاتم النبیین ١/٢، ٩٠٦، ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٤١٤ - ٤١٦ (القاهرة ١٩٦٥)، سنن الدرسي ٢/ ٢٢٣، إحسان لها صيرما: سياسة الرسول ﷺ في غزواته مع اليهود (كتاب البحوث والدراسات، قطر ١٩٨١، الجزء الثاني، ص ٢١٧).

(٢٥) وفاء الوفا ١/ ١٠٧، ١١١، الروض الأنف ٢/ ١٦، أبو الداء ١/ ١٢٣، باقوت ٥/ ٨٤، ابن حلدون ١٢/ ٨٧ - ٨٨ (القسم الأول) ٢/ ٢٨٦ - ٢٨٧ (القسم الثاني)، الأغاني ٣/ ١١٦، ٩٤/ ١٩.

(26) Jisephus, The Jewish War, II, 18, 1, 3 - 4.

O'Leary, op. cit., p. 173 وكذا: IC, III, p. 170 وكذا.

(٢٧) محمد بيومي مهران: إسرائيل ١٩٤٠-١٩٥٠.

A Guillaume, Islam, 1964, p 11

بم سقوط السامرة في يوم ما من شهر ديسمبر عام ٧٢٢ ق.م^(٢٨)، وأن العاهل
 الآشوري «سرجون الثاني» (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) قد هجر أكثر عناصر السكان
 أهمية، وربما النبلاء والأعياء، غير أن التهجير إنما كان - طبقا للتوراة^(٢٩) -
 إلى «حلب وخابور ومدن مادي»، وحين تكررت العملية في عام ٧٢٠ أو
 ٧١٥ ق.م، فإن العاهل الآشوري قد جاء يقوم من «بابل وكوت وحماة»، ومن
 سوسة وعيلام، فضلا عن قبائل نمود (نامود) ومرسيمانو وجبابا، والعرب الذين
 يعيشون بعيدا في الصحراء وأسكنهم في السامرة، وذلك رغبة من العاهل الآشوري
 في كسر التحالفات القديمة في سورية وفلسطين، بإدخال أجناب إلى البلاد^(٣٠)،
 وهكذا يبدو واضحا أنه ليست هناك أية إشارة في التوراة، أو في النصوص إلى
 تهجير يهود من السامرة إلى يثرب، وإلى غيرها من بلاد العرب، ومن ثم فإن
 المؤرخين يرفضون هذا الاتجاه.

وهناك فريق رابع يرى أن هجرة اليهود إلى يثرب إنما كانت بعد سقوط
 اليهودية وتدمير الهيكل في القرن السادس قبل الميلاد، على يد «نبوخذ نصر» في
 عام ٥٨٦ ق.م - وربما في أغسطس ٥٨٧ ق.م - وإبعاد كثير من اليهود إلى
 بابل، وهو ما عرف في التاريخ باسم «السي البابلي»^(٣١)، وعندما قتل اليهود

(28) A.T. Olmsted, in AJSL, 47, p. 262.

A.Leo Oppenheim, in ANET, p. 28

وكذا

J.Finegan, op.cit, p. 210.

وكذا

A.G.Lie, The Inscriptions of Sargon II, Part, I, The Annals, 1929, p. 5.

وكذا

(٢٩) ملوك ثان ١٧ - ٦.

(٣٠) ملوك ثان ١٧ : ١ - ٢٦، عزرا ٤ : ٢، ٩، محمد يرمي مهران - إسرائيل ٢ / ٥٠٩ - ٥١٢.

A.L. Oppenheim, in ANET, p. 260.

وكذا

S A. Cook, in CAH, III, p. 385.

وكذا

C.Roth, A Short History of The Jewish People, p. 28 - 9.

وكذا

(٣١) تاريخ الطبري ٥٣٩/١، أنبر الفساد ١٢٢/١، الأغاني ٩٤ / ١٩، الروم الألف ١٦/٢،

إسرائيل ولفنون - للرجع السابق ص ٦.

E.Dozy, op- cit, p. 135 وكذا A. Guillaume, op- cit, p. 11

وكذا

«جداليا» نائب نبوذنصر في أورشليم^(٣٢)، أدركوا مدى الكارثة التي حلت بهم، وخوفاً من إنتقام العاهل البابلي، فقد كان الهروب إلى مصر هو سبيل النجاح الوحيد أمامهم، ونقرأ في التوراة «فقام جميع الشعب من الصغير إلى الكبير ورؤساء الجيوش وجاءوا إلى مصر، لأنهم خافوا من الكلدانيين»^(٣٣)، ومرة أخرى ليس في هذه الأحداث إشارة إلى هروب يهود إلى يثرب، كما تذهب الروايات العربية^(٣٤).

على أنه في هذه الإضطرابات، لا يمكن القول أن مصر كانت هي سبيل النجاح الوحيد أمام اليهود - كما تقول التوراة - ومن ثم فربما قر فريق من يهود إلى بلاد العرب، وإن كنا لا نستطيع - بحال من الأحوال - أن نقول أنهم قد ذهبوا إلى يثرب بالذات، ولعل الذهاب إلى تيماء وإلى وادي القرى ومجاورتها، ربما كان أقرب إلى الصواب من الذهاب بعيداً إلى يثرب، ذلك لأن الطريق إلى الحجاز لم يكن مقفلاً أمام يهود في تلك الفترة، بخاصة وأن اليهود كانوا هاربين من فلسطين، يبحثون عن ملجأ يقيهم شر العذاب الذي يمكن أن يصبه عليهم العاهل البابلي، والحجاز أقرب المناطق إلى فلسطين، كما أن وجود بعض من يهود على طرق التجارة بين جنوب بلاد العرب وشمالها فيما بعد العصر الروماني، قد يدعم الرأي القائل بوجود هجرة يهودية إلى بلاد العرب منذ تلك الفترة^(٣٥).

البابليين غير أن حملات المتكررة بعد ذلك على شتال بلاد العرب، فضلاً عن استقرار «نيونيد» في تيماء، ولمدة قد تقرب من سنوات عشر، كما أشرنا من قبل، قد يضعف هذا الاتجاه، ورغم أن هناك من يذهب إلى أن حملة نيونيد على بلاد العرب، قد ضمت بين رجالها بعضاً من يهود، وأن هذا النفر من يهود، إنما أقاموا في شمال الحجاز - وحتى يثرب - إقامة دائمة استمرت حتى ظهور

(٣٢) إرمياء ١: ٤١ - ١٨، زكريا ٥٧.

(٣٣) ملوك ثان ٢٥: ٢٦.

(٣٤) وفاة الوفا ١١٢/١، تاريخ ابن خلدون ١٠٧/٢.

(٣٥) إسرائيل ولفسون. تاريخ اليهود في بلاد العرب من ٦، وكذا A Guillaume, op.cit. p. 11.

الإسلام، فإن العاهل البابلي لم يشر أبداً إلى عناصر يهودية في جيوشه، أو أنه قد أسكن يهوداً في تلك المناطق، كما أننا لانملك من الأدلة مايزيد وجهة النظر هذه. (٣٦)

وهناك فريق خامس يذهب إلى أن وجود اليهود في بئر بئر إنما يرجع إلى القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، وليس من شك في أن الأدلة التاريخية إنما في جانب هذا الاتجاه أكثر من غيره، ولعل من أهم هذه الأدلة أن الظروف السياسية التي كانت يهود تمر بها في تلك الفترة - بعد أن نجح الرومان في السيطرة على سورية ومصر في القرن الأول ق.م، وعلى اليهودية ودولة الأنباط في القرن الثاني بعد الميلاد - قد ساعدت هذه الظروف على هجرة أعداد من يهود إلى شبه الجزيرة العربية، التي كانت بعيدة عن السيطرة الرومانية، فضلاً عن أن بلاد العرب إنما كانت مازال في بداوة تشبه ماكان عليه اليهود إلى حد ما، هذا إلى أن اليهود أنفسهم إنما كانوا ينظرون إلى العرب على أنهم من ولد إسماعيل، وبما أنهم - أي اليهود - من ولد اسحاق، فهو جميعاً إذن من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام، وبالتالي فهم من ذوى رحمهم، ولهم بهم صلة قرى، هذا فضلاً عن أن أمر هجرة اليهود إلى أعالي الحجاز ودخولهم إليه أمر سهل ميسور، فالأرض واحدة وهي متصلة، والطرق مفتوحة مطروقة، ولا يوجد مانع يمنع اليهود، أو غير اليهود، من دخول الحجاز، ولا سيما أن اليهود كانوا خائفين، فارين من فتك الرومان بواقرب مكان مأمن اليهم هو الحجاز (٣٧).

غير أن الهجرة الحقيقية إنما كانت بعد الثورة اليهودية ضد الرومان، ثم إخماد هذه الثورة بأشد العنف وأقسى أنواع التدمير على يد «نيتوس» في عام

(٣٦) جواد على ٥١٣/٦.

F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, II, p. 74.

وكذا

O'Leary, op.cit, p. 173.

وكذا

(٣٧) فيليب حتى. المرجع السابق ص ٣٧٥ - ٣٧٧.

Josephus, The Jewish War, II, 18 1, 3 - 4.

وكذا

٢٠٠٠. حيث دمرت المدينة المقدسة، وأُحرق المَسجد الأقصى الذي بناه دهرودرس،
إتراقا تاما، حتى أن القوم نسوا بعد حين من الدهر، إن كان المعبد قد بنى على
التل الشرقي أو الغربي من أورشليم، وحتى أن محاولة بنائه - اعتمادا على وصف
التوراة له - قد فشلت نهائيا، كما منع بقية السكان من مجرد الإقتراب من
أورشليم، ومن ثم فقد هاجرت مجموعات من السكان إلى بلاد العرب، ووصلت
إلى يثرب.

غير أن الثورة سرعان ما تجددت مرة أخرى على أيام هديران، فيما بين عامي
١٣٢، ١٣٥م، وانتهت الثورة إلى القضاء تماما على اليهود، ككيان سياسي في
فلسطين، وتغير أسم المدينة المقدسة (القدس) إلى «إيليا كابيتولين» وتحول المعبد
اليهودي إلى معبد لإله الرومان «جوبيتر»، ثم بيعت النساء اليهوديات كإماء،
رضاع اليهود في غياهب التاريخ، وسرعان ما فر - من أسعد الحظ - فنجأ - إلى
مكان يحتمى به من غضبة الرومان القاسية، وكان من هؤلاء المحظوظين فريق من
يهود وصل إلى يثرب.

وكان هؤلاء - إلى جانب من وصلوا بعد تدمير للقدس على يد قيتوس -
هم الذين كونوا الجالية اليهودية في شمال الحجاز، وفي يثرب بصفة خاصة (٣٨)،
وزاد عددهم بمرور الزمن، حتى إذا أظهر الإسلام كان معظم سكان وادي القرى
إلى يثرب من اليهود، هذا وهناك في الحجر، وفي مواضع أخرى من أرض
الأنباط، كتابات نبطية، يرجع بعضها إلى القرن الأول للميلاد، وبعضها الآخر
إلى القرن الرابع الميلادي، وردت بها أسماء عبرية تشير إلى أن أصحابها من
يهود (٣٩).

وتؤيد المصادر العربية هذا الاتجاه، فتذكر أنه لما ظهرت الروم على بني إسرائيل
جاءوا بالشام فوطؤوهم ونكحوا نساءهم، فخرج بنو النضير وبني قريظة وبني هذل

(٣٨) فواب حتى: المرجع السابق ص ٣٧٥ - ٣٧٧.

وكنّا Josephus, The Jewish War, II, 18, 1, 3 - 4.

J. Herovity, Judaeo - Arabic Relations in Pre - Islamic Times, (٣٩)
IC. III, 1929, p. 170.

(بهدل) هارمين إلى من بالحجار من يهود، فلما فصلوا عنهم بأهلهم اتبعهم الروم فأعجزوهم، وهلك جند الروم في المغازز والصحارى الخالية من الماء، وهذه الروايات مأخوذة عن يهود المدينة أنفسهم، ثم أخذت جموع اليهود في الجزيرة العربية تزداد وتكثر بعد اضطهاد الروم لهم، ثم قصد بنو النضير وقرية منطقة يثرب، وارتادوا حتى تخيروا أخصب بقاعها فسكنوها^(٤٠).

وهكذا سكنت جاليات يهودية منطقة يثرب، والطرق المؤدية إلى الشام وأن تركزت كتل اليهود الكبرى في يثرب بالذات، حيث كان فيها ثلاث قبائل، ربما بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين، وهى قينقاع^(٤١) والنضير وقرية، إلى جانب بطون وعشائر يهودية أخرى، ذهب الاخباريون إلى أنها بلغت أكثر من عشرين بطناً، منهم بنو عكرمة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو الشظية وبنو جشم، وبنو بهدل وبنو عوف وبنو القصيص (العصيص) وبنو ثعلبة^(٤٢).

هذا وهناك من يرجع بنسب بنى النضير وبنى قرية إلى طبقة الكهان - سلالة هارون عليه السلام - وأما بقية يهود بلاد العرب، فيعضهم يرجع إلى نفس طبقة الكهان، وبعضهم الآخر إنما ينتمى إلى نسل الأسباط العشرة المفقودة^(٤٣). غير أننا لا نستطيع أن نوافق على هذا الاتجاه، ذلك لأن - الأسباط العشرة -

(٤٠) الأختى ١٩ / ٩٥، ابن خلدون ٢ / ٢٨٧، وفاء الوفاء ٢ / ١١٢، إسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ١٠٩، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص ٣٠٧.

(٤١) يرى دأوليرى أن بنى قينقاع إما عرب متهودون، أو من بنى أحم (Op.cit, p. 173)، وأظهر عن موقفهم من الرسول ﷺ بعض علاقتهم مع غيرهم من يهود بنى قرية وبنى النضير، وأنشراهم في يوم يمام (ابن كثير ٤ / ٣١٤ - ٤، للقدسى ٤ / ١٩٥، ابن خلدون ٢ / ٢٣، ابن هشام ٢ / ٣٣٤، المعارف ص ٩٤، تاريخ الطبرى ٢ / ٤٧٩ - ٤٨٣، إسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ١٢٧ - ١٣١).

(٤٢) وفاء الوفاء ١ / ١١٢ - ١١٦، ابن هشام ٢ / ٢٥٩، الأختى ١٩ / ٩٥، إسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ١١٤، أحمد إبراهيم الشريف للرجع السابق ص ٢٩٤ - ٢٩٥، جواد هلى ٥٢٢ / ٦.

Friedlander The Jews of Arabia and The Rechabites, in JQR, (٤٣) 1914 - 1911 p 254

والذين كانت تتكون منهم دويلة اسرائيل التي قامت عقب انفصال الدولة عشية موت سليمان في عام ٩٢٢ ق.م، إلى اسرائيل وعاصمتها السامرة، ويهوذا وعاصمتها اورشليم (٤٤) - إنما ضاعوا في غياهب التاريخ بعد الاحتلال الآشوري للسامرة في عام ٧٢٢ ق.م ثم قيام سرجون الثاني بتهجير أكثرهم إلى مناطق أخرى من الإمبراطورية، ثم أتى بقبائل أخرى من بابل وعيلام وسورية وبلاد العرب، لتحل محل الإسرائيليين المسبيين، ثم أسكنهم في السامرة ومجاراتها، ومن هذا الخليط الجديد ظهر في التاريخ ما سمي «بالسامريين» (٤٥).

وهكذا وضع سرجون الثاني نهاية لكيانهم كأمة، وأنهى وجود الأسباط العشرة كدولة، ولم يقدر لهم العودة مرة أخرى إلى المنطقة التي أخذوها غيلة واغتصاباً من أصحابها، ثم سرعان ما اندمجوا مع غيرهم من السكان الأصليين في المناطق التي أجسروا على الإقامة فيها، وليست هناك أية إشارة على أن بلاد العرب كانت ضمن هذه المناطق، وإن ذكرت نصوص العاهل الآشوري أن من بين من أتى بهم إلى السامرة قبائل من بلاد العرب (٤٦) - كما أشرنا من قبل - فهل أتى سرجون بجزء من الأسباط العشرة في مكان هؤلاء المهجرين من بلاد العرب؟ هذا ما مستكت عنه النصوص تماماً، ومن ثم فإننا لانستطيع القول بأن بعضاً من يهود بلاد العرب كانوا من الأسباط العشرة.

وعلى أي حال فإن فريقاً من المؤرخين انصأ يذهب إلى أن يهود بلاد العرب، إنما هم عرب تهودوا، وإن لم يكونوا مزوديين بمعلومات كافية في التوحيد، وأنهم لم يكونوا خاضعين لقانون التلمود كله، حتى أن بعضاً من يهود دمشق وحلب في القرن الثالث الميلادي أنكروا عليهم يهوديتهم، وأن

(٤٤) ملوك أول ١١: ٣٥ - ٣٦، ١٢: ٢ - ٢٥.

M. Noth, op.cit, p. 58.

وكذا

C.Roth, op.cit, p. 23.

وكذا

(٤٥) فيليب حتى المربع السابق ص ٢١٤.

The Book of Jewish Knowledge, 1964, p. 120.

وكذا

A.L. Oppenheim, ANET, p 286

(٤٦)

كانوا من ذلك شديدي التمسك بدينهم^(٤٧).

هذا ويذهب فريق من المؤرخين إلى أن بنى النضير وبنى قريظة فرعان من قبيلة جذام العربية، تهودوا وسماوا باسم المكان الذي نزلوا فيه^(٤٨)، وطبقا لرواية الاخباريين، فإن «حبل بن جرال» من بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان، قد تهود هو وقومه، وعاش مع بنى قريظة. حتى ظهور الإسلام، ثم هداه الله إلى الدين القويم فأسلم^(٤٩).

ويكاد يجمع المؤرخون على أن يهود بلاد العرب انما هم من يهود فلسطين، وأنهم قد تركوها فيما بين عامي ٧٠، ١٣٥ م^(٥٠)، كما أشرنا من قبل - ويذهبون إلى أن يهود بنى النضير وبنى قريظة من نسل هارون^(٥١)، وأن بقية البطون اليهودية من أسباط بنى إسرائيل الأخرى^(٥٢)، وأن يهود خيبر من «يهو ناداب بن ركاب»، وأنهم هاجروا إلى خيبر بعد خراب الهيكل الأول في عام ٥٨٦ ق.م، ثم بقوا فيها حتى عهد الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» (١٣ - ٢٣ هـ - ٦٣٤ - ٦٤٤ م)، وأن كلمة «خيبر» كلمة عبرانية بمعنى الطائفة والجماعة، وبمعنى الحصن والمعسكر^(٥٣)، وهو نفس الرأي الذي ذهب إليه

(٤٧) إسرائيل ولفسون. المرجع السابق ص ١٣، ٧٣، حين إبراهيم المرجع السابق ص ٧٣.

D.S. Margoliouth, op.cit, p. 60 وكذا

H.Lammens, op.cit, p. 66, 81. وكذا

Graetz, History of The Jews, III, p. 51 - 75. وكذا

(٤٨) تاريخ المقري ٣٦/٢، ٣٩.

(٤٩) جواد على ٥٥/٦، وكذا الإصافة ٢٢٣/١ وما بعدها (رقم ١٠٧١).

O'Leary, op.cit, p. 173. (٥٠)

Graetz, op.cit, p. 56. وكذا D.S. Margoliouth, op.cit, p. 59. (٥١)

Freidlander, op.cit, p. 254. وكذا ٥٢٣ - ٥٢٢/٦، جواد على (٥٢)

(٥٣) ملوك ثان ١٠: ١٥ - ٢٨، البكري ٥٢١/١، تاج العروس ١٦٨/٣، زاد المعاد ١٣٣/٢،

Graetz, op.cit, p. 56. وكذا

C.C. Torrey, The Jewish Foundations of Islam, p. 13 وكذا

J.Hastings, op.cit, p. 784. وكذا EI, 3, p. 869 وكذا

من نسيبها إلى رجل يدعى «خيبير بن قانية بن مهلائيل»، رأى فيه البعض «شفطيا بن مهلائيل» من بني قارص^(٥٤)، على أن هناك من يفسرها بمعنى مجموعة من المستوطنات، وإن رأى أن اللفظة عبرية^(٥٥).

على أن الاستدلال يبحث لنرى على جنسية يهود بلاد العرب، طبقا لما تشير إليه الأسماء التي يحملها اليهود - قبائل وأفراد - لا يمكن أن يعتمد به أو يعول عليه، فمن الحق أن بعض أسماء القبائل اليهودية عربية محضة، ولكنها لا تدل على أنها عربية الجنس، إذ يمكن أن تكون جموع اليهود التي هاجرت إلى بلاد العرب، قد اتخذت أسماء الأماكن التي نزلت بها أسماء لها، بل إن الواقع إنما يدلنا على أن اليهود كانوا قد تركوا منذ أمد طويل الإنتساب إلى قبائلهم، وأصبحوا يعرفون بأسماء القرى والأقاليم التي جاءوا منها، فكان يقال فلان الأورشليمي أو فلان الحبروني... هكذا ومن ثم فالطريقة المثلى - فيما يرى إسرائيل ولفنسون - إنما هي النظر في الأخلاق والتفاليد، واتجاه الأعمال والأفكار، وهنا فسوف نجد أن يهود بلاد العرب يهودا أكثر منهم عربا، هذا إلى جانب أن فكرة إقامة الحصون والآطام على قمم الجبال في شمال بلاد العرب، إنما أتى اليهود بها من فلسطين، حيث تكثر هناك الحصون المنيعة في الجبال^(٥٦).

أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم إنما وجه الخطاب إلى اليهود بتعبير «بنى إسرائيل»، ونعى عليهم مسلك اليهود الأقدمين مع موسى والأنبياء من بعده، وما كان منهم من تعجيز وإحراج وكفر وتكذيب وعدو، ونقض للشرائع وتحريف للكلام عن مواضعه، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أمواله الناس بالباطل، وذلك في صدد التنديد بموقفهم من النبي - ﷺ - وفي كثير من الآيات جعل اليهود المعاصرين والقدامى موضع خطاب وسياق وسلسلة واحدة، حيث يوجه

R.Dozy, op.cit, p 136

(٥٤) أبو القدا ٨٩/١، وكلا

G.Weil, Mohammed der Prophet, p. 185

(٥٥) حيداد على ٥٢٦/٦ كذا

(٥٦) إسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ١٥ - ١٦.

الخطاب إلى بنى إسرائيل أو إلى اليهود بصيغة الشايط القريب، فيقتصر «إمكان من الأقدمين وما كان من المعاصرين بأسلوب يرجح أن المقصود به تقرير الصلة النسبية بين هؤلاء وأولئك، وربط صاهدا من أخلاق المعاصرين ومواقفهم بما كان من أخلاق القدماء، كأن الجميع يصدر عن جبهة واحدة وأخلاق متولدة، وإذن: فتوجيه الخطاب في القرآن الكريم إلى يهود يشرب بـ «بنى إسرائيل» يسوغ الترجيح، بل الجزم بأن اليهود الذين كانوا في الحجاز، بصفة عامة، هم نازحون وأنهم إسرائيليون، وأنهم ليسوا قبائل عربية تهودت، وإن كان هناك عرب تهودوا، فإنهم لم يكونوا جماعة محسومة، وليست إلا أفراد» (٥٧).

على أنه يجب ألا يفهم من هذا كله، أن كل يهود بلاد العرب من أصل يهودي، فهناك الكثير من العرب المتهودين، ولا سيما بالقبائل اليهودية المسماة بأسماء عربية أصيلة، لها صلة بالوثنية، مما يدل على أنها إنما كانت وثنية قبل أن تهود، وهناك الكثير من البطون العربية التي تهودت (٥٨)، فقد تهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقرظة والنضير، وتهود قوم من بنى الحارث بن كعب، وقوم من غسان، وقوم من جذام، وقوم من «بلي» (٥٩).

هذا فضلا عن أن هناك ما يشير إلى أن المرأة المقلات في الجاهلية كانت تنظر إن عاش لها ولد أن تهوده، ومن ثم فقد تهود بعض منهم، فلما جاء الإسلام أراد الأنصار إكراه أبنائهم عليه، فنهاهم الله عن ذلك (٦٠)، حيث يقول سبحانه

(٥٧) عبد الفتاح شحاته: تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام - الجزء الثاني، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٥٨) T.Noldeke, op.cit, p. 52.

(٥٩) تاريخ البقوي ١، ٢٥٧، حواد ٥٢٥/٦.

وكتا Graetz, op- cit, p. 408 وكتا Islamic Culture, II, 2p. 177.

(٦٠) أدیان العرب فی الجاهلیة ص ٢٠١، إسرائيل ولفسون: المرجع السابق ص ٨٨، السنن الكبرى للبيهقي ١٨٦/٩، سنن أبي داود ٧٨/٣ - ٧٩.

ونعالى لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي^(٦١)، كما أن اليهود قد عملوا على التبشير بينهم بين العرب إلى حد ما.

(٢) العرب:

يرى الاخباريون أن القبائل العربية - من أوس وخزرج - قد هاجرت من اليمن إلى يثرب على أثر حادث سيل العرم، وهناك في يثرب وجدت تلك القبائل أن الأموال والأطام والنخيل في أيدي اليهود، فضلا عن العدد والقوة، فأقام الأوس والخزرج مع اليهود، وعقدوا معهم حلفا يأمن به بعضهم إلى بعض، ويمتنعون به من سواهم^(٦٢).

وهكذا فإن هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب - إنما كانت - طبقا لرواية الاخباريين - بسبب سيل العرم، الأمر الذي لا يمكن تحديد زمنه بسهولة ذلك لأن سد مأرب إنما تهدم عدة مرات، خلال الفترة الطويلة التي مضت منذ تشييده في منتصف القرن السابع ق م - وربما الثامن ق م^(٦٣) - وبين آخر مرة أصلح فيها السد في عام ٥٤٣ م، على أيام أبرهة الحبشي طبقا لما جاء في نصي (جلالز ٦١٨) و (CIH, 541)^(٦٤)، إذ أن هناك عدة اشارات إلى تهدم السد واصلاحه،

(٦١) سورة البقرة: آية ٢٥٦، وأنظر: تفسير الطبري ٤٠٧/٥ - ٤٢٤ (دار المعارف بمصر)، تفسير القرطبي ٢٧٩/٣ - ٢٨٢، تفسير روح المعاني ١٢/٣ - ١٥، تفسير مجمع البيان للطبرسي ٣٠٤/٣ - ٣٠٧، تفسير المنار ٣٥/٣ - ٤٠، تفسير لمي السعود ١٨٩/١ - ١٩٠، تفسير ابن كثير ٣١٠/١ - ٣١٢ (دار احياء التراث العربي)، تفسير المعلى القديم ٢٢٠/١ - ٢٢٢، تفسير الكشاف ٣٨٧/١، في ظلال القرآن ٢٩٣/٢ - ٢٩٦، الدر المنثور في التفسير بالآثار ٣٢٩/١ - ٣٣١، تفسير التنقي ١٢٩/١.

(٦٢) ابن كثير ١٦٠/٢، الأعاني ٦٩/١٩، ياقوت ٣٥/٥ - ٣٨، تاريخ المعقوي ٢٠٢/١ - ٤٢٠، ابن هشام ١٧/١ - ١٩، الأخلاق النفسية ص ٦٢، جواد علي ١٢٩/٤، علي حافظ: فصول من تاريخ المدينة ص ١٤ - ١٥.

(٦٣) جواد علي، ٢٨١/٢، منه مؤيد النظام، المرجع السابق ص ٨٨.

D.Nielsen, op.cit, p. 79 و Die Araber, p. 27 وكذا

F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, p. 587. (٦٤)

A.Sprenger, op.cit, p. 31 - 126. وكذا

E Glasser, op.cit, p 390. وكذا

منها ما حدث على أيام «شمر يهرعش» (٦٥)، ومنها ما حدث على أيام «ناران بهنعم» عندما تهدم السد عند موضع «حبابضر» و«رحبتن»، وأن القوم قد كتب لهم نجحا كبيرا في إصلاحه (٦٦).

ولعل التهدم الذي حدث على أيام «شرحبيل يعفر» في القرن الخامس الميلادي، إنما كان واحدا من أشد تهدمات السد خطيرة، لأن آثاره تعدت الآثار الجانبية، إلى هروب سكان المنطقة إلى الهضاب والجبال، ثم هجرتهم من هذه المنطقة إلى أراضين أخرى، ربما لأنه كان بسبب كوارث طبيعية، كالزلازل والبراكين، وليس مجرد سقوط أمطار غزيرة، ومع ذلك فقد نجح القوم بعد كل هذا في تجديد بناء السد وترميمه، على مقربة من «رحب» وعند «عبرن»، فضلا عن حفر مسابيل للمياه، وبناء القواعد والجدران، كما أشرنا من قبل، وقد تم ذلك في عام ٤٤٩ / ٤٥٠ م (٦٧)، وأخيرا ذلك التهدم الذي كان على أيام أبرهة الحبشي.

وهكذا يبدو بوضوح أن تحديد تاريخ معين لخراب سد مأرب، وهجرة القبائل العربية من اليمن إلى وسط بلاد العرب وشمالها، أمر لا يمكن - على ضوء معلوماتنا الحالية - أن نقول فيه كلمة نظن أنها القول الفصل، أو حتى قريبا من هذا القول، وأن الأمر ما يزال في مرحلة للحدس والتخمين، حتى تقدم لنا الأرض الطيبة في اليمن أو في غيرها، ما ينير أماننا الطريق.

LeMuseum, 1953, 66, p. 340.

وكنا

A.F.L Beeston, Problems of Sabaean Chronology, BASOR, 16, 1954.

(٦٥) جواد على ٢١٠/٧.

A.Jamme, op.cit, p. 176. (٦٦)

Le Museum, 1964, 3-4, p. 491 - 498.

وكنا

E.Glaser, in MVG, II, 1897, p. 372 - 372, 389 - 390

(٦٧)

Le Meseon, 1964, 3-4, p.493 - 4.

وكنا

H.St.J.B. Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947

وكنا

A Sprenger, Dice Alte Geographie Arabiens. Berlin. 1875

وكنا

13, 20, 28

وأما الروايات العربية، فإن بعضها منها إنما يشير إلى أن ذلك إنما قد حدث، قبل الإسلام بأربعة قرون، بينما يشير البعض الآخر إلى أن تلك الهجرات إنما تمت في القرن الخامس الميلادي، وعلى أيام «حسان بن تبيان أسعد» (٦٨)، على أن هناك فريقاً ثالثاً إنما يقترح أخريات القرن الرابع الميلادي، معتمداً في ذلك على نسب «سعد بن عبادة الخزرجي»، وجعله مقياساً للزمن الذي ربما تكون الهجرة قد تمت فيه، فنسب سعد - طبقاً لرواية النسابين - إنما هو «سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج الأصغر بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأكبر بن حارثة»، فمن سعد إلى الخزرج الأكبر أحد عشر جيلاً، وإذا افترضنا أن الفرق بين كل جيلين خمسة وعشرين عاماً، كانت المدة بين الهجرة النبوية الشريفة (في عام ٦٢٢ م) وبين الخزرج الأكبر، حوالي مائتين وخمسة وسبعين سنة، أي أن هجرة الأوس والخزرج، ربما كانت في أخريات القرن الرابع (٦٩)، هذا ويحدد «سديو» هذه الهجرة بعام ٣٠٠ م، ثم الاستيلاء على المدينة في عام ٤٩٢ م (٧٠).

وأياً ما كان الأمر، فإن الأخباريين يذهبون إلى أن الأوس (٧١) والخزرج أخوان، فهما أبناء «حارثة بن ثعلبة العتقاء بن عمرو مزريقاء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن الغطريف بن امرئ القيس البطريق، بن ثعلبة بن مازن بن الأزده» (٧٢)، الذي ينتهي نسبة إلى «يعرب بن قحطان»، ولكن القوم إنما كانوا

(٦٨) باقوت ٣٥٥/٥، حرجي زيلان: العرب قبل الإسلام ص ١٥٥، وانظر: الفصل التاسع من

كتابتنا، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ٣٠٩ - ٣٥٢.

(٦٩) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وحضر الرسول ص ٣١٥.

(٧٠) لويس أميل سديو: تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر ص ٥١.

(٧١) هناك من يفسر كلمة الأوس بأنها اختصار لجملة «أوس مناة» وهو صنم جاهلي (جواد علي

١٣٥/٤).

(٧٢) ابن الأثير ٦٥٥/١، وفاة الرقا، ١٢٤/١، اللسان ١٨/٤، تاج العروس ١٠٣/٤، المعقد الفريد

١٦٦/٣، ابن هشام ٣٤٧/٣، الاشتقاق ٤٣٥/٢، ٤٣٧، باقوت ٢٠٣/٤، ٨٥/٥،

المعارف ٤٩، المقدسي ١٢٠/٤ - ١٢١، دائرة المعارف الإسلامية ١٥٠/٣، جمهرة أنساب

العرب ص ٣٣٢، نهاية الأرب للفلخندي ص ٥٢ - ٥٣، ٩٣ - ٩٤.

ينتسبون إلى أمهم «قبيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة»، ولهذا كانوا يدعون «أبناء قبلة»، مما يدل على أن هذه المرأة إنما كانت تنتمتع بشهرة عريضة، دفعتهم إلى الإلتساب إليها^(٧٣).

وعلى أى حال، فلقد أقام الأوس والخزرج فى المدينة، وربما لم يكونوا فى أول الأمر يسلكون من القوة وكثرة العدد، بحيث يخشى اليهود بأسهم، هذا ويبدو أن اليهود قد عملوا على الإفادة من خبراتهم التى اكتسبوها منذ فترة طويلة، فى مجال الزراعة والتجارة فى مواطنهم القديمة فى اليمن، ومن ثم سمحوا لهم بالإقامة فى مجاوراتهم، إلا أن وجود الثروة والسلطان فى أيدي اليهود جعل الأوس والخزرج يعيشون حياة قاسية، ومن ثم فقد كان الواحد منهم، إما أن يعمل فى مزارع يهود، وإما أن يستغل خبرته السابقة فى الزراعة، فيعمل فى أرض لا تنتج الكثير من الغلات، لأنها فى غالب الأحيان إنما كانت أرض موات تركها اليهود، وفى كلا الحالتين فقد كان القوم غير ميسر عليهم فى الرزق^(٧٤).

وما أن يمضى حين من الدهر، حتى استطاع أصحابنا من أوس وخزرج أن يكونوا أصحاب مال وعدد، حتى أن يهود بنى قريظة والتضجير أحسوا أنهم لو تركهم على حالهم هذا، فقد يشكلون فى وقت قريب خطراً، قد يهدد مصالح يهود فى المدينة، وربما قد يهدد القوم أنفسهم، ومن ثم فقد «اتمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذى بينهم، فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم خائفين أن تجلبهم يهود، حتى تجم منهم مالك بن العجلان، من بنى سالم بن عوف بن الخزرج، فكان سبياً فى أن يسود الحيان، الأوس والخزرج»^(٧٥).

(٧٣) ابن حزم ٣٣٢/١، اللسان ٥٨٠/١١، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٤٠٤، المعارف ص ٤٩، خلاصة الوفا ص ١٦٤، التنبية والاشراف للمصعودي ص ١٧٤، باقوت ٨٥/٥، وفاء الوفا ١٢٤/١، جواد على ١٣٣/٤.

(٧٤) تاريخ ابن خلدون ٢٨٦/٢ - ٢٨٧، الأغاني ٦٩/١٩، خلاصة الوفا ص ١٦٥، وفاء الوفا ١٢٥/١، على حافظ. المرحع السابق ص ١٥.

(٧٥) المسعودي، وفاء الوفا بأحبار دار المصطفى ١٢٥/١ - ١٢٦، الدرر النعمية ص ٣٢٦ - ٣٢٧، الأخلاق النفيسة لآبى رسته ص ٦٣، أحمد إبراهيم الشريف المرحع السابق ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

ومن ثم فقد أصبح للحيين - الأوس والخزرج - كيان سياسى فى يثرب، يفوق ما كان لليهود فيها، ومن أسف أن القوم مالئوا أن أصيبوا ببلعة الصراع القبلى، وتحولت المنافسة التى كانت بينهم وبين يهود، إلى مشاحنات بينهم وبين بعضهم البعض الآخر، أدت فى النهاية إلى قيام الحروب بين الحيين العربيين، لعبت فيها العوامل السياسية والتنافس على الزعامة فى يثرب دورا كبيرا، هذا فضلا عن العوامل الاقتصادية التى تلخص فى رغبة كل من الفريقين فى الاستيلاء على ما عند يهود، ثم حدث أن احتل الأوس بقاعا أخصب وأغنى من تلك التى احتلها الخزرج، فى الوقت الذى كان الخزرج يتمتعون فيه بمركز الصدارة، لأن نصرة العرب، إنما جاءت على يد رجل خزرجى - هو مالك بن العجلان-.

وهكذا كان الخزرج ينفثون على الأوس مكاتهم الاقتصادية، بينما كان الآخرون ينفثون على الأولين، مكاتهم السياسية، حدث هذا فى وقت كانت فيه مياسة اليهود مع القبائل العربية إنما تقوم على الإيقاع بينها، وإثارة الأحقاد بين المتخاصمين منهم، كدسا جنحوا إلى النسيان وتعاهدوا على الصلح والأمان، ومن ثم فقد عملت يهود على إذكاء روح التحاسد والتباغض التى بدأت تظهر فى سماء العلاقات بين الحيين العربيين الشقيقتين، حتى يشعلوا نارا، إن لم تقض على الأوس والخزرج معا، فعلى الأقل تشغل كل فريق بالآخر، وتنتهز يهود الفرصة لاستعداد لجولة قادمة، أو على الأقل الحفاظ على ألامهى عليه.

وحققت يهود نجاحا بعيد المدى فيما تريد، ودقت طبول الحرب بين الفريقين، تناوب قىها الأوس والخزرج النصر والهزيمة، وكان من أهمها ما عرف بحرب سمير، وحرب كعب بن عمرو المازنى^(٧٦) وحرب حاطب بن قيس^(٧٧)، فضلا عن يوم السرارة^(٧٨) ويوم فارع^(٧٩)، ويوم الفجار الأول

(٧٦) ابن الأثير ١/ ٦٦٠ - ٦٦٢، وفاء الوفا ١/ ١٥٢، أيام العرب فى الجاهلية ص ٦٩ - ٧١.

(٧٧) ابن الأثير ١/ ٦٧١ - ٦٧٢.

(٧٨) ابن الأثير ١/ ٦٦٢ - ٦٦٥.

(٧٩) ابن الأثير ١/ ٦٦٨ - ٦٧١.

والثاني^(٨٠)، وحرب الحصين بن الأسلت^(٨١)، ثم حرب بعاث، وكان أولها حرب سمير، وآخرها حرب بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات^(٨٢)، أي عام (٦١٧م).

وأما يوم سمير، فقد كان - طبقا لرواية الاخباريين - كأغلب أيام العرب لسبب غير خطير، ذلك أن رجلا من بني ذبيان يقال له «كعب الثعلبي» نزل ضيفا على مالك بن العجلان، ثم خرج إلى سوق بني قينقاع، فرأى رجلا من «غطفان» معه فرس، وهو يقول «لأأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب» فقال كعب مالك بن العجلان، فسمعه «سمير» الأوسي فشتمه ثم قتله بعد مدة في حديث طويل، وخاف للحيان أن تشب الحرب، إلا أن الخزرج أبو إلا دية الصريح، وليج الأمر بينهم حتى أدى إلى المحاربة، فاجتمعوا واقتتلوا قتالا شديدا على مقربة من «قباة»، فانتصر الأوس، وانتهى الأمر إلى أن يحتكموا إلى «المنذر بن حرام» الخزرجي، جد حسان بن ثابت، الذي حكم بأن تدفع الأوس دية الصريح، وانتهت الحرب، وإن افترق القوم وقد شبت البغضاء في نفوسهم وتمكنت العداوة بينهم^(٨٣).

وأما «يوم بعاث»، فقد كان آخر الحروب التي نشبت بين الأوس والخزرج، وقبل هجرة المصطفى - ﷺ - بخمس سنوات، وتروى المصادر العربية أن الحروب السابقة بين الأوس والخزرج، إنما كانت في غالبيتها للخزرج، ومن ثم فقد رأى الأوس محالفة بني قريظة، فأرسلت إليهم الخزرج «لئن فعلتم فأذنوا بحرب».

(٨٠) ابن الأثير ١/٦٧٦، ٦٧٨ - ٦٨٠.

(٨١) ابن الأثير ١/٦٦٥ - ٦٦٦.

(٨٢) وفاء الوفا ١/١٥٢، ١٥٥، ابن الأثير ١/٦٥٥ - ٦٨٤، الأغني ٣/١٩ - ٤٢، إسرائيل ونفسون: المرجع السابق ص ٦٨.

(٨٣) ابن الأثير ١/٦٥٨ - ٦٦٢، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص ٣٣٣، المفضليات ص ١٣٥، البدء والتاريخ ٣/١٣٠، الاشتقاق ١/٢٦٦، الأعلام النفسية ص ٦٤، وفاء الوفا ١/١٥٢، الأغني ٢/١٦١ - ١٦٤، أيام العرب في الجاهلية ص ٦٢ - ٦٨، جرجي زيدان: المرجع السابق ص ٣٦١ - ٣٦٢، قارن: تاريخ الجاهلية ١٢٣ - ١٢٤.

فتفرقوا وأرسلوا إلى الخزرج «إنا لانحالفهم ولاندخل بينكم»، ومع ذلك فقد استمر كل فريق يستميل إليه يهود، فضلا عن قبائل عربية أخرى، ولعب اليهود أخطر الأدوار في إشعال نار الحرب بين الحيين العربيين، وبالتالي عودة السيادة لهم في يثرب من جديد.

وهكذا جدد بنو قريظة والتنضير تحالفهم مع الأوس، ثم ضموا إليهم قبائل أخرى من اليهود واستعدوا للحرب، وخشى الخزرج أن تنزل بهم هزيمة، فراسلوا حلفاءهم من بنى أشجع وبنى جهينة، وراسل الأوس حلفاءهم من بنى مزينة، وأخيرا نشبت الحرب بين الفريقين عند «بعاث» - حصن بنى قريظة - وانهمز الأوس في اليوم الأول، غير أن «عمر بن النعمان» قائد الخزرج، سرعان ما قتل، وانتهمز الأوس الفرصة، فمالوا على الخزرج ميله رجل واحد، يقتلون رجالهم ويحرقون منازلهم وتخيّلهم، بعد أن كانت يهود قد نهبت ما استطاعت من أموالهم، ولم ينقذ الخزرج من الكارثة، إلا خشية الأوس من أن يستعيد اليهود مركزهم السابق في يثرب، فيضطروا لمواجهة متفردين بعد القضاء على الخزرج، فعلا فلقد بدت نيات اليهود واضحة في تحطيم الخزرج وإذلالهم، بخاصة وأنهم أصحاب اليد الطولى في القضاء على نفوذ اليهود في المدينة، ومن ثم فقد فضلت الأوس الاكتفاء بالقضاء على روح التسلط في الخزرج، وصاح واحد منهم «يامعشر الأوس: أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم، لهجوارهم خير من جوار الثعالب».

ويروى أن السيدة عائشة - رضى الله عنها - قدمت عن هذا اليوم «كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ، وقد افترق ملوهم وقتلت سرواتهم وجرحوا، قدمه الله لرسول الله ﷺ في دخولهم الإسلام» ذلك لأن يوم بعاث قد أضعف بطون يثرب كلها وأوجد فيها ميلا إلى الإتحاد كما أضعف كذلك روح العداوة والحقد في نفوس البطون الشريفة، حتى أخذ الناس ينصرفون لأعمالهم ويتذوقون لذة الراحة وهناءة الميش وصفاء البال وكانوا كلما هم أحدهم أن يصب زيتا حارا على نار العداوة الكامنة في القلوب ليزيد في ضرارها،

وبه علم من أولاده... حتى كثر من قومه، ودفنوا في المقابر، وكشف عنه
حتى لا تدخل السيوف من أعماقها، وجاء الإسلام وانفذت الكلمة، واجتمع
الأوس والخزرج على نصرته الإسلام وأهله، وكفى الله المؤمنين شر القتال، وأصبح
القوم بنعمة الله اخوتنا (٨٤).

(٥) فضائل المدينة:

بدأت «يثرب» بالهجرة النبوية الشريفة (١هـ / ٦٢٢م) عهداً جديداً، وباسم
جديد، بدأت العصر الإسلامي، وباسم «المدينة المنورة»، أو مدينة الرسول ﷺ،
وأصبحت عاصمة الإسلام، ومقر رسول الله ﷺ - حياً وميتاً - ومقر الخلفاء
الراشدين الثلاثة (أبي بكر وعمر وعثمان) من بعده.

هذا وقد رويت أحاديث كثيرة في فضائل المدينة المنورة، روى البخاري في
صحيحه (باب حرم للمدينة) بسنده عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:
«المدينة حرم من كذا إلى كذا، لا يقطع شجرها، ولا يحدث فيها حدث من أحدث
حدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» (٨٥).

وروى البخاري في صحيحه بسنده عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي
الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «حرم ما بين لابتي المدينة - على لسان» (٨٦).

(٨٤) للسهودي: خلاصة الوفا من ١٧٧ - ١٧٨، البكري ٢٥٩/١ - ٢٦٠، بقوت ١٥١/١،
تاريخ ابن خلدون ٢٨٩/٢ - ٢٩٠، ابن الأثير ٦٨٠/١ - ٦٨٤، تاريخ المروسي ١٠٤/١،
شرح ديوان حسن بن ثابت من ٢٧٨، ابن هشام ١٨٣/٢، صحيح البخاري ١٠٨/٥، إسرائيل
ولفخسون: المرجع السابق من ٦٢ - ٧٠، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق من ٣٣٦،
محمد أحمد جاد للولي وآخرون: أيام العرب في الجاهلية من ٧٣ - ٨٤، إبراهيم العياشي:
المدينة بين الماضي والحاضر من ٤١ - ٤٣، وكذا السهودي: وفاء الوفا ٢١٨/١ - ٢٢٠
(بيروت ١٩٧١)، الأغاني ١٥٤/١٥ - ١٥٧، ١٦/١٦، ١٩/١٩ - ٩٤، ١٠١، ١٠٦ (ط
السلي)، الروض الأنف ١٤/١ - ١٥، مصحح الأمثال للمصنف ٢٦٨/٢ - ٢٧٠، الانتفاق
من ٢٦٦، الصحاح للجوهري ١٤٨/١، لسان العرب ٢٥٦/١، ٢٩/٣ - ٨٠، الصحاح
للجوهري ١٤٨/١، لسان العرب ٢٥٦/١، ٢٩/٣ - ٨٠، صحيح الأعشى ٣١٩/١، تاريخ أهر
الفداء ١٠٧/١.

(٨٥) صحيح البخاري ٢٥/٣.

(٨٦) صحيح البخاري ٢٦/٣.

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن علي بن رضى الله عنه قال: ما عندنا شيء إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة عن النبى ﷺ وآله: المدينة حرم ما بين عائس إلى كذا من أحدث فيها حدثا، أو أوى محدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل (٨٧).

وروى البخارى فى صحيحه (باب فضل المدينة، وأنها تنفى الناس) عن يحيى بن سعيد قال: سمعت أبا الجباب سعيد بن يسار يقول: سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يشرب، وهى المدينة، تنفى الناس، كما تنفى خبث الحديد (٨٨).

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول: لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ماذعنوها، قال رسول الله ﷺ: ما بين لايتها حرام (٨٩).

وروى البخارى فى صحيحه (باب من رغب عن المدينة) بسنده عن عبد الله ابن الزبير عن سفيان بن أبي زهير رضى الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تفتح اليمن فيأتى قوم ييسون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح العراق، فيأتى قوم ييسون، فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، وللمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون (٩٠).

وروى البخارى فى صحيحه (باب الإيمان يأزر إلى المدينة) بسنده عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: أن الإيمان ليأزر إلى المدينة، كما تأزر الحية إلى جحرها (٩١).

وروى البخارى فى صحيحه (باب أثم من كاد أهل المدينة) بسنده عن عائشة قالت: سمعت سعدا رضى الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: لا يكيد أهل

(٨٧) صحيح البخارى ٢٦/٣.

(٨٨) صحيح البخارى ٢٦/٣.

(٨٩) صحيح البخارى ٢٦/٣ - ٢٧.

(٩٠) صحيح البخارى ٢٧/٣.

(٩١) صحيح البخارى ٢٧/٣.

المدينة أحد، إلا انماع، كما بنماع الملح فى الماء» (٩٢).

وروى البخارى فى صحيحه (باب لا يدخل الدجال المدينة) بسنده عن أبى بكره رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب، على كل باب ملكان (٩٣).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال» (٩٤).

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ليس من بلد، الا سيطرؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب، إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله كل كافر ومتافق» (٩٥).

وروى البخارى فى صحيحه «باب المدينة تنفى الخبث» بسنده عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ، فبايعه على الإسلام، فجاء من الغد محموا، فقال أفلنى، فأبى ثلاث مرار، فقال: المدينة كالكبير تنفى خبثها، وينصح طيبتها» (٩٦).

وروى مسلم فى صحيحه بسنده عن عباد بن تميم عن عمه عبد الله بن زيد بن عاصم، أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة، ودعا لأهلها وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإنى دعوت فى صاعها ومدنها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة» (٩٧).

وعن رافع بن خديج قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإنى

(٩٢) صحيح البخارى ٢٧/٢.

(٩٣) صحيح البخارى ٢٨/٣.

(٩٤) صحيح البخارى ٢٨/٣.

(٩٥) صحيح البخارى ٢٨/٣.

(٩٦) صحيح البخارى ٢٩/٢.

(٩٧) صحيح مسلم ١٣٤/٩ - ١٣٥.

أحرم ما بين لايتها - يعني المدينة (٩٨).

وعن جابر قال: قال النبي ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإنى حرمت المدينة، ما بين لايتها، لا يقطع عضاهها، ولا يصاد صيدها» (٩٩).

وحدثنا ابن نمير، حدثنا أبي، حدثنا عثمان بن حكيم، حدثنا عامر بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أحرم ما بين لايتي المدينة، أن يقطع عضاهها، أو يقتل صيدها، وقال: «المدينة خير لهم، لو كانوا يعلمون، لا يدعها أحد رغبة عنها، إلا أهدل الله فيها، من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها، إلا كنت له شفعا أو شهيدا يوم القيامة» (١٠٠).

وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «ثم ذكر مثل حديث ابن نمير، وزاد في الحديث: ولا يريد أحد أهل المدينة بسوء، إلا أذابه الله في النار، ذوب الرصاص، أو ذرب الملح في الماء» (١٠١).

وحدثنا حامد بن عمر، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عاصم قال: قلت لأنس بن مالك، أحرم رسول الله ﷺ المدينة؟ قال: نعم، ما بين كذا إلى كذا، فمن أحدث فيها حدثا قال: ثم قال لي هذه شديدة، من أحدث فيها حدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا، قال: فقال ابن أنس: أو أوى محدثا (١٠٢).

وروى مسلم في صحيحه عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: خطبنا على بن أبي طالب فقال: من زعم أن عندنا شيئا نقرؤه، إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة، قال: صحيفة معلقة في قراب سيفه، فقد كذب، فيها أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات، وفيها قال النبي ﷺ: المدينة حرم ما بين غير إلى ثور،

(٩٨) صحيح مسلم ١٣٦/٩.

(٩٩) صحيح مسلم ١٣٦/٩.

(١٠٠) صحيح مسلم ١٣٦/٩.

(١٠١) صحيح مسلم ١٣٧/٩ - ١٣٨.

(١٠٢) صحيح مسلم ١٤٠/٩ - ١٤١.

فمن أحدث فيها حدثا، أو آوى محدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا، وذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، ومن ادعى إلى غير أبيه، أو اتشى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا (١٠٣).

وعن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: حرم رسول الله ﷺ ما بين لابتي المدينة، قال أبو هريرة: فلو وجدت الظباء ما بين لابتها ماذعرتها، وجعلتني عشر ميلا (حوالي ١٩ كيلا) حول المدينة حمى (١٠٤).

وعنه ﷺ أنه قال: وإن إبراهيم حرم مكة فجعلها حرما، ولاني حرمت المدينة، حرما ما بين مأزميها، أن لا يهراق، فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا تخبط فيها شجرة، إلا لعلف، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مدنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين، والذي نفسى بيده ما من المدينة شعب ولا نعب، إلا عليه ملكان يحرسانها (١٠٥).

وعن سهل بن حنيف قال: أوى رسول الله ﷺ بيده إلى المدينة فقال: انها حرم آمن (١٠٦).

وحدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حاتم - يعني ابن اسماعيل - عن عمر بن نبيه، أخبرني دينار القراظ قال: سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: قال رسول الله ﷺ: من أرد أهل المدينة بسوء، أذابه الله كما يذوب الملح في الماء (١٠٧).

(١٠٣) صحيح مسلم ١٤٢/٩ - ١٤٤.

(١٠٤) صحيح مسلم ١٤٥/٩.

(١٠٥) صحيح مسلم ١٤٧/٩ - ١٤٨.

(١٠٦) صحيح مسلم ١٥٠/٩.

(١٠٧) صحيح مسلم ١٥٧/٩.

(٦) المسجد النبوي:

هذا وقد شرفت المدينة بمسجد سيدنا رسول الله ﷺ - ثاني الحرمين الشريفين، روى البخاري في صحيحه (باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة) بسنده عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى، (١٠٨).

وعن أبي عبد الله الأغر عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال. صلاة في مسجدي هذا، خير من ألف صلاة. فيما سواه، إلا المسجد الحرام، (١٠٩).

وروى مسلم في صحيحه بسنده عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: صلاة في مسجدي هذا، أفضل من ألف صلاة، فيما سواه، إلا المسجد الحرام (١١٠).

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة، فيما سواه، إلا المسجد الحرام (١١١).

وعن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة، يبلغ به النبي ﷺ: لا تشد الرحال، إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا، ومسجد الحرام، ومسجد الأقصى، (١١٢).

(٧) الروضة الشريفة:

هناك في مسجد سيدنا رسول الله ﷺ في المدينة المنورة «الروضة الشريفة» روى البخاري في صحيحه (باب فضل ما بين القبر والمنبر) بسنده عن عبد الله بن أبي بكر، عن عباد بن تعيم عن عبد الله بن زيد المازني، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال، ما بين بيتي ومنبري، روضة من رياض الجنة، (١١٣).

(١٠٨) صحيح البخاري ٧٦/٢

(١٠٩) صحيح البخاري ٧٦/٢..

(١١٠) صحيح مسلم ١٦٣/٩.

(١١١) صحيح مسلم ١٦٥/٩.

(١١٢) صحيح مسلم ١٦٧/٩ - ١٦٨.

(١١٣) صحيح البخاري ٧٧/٢.

وعن حفص بن عاصم عن أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال:
ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي» (١١٤).

وعن حفص بن عاصم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ما بين بيتي
ومنبري، روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي» (١١٥).

وعن عباد بن نعيم عن عبد الله بن زيد الأنصاري، أنه سمع رسول الله ﷺ
يقول: ما بين منبري وبيتى روضة من رياض الجنة» (١١٦).

هذا وقد اختلف العلماء في المراد بقوله ﷺ «ما بين بيتي (١١٧) ومنبري روضة
من رياض الجنة» (١١٨)، وفي رواية أنه قال: «ما بين هذه البيوت يعني بيوت - إلى
منبري، روضة من رياض الجنة، والمنبر على ترعة من ترع الجنة»، وفي حديث
آخر: «منبري على ترعة من ترع الجنة» هل هو على الحقيقة أم المجاز؟

والرأى عند الامام مالك (٩٠- ٩٧ أو ١٧٩ هـ / ٧٠٨ - ٧٧٩ م) أنه
الأول - أى على الحقيقة - فقال: «إنها روضة من رياض الجنة تنقل إليها،
وليست كسائر الأرض تذهب وتفتى»، ووافقة على ذلك جماعة من العلماء:
وصحبه «ابن الحاج»، وقال ابن أبي حمزة: ويحتمل أن تكون تلك البقعة نفسها
الآن من الجنة، كما أن «الحجر الأسود» منها، وتعود روضة فيها، وقال الداودي:

(١١٤) صحيح البخارى ٧٢/٢.

(١١٥) صحيح مسلم ١٦٣/٩.

(١١٦) صحيح مسلم ١٦١/٩.

(١١٧) جاء في الشفا: قال الطبري: فيه معنيان أحدهما أن المراد بالبيت بيت مكانه على الظاهر -
مع أنه روى ما بينه وبين حجرتي ومنبري»، والثاني: أن البيت هنا هو القبر - وهو قول زيد بن
أسلم في هذا الحديث - كما روى «ابن قري ومنبري»، قال الطبري: وإذا كان قبره في بيته،
اتفقت معاني الروايات، ولم يكن بينها خلاف، لأن قبره في حجرته - وهو بيت -، وقوله
«منبري على حوضي»، قيل يحتمل أنه منبره يعني الذي كان في الدنيا وهو أزهره، والثاني أن
يكون له هناك منبر، والثالث: أن قصد منبره والحضور عنده للامانة الأعمال الصالحة، يورد
المحوص، ويوجب الشرب منه قاله الجاهلي (القاضي عياض: الشفا ٩١/٢ - ٩٢).

(١١٨) رواه الإمام أحمد والشيخان والنسائي عن عبد الله بن يزيد المازني، ورواه الترمذي عن أبي
هريرة، ومثل هذا اللفظ عن أبي هريرة وأبي سعيد - أى في الموطأ - وفي نسخة صحيحه زاد -
أبو سعيد الجندري: «ومنبري على حوضي» (الملا على القارئ شرح الشفا ١٤٦/٢).

كما جاء في الشفاء - أن تلك البقعة قد ينقلها الله تعالى، فتكون في الجنة بعينها (١١٩).

على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب أصحابه إلى أن ذلك على المجاز - وليس على الحقيقة - قال الحافظ «ابن حجر العسقلاني» (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) محصل ما أول به العلماء ذلك، أن تلك البقعة كروضة من رياض الجنة، في نزول الرحمة، وحصول السعادة، بما يحصل فيها من ملازمة خلق الذكر، لا سيما في عهده ﷺ، فيكون مجازاً، أو أن العبادة فيها تؤدي إلى الجنة، فيكون مجازاً أيضاً.

وقال «ابن عبد البر» (٣٦٣ - ٤٦٣ هـ / ٩٧٣ - ١٠٧٠ م): لما كان ﷺ، يجلس في ذلك الموضع ويجلس الناس إليه للتعلم، شبهه بالروضة، لكرم ما يجتنب منه، وأضافها إلى الجنة، كقوله ﷺ «الجنة تحت ظلال السيوف» - أي أنه عمل يدخل الجنة -.

هذا وقد ذهب «ابن حزم» (٦٧٤ - ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٤ م) أيضاً إلى أن الروضة إنما هي من الجنة على سبيل المجاز، إذ لو كانت حقيقة، لكانت - كما وصف الله تعالى الجنة - «إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى» (١٢٠).

هذا وقد رجح الحافظ «ابن حجر الرأى الأول في موضع من «فتح الباري»، وأن تلك البقعة نفسها، (الروضة الشريفة، ومساحتها ١٥/٢٢ م) إنما هي روضة حقيقية من رياض الجنة، كما أن الحجر الأسود من الجنة، فيكون الموضع المذكور - أي الروضة الشريفة - روضة من رياض الجنة الآن ويعود روضة في الجنة، كما كان، ويكون للعامل بالعمل فيه روضة من رياض الجنة، وذلك لعلو مكانته ﷺ، وليكون بينه وبين الأبوة الإبراهيمية في هذا شبه، وهو أنه لما خص الخليل - عليه الصلاة والسلام - بالحجر الأسود من الجنة، خص الحبيب المصطفى ﷺ بالروضة من الجنة.

هذا فضلاً عن أن الخبير بأن الروضة من الجنة، هو الخبير بأن الحجر والمقام

(١١٩) أنظر محمد يرمى مهران: في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين - الجزء الثاني - السيرة النبوية

الشريفة - الجزء الثاني - ص ١٣٨ - ١٤١ - بيروت ١٩٩٠

(١٢٠) سورة طه: آية ١١٨.

منها، هذا ولا ينافي كون الروضة من الجنة حقيقة، حصول الجوع والعري فيها، لانصافها بصفة دار الدنيا، كما أن الحجر الأسود ومقام إبراهيم من الجنة، لكنهما نزلا في هذه الدار الكعبة المشرفة انصافاً بصفاتها، فلا يلزم من انتفاء الجوع والعري عمن حل في الجنة، انتفاؤهما فيما نقل منها، وإلا لنفى بذلك كون الحجر المقام من الجنة حقيقة، ولا قاتل به.

هذا وقد اختلف العلماء أيضاً في تحديد الروضة الشريفة، فذهب فريق إلى أنها ماسامت (أى ما قابلت ووازت) كلا من طرفي المنبر والحجرة، فتؤخذ مستوية فيدخل فيها محاذاة الحجرة من جهة الشمال، وإن لم يسمت المنبر، ومجازاة طرف المنبر من جهة القبلة، وإن لم يسمت الحجرة لتقدمه من جهة القبلة، فتكون الروضة مربعة، وهى الأروقة الثلاثة نزواق المصلى الشريف، والروقان بعده إلى صف اسطوانة الوفود، وهى التى خلفت أسطوانة الحرس، وذلك هو سقف مقدم المسجد فى زمنه عليه السلام ويدخل فى حيثئذ موقف الصف الأول مما يلي الحجرة، وجميع المصلى الشريف، وهذا هو الأولى بالإعتماد، وظاهر ما عليه غالب العلماء وعامة الناس، كما فى المنح، وقد رجحه العلامة «السمهودى» (١٢١) - ٨٤٤ - ٩١١ هـ / ١٤٤٠ - ١٥٠٥ م) فى الوفاء وخلاصته، وتبعه جمع ممن بعده من أئمتنا وغيرهم.

وخلاصة حد «الروضة الشريفة» الآن - كما جاء فى التزعة على هذا القول - الراجح - الأساطين المرخمة بالرخام الأبيض والأحمر، المذهبة إلى حد النصف منها، ودليل هذا القول، قوله عليه السلام «ما بين بيتى ومنبرى، روضة من رياض الجنة».

على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب أصحابه إلى أن الروضة الشريفة إنما هى: ماسامت الحجرة الشريفة، والقبر الشريف المنيف فقط، فتؤخذ غير مستوية، فتكون متسعة من جهة الحجرة، ضيقة من جهة المنبر، فتكون منحرفة الاطلاع،

(١٢١) أنظر من ترجمة السمهودى - للمصرى الحنفى، نزيل المدينة المنورة، وعالمها ومفتيها، ومدرسا ومزجها (شذرات الذهب ٥٠/٨ - ٥١، السحارى الضوء اللامع فى أحوال أهل القرن التاسع ٢٤٥/٥، مقدمة وفاة الوفا ٤/١-٥).

لتقدم المنبر الشريف في جهة القبلة، وتؤخر الحجرة الشريفة في جهة الشام فتكون كشكل مثلث ينطبق ضلعا، على قدر امتداد المنبر سوى الشريف، وهو خمسة أشبار - كما حروره السمهودي - ودليل هذا القول: التمسك بظاهر لفظ البينية الحقيقية من الحديث، وحيث يخرج عنها الصف الأول مما يلي الحجرة، فلا يكون من الروضة الشريفة.

وهناك وجه ثالث للنظر يذهب أصحابه إلى أن الروضة الشريفة إنما نعم جميع المسجد الذي كان موجوداً على أيام النبي ﷺ، وهو الذي جزم به السمعاني وغيره، ونقله الريمي عن الخطيب بن جملة، واستدل له بقوله ﷺ «ما بين بيتي» ، وهو مفرد مضاف يفيد العموم في سائر بيوته ﷺ، ويفسر هذا - وإن لم يستدل به - رواية صحيححة للإمام أحمد بن حنبل (١٦٤هـ/٧٨٠م - ٢٤١هـ/٨٥٥م) في «زوائد المسند» جاء فيها «ما بين هذه البيوت» - يعني بيوته ﷺ - «إلى منبري» .

ويقول «الشنقيطي» : وأنا أميل إلى رأي الإمام مالك والزم المراغي في تحديد الروضة الشريفة، لأدلة منها:

أولاً: ما ذكره في حمل الخصوص في قوله «قبري» على العموم في قوله «بيتني» .

وثانياً: ما رواه الإمام أحمد - رحمه الله - «سأبني هذه البيوت إلى منبري، روضة من رياض الجنة» .

وثالثاً: حديث: «رقوائم منبري على ترعة من ترع الجنة» ، الذي يفهم إن ما كان شمال المنبر الشريف من الأرض هو ترعة من ترع الجنة وإلى الشمال الغربي من ذلك في نهاية المسجد حيث باب الرحمة كان يقع آخر بيت من بيوت رسول الله ﷺ .

وهناك وجه رابع للنظر يصحب أصحابه إلى أن الروضة الشريفة إنما نعم جميع المسجد النبوي الشريف ، في زمنه ﷺ ، وبعد زمنه .

هذا وقد يجمع بين الروايات السابقة بأن الروضة الشريفة إنما تطلق على أماكن متفاوتة في الفضل ، فأفضلها ما بين القبر والنبر ، ثم بقية المسجد في زمنه عليه السلام ، ثم ما زيد عليه بعده ، ثم ما كان خارجاً إلى المصلى .

وعلى أية حال ، فلقد وضع العثمانيون علامات للروضة الشريفة ، بجعل أساطينها بيضاء - كما هو المشاهد الآن ، وفي عام ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م حصل نقش في رخام بعض أساطين الروضة الشريفة ، فقامت المملكة العربية السعودية بترميمها برخام أبيض أيضاً وقد أظهر ذلك أناتها .

وأما «القبة الخضراء» فهي أصلاً من بناء سلطان مصر «الملك الأشرف أبو النصر قايتباي» (١٤١٠ - ١٤٩٦ م) ، وفي عام ١٢٣٣ هـ (١٨١٧ م) أمر السلطان العثماني «محمود خان الثاني» (١٧٨٤ - ١٨٣٩ م) بترميمها - وفي رواية بهدمها من قواعدها ، وبنائها على قواعد متينة ثم طلاؤها باللون الأخضر ، الذي جعلها تسمى «بالقبة الخضراء» - بعد أن كانت خضراء - منذ بنائها «قايتباي» بناء محكماً ، وقد أخذ لها الجبس الأبيض من مصر - وقد تم ذلك في عام ٨٩٢ هـ (١٤٨٦ / ١٤٨٧ م) ، وكتب على طرازها من الناحية الغربية : «أنشأ هذه القبة الشريفة العالية ، المعترف بالتقصير الراجي عفوره القدير ، قايتباي» .

ولعل من الأهمية بسكان الإشارة إلى «الحجرة الشريفة» وكانت تسمى قديماً «المقصورة» ، قال صاحب مرآة الحرمين : وفي زلوة المسجد الجنوبية الشرقية - جزء فصل من المسجد بسور من التحاس الأصفر ، طول كل من ضلعيه - الجنوبي والشمالي - ١٦ م ، وكل من ضلعيه - الشرقي والغربي ١٥ م ، ويقال له «المقصورة الشريفة» .

وبناء المقصورة الحالي من آثار الملك «الأشرف قايتباي» من سورها الخارجي المعروف «بالشباك» إلى قبته التي فوق الداخلية ، إلى دارها الخمس ، إلى القبة الداخلية ، المبنية بحجر أبيض وأسود ، الكائنة فوق الحجرة النبوية ، التي فيها القبر الثلاثة الشريفة : قبر سيد الأنام محمد عليه السلام ، وقبرا صاحبيه وخليفته : أبي بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، رضى الله عنهما ، ومن ثم فقد مضى على هذه البناءات المؤلف منها ما يسمى «المقصورة» أو «الحجرة الشريفة» ما ينيف على أربعة قرون .

هذا وفي شمال الدائر المحمس - في داخل الشباك - حجرة السيدة فاطمة عليها السلام، أو قبرها، ويحلقه محراب يقال له «محراب فاطمة» (١٢٢). ولعلنا نختم هذا الحديث عن «المسجد النبوي الشريف» إلى أنه إنما كان مصدراً لاهتمام كتاب العالم كله، وذكره المؤرخون والأدباء والمحدثون والرحالة والجغرافيون من جزيرة العرب، ومن أرض الكنانة، ومن العراق والشام والمغرب والأندلس، ومن إيران وتركيا والهند، ومن فرنسا وإنجلترا وهولندا وألمانيا وإيطاليا. ومن ثم فقد رأينا موسوعة «مصادر تاريخ الجزيرة العربية»، إنما تخصص له في جزئها الأول بحثاً خاصاً، كتب الأستاذ «رشيد بورويبة» بعنوان، «مسجد المدينة في حقائق الكتب الثمينة»، وقدم لنا فيه قرابة تسعين كتاباً، جمعت بين كتب المحدثين وأصحاب السير، من حيث أننا نجد، بجانب مواليد الجزيرة العربية، مصريين وشاميين، وعراقيين وفرنسا، وأتراكا وهنودا، ومغاربة وأندلسيين وإنجليزيين وفرنسيين وألمانيين وإيطاليين وغيرهم.

(١٢٢) أنظر: الدكتور محمد علوي المالكي: الذخائر المحمدية ص ٧٧ - ٨٧ السهمودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ٤٢٦/٢، علي الملا القاري: شرح الشفا ١٦٣/٢ - ١٦٥، المقاضي عياض: الشفا بتدريف حقوق المصطفى ٩١/٢ - ٩٢، عبد الحميد قلبي: الذخائر القدسية، إبراهيم وفعت: مرآة الحرمين ص ٢٤٠ - ٢٤٥، محمود الشرفاوي المدينة المنورة ١٩٦ - ٢٠٣، غالي محمد الأمين الشقيلي: كتاب النار النسيم في معالم دار الرسول الأمين، ٤ - المدرجة ١٩٨٨ ص ٢٤ - ٢٧، لبيب البتونني: الرحلة فحجازية ص ٢٤٨ - ٢٥٠، إبراهيم ابن علي الميمني: المدينة بين الماضي والحاضر، محمد صبري أبو علم باشا: الروضة الشريفة، أثرى أنراض تحقيق العصرة في معالم دار الهجرة، علي حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ابن السجار: أخبار المدينة، أحمد بن عبد الحميد الميمني عمدة الأخبار في مدينة المختار، عبد القدوس الأصاوي آثار المدينة المنورة ص ٨١ - ١٧٦ - المدينة المنورة ١٩٧٣ م. نفوس ٩١٤، تقويم البلدان ص ٩٥، حراد علي ١٤٢/٤.

(٣) الطائف:

تقع الطائف على مسبعة حوالي ١٢٠ كيلو مترا إلى الجنوب الشرقي من مكة، على جبل غزوان، أبعد مكان في الحجاز، وتتميز على مكة المكرمة بأنها ذات جو طيب في الصيف، وبأنها كثيرة الشجر والتمر، وأكثرها ثمارها الزبيب والرمان والموز والأعشاب^(١) وتصل كمية المطر السنوية إلى ٢٠٠ ملليمتر، وتزيد أحيانا إلى ٤٥٠ ملليمتر، ويزيد من أهميتها انخفاض درجة الحرارة وبالتالي قلة البخر.

وتاريخ الطائف ما يزال غامضاً، وإن عشر الباحثون على كتابات مدونة على الصخور المحيطة بالمدينة، وفي مواضع ليست بعيدة عنها، بعضها بالنبطية، وبعضها بالشمودية، وبعضها الثالث بعربية القرآن الكريم، كما عشر على كتابات تشبه اليونانية، وأخرى تشبه الخط الكوفي، وإن كانت جميعها لم تدرس حتى الآن^(٢).

ويذهب الاخباريون إلى أن اسمها القديم «وج» نسبة إلى «وج» أخو «أجاء» الذي سمي به أحد جبلي طى، وهما من العماليق، وإنما سميت بالطائف بحائطها المطيف بها، وقد أقامه رجل دعوه «الدمون» حتى لا يصل إليهم أحد من العرب، ثم حاولوا بعد ذلك إعطاء صفة مقدسة، ربما بتأثير من بني ثقيف سكان الطائف، فزعموا بأنها من دعوات إبراهيم الخليل، وأنها أرض ذات شجر كانت حول الكعبة، ثم انتقلت من مكانها بدعوة إبراهيم، فطافت حول البيت، ثم استقرت في مكانها، فسميت الطائف، وزعم آخرون أن جبريل قد اقتطفها من فلسطين، وسار بها إلى مكة فطاف بها حول البيت، ثم أنزلها حول الطائف^(٣)... إلى غير ذلك من أساطير لا تقدم نفعاً، ولا تفيد علماً.

هذا وهناك من يزعم أن أول من سكن الطائف إنما هم العماليق، ثم غلبهم

(١) ياقوت ٩/٤، تقرير البلدان ص ٩٥، جواد على ١٤٢/٤.

(٢) جواد على ١٤٣/٤، القزويني: آثار البلاد ص ٩٨.

وكذا: Osman R. Rostem, Rock Inscriptions in The Hijaz, P. 11.

(٣) ياقوت ٩/٤، البكري ٨٨٦/٣، تاج العروس ١٨٤/١، المقدسي ١٠٩/٢، تقرير البلدان

٤٩٩/٣ وما بعدها

عليها بنو عدوان من قيس بن عيلان، ثم بنو عامر بن صعصعة، ثم أخذتها منهم نقيف^(٤)، وزعم آخرون أن الذين سكنوا الطائف بعد العماليق إنما هم قوم لمود قبل ارتحالهم إلى وادي القرى، ومن ثم فقد ربط أصحاب هذه الرواية نسب نقيف بالثموديين الذين سبواهم إلى جد أعلى هو «قسي بن منبه»، الذي يجعله بعضهم من «إباد»، بينما يجعله البعض الآخر من «هوزان». وزعم فريق ثالث أنه كان بالطائف قوم من يهود، طردوا من اليمن ومن يشرب، فجعاعوا إلى الطائف، وسكنوا فيها، ودفعوا الجزية لساكنيها ومنهم اتباع معاوية بن أبي سفيان أمواله بالطائف^(٥).

ويختلف أهل الطائف عن أهل مكة وعن الأعراب، من حيث ميلهم إلى الزراعة وللإشتغال بها، وعنايتهم بغرس الأشجار المثمرة التي كانوا دائمى السعى إلى تحسين أنواعها وجلب أنواع جديدة منها، كما كان لهم خبرة ومهارة بالأمور العسكرية، الأمر الذى ظهر واضحاً إبان محاصرة الرسول (ﷺ) لمدينتهم وتحصنهم بسورها، هذا إلى جانب ميل إلى الحرف اليدوية كالدباغة والتجارة والحدادة، وهى أمور مستهجنة فى نظر العربى^(٦)، وقال الهمداني عن الطائف^(٧): مدينة قديمة جاهلية، وهى بلد الدباغ يدين بها الأهب الطائفية المعروفة.

هذا وقد عاش أهل الطائف فى مستوى أرفع من عامة أهل الحجاز، بل حتى حظ قراء الطائف كان أفضل من حظ غيرهم من قراء الحجاز. وقد ذهب المفسرون إلى أن كلمة القريتين التى جاءت فى سورة الزخرف فى

(٤) المعارف ص ٩٩؛ تاج المروس ١١٠/٢، اللسان ٣٩٧/٢، الأغاني ٧٤/٤، أنساب الأشراف ص ٢٥، الاستبصار ص ١٨٣، باقوت ٩/٢ - ١١، ابن خلدون ٢٤/٢، نهاية الأرب فى فنون الأدب ص ١٩٨، ٢٠٠، وكذا El, 4, p. 734. وكذا J.A.Montgomery op.cit. p. 137

(٥) ابن سعد ٢١٢/١، أنساب الأشراف ٣٦٦/١، تاريخ الطبرى ٨٢/٣ - ٨٥، ابن الأثير ٢٦٦/٢ - ٢٦٨، ابن كثير ٣٤٥/٤ - ٣٥٢، ابن خلدون ٥٠/٢ - ٥١، البصرة الحلبية ١٣١/٣، وانظر: محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ٣٢٣/٢ - ٤٧٧ (بيروت ١٩٩٠).

(٦) اللاترى: فوج البلدان ص ٦٨.

(٧) الإكليل ١٨/١٢٠.

قول الله تعالى: وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم^(٨) أن المراد: مكة والطائف^(٩).

وكان لشاة الطائف حصون يدافعون بها عن أنفسهم وأموالهم، كما كان لهم علم بالحرب، وقد جمعوا عندهم - بجانب الحصون والأسوار - معظم وسائل المقاومة المعروفة وقت ذاك، مثل أوتاد الحديد التي ترمى بالنار، لتلقى على الجنود المختفين بالدبابات، هذا إلى جانب أنهم قد تعلموا من أهل اليمن - ومن مدينة جرش^(١٠) بالذات - صناعة المراتد والمنجنيق والدبابات^(١١).

هذا وكان أغنياء الطائف - شأنهم في ذلك شأن أغنياء مكة وغيرهم من أغنياء العرب - إما كانوا أصحاب ربا، ومن ثم فحين أسلموا، اشترط عليهم سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ: أن لا يرابوا، ولا يشربوا الخمر، ولا يزناوا، وكتب لهم كتابا^(١٢).

وكان لأهل الطائف تجارة مع اليمن، وإن كنا لانسمع عن قوافل كبيرة كقوافل أهل مكة، كانت تتاجر مع بلاد الشام أو العراق، وربما كانوا يساهمون مع تجار مكة في تجارتهم مع هذه البلاد، خاصة، وأن أثرياء قريش كانوا يستثمرون أموالهم في الطائف، وأنهم قد اشتروا بعض المياه (الآبار) وبناوا لهم منازل بالطائف للإقامة بها صيفاً، فضلاً عن إسهامهم مع كبار القوم في تقيف في أعمال تجارية رابحة، وحاولوا - جاهدين - ربط الطائف بمكة^(١٣).

(٨) سورة الزخرف: آية ٣١.

(٩) أنظر تفسير ابن كثير ١٩١/٤ - ١٩٢، تفسير النسفي ١١٧/٤، تفسير الطبري ٣١٨٦/٢٥،

تفسير الطبرسي ٤٦/٥، تفسير الزمخشري ٣٥٠/٢، البلاذري، أنساب الأشراف ٣٦٦/١.

(١٠) حرش وقع على مسعدة ٣٠ كيلا جنوب «أبها»، وعلى مسعدة ٢٠ كيلا من «خميس مشيط» بالمحردة - وليست حرش الأردن -.

(١١) المنجنيق: آلة من آلات الحصار، ترمى بها الحجارة وغيرها من القذائف، وأما الدبابة: فآلة تتخذ لقب الحصون يدخل فيها الجنود، ويصرون في أصل حائط الحصن حتى يتقوه، وكانت في أبسط مظاهرها في تلك المهور تتخذ من الخشب ليحتمى بها الجنود، وهم ينفرون الحصون (محمد يومي مهران، السيرة النبوية الشريفة ٤٢٤/٢).

(١٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٦٧، السيرة الحلبية ٢٤٠/٣ - ٢٤٤.

(١٣) البلاذري فتوح البلدان ص ٦٨ وما بعدها.

على أن أهل الطائف من ناحية أخرى، إنما كانوا يحاولون أن يأخذوا مكانة قريش التجارية، وقد نجحوا إلى حد ما يوم استولى الفرس على اليمن، فكانت قوافل كسرى التجارية، ولطائف ملوك المناذرة في الحيرة، تذهب إلى اليمن وتعود منها، عن طريق الطائف، غير أن أثرياء قريش سرعان ما نجحوا في بسط سلطانهم على الطائف، عن طريق إقراض ساداتها الأموال، وشراء الأرضين هناك، حتى جعلوا من الطائف - آخر الأمر - بمثابة التابع لقريش (١٤).

وأما أهم معبودات الطائف في الجاهلية فقد كانت «اللات» (١٥)، وهي من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب، وقد انتقلت إلى الحجاز - فيما يبدو - من الأنباط، والقبائل العربية الشمالية، وتروى المصادر العربية أنها كانت صخرة مربعة، بنت عليها «تقيف» في مدينة الطائف بيتاً تضاهي به الكعبة المشرفة، وكانت العرب تعظم بيت اللات، بل أن «تقيفاً» إنما كانت تخص اللات، بما كانت تخص به قريش «العزى»، فكان الواحد منهم إذا قدم من سفر، توجه إلى بيت اللات، فتتقرب إليه، وشكر اللات على عودته سالماً، ثم يذهب إلى بيته، هذا

(١٤) البلاذري، فتوح البلدان ص ٦٨، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء الرابع - بيروت ١٩٧٠ ص ١٥٢ - ١٥٣.

ومن عجب أن تبرز الطائف على مكة في عصر الأمويين - فعندما أراد معاوية بن أبي سفيان التخلص من نفوذ القرشي، استبدل المعصية القرشية بالمعصية التقيفية، كما برزت تقيف يروا .. شديداً في عهد بني مروان الأمويين وخاصة في عهد عبد الملك بن مروان وولده الوليد (أحمد إبراهيم الشريف، الحجاز قبيل ظهور الإسلام ص ٣١ - ٣٢).

(١٥) كانت «اللات» كبيرة آلهة الصفويين، وأهم الآلهة عندهم، وقد عرفها اللحيانيون كذلك، فكان من أسمائهم «بم اللات»، كما تمجد لها الأنباط، وعدوها أم الآلهة، ومن ثم فقد ذهب «روبرتس سميت» إلى أنها كانت الآلهة الأم في الشتاء، وأنها بمثابة «أرتميس» عند القرطاجيين، كما أطلق «البيجاتيوس» على مصدها في الشتاء «مخذ الأم العفراء» (أنظر: جواد علي، ٢٣٢/٦، موسكاي الحضارات القديمة ص ٣٥٨ - ٣٥٩، وبنية ديسو: العرب في سورية قبل الإسلام ص ١١١، ١١٥).

W.Caskel, Lihyan Und Lihyansch, Kohn, 1954, p. 146. ركداً

J.Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927, p. 33.

A. Grohmann, Arabien, 1963, p. 82.

W.R. Smith, op. cit, p. 33 - 34.

فضلاً عن أن القوم إنما كانوا يعتقدون أنه لا يجوز أن تقطع أشجار من حماها، ولا يصاد عنده، ولا يراق دم آدمي فيه (١٦).

وتذهب المصادر العربية إلى أن «عمراً بن لحي» هو الذي أدخل «اللات» على العرب، وطبقاً لرواية الاخباريين، فقد كان «اللات» رجلاً من ثقيف، يلت له السوق للحج على صخرة اللات، فلما مات أشاع «عمرو بن لحي» أنه لم يمت، وإنما دخل في الصخرة، ثم أمر بعبادته، وأن ينزل عليها بنياناً يسمى «اللات» (١٧). على أن رواية أخرى إنما تذهب إلى أن «عمراً بن لحي» هو الذي كان يلت السوق، ويطعم الحاج، وذهبت رواية ثالثة إلى أن يهوديا كان هو الذي يلت السوق (١٨).

وأياً ما كان الأمر، فمن المعروف أن «عمراً بن لحي» هذا، إنما هو أول من اتبع هواه، ونشر عبادة الأصنام بين العرب، روى الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤هـ / ٧٨٠م - ٢٤١هـ / ٨٥٥م) بسنده عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجر قصبة، وهو أول من سيب السوائب».

ويقول الحافظ «ابن كثير»: والمقصود أن عمراً بن لحي - لعنه الله - كان

(١٦) ابن الكلبي: كتاب الأصنام من ١٦، ١٩، ٢٧، ٤٢، ياقوت: معجم البلدان ٤/٥، ابن حبيب: الخبر من ٣١٥، محمد ميروك ناظم: المرجع السابق من ١٦٥ - ١٦٦، محمد عبد الحميد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام - القاهرة ١٩٣٦ من ١١٩، تفسير البحر المحيط ٦٠/٨، تفسير ابن كثير ٢٥٣/٤.

(١٧) ابن كثير: البداية والنهاية ١٧١/٢، الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٢٥ - ١٢٦، الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٢٨١/٢، معجم البلدان ٤/٥، الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ٣٤٦/١ (القاهرة ١٩٢٤م).

Alfred Guillaume, *Islame*, (Penguin Books), 1964, p. 7-8.

(١٨) تفسير البهزلي ٤٣٠/٢، تفسير الخازن ١٩٤/٤، تفسير روح المعاني ٤٧/٢٧، تاج المروس ٥٨٠/١، الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٢٥، اللسان ٢/ ٣٨٨، ابن الكلبي: كتاب الأصنام من ١٦.

ورني صحيح البخاري (١٧٦/٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما: اللات رجلا يلت سوين لنجاح.

قد ابتدع لهم أشياء في الدين، غير بها دين الخليل - عليه الصلاة والسلام -
فاتبه العرب في ذلك، ففعلوا بذلك ضللاً بعيداً (١٩).

هذا وكانت تحت صخرة اللات حفرة يقال لها «غنغب»، تحفظ فيها
الهدايا والندور والأسوال التي كانت تقدم للصنم، ولما أسلمت «نقيف» بعث
سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ﷺ، المغيرة بن شعبه - وهو من نقيف -
فهدمها وحرقها بالنار، ثم أخذ الأموال التي كانت في «الغنغب» وسلمها إلى أبي
سفيان بن حرب، إمتثالاً لأمر للمصطفى ﷺ (٢٠).

ولعل من الجدير بالإشارة أنه كان «لللات» حمى، وحرم في جوار الطائف،
يقصده حجيج مكة، وسواها، ويقدمون لها الذبائح، وقد حرم قطع الأشجار
والصيد والقتل في مثل هذا المكان فإن الحيوان إنما قد استمد من تلك البقعة
مناعة الحرم (٢١).

وتذهب المصادر العربية إلى أن قريشاً إنما كانت - قبل الإسلام - تطوف
بالكعبة المشرفة، وتقول: «واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرائق

(١٩) ابن كثير: البداية والنهاية ١٨٨/٢ - ١٩٠، الفاسي: العقد الثمين ١٣٦/١ (القاهرة
١٩٥٩)، شفاء الغرام ٢١/٢، ٤٦ - ٤٧ (القاهرة ١٩٥٦)، للمسعودي: مروج الذهب ٢٩/٢
- ٣٠ (بيروت ١٩٧٣)، الديار بكرى: تاريخ الخميس من ١٢٤ (القاهرة ١٣٠٢ هـ)، تاريخ
اليعقوبي ٢٥٤/١ (بيروت ١٩٦٠)، ابن مردد: الاشتقاق ٤٧٤/٢ (القاهرة ١٩٥٨)، ابن
هشام: سيرة النبي ﷺ ٨٤/١ - ٨٥، الأزرقى: أخبار مكة ٨٨/٢، ١١٨ (بيروت ١٩٦٩)،
فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٣٩٨/٦ - ٤٠٠، صحيح البخاري ١٨٤/٤، ٥٤/٦ -
٥٥، محمد يونس مهران: الحضارة العربية من ٢٢٥ - ٣٢٧، ٣٥٧ - ٣٦٣ (اسكندرية
١٩٨٨).

(٢٠) تاريخ الطبري ٩٩/٣، تاريخ ابن خلدون ٥١/٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٨٣/٢ -
٢٨٤، ابن هشام ٣٢٦/٢، بلوغ الأرب ٢٠٣/٢ - ٢٠٤، معجم البلدان ١٨٥/٤، ٥/٥،
ابن الكلبي: كتاب الأصنام من ١٧، ابن حبيب: المحبر من ٣١٥، تفسير القطري من ٦٢٦٩،
تفسير ابن كثير ٤٣٢/٧ (دار الشعب - القاهرة ١٩٧١).

J. Wellhausen, op.cit, p. 31.

وكذا

(21) P.H.Hitti, A History of The Arabs, 1960, p. 99.

J. Wellhausen, op.c cit, p. 32.

وكذا

العلا، وأن شفاعتھن لترجى، وكانوا يقولون: بنات الله، وهن يشفعن إليه (٢٢).

والى هذا يشير القرآن الكريم فى قول الله تعالى: «أفرأيتم اللات والعزى ومناة» (٢٣) الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ضيزى، إن هى إلا أسماء سميتوهن أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى» (٢٤).

وفى تفسير ابن عباس: وأخرج سعيد بن منصور والفاكهى عن مجاهد قال: كانت اللات رجلا فى الجاهلية على صخرة بالطائف، وكان له غنم، فكان يأخذ من رسلها (٢٥)، يأخذ من زيب الطائف والأقط، فيجعل منه حبا، ويطعم من يمر من الناس، فلما مات عبده، وقالوا: هو اللات (٢٦).

وكان يقرأ «اللات» مشددا (٢٧)، وهذا التفسير ظاهر على قراءة تشديد «التاء»، وهى قراءة ابن عباس، وذكر «ابن الجرى» أنها قراءة «رويس» (٢٨).

(٢٢) مستنير موسكاتى: الحضارات السامية القديمة - ترجمة وزاد عليه السيد بمقوب بكر - القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٦٠، الألوسى: بلوغ الأرب ٢٠٣/٢.

(٢٣) روى البخارى فى صحيحه (ومناة الثالثة الأخرى): حدثنا الحميدى حدثنا سفيان الزهرى: سمعت عروة، قلت لعائشة رضى الله عنها، فقالت: لما كان من أهل مناة الطاغية التى بالمشلل، لا يطوفون بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى «ان الصفا والمروة من شعائر الله، فطاف رسول الله ﷺ والمسلمون، قال سفيان: مناة بالمشلل من قديده» (صحيح البخارى ١٧٦/٦ - ١٧٧).

(٢٤) سورة النجم: آية ١٩ - ٢٣، وأنظر تفسير القرطبي ٩٩/١٧ - ١٠٣، تفسير البيضاوى ٤٣٠/٢، تفسير الكشاف ٣٠/٤ - ٣١، تفسير النسخي ١٩٦/٤ - ١٩٧، السجوطى: تفسير (الدر المنثور فى التفسير بالأمثور ١٢٦/٦ - ١٢٧)، فى ظلال القرآن ٦/٣٤٠٧ - ٣٤١٠، تفسير الطبرسي ٤٤/٢٧ - ٥١، تفسير روح المعاني ٥٤/٢٧ - ٥٨، تفسير الطبري ٥٨/٢٧ - ٦٢، تفسير أبى السعود ١١٢/٥ - ١١٣، تفسير ابن كثير ٣٩٢/٤ - ٣٩٥ (بيروت ١٩٨٦).

(٢٥) رسلها: يعنى لبنها (انظر: النهاية فى غريب الحديث - مادة رسل).

(٢٦) عبد العزيز بن عبد الله الحميدى: تفسير ابن عباس ومراتبه فى التفسير من كتب السنة ٨٤٢/٢ - ٨٤٣ (جامعة أم القرى - مكة المكرمة).

(٢٧) الدر المنثور فى التفسير بالأمثور ١٢٦/٦.

(٢٨) الشذ فى القراءات المشر ٣٧٩/٢.

هذا وقد أمر رسول الله (ﷺ) أبيا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة - وهو من ثقيف - بهدم (اللات)، فلما دخل المغيرة عليها بضربها بالمحول، وخرجت نساء ثقيف حاسرات يكيّن عليها، ثم أخذ المغيرة مالها وحليها بعد أن كسرها.

والقصة - كما تزورها كتب السيرة - أن ثقيفاً إنما كان لها موقف غير كريم من سيدنا رسول الله (ﷺ) حين خرج إليهم في أخريات شوال من عام ١٠ من المبعث (٦٢٠م) على قدميه في صحراء موحشة قاسية، ليس معه أحد إلا مولاه زيد - في بعض الروايات - فردوه جميعاً رداً منكراً، وأغلظوا له الجواب - وتجاهلوا أنه ابن عبد المطلب سيد العرب - إن لم يؤمنوا أنه رسول الله ونبيه -.

ثم شاركت «ثقيف» في غزوة حنين وأوطاس - ضد المسلمين - ولكنها سرعان ما رجعت إلى الطائف منهزمة، فدخلت حصونها، وغلقت أبوابها، بعد أن تزودت بكل ما تستطيع من مؤنة وسلاح، وأخذت أهنتها لحصار طويل الأمد - إن أراد النبي أن يحاصرهم - وكان رجال ثقيف ذوى خبرة بقتال الحصون، ومن ثم فقد أجمعوا أمرهم على الدفاع عن حصونهم بكل قوة - مهما طال الحصار -.

وطال أمد الحصار - والذي بدأ في شوال من عام ٨ هـ (فبراير ٦٣٠م) - إلى بضعة وعشرين ليلة، حاول المسلمون إبانها، إخراج ثقيف (٢٩) من حصونها فلم يفلحوا، فطلبوا منهم المبارزة فأبوا، فعيروهم بالجبن والفرار فلم يأبهوا بهم.

وهنا - وقد طال الحصار - رأى النبي - ﷺ - أن لا فائدة من الحصار وأن ثقيف قد انكسرت شوكتها، واستشار أصحابه، فقال أحدهم: نعلب في حجر، إن أقمت عليه أخذه، وإن تركته لم يضرك، وأمر الرسول (ﷺ) بالرحيل، وقيل له:

(٢٩) من أحوار ثقيف في الجاهلية أن قبيلة «خثعم» عزت بني ثقيف في الطائف، غير أن ثقيفاً - بقيادة عيلان بن سلمة - انتصرت عليهم، ومن أيامهم كذلك «يوم وج»، وفيه هزمت ثقيف بني عامر بن ربيعة، بمون من حلفائهم «بنو نصر بن معاوية» (تاريخ ابن خلدون ٣٠٩/٢ - ٣١٠، الأعلى ٤٤/١٢ - ٤٥ ط الساسي)، وانظر: الكرى: معجم ما استعجم ٧٧/١ - ٧٩، عمر رضا كحالة، معجم قتال العرب القديمة والحديثة ١٤٧/١ - ١٥١.

بارسول لله، أدع على ثقيف، فقال: انهم اهد ثقيف، وآت بهم» (٣٠).

وهذا ما حدث، فنقد أتى وفد ثقيف (٣١) في عام الوفود - العام التاسع الهجري - وأخذوا يحتضمون إلى رسول الله - ﷺ - وهو يدعوهم إلى الإسلام فأسلموا، وهدموا «اللات»، وأقاموا مسجد الطائف في مكانها. وهكذا انتهت أسطورة معبودتهم (اللات) التي كان يهدون لها الهدى، ويطوفون حولها ويسمونها «الربة»، ويضاهون بها الكعبة، بيت الله الحرام في مكة، وكان سدنتها آل أبي العاص بن أبي يسار بن مالك الثقفي» (٣٢).

هذا وتشير الأبحاث الحديثة إلى أن منطقة الطائف إنما كانت تزخر بعدد كبير من السدود القديمة، أمكن حتى الآن معرفة خمسة عشر سدا، سجل منها تسعة سدود فقط (سد عين العقرب - سد ثلبة - سد السملقي - سد مسيد - سد العمير - سد صعب - سد عرضة - سد القصية - سد السلامة) (٣٣).

(٣٠) أنظر عن غزوة الطائف (زاد الماعاد ٤٩٥/٣ - ٤٩٨، صحيح البخاري ١٩٨/٥ - ١٩٩، صحيح مسلم ١٢٢/١٢، تاريخ يعقوبي ٦٢/٢ - ٦٢، تاريخ الطبري ٨٢/٣ - ٨٥، ابن الأثير الكامل في التاريخ ٢٦٦/٢ - ٢٦٨، الندوي: السيرة النبوية ص ٣٠٦ - ٣٠٧، محمد محمد أبو شهة ٣٨٦/٢ - ٣٨٩، ابن كثير: السيرة النبوية ٦٥٢/٣ - ٦٦٤، أبو زهرة: حاتم السبكي ١٠٥٥/٣ - ١٠٥٧، الصادق عرجون ٤٠٢/٤ - ٤١٦، سيرة ابن هشام ٣٥٧/٤ - ٣٦٢، محمد يومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ٤٢٣/٢ - ٤٢٧).

(٣١) أنظر عن ثقيف وفروعها (عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة - الجزء الأول - بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ص ١٤٧ - ١٥١).

(٣٢) أنظر عن وفد ثقيف للسبي ﷺ، وإسلامهم (ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٨٢/٢ - ٢٨٤، زاد الماعاد ٥٩٥/٣ - ٦٠٢، سيرة ابن هشام ٣٩٧/٤ - ٤٠١، أبو زهرة: حاتم السبكي ١١٠٤/٣ - ١١٠٩، ابن كثير: السيرة النبوية ٥٢/٤ - ٦٢، أبو شهة ٤٢٩/٢ - ٤٣٥، الندوي: السيرة النبوية ص ٣٣٠، تاريخ الطبري ٩٦/٣ - ١٠٠، محمد يومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ٤٩١/٢، صفى الدين الماركوفاوي: الرحيق المختوم ص ٥٠٣ - ٥٠٥ (مكة المكرمة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م).

(٣٣) أنظر أيضا (سد قرويش، سد اللصب، سد سداد - سد أم المقر - سد داما، وهو الوحيد الذي يعد حوالى ١٤٠ كيلا جنوب غرب الطائف في وادي داما)، وأنظر عن هذه السدود (مجيد خان، على معنى سدود أترية في منطقة الطائف - مجلة أطلال - العدد السادس ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ص ١٢٥ - ١٣٤).

وكذا Shirley Kay, Some Ancient Dams of The Hejaz, in PSAS 1978, 68- 73, Pis 1-15, p. 74- 80.

(٤) تيماء:

تقع تيماء على مبعدة ١٠٤ كيلا إلى الشمال من العلا، وعلى مبعدة ٤٧٤ كيلا من المدينة المنورة، ١٣٧٤ كيلا من الرياض، على الطريق التجارى بين جنوب بلاد العرب وشمالها، وقد بدأت تيماء تظهر فى التاريخ على الأقل منذ أيام الملك الآشورى «تجلات بلاسر» (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) الذى ندلنا حولياته التى عثر عليها فى «كالح» (وهى نمرود الحالية، وتقع على مبعدة ٣٠ كيلا جنوبى نينوى، ٣٥ كيلا جنوب شرقى الموصل) - أنه أخذ منها الجزية، كما أخذها من زيبى (زيبية) ملكة دومة الجندل، ومن «شمسى»، فضلا عن الجالية السبئية فى ديدان^(١) هذا وقد جاء ذكر «تيماء» فى التوراة^(٢) - كما فى أسفار أيوب^(٣) وأشعيا^(٤) وأرميا^(٥) وحقوق^(٦) وعزرا^(٧) وعاموس^(٨).

وتيماء فى الروايات العربية، بلد فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى، على طريق حجاج الشام ودمشق، والأبلىق الفرد حصن السموال بين عادياء اليهودى^(٩) مشرف عليها من ناحية الغرب^(١٠)، وهو مربع الشكل تقريبا، وفى وسطه بئر، وله دعامات من الخارج، ويشبه فى تصميمه وتنفيذه حصن كعب بن

(1) Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 7.

وكذا. A.I.Olmstead, History of Assyria, p. 189.

وكذا. ANET, p. 280. وكذا. A.Musil, op.cit, p. 288.

(٢) أنظر تاريخ كتابة أسفار التوراة، كتابنا إسرائيل ١٨/٣ - ٩٦.

(٣) أيوب ٦: ١٩.

(٤) أشعيا ٢١/ ١٤.

(٥) أرميا ٤٩: ٧.

(٦) حقوق ٣: ٢٠.

(٧) عزرا ١: ٩٠.

(٨) عاموس ١: ١٢ وانظر قاموس الكتاب المقدس ٢٩٦/١ وما بعدها.

(٩) هناك من يذهب إلى أن الرجل إنما كان عربيا غساليا (انظر ص ٣٤٩، الاشتقاق ٤٣٦/٢).

وهذا يتماشى مع الفترة السياسية التى حكم فيها الفساسة، وعاصرها السموال فقد كان الفساسة هم المسيطرون على الطريق التجارى من الشمال صوب الجنوب، ولا يبعد أن يكون السموال ممن لهم سلطة فى هذه الناحية مستمدة من صلته بالفساسة (عبد الرحمن الأنصار: مجلة القاهرة ٨٢/١).

(١٠) يانوت ٦٧/١، البكرى ١/ ٣٢٠ - ٣٣٠، اللسان ٧٢/١٢، تفويض البلدان ص ٨٦، دائرة المعارف الإسلامية ١٣٠/٦.

الأخير، في المدينة المنورة (١١١)، وكان هناك من ذهب إلى أن الحسم من روميا
كان من بقايا قصر نبونيد، أو من بقايا قصور رجاء، أو من بقايا أبنية شوره من
نزل هذا المكان (١٢).

هذا وتشير كتابات الملك الأشوري «منحرب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) إلى أن
أحد أبواب العاصمة الآشورية «نينوى» - وتقع الآن تحت تلى قوينجق والنبي
يونس، على الضفة الشرقية لنهر الدجلة، على فم رافد صغير يدعى «الخسر»
(الخورصر)، على مبعدة ٤٠ كيلا من التقاء الدجلة بالزاب الأعلى قبالة
الموصل (١٣) - كان يسمى «باب الصحراء» حيث يمر منه «رجال سومر - ابل
رجاء تيماء» (١٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن اسم «تيماء» (١٥) إنما قد ورد في
الكتابات المسمارية التي ترجع إلى عهد آخر ملوك بابل «نبونيد» (٥٥٥ -
٥٣٩ ق.م) وأهم هذه الكتابات هي:

١- حوليات نبونيد - كوروش: وقد نشر هذا النص «بنجس»
(T.G. pinches) لأول مرة في عام ١٨٨٢ م، ثم أعاد نشره «سدني سمث» في
عام ١٩٢٤ م، ويتحدث النص عن أعمال «نبونيد» طبقا لنظام الحوليات وقد أشار
إلى إقامة «نبونيد» في «تيماء» منذ عام حكمه السابق، وذكر أسماء تيماء بصيغة
«ت - ما» (Te - Ma - A)، «ت - ما» (Te - Ma).

٢- قصيدة نبونيد: (Account of Nabonidus): وقد نشرها - لأول مرة -
«سدني سمث» في عام ١٩٢٤، وهي عبارة عن نص مكتوب على لوح طيني
(١١) عبد الرحمن الأنصاري: لغات عن بعض المدن القديمة في شمال غرب الجزيرة العربية، مجلة
الدار ٨٢/١ (الرياض ١٩٧٥).

(١٢) حواء على ٥٢٩/٦

(١٣) أدلر عن العواصم الآشورية (مجلس يومي مع راذ. تاريخ العراق القديم ص ٣٢٦ - ٣٣٠
المكتسرة ١٩٩٠)

(١٤) ص. ج. أنور وشيا. الملاحظات بين وادي الرافدين وتيماء ص ٣٨٧ (الجزيرة العربية قبل الإسلام
- الرياض ١٩٨٤).

(١٥) أنظر عن تيماء: حامد إبراهيم أبو حرك: مقدمة عن آثار تيماء الرياض ١٩٨٦ م

بالمتحف البريطاني، وقد أصابه تلف، غدير أن دراسات «لاندزبرجر» (Landsberger) و«بارر» (Bauer) قد سدت النقص الموجود فيه، وقد تحدث النص - وكتبه خصوم الملك - عن حملة نبونيد، وقتله لأمرها، فضلا عن ذبح ماشيتها وماشية سكان مجاوراتها، ثم تجميله للمدينة وبنائه قصرا على غرار قصر بابل، وتخصيته تيماء وتسورها، وجاء إسم تيماء في هذا النص في صيغة «ت - ما - آ».

هذا إلى جانب مجموعة أخرى من الكتابات كالم لوح الطيني الذي نشره «دوتن» في عام ١٩٢٠م، ومؤرخ بالعام العاشر من حكم نبونيد، وجاء فيه أن المؤونة كانت تنقل بالجمال من معبد في مدينة الوركاء - وتقع شرق الفرات، على مبعده ٦٠ كيلا من مدينة السماوة، ١٢٨ كيلا شمال غرب أور - إلى الملك نبونيد في أرض تيماء^(١٦).

٣- كتابة بابلية على مسلتين من الحجر: عثر عليها الأثرى الانجليزى «رايس» (D.S.Rice) في أثناء تقنياته في أطلال الجامع الكبير في «حران» أو «حاران» - وتقع على نهر يلخ، على مبعده ٩٦ كيلا من اتصاله بالفرات، وإلى الغرب من تل حلفاء، وعلى مبعده ٤٤٨ كيلا شمال شرق دمشق - في عام ١٩٥٦م، وقد نشر الباحث الانجليزى (C.J.Gadd) النص المسماى الأصلي، وترجمته مع دراسة مفصلة ظهرت عام ١٩٥٨م، وقد تحدث النص عن حملة نبونيد إلى تيماء، وإقامته هناك لمدة عشر سنوات تنقل فيها بين «دادنو» (ديدان = العلا) و«باداكو» (فدك) و«خيبر» و«هاديخو» (البديع) و«هيريو» (هريز = المدينة المنورة)، وقد اعتمد «جاده» في تحديد موقع «بديع» (البديع) على «ياقوت الحموى»، وأنها بين فدك و«خيبر»، غير أن «حمد الجاسر» إنما يرى أن «بديع» تعرف الآن باسم «الحويط»، وأنها في شرق حرة «خيبر»، وأن تيماء ورد في الكتابة بصيغة (ت - ما أ) (Te - ma - a).

ولارهب في أن ذلك كله إنما يدل على إهتمام ملوك بلاد الرافدين بتيماء،

(١٦) صبي أور وشيد: المرجع السابق ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

بل أن الملك «نبونيد» إنما قد أقام له قصرا في تيماء، عاش فيه حيناً من الدهر، قارب سنوات عشر، حتى أصبحت تيماء أثناءها، وكأنها قد غدت خليفة لبابل (١٧).

وأما «تيماء» في الكتابات الأرامية، فلقد جاء اسمها في أقدم كتابة أرامية، ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، وذلك على الوجه الأمامي لمسلة تيماء المشهورة، وقد نشر هذا النص «كوك» (Cooke)، مع ترجمة له باللغة الإنجليزية، هذا فضلا عن ترجمة عربية لها، ذم بها الدكتور محمود الغزل (١٨).

وهناك كتابة أرامية أخرى - ترجع إلى النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد - وقد عثر عليها في الكهف الرابع في «قمران» - على مقربة من البحر الميت - وقد نقش على قطعة من الرق، نشرها «ميليك» (J.T.Milik) في عام ١٩٥٦، وقد تحدث هذا النص الأرامي عن إقامة «نبونيد» في تيماء، ولكنه جعلها سبع سنوات - على عكس نص جامع حران الذي جعلها عشر سنوات - وربما قد تأثر هذا النص بنص سفر دانيال الذي جعل الملك «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) يقضى سبع سنوات مع حيوانات الصحراء، ونظرا للنزعة والصبغة اليهودية لهذا النص، فلقد رأينا كثيرا من العلماء الأجانب - من ألمان وفرنسيين واسرائيليين وسوفيت - يهتمون به، خاصة «جفرياخو» و«بوروز» و«باردتك» و«أموسين» و«ديون - سومير» و«ماير».

وأخيرا، فلقد عثر في مدينة «الحضر» على كتابة أرامية، تؤرخ بالعام الثالث قبل الميلاد، وتحدث عن قيام قبيلة «هنوتيمو» وقبيلة «بنو بلعقب» ببناء معبد للآله «نرجول» في مدينة الحضر.

(١٧) صبحي أنور رشيد: المرجع السابق ص ٢٨٨.

A.Musil, Northern Nejd, p. 224.

وكنا

S.Smith, op.cit p. 53 - 88.

وكنا

P.K.Hitti, op. cit, p. 39

وكنا

C.J.Gadd, The Harran Inscriptions of Nabonidus, AS, 8, 1958, p. 8.

(١٨) صبحي أنور رشيد: المرجع السابق ص ٣٨٩.

وأما الكتابات النبطية، فلقد عثر في الحجر (مدائن صالح) على كتابة نبطية تحمل اسم «تيماء» (١٩).

وأما عن علاقة تيماء بمصر، فلقد كانت تيماء، واحدة من مراكز الحضارة في شبه الجزيرة العربية، التي تمكس آثارها التأثير المصري، حيث قامت بدور هام على طرق تجارية استراتيجية (٢٠)، وهي الطرق التجارية - والتي تحدثنا عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب - بين مكة المكرمة وبلاد الشام، وبين مصر وجنوب الجزيرة العربية، وبين مصر وبابل، ومن المحتمل كثيراً أن هذا الطريق التجاري هو نفسه الذي يخترق المدينة في الوقت الحاضر.

وفي عصر الملك «نبونيد» (٥٥٥ - ٥٣٩ ق.م) - وكان قد اتخذها مقراً له، كما أشرنا آنفاً - كانت قد أصبحت نقطة ارتكاز للقوات العسكرية القائمة على حماية الإمبراطورية البابلية الحديثة من أعدائها، هذا فضلاً عن أن موقعها إنما كان عاملاً مهماً للإتصال الطبيعي بمصر.

هذا وقد دعت الحاجة إلى قيام تحالف عسكري بين مصر وبابل ضد فارس، في نفس الوقت الذي كانت بابل جد حريصة على استمرار قبضتها القوية على تيماء، تدعيماً لقوتها في المنطقة - وخاصة في مواجهة مصر - هذا فضلاً عن اتخاذ تيماء كنقطة ارتكاز عسكري متقدمة للدفاع عن حدودها.

ولاريب في أن أثار تيماء إنما تؤكد هذه الإتصالات، فضلاً عن التأثير المصري في تيماء، وأول هذا التأثير قصيدة نبونيد (Account of Nabonid - us) - وقد أشرنا إليها من قبل - والجليل هنا أن القصيدة تسجل استقبال نبونيد لوفد الصلح الذي بعث به إليها ملك مصر «أحمس الثاني» (أمازيس ٥٧٠ - ٥٢٦ ق.م) - من الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٤ - ٥٢٥ ق.م)، وقد نجح هذا الوفد في إعادة العلاقات الودية بين الدولتين،

(١٩) صبحي أنور رشيد: المرجع السابق ص ٣٨٩.

(٢٠) أنظر، (محمود عمر محمد سليم: التأثير المصري في قار تيماء - رسالة للشرق - مركز الدراسات الشرقية - بكلية الآداب - جامعة القاهرة - العدد الأول يناير ١٩٩٣ ص ١١١ - ١٢٣).

بعد عدة قرون من الحروب (٢١).

هذا وقد أدت عودة العلاقات الودية بين مصر وبابل إلى كثرة تردد المصريين على تيماء - حيث يقيم العاهل البابلي نبونيد - الأمر الذي أدى بدوره إلى ظهور أسماء مصرية في آثار تيماء، ومن ذلك ماورد على الوجه المكتوب بالأرامية على مسلة تيماء (٢٢)، حيث نقرأ عن قيام الكاهن «سلم شرب» (Salm- She- zeb) بن «بت - أوزير» (Pet - Osiri) بإدخال عبادة صنم جديد إلى تيماء هو «سلم هجم» فضلاً عن تشييد معبد له، ويذهب «كوك» إلى أن والد الكاهن التيمى إنما يحمل إسماً مشتقاً من المعبود المصرى (أوزير) (٢٣) وهو الاسم «بت - أوزير» وهو اسم مصرى شائع فى مصر الفرعونية (Pi- di - Wsir) (٢٤)، وأما إسم الكاهن نفسه فهو إسم آشورى أو بابلى (٢٥).

وهناك من تيماء أيضاً كتلة حجرية مكعبة عثر عليها بين بقايا «قصر الحمراء» (٢٦) - ويقع عند الطرف الشمالى الغربى لسلسلة المرتفعات الطبيعية بالمنطقة - عليها مشهدان على جانبين مختلفين يضماني ثور بين قرنية قرص الشمس، ويمثل المشهد الأول نقش عليه رأس ثور، يحمل بين قرنيه قرص

(٢١) نفس المرجع السابق ص ١١١ - ١١٣، صبحى أنور رشيد: دراسة تحليلية للتأثير البابلى فى

آثار تيماء - سومر - العدد ٢٩ - بغداد ١٩٧٣ ص ١٠٧ - ١١٤.

(٢٢) مسلة تيماء أو حجر تيماء على الأصح: كشف فى عام ١٩٧٩م، وأهو محفوظ الآن بمتحف اللوفر بباريس، وهو من الحجر الرملى (١١٠ × ٤٣ × ١٢ سم) ونهايته العلوية مقوسة، ويرجع إلى عصر نبوليد (محمود عمر: المرجع السابق ص ١٢٠ - ١٢١).

(٢٣) أنظر عن أوزير (محمد يونس مهران: الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثانى - الإسكندرية ١٩٨٩ ص ٣٤٩ - ٣٦٧).

(24) H.Ranke, Die Aegyptischen Personennamen, Band, I, Gleuckstadt, 1955, p. 123.

(٢٥) صبحى أنور رشيد: المرجع السابق ص ١٢٨.

(٢٦) أنظر عن قصر الحمراء (جات بودن، ميلر، وكريستوفر ايلز: دراسات تحليلية - برنامج حصر المعالم الأثرية فى موقع تيماء القديمة - التنقيبات الأولية فى تيماء ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م - الأطلال - الرياض ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م ص ٨٩ - ٩١، حامد إبراهيم أو بودرك: المرجع السابق ص ٣٧ - ٥٢.

الشمس، وقد وضعت رأسه على مذبح يتكرر من ثلاثة كثر حجيرة، يعلوها كذبتان أخريان في يمينان بالرأس، ويقف إلى يسار المشهد رجل يرفع يده اليمنى متعبداً، وفي الجانب الآخر من المشهد - حامل قربان أو مبخرة وفوق مائدة القربان نجمة عشرة يعلوها القمر، وإلى أقصى اليسار - أعلى الرجل - قرص شمس مجنح، له جناحان مستطيلان، ونقش ريش الجناحين بشيء من التجديد، بالإضافة إلى ريش الذيل، الذي شكل أنصاف دوائر، وحول المشهد إطار يحيط به زخارف دائرية.

وعلى الجانب الشرقي من المسلة، يوجد المشهد الثاني، هو يشبه المشهد الأول إلى حد ما، ويعلوه إطار عليه زخارف في شكل زهرة اللوتس وفي النصف الأسفل من هذا النحت ثور يتجه إلى اليسار، حمل بين قرنيه قرص الشمس، وأمامه سيدة برداء طويل، تقوم بتقديم طعام للثور، وأعلى الثور قرص مجنح، أجنحته أكثر طولاً، ويظهر ريشه أكثر تفصيلاً، هذا وقد نقش الذيل بنفس الشكل الذي كان عليه في الجانب السابق، وعلى جانبيه يتدلى ذراعان، وهناك، إلى أعلى قرص الشمس، وعلى الجانب الأيمن للمشاهد، توجد نجمة ثمانية.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أنه قد تكرر ظهور الشمس المجنحة على ما يسمى باللوح الحجري المنقوش (٢٧)، وكذا على الواجهة الثانية لمسلة تيهاء، والتي قسمت إلى قسمين، فاصل بينهما خط مستقيم، حيث يضم المشهد العلوي قرصاً مجنحاً أسفله، رسم لشخص رأسه وجسده مغطيان تماماً، ويمسك بصولجان، وإلى أسفل شخص يقف إلى يسار رأس ثور وضعت على مائدة قرايين أو مذبح.

ويخلص الدكتور محمود عمر إلى أن المشاهد السابقة إنما قد كررت أمورا،

(٢٧) اللوح الحجري المنقوش: طوله ١٠٢ سم، وعرضه ٤٥ سم، ومسكه ١٦ سم، وقد نقشته هنا عشرة سطور بالأرامية السارزة، يعلوها مشهد لقرص الشمس المجنح، وجانبه نجمة ثمانية وتدر كاسل، ومن جهتي الشمس المجنح ساقان في شكل شريطين متوسلين من أسفل. كما رسمنا خطان، وريش الذيل صمم على شكل حزمة من الخطوط الرأسية (نقطة: حامد أبو ترك المرجع السابق ص ٥٩، لوحة ٤٩).

منها (أولاً) ظهور الثور ثلاث مرات، منهما مرتان فيهما قرنيه بين قرص الشمس، ومنها (ثانياً) أن الشمس المجنحة ظهرت في المشاهد الأربعة ومنها (ثالثاً) تظهر النجوم والقمر في ثلاثة مشاهد، ومنها (رابعاً) ظهرت في المشهد الأول زخارف في شكل قرص الشمس، ومنها (خامساً) ظهرت في المشهد الثاني زخارف في شكل زهرة اللوتس. وهذا التكرار تعبير عن تأثير مصري واضح، سواء في الفن أو في العقيدة فالثور قد احتل مكانة بين الحيوانات المقدسة في مصر القديمة، فقدس نوع منه باسم «أيس» لكونه ممثلاً للخصوبة والقوة، ومن ثم فقد كان يرمز بالثور إلى قوة الملك وحكمه، وقد ظهر الملك «نمرمر» على أحد وجهي لوحته المشهورة (لوحة نمرمر) - وقد كشف عنها عام ١٨٩٧م في معبد حور في «نخن» (البصيلية - مركز ادفو - محافظة أسوان)، وموجود الآن بالمتحف المصري بالقاهرة - برقم ٣٠٥٥ (٢٨) - في شكل ثور يدمر بقرنيه حصناً، وأسفله عدوه، هذا فضلاً عن أن ظهور الشمس بين قرني الثور، إنما هو تعبير عن العلاقة بين الثور المقدس وإله رع، وصلته بالسماء، وهذا تمثيل مصري قديم (٢٩). هذا وقد رمز للمعبود «بوخيس» بالثور، حيث قلعه أهالي مدينة أرمنت - وتقع على مبعده ١٥ كيلاً جنوبي الأقصر، وقد أصبحت منذ أيام الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ - ١٨٤١ ق.م) مقر لعبادة العجل المقدس بوخيس (٣٠) - وقد أدمج بوخيس مع معبود أرمنت الرئيسي «مونتو» (٣١)، وارتبط بوخيس ارتباطاً وثيقاً بعبادة رع، ومن ثم فقد رمز إليه بالثور، وبين قرنيه قرص الشمس. وتلك كلها مشاهد إنما تؤكد أصالة إتياء مشاهد تيماء إلى العقائد المصرية القديمة (٣٢).

(٢٨) أنظر عن لوحة نمرمر (محمد يوسى مهران: مصر ٢٨٤/١ (لوحة ١٨)، مصر ٢٦/٢ - ٢٧).

(٢٩):

R. Maciver and A. Mace, El-Amrah and Abydos, 1899- 1919, p

1. 17, 91

(٣٠) أنظر عن «بوخيس» (محمد يوسى مهران: الحضارة المصرية القديمة ٤٠٢/٢ - ٣٠٣ - الإسكندرية ١٩٨٩).

(٣١) أنظر عن «مونتو» (محمد يوسى مهران: الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثاني - الإسكندرية ١٩٨٩ ص ٣٨٧ - ٣٨٨).

(٣٢) محمود عمر: المرجع السابق ص ١١٢ - ١١٤.

« هذا وقد عبد العجل «أيس» لقوته الجسدية، فضلا عن قوة أخصابه، وكان مركز عبادته في «منف» (٣٣) العاصمة المصرية التليدة، وقد عثر على جبانة ضخمة مخصصة له في سفارة، حيث عثر على تماثيل من البرونز للعجل «أيس»، أحدهما تمثله، وهو يحمل قرص الشمس بين قرنيه، وتتقدمه الحية المقدسة (٣٤).

وهناك في المتحف المصري بالقاهرة تمثال (برقم JE, 38574) للبقرة المقدسة التي ترمز للإلهة «حتحور» (٣٥)، وبين قرنيها قرص الشمس، وتتقدمه الحية المقدسة، وفي المقدمة الملك تحوتمس الثالث (٣٦) (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) وهناك تمثال آخر للبقرة المقدسة الإلهة «حتحور»، وبين قرنيها قرص الشمس، تعلوه ريشتان، وفي المقدمة الملك «بسماتيك الثالث» (٥٢٦ - ٥٢٥ ق.م) تضي عليه حمايتها (٣٧).

هذا فضلا عن أن ظهور النجوم والقمر مع الشمس في مشاهد تيماء، إنما هو أيضا تأثير مصري، حيث يقرن الثور بالشمس، ومن ثم بالسماء ولهذا فلا بد وأن تقرن به المظاهر المتصلة بها من شمس ونجوم (٣٨).

(٣٣) أنظر عن منف (محمود بيومي مهران: مصر - الجزء الثاني الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٧٨ - ٨٢.

(٣٤) محسود عمر: المرجع السابق ص ١١٥.

وكتبا، H.S. Smith, A Visit to Ancient Egypt, Warminster, 1974, p. 15, 22 - 82.

(٣٥) أنظر عن «حتحور» (محمد بيومي: الحضارة المصرية القديمة الجزء الثاني ص ٤٠٤ - ٤٠٨).

(٣٦) M. Saleh and H. Souroulian, Official Catalogue The Egyptian Museum Cairo, Mainz, 1987 - 1988, p. 138.

(٣٧) M. Saleh and H. Souroulian, op.cit, p. 251.

(٣٨) ضياء أبو عازي: رخ في الدولة القديمة - القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٢٢.

وقد استمر الفنان المصري بشكل مشاهد فنية تضم الثور المقدس كاتجاه فنى يمثل جانباً من عقائد مصر القديمة، وقد ظهرت تأثيراته فى تيماء فى المشاهد الأنفة الذكر، بل لقد استمرت هذه المشاهد حتى أيام بطليموس الخامس (٢٠٥ - ١٨٠ ق.م) طبقاً للوحة (رقم ٥٤٣١٣ JE) بالمتحف المصرى بالقاهرة، وقد نقش عليها بطليموس الخامس أمام ثور، فوق رأسه قرص الشمس تعلوه ريشتان طويلتان تكسوان القرص، وهما رمز دمج أو امتزاج آمون رع.

ومن البدهى أن قرص الشمس المجنحة الذى ظهر فى تيماء إنما هو جزء من العقيدة المصرية، نراه يتقدم مداخل كثير من المقابر، فضلاً عن المعابد المصرية، هذا ونرى الشمس المجنحة تبرز أعلى اللوحة (رقم 36335 JE) بالمتحف المصرى بالقاهرة، وقد نقش عليها بطليموس الخامس أمام ثور، فوق رأسه قرص الشمس، تعلوه ريشتان طويلتان تكسوان القرص، وهما رمز دمج أو امتزاج آمون رع.

ومن البدهى أن قرص الشمس المجنحة الذى ظهر فى تيماء إنما هو جزء من العقيدة المصرية، نراه يتقدم مداخل كثير من المقابر، فضلاً عن المعابد المصرية، هذا ونرى الشمس المجنحة تبرز أعلى اللوحة (رقم 36335 JE) بالمتحف المصرى، وتؤرخ بمصر الملك أحسن الأول (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق.م) وقد أظهر الفنان فيها قدرته فى أسيابه وانسجام وتناسق الشمس وأجنحتها كما كان فنان تيماء موثقاً فى محاكاته الفن المصرى من هذه اللوحة.

ولعل من التأثيرات الواضحة أيضاً فى فن تيماء أن القدم اليسرى إنما تبرز إلى الأمام فى مشاهد الأشخاص، هذا فضلاً عن اختيار الفن التيمائى زهرة اللوتس فى تزيينه لأحد مشاهد، أضف إلى ذلك أنه قد عثر فى تيماء على أربع كسرات صغيرة من أربع أوان فخارية نقش عليها علامة المدينة أو القرية «نوت» NW.T بالمصرية القديمة.

هذا وقد عثر الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم بكر فى حفائره فى «تل بسطة» - شرقى مدينة الزقازيق - على ثلاثة أختام تحمل نفس العلامة، وتمثل تماماً تلك التى عثر عليها فى تيماء.

وهناك تمثال نحت الجزء الأعلى منه، والذي يبدأ من أعلى حزام المنتصف حتى نهاية الإزار، طبقاً للطابع المصري، وكان إزار صاحب التمثال ملامعاً لجسده، وتبرز القدم اليسرى للتمثال كجزء من الشكل العام لهذا التمثال الذي نحت بأسلوب فني مصري قديم، هذا فضلاً عن مجموعة من المجموع من القاشاني الأخضر، وكل هذه الآثار إنما تؤكد أن أهل تيماء قد تأثروا بعبادة الشمس - وربما بعبادة رع بالتحديد - وأنهم كانوا على اتصال بمصر، الأمر الذي ظهر واضحاً في آثارهم - كما رأينا آنفاً.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن هناك على مقربة من تيماء بقايا معبد عثر فيه على نقش، محفوظ الآن بمتحف اللوفر، ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد، نقرأ فيه بلغة آرامية، أن كاهناً قد أتى بصنم جديد (صلم هجم)، وبني له معبداً وبنى له كاهناً، كما صورته في زى آشوري، مما دفع البعض إلى أن يذهب إلى أن قدوم هذا الإله إنما كان على أيام نبونيد (٢٩).

هذا وقد عثر (Euting) على آثار معبد قديم، وعلى كتابة آرامية، تعود إلى فترة كانت المدينة فيها تحت السيطرة الفارسية، وإن أشارت الكتابة إلى ازدهار المدينة وقتذاك (٤٠)، هذا فضلاً عن أن (جوسين وسافينيكا) قد عثرا كذلك على «تل» هناك، فيه بقايا معبد ومجموعة من قبور القوم (٤١).

وفي عام ١٨٨٣م، عثر «هوبر» في تيماء على مسئلتها المشهورة، والتي كتبت على وجه واحد بالخط الآرامي، وعلى الجانب الأيسر نقش عليه رسمان، ربما كان الملك وكاهن، يتجه بعض الباحثين إلى أن الملك هنا إنما هو نبونيد، اعتماداً على المقارنة بين هذه المسلة ومسلة حران، وعلى أي حال، فمن المتفق عليه الآن أن هذه المسلة إنما ترجع إلى القرن الخامس ق.م (٤٢).

(39) J.A. Montgomery, op.cit, p. 67.

وكنّا S.Smith, op-cit, p. 79 - 80

وكنّا G.A. Cooke, op-cit, p. 195 - 6

(٤٠) جورد على ٢٨/٦ ، وكنّا EI, 4, p 622

(٤١) جورد على ٢٩ / ٤

A.J.Jaussen and R.Savignac, Mission Archeologique en Arabie, II, p 133, 163. (Paris, 1914).

(٤٢) عبد الرحمن الأنصاري - المرجع السابق ص ٨٢

(٥) دومة الجندل:

وتسمى دومة الجندل الآن «بالجوف»، وكان يطلق عليها في العصور الآشورية «أدوماتو»، وفي التوراة «دومة»، وفي جغرافية بطليموس "Adomatho" (Doumatha) (١)، وأما في المصادر العربية فهي «دومة الجندل» نسبة إلى دوم (أو دومان أو دما أو دوما) بن اسماعيل بن إبراهيم الحليل عليهما السلام (٢)، وعلى أي حال فقد نسبت إلى الجندل لأن حصنها مبني بالجندل وهو الصخر، وهي في رأي «السكوني» حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طى، كانت به بنو كتانة من كلب (٣)، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك نصا مصرها يرجع إلى القرن الثامن عشر ق.م، جاء فيه ذكر منطقة «دوماتو» وأميرها «اتح»، وحاول البعض تقريب الاسم إلى إمارة أو مملكة أدوم في شرق الأردن، غير أن الأكثر احتمالا تقريبا إلى «دومة» (الجندل) ذات الموقع التجارى المتميز، لاسيما وقد ذكرها الآشوريون باسم «أدوماتو»، وقد اتصلت بمصر في فترة من تاريخها (٤).

ودومة أو دومة الجندل، واحة أدم الكبيرة، وتقع على مبعدة ٤٠٠ كيلو مترا إلى الشرق من البتراء عاصمة الأنباط (٥)، على حافة النفود الكبير ومن ثم فقد كانت ذات أهمية كبيرة في التاريخ القديم، إذ كانت تعتبر بمثابة قلعة الجزيرة العربية الشمالية في وجه المهاجمين من الشمال والشمال الشرقي وإذا ماسقطت دومة الجندل تساقطت بالتالى باقى المدن المجاورة (٦).

(1) W.F.Albright, JRAS, 1925, p. 293.

F.Hommel, op.cit, p. 581, 594.

وكذا

(٢) ياقوت ٤٨٦/٢ - ٤٨٧، البكرت ١٢ / ٥٦٥، وتلك رواية اسرائيلية في الواقع، حيث تذهب نصوص التوراة إلى أن سلالة إسماعيل إنما كانت تسكن في المنطقة الواقعة إلى شمال البحر الأحمر، وتمتد من حدود مصر حتى دومة الجندل (تكوين ٢١: ٢١، ألوس موسى، شمال الحجاز ص ٦٧).

(٣) ياقوت ٤٨٧/٢، قارن: الكرى ١٢ / ٥٦٤ - ٥٦٥.

(٤) عبد المنيز صالح: شبه الجزيرة العربية في المصادر المصرية القديمة ص ٢٠٣، وانظر: B.Maisten, RTJE, 1946, p. 33.

(٥) ألوس موسى، شمال الحجاز ص ٨٢.

(٦) عبد الرحمن الأعصرى: المرجع السابق ص ٨٢.

ونقرأ في حوليات العاهل الآشوري «تجلات بلاسر الثالث» التي عشر عليها في «كالح» عن جزيرة من «زيبى» ملكة بلاد العرب، التي يرى «الموس موسل» أن مقرها إنما كان في «دومة الجندل»^(٧)، كما نقرأ كذلك في نقوش الملك «اسرحدون» (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م) أن أباه «سنحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) قد أخضع أدومانيو (أدمو Adumu) حوالي عام ٦٨٨ ق.م، وأخذ أصنامها إلى عاصمته، والأمر كذلك بالنسبة إلى الأميرة «ناري» (تبوة Tabua)، وكانت ملكة دومة الجندل «تلخونو» (تلخوخو) قد امتد سلطانها حتى حدود بابل، ثم وقعت بجانب الثوار البابليين ضد «سنحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م)، ومن ثم فإن العاهل البابلي ما إن انتهى من القضاء على الثورة، حتى اتجه إلى دومة الجندل وفرض الحصار عليها^(٨). وهناك ما يشير إلى أن خلافا قد حدث بين الملكة وبين حزائيل - سيد قبيلة قيدار - الذي تولى قيادة الجيوش ضد سنحريب، مما أدى إلى استسلام وفرار حزائيل إلى البادية، فضلا عن أسر الأميرة تبوة وأخذها إلى بابل، تمهيدا لإعدادها لتكون ملكة على قومها، تعمل بأمر آشور، وتنفذ سياسة ملوكها فيما يختص بالأعراب^(٩)، غير أن آمال الآشوريين في الملكة الجديدة قد خابت، فما أن يتم تعيينها ملكة على دومة الجندل حتى تفشل في مهمتها، ولعل السبب في ذلك إنما يرجع إلى العداء الدفين بين العرب والآشوريين، والذي ما كان في استطاعة تبوة القضاء عليه^(١٠).

(7) A.T.Olmstead, op.cit, p. 189.

وكنة: A.Musil, Arabia Deserta, p. 477.

(8) D.D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, II, 518

وكنة: P.K.Hitti, op.cit, p. 38 وكنة: ANET, p. 290

وكنة: A.Musil, op.cit, p. 48.

(9) British Museum Tablets, K, 3087, 3405

وكنة: P.K.Hitti, op.cit, p. 38

(10) A.L. Oppenheim, in ANET, p. 291.

وكنة: D.J.Wiseman, The Vassal - Treaties of Esarhaddon, London, 1958, p. 4.

وعلى أى حال، فيبدو أن دومة الجندل كانت فى هذه الفترة مركزاً دينياً هاماً للقبائل العربية، كما أن هذه المنطقة قد عرفت فى هذه الفترة حكم الملكات اللاتى كن يجمعن بين السلطتين الدينية والزمنية، ولعل أشهرهن زبيبة (يزى) وشمسى وتعلخونو وتبؤة^(١١).

وفى العهد البابلى خضعت دومة الجندل للملك نبونيد، وكما أشرنا من قبل، فلقد جرد الملك البابلى فى العام الثالث من حكمه حملة على المدينة واحتلها^(١٢).

هذا وتشير المراجع العربية إلى أن دومة الجندل إنما كانت مدينة محصنة بسور، فى داخله حصن منيع، يقال له «مارد»، نسبة البعض - طبقاً للروايات التقليدية - إلى سليمان عليه السلام، ونسبة آخرون إلى «أكيد بن عبد الملك السكونى»، وهو يهودى على رأى، وعربى من كندة على رأى آخر، وعلى أى حال، فإن الحصن على ما يبدو قد بنى قبل القرن الثالث الميلادى، لأسباب منها صلة السكونيين بكندة، ومنها أن الحصن يشتمل فى بعض أجزائه على نقوش نبطية - والأنباط كما نعرف قد انتهت دولتهم فى عام ١٠٦ م - ومع ذلك فالحصن ليس من عمل فرد واحد، ولا من فترة واحدة، وإنما من فترات متعاقبة، لعل آخرها منذ نصف قرن فقط^(١٣).

وهناك فى المصادر العربية ما يشير إلى أن سكان دومة الجندل إنما كانوا أصحاب نخل وزرع، يسقون على النواضح، وزرعهم الشجر، وكان فى بلادهم سوق يبدأ فى أول يوم من شهر ربيع الأول، وينتهى فى النصف منه، هذا وقد

(١١) عبد الرحمن الأنصارى: المرجع السابق ص ٨٢.

وكذا N. Abbot, Per- Islamic Arab Queens, in AJSL, 58, 1941 (12) CAH, 4, p. 194.

وكذا P.R. Dougherty, op.cit, p. 107.

وكذا C.J. Gadd, op.cit. p. 35.

(١٣) عبد الرحمن الأنصارى: المرجع السابق ص ٨٤، ياقوت ٤٨٧/٢، حواد على ٢٣٦/٤ -

سكن دومة قبل الاسلام قبائل كلب وجديلة وطى، كما كان يتنازع السلطان فيها «الأكيدر» و«قناقة الكلبي» الذى كان يتولى الأمر فيها، حين تكون الغلبة من نصيب الفسائنة، مما يدل على التنافس بين كتلة وبنى غسان على الطريق التجارى^(١٤)، وكانت مبايعة العرب فى دومة إلقاء الحجارة، وذلك أنه ربما اتفقوا فى السلة الرهط، فلا يجدون بدا من أن يشتركوا وهم كارهون، وربما اتفقوا فالتقوا بالحجارة جميعاً إذا كانوا عدداً على أمر بينهم، فوكسوا صاحب السلة إذا طابقوا عليه^(١٥).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه فى شعبان من عام ٦هـ (نوفمبر ٦٢٧م) أرسل سيدنا رسول الله - ﷺ - عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - إلى «بنى كلب»^(١٦) فى «دومة الجندل» (الجوف الحالية بالملكة العربية السعودية) على رأس سبع مائة من الصحابة.

وطبقاً لرواية «أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهرى» (١٦٨ - ٢٣٠هـ/٧٨٤ - ٨٤٥م) والمعروف «بكتاب الواقدي»، فإن سيدنا رسول الله - ﷺ - قال له: «أعز باسم الله، وفى سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، ولا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً» وبعثه إلى «بنى كلب» بدومة الجندل، وقال له: «إن استجابوا لك، فتزوج ابنة ملكهم، فسار عبد الرحمن حتى قدم دومة، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم «الأصبغ بن عمرو» الكلبي - وكان نصرانياً - وكان رأسهم، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام من أقام على إعطاء الجزية، وتزوج عبد الرحمن بن عوف «نماضر بنت الإصبغ»، وقدم بها إلى المدينة المنورة^(١٧).

(١٤) عبد الرحمن الأنصارى، المرجع السابق ص ٨٤، تاج العروس ٥١٨/٣، ٢٩٧/٨، المهر ص ٢٦٣ - ٢٦٤، التاريخ الكبير لابن عساكر ٨٩/١، وماهدها، نسب قرش ص ٢٧٦، جواد على ٢٢/٤ - ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٤٠.

(١٥) أبو جعفر محمد بن حبيب: كتاب المهر - حيدر آباد الدكن ١٩٤٢ - ص ٢٦٤.
(١٦) هم بنو كلب بن وبرة من قصاعة من القحطانية، كانوا يزولون دومة الجندل ويؤك وأطراف الشام. وكانوا يميلون «وداً» ثم دخلوا النصرانية فالإسلام (معجم قبائل العرب ٩٩١/٣ - ٩٩٢، صبح الأعيان ٣١٦/١، الاشتقاق ص ٤١٣، ٣١٤، الأغاني ١١١/١٧ - ١١٢، ١١٥، ١٢/١٩، ١٢٣ - ١٢٠/٢٠).

(١٧) طبقات ابن سعد ٦٤/٢، محمد حوى مهران. السيرة النبوية للشفقة ٢٢٨/٢ - ٢٢٩.

وفي أثناء غزوة تبوك (رجب ٩هـ = سبتمبر - أكتوبر ٦٣٠هـ) (١٨)، تخلف «أكيدر بن عبد الملك» - وكان نصرانياً - صاحب دومة، عن سيدنا رسول الله - ﷺ - ومن ثم فقد ندب له النبي - ﷺ - خالد بن الوليد (١٩) - رضى الله عنه - (ت ٢١هـ)، في كنية من جنده، في رجب عام ٩هـ .

وطبقاً لرواية ابن هشام فقد قال له رسول الله ﷺ: إنك ستجده يصيد البقر، فخرج خالد، حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين - وفي ليلة مقمرة صائفة وهو على سطح له، ومعه امرأته، فبانت البقر تنك بقرونها القصر فقالت امرأته: هل رأيت مثل هذا قط، قال: لا والله، قالت: فمن يترك هذا، قال: لا لأحد، فأمر بفرسه فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته - فيهم أخ له يقال له حسان - فركب وخرجوا معه بمطاردهم، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله - ﷺ - فأخذته، وقتلت أخاه، وانهزم فرسانه.

وعاد خالد بن الوليد إلى معسكر المسلمين، ومعه «أكيدر» قد نزع عنه قباؤه، وكان من دياج مخصص بالذهب، وعندما رأى النبي - ﷺ - أصحابه يلمسون القباء بأيديهم ويتمجبون، قال ﷺ: «أتمجبون من هذا فوالذي نفسي بيده، لتأديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن منه».

ثم أطلق سراح صاحب دومة الجندل، بعد أن صالحه - فيما يرى ابن سعد علي الفتي بعير، وثمانمائة رأس من اللاشية، وأربعمائه درع، وأربعمائه رمح، ثم كتب له رسول الله - ﷺ - كتاب أمان، وإن ذهبت آراء إلى أن رسول الله - ﷺ - قد عرض عليه السلام فأسلم، وأصبح أميراً على قومه.

هذا وقد عاد «خالد بن الوليد» إلى «دومة الجندل» مرة أخرى في عام

(١٨) أنظر الآراء المختلفة في التأريخ لغزوة تبوك (محمد يوسى مهران: لاسيرة النبوة الشريفة ٤٦١/٢ - ٤٦٢).

(١٩) أنظر عن خالد بن الوليد (أسد الغابة الأثير ١٠٩/٢ - ١١٠، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة ٤١٣/١ - ٤١٥، ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤٠٥/١ - ٤١٥، ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤٠٥/١ - ٤١٠، ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/٢/٤ - ٢، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١/٣٢١).

١٢ هـ، على أثر نقض «الأكيدر» للمعاهدة التي بينه وبين سيدنا رسول الله
- عليه السلام - (٢٠).

ولعل أهم معبودات أهل دومة الجندل، إنما كان المعبود «وده» (٢١)، ويذهب
الأخباريون إلى أن «عمرا بن لحي» إنما هو الذي نشر عبادة «وده» هذا في تهامة
وفي وادي القرى وفي دومة الجندل، وأن سدنته إنما كانوا من بني الفرافصة بن
الأحوص من كلب، وأن القوم قد استمروا يتعبدون له حتى كسره «خالد بن
الواليد» - بأمر من المصطفى - عليه السلام - عندما تغلب على «بنى عبد وده»، وعلى
«بنى عامر الأجدر»، وعلى «الأكيدر بن عبد الملك» صاحب دومة الجندل (٢٢)،

-
- (٢٠) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١١٩/٢ - ١٢٠ (ط دار التحرير - القاهرة ١٩٦٨)، والبلد:
كتاب المغازي ١٠٢٥/٢ - ١٠٣١، أبو زهرة: خاتم النبیین ١٠٨٥/٢ - ١٠٨٦، ابن كثير:
السيرة النبوية ٣٠/٤ - ٣٢، سيرة ابن هشام ٣٨٧/٤ - ٣٨٨، زاد اللطاف ٥٢٨/٢ - ٥٢٩، ابن
الأثير: الكامل في التاريخ ٢٨١/٢، أبو شهبة: السيرة النبوية ٤٠٨/٢ - ٤٠٩، تاريخ الطبري
٥٦٤/٢، ١٠٨/٢ - ١٠٩، حمد الجاسر: في شمال غرب الجزيرة ص ١٠٢ - ١٣٢ (الرياض
١٩٧٠م)، محمد يوسى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٤٧٧/٢ - ٤٧٨، محمد الطيب التجار،
القول المبين في سيرة سيد المرسلين - الرياض ١٩٨٢.
- (٢١) أنظر عن «وده» (محمد يوسى مهران: الحضارة العربية القديمة ص ٢٨٥ - ٢٨٦) (الاسكندرية
١٩٨٨)، الديانة العربية القديمة ص ٤٤ (الاسكندرية ١٩٧٩).
- (٢٢) ابن حبيب: المحرر ص ٣١٦، ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ٥١ - ٥٥، محمد باقون
الحموي ٣٦٧/٥.

(٦) الحجر (مدائن صالح) :

تقع الحجر (مدائن صالح) على مبعدة ٢٤ كيلا إلى الشمال من مدينة العلا الحالية، وعلى مبعدة ٣٩٤ كيلا من المدينة المنورة، على الطريق التجاري العظيم الذي يربط جنوب بلاد العرب بسورية، وتتكون من عدة جبال رملية متناثرة، ومن ثم فقد سهل على سكانها أن ينحتوا فيها مقابر لهم، إنتشرت في معظم هذه الجبال^(١)، هذا وقد ورد اسم «الحجر» بصيغة «حجرا» في نقشين على الأقل، من النقوش النبطية المحفورة على واجهات المقابر في مدائن صالح، كما وردت بصيغة «الحجرو» قريبا من إسمها العربي «الحجرة» في مقبرة رقوش^(٢).

هذا وقد جاء ذكر المدينة في جغرافية بطليموس^(٣)، كما ذكرها «إصطيفانوس البيزنطي»^(٤)، والحجر - فيما يرى البعض - هي «أجرا Egra» التي ذكرها «سترابو» في حديثه عن حملة «إليوس جالليوس» على اليمن في عام ٢٤ ق.م، وربما كان لها ميناء يعرف بـ «فرضة الحجر» ومن الممكن، بل من المحتمل أن تكون هذه الفرضة معروفة بنفس الاسم الذي عرفته به الحجر^(٥) - كما أن ميناء مدائن كانت تعرف كذلك باسم مدائن - وأن ميناء الحجر هذه ربما كانت هي بعينها الميناء التي تعرف اليوم باسم الوجه^(٦).

وتشير الكتابات التي وجدت في مدائن صالح إلى أن المدينة ربما كان قد أنشأها المعينيون، كما تشير مقابرها التي جمعت في نحتها عناصر فنية مختلفة -

(١) عبد الرحمن الأنصاري، المرجع السابق ص ٨١.

(2) Jaussen and Savignac, op.cit, I, p. 157, 177, 201.

(3) Ptolemy, VI, 7, 29.

(4) Stephanus Byzantus, I, 260.

A.Grohmann, Arabien, p. 44.

وكذا

(٥) يذهب بعض الباحثين إلى أن الحجر إنما هي مدائن صالح، بينما يذهب آخرون إلى أن مدائن صالح هي العلا، لا الحجر، يفرق آخرون بين موضع مدائن صالح والعلا (جواد على ٥٥/٢،

وكذا A.Grohmann, op.cit, p. 4, 15, 39, 40.

(٦) أبو موسى: شمال الحجاز ص ١٠٦.

فرعونية وأغريقية ورومانية وعربية - إلى أنها تشبه إلى حد كبير ما هو موجود في البتراء، ولعل هذا سببه أنهما ذات حضارة واحدة، وإن كانت مقابر مدائن صالح إنما تتميز بوجود شواهد عليها، مكتوبة بالخط الآرامي النبطي^(٧)، كما أن هناك في جبل أثلب معبداً يذكرنا بمعابد البتراء، فضلاً عن معبد آخر صغير يقع على مسبعة ١٥٠ م إلى الجنوب من الجبل الأنف الذكر^(٨)، وأخيراً فلعل من الأهمية بسكان الإشارة إلى أن هناك من يرى في الموقع النبطي «إرم» الذي اكتشف على مسبعة ٤٠ كيلاً إلى الشرق من العقبة، «إرم» المذكورة في القرآن الكريم^(٩).

ويشير «بليني» في التاريخ الطبيعي (٦: ١٥٦) أن عاصمة اللحيانيين هي «حجرا» (Hagra)، وأن مركزهم الرئيسي هو واحة ديدان على مسبعة ٢٤ كيلو متراً إلى الجنوب من الحجر - وأن اللحيانيين إنما كانوا يسكنون بكل تأكيد في واحة الحجر، كما كانوا يسكنون كذلك في ديدان، ومن هذا يمكن أن نستنتج أن «حجرا» عاصمة اللحيانيين، هي بعينها الحجر^(١٠)، ونفس الاسم (الحجر) عرفت عند الأنباط.

وأما المصادر العربية فتذهب إلى أن الحجر، إنما هي ديار ثمود، ناحية الشام عند وادي القرى^(١١)، وهم قوم سيدنا صالح عليه السلام، وقد ورد ذكرها

(٧) عبد الرحمن الأنصاري، للمرجع السابق ص ٨١.

(٨) جواد على ٥٦٣، وكنا. A.Musil, Arabia Petraea, p. 133, 146.

(٩) أنظر: سورة الفجر: آية ٨-٩، وأنظر: تفسير البيضاوي ٥٥٧/٢، تفسير الطبري ١٧٥/٣٠ -

١٨٠ (طبعة الحلبي ١٩٤٥)، التفسير الكبير للفخر الرازي ١٦٦/٣٠-١٦٩، تفسير القرطبي

٤٤/٢٠ - ٤٧ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠)، وأنظر P.K.Hitti, op.cit, p. 73.

(١٠) الويس موسيل، شمال الحجاز ص ١٠٧.

(١١) تاريخ الطبري ٢٢٦/١، البكري ٤٢٦/٢، بالوت ٢٢٠/٢، ٢٢١، ابن بطوطة ص ٢٥٩، النصر

ص ٣٨٤، للماروف ص ١٤، نهاية الأرب ص ١٩٩ - ٢٠٠، اللسان ١٧٠/٤، الويس موسيل:

المرجع السابق ص ١٠٨ - ١٠٩، ابن الأثير ٨٩/١، تاريخ الخميس ص ٨٤، قصص الأسياء

ص ٥٨ - ٥٩، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣٠/١، تفسير ابن كثير ١٧١/٤، تفسير النسفي

٢٧٧/٢، تفسير روح المعاني ١٦٢/٨، ٧٦/٤، ١٢٤/٣٠، تفسير الفار ٥٠١/٨، ١٢٠/١٢،

تفسير الطبري ٥٢٤/١٢، ٥٢٨، ٤٩/١٤، ٥٠، تفسير البيضاوي ٥٤٥/١، تفسير القرطبي

٤٨/٢٠، ٤٦/١٠، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي) ٥٤٥/١.

فى القرآن الكريم^(١٢)، وفى الحديث الشريف.

وعلى أى حال، فإن المدينة قد أخذت تفقد مكانها بالتدريج، حتى إذا ما كان القرن العاشر الميلادى أصبحت خرائب لا يسكنها أحد، هذا وقد عثر فى هذه الخرائب - التى تقع بين جبل وقصر البنت وسكة حديد الحجاز القديمة - على آثار حصن قديم، ويقال بأبراج وأعمدة ومزولة شمسية، فضلا عن نقود ترجع إلى أيام الحارث الرابع النبلى (٩ ق م - ٤٠ م)^(١٣).

هذا ومعرفتنا عن الاستقرار السكاني المبكر فى الحجر (مدائن صالح) محدودة وقليلة، ورغم وجود مجموعة من التواريخ على الآثار النبطية الثابتة فى المواقع، فيما بين عامى (١ ق م، ٧٥ م)، ومع ذلك فمن شبه المؤكد أن بداية الاستقرار إنما ترجع - على وجه اليقين - إلى تاريخ أسبق بكثير من أقدم تاريخ مكتوب، ومن ثم فليس هناك من سبيل إلى تحديد البداية الحقيقية للإستقرار، إلا عن طريق الحفائر الأثرية^(١٤).

غير أن هناك ما يشير إلى استقرار معينى فى الحجر، بدليل وجود نقوش معينة - ثلاثة على أحجار القلعة العثمانية، وثنان على واجهة أحد الآبار المجاورة - وإن كان من المحتمل أن هذه النقوش المعينة قد أتت من مكان بعيد، خارج حدود المنطقة، على أن هناك دليلا يمكن الاطمئنان إليه إلى حد ما، وأعنى به مجموعة الغرشات اللحيانية المكتوبة على مدرجات جبل «أثلب» (Ithlib) على الواجهة الشرقية لموقع الحجر^(١٥).

(١٢) سورة الحجر: آية ٨٠ - ٨٤، وانظر: تفسير القرطبي ١٠ / ٤٥ - ٤٦، تفسير روح المعاني ١٤ / ٧٥ - ٧٧.

(١٣) اللسان ١٧٠ / ٤.

(١٤) جواد على ١٦٣ و كذا A.Grohmann, op.cit, p. 66.

وكذا C.M.Doughty, op.cit, p. 113.

وكذا A.J.Jaussin and R.Savignac, Mission Aracheologikue en Arabie, I, p. 316.

(١٥) عبد الرحمن الأنصاري وأحمد عزال وحفري كنج: مواقع أثرية وصور من حضارة العرب فى المملكة العربية السعودية - الرياض ١٩٨٤ ص ١٧ - ١٨.

هذا ويذهب «ونيت» إلى وجود استقرار سكاني «معينى - لحياني» سبق الإزدهار النبطى فى الموقع، على أن «جروهمان» إنما يعيل إلى تأييد فكرة الأصل الممعينى، ويذهب «كاسل» إلى وجود نقوش لحيانية مبكرة، وأخرى متأخرة، وإن اختلف تأريخه لها عن «ونيت» هذا وذكر «بلينى» أن الحجر (Hegra) (مدائن صالح) كانت المدينة الملكية لما أسماهم (Lacanes) وضابقتها «موسل» باللحيانيين، ويؤيد «موسل» رأى القائل بأن اللحيانيين قد أقاموا فعلاً فى الحجر (مدائن صالح)، فضلاً عن «العلاء» (ديدان)، وأن الأنباط فى تحركهم من الشمال للإستقرار فى الحجر، كان اللحيانيون يحكمونهم منذ البداية^(١٦).

هذا وربما يشير الظهور المفاجئ للمقابر الكثيفة والمؤرخة فى الحجر من العام الأول قبل الميلاد، إلى أن الإستقرار السكاني قد بدأ من قبل فى المنطقة، هذا فضلاً عن أن «إليوس موسل» إنما يذهب إلى أن الحجر إنما كانت مركزاً عربياً للأنباط أثناء حملة «إليوس جاليوس» فى عام ٢٥ أو ٢٤ ق.م، كما أن بعثة جامعة لندن عام ١٩٦٨م قد عثرت على فحار نبطى فى الموقع يرجع إلى هذا التاريخ^(١٧).

هذا وقد نحتت مقابر الحجر النبطية داخل الصخور الرملية الملساء، ذات اللون الأحمر والبني، فى شكل حجرات ضخمة، نحتت فى جوانبها فتحات الدفن العميقة لدفن الجثث ذاتها، كذلك توجد أيضاً فتحات غير عميقة لوضع الأشياء

(١٦) نفس المرجع السابق ص ١٨ - ١٩.

وانظر:

F.V.Winnett and W.L. Reed, Ancient Records From North Arabia Toronto 1970, p. 130

A.Grohman, Arabien, Munich, 1963, p. 44.

W.Caskel, Lihan und Lihiyancsh, p. 23- 31.

A.Musil, The Northern, Hejaz, New York, 1926, p. 306.

(١٧) نفس المرجع السابق ص ١٩ - ٢٠.

P.J.Parr, G. L Harding and J.E.Dayton, Preliminary Survey, وانظر:

BIA. IO. 1971, p. 23.

الجانائزية التي ترافق المتوفى، يتقدم هذه الحجرات فى الواجهة مدخل مستطيل نسبياً فى بعض المقابر.

ومع أن هذا النوع من المقابر المنحوتة فى الصخر شائع فى منطقة الشرق الأدنى القديم - وقد رأيناه فى العلا - غير أن الإبتكار الفنى الذى يلفت الإنتباه فى مقابر الحجر (مدائن صالح) وبعض المواقع الأثرية فى المنطقة الشمالية الغربية (البدع) من المملكة العربية السعودية، إنما يكمن فى الزخرفة المعمارية لواجهات هذه المقابر، فقد صممت واجهات المقابر النبطية فى تناسق فنى بديع، وأخذت تكتوئنها الزخرفية المعمارية أشكالاً هندسية دقيقة، أبرزها الفنان العربي النبطى فى شكل تماثلى رائع.

ويبرز هذا الأسلوب الفنى التماثلى فى كل الوحدات الزخرفية - العمودية والأفقية - على واجهات المقابر النبطية بصفة عامة على النحو التالى: إذا بدأنا بالمدخل المستطيل الذى يؤدى إلى داخل المقبرة، نجد يحاط على كلا جانبيه بواجهة عمودية مسطحة، ناتئة من الحائط الأمامى فى بروز طفيف (Pilasters) تقوم على قاعدة، ويعلوها تاج نبطى بارز بشكل واضح ثم يتكرر هذا التماثل، لهذه الواجهات العمودية المسطحة بنفس الوصف مرة ثانية على جانبي الواجهة.

ونأتى بعد ذلك إلى الجزء الأعلى الذى يتوج هذا الجزء العمودى من الواجهة، حيث نجد التماثل الأفقى يتمثل فى تقسيمه أفقياً إلى أجزاء مستوية متوازية، تختلف مقاييسها بواسطة كرائيش أكثر بروزاً - وشبه الكرائيش التى استخدمت فى العمارة المصرية فى العصر البطلمى (٢٢٣ - ٣١ ق.م).

وفى نهاية الجزء الأعلى من الواجهة نجد أن هذا الكورنيش المصرى البارز قد توج فى معظم الواجهات بزخرفة الشرافات (Grenellated) التى نظمت أيضاً فى أسلوب فنى متماثل، وربما يرجع هذا الأسلوب فى أصله إلى الزخارف المعمارية الآشورية فى بلاد النهرين، غير أنه فى غياب إطار تاريخى يربط مملكة الأنباط بالآشوريين مباشرة، يلعب البعض إلى أن الصلات بالفن الأخمينى (Achaemenid Art) فى غرب إيران، ربما تكون أصلاً لهذا الأسلوب المعماري الفنى.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن الفنان النبطي إنما قد أخذ عن الفن الإغريقي أجمل ما فيه من عناصر معمارية، وهي فكر الإفريز الدوري، والواجهة المثثة وتفاصيلها، وقد سادت هذه العناصر في عمارة منطقة شرق البحر المتوسط طوال العصر الهلينستي، هذا فضلا عن وجود بعض التأثيرات المصرية، حيث طبق الفنان النبطي أبرز عنصر معماري في واجهة المبنى المصري القديم، وهو الكورنيش الأعلى، فنزج به بعض مقابر الحجر (مدائن صالح).

بقيت الإشارة إلى أن هناك نصا يرجع إلى عام ٢٦٧م، وجد على جدار قصر البنت في مدائن صالح، يؤكد أن الأنباط ظلوا يعيشون هناك إلى هذا التاريخ، يمارسون الدفن في مقابرهم، ويكتبون بالخط النبطي الذي عرف في كل مكان في المنطقة، وبقي مستخدم حتى القرن الرابع الميلادي.

على أن «ونيت» لا يميل إلى تأريخ النقوش الثمودية التي وجدت في الحجر، إلى ما بعد عام ٣٠٠م، كما أنه ليس هناك من دليل على أن الحجر وقعت مباشرة تحت الاحتلال الروماني، مع أن هناك معبدا في «روافة» أو عوافة - بناء الثموديون وأهدوه للإمبراطور «ماركوس أوريليوس» و «لوكيوس أوريليوس فيروس» (١٦١ - ١٨٠م) ويؤرخ فيما بين عامي ١٦٦، ١٦٩م، عليه نقوش نبطية ويونانية، هذا فضلا عن رسومات منقوشة وكتابات يونانية لأعضاء قافلة جمال رومانية بيزنطية، يبدو أنها مرت من الطريق في هذا الأقليم^(١٨).

(١٨) عبد الرحمن الأنصاري وأحمد غزال وجفري كح: مواقع أثرية وصورة من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية - الرياض ١٩٨٤ ص ٤١ - ٤٦

(٧) العلا (ديدان):

تقع العلا في وادي القبرى، جنوب شرق حرة العويرض، بين سلسلة من الجبال في الشرق والغرب، وعلى مبعدة ٣٧٠ كيلا من المدينة المنورة، ١٢٧٠ كيلا من الرياض، ٢٤ كيلا من الحجر.

ويقصد بالموقع الأثرى للعلا منطقة التلال الواطئة التي تعرف باسم «الخريبة»، وتقع إلى الشمال من مدينة العلا، حيث توجد البقايا السطحية للجدران، وتتناثر كسرات الأواني الفخارية في أماكنها الأصلية، وقد حدد «جوسين» و«سافينياك» بقايا جدران المعبد وأجزاء من أعمال نحتية، وهي بقايا أثرية يمكن التعرف عليها في هذا الجزء من الموقع لوجودها على السطح، هذا وتوجد سلسلة من المقابر المنحوتة في المنحدرات الصخرية الخلفية، يحمل كثير منها نقوشا ديدانية ولحيانية ومعينية وغيرها، وتمتد هذه الآثار على مدى كيلو متر بطول المنطقة، تطل على تلال الخريبة الواطئة نحو الجنوب في اتجاه العلا.

وتقع المقابر والنقوش المعينية في أقصى الجنوب، بينما مايقع منها بعيد إلى الشمال بالقرب من الخريبة مقابر ونقوش لحيانية، وتمثل النقوش اللحيانية الثقافة الأصلية للمنطقة، فهي بلغتها المحلية، وكتابات مميزة نوعا ما عن الكتابات الجنوبية، رغم أنها مشتقة منها، أما الثقافة المعينية فقد وردت إلى واحة العلا من العربية الجنوبية^(١).

ومن أسف أن كثيرا جدا من النقوش الموجودة على المنحدرات الصخرية إنما انتزعت من أماكنها، واستخدمت في بناء المنازل في مدينة العلا نفسها.

وكانت مدينة العلا تسمى قديما «ددن» أو «ديدان» - كما جاء في التوراة^(٢) وبعض النصوص الآشورية - وأما كلمة «ددان» فهو اسم المكان على

(١) عبد الرحمن الأنصاري وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ٧-٨.

المصدر: A.Janssen and F.Savignac, Mission Archeologique en Arabic, Paris 1914, II, p. 57 - 63.

(٢) تكمين ٧/١٠، ٣/٢٥، ارميا ٢٥/٢٣، ٨/٤٩.

رأى، وإن كان هناك من حاول الربط بين هذا الأسم، وبين إسم الآله «دد» الذى كان معبوداً عند الساميين الشماليين^(٣).

هذا وكانت مدينة العلا راحة مزدهرة قبل وأثناء القرن السادس قبل الميلاد، وإن كان تاريخها قبل ذلك يحيطه الغموض، ويذهب «لويس موسل» إلى أن «ديدان» إما كانت هدفاً للسبئيين فى جنوب بلاد العرب فى العصور المبكرة، وإن ذهب «رنييت» إلى عدم وجود أدلة من النقوش توحى بالوجود السبئى فى ديدان، وإن أنار - بشئ من التردد - إلى وجود علاقة بين السبئيين والديدانين تعتمد على الأصول المشتركة بينهما، هذا وقد لفت «بار» الانتباه إلى حقيقة أن بعض المنقوشات الطمحية من الفخار، والتي جمعت من «ديدان» إنما من نفس الأسلوب الذى جاء من المواقع الأدومية فى جنوب الأردن، وترجع إلى القرن السابع، بل وحتى بداية القرن السادس قبل الميلاد، ومن ثم فهو يفترض وجود علاقة بين السبئيين - الديدانى والأدومى - بناء على الأصول المشتركة بينهما فى شمال الجزيرة العربية^(٤).

وتاريخ المدينة يبدأ بحكومة ملكية ديدانية وطنية، أعقبها حكم الملوك اللحيانيين، أثناء الفترة الفارسية أو الهلنستية، استمر حتى بداية القرن الثانى قبل الميلاد، ومع أن آراء الباحثين ليست إجماعية حول تفسير هذا التاريخ، فالتقوس والأدلة الأثرية التى جاءت من «ديدان» حتى الآن تدعم هذا الرأى، وعلى أية حال، فهناك ما يشير إلى امتداد منطقة النفوذ اللحيانى إلى ما بعد حدود ديدان، حتى أن «بلينى» قد وصف خليج العقبة بالخليج اللحيانى^(٥).

(٣) عبد الرحمن الأنصارى - مجلة الدارة - العدد الأول - مارس ١٩٧٥ من ٧٩.

(٤) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق من ٨.

A.Musil, op.cit, p. 294.

وكنا

F.V.Winnett and W.L.Reed, op.cit, p. 113.

P.J.Parr, Archaeological Sources for The Early History of The North West Arabia, I, 1979, Part, I, p. 42.

(٥) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق من ٨-٩.

A.Musil, The Northern Hejaz, New York, 1926, p. 305

وكنا

هذا وقد عثر «جوسين وسافينياك» في عام ١٩٠٩م على بقايا تماثيل الأشخاص نحتت جيداً من الحجر في «الخربة (ديدان)»، وأعمال نحتية أخرى كانت في أماكنها ونشرت، وفي البداية ربط «جوسين» و«سافينياك» هذه التماثيل بمعبد لحياني نشره له رسماً تخطيطياً، كما نسباً كذلك إلى نفس المعبد، ذلك الحوض الكبير الذي يقف الآن وسط أنقاض الخربة ويعرف باسم «محلل» الناقه (قطره الداخلي ٣.٧٠م، وعمقه ١٢.٥م)، وقد نالت دراسة هذا المعبد اهتمام كثير من الباحثين^(٦).

هذا وقد عثر أيضاً على أربع قواعد لتماثيل، ثلاثة منها كانت في أماكنها الأصلية أو قريبة جداً منها، وقد أقيمت هذه القواعد لحمل التماثيل التي وجدت مقلوبة على الأرض، وقد نفذت هذه الأعمال النحتية في أساليب فنية مختلفة، نحت أحدها - بصفة خاصة - في دقة واتقان، وتؤرخ هذه الأعمال الفنية - فيما يرى «بار» - فيما بين القرنين الثالث والأول قبل الميلاد^(٧).

هذا ويؤرخ فخار العلا (الخربة) بالفترات الديدانية والحيانية، وقد أشار «بار» إلى عدم وجود أواني فخارية نبطية أو هلنستية متأخرة أو رومانية، الأمر الذي يشير - رغم استمرار العلا كمناطق سكنية إلى فترة متأخرة - فإن العلا (ديدان) سرعان ما تدهورت أهميتها، مع ظهور «الحجر» (ملاتن صالح) كموقع رئيسي.

هذا وقد تركز عدد كبير من النقوش والمقابر المعينية عند نهاية الطرف الجنوبي للمنحدر الصخري، شرقي الخربة، وحيث ينحني التكوين الصخري نحو الشرق، هذا وقد أثارت هذه النقوش والمقابر جدلاً في كل رأي حول التطور التاريخي لمدينة العلا (ديدان)، فذهب فريق من الباحثين إلى أن الوجود المعيني القادم من الجنوب العربي يمثل سيطرة قام بها تجار من معين لمدينة العلا، على أن وجوها آخر للنظر يذهب إلى أن الوجود المعيني في ديدان، لم يكن إلا جزءاً من شكل

(٦) أنظر:

P.J.Parr, G.L.Harding, and J. E. Dayton, Preliminary Survey in N.W. Arabia, 1968, BIA, 8-9, 1970, p. 193-242.

(٧) عبد الرحمن الأصمري وأحمد فزال وجفري كنج، المرحع السابق ص ١٠.

P.J.Parr, op.ciot, p. 42.

وكذا

عام للعلاقات التجارية بين البلدين، حيث كانت هناك مستوطنات معينة أخرى، استقرت في أماكن متعددة، ولم يكن لها سلطات سياسية قوية، وإنما كانت تجتمعاً للتجار المقيمين تحت رئاسة «كبير» (Kabir)، أو رئيس مشئول خارج الوطن العربي، مثل التجمع التجارى الذى قام فى الجزيرة اليونانية (ديلوس)، وكان يتبع «تمنع» عاصمة قتيان^(٨).

وعلى أية حال، فمن اللافت للنظر فى المقابر المعينة فى العلا (ديدان) هو صور المخلوقات التى أخذت شكل الأسد، وهى منحوتة على واجهات المنحدرات الصخرية فوق المقابر المنحوتة فى الصخر أيضاً، والمقابر التى لم تعلها صور الأسود، ربما كانت هى معينة أيضاً، بحكم وجودها داخل هذه المجموعة من النقوش المعينة المتمركزة فى هذه المنطقة الخاصة. ويذهب العلماء إلى أن هذه النحت الأسيدي، ليست إلا تقليداً لأسد الماء الذى وجده «جوسين وسافينيكا» فى الخريبة، والأسود المنحوتة فى الصخر كانت شائعة فى آسيا الصغرى وحوض الفرات الأعلى فى الألف الأولى قبل الميلاد، ويبدو أن الأسد الذى وجد فى الخريبة إنما كان مستورداً. أو نحت محلياً، ولكن بشكل أكثر دقة وفنية^(٩).

ولعل من الجدير بالإشارة أن العلا (ديدان) إنما ظلت - إلى أن أخذت الحجر مكانها - مدينة تجارية، عملت بتجارة الطيوب التى أنتجها ممالك جنوب بلاد العرب، ونقلتها عبر الصحراء بواسطة الجمال، إلى الشمال حيث يتزايد الطلب عليها، مما أعطى المدينة شخصية عالمية.

هذا وتشير الأدلة الأدبية المتاحة إلى أن القوة للحىانية فى العلا (ديدان) قد أتت إلى نهايتها حوالى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، غير أن «ونيت» إنما يذهب إلى أن اللحيانيين إنما فقدوا سلطانهم منذ أيام «مسعود» - وقد سعى نفسه ملك لحيان، واستخدم الكتابة النبطية - ولكنه لا يراه ملكاً نبطياً وفى نفس الوقت يستبعد أن يستخدم ملك لحيانى كتابة أجنبية خاصة بالأنباط ثم يذهب

(٨) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ١٠ - ١٣.

وكان Winnett and Reed, Ancient Records, 7, p. 117 - 118.

(٩) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ١٣.

إلى أن مسعوداً لم يكن سوى مجرد مغامر، تأثر بالثقافة النبطية وأن أحداث مسعود قد أنهت المملكة اللحيانية في القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد، وأن الأنباط مدوا نفوذهم تدريجياً إلى الجنوب على حساب أحداث مسعود.

على أن «وارنر كاسل» إنما يذهب إلى أن مملكة لحيان بعد سقوطها على يد مسعود، إنما استطاعت - بعد فترة نبطية فاصلة امتدت من العام التاسع قبل الميلاد، وحتى عام ٣٥م - أن تنهض من جديد، وتستأنف حياتها مرة أخرى، الأمر الذي تعارضه جمهرة العلماء^(١٠).

(١٠) نفس المرجع السابق ص ٦٥ - ١٦.

W.Caskel, op.cit, p. 40 - 43.

F.V.Winnett and W.L.Reed, op.cit, p. 130.

الفصل الثانى

فى جنوب الجزيرة العربية

(١) فى دولة معين

(١) قرناو :

كانت قرناو عاصمة دولة معين، وتقع على مرتفع حصين تحيط به الأسوار والأبراج، على مسبعة ٧ كيلا إلى الشرق من قرية «الحرم» - مركز الحكومة الحالية فى الجوف - وقد عرفت قرناو كذلك باسم «معين»، كما عرفها الكتاب القدماء من الأغارقة والرومان باسم (Karna - Karana - Carma)، وهى عند الأخباريين «معين»، وهى واحدة من أبية «التبابعة»، وأنها حصن بنى فى نفس الوقت مع «براقش»، وبعد «سلحين»، وهو حصن بنى، فيما يزعمون، فى ثمانين عاماً.

وأما أهم آثار «قرناو» فمعبد «رصاص» الذى يقع خارج أسوار المدينة، فضلاً عن آثار سكنى فى مواضع متفرقة من المدينة، التى يرى البعض أنها ظلت مأهولة بالسكان حتى القرن الثانى عشر الميلادى، ثم بدأت الظروف تتغير، فأخذ سكان المدينة يتناقصون شيئاً فشيئاً حتى تحولت آخر الأمر إلى خرائب.

(٢) براقش :

وهى المركز الدينى الهام فى دولة معين، وتسمى «بطليل» و «بائل»، وقد بقيت حتى أيام الهمداني (٢٨٠ - ٣٣٤هـ) فوصف آثارها وخرائبها، وهى نفسها مدينة (Athiula - Athrula) آخر موضع وصلت إليه حملة القائد الرومانى «إليوس جالليوس» على اليمن، عام ٢٤ ق.م، وأما سبب التحريف فى اسمها، فهو - فيما يرى البعض - صموية لغوية أو بالأحرى لفظية، ولعل إسم المدينة «بائل» قد أصبح فى العربية الفصحى «وثلة»، فقد ذكرها «الفيروز أبادى» فى القاموس إسماً لقرية، وقال من ناحية أخرى «وذو وثلة قيل» يعنى أقبال اليمن.

وعلى أية حال، فمدينة «براقش» - عد الأخباريين - جد قديمة، كان يسكنها عد ظهور الإسلام «بنو الأوير من بلحارث بن كعب، ومراد»، وأما سبب

تسميتها «براقش» فموضع خلاف عندهم، فهناك رواية تذهب إلى أنها سميت كذلك نسبة إلى «كلبة» عرفت ببراقش، على أن رواية أخرى إنما تنسبها إلى امرأة تدعى «براقش» زعموا أنها زوج لقمان بن عاد، على أن هناك رواية ثالثة تذهب إلى نسبتها إلى أميرة تدعى «براقش» أسند إليها والدها تصريف أمور الدولة أثناء غيابه في واحدة من غزواته، فما كان منها إلا أن أهتلت الفرصة، فبنت مدينتي براقش ومعين، تخليداً لذكراها، غير أن ذلك إنما أغضب والدها الملك، ومن ثم فقد أمر بهدم المدينة، وهكذا يحاول الإخباريون تفسير الأحداث ببساطة تدعو إلى العجب، غير أن الأمر الذي لاشك فيه أن المثل المشهور «على نفسها جنت براقش» إنما كان سبباً في هذه التفسيرات المتضاربة.

(٣) نشق :

وهي مدينة البيضاء، وقد استولى السبيون عليها أيام «يدع إل بين» في عصر مكاربة سبأ، ويذهب بعض الباحثين إلى أنها هي نفسها المدينة التي ذكرها الكتاب القدامى الأغارقة والرومان باسم (Mesca - Mescus)، وهي عند «سترابو» (Aska) التي استولى عليها «إليوس جالليوس» عام ٢٤ ق.م.

(٤) نشان :

تقع مدينة «نشان» (نشن) في مكان «الحربة السوداء» الحالية، وقد اكتشف هناك ما يشير إلى أن المدينة إنما كانت مركزاً صناعياً هاماً.

(٥) لوق :

يذهب «جلازر» إلى أن «لوق» إنما هي مدينة (Labecia) التي ذكرها «بلييني» (٣٢ - ٧٩ م) من بين الأماكن التي استولى عليها «إليوس جالليوس»، على أن «فون فيسمان» إنما يذهب إلى أنها «لبة» (Labbah) ^(١).

(١) انظر : محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم من ٢٣١ - ٢٣٣، الهملاني : الإكليل ١٣٨/٨، ١٠٤ - ١٠٥، معجم بقرت ٣٦٤/١، ٢٣٥/٣، ١٦٠/٥، القاموس المحيط ٢٧٢/٢، البكري ٢٣٧/١ - ٢٣٨، وكذا :

(٢) في دولة حضرموت

(١) شبوه :

لا ريب في أن مدينة «شبوه» العاصمة، إنما هي أهم مدن حضرموت، وقد ذكرها الكتاب القداسي من الأغارقة والرومان تحت إسم (Sabota, Sabotha) وهي عند «مونتجمري» (Sabtah)، وعند «هوجارث» (Sawa)، وقد ذكرها «الهمداني» من بين حصون حضرموت ومحافدها، وذهب «ياقوت» إلى أنها من حصون اليمن في جبل ريمة، وقال «ابن الحائك» : شبوه مدينة لحمير، وأحد جبلي الثلج بها، والثاني لأهل مأرب، هذا وقد خلط بعض المستشرقين بينها وبين «شيام» التي على مقربة من صنعاء.

هذا ويرجع السبق في اكتشاف آثار شبوه إلى «جون فلي» والتي من أهمها المعابد والقصور؛ فضلاً عن بقايا السدود التي كانت مقامه على وادي شبوه لحصر مياه الأمطار، فضلاً عن الإفادة منها في إرواء المناطق الخصبة، وما يزال يشاهد في وادي «أنصاص»، وفي خرائب شبوه، بقايا سدود وقنوات للإفادة من المياه عند الحاجة إليها. على أن شبوه إنما كانت تشتهر كذلك بأنها أرض اللبان والمر، وقد كانا يصدران من ميناء «قنا».

(٢) ميفعة :

وكانت عاصمة «حضرموت» قبل شبوه، وهي نفسها مدينة (Mapharitis) التي أشار إليها صاحب كتاب «الطواف حول البحر الأبيض»، وهي عند «بطليموس الجغرافي» (Maiph - Metropolis).

-
- = R. H. Sanger, The Arabian Peninsula, Cornell, 1954, P. 237.
 - H. Von Wissmann and M. Hofner, Beitrage Zur Historischen Geographie des Vorislamischen Sudarabien, Wiesbaden, 1953, P. 14 16, 32.
 - Le Museon, 1964, 3 - 4, P. 435 وكتاب Handlbuch, I, P. 70, 82 - 83.
 - A. Grohman, Arabien, Munchen, 1963.

وهناك الكثير من النصوص التي تتحدث عن نسور «ميفعة» بالحجارة والصخر المقدد والخشب، فضلاً عن الأبراج التي أقيمت حول السور لصد الغزاة، ومنها نص يشير إلى أن «هيل بن شجب» قد بنى سور المدينة وأبوابها، كما أقام فيها بيوتاً ومعابد، وأن ولده «صدق يد» قد زاد في أسوارها وأحكم بناءها، على أن الخراب سرعان ما حل بها في القرن الرابع الميلادي، ثم حل مكانها موضع عرف باسم «عيزان» (Sessani Adrumetronum).

(٣) قنا :

كانت مدينة «قنا» هي ميناء حضرموت الرئيسي، حيث كان يجمع اللبان والبخور، ثم يصدر منها براً وبحراً، وأما موقع قنا فهو إلى الشرق من حضرموت، وقد ذهب نفر من الباحثين إلى أنه في مكان «حصن الغراب الحالي»، وقد كان يعرف قديماً باسم «عرموت».

هذا وقد عثر «جيمس ولستد» في «حصن الغراب» عام ١٨٣٤م على نقش (CIH, 728) جاء فيه أن «صيد أيرد بن مشن» كان مسئولاً عن «بدش» و «قنا»، وأن ذلك قد كتب على «عرموت» (عрмаوت - حصن ماوت)، فأما قنا فهو إسم الميناء المشهور، وأما الحصن الباقي أثره حتى اليوم فهو «حصن ماوت»، وأما «بدش» (باداش) فما زال معروفاً حتى اليوم بشئ من التحريف، حيث يعيش قوم رعاة يعرفون باسم «مشايخ باداش»، ومن ثم فإن «حصن غراب» إنما هو «عرموت»، وهو حصن مدينة قنا.

(٤) مذب :

اشتهرت مدينة «مذب» أو «مذاب» بمعبدها المكرس لعبادة إله القمر «سين»، وتقع بقاياها اليوم في «الحريضة»، وقد قامت ثلاث رحلات أو زيارات (كانون طومسون، أ. جادرز، ف. شترك) في عام ١٩٣٧م برحلة إلى حضرموت، وهناك في وادي عمد، مقابل الحريضة، كشف عن معبد إله القمر «سين»، كما كشف عن بعض القبور والأواني الفخارية والخزفية التي ترجع إلى القرن السابع،

وربما القرن الخامس قبل الميلاد، هذا فضلاً عن العثور على عدد من الكتابات التي تبين أن بعضها كتابات ميثية.

على أن البعثة الأثرية لم تتوصل إلى تاريخ محدد لبناء معبد إله القمر «سين»، وإن كانت بعض واجهات المعبد إنما تعود إلى الفترة بين أواسط القرن الخامس، وحتى القرن الرابع قبل الميلاد، فضلاً عن أن بعض أجزاء المعبد إنما ترجع إلى العهد السلوقي، وأخيراً فإن هناك من يذهب إلى أن «مذاب» ومعبدها إنما يعودان إلى الفترة فيما بين القرن الخامس والثالث قبل الميلاد.

وهناك في حضرموت عدة أماكن قديمة (حضرمية وميثية) ينسبها القوم إلى عاد وثمود، فمثلاً هناك قرية «سنا» التي يزعم القوم أن بها قبر «هود» عليه السلام، وهناك في «غيبون» خرائب يظنها القوم من آثار عاد، بينما يرى الآثاريون أنها بقايا مدينة حميرية، وهناك على مقربة من «تريم» خرائب قديمة، لعلها في أغلب الظن، من آثار معبد قديم، هذا فضلاً عن مواقع أثرية أخرى، مثل حصن «عر» و حدة الغصن والمكنون وثوبة وغيرها من الأماكن التي أقيمت عليها الحصون والحاميات العسكرية^(١).

(١) محمد يوسى مهراڤ : المرجع السابق، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ ، وكلا :

- H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 86, 91, 108.
- C. Forster, The Historical Geography of Arabia, II, P.186.
- G. Caton Thompson, The Tombs nad Moon Temple of Hureidha, Oxford, 1944, P. 15F.
- W. Vincent, The Periplus of the Erythrean Sea, II, P. 301.
- D. G. Hogarth, The Penetration of Arabia, London, 1922, P. 149, 151, 221.
- Le Museon, 1947, 1 - 2, P. 71, 1961, 1 - 2, P. 194.
- Pliny, 6, 28, 32, Ptolemy, 6, 7, 38 وكلا J. B. Philby, Op. cit., P. 80F.
- J. A. Montgomery, Arabia and The Bible, Philadelphia, 1934, P. 42.

(٣) فى دولة قتيان

(١) تمنع :

لارهب فى أن «تمنع» (نمنا - تمنة) العاصمة إنما هى أهم مدن قتيان، وقد عرفها الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان باسم (Thumna-Thomna-Tomna) ويذهب «أولييرى» إلى أن المدينة التى جاءت فى جغرافية بطليموس تحت اسم (Thouma) إنما هى «تمنة»، وقد وصف «بلينى» مدينة (Thomna) بأنها من أكبر المدن فى بلاد العرب الجنوبية، وأن بها ٦٥ معبدًا، وأن المسافة بينها وبين مدينة «غزة» ٧٠٩٦ كيلا نقطها الإبل فى حوالى ٦٥ يوماً، وأن هذه المدينة ليست سوى «تمنة» عاصمة قتيان.

وتقع تمنة فى وادى بيجان فى منطقة تدل آثار الرى فيها، على أنها كانت خصبة كثيرة المياه والبساتين، وقد أثبتت أعمال الحفر التى قامت بها البعثة الأمريكية تحت رياسة «وندل فيلبس» أن موقع «تمنة» القديم إنما هو فى مكان خرائب كحلان (هجر كحلان الحالية)، وأن المدينة قد خربت بسبب حريق هائل، ربما أتى على المدينة كلها، وأن هذا الحريق ربما كان بأيدى السبعينيين إبان الحروب التى أشعل لوارها بينهم وبين القتيانيين.

هذا وقد أثبتت الحفريات أيضاً أن «تمنة» قد جددت عدة مرات، وأن مقابرها كثيراً ما انتهكت حرمانها، سواء أكان ذلك فى الأيام الغابرة أو فى العصر الحديث، وأخيراً فقد كشفت الحفريات فى منطقة تمنع عن شبكة كاملة من السدود تصل بها قنوات وصهاريج لتوفير مياه الرى لرقعة واسعة من البلاد.

(٢) حريب :

وقد ورد ذكر مدينة حريب عند الهمداني، كما اشتهرت المدينة بالنقود التى

ضربت فيها، وحملت اسمها، كما أنها كانت عاصمة دولة قتيبان في آخريات أيامها (١).

(٤) في دولة سبأ وحمير

(١) صرواح :

كانت صرواح عاصمة سبأ في العصر الأول (عصر المكاربة ٨٠٠ - ٦٥٠ ق.م)، ومقر الإله «الموفاة»، وواحدة من أهم المدن السبئية لعدة قرون بعد ذلك، ونفع الآن في موضع «الخريبة» و «صرواح الخريبة» فيما بين صنعاء ومأرب، وقد تردد ذكرها في أشعار العرب، ويصفها الهمداني بأنها لا يقارن بها شيء من المخافد المختلفة، كم جمع الكثير من الشعر الجاهلي والإسلامي الذي ورد فيه اسمها، وفي هذا كله دلالة على أهمية تلك المدينة القديمة، وعلى تأثيرها في نفوس القوم هناك، تأثيراً لم يستطع الزمن أن يمحوه بالرغم من أقول نجمها قبل الإسلام.

ويذهب الأخباريون إلى أن صرواح حصن باليمن، وأن العن قد بته للملكة «بلقيس» ملكة سبأ، بناء على أمر من سيدنا سليمان عليه السلام، ولا ريب في أن هذا نوع من الأساطير التي لعب الخيال فيها دوراً كبيراً، فضلاً عن جهل فاضح بالتاريخ، إلى جانب أثر الإسرائيليات في إرجاع أي أثر لا يعرفون صاحبه إلى سليمان وإلى جن سليمان.

(١) جواد علي : المرجع السابق ٢٢٢/٢ - ٢٢١، محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم،

ص ٢٥٩ - ٢٦١، وكذا :

- De Lacy D. D. O'Leary, Arabia before Muhammad, London, 1927, P. 97.

- W. Phillips, Qataban and Sheba, P. 58, 64, 119, 166.

- Pliny, 2, P. 453, 6, P. 32, Ptolemy, VI, 7, 37.

- C. F. Hill, Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia nad Persid, P. IXXIV, 75, Pl. XI, 21.

هذا وتوجد المناطق الأثرية في صرواح في ثلاثة مناطق متقاربة، واحدة منها هي منطقة البناء (مكان السد القديم)، والثانية هي منطقة القصر - وهي قرية حديثة البناء استخدم القوم في تشييد بعض منازلها، أحجاراً من المعابد القديمة، وأما الثالثة، فهي منطقة «الخربة» ذات الآثار الهامة.

على أن أهم آثار صرواح إنما هو المعبد الكبير - معبد الموقاة، إله القمر - والذي استندرت إحدى ناحيتيه، فجعلت منه بناء نصف بيضى الشكل، ولا يمكن معرفة التصميم الأصلي للبناء الذى يبلغ ارتفاع جدرانته أكثر من عشرة أمتار، إلا بعد عمل الحفائر حوله وتنظيف داخله، لأنه قد استخدم خلال قرون طويلة كحصن فى المصور الوسطى، وفتحوا فيه بعض المداخل، كما سدوا بعض أبوابه القديمة، واستخدموا كثيراً من الأحجار الكبيرة فى تلك الترميمات.

هذا وقد زار أستاذنا الدكتور أحمد فخرى - يرحمه الله - أنقاض معبد الموقاة، وصوّر عدداً كبيراً من النقوش التى ترجم بعضها الأستاذ «ريكمانس»، وعلى أية حال، فهناك إلى جانب معبد الموقاة، توجد عدة مبان أخرى، نقشت بعض أعمدتها بالكتابات، مثل دار بلقيس، ومعبد يفعان، الذى نال حظوة كبيرة لدى المكارية^(١).

(٢) يارب:

كانت «يارب» عاصمة سبأ فى العصر الثانى (عصر ملوك سبأ ٦٥٠ - ١١٥ ق.م)، وهى نفس المدينة التى جاءت فى الآداب اليونانية والرومانية تحت اسم «مريابا» (Mariaba). ويرى بعض الباحثين أن كلمة «يارب» مأخوذة من «يارب»

(١) الهسلى: صفة جزيرة العرب - القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٢١، ٢٤٢، ٣٦٥، الإكليل ٤٥/٨

٧٥، ٢٢/١٠، ٢٤، ٣٩، ١١٠، أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم

ص ١٥٩ - ١٦٢، محمد بيومى مهران: تاريخ العرب القديم ص ٢٨٥ - ٢٨٦، ياقوت

٤٠٢/٥، ديفل نلسن: التاريخ العربى القديم ص ٢١ - ٢٢.

- G. Ryckmans, The Publication of The Inscriptions, III, Cairo, 1951.

و «يرب» اللتين وردتا في التوراة، لو أنها كلمة آرامية الأصل مركبة من كلمتين ماء و «راب» أى الماء الكثير أو النيل الكبير. هذا وقد توهم «ياقوت الحموى» - وتابعه كثيرون - أن ساء هى مأرب، على أن الصحيح غير ذلك، فسبأ إسم البلاد والأمة، ولم تكن مدينة أبداً، كما توهموا أنها اسم لقصر كان للأزد باليمن، أو أنها إسم لكل ملك كان يلى سبأ، كما أن «تبما» إسم لكل من ولى اليمن والشحر وحضرموت.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن الإهتمام بمأرب وآثارها إنما بدأ منذ القرن الماضى، ففي ١٢ يوليو ١٨٤٣م، تمكن الصيدلى الفرنسى «جوزيف توما أرنو» من السفر من صنعاء إلى مأرب، فزار خرائب صرواح، وفحص بقايا أسوار فى مأرب، فضلاً عن معبد الموقاة الذى تقوم آثاره خارج مأرب ويطلق عليه القوم هناك اسم «محرم بلقيس»، كما نقل ٦٥ نقشاً سبئياً من هناك، وقد قام «فرزنا» القنصل الفرنسى فى جدة بنشرها عام ١٨٤٥م.

وفيما بين عامى ١٨٨٧، ١٨٨٨م، قام «إدوارد جلازر» برحلته الثالثة إلى اليمن، زار فيها مأرب ورسم تخطيطاً لآثار القنوت والسدود القديمة هناك، كما قدم وصفاً لآثار المناطق التى زارها.

وفى عام ١٩٤٧م قام أستاذنا الدكتور أحمد فخرى برحلته إلى اليمن، حيث زار مناطق صرواح ومأرب وماحولهما، وقد جمع حوالى ١٢٠ نقشاً جديداً، كما أخذ مجموعة صور «فوتوغرافية» عن سد مأرب والمعابد المختلفة، وقد نشر نتائج رحلته هذه فى بضع مقالات، وفى كتاب صدر عام ١٩٥٢م فى ثلاثة أجزاء باللغة الإنجليزية، ثم قام برحلته الثانية عام ١٩٤٨م، والثالثة عام ١٩٥٩م، وفيهما زار مأرب ونقل نقوشاً جديدة، كما زار منطقة المساجد، حيث يوجد معبد كبير شيدته «هدع إيل ذريح» الذى شيد كذلك معبد فى صرواح، وآخر فى مأرب، ثم توالى الاكتشافات بعد ذلك، ومايزال العلماء يبحثون وينقبون عن آثار اليمن العظيمة.

هذا وتقع مأرب على مبعده ١٠٠ كيلا إلى الشرق من العاصمة الحالية

«صنعاء»، وعلى ارتفاع ٣٩٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتقوم بلدة مأرب الحالية فوق جزء مرتفع من كوم أقرى كبير، هو خرائب المدينة ذات الشهرة الدائمة الصيت فى التاريخ، وقد قدم لنا «أرنو» تخطيطاً للمدينة القديمة، وذكر أنها مستديرة، وبها ثمانية أبواب، غير أن وصف «أرنو» إنما يحتاج إلى تعديل، فالمدينة مستطيلة - وليست دائرية - وأركانها مستديرة، وربما لم يكن فى أسوارها إلا أربعة أبواب فقط، بوابة فى وسط كل سور.

على أن هناك من يرى أن مأرب - شأنها فى ذلك شأن مسرواح - إنما كانت فى الأصل مدينة ذات بابين فقط، ويبدو أن هناك أماكن كثيرة مكسورة فى الجدران، اعتبرها «أرنو» أبواباً، ومساها بالأسماء التى كان يطلقها عليها الأهالى فى أيامه، أما الباب الرئيسى فى المدينة فكان فى السور الغربى، وهو الذى يسمى الآن باب المدينة، يمازالت بقاياه موجودة، وعلى كل من جانبيه آثار برج من الحجر، وفى السور البحرى باب آخر، وهو الذى يستخدمه أهالى مأرب عند الخروج لدفن موتاهم، فى الجبانة الواقعة فى الناحية البحرية من الخرائب، ولهذا أسموه باسمها، أى باب الجنة.

ومدينة مأرب - شأنها فى ذلك شأن أغلب المدن الكبرى فى اليمن القديم - مدينة مسورة بسور قوى حصين له أبراج، تمكن القوم من الدفاع عن مدينتهم، وأن السور - طبقاً لما جاء فى النقوش - قد بنى من حجر البلق، وهو حجر صلد قد من الصخر، فوجد صخور من جرانيت، ومن أسف أننا لانعرف حتى الآن من النقوش التى تم الكشف عنها فى مدينة مأرب، اسم الملك الذى أسسها وربما كانت بعض أجزاء السور الحالية من السور القديم الذى بناه مكاربة سبأ القدامى، ونعرف من نقوش كثيرة أن واحداً منهم (ابن سمه على بنوف) قد بنى حائطاً حول مأرب، كما نعرف من نقوشى (جلالزر ٤١٨، ٤١٩) أن «كرب إيل وتار» (من القرن السابع قبل الميلاد) قد أضاف بعض الأجزاء إلى سور مأرب، كما بنى بوابتين وبعض الأبراج.

هذا ويذهب الأخباريون إلى أن مؤسس مأرب إنما هو «سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»، ويرى الهمداني فى الإكليل أنه كان بمأرب ثلاثة قصور

(سلحين والهجر والقشيب)، وأهم تلك القصور هو قصر «سلحين» الذي تردد ذكره كثيراً في كتب الأدب العربي، على أنه قصر الملكة بلقيس، وكثيراً ما أشاروا إلى أعمدته القائمة وقالوا إنها تحمل العرش، وأن قواعدهما تحت الأرض مثل ارتفاعها فوقها، وهي ٢٩ ذراعاً، وأما خارج بلاد العرب، فقد جاء اسم قصر سلحين في ألقاب السيادة التي اتخذها ملوك أكسوم في نقوشهم، ومنها لقب الملك «عيزانا» الذي اعتلى العرش حوالي عام ٣٢٥ م.

ورغم أن هناك من يذهب إلى أن قصر سلحين إنما كان في الخرائب الواقعة في غربي المدينة، فمن الصعب علينا - اعتماداً على أقوال الشعراء ومباليغات الكتاب العرب - تحديد هذا القصر الذي يسميه الكتاب العرب «قصر بلقيس»، وذلك لأن اليمنيين إنما اعتادوا أن يطلقوا اسم «بلقيس» على كثير من المعابد في «صرواح»، كما اعتادوا كذلك أن يطلقوا اسم «بلقيس» على معبد يبعد عن خرائب مأرب، بل إن اسم بلقيس إنما كان يطلق أيضاً على آثار أخرى بعيدة عن منطقة أرض سبأ، مثل ماجاء في «معجم ياقوت» من أن عرش بلقيس اسم لمكان على مسيرة يوم من «ذمار»، حيث تقوم فيه ستة أعمدة من الرخام، ومن المرجح أنه يشير هنا إلى أحد المعابد التي كانت في مدينة ظفار، عاصمة الحميريين.

وهناك على مبعدة ٤ كيلا جنوب شرق مأرب، تقع خرائب معبد الإله الموقاة (المقة) رب أوام، والمعروف هناك بحرم أو محرم بلقيس، ويرى بعض الباحثين أن هذا المعبد - مثله في ذلك مثل معبد الموقاة في صرواح، ومعبد المساجد في بلاد مراد (على مبعدة ١٧ كيلا من مأرب) - إنما قد تم بناؤه في القرن الثامن قبل الميلاد.

وعلى أية حال، فطبقاً لأقدم نقوش الجدار للمعبد، فإن «يدع إيل ذريح» بن «سمة علي»، ثاني مكاربة سبأ، هو الذي بنى سور هذا المعبد المسمى «معبد أوام»، وأنه قد كرمه لإله القمر 'الموقاة'، هذا ويسجل نقش آخر في الناحية الغربية من السور أن «إيل ذريح» بن «سمة علي ذريح» ملك سبأ (حكم حوالي عام ٧٥٠

ق.م) و «شع أمر بين» بن «يكرب ملك وقار» (حكم حوالي عام ٥٢٠ ق.م)، قد أنما بناء للمعبد، هذا وهناك نقوش أخرى من عصور أحدث للملوك قاموا بأعمال خاصة في ذلك المعبد.

على أن النقوش التي كشفت عنها البعثة الأمريكية في عام ١٩٥٢ م، على مقربة من باب المعبد، إنما ترجع إلى عصور متأخرة، وبعضها يرجع إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد، أي أن معبد الإله الموقاة، رب أوام هذا، إنما ظل يؤدي وظيفته في عبادة الموقاة في مأرب قرابة ألف عام.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه، أن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن بقايا المعابد التي عثر عليها في روديسيا وأوغندا في أفريقيا، إنما هي من المعابد المتأثرة بطراز معبد أوام (محرم بلقيس)، فإن بين هذه المعابد جميعاً شبيهاً كبيراً في طراز البناء، وفي المساحة، وفي الأبعاد كذلك.

وهناك على مسبعة ١٤٠٠ متراً، إلى الشمال الغربي من محرم بلقيس، وفي المنطقة المعروفة باسم «العماييد»، نرى خمسة أعمدة قائمة، ارتفاع الواحد منها خمسة أمتار عن سطح الأرض، ومقاييس كل منها ٨٢ × ٦٣ سم، وقد أحاطت بها الخرائب من كل جانب، وطبقاً لما جاء في حجر مكتوب رآه «أرنو» في عام ١٨٤٣ م، نعرف أن اسم معبد العمايد هو «باران» وأنه طبقاً لما جاء في نقش (جلازير ٤٧٩)، فإن المعبد قد شيد للإله «الموقاة» وإن كانت الأعمدة الباقية - وكذا ما حولها من نقوش - لاتساعدنا على معرفة اسم الملك الذي قام ببناء المعبد، أو حتى تحديد عصره بوجه عام، وليس أماننا سوى الانتظار حتى تجرى حفريات جديدة، قد نعرف منها ما هو في ضمير الغيب الآن.

ولعل من الأهمية بمكان أن نتحدث الآن عن أهم آثار مأرب - من الناحية الاقتصادية - وأعني به «سد مأرب» المشهور^(١).

(١) أحمد فكري: المرجع السابق، ص ١٤٦ - ١٧٥، محمد يوسى مهراڤ: تاريخ العرب القديم ص ٢٩٦ - ٣٠٠، جواد علي ٤٣/٨ - ٤٤، ياقوت ١٨١/٣، ١٠٠/٤ - ١٩١، ٣٤/٥ - ٣٨، سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام - بيروت ١٩٧٥ م ص ٢٨٢ - ٢٨٣، الإكليل ٤٥/٨، صفة جزيرة العرب ص ٣٢ وما بعدها.

(٣) سد مأرب :

كان خصب أرض سبأ مضرب الأمثال عند العرب، وكان أهلها ينعمون بخيرات واديهم، وبما تدره التجارة التي كانوا يسيطرون عليها من أموال، وكان هناك على مقربة من مدينة مأرب فتحة لتنظيم تصريف المياه التي كانت تسيل في القناة اليمنى - إحدى القناتين اللتين كانتا تخرجان من سد مأرب - وما زالت بقايا جدرانها المشيدة بالحجر، ترى حتى الآن في الجهة الجنوبية من المدينة، وهي الباب الرئيسي في السور الذي كان يواحه معبد أولام (محرم بلقيس)، وطبقاً لنقش على الجدار الشمالي لذلك الأثر، فإن المكرب «ذمار على وثار» (من القرن السابع قبل الميلاد) هو الذي بنى هذه الفتحة أمام هيكل الإله «عشر». غير أن ولده «سمه» على ينوف هو الذي ينسب إليه أنه صاحب ومتفد أكبر مشروع للرى عرفته بلاد العرب، وذلك على الرغم من أن أهل مأرب كانوا ذوى خبرة بشئون الرى، إلا أن سدودهم إنما كانت بدائية، حتى جاء «سمه» على ينوف، وأحدث تطوراً خطيراً في وسائل الرى، وذلك حين شيد «سد رجب» للسيطرة على مياه الأمطار، والإفادة من السيول، وهكذا بدأ المشروع العظيم، والذي عرف في التاريخ باسم «سد مأرب»، ثم نما على مر الأيام، حتى اكتمل في نهاية القرن الثالث الميلادى على أيام «شمر يهرعش»، فنظم وسائل الرى، وأضاف مساحات كثيرة إلى الأرض الصالحة للإنتاج، وهكذا يعتبر عهد «سمه» على ينوف من أهم العهود بالنسبة إلى سد مأرب، بل إن أقدم ما لدينا من وثائق عن سد مأرب إنما ترجع إلى عهد هذا المكرب، والتي ترجع إلى حوالى عام ٧٥٠ ق م، وربما عام ٧٠٠ ق م. على

-
- = - A. Fakhry, An Archaeological Journey to Yemen, 3 Vols, Cairo, 1952.
- H. Von. Wissman and M. Hofner, Op. cit., P. 27 - 28.
- R. L. Bowen and W. F. Albright Archaeological Discoueries in South Arabia, Baltimore, 1958, P. 215 F.
- P. K. Hitti, Op. cit., P. 54 و W. Phillips, Op. cit., P. 256F.
- Ency. of Islam, III, P. 282 و Pliny, II, P. 467.

أن هناك ما يشير إلى أن ملوك آخرين قد أضافوا أجزاء أخرى إلى السد، فضلاً عن تقوية أجزائه القديمة، ومن أهمهم «كرب إيل بين بن ينح أمر» و«ذمار على ذريح» و«يدع إيل ونار»، وقبل هؤلاء جميعاً «ينح أمر بين» الذي سار على سنة أبيه «سمه على بنوف» في الاهتمام بتحسين وسائل الري في البلاد، فعمل على إدخال بعض التحسينات على «سد رحب»، وإنشاء فرورع له، منها فتح لغرة في منطقة صخرية، حتى تصل المياه إلى أرض «يسرن»، هذا إلى جانب عملية سد رحب وتقويته، هذا فضلاً عن إقامة «سد هباز»، وهو أكبر من سد رحب، كما أقام سده الجبار المعروف باسم «سد حبابض» الذي مكن كثيراً من الأرضين من الإفادة بأكبر كمية من المياه التي كانت من قبل عبثاً، فلا تفيد زرعاً أو ضرعاً.

ولعل هذا كله هو الذي دفع بعض الباحثين إلى اعتبار «سمه بن بنوف» وولده «ينح أمر بين»، المؤسسين الأصليين لسد مأرب، والذي يعتبر أكمل عمل هندسي عرفته شبه الجزيرة العربية في تاريخها القديم.

هذا وكان القوم يهدفون من وراء إقامة سد مأرب هذا إلى تحقيق أمرين، الواحد : السيطرة على مياه السيول المتدفقة، فلا تخرب مايعترضها، إذا ما جاءت فجأة، وبكثرة غير عادية، والآخر : تخزين تلك المياه ورفع مستواها أمام السد، وعدم صرف شيء منها، إلا بالمقدار اللازم، وبذلك يضمنون وى وادى مأرب، الذي يرتفع عن مستوى المياه السائلة بخمسة أمتار، فضلاً عن توفير كميات المياه اللازمة للرى، حتى يحين موعد مجى سيول أخرى من المناطق الممطرة في شرق اليمن، ذلك لأن منطقة مأرب إنما هى من المناطق الجافة قليلة الأمطار، ولا يزرع أهلها اليوم - أى بعد تخريب السد - غير مساحات ضئيلة، على مقربة من مجرى المياه في وادى ذنة، وتضييع أكثر مياه السيول هباءً في الوقت الحاضر، ولا يمكن استخدامها في زراعة أراضي الوادى المرتفعة.

وعلى أية حال، ففكرة السد تتلخص في أن مياه السيول القادمة من شرق اليمن كانت تتجمع في شبه بحيرة كبيرة مستديرة ومرتفعة من جهة الغرب والشمال والجنوب، ومنخفضة من جهة الشرق، حيث تسير جميعها شرقاً في

مجرى سيل واحد يطلق عليه اسم أكبرها (ذنة) وتدخل جميعها فى واد كبير فى جبل «بلق» فنقسمه إلى قسمين - بلق الأيسر، وبلق الأيمن - بينهما فتحة تدعى «الضبقة»، اختيرت لتشبيد السد، ومن ثم فقد بنوا جداراً قوياً يعترض الوادى وبوقف مياه السيل المتدفقة، وجعلوا فى الناحيتين فتحتين، إحداهما إلى أقصى اليمين، ثم استغلوا الجبل المرتفع فى هذا الغرض، فلم يبنوا إلا جداراً ضيقاً واحداً ليكون صدغاً ثانياً للبوابة، وأما البوابة التى فى الناحية اليسرى (الجهة الجنوبية) فهى أكبر وأعظم، وتنقسم إلى قسمين، وبنوا لها جدارين كبيرين يسيان بمسافة غير قليلة، ثم ينتهيان بحوض كبير مبنى بالحجر، نرى فى واجهاته المختلفة فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لرى ناحية من نواحي الوادى الفسيح.

ويطلق الأهالى على البوابة اليمنى «مربط الدم» وكانت تروى الناحية اليمنى التى مازلت بقايا كثيرة من قراها ظاهرة حتى اليوم، وكلها على يمين وادى زنة، ويبدو أن صخرة الجبل تكون إحدى جانبي هذه الفتحة، أما الناحية الأخرى فمشيدة من الحجر، وربما كانت فى صدغى تلك الفتحة المكان الذى كانوا يزلقون فيه كتل الأخشاب لتصريف الكميات اللازمة من المياه، وتسير بعد ذلك فى قناة عادية، ويبدو أنه كان هناك بروزاً مثلاً فى ذلك الجدار الحجرى، وقد كان ذلك البروز داخلاً فى جدار السد الكبير، وهو الجدار الذى تهلم وسبب ذلك الخراب.

وأما البوابة اليسرى فكان لها عINAN، ووراءها قناة مبنية الجوانب، طولها أكثر من كيلومتر، تنتهى بحوض كبير تنفرع منه عدة قنوات، كما يبدو أنهم سدوا الناحية الجنوبية بجدار يرتكز على صخرة الجبل، ثم جعلوا فى مكان مرتفع من الجدار أربع فتحات، وذلك لتصريف الكميات الزائدة من المياه، حتى لا يرتفع منسوب المياه أمام السد إلى حد قد يؤثر على الفتحات أو يعارض مع النظام المقرر لها، وتخرج تلك المياه الزائدة إلى الخارج وتزل إلى باطن الوادى، ثم رأوا فى وقت ما أنه لا حاجة للمينين فسدوا واحدة منها، واكتفوا بالأخرى.

وكان يخرج من الحوض المبنى بالحجر فى آخر القناة الكبرى قنوات متعددة، تبلغ فتحات بعضها حوالى ثلاثة أمتار، وكلها مبنية بالحجر، وكانت مثل البوابتين الكبيرتين تغلق بوضع كتل من الخشب تنزلق فى فتحتين فى جاسى كل بوابة.

هذا وتدل دراسة المباني التى مازالت قائمة عند البوابتين على أنه قد استخدمت فى بناء السد والحواجز حجارة اقتطعت من الصخور وعولجت بمهارة وحذق حتى توضع بعضها فوق بعض، وثبتت وتماسك وكأنها قطعة صلبة واحدة، وقد وجد أن بعض الأحجار قد ربطت بعضها ببعض بقطع من قضبان أسطوانية من المعدن المكون من الرصاص والنحاس ليكون البناء قويا، وليكون فى إمكانه الوقوف أمام ضغط الماء وخطر وقوع الزلازل، أما المادة التى استعملت لربط الأحجار ببعضها فهى من الجبس الممتاز، وقد تصلب هذا الجبس الذى طليت به واجهات السد كذلك، حتى صار كأصلب أنواع الأسمنت.

هذا وقد تعرض السد عدة مرات للتصدع إبان الفترة فيما بين بنائه فى حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وبين آخر مرة أصلح فيها السد فى عام ٥٤٣ م، أى خلال مايقرب من ١٢٠٠ سنة، وربما أكثر من ذلك، على رأى من يرون أن السد ظل يؤدى واجبه حتى عام ٥٧٥ م^(١).

-
- (١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٧٠ - ١٨٧، محمد يرمى مهران : الحضارة العربية القديمة ج١ ٢٤٨ - ٢٦٤، دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الأول ص ٢١١ - ٢٥٢، جواد علي ٢٨٠/٢ - ٢٨٢، ٢١٠/٧ - ٢١١، ٤٨٣/٣ - ٤٩١،
- J. B. Le Museon, 1953, 66, P. 340 1964, 3 - 4, P. 490 - 94
Philby, Op. cit., P. 118 F.
- A. James, Sabaeen Inscriptions from Mabram Bilqis, 1961, P. 176, 300, 390 F.
- H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 38, 113 F.
- A. Grohmann, Op. cit., P. 23 - 28 و BASOR, 137, 1955, P. 38.
- Ency. of Islam, III, P. 290 و Handbuch, I, P. 93, 106.

(٢) رجعت: (نجران؟) :

كانت رجعت (رجمة) مقر إمارة «مهامر» التي انتحل أمرؤها لقب «ملك»، ربما جاءت أهميتها لوقوعها على طريق القوافل التي تصل معين والعربية الجنوبية من ناحية، ومصر من ناحية أخرى، ويذهب بعض الباحثين إلى أن «رجعت» تقع الآن في أرض نجران، أو في مجاوراتها من ناحية الشمال، وربما كانت واحدة من مدن الشمال، وأن نجران نفسها لم تكن في الأصل مدينة معينة، وإنما هي أرض تضم عدة مدن، ومنها رجعت التي تحول اسمها بمرور الزمن إلى «نجران»، وأن هناك الكثير من الأمثلة على ذلك في العربية الجنوبية.

هذا ويذهب «موردتمان» إلى أن رجعت ربما كانت «رعمة» في التوراة، وهو الابن الرابع لكوش، ثم يذهب بعد ذلك إلى أن المراد «بكوش» هنا، العربية الجنوبية، وأن من أولاد كوش : سبأ وديدان، وأن تجار رعمة قد ذكروا في سفر حزقيال، وينتهي أن «موردتمان» لم يفعل سوى أن ردد ماجاء في توراة يهود، من ادعاء كذوب، يسلب أغلب العرب ساميتهم، فالعربية الجنوبية وبابل وأشور وكنعان ويوس ومصر وغيرها من الشعوب العربية، إنما هم جميعاً - في نظر نورا يهود - حاميون.

وعلى أية حال، فلقد جاء ذكر نجران في نقش النمارة (شرقي جبل الدرود في سورية)، والمؤرخ في ٧ ديسمبر عام ٣٢٨ م، ويحتل أقدم كتابة باللغة العربية، ويخط نبطي، وقد جاء فيه «وجا بزجي في حبيج نجرن مدينت شمرة أي «وجاء بنجاح إلى حصار نجران عاصمة شمرة» (شمرة بهر عش).

وفي نجران حدثت قصة أصحاب الأخدود التي جاء ذكرها في القرآن الكريم في سورة البروج، وقد زارها «جون فلي»، وعثر هناك على خرائب أثرية قديمة في بلدة «رجعت» ذهب إلى أنها هي آثار الأخدود الذي احتفروه ذو نواس.

وعلى أية حال، فلقد أصبحت نجران على أيام الاحتلال الحبشي لليمن

مركزاً رئيسياً لنشر المسيحية واستمرت كذلك حتى ظهور الإسلام، وقد حدثتنا كتب السيرة النبوية الشريفة عن وفد نصارى نجران في عام الوفود^(١).

(٥) ظفار :

كانت ظفار عاصمة الحميريين، وقد دُعيت في التوراة «سفار»، وعند الأغارقة والرومان «سيفار» و «سفار» (Saphar)، وهي مدينة داخلية، تقع على مسبعة ١٦٠ كيلاً إلى الشمال الشرقي من «الحاء»، وقد احتلت على أيام الحميريين مكانة مأرب، عاصمة سبأ، و «قرناوة» عاصمة معين، وما تزال آثارها ماثلة للعيان على قمة تل مستدير بجوار بلدة «هرم» الحديثة. وكان «نيبوز» أول من أشار إلى آثار هذه البلدة القديمة عن طريق نقوش قديمة، عثر عليها عندما أمّ ليمن، لأول مرة، في عام ١٧٦٣م، ثم كتب عنها في عام ١٧٧٢م^(٢).

(٦) صنعاء :

لا نعرف على وجه اليقين من هو مؤسس مدينة صنعاء، ولا تاريخ تأسيسها، وإن كان اسمها قد بدأ يتردد في النصوص منذ أيام «الشرح يحصب» و «شمر ذى ريدان»، كما يشير إلى ذلك نقشي (جام ٥٧٧) و (ريكانز ٥٣٥)، وقد ذكرت تحت اسم «صنعو» (صنعاء).

هذا وتشير الكتابة (CIH 429) إلى أن قصر غندان (عمدان) - بجانب قصر

(١) محمد يتيوى مهراڤ: تاريخ العرب القديم من ٢٢٢ - ٢٢٤، ٢٢٤ - ٢٢٤، ٢٢٤ - ٢٢٤، ٢٢٤ - ٢٢٤، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٢٥٥/١ - ٢٦٦، تكوين ٦/١٠ - ٢٠، حزقيال ٢٢/٢٧، جواد على ٥٠٧/٢ - ٥٠٩، حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم من ١٦٥ - ١٦٦، قاموس الكتاب المقدس ٤٠٦/١، وكلا.

- H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 9 - 11.

- J. B. Philby, Arabian Highland, N. J., 1952, P. 237 F, 257.

(٢) تكوين ٢٠/١٠،

- Pliny, VI, P. 104 وكلا، EI, II, P. 310, III, P. 292.

- Le Museon, 1964, 3 - 4, P. 429, 438 وكلا، ZDMG, 31, 1877, P. 69.

- Carsten Niebuhr, Description de L'Arabie, Copenbagen, 1773.

مستحقين - إنما كانوا قصصين للملوك، ولعل في هذا إشارة إلى أن «الشرح بحصبة» إنما كان أقيم في كلا القصرين (أى فى صنعاء ومأرب)، كما يشير إلى أن الهمداني وابن الكلبي، ربما كانوا على صواب فيما ذهبوا إليه من أن «الشرح بحصبة» هو الذى بنى قصر غمدان، وأن «شعر أوتر» هو الذى بنى سور صنعاء، وإن كانت هناك رواية إلى أنه من بناء سليمان، عليه السلام، وعلى أية حال، فكأن هذا يدل على أن قصر غمدان من القصور السعوية القديمة، وأن «بناء مأرب» يمازج بين مدن اليمن منذ تلك الفترة، وأن مكائنها قد زادت على مر الأيام، حتى سارت خاصة اليمن، ومقر الحكام حتى الآن.

ويدهى أن هذا لا يتفق وروايات المؤرخين من أنها كانت تدعى «أزال»، وأن «وهز» القائد الفارسي، هو الذى أطلق عليها اسم «صنعاء»، حين قال إبان دخولها (حوالى عام ٥٧٥م) «صنعة صنعة»، يريد أن الحبشة قد أحكمت صنعها، أو أن التسمية إنما كانت نسبة إلى بانيها «صنعاء بن أزال بن عبير بن عابر بن شالح» على رواية، و«غمدان بن سام بن نوح»، على رواية أخرى، فكانت تعرف تارة «بأزال»، وتارة «بصنعاء»، بل إن بعض الأخباريين لم يقف عند هذا الحد، فزعم أنها واحدة من مدن النار الأربع (أنطاكية والطوائف وقسطنطينية وصنعاء)، فى مقابل مدن الجنة الأربع (مكة والمدينة وإيليا ودمشق).

هذا، وعلى أيام الاحتلال الحبشى لليمن (٥٢٥ - ٥٧٥م) بدأ أبرهة الحبشى فى إنشاء الكنائس فى أنحاء مختلفة من اليمن، لعل أهمها : مأرب وجران وصنعاء، وفى صنعاء بالذات بنى كنيسة المشهورة «القليس» بغية أن يصرف الحجاج من مكة إلى صنعاء، فيكسب من ذلك فوائد مادية وسياسية وأدبية، وبالتالي فقد كان ذلك سبباً فى حملته المشهورة على مكة المكرمة فى العام المعروف بعام الفيل.

ورغم مبالغة الأخباريين فى وصف كنيسة القليس (وهى محرفة عن كلمة أكليسيا بمعنى كنيسة) وأنه كتب إلى النجاشي يقول له «إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثله لملك كان قبلك، ولست بمته حتى أصرف إليها حج العرب»، فالذى لاشك أن القليس إنما كانت كنيسة كبيرة ضخمة، وأن العصر

نفسه كان عصر بناء الكنائس الضخمة، ومثال ذلك : كنيسة أبا صوفيا في القسطنطينية، وكنيسة المهد في بيت لحم.

وتذهب الروايات العربية إلى أن «القليس» إنما بنيت بجوار قصر غمدان، وبحجارة من قصر بلقيس، وأن أبرهة قد استعمل في بنائها السخرة، فضلاً عن القسوة الشديدة التي كانت تصل إلى حد قطع يد العامل، إن تهاون أو تكاسل في عمله، وهكذا استذل أبرهة أهل اليمن في بناء كنيسة هذه وجشمهم فيها أقسى أنواع السخرة، حتى أنهم كانوا ينقلون أدوات البناء، كالرخام والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ.

وعندما تحررت اليمن من الحكم الحبشي على يد «سيف بن ذى يزن» (معديكرب بن أبي مرة) ظلت صنعاء عاصمة لليمن، ولكنها سرعان ما وقعت تحت نير الحكم الفارسي - بعد مقتل سيف بن ذى يزن - وإن كان الفرس في أغلب الأمر، إنما كان نفوذهم مقصوراً على العاصمة صنعاء ومجاورتها، وظل الأمر كذلك حتى دخل الوالي الفارسي «بازان» في الإسلام، في عام ٦٢٨ م (٦ هـ)، فاعتنقت صنعاء، ثم بقية أرض اليمن، الإسلام، وبالتالي فقد قضى على اليهودية والنصرانية والوثنية، فضلاً عن الحكم الأجنبي - حبشياً كان أم فارسياً - (١).

(١) محمد يومى مهران : تاريخ العرب القديم من ٣١٧ - ٣١٨، ٣٧٩ - ٣٨٨، ٣٨٢ - ٣٩٠، باقوت ٤٢٦/٣، ٣٩٤/٤ - ٣٩٦، تاريخ الطبري ١٣٠/٢، ٦٥٦ - ٦٥٧، الأزرقى ١٣٨/١ - ١٣٩، ابن الأثير ٤٤٢/١، ٢١٤٣/٢ - ٢١٥، البكري ٨٤٣/٣، السمرى ١٨٢/١ - ١٨٣، وكذا :

- H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 19.
- A. James, Op. cit., P. 390 وكذا P. K. Hitti, Op. cit., P. 57.
- H. Scott, in The High Yemen, London, 1947, P. 212.

الفصل الثالث

في شرق الجزيرة العربية

(١) دلمون :

كانت دلمون عاصمة البحرين، وقد تحدثت عنها النصوص السومرية، كما في قصة العاروفان، وقد دعت لها أرض العبور، حيث تشرق الشمس، وهناك سكن أبو وأبيل وزيو صبرا بطل القصة، ودلمون في الأساطير السومرية هي مركز الخلق، وهي جنة الخلد، و «أرض دلمون مكان طاهر، أرض دلمون مكان مقدس».

هذا وقد اشتهرت دلمون بأنها مركز هام في التجارة الدولية وقت ذاك بين مراكز الحضارة السومرية (في جنوب العراق القديم) وبين بلاد نهر السند في باكستان الحالية، ومن ثم فعندما برزت نتائج التنقيبات عن «دلمون» في جزيرة البحرين، تأكدت مجدداً تلك الأهمية البارزة التي أولتها كتابات السومريين القدامى لهذه المنطقة.

هذا وقد اختلف العلماء حول موقع «دلمون» السومرية هذه، فذهب فريق إلى أنها في الجنوب الهندية الغربية من بلاد فارس (أي الجزء الشرقي من ما ساءل الخليج العربي)، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أنها منطقة وادي السند، بينما يذهب وجه ثالث للنظر إلى أنها سهول العراق الكائنة إلى جنوب بابل، بل إن هناك وجهاً رابعاً للنظر يذهب إلى أنها في القسم الشرقي من شبه جزيرة العرب، في المنطقة فيما بين «مجان» و «بيت نسانو».

على أن جمهرة المؤرخين إنما يتفقون - أو يكادون - على أن موقع دلمون، إنما هو جزيرة البحرين الحالية، أو جزيرة البحرين والساحل المقابل لها ^(١).

(١) محمد يومى مهراي : قصة العاروفان بين الآثار والكتب المدممة - الرياض ١٩٧٦ ص ٢٨٧

- ٢٩٠، جون ألدر : الأحجار تتكلم ص ٣٠

- J. Finegan, Light from The ancient Past, Princeton, 1969, P.

(٢) ججرجا :

ججرجا - أو ججرجاء كما يقول الهمدانى - سوق لبنى نميم فى الإحصاء، ومنذ حوالى قرن مضى رأى «شبرنجج» أن (Gerrha) إنما هى «الجرجاء»، وقد كانت قائمة على مقربة من ميناء العقير الحالى، وربما تقع - فيما ترى إليزابيث مونرو - تحت أنقاض مدينة من العصور الوسطى تسمى «تاج» (Thaj) هى الآن فوما وراء «ججيرة» (Jubair) - وربما الأصح الجبيل - وكانت تعرف قديماً باسم «عينان»، والتي كانت تقع على بحيرة أو خليج.

على أن دائرة المعارف البريطانية، إنما تتفق مع «جون فلبى»، على أن «ججرجا» هى العقير نفسها، وأن هذا الاسم الجديد (العقير) قد احتفظ فى بنيتها بالاسم القديم «ججرجا»، ذلك لأن هناك ثمة تقارب بين اسمى الجرجاء والعقير، والتي تسمى محلياً «عجيز»، وهى قرية من منطقة «ججرجة»، وأما الدكتور سليمان حزين، فالرأى عنده أن ججرجا هى «القطف»، وإن كان هناك من يرى أن ججرجا إنما تقع على مبعدة ٢٤ كيلاً شمال شرق العقير، وقد حدد «سترابو» الجرجاء على مبعدة ٩٦ كيلاً داخل اليابسة، بينما رأى «بلينى» أنها تقع على الساحل.

وججرجا - على أية حال - ميناء تجارى يقع على طريقين من طرق القوافل، الأول : طريق مأرب - ججرجا (مأرب - نجرا - الفاو - الأفلاج - اليمامة - الهفوف - ججرجا)، وأما الطريق الثانى فهو طريق : ججرجا - البتراء

= - P. B. Cornwall, on the Location of Dilmun, in BASOR, 103, 1946, P. 3 - 11.

- S. N. Kramer, Dilmun, The Land of The Living, BASOR, 96, 1944, P. 18 - 28.

- F. Hommel, Grundris, I, P. 250.

- S. N. Kramer, The Indus Civilization and Dilmun, The Sumerian Paradise Land Expedition, Philadelphia, 1964, P. 45.

(جرها - الهنوف - مكان الرياض الحالي - بريدة - حائل - نيماء - البتراء)^(١).

(٣) مجان :

اختلف العلماء في تحديد موقع مجان هذه، فذهب فريق إلى أنها من الأقسام الشرقية من شبه الجزيرة العربية، وذهب فريق آخر إلى أنها جرها (جرعاء) على ساحل الاحساء، على أن فريقاً ثالثاً إنما يذهب إلى أنها تقع على مقربة من ساحل الخليج العربي في موضع «مجمعة» جنوب «بيرين»، وذهب فريق رابع إلى أنها على مقربة من الساحل عند مصب وادي شبة، وهي البقعة التي نشأت فيها مملكة مجان القديمة.

وهناك بحوث أثرية وتاريخية، يرى البعض أنها تؤكد وجود دلائل واضحة على قيام عمران مدني، وحضارة مزدهرة، في تلك المنطقة، اعتمدت على نشاط تجاري في البر والبحر، بين بلاد السند، وسواحل إيران الجنوبية، وبين بلاد العرب الجنوبية، وبلاد الرافدين.

(١) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٢٨١، اليزليث مونرو : الجزيرة العربية بين البخور والبترول ص ٣٥ - ٣٦، محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم ص ١٣٥، بيتر كوزنول : البحث عن ماضي جزيرة العرب - القاهرة ١٩٥٣م ص ٢٨، أحمد صابون : دراسة تاريخية لمشكلة تحديد موقعي ماجان وملوخوا، وانظر فيصل عبد الله : الخليج العربي ورواى الهندوس في الأدبيات والطويات السامرية - ١٩٩٠ ص ١٢

- S. A. Huzayyin, Arabia and The Far East, Cairo, 1942, P. 142.
- A. Sprenger, Die Alte Geographie Arabien, Berlin, 1875, P. 135.
- G. Bibby, Looking for Dilmun, London, 1970, P. 250.
- E. Herzfeld, The Persian Empire, 1968, P. 63.
- E. F. Weidner, Das Reich Sargon Von A K Kad, AFO, 16, 1952, P. 52.
- K. Jartiz, Tilmud - Magan - Meluhba, JNES, 27, 1968, P. 209.

وكلاً :

- L. Caetani, Studi della Historia Orientale, I, P. 64, 80, 243.

على أن هناك وجهاً خامساً للنظر يذهب إلى أن مجان إنما هي منطقة «عمان» - أي الطرف الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، على أن هناك من يرى أنها الساحل الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، والذي يمتد شمالاً حتى جنوب بلاد الرافدين، ومن يرى أنها واقعة على شواطئ عمان، ومن يرى أنها تقع على جانبي خليج عمان، ومن يرى أنها شبه جزيرة «مسندم» التي تمتد إلى شبه جزيرة قطر.

هذا ويرى البعض أنها «مدين»، وكانت في الألف الخامسة قبل الميلاد، كثيفة الأشجار، وكان السومريون والآكديون فيما بعد يأخذون منها الأخشاب والذهب والنحاس.

وأخيراً فلقد حاول بعض المؤرخين أن يحدد موقعها بخط طول ٥٥ شرقاً، وخط عرض ٢٤ شمالاً، وبحوالى ٧٢٠ كيلاً إلى الشمال الغربي من «مسقط»، وأن كلمة «مجان» إنما تتكون من الكلمة السومرية (Ma)، بمعنى ميناء أو أرض السفن، وذلك بسبب شهرة أهلها في ركوب السفن، فضلاً عن أن هناك نصاً يرجع إلى أيام «دوجي» (أحد ملوك أور حوالى عام ٢٤٥٠ ق.م.) يتحدثنا عن صناع السفن من مجان، وأن النصوص المسمارية قد وصفتها بأنها «جبل النحاس»، كما أطلقت عليها النصوص السومرية «أرض الدولوريت»، ومن ثم فإن الإشارة إلى مجان على أنها «جبل النحاس» تدفعنا إلى أن ندخل في دائرتها منطقة الجبل الأخضر في عمان، حيث يوجد النحاس، وهكذا يبلو واضحاً أن لدينا من القرائن القوية التي تقرتنا من وضع مجان كمترادف صحيح لعمان، لأن كل ما ذكر آنفاً إنما هو موجود في عمان (١).

(١) عبد الحميد زاهد : الشرق الخالد - القاهرة ١٩٦٦ م ص ١٢٢، محمد يوسى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٢١٦ - ٢١٧

- R. A. Cheesman, In Unkonwn Arabia, London, 1925, P. 266.
- De Lacy O'Leary, Op - cit., P. 47 J. B. Philby, The Empty Quarter, 1933, P. 119 F.
- W. F. Leemans, Foreign Trade in The Old Babylonian Period, Leiden, 1960, P. 21.
- A. Musil, Northem Nejd, New York, 1928, P. 307.

الفصل الرابع

المدن الكبرى في الممالك والإمارات العربية

في العراق والشام

(١) تدمر

١ - موقع تدمر الجغرافي وأهميته :

تقع مدينة «تدمر» - عاصمة مملكة تدمر - على مبعدة ١٠٠ كيلا جنوب شرق حمص، وعلى مبعدة ١٥٠ كيلا شمال شرق دمشق، في منتصف المسافة تقريباً بين دمشق والفرات^(١)، ومن ثم فقد كانت موقفاً هاماً على الطريق التجاري بين العراق والشام، بل كانت نقطة التقاء التجارة القادمة من أسواق العراق، وما يتصل بها من أسواق في إيران والهند والخليج والعربية الشرقية، وبين تلك التي على البحر المتوسط، وبخاصة في الشام ومصر، فضلاً عن اتصالها بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية بأموال أفريقية والعربية الجنوبية والهند، وهكذا أصبحت «تدمر» ملتقى جميع القوافل، وبخاصة فيما بين القرن الأول قبل الميلاد، وعام ٢٧٣م، ومن ثم فقد وجد في نقوشها عبارة «زعيم القافلة» و «زعيم السوق»، باعتبار أن المشار إليه من زعماء المواطنين^(٢).

وكان هذا الموقع الجغرافي الهام، مبياً في مكانة تدمر التجارية، ويقول صاحب كتاب «أسواق العرب»: «وحمل أهل تدمر في القديم إلى مصر، وجنوب أوروبا، صادرات بلاد العرب والعراق والهند، وكانت النقاش التي يحملها التدمريون من بلاد الشرق ألّمن ما يتغالى به الملوك القياصرة»^(٣).

ويقول الدكتور إسرائيل ليفنسون عن مملكة تدمر: قبلة التجار في الهند والفرس والعراق وسورية وفلسطين ومصر وأوروبا، وكانت روما - التي خضع لئيرها أغلب

(١) EB, 17, p. 161.

(٢) جواد علي ٨١/٣، قارن: مروج الذهب ٢٤٤/٢ - ٢٤٥.

وانظر: P.K.Hitti, op.cit, p. 73.

وكلا G.A.Cooke, op- cit, p. 274 - 279.

(٣) سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الحداثة والإسلام - دمشق ١٣٧٩هـ - ص ١٧.

العالم القديم - تهاب قبائل تدمر، وتتوحد اليها، وتقدم اليها الهدايا، وتوفد اليها الوفود - قبل أن تحتلها - وقد عرفت تدمر كيف تستثمر - في ظروف مناسبة - الدولتين - الفارسية والرومية - لمصلحتها التجارية^(٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى الطريق التي تقع إلى أقصى الشمال في شبه الجزيرة العربية، وكانت هذه الطريق تشكل في الواقع امتدادا صحراويا، لطريق تجارية تبدأ من «الرمادي» - وتقع على نهر الفرات شمال غربي بغداد - وتسير بمحاذاة النهر، حتى مدينة «ماري»^(٥) (Mari)، ثم تمتد غربا إلى «تدمر»، ومن تدمر، تمتد غربا بميل طفيف إلى الشمال الغربي، إلى «حمص»، ومن هناك تتفرع إلى عدة فروع، تصل بين حمص من جهة، والموانئ الفينيقية ودمشق وفلسطين من الناحية الأخرى.

وفي الواقع، فإن الطريق اتما كان حلقة الوصل فيها هي مدينة تدمر، هذه الراحة الغنية بالنخيل التي تقبع في وسط الصحراء.

وأما بقية الطريق الواقعة إلى شرقي تدمر، أو غربيها، فكانت - رغم قصرها - فهي لا تزيد عن ٤٨٠ كيلا - معرضة لغارات القبائل البدوية المتنقلة بالمنطقة المحيطة بها، ومع ذلك، فلقد احتفظت هذه الطريق القديمة بأهميتها، كما احتفظت بالأهمية ذاتها للطرق الأخرى، التي شقت بعد ذلك، واتخذت من تدمر نقطة ارتكاز لها في الوصل بين طرفي الصحراء عند حدود كل من وادي الرافدين وسورية،

(٤) إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية - القاهرة ١٩٢٧ ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٥) ماري: كلمة سومرية من جهة الاشتقاق، شبيهة باسم البلاد «أمورو» و«مارتو» أي بلاد الغرب، وهي الآن «تل الحيري»، جنوب مصب نهر الخابور، على مقربة من «دير الرزة»، على بعد ميل واحد غربي الفرات، قرب بلدة «أبو كمال» (أبو كمال) - قرب الحدود العراقية السورية - ، وقد أصبحت ماري والبلاد المحيطة بها خلال القرن العشرين قبل الميلاد أمورية، سكانا وحكومة وحضارة - وقد كشف «أنتوني بارو» عام ١٩٢٣ م حوالي ٢٠ ألف لوحة فخارية مكتوبة بالخط المسماري في قصر الملك «زمرى وليم» ومحفوفة الآن بمتحف اللوفر بباريس، وقد بدأ نشرها وظهر منها حتى الآن ١٦ جزءا (انظر: محمد بيومي مهران: بلاد الشام ص ٥٠).

وكذا: M.Unger, Unger's Bible Dictionary, 1970, p. 46.

W.F.Leemans, Foreign Trade in The Old Babylonian Period Leiden 1960, p. 102.

وأهمها «طريق دقلديانوس»^(٦) (Strata Diocletiana) التي بنيت في عصر
الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م)، بين دمشق في الجنوب الغربي، والرصافة
«سرجيوبوليس = Sergiopolis» في الشمال الشرقي، على مقربة من الفرات -
بعد تدمير تدمر عام ٢٧٣ م.

وأهمية هذا الطريق - إلى جانب صفته التجارية - فله صفة سياسية، فالمنطقة
كانت نقطتها - كما أشرنا آنفاً - قبائل بدوية متقلة، تسبب كثيراً من القلق على
الحدود السورية، أو حدود وادي الرافدين، ومن ثم فقد كان موقع تدمر كنقطة
تأمين للطريق، وبالتالي فإن إقرار الأمور، إنما هو أمر وارد لكلا القوتين - الفارسية
والرومية - في شرقي الصحراء ألوفى غربيها.

وهكذا انتهى الأمر دائماً بتأمين الطريق لهذا الهدف السياسي، وتبع ذلك
ازدهار النشاط التجاري عليه، هذا وقد كشف عن بقايا عدد من الحصون التي
أنشأها الرومان في أماكن عديدة، على طول هذا الطريق^(٧).

٢ - اسم المدينة وتطورها التاريخي:

اسم «تدمر» اسم «سامي»، يرجع ظهوره للمرة الأولى إلى أيام الملك الأشوري
وتجلات بلاسر الأول (١١١٦ - ١٠٩٠ ق.م) في صورة «تدمر أمورو»^(٨)، وأما
اسم «تدمر» فهو النطق الآرامي لكلمة «تتمر» العربية، ومعناها المدينة التي يكثر فيها

(٦) كان قد أنشئ في عهد الامبراطور «تراجان» (Trajanus - ٩٨-١١٧ م) طريق
يصل فيما بين مدينتي العقبة وتدمر، ويمر بالبتراء، ودرية حمالة، وفيلالفا (عمان)، و«بصرى»،
ثم ينتهي عند «تدمر» (أنظر الجزء الأول من تاريخ العرب ص ٢٧٧).

(٧) لطفى عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

R.Dussaud. La Penetration des Arabes en syrie avant L'Islam,
Paris, 1935. p. 80 - 81.

G.Roux, Incient Iraq. 1966, p. 29.

(8) D.D Luckenbill, op,cit I, 287, 308

E.Dhorme, Palmyra dans Les Assyriens, R.B, 1924, p. 106. وكذا

وكذا EI, 3, p. 1020. EB, 17, p. 161

التدمير (أنتم غيل)^(٩). وإن كنا على غير يقين من اشتقاق كلمة «تدمر»؛ وربما كان لها صلة بكلمة «تدمورتا» (Tadmorta) السريانية، ربما أنها «يسبب»^(١٠).

وقد ورد اسم تدمر في المصادر اليهودية؛ فكاتب الحوليات العبراني يسجل في التوراة، أن سليمان قد بنى مدينة تدمر في البرية^(١١)، والأمر كذلك بالنسبة للمؤرخ اليهودي «يوسف بن متى»^(١٢)، وليس من شك في أن وجهة النظر اليهودية هذه خاطئة، ذلك لأن المدينة - كما أثبتنا آنفاً - إنما ذكرت في الوثائق الآشورية قبل أن يولد سليمان نفسه، وبفترة تسبق ما دون في التوراة بشأنها، بأكثر من سبعة قرون^(١٣).

ومن هنا فقد رأى العلماء أن الرواية التي نذهب إلى أن سليمان هو الذي بنى تدمر، إما أنها أرادت تعظيم شأن مملكة سليمان كمعادة الروايات اليهودية - وكان مكانة النبي الكريم لا تأتي إلا ببناء المدن واتساع مملكته، وليست برسالته السماوية - ومن ثم فقد نسبت إليه بناء هذه المدينة، التي تقع في منطقة بعيدة عن حدود دولته إسرائيل^(١٤)، وإما أن هناك خطأ وقع فيه كاتب الحوليات العبراني حين خلط بين «تامار» التي أسسها الملك سليمان، وهي موضع جاء ذكره في سفر حزقيال^(١٥)، ويقع إلى جنوب الشرق من «يهودا»؛ وإن كنا لاندرى موقعه الآن على وجه التحديد^(١٦)، وربما كانت الشهادة التي اكتسبتها «تدمر» على أيام كتبة الأسفار العبرانيين هي السبب في نسبة بنائها إلى النبي الكريم؛ وقد تم فقد ذهب هؤلاء الكتبة إلى أن المدينة التي بناها سليمان، ليست «تامار» وإنما «تدمر» والتي

(٩) حسن ظانا؛ للمرجع السابق ص ١١٥.

(١٠) فليب متى؛ المرجع السابق ص ٤٢٣.

(١١) ملوك أول ١٨: ٩، أخبار أيام ٤: ٨٥٥.

(١٢) F Hommel, ZDMG, XIV, 547 وكنا EL, III, p. 1020.

E.Dhorme, op.cit, p. 106.

وكنا

(١٣) أسطر عن تاريخ: كتابة أسفار التوراة كتابنا «إسرائيل» ١٨/٣ - ٩٦، وأطر طيبة ١٩٩٩ م

(١٤) «جود» على ٧٧/٣، فليب متى؛ المرجع السابق ص ٤٢٢.

وكنا EB, P. 4886 وكنا J.Hastings, op.cit, p. 889.

(١٥) حزقيال ٤٧، ١٩.

(١٦) «جود» على ٧٧/٣، قاموس الكتاب المقدس ٢٨٢/١.

كانت مدينة عامرة بسكانها، وذات شهرة في مجاوراتها فيما بين عامي ٣٠٠ - ٢٠٠ ق.م (١٧).

وأما الاسم اليوناني للمدينة فهو «بالميرا» Palmyra وهي ترجمة لكلمة «ثامار» العبرية، وتعني مدينة النخيل، وإن كان هناك من يرى أن كلمة (Palmyra) من كلمة (Palma) بمعنى النخل حتى الآن في بعض اللغات الأوروبية، وأن الاسكندر المقدوني هو الذي أطلق عليها اسم "Palmyra" بعد أن استولى عليها بسبب ما اكتشفها من غابات النخيل، ومن ثم فقد عرفت عند اليونان واللاتين بهذا الاسم، وهو رأى ما يزال بعد في مرحلة التخمين وبحساج إلى ما يدعمه من أدلة وبراهين (١٨).

وهناك ما يشير إلى وجود نفوذ سلوقي في تدمر، وربما كانت من نصيب السلوقيين بعد وفاة الاسكندر الأكبر في عام ٣٢٣ ق.م.، وتقسيم إمبراطوريته بين قواده، وعلى أي حال، فهناك حصن سلوقي في المدينة، وربما أقيم في عام ٢٨٠ ق.م، كواحد من سلسلة الحصون التي أقامها القوم في المناطق الاستراتيجية التي خضعت لهم (١٩).

أما الروايات العربية فلا تفيد علماء، ولا تصلح أن تكون دليلاً، فهي روايات متأخرة دخلت إلى المسلمين من أهل الكتاب، فأخذوها بغير تحقيق ولا تدقيق (٢٠)، فضلاً عن أن ضخامة آثار المدينة وعظمتها، ربما أدهشتهم ومن ثم فقد نسبوا بناءها إلى الجن بأمر من سليمان عليه السلام (٢١)، على أن «ياقوت الحموي» إنما (١٧) جواد على ٧٨/٣.

F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, p. 344.

وكذا

J.Hastings, op.cit, p. 889.

(١٨) عباس المقاد: الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص ٢٢، وكذا EI, III, p. 1020.

(١٩) جواد على ٨٥/٣.

وكذا Freya Sterk, Rome on The Euphrates, 1967, . 242.

(٢٠) جواد على ٨٧/٣.

(٢١) فيليب حتى المرجع السابق ص ٤٣٣، بلوغ الأرب ٢٠٩/١ - ٢١٠، ياقوت ١٧/٢ - ١٩.

البكري ٣٠٦/٢ - ٣٠٧، صحيح الأخبار ٧-٦/٢، قارن: مروج الذهب ٢٤٤/٢ - ٢٤٥.

يستبعد نسبة تدمير إلى سليمان، مدعلا ذلك بأن أهلها إنما يزعمون أنها ترجع إلى ما قبل عهد سليمان، ففترة تقارب مائتينا وبنه، وأن الناس إذا ساروا بناء عجيبا جهلوا بانيه، أضافوه إلى سليمان وإلى الجن (٢٢).

ومع ذلك فهناك من يقدم لنا أبياتا من شعر «الناطقة الذيباني»، يذهب فيه إلى أن المدينة من بناء جن سليمان، وفات أصحاب هذا الزعم أن الناطقة لم يكن عالما من علماء التاريخ والآثار، حتى يكون شعره حجة في بناء مدينة يرجع ظهورها في التاريخ إلى آخريات القرن الثاني عشر، أو الحادي عشر قبل الميلاد، ثم من أدرانا أن هذا الشعر للناطقة الذيباني سقاء فمن من نسبوا شعره إلى آدم وهابيل وقاييل، وإلى الجن وإبليس، أليسوا بقادرين على وضع شعر على لسان الناطقة الذيباني (٢٣)، وأما قصة بناء المدينة بأمر من امرأة تدعى «تدمر بنت حسان بن أدنية»، فليست إلا من هذا النوع من الكتابات التي ملأ الاخباريون بها صفحات كتبهم (٢٤).

ولعل «بليني» (٢٤/٢٣ - ٧٩ م) أول الكتاب الكلاسيكيين الذين أشاروا إلى تدمير، فوصفها بأنها مدينة شهيرة ذات مرقع ممتاز، وأرض خصبة وأن بها عيونا وينابيع، وتحيط بحدائقها الرمال، وأنها تقع بين الإمبراطورية الرومانية والفارسية، ومن ثم فقد اضطروا أهلها - ضمنا لاستقلالهم - أن يقفوا موقف الحياد بين هاتين القوتين المتصارعتين، ثم تابع «بليني» من جاء بعده من الكتاب، مما يدل على أن شهرة المدينة كانت في ازدياد (٢٥).

وأما أقدم كتابة عثر عليها في المدينة، فإنما ترجع إلى شهر نوفمبر من السنة التاسعة قبل الميلاد (٢٦)، وإن كان عثر في مدينة «دورا» - وتقع في مكانها

(٢٢) باقوت ١٧/٢، قارن: الأخبار الطول ص ٢٠.

(٢٣) جواد على ٧٩/٣، صحيح الأخبار ٦/٢، بلوغ الأرب ٢٠٩/١ - ٢١٠، المشرق، العدد ١١، عام ١٨٩٨ م ص ٤٩٦، باقوت ١٧/٣.

(٢٤) البكري ٣٠٧/١، باقوت ١٧/٢.

(25) W. Wright, an Account of Palmyra and Zenobia With Travels and Adventures in Bashan and The Desert, p. 110

وكذا Pliny, V, XXI, 88, و EB, p. 4386

(٢٦) - ياد على ٨١/٣، حسن ظاظا: المرجع السابق ص ١١٥

وكذا G. A. Cooke. op- cit, p. 141

الصالحية الحالية - على الفرات الأوسط تجاه ندمر، على نقش يعتبر من أقدم النقوش التدمرية التي كشف عنها حتى الآن - ويرجع إلى عام ٢٣ ق.م (٢٧)، وفي هذا الوقت كانت ندمر مركزا تجاريا خصبيا بين دولتي الروم والفرس، ومع ذلك فإن أكثر ما نعرفه عنها إنما يرجع إلى ما بعد الميلاد، حيث لدينا نصوص ترجع إلى عام ٢٧١ م. (٢٨)

(٣) سكان ندمر:

لا ريب أن أهل ندمر، إنما كانوا عربيا - شأنهم في ذلك شأن الأنباط في البتراء - بدليل وجود بعض المصطلحات والكلمات العربية الأصلية في كتاباتهم، كما أن أسماء الأصنام عندهم عربية، والأمر كذلك بالنسبة إلى أسماء الأعلام، ومن ثم فقد رأى بعض العلماء أنهم من القبائل العربية التي أخذت تستولي على المنطقة الخصبة في شرق الأردن، عقب انهيار الدولة البابلية الحديثة، وسقوط بابل تحت السيادة الفارسية في عام ٥٣٩ ق.م، ثم أخذت تستعمل الآرامية - وهي لغة الكتابة والثقافة في غرب الفرات وقت ذلك - لغة لها، ومع هذا فإن لغتهم هذه، ليست إلا لهجة من اللهجات الآرامية العربية، وأنها لا تختلف كثيرا عن لغة الأنباط، وعن الآرامية المصرية (٢٩).

ومع ذلك فإن اللهجة الآرامية التدمرية لها مميزات بررت أن يختصها بعض الباحثين بدراسة لغوية متفصلة، ومن أشهر هذه الدراسات كتابات المستشرق الفرنسي «كانتينيو» (٣٠)، وقد طور التدمريون الكتابة الآرامية وعندهم انتقلت إلى

(27) CAX, IX, p. 559

(٢٨) حسن ظاظا، المرجع السابق ص ١١٥.

(٢٩) محمد بيومي مهران، حركات التحرير في مصر القديمة ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

وكنّا P.K.Hitti, op.cit, p. 76.

وكنّا R.Ghirshman, Iran, 1945, p. 131 - 132 EB, 17 p. 161.

وكنّا A.T.Olmstead, History of The Peresian Empire, Chicago, 1970, p. 50-51.

(٣٠) حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم ص ١١٥.

وكنّا J.Cantineau, Grammaire du Plamyrenien Epigraphique, Le Caire, 1935

السمرطاني في «الروما» فظهر منها «تعدا السمرطاني القديم المسرف باسم «الخط السرخيلى» الذى ظهر بعد «الانشقاق المذهبي بين سمران الرها في عام ٤٨٩م، ثم ظهر لهجة غربية تسمى اليقونية، وشرقية تسمى النسطورية»^(٣١).

وأما الثقافة التدمرية، فكانت مزيجاً من الثقافات العربية والآرامية واليونانية واللاتينية، ذلك لأن تدمر - كما كانت البتراء من قبل - قد نمت في ظل حضارة الآراميين، واتخذت لغتهم، فضلاً عن المبادئ الأساسية في تفكيرهم الثقافي والديني، هذا في الوقت الذى أخذت فيه كذلك كثيراً عن دنيا اليونان والرومان^(٣٢).

هذا، وقد قامت كذلك في تدمر جالية يهودية، منذ وقت لا نستطيع تحديده على وجه اليقين، فربما كان ذلك قبل سقوط القدس في أيدي الرومان على أيام الامبراطور «فباسبان» (٦٩ - ٩٧م)، ثم عمل هؤلاء اليهود بالتجارة وربما نشطوا في تهريب بعض السكان، وأن فريقاً من هؤلاء اليهود، ربما رجعوا إلى القدس قبل تدميرها - المشار إليه آنفاً - على يد «تيتوس» في عام ٧٠م^(٣٣).

(٤) تدمر والروم:

وعلى أى حال، فلقد بدأت تدمر تزداد قوة وشهرة منذ النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد، بسبب الأهمية التجارية والدبلوماسية لموقعها بين امبراطوريتي الفرس والروم المتنافستين، ثم ساعد موقعها الجغرافي على إعدام تمكن أى من الفريقين المتنازعين من سهولة الاستيلاء عليها^(٣٤)، وقد جاول «أمارك أنطونيوس» عام ٤١ ق.م، الاستيلاء على خزان المدينة قفشل، وإن أصابها منه ضرر كبير^(٣٥)، غير أن مدينة مهمة كتدمر، لها مال وثروة، وليس لها جيش قوى ضخم، ولا مجال

(٣١) حسن ظلالاً؛ المرجع السابق ص ١١٥ - ١٢١.

(٣٢) موسكاتى؛ المرجع السابق ص ٢٠٣.

(٣٣) جواد على ٨٤/٣، وكلا UJE, 8, 381.

(٣٤) فيليب متى؛ المرجع السابق ص ٤٢٣.

(٣٥) W.Wright, op cit, p. 110 و EB, 17, p. 162.

لتكوين هذا الجيش فيها، لا يمكن أن تبقى في مأمن ومنجاة من مطامع الغزاة، ولو كانت في بقعة منعزلة، أو في بادية بعيدة^(٣٦).

ومن هنا، فإن تدمير - على الأرجح - قد اعترفت بنوع من السيادة عليها للرومان، منذ أوائل المصور المسيحية، ودلينا على ذلك المراسيم الإمبراطورية التي ترجع إلى عهد «تييريوس»^(٣٧)، والتي تتعلق بالرسوم الجمركية، وقد عثر في تدمير على قوائم ترجع إلى عام ١٧م، وتبين بعض الرسوم على البضائع وأثمانها باليونانية والتدميرية^(٣٨)، هذا ويدور أن تدمير قد أصبحت على أيام «فبسيان» تحت الإشراف الروماني، وأن كان هذا لا يعني الخضوع لروما، أو أن للإشراف على الشؤون الدينية بالمدينة كان بأيدي الرومان، وإنما كان هناك إشراف رومي عام على المدينة، بدليل أن الروم قد سمحوا للمدينة بحق الاحتفاظ بطميتها Militia في خارج تدمر^(٣٩).

وقد بذل «تراجان» (٩٨-١١٧م) جهده لضم تدمر إلى المقاطعة العربية، التي أنشأها في عام ١٠٦م، واتخذ من «بصري» مقرا لها، وفي عام ١٣٠م، زار «هديران» (١١٧ - ١٢٨م) تدمر وجعلها تابعة لروما، ثم منحها لقب «هديرانا بالميسرا» (Hadriana Palmyra) و«هديرانوبوليس» (Hadrianopolis)، كما أصبحت المدن التابعة لتدمر، تابعة لروما^(٤٠)، وفي الواقع لقد نالت تدمر عناية كبيرة من «هديران»، حتى قيل أنه «الموسس الثاني» لها، فاهتم بحماية الطرق البرية التي توصلها إلى نهر الفرات، والتي كانت شريانا هاما للتجارة العالمية وقت ذاك، ثم كانت العلاقة الطيبة بين الفرس والروم في عهده سببا في رخاء تدمر، فوصلت الحماميات الرومية إلى شواطئ الفرات الغربية، وأقام التجار في مدينة

(٣٦) جواد على ٨٤/٣.

(٣٧) بدأ السيد المسيح عليه السلام، وكان قد ناهز الثلاثين من عمره بمشردعه في يهوذا في عهد هذا الإمبراطور، وكان قد ولد على أيام سلفه أول قياصرة روما «أغسطس» (٢٧ ق.م - ١٤م)، ويرى بعض الباحثين أنه ولد فيما بين عامي ٦، ٢ ق.م، بينما يرى آخرون أنه ولد في عام ٤م ورفع إلى السماء عام ٢٧م وربما، في ٢٣ مارس ٢٩م (أنظر: ه.ج. ويلز موجز تاريخ العالم ص ١٧٢، ٤١٦، فليب متى: المرجع السابق ص ٣١١ - ٣١٢، ٣٦٣).

(38) G.A. Cooke, op.cit, p. 313 - 332.

(٣٩) جواد على ٨٦/٣، وكذا J.Starcky, Palmyre, p. 27.

(٤٠) فليب متى: المرجع السابق ص ٤٣٥، وهذا EB, 17p. 162.

(Voologasia)، كما بنوا لهم معبدا هناك^(٤١)، ولدنيا كتابة ترجع إلى عام ١٣٧م، أصدرها مجلس شيوخ المدينة لتنظيم التجارة وتثبيت الضرائب، وكيفية جبايتها^(٤٢).

وفي أوائل القرن الثالث الميلادي منح «سبتيموس سيفيروس» (١٩٣ - ٢١١م) تدمير حقوق المستعمرة، واستمرت كذلك حتى على أيام «كراكلا» (٢١١ - ٢١٧م)، وهكذا اكتسبت تدمير حق الملكية والإعفاء من الخراج، فضلا عن الحرية التامة في إدارة شئونها، وبدأ كبار القوم يضيفون إلى أسمائهم العربية أو الآرامية، أسماء رومية، بل وقد أضافت إحدى الأسر اسم «سبتيموس» أمام اسمها السامي، مما يدل على نوالها حق الرعاية في عهد «سيفيروس»، وربما كان ذلك بسبب الخدمات التي قلمتها في الصراع ضد الفرس، إلا أن ذلك لا يعني أن تدمير، إنما أصبحت مقاطعة رومية تماما، وإنما كانت حكومة شبه مستقلة، تدير شئونها الإدارية بنفسها، ولكنها تخضع لإشراف روما عليها^(٤٣).

وانتهزت تدمير فرصة انشغال روما بغزوات الجرمان التي كانت تهدد دولتهم في أوروبا الغربية، وأخذت توسع رقعتها، وإن ظلت وفية للروم، وهكذا أصبحت دولة تدمير تشمل عددا من المدن الصغيرة التابعة لها، مثل «دورا» و«الرصافة»^(٤٤)، وقد استخدمت «دورا» كمعقل لحماية تجارة تدمير الناشئة، وقد وجدت فيها بقايا أبنية ذات زخارف نافذة تمثل جنودا تدمريين، وأما «الرصافة» فقد أُلغيت في كتابة أثرية

(٤١) جواد على ٨٧/٢.

وكنا M.Rostoutzeff, Caravan Cities, p. 144.

وكنا F.Stark, op.cit, p. 253.

وكنا Mommsen, Provinces of The Roman Empire, 2, p. 236.

(٤٢) جواد على ٨٧/٢، المشرق، الجزء ١٢، عام ١٨٩٨، ص ٥٣٨.

وكنا EB, 17 p. 162.

وكنا W.Wright, op.cit, p. III.

وكنا G.A. Cooke, op.cit, p. 322.

(٤٣) ليليب حتى: المرجع السابق ص ٤٣٥ - ٤٣٦.

وكنا G.A. Cooke, op.cit, p. 250 - 312.

وكنا CAH, XI, p. 139, XII, p. 18.

(٤٤) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٢٤٩.

أشورية تعود إلى آخريات القرن التاسع قبل الميلاد باسم «رصابا Rasappa»، وهي نفس المدينة التي جاءت في التوراة^(٤٥) تحت اسم «رصف» بمعنى «الجمر المتوهج» وهدمها «سنحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) في أوائل القرن السابع ق.م، وقد عرفت فيما بعد باسم «سرجيوس بولس» نسبة إلى قديسها المحلي «سرجيوس» الذي استشهد في عهد «دقلديانوس» (٢٨٤ - ٣٠٥ م)^(٤٦).

(٤٥) ملوك ثان، ١٩: ١٢، أشعيا ٣٧: ٣٧.

(٤٦) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٤٣٦، وكذا EB, 17, 162.

(٧) الجابية - جلق

كانت العاصمة السياسية للفسانة - في أول الأمر - مخيماً متنقلاً، ثم استقرت بعد ذلك في «الجابية» في منطقة الجولان جنوب غربي دمشق، كما كانت في بعض الوقت في «جلق» في جنوب حوران^(١) - والتي ربما كانت «الكسوة» الحالية، على مبعده ١٦ كيلاً جنوبي دمشق - وأما ديارهم، فكانت - طبقاً لبعض الروايات العربية - في اليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها، وأن منهم من نزل الأردن من أرض الشام^(٢)، وعلى أي حال فلقد امتدت دولتهم حتى شملت الجولان وحوران والبلقاء، وأحياناً فينيقيا، فضلاً عن أهراب سورية وفلسطين^(٣).

وعلى أي حال، فليس هناك من دليل على أن الفسانة، قد ملكوا المدن الكبيرة في الشام كدمر وبصرى ودمشق، إذ أن هذه كانت محصنة، تتمركز فيها الحامية البيزنطية، ولكنهم كانوا يعتمدون على الصحراء، إذا داهمهم الخطر، فكانت تغنيهم عن المدن المحصنة، ومن ثم فقد كانت معظم حروبهم تدور على أطراف البادية، وإليها التجأوا عندما خلعوا سلطان الإمبراطور وثاروا عليه في عهد «النعمان بن المنذر»، ولهذا فقد كان الروم يقيمون عمالاً صغاراً بجانب ملوك غسان، حفاظاً على التوازن السياسي، وإبقاء لسلطان الدولة في الأوقات العصيبة، طبقاً لسياسة «فرق تسد»^(٤).

(١) فليب حتى: المرجع السابق ص ٤٤٩، باقوت ٩١/٢، ١٥٥، البكري ٣٥/٢، ٣٩٠، عبد المنعم ماحد: المرجع السابق ص ١٨٨ - ١٨٩، بلاشهر: المرجع السابق ص ٥٩، دائرة المعارف الإسلامية، مادة جابية ومادة جلق، عبد اللطيف الطليباوي: المرجع السابق ص ١٢، محمد مبروك نافع: المرجع السابق ص ١١٦.

وكدًا R.Dussaud, Topographie Historique de La Syrie Antique et Me-dievale, p. 317 - 18, 332 - 3.

وكتنا Leone Caetani, Anndai Dell'Islam; II, p. 928.

(٢) للمعري، مروج الذهب ٨٥/٢.

(٣) عبد اللطيف الطليباوي: المرجع السابق ص ١٢.

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٢.

(٣) الحيرة

كان العرب منذ قديم الزمان يهاجرون إلى تخوم شبه الجزيرة العربية الشرقية، حتى إذا ما وصلوا إلى وادي الفرات أقاموا في ربهه، وفي أوائل القرن الثالث الميلادي، وإبان الإضطرابات التي أعقبت سقوط الأسرة البارثية وقيام الأسرة الساسانية في حوالي عام ٢٢٦ م، تحت زعامة «أردشير بن بابك بن ساسان» وفدت طلائع عربية جديدة من قبائل تنوخ اليمنية، وسكنت في المنطقة الخصبة الواقعة إلى الغرب من الفرات، وما أن يمضي حين من الدهر حتى تحولت الخيام إلى مدينة عرفت «بالحيرة»، تحولت بمرور الأيام إلى إمارة الحيرة - وراء نهر الفرات عند منعطفه نحو دجلة، واقترب منه على مبدلة خمسين كيلو مترا - التي أصبحت بمثابة حصن للملك الفارسي حيال العرب الرحل^(١).

على أن هناك من يرجع بتاريخ المدينة إلى أيام الملك البابلي «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) - طبقا لرواية سبق لنا مناقشتها في هذه الدراسة^(٢) - بينما يرى آخرون أن مؤسس الحيرة إنما هو «الأردوان» ملك الأنباط^(٣)، بينما يذهب فريق ثالث إلى أنها من بناء «تبع أب كرب»^(٤)، وأخيرا هناك من يرى أنها مدينة بارثية^(٥).

وليس هناك من شك في أن «الحيرة» مدينة قديمة، وأن كنا لانعرف تاريخها على وجه التحقيق، ولعل أقدم ما وصلنا عنها إنما هي كتابة ترجع إلى عام ١٣٢ م، ذكرت فيها المدينة تحت اسم «حيرتا»، فإذا كانت «حيرتا» هذه، إنما هي «الحيرة» حقا، فإن أقدم ما نعرفه عنها إنما يرجع إلى عام ١٣٢ م^(٦)، ولعل مما تجدر ملاحظته

(١) آرثر كريستن: المرجع السابق ص ٨٢.

(٢) أنظر: تاريخ الطبري ٥٥٨/١ - ٥٦٠، بالقوت ٣٢٩/٢.

(٣) بالقوت ٣٢٩/٢.

(٤) بالقوت ٣٢٩/٢ - ٣٣٠، البكري ٤٧٨/٣ - ٤٧٩.

(٥) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٣١٨.

ر.كنا. A.Musil, The Middle Euphrates, p. 102.

(٦) جواد علي ١٥٧/٣، ر.كنا. CIS, II, p. 156, III, p. 3073.

هنا أن الحفريات لم تقدم لنا شيئا يمكن الاعتماد عليه فيما يتصل بموقع المدينة وتاريخها، وأن كل ما وصلنا لا يعدو نقوشا من الجبر مما نكسى به الجدران، فضلا عن مجموعة من الجرار وآبار صغيرة، بعضها يرجع إلى ما قبل الإسلام، وبعضها الآخر إلى العصر الإسلامي^(٧).

وقد اختلف المؤرخون في تفسير اسم «الحيرة» ومصدر اشتقاقه، فهناك رواية تذهب إلى أن «تيان أسعد أب كرب» كان قد خرج من اليمن يريد الأنبار، فلما انتهى إلى موضع الحيرة ليلا تخير، فأقام مكانه، ومن ثم فقد سمي ذلك الموضع «الحيرة»^(٨)، وتذهب رواية أخرى إلى أن «تيما الأكبر» قد ترك ضعاف جنوده في ذلك الموقع، وقال لهم «حيروا به» أي أقيموا به^(٩). هذا ويذهب العلماء المحدثون إلى أن كلمة «الحيرة» إنما هي كلمة «أرامية» وأنها «حرتا» (حرتوا) السريانية الأصل، بمعنى «الخيم أو المعسكر»، وأنها تقابل «المعسكر» عند المسلمين، و«حاصير» عند العبرانيين^(١٠).

على أن هناك من يرى أن الحيرة الآرامية، والحير العربي، إنما هما من أصل سامي واحد، ذلك أن الخيم والمعسكر والحمى، إنما هي ألفاظ يدل أصلها على معنى واحد^(١١)، ويميل أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم إلى هذا الرأي، معتمدا في ذلك على وصف «اليقوي» على خطط «سر من رأى» والحير الذي أقيم بها،

(٧) جواد على ١٦٠/٣. وكذا D.Talbot Rice, The Oxford Excavation at Hira, in ARS. Islamica I, Part I, p. 51.

(٨) ابن الأثير ٢٧٦/١ - ٢٧٧، تاريخ الطبري ٥٦٦/١ - ٥٦٧، ملوك حمير وأقبال اليمن من ١٣٢، باقوت ٣٢٩/٢ البكري ٤٧٩/٢، جواد على ١٦٢/٣.

(٩) البكري ٤٧٨/٢، باقوت الحموي: معجم البلدان ٣٢٩/٢.

(١٠) ويحيى بلاشهر: المرجع السابق ص ٨٥.

وكذا A.Musil, Palmyrena, p. 289.

وكذا F.Altheim, Geschichte der Hunnen, I, 1959, p. 130.

G.Rothstien, Die Dynastie der Lakhmiden, in Hira, Berlin, 1899, p. 12.

وكذا EI, II, p. 314.

وكذا ZDMG, 32, p. 753.

(١١) يوسف رزق الله غنمة: الحيرة المدينة والمملكة العربية من ١١

وجمل حظيرة للوحش من الطباء والحمير الوحشى والأيايل والأرانب والأنعام (١٢).

وتقع الحيرة قريبا من مدينة بابل القديمة، وعلى مبعدة ٥ كيلا إلى الجنوب من الكوفة (١٣)، وفي نهاية طريق يحتاز شبه الجزيرة العربية، ومن ثم فقد غدت بحكم موقعها الجغرافى هذا، مركزا هاما جدا للقوافل لم يسع الساسانيون إهماله، ومن ثم فما تكاد تقيم فيه سلاسل عرية حتى يضمونها تحت حمايتهم (١٤).

هذا وقد اشتهرت المدينة باسم «حيرة النعمان» عند المؤرخين العرب، و«الحيرة مدينة العرب» عند المؤرخين السريان، و«حيرته» فى المجتمع الكسى الذى عقد فى عام ٤١٠ م، كما سميت كذلك باسم «حيرة النعمان التى فى بلاد الفرس» (١٥) فى تاريخ يوحنا الأفسوسى - من القرن السادس الميلادى - وأما «التلمود» فقد أطلق عليها إسم «حيرت دى طيبة» أى «معسكر العرب وحيرة العرب» (١٦)، وقد أطنبت المؤلفات العربية فى وصف هوائها النقى، وصفاء جوها، وعذوبة مائها، حتى قيل «يوم ليلة بالحيرة خير من دواء سنة»، وقيل «إنها منزل يرى مرىء صحيح من الأدواء والأسقام» وأن هواءها وترابها أصبح من «الكوفة»، ولعل كل هذه الأوصاف ربما كانت السبب فى أن تقول العرب «لبينة ليلة بالحيرة أتقع من تناول شربه»، بل أن حمزة الأصفهاني، ليزعم أنه لم يمض بالحيرة بسبب هوائها النقى أحد من الملوك إلا قابوس بن المنذر (١٧).

(١٢) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٢٢٠، كتاب البلدان ص ٢٦٣.

(١٣) P.K. Hitti, op.cit, p. 81.

(١٤) روجيس بلاشير: المرجع السابق ص ٥٨.

(١٥) جواد على ١٥٦/٣.

وكتا: ZDMG, 43, p. 388.

وكتا: A.Musil, op.cit, p. 20.

وكتا: Johan of Ephesus, 10, 13, 352.

وكتا: J.obermeyer, Die Landschaft Babylonien, p. 234.

وكتا: F.Altheim and R.Stiehl, op.cit, p. 275, II, p. 225.

(١٦) جواد على ١٥٦/٣ - ١٥٧.

(١٧) حمزة الأصفهاني: المرجع السابق ص ٧٥، البكرى ٤٧٩/٢، المبدئى ١٣٧/٢ - ١٣٩، جواد

على ١٥٨/٣.

هذا وقد كان لعرب الحيرة لهجة من اللسان العربي يتحدثون بها في حياتهم العادية، وأما في الكتابة فقد كانوا يستعملون السريانية، ولعلهم في هذا يشبهون الأنباط والتدمريين الذين كانوا يتكلمون العربية ويكتبون بالآرامية، هذا وهناك من يذهب إلى أن دخول النصرانية إلى اليمن إنما كان بجهود رجال الكنيسة السورية في الحيرة، فضلاً عن انتقال الكتابة من الحيرة إلى الحجاز، وعلى أى حال، فقد أصبحت الحيرة في القرن السادس الميلادي، وعلى أثر اتساع نفوذ سلالة اللخمين نقطة التقاء للتيارات الإيرانية والآرامية على حدود المحيط العربي الفاصلة، حتى لقد ظهرت المدينة بمظهر العاصمة الفكرية^(١٩).

(١٨) أنظر: الزهر ٣٤٩/٢، صبح الأعشى ١٠/٣، مقدمة ابن خلدون ص ٣٤٩، الجهشياوى، كتاب الوزراء والكتاب ص ٢ وما بعدها، كتاب المصاحف للسجستاني ٤/١ - ٥، الأعلام النفسية لابن رسته ص ١٩٢، ٢١٧ (طبعة لندن ١٨٩٢م) قارن: المعارف ص ٢٤٧ وما بعدها، ثم انظر:

F.Altheim and R.Stiehl, op.cit, I, p. 198.

P.K.Hitti, op.cit, p. 84.

(١٩) رجس بلاشهر: المرجع السابق ص ٦٢.

(٤) الحضر

الحضر: إمارة عربية، تقع في وادي «الثرثار»^(١)، على مبعده ١١٥ جنوب غربى الموصل، وقد اشتهرت هذه الإمارة العربية في معظم كتب التاريخ، بأنها فرنية، وذلك لأن معظم قوتها، وصيتها الواسع، إنما عرف إبان حقبة التسلط الفرني على العراق، أى على أيام «الفرس الفرثيين» (١٣٥ ق.م - ٢٢٦ م)^(٢).

هذا وقد اختلف الباحثون في أصل تسميتها، فذهب فريق إلى أنها من أصل آرامى، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب أصحابه إلى أنها من أصل عبرانى آرامى، وهناك وجه ثالث للنظر يذهب إلى أنها من أصل عربى، وأنها بمعنى «الحيرة» أى «المسكرة».

وأياً ما كان الأمر، فلقد عرفت «الحضر» في الكتابات اليونانية باسم «أترا» (Atrai, Atra) وفي اللاتينية باسم «هترا» (Hatra)، بينما عرفت في كتابات الحضر نفسها باسم «حطراء»^(٣).

هذا وقد عثرت مديرية الآثار العراقية على نص (رقم ٧٩) جاء فيه إسم المدينة - ولأول مرة - باسم «حطراء»، على نحو ما ينطق به فى الآرامية، كما وردت كذلك فى جملة «والمخطوط العائدة إلى العرب»، وهى جملة ذات دلالة تشير إلى العرب، فضلاً عن ورودهم فى هذه المنطقة، كما ذكرت فى النص أيضاً «عربايا» (عربوار)، هذا وتسمية الاقليم باسم «عربايا» شأن كبير لأنه نسبة إلى العرب، وفى هذا الاقليم تقع مدينة الحضر^(٤).

هذا وكانت الحضر من مدن الصحراء الشهيرة، ومن ثم فقد كانت، شأنها فى

(١) الثرثار: واد بين سنجار ونكرت، كان فى القديم منازل ل بكر بن وائل ويبر بمدينة «الحضر» لم يصب فى دجلة أسفل نكرت (تاريخ الطبرى ٥٠/٢).

(٢) مؤيد سعيد: العراق فى التاريخ ص. ٢٥٨.

(٣) جواد على: المفضل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ٦٠٩/٢.

وكتنا، F.Althein and R. Rthl, Die Araber in der Sten Welt, I, Berlin, 1964, p. 274 - 275, II, 1968, p. 225.

(٤) حواد على ٦١٠/٢ - ٦١١، وكتنا: مجلة سومر: الممد ١٧ لعام ١٩٦١ م ص ١٢، ١٥، ١٧، الممد ٢١ لعام ١٩٦٥ ص ٢٢.

ذلك شأن البتراء وتدمر، كما كانت قصتها - نمو واضطرابا، وتدهورا ودمارا - لاختلف كثيرا عن قصص مدن الصحراء الأخريات، فلقد جهد سكانها كثيرا في مقاومة السلطتين الرومية والفارسية، أمدا طويلا، ولكن الروم والفرس نجحوا آخر الأمر في تدمير هذه المدن جميعا، الواحدة تلو الأخرى، وكان من نصيب الحضر أن يدمرها الفرس الساسانيون (٢٢٦ - ٦٣٧ م) في عام ٢٤١ م، بعد أن حاصرها «سابور» عاما كاملا، من نيسان ٢٤٠ م إلى نيسان ٢٤١ م.^(٥)

هذا ويذهب «هرتسفلد» إلى أن القبائل العربية إنما هي التي أسست مدينة الحضر، إبان القرن الأول قبل الميلاد، حصنا منيعا، أقام سادتها فيه، مستغلين فرصة الخلاف الذي كان قائما بين الروم والفرس، بذكاء وحكمة، وقد حصلوا على أموال الفريقين المتنافسين، وذلك رغبة من كلا الفريقين في أن يستغل موقع الحضر - الإقتصادى والسياسى والعسكرى - لمصلحته الخاصة.

وهكذا بدأت الحضر تنمو، وسرعان ما ازدادت المدينة توسعا وبهاء وعمرانا، حتى صارت مدينة كبيرة ذات شأن، سكنتها كذلك جاليات أجنبية، تولت الوساطة فى البيع والشراء، ونقل تجارة آسيا إلى تجار أوروبا، وتجارة أوروبا وحاصلاتها إلى تجار آسيا^(٦).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه قد عثر فى الحضر عام ١٩٤١ م على كتابات آرامية، تؤكد وجهة النظر القائلة بأن من أسسوا المدينة إنما هم قبائل عربية، وذلك بسبب ورود أسماء عربية - بجانب أسماء إيرانية وأرامية، بل أن نسبة الأسماء العربية هنا - فى الحضر - إنما تزيد كثيراً على نسبة الأسماء العربية فى الكتابات

(٥) مؤيد سعيد: العراق خلال عصور الاحتلال - كتاب العراق فى التاريخ من ٢٥٨ (بغداد ١٩٨٣)، أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ ط السادسة - دمشق من ٢١٩.

(6) E.Herzfeld, Hatra, in ZDM, 98, 1914, p. 663.

وكان: Die Araber, p. 275 - 276

وكان: U.Kalirstedt, Aratabanss, III, 67.

وكان: Th. Noldeke, Geschichte der Perser und Araber, 1878, p. 33

F.Altheim, Die Krise der Althen Welt, I, 1943, p. 132, 206

التدمرية، وقد كتبت بلغة آرامية، وكل ذلك إنما يدل على وجود جالية عربية في الحضر (٧).

هذا وقد لقب رئيس معبد الحضر الكبير باسم «سادن العرب»، كما لقب ملوك الحضر أنفسهم بلقب «ملوك العرب» (٨).

بقيت الإشارة إلى أن اطلال مدينة الحضر، إنما تتكون الآن من سور خارجي، وسور داخلي دائري، به حوالى مائتى برج، وأربع بوابات، ويقع فى وسط المدينة حتى المعابد، يحيط به سور كبير من الحجر المستطيل الشكل، ويضم فى داخله قرابة أحد عشر معبدا، لعل من أهمها معبد مبنى من الحجارة المتهدمة للاله «أشور بل»، وهو أحد المعابد التى شيدها كبير الكهنة «نصرومريا» الذى انحدرت منه الأسرة العربية، الحاكمة فى «الحضر» - على مبعدة ١١٥ كيلا جنوب غربى الموصل -.

هذا ويرجع تاريخ هذه الأبنية - التى ماتزال اطلالها باقية، بما فى ذلك الأسوار والأبراج والقصور والمعابد - إلى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد، وإلى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد.

وأما تاريخ تأسيس مدينة الحضر نفسها، فأغلب الظن - فيما يرجح الباحثون - أنها كانت قرية - وربما مدينة صغيرة - لسكنى عرب البادية فى الفترة فيما بين أخشريات أيام الآشوريين (٩)، وحتى أخشريات العصر الفرسى (١٣٥ ق.م - ٢٢٦ م) (١٠).

(٧) حواد على ٦١٠/٢ وكلا F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, p. 276.

(٨) محمد يوسى مهران: تاريخ العرب القديم ص ٤٩٨، فيليب حتى المرجع السابق ص ٨١.

(٩) أنظر نهاية الامبراطورية الآشورية، وسقوط آخر معاقلها فى عام ٦٠٩ ق.م، على يد «سوخل نصر»

البابلى (محمد يوسى مهران: العراق القديم ص ٤١٩ - ٤٣٢ - الإسكندرية ١٩٩٠)

وكلا M.Nothe, The History of Israel, London, 1965, p. 273 - 274

وكلا C.J. Gadd, The Fall of Nineveh, London, 1923.

(١٠) أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ - دمشق ص ٢٩٧ - ٢٩٨، مجلة سومر، العدد ٢٦

لعام ١٩٨٠ ص ٢١٠ وما بعدها

(٥) الرها

الرها: هي إديسا عند الروم - أورفا الحالية، إسم لمدينة وإمارة عربية، تقع على مبعده ٣٢ كيلا شمالي حران (حاران)، في جنوب شرق تركيا، قريبا من الحدود السورية، وما تزال معارفنا عنها من ناحية صلتها بالعرب ضئيلة، وقد ازدهرت قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وقد ظهرت حيثة عدة مدن في تلك المنطقة، مثل «لبنى» و«نصيبين» و«سنجار» (Singara - سنجارا) (١).

هذا وقد أدخل «بليني» الأكبر (٢٤/٢٣ - ٧٩ م) الرها - فضلا عن «كاليرهو» Callirhoe في جملة المدن العربية، هذا وقد عرفت الرها في السريانية باسم «أورهه» (Orthae - Orhai) (٢).

وهي في تاريخ بليني الأكبر (Orroei)، من جملة الأرضين الداخلة في العربية، ثم هي من المدن التي جدها «سلوقس الأول» (ت ٢٨٠ ق.م)، وقد عرفت كذلك باسم «أنطوخية» نسبة إلى «أنطيوخس الرابع» (١٧٥ - ١٦٣ ق.م) (٣).

هذا وقد قامت في القرن قبل الميلاد في هذه المقاطعة (مقاطعة Orroei - Os - rhoene) إمارة أو مملكة صغيرة، اعتبر الكتاب اليونان والرومان ملوكها من العرب، كما عدوا سكانها من العرب أيضا

ويذهب «هروكويوس» - المؤرخ البيزنطي، المتوفى حوالي عام ٥٦٢ م - إلى أن هذه المقاطعة، إنما دُعيت (Osroes) نسبة إلى ملك يُدعى Oseroes، كان يحكم هذه الأرض في الأيام القابرة، وكان حليفا للفرس (٤).

(١) جواد علي ٦١٩ / ٢، مجلة سمر: المجلد الثامن، ١ / ٢٨ لعام ١٩٥٢ م.

(٢) المشرق - السنة ١٥ - ٢٠١ / ٣ وما بعدها (عام ١٩٥٢)، وكذا.

Ency., III, p. 993.

(٣) جواد علي ٦١٩ / ٢، وكذا.

Pliny, V, XX, 85, VI, 25, 129, VI, IX, 25, II, p. 285, 355, 437.

وكذا: Ency., III, p. 993, Hill, p. XGIV.

(4) M. Rostovzeff, The Social and Economic History of The Hellenistic World, Oxford, 1941, II, p. 842.

وقد عثر في «حولية الرها» (Edessenc Chronicle) - والمؤرخة بحوالى عام ٥٤٠م - وكذا في حولية أخرى ترجع إلى عام ٧٧٥م، وعلى نفوذ ضربت في الرها - عثر على أسماء ملوك الرها مرتبة زمنياً، وتشير دراسة أسمائهم إلى أن من بينها أسماء «عربية بنية» مثل «معنو» (معن) و«بكرو» (بكر)، و«عبدو» (عبد)، و«سهر» أو «سحرو»، أى «سهر» أو «سحر» وغيرهم^(٥).

هذا ويذهب العلماء إلى أن سكان الرها وحكامها، إنما كانوا عرباً، إعتقاداً على عدة أمور، منها (أولاً) أن أسماء ملوك الرها - ولاسيما الملوك الأولين منهم - أسماء عربية، ومنها (ثانياً) نص «يليني» على أن كورة Osroboene إنما هي كورة عربية، ومنها (ثالثاً) أن الوضع السياسى العام فى «ميزوبوتاميا» (Mesopotamia) فى القرن الثانى قبل الميلاد، وفيما بعده، إنما يشير إلى أن القبائل العربية قد توغلت فى هذه المنطقة^(٦).

ولعل من الجدير بالإشارة أن الاخباريين إنما ينسبون بناء الرها إلى رجل دعوة: «الراء بن البندى بن مالك بن دعر» أو إلى «الراء بن سبند بن مالك بن دعر بن حجر بن جزيلة بن لخم»^(٧).

ويرى «ياقوت الحموى» - عن يحيى بن جرير النصراني - أن اسم الرها فى الرومية «أذاس» وقد بنيت المدينة فى السنة السادسة من موت الإسكندر، بناها الملك «سلوقس»^(٨)، وأن المسلمين قد انتزعوها من أيدي الروم فى عام ٦٣٩م^(٩).

وأما معبودات الرها، فهما: عزيزوس (Azizus = Azizos) و «مونيموس» (Monimos)، وهما معبودان عربيان، الأول اسمه «عزيز» والآخر «منعم»، وقد وردا فى الكتابات اليونانية التى عثر عليها فى «الكورة العربية» (Provinica Arabia) -

(5) Procopius, I, XVII, 24.

(٦) رتبة ديمو: العرب فى سورية قبل الإسلام، ص ١١.

(٧) جواد على ١٢ / ٦٢٠، وكذا:

F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., I, p. 312.

(٨) ياقوت ١٤ / ٣٤٠، البكر ١ / ٤٢٥، الاصطخرى: كتاب المسالك والممالك، ص ٧٦ (ط ليدن

١٩٢٧)، ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص ١٥٤ (بيروت ١٩٦٣).

(٩) معجم البلدان ١٤ / ٣٤٠.

وإن إضافتهما بعض الكتاب إلى السريان الوثنيين، وعلى أية حال، فهناك كذلك المعبودات «بعل» و«نبو»^(١٠).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أهمية الرها في الأدب السرياني، ذلك أن اللغة السريانية نفسها، إنما هي لهجة آرامية، نشأت في إقليم الرها، وقد بدأت لغة الرها الآرامية هذه تسمى «السريانية» بعد انتشار المسيحية - تمييزاً لها عن الآراميات الوثنية أو اليهودية - لاسيما أن لفظ «أرامي» كان قد اتخذ في أذهان العامة من القوم في هذا الإقليم مدلولاً يشبه لفظ «جاهلي» عند المسلمين - أي أنه ما يزال لا يؤمن، وإنما يعبد الأصنام -^(١١).

هذا ومن المعروف أن مملكة أو إمارة الرها (١٣٢ ق.م - ٢١٦ م)، إنما قامت في عام ١٣٢ قبل الميلاد، على يد الملك «أريو» (١٧٣٢ - ١٢٧ ق.م) - بمعنى الأسد - ثم جاء من بعده في الفترة (١٢٧ - ٦٩ ق.م) ستة ملوك هم (عبدو بن مزعور - إيرادشت - يكرو الثاني - أبجر الأول - معنو، ثم أبجر الأول - مرة ثانية) وحكم في الفترة (٦٨ ق.م - ٢١٦ م) ١٧ ملكاً.

(10) Ency., III, p. 996.

(١١) جواد على ٢ / ٦٢١، وكلا:

Hill, op. cit., p. XGV

Mordtmann, Mythologische Miscellen, in ZDMG, 32, 1978, p. 664.

٦ - إمارة حمص

يشبه تاريخ «حمص» (Emesa = Homesa = Hemesa) - من بعض الوجوه - تاريخ مدينة تدمر، فقد حكمتها أسرة عربية، كما ازدهر تاريخها في الحقبة التي ازدهرت فيها حكومات المدن الأخرى، التي ظهرت على أثر الضعف الذي حل بالسلوقيين.

وتقع حمص في السهل الخصب الذي يرويه نهر العاصي (الأورنت = Or- notes)، وعلى ميمدة ميل منه، هذا وقد عرفت حمص عند اليونان والرومان باسم "Emesa"، وفي أيام «بومبي» (١٠٦ - ٤٨ ق. م) كانت مدينة «الرسن» (Arethusa) - وتقع على نهر الميماس (العاصي حالياً) في مجاورات حمص - كانت مقر أسرة عربية حاكمة^(١)، وفي هذه المدينة ولد القيصر «الأجابالوس» (Elagabalus) (٢١٨ - ٢٢٢ م).

هذا وقد بلغت حمص أوج ازدهارها على أيام «سبتيموس سيفيروس» (١٩٣ - ٢١١ م) وفي أيام «الأجابالوس» (٢١٨ - ٢٢٢ م) و«سيفيروس الإسكندر» (٢٢٢ - ٢٣٥ م)^(٢)، كما كانت أسقية على أيام البيزنطيين^(٣).

هذا وينسب العلماء إلى أن ملوك حمص إنما ينتمون إلى أصول عربية، وذلك اعتماداً على أن الأسماء إنما تحمل طابعاً عربياً خالصاً، وهي أسماء إنما ترد في نصوص صقلية، وفي نصوص عربية أخرى، مما يدل على عروبة ملوك حمص^(٤).

(١) جواد على ٦٢٢ / ٢، باقوت: معجم البلدان ٤ / ٢٤٩، وكنا:

Ency., II, p. 309.

(٢) اعتمدنا في التاريخ للأباطرة على (اندوارد جيبون. انضحالال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد علي أبو رينة، القاهرة ١٩٦٩، الجزء الأول، ص ٦٦٧ - ٦٧٤).

(٣) جواد على ٦٢٢ / ٢.

(٤) رينه ديسو: العرب في سوريا قبل الإسلام، ص ١١، وكنا

R. Dussaud, Les Arabes en Syrie avant L'Islam, Paris, 1907, p. 10.

وكنا:

F. Althcim and R. Stiehl, op. cit., III, 1968, p. 126.

٨ - مدين

كان أهل مدين قوما عربيا يسكنون مدينتهم «مدين» ، وهي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط ، وكأنت أرض مدين تمتد من خليج العقبة إلى مؤاب وطور سيناء ، وبفهم من أسفار التوراة أن مواطن المدنين إنما تقع إلى الشرق من العبرانيين ، والظاهر أنهم توغلوا في المناطق الجنوبية لفلسطين ، وسرعان ما اتخذوا لهم هناك مواطن جديدة ، عاشوا فيها أمدا طويلا ، حيث يرد ذكرهم في الأخبار المتأخرة .

هذا وقد ذكر بطليموس الجغرافي موضعا يقال له «مودينا» (modiana) على ساحل البحر الأحمر يرى العلماء أنه موضع «مدين» ، وهو يتفق وحدود أرض مدين في الكتب العربية ، ويذهب المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى» (٣٧ - ٩٨ م) أو (١٠٠ م) أن موسى عليه السلام ، قد فر إلى المدينة (modiana) المواجهة للبحر الأحمر ، وهذا كله إنما يشير إلى أن مدينة «مدين» إنما كانت معروفة بصفة عامة في أوائل التاريخ المسيحي .

هذا ويذكر «يوسبيوس» (٢٦٤ - ٣٤٩ م) مدينة «مديم» (madiam) ويقول إنها سميت باسم أحد أولاد إبراهيم عليه السلام ، من زوجته قطورة ، وهي تقع وراء المقاطعة العربية (Arabia) في الجنوب ، في بادية العرب الرحل (Sardcems) إلى الشرق من البحر الأحمر ، وهكذا فإن «يوسبيوس» - وكذا «سلن جيروم» (٣٤٥ - ٤٢٠ م) - إنما يضعان مدينة «مدين» فيما وراء حدود المقاطعة العربية التي كانت حدودها الثابتة من ناحية الجنوب تطابق تماما الحدود الشمالية لبلاد العرب السعيدة ، عند السطح الجنوبي لجبل الشراة .

ويذهب «أويس موسل» إلى أن أرض مدين يجب أن تكون إلى الشرق والجنوب الشرقي من موقع مدينة العقبة الحالية ، المعروفة قديما باسم «إيلات» ، فهناك كان يمر أهم طريق من طرق النقل التجاري ، وكانت تحرس هذه الطرق حاميات من أهل الجنوب من بلاد العرب ، وكان المركز الرئيسي لهذه الحاميات في العلا (ديدان) وفي معان (معون) (١) .

(١) محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٢٩٧/١ - ٣٠١ (بيروت ١٩٨٨) ، ألويس موسل : شمال الحجاز ترجمة عبد الحسن الحسيني - الاسكندرية ١٩٥٢ ص ٦٩ - ٨٤ ، ptolmy, Geography, II, 7,27 و Josephus, Archaeologia, II, 257 Encyclopadia of Islām III, p.104 .
A. musil, the Noithern of Hegas, n.y, 1926, P.287.

الباب الثاني

العراق القديم

الفصل الأول

المدن والمراكز الأثرية فيما قبل العصر التاريخي

لقديم :

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن العراق القديم (ميزوبوتاميا^(١)) إنما قد مرّ - شأنه في ذلك شأن غيره من بلاد الشرق الأدنى القديم - بالعصور الحجرية المختلفة، فهناك العصر: الحجري القديم، وأشهر مواقعه: بردة بالك، على مبعده $\frac{1}{4}$ ٢ كيلا شمال شرق جمجمال، فضلاً عن «كهف هزارمرد» على مقربة من السليمانية، و «كهف شائندر» جنوب غرب بحيرة أرومية.

وهناك العصر الحجري الوسيط، وأهم مواقعه: «كهف شائندر» (طB)، وقرية «زاوى سمن» على مبعده ٤ كيلا من كهف شائندر، وهناك «كريم شاهر» على مقربة من «كر كوك» (أرابخا القديمة) و «ملفعات» فيما بين الموصل وأربيل، ثم موقع «جرد شاي».

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن قرية «زاوى سمن» رغم أنها تمثل استقراراً، بل إنها إنما تعد من أقدم مناطق الإستقرار في العراق القديم، وتؤرخ بحوالى الألف التاسعة قبل الميلاد، ويشير إنتاجها الحضارى إلى الاتجاه نحو الزراعة والإستقرار، وهى أهم سمات العصر الحجري الأوسط، ومن ثم فهي تمثل هذا

(١) ميزوبوتاميا: (mesopotamia) لفظ إغريقى ترجمه المؤرخون العرب بمعنى «بلاد ما بين النهرين» أو «بين النهرين»، ورغم دقة الترجمة، فإنها قاصرة غير شاملة، ذلك لأن حصارة العراق القديم لم تكن مقصورة على ما بين النهرين، وإنما امتدت إلى ما حول النهرين أيضاً، بل إن طائفة من أقدم المواقع الأثرية كالعبيد، وأربدو، وأور، وماري، قامت غرب الفرات، وليس فيما بينه وبين دجلة، كما قامت إشنونا وتل أسمر ونوزي شرق الدجلة، وقد فطن الأخادقة أنفسهم إلى قصور لفظ «ميزوبوتاميا» فأضاف إليه بعض «بارابوتاميا» (Parapotamia)، أى ما وراء النهرين وما حولهما، وهنا يحسن القول «بلاد النهرين»، هذا إلى أن تعبير «بلاد الرافدين» أو «حضارة الرافدين» لا يؤدى المعنى كاملاً ذلك لأن روافد النهر إنما تختلف عن تعبير النهر ذاته، كما هو معروف (عبد المرير صالح: الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول - مصر والعراق - القاهرة، ص ٢٧١).

العصر. وأما بقية مواقع هذا العصر فقد تميز بالمناجل الحادة المصنوعة من الظران، مما يرجح استخدامها في زراعة برية، هذا ويؤرخ موقع «ملفعات» بنهاية الألف السادسة قبل الميلاد، وقد كشف فيها عن بقايا حيطان حجرية غير منتظمة الشكل لمساكن يضاربة^(١).

وأما العصر الحجري الحديث وأهم مواقعه:

أولاً: في شمال العراق:

(١) تل الصوان: ويقع على الضفة الشرقية للدجلة، قريباً من سامراء، وعلى بعد ١١٠ كيلاً شمالي بغداد، وقد كشفت الحفريات في أسفل مباني الطبقة (أ) عن جبانة ضخمة تضم أكثر من ١٣٠ قبراً، حفرت أسفل أرضيات الحجرات فوق الأرض البكر مباشرة، وزودت جميعها تقريباً بالكثير من الآنية المرمية المتعددة الأشكال والأحجام من الجرار والأكواب والأطباق، فضلاً عن مجموعة كبيرة من التماثيل الصغيرة الجيدة الصنع، والتي في معظمها لآلهة الأمومة التي تمثل هنا غالباً واقفة.

هذا وقد تميز موقع تل الصوان بالعثور على بعض القطع النحاسية الصغيرة، وإن لم تكن إنتاجاً محلياً، كما تشير مباني تل الصوان إلى تقدم ملحوظ في تشييد المباني، فقد شيدت من قطع الآجر الكبيرة المستطيلة الشكل وطلبت الجدران من الداخل باللبن، ودفن القوم موتاهم أسفل أرضيات المنازل، كما عملوا على

(١) J. mellaart, Earliest Civilizations of the East, London, 1974
P. 19 - 21.

J. mellaart, in CAH, I, Part, I, Cambridge, 1970, P. 254 -
256.

R. S. Solecki, in Sumer, 8, 1952, P. 127 - 130, 137, 9, 1953,
P. 230 - 231, 13, 1957, P. 59 - 60, 14, 1958, P. 106 - 107.

وانظر: محمد هومي مهران: مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء العاشر، تاريخ العراق القديم،
الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٥ - ٨.

محصن الموقع، وذلك بحفرة ذات أضلاع ثلاثية، شيد بداخلها حائط ضخيم مزود بركائز، وهي مثال فريد للتحصين في بلاد النهرين في هذا التاريخ المبكر^(١).

(٢) تل حسونة: يقع تل حسونة على مبعدة ٣٥ كيلا جنوبى الموصل، ٨ كيلا شرقى قرية الشورة، وهو موقع صغير (٢٠٠ × ١٥٠ مترا) ويرتفع عن السهل المجاور بنحو سبعة أمتار، ويعد أقدم المواقع الحضارية فى صميم السهل الميزوبوتامى، ويمبر عن انتقال مركز الثقل الحضارى من المنطقة الشرقية، وقد كشف فى تل حسونة عن ١٧٠ طبقة أثرية، أقدمها تلك التى تعلو الأرض البكر مباشرة، وتمثل حضارة حسونة، وأما أحدثها فهو الطبقة (XV) من عصر حضارة العبيد، وعلى أية حال فتل حسونة إنما يمثل قرية مستقرة فى العصر الحجري الحديث، وإن لم يعثر فيها على أى معدن، ولكنهم توصلوا إلى الزراعة، وخاصة القمح، كما استأنسوا بعض الحيوانات كالأغنام والماعز والخنازير، وبنو مساكنهم من الطمي، وتمثل الطبقة الرابعة معالم واضحة للأقسام التى يتكون منها المنزل، والذي يتكون غالباً من بعض الحجرات التى كانت تتجمع حول أو إلى جانب فناء مكشوف يقع فيه غالباً فرن وحرار لتخزين الطعام وصوامع الغلال.

وقد دفن القوم موتاهم أسفل أرضيات المنازل، وقد عثر بين موقدين من المرحلة الأولى فى الطبقة (Ia) على هيكل عظمى لإنسان، ويجواره جرة كبيرة، ربما احتوت طعامه أو شرابه، كما وجد قرب رأسه فأسان من الظران، الأمر الذى قد يشير إلى اعتقاد المقوم فى حياة أخرى^(٢).

(١) محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٦ - ١٩، وانظر Sumer, 21, 1965, P. 18 - 21, 24, 1968, p. 58, 26, 1970, Pigs, 39 - 42, 27, 1971, P. 5, 28, 29, 1973, P. 6 - 9.

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٤ - ٢٠، طه باقر: مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ٦٠ / ١ (بغداد ١٩٥٥).

S. Lloyd and F. Safar, Tell-Hassuna, JNES, 4, 1945, P. 272 - 286.

(٣) تل حلف: ويقع في مرتفع يطل على نهر الخابور، قرب قرية رأس العين، على مقربة من الحدود السورية التركية، وعلى مبعده ١٤٠ كيلاً شمال غربي نينوى، ويتميز بتوصله إلى استخدام النحاس، حوالى منتصف الألف الخامسة قبل الميلاد، وتشغل حضارة حلف الفترة من أنحرثات الألف السادسة، وحتى أنحرثات الألف الخامسة قبل الميلاد، وقد انتشرت هذه الحضارة في الشمال خاصة، وفي مساحات واسعة تمتد من الزاب الأعلى وسفوح جبال زاغروس شرقاً، إلى ما وراء الفرات غرباً، وإلى الحدود التركية وسفوح جبال طوروس شمالاً، وامتدت جنوباً، وجنوب شرق إلى سامراء، وإلى تل الصوان وإقليم مندلي. وتتميز حضارة حلف باستخدام النحاس، ومظاهر حضارية جديدة في العمارة والفخار والنحت على الحجر، وكانوا يدفنون موتاهم في أرضية المساكن، حيث يرقد الميت على جنبه الأيمن، وفي وضع مقرفص، بينما تتجه رأسه نحو الغرب، كما احتوت مقابرهم على بعض أمتعة المتوفى الشخصية، كالآنية الحجرية والأواني الفخارية والأكواب وحبثات العقود المرمرية وغيرها^(١).

(٤) جرمو: تقع جرمو على مبعده ٢٥ كيلاً شرقي كركوك، على حافة وادٍ عميق في سهل جمجمال في لواء كركوك (فوق وادى طوق جاي، أحد روافد دجلة)، أي خارج السهل الميزوبوتامي شرقاً، وتبلغ مساحة قرية جرمو، ما بين ثلاثة وأربعة أفدنة، وقد كشف فيها عن ١٦ طبقة أثرية متتالية، يؤرخ أقدمها بحوالى عام ٦٧٥٠ ق.م، وإن ذهب «كول» إلى أنها ترجع إلى ما بين ٧٠٠٠، ٦٠٠٠ ق.م، وتضم ما بين ٢٠، ٢٥ منزلاً، ويقدر سكانها بحوالى ١٥٠ فرداً، وإن قدرها «طه باقر» بحوالى ٥٠٠ بيتاً، تضم حوالى ٣٠٠ فرداً.

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٢٠ - ٢٣، وكذا:

J. Mellaart, op.cit.; P. 276 - 278.

وكذا:

Sumer, 22, 1966, P. 56, 25, 1969, P. 134, 27, 1971, P. 20 - 31, 29, 1973, P. 10 - 14

وكذا:

A. parrot, Sumer, London, 1960, P. 43F.

وقد ذهب البعض إلى أن «جرمو» إنما تمثل أقدم قرية زراعية في العراق القديم، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أن «تل حسونة» تمثل أول موقع زراعي، وأن «جرمو» لا تعدو أن تكون مجرد قرية متخلفة، ترجع إلى آخريات العصور الحجرية أو ما بعدها، وعلى أية حال، فلقد كشفت الحفريات عن معرفتها للزراعة والاستقرار، واستئناس الماعز والكلاب، وربما الأغنام والخنازير، وقد بنى القوم مساكنهم من كتل طينية أقيمت في بعض الأحيان على أسس من حجر، وكان المنزل يتكون من عدد من الحجرات الصغيرة، عثر فيها على موافد، احتوى كثير منها على بعض الأواني، وعلى أنواع من الرحى البسيطة قوامها حجران بسيطان، وأطباق فخارية استعملت لفرك الحبوب، وأحياناً للمعجن، فضلاً عن المحارث البسيطة، والمناجل المكونة من أسنان الصوان، والأدوات الصوانية، كما عرف القوم الغزل والحياكة، كما تشير إلى ذلك أقراص المغازل الفخارية.

وقد شاع في جرمو استخدام الأسلحة القزمية، التي صنع بعضها من حجر الأوبسديون (الزجاج البركاني)، كما تزين القوم بالأساور والأقراص المثقوبة والخواتم، كما نسب إليهم صناعة تماثيل طينية بدائية لحيوانات ورجال ونساء جالسات ذوات أرداف غلاظ، فضلاً عن تماثيل صغيرة لآلهة الأمومة، كما كشفت الحفريات على ما يشبه عضو الذكر، مما دفع إلى الظن بقيام لون من عبادة الجنس والرمز للخصوبة، فضلاً عن وجود لون من ألوان التفكير الديني نشأ بقيام عبادة الشمس التي قلست على هيئة معبودة^(١).

(٥) سامراء: تقع سامراء على الضفة اليسرى لنهر الدجلة، وعلى مسبعة ١٠٠ كيلاً شمالي بغداد، وقد عثر بها على الفخار المزين بالأشكال الحيوانية

(١) محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم من ١١ - ١٤، رشيد الناصوري: جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا ١ / ١٣١ - ١٣٢، وكلنا:

P. Mortensen, in Sumer, 18, 1962, P. 74 - 76.

J. Mellaart, op. cit., P. 257 - 259.

وكلنا:

S. Cole, The Neolithic Revolution, London, 1961, P. 48

وكلنا:

والخطوط المتموجة، وقد أطلق عليه «فخار سامراء»، والذي كان يظن أنه يمثل
عسراً حضارياً مستقلاً، غير أنه الآن إنما يعتبر ضمن عصر حضارة حسونة.

بقيت الإشارة إلى أنه قد بنى الخليفة العباسي «المتصم» (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م) عاصمته «سامراء» في نفس الموقع في عام ٢٢١ هـ، ثم انتقل
إليها من بغداد، بجيشه وكبار رجال دولته، ثم ظل الخلفاء العباسيون يقيمون
في سامراء حتى نهاية عهد المتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) ثم عادوا بعد ذلك إلى
بغداد، وحتى نهاية الدولة العباسية في عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م^(١).

ثانياً: في جنوب العراق:

(١) أريدو: تقع «أريدو» (أبو شहरين الحالية) في أقصى جنوب السهل
الميزوبوتامي، وعلى مسافة ٢٥ كيلاً جنوب غرب مدينة أور، وعلى مسافة ٢٤٠
كيلاً شمال الخليج العربي، وطبقاً للتقاليد السومرية، فإن أريدو إنما هي أول المدن
الخمس قبل الطوفان، وأول مقر للملكية، كما أن هناك من يرجع أنها كانت
ميناء على إحدى البحيرات الواسعة، وكان لها اتصال بالخليج العربي عن طريق
عدد من البحيرات، ومن ثم فقد احترق أهلها الصيد، وقدموه كقربان للمعبود،
كما أن كثيراً من مساكنها إنما كانت أكواخاً من بوم، كما كان بعضها من
آجر، وأما المباني الدينية فكانت بقايا - كما في أول الطبقات - أربعة حيطان من
آجر، شيدت فوق كثيب من رمل، لعله أول تعبير عن المنصة المرتفعة التي يعلوها
المعبود (الزاقورة)، والتي سوف تصبح مظهر العبادة في العراق القديم منذ أيام العبيد
وما بعدها.

وأما فخارها فيتنمى إلى عصور أربع حضارات (أريدو - الحاج محمد -

(١) صالح أحمد العلي: العراق في التاريخ ص ٣٨٢، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ١٢ / ٣٨٠ -
٣٨٢ (القاهرة ١٩٦٤)، محمد يومي مهران: المرجع السابق، ص ٨٨، وكذا:

S. Lloyd and F. Safar, op. cit., P. 262 - 266 278 - 286.

المبيد - الوركاء)، وأن أشكاله السائدة إنما هي الأكواب والمسلطين، وأحياناً الأطباق الكبيرة، وقد تعددت ألوانها وزينت بتصميمات هندسية تكثر فيها الخطوط المستقيمة والمنحرفة والمثلثات والمقطع، بينما يندر وجود الأشكال الطبيعية الحبة^(١).

(٢) الوركاء: (أوروك)، وتقع في منطقة صحراوية شرقي الفرات، في منتصف المسافة بين بغداد والبصرة تقريباً، وعلى مقربة من المدينة العربية «السمارة» (٦٠ كيلاً) ومبعدة ١٢٨ كيلاً شمال غربي أور، واسمها في الأكادية «أوروك»، وفي التوراة التي نسبت بناءها إلى «نمرود» دعيت «أرك»، وقد نسبت إليها حضارة انتشرت في عدة مواقع أثرية في جنوب العراق مثل أريدو ولجش وتل العقير (٨٠ كيلاً جنوبي بغداد، كما انتشرت في مراحلها المبكرة في شمال العراق في ثبة جاورا، وفينوى، وتل جرای رش بمنطقة منجار، وهي على أية حال، الحضارة التالية لحضارة المبيد في العراق القديم، وتعتبر ملحمة جلجاميش الوركاء الموطن الأصلي لجلجاميش، وهو أحد ملوك أسرة الوركاء الأولى.

هذا ويعدّ الفخار أهم إنتاج الوركاء المبكر، وهو من أنواع مختلفة شكلاً ولوناً، كما تميزت هذه المرحلة المبكرة بإنتاج عدد أوفر من الأدوات النحاسية في جنوب العراق، على أن القسم الشمالي من حضارة الوركاء إنما قد تفوق بدرجة كبيرة في إنتاج المصنوعات المعدنية التي لم تقتصر على النحاس، وإنما تضمنت أيضاً الذهب والأحجار الكريمة وشبه الكريمة وغيرها، والتي استخدمت في أدوات الزينة، كما يرجع إلى تلك المرحلة أقدم ما عثر عليه من طبقات طينية لأختام الطبع في الجنوب، وإن لم تعبر عن أي مدلول كتابي.

وفي المرحلة الثانية من حضارة الوركاء بدأ التوصل إلى بداية التعبير الكتابي،

(١) محمد يرمي مهراڤ: المرجع السابق، ص ٢٨ - ٢٩، وكذا:

S. N. Kramer, The Delyge, in ANET, 1966, p. 43.

وكذا: M. Mallowan, CAH, I, Part, I, Cambridge, 1971, P. 331 - 341.

A. Jowad, in Sumer, 30, 1974, p. وكذا: A. Parrot, op. cit., p. 52.

31 - 33.

الذى انفرد بتقديمه جنوب العراق، مما أدى بالتالى إلى بداية العصر التاريخى، كما شهدت هذه المرحلة تطورات هامة فى مجال العمارة الدينية، التى تميزت بالمعابد الضخمة، التى أقيمت فوق مساطب صناعية من عدة طبقات هى أصل «الزقورات».

هذا وقد بدأ المجتمع الزراعى منذ أواخر عصر الوركاء (أو منذ بواكير العصر الكشاني الجديد) يصيغ بصيغة مدنية، فنشأت البلدان أو المدن الصغيرة، التى تطورت عن القرى الكبيرة، وامتازت عما يحيط بها من أراضين زراعية، وقرى هادئة، بالتوسع عمرانياً لتتسعاً نسبياً، وبأهمية معبدها، وقصور حكامها، وكفاية صناعها وفنانيها، وبالتوسع مجالات الإنتاج وفرص التشجيع فيها، وإن ظل ذلك كله فى حدود نسبية^(١).

(٣) جملة نصر: وتقع على مقربة من «كيش»، بين بابل وبغداد، حيث عثر على نماذج لحضارة جملة نصر فى الوركاء والعقير وتل أسمر وأور وشورباك وتل العبيد وتربلياس، وتتميز بتطور فن البناء والنحت والكتابة، فضلاً عن أن الشطر الثانى منها إنما هو أقرب إلى العصر التاريخى منه إلى عهد ما قبل الأسرات، كما أن العمارة الدينية إنما تتمثل فى «المعبد الأبيض» الذى أقيم للمعبود «آن» (أنو) إله السماء، فوق تل صناعى يرتفع نحو ١٢ متراً عن مستوى السهل الممتد حوله.

هذا ويتميز فخار جملة نصر بأنه مصنوع على عجلة الفخار، وهو جيد الإحراق والصفل، ومن أحجام مختلفة، كما قلم عصر جملة نصر كثيراً من نماذج النحت على الحجر، مثل «الإناء النذرى» و«صلاية الأسود»، وهى من حجر الجرانيت الأسود، كما تميزت حضارة جملة نصر بازدهاد مجالات الصلوات

(١) محمد يوسى مهران: المرجع السابق، ص ٣٨ - ٤٣، وكذا:

S. Lloyd, in Sumer, 4, 1948, P. 44 - 49.

وكذا:

A. M. Mallowan, وكذا: B. Abu - AL-Soof, in Sumer, 29, 1973.

op. cit., p. 355 - 361.

الخارجية، والتي امتدت حتى مصر وبلاد الهند، والتي بدأت مع مصر منذ عصر التأسيس وأثناءه، وقد أشار كثير من الباحثين إلى هذه الصلات، اعتماداً على مجموعة الأوراني الفخارية ذات الصنابير المائلة، وكذا ذات الأذان المثلثة في المستجدة والبدارى - بمحافضة أسيوط - هذا فضلاً عن الأختام الإسطوانية الأربعة التي عثر عليها في «جزرة» بمحافضة الجيزة، وفي نجع الدير بمحافضة سوهاج، والتي تنتمي إلى حضارة الوركاء وجمدة نصر في العراق القديم^(١).

(٤) ميباز: وهي أبوجبة الحالية، على مقربة من الفرات، وعلى مبعدة ٣٢ كيلاً جنوب غربى بغداد، وطبقاً للتقاليد السومرية، فإن «سيبار» كانت واحدة من المدن الخمس فيما قبل الطوفان، هذا وكانت «سيبار» في أكد، مع «الارسا» في سومر، المركزين الأساسيين لعبادة إله الشمس (وهو «أتر» في السومرية، وشمش في الأكديّة) وزوجه «ايا» منذ أقدم العصور، وهناك من يرجع - بسبب صورة إله الشمس التي تعلو المسلة التي نقش عليها شريعة حمورابى - أن هذه النسخة إنما هي نسخة مدينة سيبار (سبر)، وهو المكان المفضل عند حمورابى، والتي ربما كان يقيم بها^(٢).

(٥) الحاج محمد: وتقع على ضفاف الفرات، على مبعدة ١٨ كيلاً جنوب غرب الوركاء، وتتميز حضارة الحاج محمد بأدواتها الفخارية العميقة ذات الجوانب المقوسة، وقد زينت بخطوط مائلة ومتعرجة ومربعة وتمثل تطوراً لفخار حضارة أريدو، وقد لَوّن بنفس ألوانه، وإن تأثر بفخار حلف أكثر من فخار أريدو، كما يبدو واضحاً في أوانى «رأس العمياء»^(٣).

(١) محمد يومى مهران: المرجع السابق، ص ٤٣ - ٤٩، عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص

٣٧٩ - ٣٨٢، وكذا: H. Frankfort, in CAH, Part, 2, p. 81 - 88, 101.

وكذا: I. E. S. Edwards, CAH, I, Part, 2, p. 42 - 42. وكذا:

H. Kantor, in JNES, Xi, p. 239 F.

(٢) محمد يومى مهران: المرجع السابق، ص ١٠٠ - ١٠١، ٢٣٩، وكذا:

S. N. Kramer, The Sumerians, 1970, p. 328 - 331.

(3) M. Mallowan, op. cit., p. 341 - 342, 366 - 367.

(٦) العبيد: وتقع على مبعدة بضعة كيلو مترات إلى الغرب من الناصرة، ٦
كيلا من أور، وتتميز حضارة العبيد بانتشارها في جنوب العراق وشماله، وهي أول
حضارة تنتشر في الشمال والجنوب - رغم كونها جنوبية الأصل - وقد ظهر
إنتاجها في كثير من المجالات، مثل صناعة الأواني الفخارية الملونة والمزينة.
هذا وقد كشف في شمال الجزيرة شرق العربية عن أكثر من ثلاثين موقعاً
ينتمي إلى حضارة العبيد، مما جعل البعض يفترض وجود علاقة بين سكان شرق
شبه الجزيرة العربية وسكان جنوب العراق، وأن مجموعات بشرية قد هاجرت من
شرق بلاد العرب إلى السهل الفيضي القريب منهم، هذا إلى أن الفترة التي بدأت
تتكون فيها المدن في العراق، قد توافقت زمنياً مع اختفاء حضارة العبيد في
الجزيرة العربية، مما يحمل على الظن بأن هجرة كبيرة نزحت إلى العراق في نهاية
الآلف الرابعة قبل الميلاد، وهذا يتفق مع ما افترضه العلماء من أن تدفق السكان
على سهول العراق إنما كان حاسماً في قيام المراكز المدنية هناك^(١).

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٣٠ - ٣٨، وكذا:

A. H. Masry, Prehistory in Northeastern Arabia, Miami, 1974, p.

1 - 20.

وكذا: A. Parrot, op. cit., p. 54. وكذا: M. Mallowan, op. cit., p. 335 - 337, 352, 398.

الفصل الثانى

المدن والمراكز الأثرية منذ العصر السومرى وحتى قيام الدولة البابلية الأولى أولاً: العصر السومرى

تقديم :

لعل من الجدير بالإشارة إلى أن المدينة السومرية إنما كانت تتكون من مدينة (وهى «أور - Ur» فى السومرية، و«ألو - Alu» فى الأكديّة) ومجاورتها من الأرضين التى قام سكان المدينة بزراعتها، وأحياناً كانت حكومة المدينة تضم أكثر من مدينة، فضلاً عن عدد من القرى التى كانت تتبع المدينة الرئيسية، مثل حكومة مدينة لجش، التى كانت تضم أرض «جرسو» و«لجش» و«نيناء».

هذا وكانت المدينة السومرية تتكون من قسمين، الأول: وهو المدينة الخاصة التى أطلق عليها فى الأكديّة (لبى ألى Libli Ali) أو «قاهلتى ألى» (Qabalti) (Ali)، وهى مصطلحات تدل على القسم القديم للمدينة فحسب، وتمثل فى هذا الجزء الأقسام المسورة التى تحتوى على المعابد والقصر ومكاتب الموظفين وبيوت المواطنين، وأما القسم الثانى فهو «الضاحية» وتقرأ فى السومرية «أور - بار - را» (Ur - Bar - Ra) بمعنى «خارج المدينة» أى «الضاحية» التى تتجمع فيها البيوت والمزارع وحظائر الماشية.

هذا وتقع المدينة الرئيسية فى وسط حكومة المدينة، ويتوسطها معبد إله المدينة الرئيسى، والذى كان يمثل نواة الحياة السياسية والاجتماعية، كما كان صاحب الأرضين فى المدينة، ويجواره معابد المعبودات الأخرى، ذات الصلة بمعبود المدينة، وكانت لها أملاكها الخاصة، الأمر الذى يشير إلى أن معظم أراضي حكومات المدن إنما كانت فى مطلع العصر التاريخى ملكاً للإله، أسوة بما كان عليه الحال

في عصور ما قبل التاريخ، وخاصة في مرحلة ما قبليل الكتابة^(١)، وأما أهم مدن العصر السومري فهي:

(١) لجش: وهي العبة الحالية، على مبعده ٢٠ كيلا شمال شرق «تللو»، وقامت فيها أول أسرة حاكمة في الفترة (٢٥٢٠ - ٢٣٧١ ق.م)، ولم ترد هذه الأسرة في قائمة الملوك السومرية، غير أن الحفريات الحديثة قد كشفت عما خلفه ملوكها من تسجيلات كتابية عن تاريخها في عصر الأسرات السومرية المبكرة، هذا وقد بدأت «لجش» تاريخها مع فجر الحضارة السومرية، وظلت طوال تاريخها مدينة سومرية، حتى انتهت في فترة لا بعد كثيراً عن قيام الأسرة البابلية الأولى (حوالي عام ١٨٩٤ قبل الميلاد)، وقد ظلت منذ ذلك التاريخ مهجورة يخيم عليها النسيان، حتى شغلها «البارثيون» في القرن الثاني الميلادي.

وكان «أورنانشه» (Urnanshe) أول ملك ارتقى عرش لجش، وإن أشارت النقوش إلى إثنين سبقاه إلى العرش، غير أنهما لم يتجاوزا مرتبة الحكام المحليين، وعلى أية حال، فلقد كان «أكورجال» وولده «إينانوم» من أعظم ملوك لجش، بعد «أورنانشه».

وأما أسرة لجش الثانية (٢٢٣٠ - ٢١١٣ ق.م) فقد غاصرت أخريات أيام الجوتيين، وقد حقق حكامها الوطنيون كياناً مستقلاً لمدينتهم، غير أن استعمارهم لقب «إيشاج»، بدلاً من لقب «ملك»، مما يوحي بلون من ألوان التبعية، وبأن لجش لم تمارس استقلالاً فعلياً، حتى عهد «جوديا» - وربما مارست لونا من ألوان الإستقلال الذاتي النسبي، وعلى أية حال، فإن أسرة لجش الثانية هذه لم ترد في قائمة الملوك السومرية، أسوة بأسرة لجش الأولى، وإن كان «جوديا» - أشهر ملوكها - إنما نزين تماثيله بعض المتاحف العالمية، كالمتحف العراقي والمتحف

(١) محمد يومي مهران، المرجع السابق، ص ٩٤ - ١٠٣، وكذا:

H. Frankfort, *Before Philosophy*, 1954, p. 201 - 204.

T. Jacobson, JNES, II, 1943, p. 165 - 169, 172, Sumer. 25, وكذا:

1969, p. 104 - 106.

البريطاني ومتحف اللوفر، فضلاً عن إقامته لمعبد لجش الرئيسي، وتزويده
باحتياجاته^(١).

(٢) أورما: وهي «تل جرخة» الحالية، وتقع على مسبعة ٢٠ كيلا شمال
غرب لجش، وطبقاً للوحة العقبان، فلقد قام «ايانانوم» ملك لجش بحملة على
مدينة «أورما» على أيام ملكها «أوش»، فأوقع بها هزيمة منكرة، وذلك بسبب
الخلاف على الحدود بينهما، غير أن «أورما» في عهد ملكها «الوجال زاحيزي»،
نجحت في القيام بهجوم خاطف على لجش، فاضرمت النار فيها، ونهبت ثرواتها،
واستولت على معابدها وحطمت أبنامها، ثم سرعان ما أسس «الوجال زاحيزي»
دولة كبيرة، وإن كان عمرها قصيراً، لم يتجاوز ربع القرن، طبقاً لقائمة الملوك
السومرية، وإن كان هناك من جعلها ٢٩ عاماً (٢٤٠٠ - ٢٣٧١ ق.م)، ومن
جعلها ٢٤ عاماً (٢٣٤٠ - ٢٣١٦ ق.م)، وأياً كان الصحيح من هذه الأرقام،
فإن «الوجال زاحيزي» قد نقل عاصمته من «أورما» إلى «الوركاء» واعتبر نفسه
ملكاً على سومر (الوجال كالاما)^(٢).

(٣) نيبور: تقع نيبور - وهي نقر الحالية - على مسبعة ١٦٠ كيلا جنوبي
بغداد، وفي منتصف المسافة تقريباً بين «كيش» و «شورباك»، وتعتبر نيبور من أهم
المراكز الثقافية السومرية في العراق القديم، ورغم أنها لم تكن أبداً مقراً لأية سلطة
سياسية، فقد كانت أكبر مدينة مقدسة عند القوم، وربما أكبر مركز ديني في بابل،
كما أن إنليل، معبود المدينة إنما كان رئيس مجمع الآلهة البابلي، هنا وقد أمدتنا
الحفريات التي أجراها عدد من المعاهد الأمريكية منذ عام ١٨٨٩م، بالآف

(١) محمد يوسفي مهران: المرجع السابق، ص ١٠٣ - ١٠٦، ١٦٣ - ١٦٧، وكذا:

J. Bottero, The, C. J. Gadd, CAH, I, Part, 2, p. 457 - 460 وكذا:

S. N. Kramer, op. cit., P. 303 - Near East, 1967, p. 120 - 124 وكذا:

Roux. Ancient Iraq, (Penguin Books), 1980, p. 125 وكذا 310

(٢) محمد يوسفي مهران: المرجع السابق، ص ١٠٦ - ١٠٨، ١١٢ - ١١٤، وكذا:

S. N. Kramer, op. cit., p. 310 وكذا: G. Roux, op. cit., p. 137 - 139

- 313, 323 - 324

اللوحات المكتوبة والجذاذات التي صُنفت في الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد، والتي تدل بوضوح على مدى انتشار الثقافة السومرية، كما تغطي مراحل تاريخ المدينة حتى العصر الفرتي .

هذا وقد كشفت حفريات جامعة بنسلفانيا الأمريكية في نيبور عن واحدة أخرى من روابيات قصة الطوفان دونت على كسرة من الفخار غير المحترق، ذهب «هيلبرخت» أنها لم تدون إلا بعد عام ٢١٠٠ قبل الميلاد^(١).

(٤) كيش: وتمثلها الآن مجموعة من التلال، على مبعدة ١٦ كيلا شرقي بابل، وعلى مقربة من «أكده» عاصمة سرجون الأول، وأشهرها تل الأحجير، وتل أنجارها، وتقدم لنا «كيش» صورة عن التنظيم السياسي المبكر لحكومة المدينة السومرية، والذي يشهد مرحلة هامة في تاريخ الفكر الإنساني، فهو يشهد بتواجد «التفكير الديمقراطي» في بداية العصر التاريخي، وانتخاب الحاكم الذي يرأس حكومة المدينة، بناء على قرارات الجمعية العمومية، والتي كانت تضم جميع الرجال الأحرار في المدينة، وربما اشترك النساء فيها أيضاً، وكان من حقها إصدار القرارات الهامة - خاصة قرارات الحرب - وأن تمنح السلطة العليا في البلاد (الملكية) لواحد من أعضائها.

هذا وتشير قصة الصراع بين لجش وأوما، على أيام أسرة لجش الأولى (٢٥٢٠ - ٢٢٧١ ق م) على موارد المياه ومنطقة الحدود، على أن «كيش» إنما

(١) ليو أوتنهيم: بلاد ما بين النهرين ص ٥٠٠ - ٥٠١، محمد يومي مهران، المرجع السابق، ص ٥٩، ٨٠، وكذا: T. Jacobsen, AS, II, p. 58 - 59، وكذا:

A. Poebel, in PBS, V, 1914

S. N. Kramer, The Deluge, ANET, 1966, p. وكذا: KFTS, p. 277، وكذا: 42 - 44

وكذا:

J. P. Peters, Nippur, in Excavations on the Euphrates, 2 Vols, 1897.

كانت تمارس سلطانا واضحا على «سومر» في عهد مليكها «مليم» الذي دانت له لجش وغيرها من المدن في جنوب العراق^(١).

ثانياً: في العهد الأكدي

(٢٣٧٠ - ٢٢٣٠ ق.م.)

(١) أكد: هي المدينة التي أسسها «سرجون الأكدي» (٢٣٧٠ - ٢٣١٥ ق.م.) لتكون عاصمة لدولته، وإن لم ينتقل إليها، إلا بعد أن فرض نفوذه على البلاد، في أعقاب انتصاره على «لوجال زاخيزي» ملك الوركاء (على مبعده ٦٠ كيلا من مدينة السماوة، ١٢٨ كيلا شمال غربي مدينة أور)، ثم القضاء على مقاومة المدن السومرية المناوئة.

وكانت تسمى في الأكديّة «أكده» أو «أكادو» (Akkadu)، وفي السومرية «أجاده» أو «أجادة» (Agade)، وهو الاسم القديم للمدينة، وقد جاء اسم «أكده» في سفر التكوين (١٠ / ١٠). وتقع «أكده» على مقربة من «كيش» في جنوب العراق، في مكان غير محدد بعينه على وجه اليقين حتى الآن، وإن رأى «أندرية بارو» أنها ربما كانت قرية «الدير»، وتقع على مقربة من ناحية اليوسفية، وعلى مبعده ١٨ كيلا غربي بغداد، فيما يرى آخرون، وقد ظلت «أكده» عاصمة للدولة التي عرفت باسم (الدولة الأكديّة ٢٣٧٠ - ٢٢٣٠ ق.م.) حتى قضى عليها الجونيون، ثم حكموا البلاد في أعقابها.

هذا وتعرف منطقة (Mat Akkadi)، والممتدة حول مدينة «أكده» باسم عاصمتها، ومنطقة أكد هي الجزء الشمالي من أرض بابل، وسومر هي الجزء الجنوبي، وفي العصر الكلداني (العصر البابلي الأخير) أطلق اسم «أكده» على بلاد أكد وسومر معاً.

(١) محمد يرمي مهران: المرجع السابق، ص ٩٧ - ٩٩، ١٠٥، وكلا: Jacobsen, JNES,

C. J. Gadd, op. cit., p. 118, II, 1943, p. 165 - 166, 172

وكلا: T. Jacobsen, Sumer, 25, 1969, p. 103 - 104.

وعلى أية حال، فإن تجمع العناصر السامية إنما كان في جنوب العراق، وذلك لمجاورة هذه المنطقة لمنطقة الفرات الأوسط التي وفدت إليها الهجرات السامية منذ مطلع الألف الثانية قبل الميلاد، ومن ثم فقد أطلق على هذه المنطقة - ونعزم بابل وكيش وأكد - «أرض أكد»، بينما أطلق على القسم الجنوبي - ويمتد من نيبور شمالاً، وحتى أريدو جنوباً - «أرض سومر».

واللغة الأكديّة لإسم جاج أطلقه البابليون على لفهم البابليّة، وعلى لغة إخوانهم الآشوريين كذلك، كما أن العلماء المحدثين إنما يطلقون إسم «اللغة الأكديّة» على اللهجات البابليّة والآشوريّة المختلفة، فإذا أرادوا التمييز قالوا: البابليّة القديمة والآشوريّة الوسطى، واللغة الأكديّة القديمة هي لغة دولة أكد الأولى (٢٣٧٠ - ٢٢٣٠ ق.م) خاصة (١).

ثالثاً: في عهد أسرة أور الثالثة

(٢١١٣ - ٢٠٠٦ ق.م)

(١) أور: كشف عنها «تايلور» (J. E. Taylor) - الفصل البريطاني في البصرة - عام ١٨٥٤م، والذي كان يعمل لحساب المتحف البريطاني في لندن، وذلك في مكان «تل المقير» - وتقع على مبعدة ١٩٠ كيلاً إلى الشمال من مدينة «البصرة» الحالية، ١٦- كيلاً شرقي نهر الفرات حالياً في منتصف المسافة تقريباً بين بغداد والخليج العربي، وتدل الحفريات على أن «أور» إنما كانت في بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، مدينة عظيمة يسكنها كثير من الأغنياء الذين ابتنوا لأنفسهم منازل من الآجر المحروق.

هذا وقد أوضحت الحفائر البريطانية أيضاً في «أور» فيما بين عام ١٩٢٢،

(١) محمد هادي مهرا: تاريخ العراق القديم، ص ٨٧، ٩٢١، ١٢٤، سبتينو موسكالي: الحضارات السامية القديمة، ص ٢٥١، فاضل عبد الواحد: السومريون والأكديون، ص ٧٤، وكذا:

E. Weidner, in AFO, 16, 1952, P. 1 - 24.

S. N. Kramer, in ANET, 1969, p. 43.

وكذا:

والظفر: أُنْدَرِه بارو: المرجع السابق، ص ٣٣١.

١٩٣٤م، فضلاً عن الوثائق السومارية التي اكتشفت في مواقع أخرى، على أن أور، إنما كانت تعيش في أوفر درجات الرخاء في الفترة ٢٠٠٦ - ١٩٥٠ ق.م)، عندما دمرها الميلايون.

وهناك ما يشير إلى أن «أور - نامو»، مؤسس أسرة أور الثالثة (٢١١٣ - ٢٠٠٦ ق.م) إنما كان شديد الاهتمام بمصمته «أور» ذات الهيئة البيضاوية، فأعيد تصوير هذه المدينة التي كانت تطل على الفرات بميناء ذي أرصفة واسعة، وقد حماها الماء من ثلاث جهات، وبلغت مساحتها نيفاً ونصف ميل طولاً، وربع ميل عرضاً، والتي امتدت حولها ضواحيها، وشغلت معها مساحة قدرها نحو أربعة أميال طولاً، وميل ونصف الميل عرضاً، وقد أطل سور المدينة من داخله على مساحة متسعة (مساحتها ٤٠٠ X ٢٠٠ ياردة) قامت فيها معابد الآلهة الكبرى «نانا» (ننار) وزوجه «نينجال» وحاشيتهما، هذا ونظراً لأهمية سور المدينة فقد سمي «أور - نامو» العام الذي أقام فيه السور باسم «العام الذي بنى فيه سور أور». هذا وقد أهتم بأور الملك «شولجي» (٢٠٩٥ - ٢٠٤٨ ق.م) وقد وصفها بأنها «المدينة التي على شاطئ البحر»، ويمثل «إيسى - سين» (٢٠٢٩ - ٢٠٠٦ ق.م) آخر الأسرات السومرية في التاريخ، وإن ظلت «أور» محتفظة بأهميتها إلى القرن السابع قبل الميلاد، ولكن تراكم الرمل في مصب الفرات قضى نهائياً على المدينة، وإن ظلت مسكونة حتى العصر الفارسي.

هذا وكانت «أور» مركز عبادة إله القمر «سين» وزوجة «نينجال» (ننجل) وولدهما «نسكو»، وزوجة «سدرننا»، ثم انتقلت عبادة هذا المعبودات إلى «حران» - وتقع على نهر بلخ، على مبعده ٩٦ كيلاً من اتصاله بالفرات، وإلى الغرب من تل حلفا - ثم انتشرت عبادة إله القمر من أور إلى كل أرجاء بابل، ومن حران إلى سورية وفينيقيا.

بقيت الإشارة إلى أي مدينة «أور» التي ذكرت التوراة أن إبراهيم عليه السلام

قد قدم منها، هناك من يرى أن «أور» هذه ليست في بابل، ولا تقع على الخليج العربي، وإنما هي من إقليم العراق الأعلى في منطقة الجزيرة بين دجلة والفرات (١).

رابعاً: إيسين ولارسا

(١) إيسين: وتعد كبرى عواصم الأموريين، وهي الآن «إيشان بحريات»، جنوب عفك الحالية، على مبعدة ٣٠ كيلاً جنوب «نيبور» (نفر)، وقد اصطنع ملوك أسرة إيسين (٢٠١٧ - ١٧٩٤ ق.م) لقب «ملوك سومر وأكد»، كما اصطنعوا الصفات الإلهية، وقاموا بأعمال عمرانية في أنحاء البلاد، كما رموا كثيراً مما خرب على أثر سقوط أسرة أور الثالثة في عام ٢٠٠٦ ق.م، هذا فضلاً عن تأثيرهم كثيراً بالثقافة السومرية - رغم أنهم من أصل أموري سامي - ومن ثم فقد استخدموا اللغة السومرية في تدوين مكاتباتهم الرسمية، وعلى أية حال، فلقد حكم في هذه الأسرة ١٥ ملكاً، كان أولهم «إيشي أرا» (٢٠١٧ - ١٩٨٥ ق.م)، وآخرهم «دمق إيليشو» (١٨١٦ - ١٧٩٤ ق.م)، وإن كان من أشهرهم «لبت عشتار» (١٩٣٤ - ١٩٢٤ ق.م) صاحب التشريعات المشهورة، وترجع إلى عام (١٩٢٤ ق.م)، ولم يبق منها سوى ٣٨ مادة، باللغة السومرية، حفظت لنا في

(١) محمد يموي مهران: إسرائيل ١ / ٦١ - ٧٢، تاريخ العراق القديم، ص ١٦٩ - ١٩٠، موسكاتي: المرجع السابق، ص ٢٥٥، تكوين ١١ / ٢٨، ٣١، ٧ / ١٥، وكذا:

W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 42 - 44.

W. F. Albright, The Biblical Period, from Abraham to Ezra, 1963, p. 4.

E. Dhorme, Langues ecrites semitiques, Paris, 1930, p. 54 - 60, 83 - 86.

وكذا:

L. Woolley, Excavations at un, 1963, p. 11 F, ur of the chaldees, 1929.

J. Finegan, Light from the Ancient Past, I, 1969, p. 70 - 74. وكذا:

سبعة ألواح، عشر على ستة منها في نيبور، ومحفوطة الآن بمتحف الجامعة في لندن، والمساهمة في متحف اللوفر، ومصدرها غير معروف^(١).

(٢) لارسا: وهي تل منكرا الحالية، على مبعده ٣٠ كيلا شمال غرب الناصرية، ٤٨ كيلا شمال شرق الديوانية، وقد قامت فيها أسرة لارسا (٢٠٢٥ - ١٧٦٣ ق.م)، حكم فيها ١٤ ملكاً، كان أولهم «نابلانوم» (٢٠٢٥ - ٢٠٠٥ ق.م)، وآخرهم «ريم سن» (١٨٢٢ - ١٧٦٣ ق.م)، الذي قضى عليه «حمورابي» ملك بابل في عام ١٧٦٣ ق.م، وبذا انتهت أسرة لارسا إلى الأبد^(٢).

خامساً: مملكة أشنونا

(١) أشنونا: ومكانها الآن «تل أسمر» الحالية، وتقع بين نهر دجلة وجبال زاغروس، وعلى مبعده ١٦ كيلا شرق نهر ديبالي، وتقع أراضيها الآن ضمن محافظتي بغداد وديالى، وقد كان يتبع مملكة أشنونا هذه عدة مدن، يمثلها الآن: تل حرمل وخفاجي وتل الصنباغي وشجالي، وكان تل حرمل - ويقع على مبعده ٩ كيلا شرقي بغداد - يمثل ضاحية من ضواحي أشنونا تسمى «شادوبم»، ومركزاً إدارياً للمملكة أشنونا بعد استقلالهما في أخريات أسرة أور الثالثة، وقد عثر فيها على مجموعة من الألواح تتضمن نصوصاً تمثل نواحي المعرفة، فضلاً عن قانون لا تعرف مشرعه، ونسبه «طه باقر» و«جوتزة» إلى ملك دعواه «هلالاما»، ثم عدل الأخير عن رأيه هذا، واكتفى بنسبة التشريع إلى مدينة أشنونا، بقيت منه ٦١ مادة، عالجت أهم جوانب الحياة في عصرها.

(١) محمد يوسى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٩٣ - ٢٠٢، وكذا:

S. N. Kramer, ANET, 1966, p. 159 - 161

وكذا: G. Raux, op. cit., p. 171-174 وCAH, I, Part, 2, 1971, p. 1000

(٢) محمد يوسى مهران: المرجع السابق، ص ٢٠٢ - ٢٠٤، ن. هيلابورت: بلاد ما بين النهرين ص

٤٢ - ٤٤، عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٤٥٤، وكذا:

C. J. Gadd, op. cit., p. 636 - 637

هذا وقد كان لأشوتونا - حتى سقوطها في أيدي حمورابي البابلي عام ١٧٦١ ق م - دور كبير في عصرها، ربما بسبب تراثها الذي كان نتيجة امتلاكها لأرضين خصبة، تغذيها شبكة من القنوات وفروع الأنهار، فضلاً عن موقعها الجغرافي المتوسط، الأمر الذي كان له كبير الأثر في تجارتها^(١).

(١) محمد يونس مهران: المرجع السابق، ص ٢٠٥ - ٢١٠، وضاح جواد الهاشمي، حضارة العراق / ٢
٧٥ - ٧٦، وكذا:

Taha Baqir, Tell - Harmal, Sumer, II, 1946, p. 23 - 30, IV, 1948, p. 137 - 138, 153 - 173.

وكذا،

A. Gaetze, in ANET, 1966, p. 161 - 163, Sumer, 4, 1948, p. 63 - 102.

G. Roux, op. cit., p. 173 - 175، وكذا،

وكذا،

A. Pohl, Orientalia, 8, 1949, p. 124 - 128

الفصل الثالث

المدن والمراكز الأثرية منذ قيام الدولة البابلية وحتى قيام الدولة الآشورية

(١) بابل: كبرى عواصم العراق القديم

بابل: مدينة قديمة تقع على نهر الفرات، على بعد ٩٠ كيلا جنوبى بغداد، ويقع على أطلالها حاليا: تل بابل والقصر وعمران بن على والمركس، فضلا عن عدة قرى أخرى مثل: عنابة وكويش وجمجمة واندسار، هذا ورغم أن التنقيبات فى بابل لم تتقدم بسبب ارتفاع مستوى المياه الجوفية إلى أكثر من طبقة العصر البابلى القديم، غير أنه يجوز أن تفترض أن المدينة كانت قبل وصول الأموريين - أو الساميين الغربيين - إليها، مجرد بلدة عادية، عرفها السومريون باسم «كدنجيرا»، فأحالتها الأموريون إلى حاضرة كبيرة، وأحسنوا استغلال موقعها التجارى والزراعى فى أضيق منطقة خصبة، يتقارب فيها نهرا دجلة والفرات.

ثم أطلق الأموريون عليها إسم «بابل»، وهو أسم ليس هناك مايمكن تأكيده عن معناه، وإن كان الشائع هو ترجمته بمعنى «باب إله» أى «باب الإله»، ويذهب أصحاب هذه الترجمة إلى أنها قرية مما تدل عليه التسمية السومرية «كدنجيرا» التى أستمريت تستخدم إلى جانبها، مع مترادفات أخرى مستحدثة^(١).

وأما معنى إسم بابل فى التوراة، فيقدمه لنا سفر التكوين فى قصة - أوقل أسطورة طريفة - تقولك إن الله - تعالى عن ذلك علوا كبيرا - قد رأى سلالة الناجين من الطوفان ينون برجا بنية الوصول إليه - سبحانه وتعالى - فى علياء سمائه، وكانوا يحسبون السماء أشبه بلوح زجاجى، يعلو على الأرض بضع مئات من الأمتار، فخشى شرمهم، واحتاط لنفسه، فهبط الأرض، وبابل ألتتهم، ففترقا

(١) محمد يوسى مهران: بلاد الشام من ٦٦ - ٧٦، عبد العزيز صالح، المرجع السابق ص ٤٥٨،

قاموس الكتاب المقدس ١٥٢/١.

وكذا - M.F.Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 115 - 118.

شذر مذر، ومن ثم فقد كفروا عن بينان المدينة، لذلك دعى أسمها «بابل» لأن الرب هناك بلبل ألسنتهم، ومن هناك بددهم الرب على وجه الأرض كلها^(١).

وعلى أية حال، فإن «برج بابل» هذا، ربما كان هو «زاقورة بابل»، وقد شاهده الكتاب الأغارقة، بعد أن خرب، وطبقاً لرواية «هيرودوت» (٤٨٤ - ٤٣٠ ق.م) فقد كان يتكون من ثماني طبقات^(٢) يمكن الوصول إليها عن طريق درج خارجي، وبذهب «ديودور الصقلي» (٨٠ - ٣٠ ق.م) و«سترابو» (٦٣ - ٢١ ق.م) إلى أن برج بابل إنما كان على شكل هرم مربع القاعدة، وهو على أية حال، إنما يشكل جزءاً من معبد «مردوك» - معبود بابل - ويدعى في النصوص المسمارية «إي - تمين - إن - كي» (E-Temen-an-ti) بمعنى «البيت الذي أسسه السماء والأرض»، ويتكون من صحن كبير في داخله، وعلى مقربة من النهر «زاقورة» (Ziqquratu) (برج) بابل، والتي يبلغ ارتفاعها ٩٠ متراً ومساحة قاعدتها (٩١×٩١ متراً مربعاً)، وقد هدم برج بابل في عام ٤٧٩ ق.م، على يد الملك الفارسي «أكزركسيس الأول» (٤٨٤ - ٤٦٥ ق.م)^(٣).

هذا ورغم أن هناك من يرجح أن بابل قد أنشأها الأكديون، غير أن ذلك أمراً لم يثبت بعد، وعلى أية حال، فلقد ذكرت منذ العصر الأكدي، غير أن دورها السياسي لم يبرز إلا في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد، بعد أن اختارها الأموريون الساميون عاصمة لهم (أسرة بابل الأولى)، وإن كتاب العهد القديم (التوراة) والمؤرخون الإغريق لم يتطرقوا إلى ذكرها، إلا منذ عهد «نيبوخذ نصر الثاني»

(١) محمد. بيومي مهران: إسرائيل ٢٩٠/٣، تكوين ١١/٩-١٠.

وكذا: M.Gray, Near Eastern Mythology, London, 1969, p. 104 - 105.

(٢) يفترض أن الزاقورة من سبع طبقات، وليس لمان، تعلوها غرفة الإله، وكان يتم ارتقاء الزاقورة عن طريق ثلاثة سلالم متعامدة، فثنان منها تلاصق الضلع الجنوبي للزاقورة، والثالث عمودي عليها (مؤيد سعيد: حضارة العراق ١٨٠/٣، موسكو: المرجع السابق: ص ٢٦٠ - ٢٦١).

(٣) هنري صودي: معجم الحضارات السامية - بيروت ١٩٨٨ ص ١٩٢ - ١٩٣، مؤيد سعيد: المرجع السابق ص ١٧٩، محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم ص ٢١٦.

(٦٠٥-٥٦٢ ق.م)، وكانت وقت ذلك في أوج عظمتها، وإلى هذا الملك الكلداني تنسب «حدائق بابل المعلقة» لزوجه المبدية «إمبثيس» - والتي دعتها المصادر الكلاسيكية «أموهين» - في الزاوية الشمالية الشرقية من القلعة الجنوبية - فيما يرى العلماء الألمان - فضلاً عن قصره الكبير، والمكون من ١٧٢ غرفة وزاقورة من اللبن - كما سنشير فيما بعد -.

وتشير النصوص القديمة إلى أنه كان في بابل ٥٣ معبداً رئيسياً، ٣٦٠ محراباً ثانوياً، أشهرها دونما أي ريب، إنما كان «معبد مردوك»، كما كان للمدينة ثمانية أبواب رئيسية، أحدها باب «عشتار» إلهة الخصب، ويقع في الجهة الشمالية، يليه رواق طوله ٣٠ متراً، يفضى إلى صالة الاحتفالات ومعبد مردوك. (مردوخ)^(١).

وليس هناك من ريب في أن اختيار الآموريين مدينة «بابل» عاصمة لدولتهم، إنما كان اختياراً موفقاً، لأسباب كثيرة، منها أنها تقع وسط العراق بصفة عامة، فضلاً عن وقوعها وسط المناطق التي يتركز فيها العمران والسكان، هذا إلى جانب منعنتها الطبيعية، ومنها طريقة الري الفعالة للأرضين الصالحة للزراعة في بابل ومجاورتها، ومنها أنها تقع على الفرات، وهو نهر صالح للملاحة، الأمر الذي عاد بفائدة كبيرة على التجارة والملاحة في آن واحد.

وقد أدى ذلك كله إلى ازدهار المدينة في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، خاصة على أيام أسرة بابل الأولى (١٨٩٤ - ١٥٩٥ ق.م) التي شهدت فيها البلاد نهضة تاريخية شاملة، سبب توحيد البلاد، ومركزية الحكومة، وعنايتها بنشر الأمن والعدل.

وقد أثبتت الحفريات أنه كانت توجد منذ ذلك العهد قواعد لتخطيط مدينة

(١) أندريه بارود: المرجع السابق ص ٢٣٤، مؤيد سعيد: المرجع السابق ص ١٧٦ - ١٧٩، محمد يوسى مهران: تاريخ العراق القديم ص ٢١٥ - ٢١٦.
ركننا M.F.Unger, op.cit, p. 115 - 116.

بابل، وقد اتبعت هذه القواعد حتى نهاية عصر الإمبراطورية البابلية الحديثة، ولعل أهم ما يميز هذا التخطيط أن الطرق الكبيرة كانت موازية جميعها للطريق المقدس، وتتقاطع متعامدة مع الطرق الأخرى، في حين أن بيوت المدن السومرية القديمة إنما كانت مجمعة دونما أى نظام، كما لم يكن للطرق إتجاه ثابت^(١).

وكان معبد «مردوك» (Marduk) في بابل - ويدعى «إسجتل» (E.Sag-il) بجميع البيت العالى الرأسى - مركزاً نشب منه علوم الدين والسحر، وفي الواقع قلقد ارتبط «مردوك» ببابل، حتى أن النبى العبرانى «إرميا» (٦٢٦ - ٥٨٠ ق.م) إنما يقول عند سقوط بابل في أيدي الفرس في عام ٥٣٩ ق.م، «قولوا: أخذت بابل، خزى بابل (لقب مردوك بمعنى السيد أو البعل)، إنسحق مردوخ، مما يشير إلى أن مردوك إنما قد شارك بابل مصيرها التمس.

وتصف لنا مقدمة قانون حمورابى كيف أصبح مردوك صاحب المكانة العليا في امبراطورية بيل، وذلك حين قرر «أنو» و«إنليل» السيادة لمردوك على الناس، ثم جعلاً لمدينة بابل السيادة فى العالم، وأقاماً لمردوك فيها ملكاً دائماً، له أسس راسخة رسوخ السماء والأرض، وقد أسبغا عليه من الصفات ما جعل الآلهة الأخرى، مجرد جوائب من شخصه، فمثلاً أصبح «نرجل» هو مردوك إله الحرب، و«إنليل» هو مردوك إله السيادة والفصل فى الأمور، و«نبو» هو مردوك إله الحظ، و«سين» هو مردوك منير الليل، و«شمش» هو مردوك إله الليل، و«أد» هو مردوك إله المطر، وهكذا - كما تركزت فى عشتار الإلهات جميعاً - استوعب مردوك فى ذاته الآلهة جميعاً.

وأما زوجة مردوك فهى «زريانتيم» أو «سربانتيم» (Sarpanitum) بمعنى «الفضية»، أو «اللامعة كالفضة»، فقد ارتبطت مكانتها أيضاً بمدينة بابل، كما ظلاً

(١) محمد عبد القادر: الساميون فى العصور القديمة من ٩٦ - ١٠٧، بيروت: سعيد، العراق فى التاريخ من ١٠٩ - ١٠٢، محمد يوسى مهران: المرحع السابق من ٢١٧ - ٢١٨.

مبجلين على أيام الآشوريين والكلدانيين والفرس والسلوقيين^(١).

هذا وقد اهتم «حمورابي» (١٧٢٨ - ١٦٨٦ ق.م) بإعادة تخطيط عاصمته بابل، على نحو لم يسبق له مثيل، حتى أنشأت أمام بهائها وفخامتها كل العواصم الأخرى في غربى آسيا، وأصبحت في كل منطقة الشرق الأدنى القديم حديث الأم والشعوب، وموضع إعجابهم، بل تسربت عظمتها إلى الأساطير.

وظلت بابل العاصمة - بعد الأسرة البابلية الأولى (١٨٩٤ - ١٥٩٥ ق.م) - على أيام الكاشيين (أسرة بابل الثالثة ١٥٩٥ - ١١٥٧ ق.م)، وعلى أيام أسرة بابل الرابعة (أسرة يمين الثانية ١١٥٦ - ١٠٢٥ ق.م).

وقد وقعت بابل في أيدي الحيثيين على أيام ملكهم «مورسيليس الأول» (١٦٢٠ - ١٥٩٠ ق.م)، ثم حاولوا التوسع جنوباً، ولكن وقفت في سبيل ذلك دولة البحر الناشئة وكسرت شوكتهم، ثم سرعان ما عاد «مورسيليس» إلى عاصمته «بوغازكوى»، وقد حمل معه تمثالى الإله مردوك وزوجته اللذين تركهما عند مدينة «عانة» على الفرات، وترك بابل فريسة سهلة للكاشيين الذين سرعان ما احتلوا في عام ١٥٩٥ ق.م.

وفى عام ١١٦٠ قبل الميلاد، إحتل العيلاميون - بقيادة ملكهم شترك نخنته - بابل ولمدة سنوات، ثم طردهم زعيم وطنى من مدينة إيسين، يدعى «مردوك كابت - أهيشو» (١١٥٦ - ١١٣٨ ق.م) وحكم لمدة ثلاث سنوات (١١٥٩ - ١١٥٧ ق.م)، ثم جاءت بعد ذلك عدة أسر بابلية (١٠٢٤ - ٥٣٩ ق.م) لاشك

(١) محمد يوسى مهران: المرجع السابق ص ٢٣٥ - ٢٣٨، موسكاتى: المرجع السابق، ص ٢٦٠-٢٦٣ لهما ١/٥٠ - ٤٦.

وكذا S.Lloyd, *Foundation in The Dust*, (Penguin Books, 1955, p. 214 - 215)

وكذا A.Heidel, *The Balylonian Genesis*, Chicago, 1915, p. 60.

وكذا E.Dhorme, *op.cit.*, p. 139 - 156, 168 - 170.

في أن أشهرها الأسرة الكلدانية (٦٢٦ - ٥٣٩ ق.م) (١).

وفي عهد أشهر ملوك الأسرة الكلدانية «نبوخذ نصر الثاني» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) نشطت حركة العمران في بابل، كما لم تنشط من قبل، وبلغ محيط عمراتها ١٨ كيلا، وروى المؤرخون الأغارقة أن أسوارها كانت دائرية، وقد أحاطت بها أربعة خطوط دفاعية ضخمة.

ولعل من أهم مباني «نبوخذ نصر» في بابل قصره الجنوبي (قلعة نبوخذ نصر)، وهو قصر كبير تكاد مساحته تبلغ ٥٢ ألف متر مربع، وقد توسط الجدار الشمالي للمدينة، وبنى داخل حصن كبير، على عادة القصور الملكية هناك، ومدخله من الشرق من الساحة الكبيرة المكشوفة، الواقعة بين القصر وشارع المركب، وفي القصر أكثر من ١٧٢ غرفة، فضلا عن عدة بيوت سكنية للحاشية وخدم القصر، ويطل جناح الملكة غربا على نهر الفرات، ويعزله عن النهر بناء كبير، يبلغ طوله حوالي ٢٥٠ م وسماك جداره ٢٥ مترا، وفي وسطه ساحة مستطيلة تحتوي على بقايا غرف كثيرة، ويعتقد - أنه إن كانت هناك حقا حدائق معلقة في بابل - فلا بد أن تكون في هذا البناء، مما يتيح إنشاء حديقة مدرجة على النهر.

وأما قصة حدائق بابل المعلقة هذه، فتذهب المصادر الكلاسيكية إلى أن الملك البابلي «نبوخذ نصر» الثاني (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) قد تزوج من ابنة الملك الميدي «كي أخسار» (كياكسارس) والتي دعوها «أمرمين» (أرميتان أو أميتان) ومن عجب أن يذهب المؤرخون اليونان والرومان إلى أن «نبوخذ نصر» قد شيد لزوجه

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٢٢١-٢٨٨-٢٨٩، ٣١٣-٣١٤، ليو أوننهايم: المرجع السابق ص ٤٤٨ - ٤٤٩.

وكذا O.R.Gurney, The Hittites, و G.Roux, op- cit, p. 225 - 226 وكذا 1969, p. 23 - 24.

وكذا J.J.Finterlstein, in RA, LXIII, 1969, p. ٦٤.

المدينة «الحدائق المعلقة في بابل» كى تذكرها بمشتها الجبلية بل إن أمر الحدائق المعلقة هذه إنما قد ذكرتها المراجع القديمة والحديثة، رغم عدم وجود أى دليل تأريخى عليها، حتى أن الآثاريين الألمان ظنوا فى بداية هذا القرن العشرين أنهم اكتشفوا تلك الحدائق، عند عثورهم على بشر عميقة فى منطقة من القصر الجنوبي غطيت بغرف ثلاثية، ظنوا أنها حوت جهازاً يسحب الماء إلى هذه الحدائق المعلقة، ثم أظهرت حفريات هيئة الآثار العراقية أن هذه المنطقة بالذات عبارة عن حجرات خزن تحت الأرض ذات عقائد قوية، هذا وقد روت المصادر الكلاسيكية أن الملك «نبوخذنصر» قد زود قصره ببرندات (بالكونات) زرع فيها شتى الأشجار التى جلبها من أقطار شتى، وربما كانت هذه «الثبالكونات» التى وضعت بها الأشجار هى التى أسماها الكتاب الكلاسيكون «الحدائق المعلقة» (١).

وأما ما كان الأمر، فلقد ظلت بابل مزدهرة على أيام الدولة الكلدانية، وإن تعرضت مكانتها السياسية لهزة عندما تركها «نبونيد» (٥٥٦-٥٣٩ ق.م) واتخذ من «نيماء»، ولدة عشر سنوات، عاصمة له، حتى غلت وكانت خليفة لبابل (٢).

غير أن الخطر الأكبر إنما تعرضت له بابل إنما كان عندما قاد «كبروش» ملك فارس (٥٥٨ - ٥٣٠ ق.م) معركة فى «أوبيس» على الدجلة، على مقربة من المدائن، وأحرق أهل «أكد» بالنار، وبهذه الطريقة الهمجية من العرب البغيض، أفقد «كبروش الثانى» خصومة شجاعتهم، وفى ١١ أكتوبر عام ٥٣٩ ق.م، نجح كبروش فى الاستيلاء على «سوبار»، وفى ١٢ أو ١٣ أكتوبر عام ٥٣٩ ق.م، دخل «جويرياس» بابل، ومعه قوات كبروش، دون معركة، وفى ٢٩

(١) محمد يوسى مهران: المرجع السابق ص ٤٣٨ - ٤٣٩، ٤٥٠ - ٤٥١، سعيد الأحمد - العراق فى التاريخ ص ١٦٥ - ١٦٩، مؤيد سعيد: حضارة العراق ١٧٨/٢، عبد العزيز صالح: المرجع السابق ص ٥٥٥ - ٥٥٦.

(2) G.Roux, op.cit, p. 35

وكذا C.J.Gadd, op.cit و A.Musil, Nothorn Nejd, N.Y, 1928, p. 225

وكذا R.P.Douglerty, Nobonidus and Belshazzar, New Haven, 1932, p. 106.

أكتوبر، بدأ الكتاب يورخون باسم العامل الفاسي «كمروش ملك العالم»، وفي نفس اليوم دخل بابل نفسها، وسرعان ما خضعت له بلاد النهرين، ثم اعترفت سورية وفلسطين بالفازي الجديد^(١).

١- كوث: وقد ذكرت في التوراة، حيث يروي سفر الملوك الثاني وعزرا، أن «سرجون الثاني» (٧٢٢٠ - ٧٠٥ ق.م) قد أتى يقوم من بابل وكوث وسفروايم، وتقع كوث: في مكان تل إبراهيم، على مبعدة ٢٤ كيلا شمال شرق بابل، وقد عثر على اسمها على أثر من عهد «نبوخذنصر» الثاني، كما أتى من مدرسة الملك «أشوربانيبال» (٦٦٨ - ٦٢٧ ق.م) على ألواح كتب بها تاريخ الخليقة حسب التقاليد البابلية كما ذكرت أيضا مع بابل وبورسيبا - وهي برس نمرود، على مبعدة ١٦ كيلا جنوبي بابل - ومعبودها نرجل^(٢).

٢- سفر وايم وهما بلدتان على ضفتي الفرات، وعلى مبعدة ٢٥ كيلا جنوب غرب بغداد، هذا ويذهب «رسام» أنها أبو حبة الحالية، بينما يذهب آخرون إلى أنهما «شومورية» شرقي بحيرة حمص، وكانتا مركزا هاما لعبادة «شمش» وعشتار وأنونيت^(٣).

٢- الدولة الكاشية (أسرة بابل الثالثة):

١- دوركووريجالزو: ينسب تأسيس مدينة «دوركووريجالزو» إلى الملك الكاشي «كوزيجالزو الثاني» (١٣٤٥ - ١٣٢٤ ق.م)، وتقع في مكان «عقرقوف» الحالية، على مبعدة ٣٢ كيلا غربي بغداد، ومن المعروف أن الكاشيين إنما بدأوا حكمهم من بابل، ولكنهم في منتصف عهدهم، أسسوا مدينة «دوركووريجالزو» (بمعنى مدينة أو حصن كوريجالزو).

وقد أتمام «كوزيجالزو» في عاصمته الجديدة قصراً يشبه قصر «زمرى ليم»
(١) محمد يوسى مهران: المرجع السابق ص ٤٦٤ - ٤٦٨، مؤيد سعيد: المرجع السابق ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

وكذا A.L.Oppenheim, ANET, p. 315-316 وكذا G.Roux, op.cit, p. 357 وكذا 358

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٧٩٥/٢، ملوك ثان ٢٤/١٧، ٣٠.
(٣) قاموس الكتاب المقدس ٤٦٩/١، محمد يوسى مهران: إسرائيل ٩٤٩/٢.

حاكم «مارى» (تل الحريرى) ورغم أن مابقى من هذا القصر قد لا يكفى لإعطاء صورة كاملة عنه، ولكنه يشير إلى أنه كان يتكون من عدة أجنحة متلاصقة، لكل منها مساحة كبيرة فى الوسط، وقد تتجاوز مساحة القصر بضعة مئات من الأمتار فى كل ضلع من أضلاعها، ومن أهم ما عثر عليه فى القصر هو الجزء المتبقى فى الزاوية الشمالية حيث الممرات المسقوفة الطويلة التى تحيط بالساحة، والتى يحمل سقفها ركائز مربعة، كما تشير بقايا الغرف إلى وجود قاعات طويلة وعريضة، يبلغ طول المتبقى منها ٤٠ متراً، مما يشير إلى أنها كانت قاعات استقبال، وربما كانت إحدى قاعات العرش، أما فى الزاوية الشرقية من البناء فقد عثر على ثلاث ممرات طويلة متوازية، تخرق أرضها قنوات حياه، وعلى جانبى الممر «كوى» مرتفعة عن الأرض ذات سقف معقوف، كما كانت للممرات معقوفة السقف أيضاً، وربما كان ذلك لخزن الرقم الطينية فى جو رطب يناسب الغرض.

وأما زاقورة عقرقوف (دور كوريجالزور) فكانت تتكون من خمس طبقات من اللبن، تغطيها من الخارج طبقة من الآجر، ومساحتها (٦٧,٦ × ٦٩ م) وتبدأ سلالمها الجانبية مع نهاية الضلع الجانبى، ثم تدور بزاوية قائمة حول جسم الزاقورة لترتقى إلى السلم الجانبى، وهناك سلم فى الوسط يتلقى بالسلم الجانبى فى مركز الضلع، وقد شيدت أمام سلم الزاقورة الوسطى مصطبة من اللبن مساحتها (٣٥ × ٣٥ م) تحيط بها مساحات عديدة لمعبد لم يكتمل اكتشافه كله بعد، وهذه المساحات متصلة ببعضها وتحيط بكل مساحة مجموعة من الغرف المستطيلة.

هذا وقد استمرت «دور كوريجالزور» عاصمة لكاشيين، حتى سقطت - هى وبابل وأريس - فى يد الماهل الميلاى «شترك نخته» فى عام ١١٦٠ ق.م^(١).

(١) مؤيد سعيد: المرجع السابق ص ١٥٤-١٥٦-١٦٥.

وكذا N.Kramer, ANET, p. 57-59 و G.Roux, op.cit, p. 229 - 230.
T.BAQIR, Excavations at Aqar Quf, Iraq, 1944, and Iraq, 8, 1946, p. 73 - 92.

وأظهر: محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم ص ٣٠٥ - ٣٠٧ (١٩٩٠).

الفصل الرابع

الدولة الآشورية (٢١٠٠ - ٦٠٩ ق.م)

تقديم: لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن كلمة «آشور» إنما تعنى في الواقع، الإقليم الذى سكنه هؤلاء القوم، والمعروف باسم آشور، كما تعنى المدينة التى تحمل هذا الاسم، والمعبود الذى كان يعبد هناك، وربما كانت هذه التسمية - أى آشور - نسبة إلى أول عواصم القوم، وهى مدينة «آشور»، ومن ثم فقد أطلق إسم آشور على الإله القومى للآشوريين، وظلت هذه التسمية حتى القرون الأخيرة من الألف الأولى قبل الميلاد، أى حتى بعد زوال كيان الآشوريين السياسى.

وأما معنى كلمة «آشور» فغامض، فقد يكون من معانى الصغية «آشور» (الرحمن)، وربما كان اللفظ سومرى الأصل، وعلى أية حال، فقد وردت كلمة «آشور» فى المصادر الآرامية والعربية تحت إسم «أشور»، وأما فى المصادر السامرية فقد عرفت بلاد الآشوريين باسم «مات آشور» أى بلاد الآشوريين، كما وردت كلمة «آشور» فى هذه المصادر من القرن الثالث عشر قبل الميلاد تحت إسم «أش شرة»، كما وردت فى صورة «آ - شو - ار» وأما فى المصادر المصرية، فلقد ذكرت، لأول مرة باسم «أسور» على أيام «تختمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م)، كما ذكر اسم «آشور» فى التوراة على أنه من أبناء «سام بن نوح»، كما ذكره الجغرافى «بطليموس»، فى كتابه «جغرافية بطليموس» فى عام ١٥٠ م.

وأما أصل الآشوريون فهم من شعبة سامية هاجرت من شبه الجزيرة العربية - الموطن الأصلي للساميين - وتشير لغة الآشوريين إلى أصولها السامية، وقد تحدث القوم بلهجة من لهجات اللغة الأكديّة، واستخدموا الخط السامى، وقد تميزت العواصم الآشورية بعدم الثبات، ومن ثم فهناك ستة عواصم آشورية هى: آشور وكالح وه كار - نوكلتى - نورتا و«دورشاروكين» و«نيتوى» و«حاران»^(١).

(١) محمد يوسى سهران: المرجع السابق ص ٣٢٣ - ٣٢٦، فخرية بارو: المرجع السابق ص ١٧ - ١٨، عبد العزيز صالح، المرجع ص ٤٩٨ - ٤٩٩، طه باقر: المرجع السابق ص ١٦٣ - ١٦٧، عامر سليمان: العراق فى التاريخ ص ١١٩ - ١٢٠.

وكلا M.F.Unger, op.cit, p. 167, 182 و G.Roux, op- cit, p. 177 وكلا 100-101

وكلا J.Laessoe, People of Ancient Assyria, London, 1963, p. 37

(١) آشور: كانت مدينة آشور هي أولى عواصم الآشوريين، وقد أقيمت فوق ربوة صخرية، تحف بها مياه نهر دجلة التي أصبحت حماية طبيعية لها، ربما منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، وتعرف خرائبها اليوم باسم «القلعة» أو «قلعة شرقاط»، وتقع على مسعدة ٩٦ كيلا جنوبي مدينة الموصل الحالية، وقد استمرت مدينة آشور مركزا سياسيا للبلاد على مدى فترة طويلة من التاريخ العراقي القديم.

هذا وقد عثر في خرائبها على أسس لمعابد بعض المعبودات، مثل آشور وأنو وأدد، وكان «أنشور» هو الإله القومي للآشوريين، وكبير معبوداتهم حتى نهاية إمبراطوريتهم، وفي النسخة الآشورية من قصيدة الخلق، التي عثر عليها في مدينة آشور، تجده يحل محل المعبود البابلي «مردوك»، لأن القوم أرادوا أن يكون معبودهم - وليس معبود البابليين - هو خالق الكون، وهكذا كان الدين عونا لنسياسة، وصدى لمطامح الملوك والشعوب والمدن.

وهكذا كان معبد آشور في مدينة آشور - ويدعى إشرا (E.Shar - Ra) يقيم فيه مع زوجه «ننليل» ملكة إشرا - أشهر معابد المدينة، وقد بنى على أيام الملك «شمشي أداد» الأول (١٨١٣ - ١٧٨١ ق.م)، ويعتبر من النماذج الأساسية في تفسير عمارة المعابد الآشورية، ودليلا لطرز المعابد الآشورية في العصر الأحدث، وقد جمع بين الطرز المعروفة في جنوب العراق، والتي بنيت على هيئة بيوت ذات فناء في الوسط، ومنها مبعد «شوسن» في تل أسمر، وبين الطرز التي عرفت في فجر الأسرات ذات الغرف المقدسة الطويلة، هذا وكان للمعبود آشور معبد آخر خارج المدينة يسمى «أكيتو» (Akitu).

وهذا وقد عثر في آشور كذلك على تماثيل لبعض الملوك، فضلا عن عدد من المسلات، وقد وجد على أحدهم إسم «سمورامات» (سميراميس) زوج الملك «شمشي أداد» الخامس (٨٢٣ - ٨١١ ق.م) والتي أصبحت وصية على العرش سنوات خمس، بل إن هناك من الآثار التي وجدت في آشور - وترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد - من ذلك النوع السومري، هذا وقد عثرت البعثة الألمانية في حفرياتهما في مدينة آشور في الفترة (١٩٠٣ - ١٩١٤ م) على لوحات تشريعية نسخت على الطين (Clay Tablets)، وليس على لوحة حجرية (Steld)، وإن ردها

البحر إلى ما قبل عهده بزمان طويل، وربما إلى أواسط الألف الثانية قبل الميلاد، وربما إلى ما بين عامي ١٤٥٠ - ١٢٥٠ ق.م، ومن ثم فهي تعود إلى العهد الآشوري الوسيط^(١).

(٢) كالح: كانت مدينة «كالح» (Kalah) (كالحو - كالحو) ، والمعروف حاليا باسم «نمرود» (Numrud) ، هي العاصمة الآشورية الثانية، وتقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة، عند ملتقاء بنهر الزاب الأعلى، وعلى بعد ٣٠ كيلا جنوبى «نينوى»، وعلى بعد ٣٥ كيلا جنوب شرقى الموصل.

هذا وقد أسس «كالح» الملك «شلمنصر الأول» (١٢٧٤ - ١٢٤٥ ق.م)، وسكنها البابليون الذين قام بهجرهم «نوكلتى نينورتا» الأول (١٢٤٤ - ١٢٠٨ ق.م)، وإن كانت التوراة قد نسبت تأسيسها إلى من دعت «نمرود»، هذا وقد شيد فيها الملك «أشور ناصر يال» الثانى (٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م) قصراً، ثم اتخذها عاصمة للملك.

هذا وقد قام بالحفر فيها «سير أوستن ليارد» (Sir A.H.Layard) فى الفترة (١٨٤٥ - ١٨٥١ م) وكذا «مالوان» (M.Mailouan) فى عام ١٩٤٩ م، وكشفت الحفريات عن مبد للإله «نينورتا» يتكىء على زاقورة مربعة (طول ضلعها ٥١ م، وارتفاعها ٤٥ م)، كما عثر على مسلة نقش عليها اسم «أشور ناصر يال الثانى»، هذه فضلا عن قصر يعده الآثاريون أول القصور الكبيرة لمملكة آشور الجديدة، وبه كثير من النقوش التى تصف لنا عمال «أشور ناصر يال الثانى»، وتصف البناء وظروف تشييده، وحفر قناة لرى المنطقة.

وهناك قصر «أداد نيرارى الثالث» (٨١٠ - ٧٨٣ ق.م) - إلى الجنوب من قصر «أشور ناصر يال الثانى» - وقد سكنه أيضا «تجلات بلاسر» الثالث (٨٤٥ - ٧٢٧ ق.م)، وإلى الجنوب منه قصر «إسرحدون» (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م)، وغير ذلك من المباني السكنية والدينية، هذا وقد دمرت المدينة على أيدي الميديين فى عام ٦١٢ قبل الميلاد.

(١) محمد يومى مهران: المرجع السابق ص ٣٢٦ - ٣٢٧، أندريه بارو: المرجع السابق ص ٢٣٣، هنرى هيردى: المرجع السابق ص ٩٠ - ٩١.

وكذا: J.Laessoe, op.cit, p. 18, 37F, 42, 79F وكذا: M.Funger, op.cit, p. 101 - 103

هذا وقد كشفت «أوستن ليارد» في عام ١٨٤٦م في قصر «شلمنصر الثالث» (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) في مدينة «كالح» عن «المسلة السوداء» (Black Obelisk)، والمحفوطة الآن في المتحف البريطاني، وتحدث عن انتصارات الملك، وقد تمثل على وجهها الثاني من أعلى حاملي الجزية الإسرائيليين وموظفيهم في ملابس مشغولة، ذات أكمام قصيرة، وعمامة تشبه غطاء الرأس.

هذا وتسجل حوليات «أشورناصرهال الثاني» الكثير من المعابد التي أنشأها في عاصمته «كالح» فهناك معابد للأرباب: إنليل ونيورتا وأداد، وشالا (Shala) وجولا (Guld) وسين وناهر وعشتار وسبتي (Sibitti) وأششار - كشموري (Ashtar - Kitmuri) وغير ذلك من المعابد التي كرس للمعبودات الكبار.

وعلى أية حالة، فإن الآثار المكتشفة في «كالح» (نمرود) إنما تعد من أروع الآثار الآشورية، وتعكس المدى الذي وصله الفن والعمارة في القرن التاسع قبل الميلاد، وقد كشف - بجانب القصور والمعابد والأسوار والبوابات - عن مئات من ألواح الجدران التي كانت تغلف جدران قاعات القصور الداخلية وهي منحوتة نحتاً بارزاً دقيقاً بمناظر مختلفة من الحياة اليومية والملكية والمعارك العسكرية، وقد لون بعضها بالوان زاهية ظلت تحتفظ بها إلى يوم الناس هذا.

هذا وقد زينت مداخل القصور والقاعات الرئيسية بتمائيل ضخمة لحيوانات مركبة، عرفت «بالشيران المجنحة» تعبّر عن قوة الآشوريين وصلابة قوادهم وحكمتهم، فضلاً عن إشعار الزائر، ولأول وهلة، بقوة الدولة وملكها، كما كشف في «نمرود» عن أعداد كبيرة من النصوص السامرية، وعلى مجموعة من القطع العاجية، أبرزها تلك التي تمثل قناعاً لرأس فتاة، عرفت عند الباحثين باسم «مونليزه النمرود» أو «فتاة البشر»، حيث عثر عليها في أحد آبار المدينة^(١).

(١) نكويين ١١/١٠ - ١٢، أنشده بارو: المرجع السابق ص ٣٤٣، ليو أونتهام: بلاد آشور ص ٣٨١، هنري عهودي المرجع السابق ص ٧٠٤ - ٧٠٧، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

وكذا J.Finegan, op.cit, p. 264 وكذا J.Laessoe, op.cit.p.99,103- 106
265

M.E.L.Mallowan, Twenty- - Five Years of Mesopotamian Discovery, London 1956, p. 50 - 64.

(٣) كار- توكلتى - نورتا: أسس هذه المدينة الملك «توكلتى نورتا» الأول (١٢٤٤ - ١٢٠٨ ق.م)، واتخذها عاصمة لدولته، وأضفى عليها اسمه «كار- توكلتى - نورتا»، وإن كان هناك من يذهب إلى أن مؤسسها هو «أشور - نادين - إيلى» (١٢٠٧ - ١٢٠٤ ق.م) وينسب إلى أبيه، وعلى أية حال فهي تقع على مسافة ٣ كيلاً من مدينة أشور، على الضفة اليسرى لنهر دجلة، وهي «نكل أكبر» الحالية.

هذا وقد شيد بها «أشور - نادين - إيلى» قصراً فى عاصمته بقيت منه أطلال طفيفة، يفهم منها أنهم زخرفوا بعض جدرانه بقطع من القاشانى المزخرف، فضلاً عن لوحات مرسومة، اقتبسوا عناصرها من عالم الحيوان والنبات ومن الخطوط الهندسية، وقد نجحوا فى تحقيق التناسب والحيوية فيها إلى حد معقول، وصورا فيها الملك يقاتل بعربته الحربية، منفرداً حيناً، ومشاركاً فى الحرب إلى جوار حوذه، حيناً آخر^(١).

(٤) دورشاروكين: كانت «دورشاروكين» (Dur - Sharrukin) هى العاصمة الآشورية الرابعة، وقد أسسها «سرجون الثانى» (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) فى عام ٧١٧ ق.م، وأتم بناءها فى سنوات سبع (٧١٣ - ٧٠٦ ق.م)، وتقع أطلالها الآن أو على مقربة من «خورسباد» (Khorsabad) الحالية (وكلمة «خورسباد» محرفة من «خسرو أباد») جنوب الزاب الأعلى، وعلى مسافة ١٦ كيلاً شمال شرق الموصل، ٢٤ كيلاً شمال شرق نينوى.

هذا وقد بنيت هذه المدينة على هيئة مربع طول ضلعه ١٧٦٠ متراً، وكان يؤدى إلى المدينة طريق مبلط عرضه ١٢ متراً، ويحيط بالمدينة سور وأبراج، يزيد عددها عن ١٥٠ برجاً، وكان للمدينة سبعة أبواب محصنة، ويحيط سورها

· ركنًا. M.F.Unger, op.cit, p. 161 - 162.

M.E.L.Mallow, Nimrud and its Remains, 2 Vols, London, 1966.

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق ص ٣٢٨، عبد العزيز صالح: للرجع السابق ص ٥٠١ -

٥٠٢، جورج رو: العراق القديم ص ٦١٤

وكنًا. W.Bachmann, MDOG, 53, p. 41 - 57.

وكنًا. W.Andrde, Das Wiederertandene - Assur, p. 121 - 125.

الداخلي، بمعقل كائن في قسمها الشمالي، اشتمل على القصر الملكي ومعبد الإله «بنو» وبيوت فخمة خصصت لكبار الموظفين مثل «سن - آح - أصرا» (Sin- ah - usur) وهو الوزير، شقيق الملك، هذا وقد زينت أبواب المدينة بشيران مجنحة لها رؤوس بشرية، تعتبر عند الآشوريين بمثابة الملاك الحارس الذي يقي المدينة من الشرور والمخاطر، كما كانت شوارع المدينة مستقيمة ومتعامدة.

ولم يبق من المدينة الآن غير أطلال قصر «سرجون الثاني» وبعض الأقسام المجاورة له، وتدل الآثار التي عثر عليها بقصر سرجون هذا، على مدى ما وصل إليه فن البناء والنحت وسبك المعادن وصناعة الزجاج، كما عثر بالقصر على عدد كبير من التماثيل البارزة والثيران المجنحة، ونماذج من الزخارف المنقوشة تمثل ثيراناً وأسوداً، كما عثر في المخازن على أدوات وآلات من الحديد تبلغ زنتها ٢٠٠ طناً.

هذا وقد تم إكتشاف المدينة في عام ١٨٤٣ م، وقد ظن - في بادئ الأمر - أنها أنقاض «نينوى» ولكن تبين بعد ذلك أنها «دور - شاروكين» (حصن سرجون) وأجريت الحفائر تحت إشراف القنصل الفرنسي «بوتا» الذي أرسل اكتشافاته إلى فرنسا عام ١٨٤٧ م، حيث شكلت الجناح الآشوري في متحف اللوفر بباريس، ثم قام «فيكتور بلاس» و«توماس» بإتمام التنقيبات في الفترة (١٨٥٢ - ١٨٥٥ م)، ثم جدد المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو الحفريات في الفترة (١٩٢٨ - ١٩٣٥ م)، وكشفت الحفريات عن قصر سرجون الضخم، والذي يحتوي على أكثر من مائتي غرفة، وثلاثين فناء، فضلاً عن أجنحة خاصة، وستة معابد، وزاوية من سبع طبقات، وقد دهنت بألوان مختلفة، وتصل بعضها بسلم حلزوني، وأكبر الظن أن سرجون قد استخدم الآلاف من أسرى الحرب والمئات من الفنانين والحرفيين الذين أسهموا في بناء المدينة.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن «سرجون الثاني» لم يستقر في عاصمة واحدة، فقد اتخذ في أول أيام حكمه مدينة أشور عاصمة له، ثم انتقل منها إلى «كالح» (نسرود)، وفي منتصف أيام حكمه اتخذ «نينوى» عاصمة له، وأخيراً وفي السنة التاسعة من الحكم، حوالي عام ٧١٣ ق.م، (وربما في عام ٧١٧ ق.م) بدأ في بناء عاصمته الجديدة «دو - شاروكين» (مدينة أو حصن سرجون)، وقد استمر بناء المدينة سبع سنين (٧١٣ - ٧٠٦ ق.م)، (وربما عشرين سنين)، ولكنه لم

يتمتع بها طويلا فلقد مات في العام التالي (٧٠٥ ق.م) وقد ترك بعض أجزائها غير كاملة.

هذا ولم يكتف خلفاؤه بهجرها والإنتقال إلى «نينوى»، وإنما شوهوا كثيرا من منحوتاتها، ونقلوا بعضها إلى قصورهم فطمست معالمها، وإن كان هناك من يذهب إلى أنها ظلت مقرا للحاكم (ربما حاكم المنطقة) قرابة قرن من الزمان، وعلى أية حال، فلقد ظل اسمها في ذاكرة الأجيال المتأخرة، فلقد عرف العرب اسم «سرجون» وشوه الآسانيون اسم المدينة وأطلقوا عليها اسم «خسرو - أباده» أو مدينة خسرو، ومن هنا جاء اسمها الحالي محرفا إلى «خرمباد أو خورمباد»^(١).

(٥) نينوى: كانت «نينوى» (Nineveh) العاصمة الآشورية الخامسة، وتقع الآن تحت تلى «قوينجق» والنبى يونس^(٢)، على الضفة الشرقية لنهر دجلة، على قم رافد صغير يدعى «الخسر» (الخور)، على مبعده ٤٠ كيلا من التقاء الدجلة بالزاب الأعلى، قبالة الموصل، وكان العيرانيون يسمون اسم «نينوى» ليشمل كل المنطقة حول التقاء الزاب الأعلى بالدجلة.

هذا وقد اتخذ «سنحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) «نينوى» عاصمة له، وإن لم تعمّر طويلا حيث سقطت في أيدي الميديين في عام ٦١٢ ق.م، وبعد ذلك تم نهبها في صورة كاملة، وإن كان هناك من يرى أن للمدينة قد سقطت في أغسطس من عام ٦١٣ ق.م، بعد معركة دموية بدأت في يونيو ٦١٣ ق.م.

وهناك ما يشير إلى أن «سنحريب» قد أهتم بها كثيرا، ومن ثم فقد عمل على توصيل المياه العذبة إليها، وهكذا قام بتنفيذ مشروع رى مازال آثاره باقية حتى يوم الناس هذا، فلقد أتى بالمياه العذبة إلى نينوى من مكان قريب من نهر «الكومل» - على مبعده ٨٠ كيلا من نينوى - أو «الجومل» (Gomel) من مجرى جبل في

(١) طه باقر: المرجع السابق ص ١٩١ - ١٩٢، محمد يومى مهراڤ: المرجع السابق ص ٣٢٩ - ٣٣٠، ٤٠٠، أندريه بارو: المرجع السابق ص ٣٤٠، ليو أوبنهايم: المرجع السابق ص ٤٨٦، هنرى صودي، المرجع السابق ص ٤٠١ - ٤٠٢.

وكتنا. G.Roux, op.cit, p. 291 - 292.

(٢) من المعروف - دينيا وثارخيا - أن سيدنا يونس عليه السلام، إنما أرسل إلى أهل نينوى، أنظر: سيرة ابن هشام ٢٢٦/٢، وانظر القصة بالتفصيل: محمد يومى مهراڤ: دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الرابع - في العراق - بيروت ١٩٨٨ ص ١٧٥ - ١٩٢.

«بافيان»، وذلك عن طريق قناة شيدت بحجر الكلس، ونظر لمرورها في مناطق فيها الوديان وفيها المرتفعات، فقد شيدت لها قناطر على بعض الوديان، بلغ طول إحدهما ٣٠٠ ياردة، وعرضها ٢٤ ياردة، وقد نحت عند صدر القناة - عند القرية المعروفة الآن باسم «خنس» - على وجه صخرة شاهقة صورة كبيرة للمعبودات، وقد سجل عليها موجزا بأخبار تشييد المشروع، وقد كشف المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو في عام ١٩٢٣ م عن المشروع.

هذا وقد ظلت «نينوى» مجهولة حتى كشفت عنها الحفريات التي بدأت منذ عام ١٨٤٧ م، حيث عثر في هذا العام على أطلال معبد سنحريب، والذي كان يحتوي على أكثر من ألفي نقش، وحوالي ثمانين غرفة، من بينها مكتبة الملك الآشوري «أشوربانيبال» (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م) والتي احتوت آلاف اللوحات المسمارية، ثم عادت التنقيبات مرة أخرى في عام ١٨٥٢ م، حيث عثر على قصر الملك «أشوربانيبال»، والذي زينه بنقوش تمثل المعارك التي دارت بينه وبين العرب، والتي يبدو منها أن عرب الشمال إنما كانوا رجلا متوسطي الطول، يرتدون ملابس صيفية، بينما تركوا رؤوسهم عارية، وشعورهم تتدلى على أكتافهم، كما كانوا ملتحين بلحي مديية قصيرة، وتصورهم المناظر وهم يركبون الجمال، وعلى الجمل الواحد منها رجلان، الواحد لقيادة البعير، والآخر لضرب القوس.

هذا وقد كشف أيضا في نينوى عن عدة معابد، وعلى رأس من البرونز، ربما تمثل الملك سرجون الأكدي، كما عثر في «تل التني يونس»، على قصر يرجع إلى أيام الملك «إسرحدون» (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م) (١).

(٦) حران: كانت «حران» (Harran) هي العاصمة السادسة والأخيرة للآشوريين، وتقع على نهر «بلخ»، على مسافة ٩٦ كيلا من اتصاله بالفرات، وإلى

(١) محمد بيومي مهرفك تاريخ العراق القديم ص ٢٣٠ - ٢٣١، ٢٣٦، ٤٠١، ٤٢٦، طه باقر: المرجع السابق ص ١٩٢، عامر سليمان: العراق في التاريخ ص ١٥٥ - ١٥٧، ليو أرنهيلم: المرجع السابق ص ٥٠١، نكبين ٨/١٠ - ١٢، يونان ٢/١، ٢/٢، ٧٠٢/٣

A.H.Layard, Nineveh and its Remains, London, 1849

وكلًا J.Laessoe, op.cit, p. 114 - 115 وكلًا G.Roux, op.cit, p. 343 - 344 وكلًا M.F. Unger, op.cit وكلًا B.Meissner, in Oslamica, II, 1926, p. 392 وكلًا p. 795- 796

الغرب من «تل حلفاء» وعلى مبعدة ٤٤٨ كيلا شمال شرق دمشق.

وقد أصبحت «حران» عاصمة للآشوريين بعد سقوط «نينوى» في عام ٦١٢ ق.م، على أيدي البابليين والميديين، ومن ثم فقد اضطر الملك الآشوري «أشور أوباطا» الثاني (٦١١ - ٦٠٩ ق.م) أن يتخذ من «حران» عاصمة له، غير أن «نبوخذنصر» الثاني (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) نجح في أن يستولي عليها، وأن يقضي على الجيش الآشوري في عام ٦٠٩ ق.م (وربما في عام ٦٠٨ ق.م). وأن يقضي بالتالي على الدولة الآشورية نهائيا.

هذا وقد تردد اسم «حران» في التوراة باعتبارها موطنًا لأقرباء إبراهيم الخليل وولده، وقد تزوج منها إسحاق وبمعقود، عليهم السلام، وأن يوسف الصديق عليه السلام قد ولد هناك، كما كانت أحد مراكز عادة إله القمر، الذي عبد في «أور» تحت اسم «ننار» (Nannar) بمعنى «المنير» ورمز إليه أحيانا بالهلال، ثم انتقل منها إلى «حران»، تحت اسم «تارح»، ثم انتقلت عبادة إله القمر من حران إلى سورية وفينيقيا^(١).

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل، ٦٢/١، ٧١، ٩٨١/٢، تاريخ العراق القديم من ٢٣١ - ٤٣٩،
تكوين ١/٢٤ - ١/٢٩، ٢٥ - ٣٠، ١/٢٦ - ٢٦.

وكنّا M.Noth, The History of Isrdel, London, 1965, p. 273

وكنّا G.Roux, op.cit, p. 347. وكنّا M.F.Unger, op.cit, p. 455.

L.Woolley, Aberaham, Recent Discoveries and Hebrew origins,
London, 1965, p. 27 117

L.Woolley, The Beginings of Civilization, N.Y, 1956, p. 492 -
514.

الفصل الخامس

المدن والمراكز الأثرية منذ العصر الإخميني وحتى الفتح الاسلامي

١- الإخمينيون (٥٢٩ - ٣٣١ ق.م)

بابل: دخل «كيروس الثاني» (٥٥٨٠ - ٥٣٠ ق.م) مدينة بابل في ٢٩ أكتوبر من عام ٥٣٩ ق.م، وسرعان ما خضعت له بلاد النهرين، وبدأ الكتاب يؤرخون باسم المعاهل الفارسي «كيروش ملك العالم» وعين «جوبرياس» الخائن جاكما (مشراب - Satrap) من قبل الفرس، وهنا انتهت سيادة العناصر السامية في العراق القديم، وبدأت سيادة العناصر «الهندو - أوربية»، ولمدة تقرب من اثني عشر قرنا (٥٣٩ ق.م - ٦٣٧ ق.م)، بدأت بالفرس الإخمينيين (٥٢٩ - ٣٣١ ق.م) ثم الإغريق - بما في ذلك عصر الاسكندر الأكبر والسلوقيين (٣٣١ - ١٣٥ ق.م) ثم الفرس الفريثيون أو البارثيون (١٣٥ ق.م - ٢٢٦ م)، ثم الفرس الساسانيون (٢٢٦ - ٦٣٧ م).

هذا وقد ظلت «بابل» إيان عهد الإخمينيين عاصمة للعراق القديم، غير أنها لم تكن عاصمة سياسية، وإنما إدارية، منذ ولي «جوبرياس» واليا عليها من قبل الفرس، وربما كانت كذلك على أيام الإسكندر الأكبر منذ انتصاره على «دار الثالث» - آخر ملوك الإخمينيين - عام ٣٣١ ق.م، عند «كوليلة» - وهي تل كومل على مبعدة ٣٥ كيلا شرقي الموصل، وعلى مقربة من نهر الزاب الأعلى - والتي عرفت بمعركة «أربيلو»، وحتى وفاته في بابل في ١٣ يونيو عام ٣٢٣ ق.م ٢- السلوقيون (٣١٢ - ١٣٥ ق.م)

سلوقية: ورث «سلوقس الأول» (نيكاتور ٣١٢ - ٣٠٥ ق.م) - أحد قواد الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) المناطق الشرقية من الأرضين التي غزاها الإسكندر، ثم أعلن نفسه في عام ٣١٢ ق.م (وربما في ٣١١ ق.م) ملكا في «بابل» مؤسسا أسرة جديدة ظلت تحكم العراق حتى عام ١٣٥ ق.م، غير أنه لم يجعل من بابل عاصمة له، وإنما أسس عاصمة جديدة على نهر دجلة هي «سلوقية» (تل عمر)، على مبعدة ٩٠ كيلا شمالي بابل، في مقابل «طيسفون»

(Ctesiphon)، وربما فى موقع «أوبا» (Upa) أثناء العصر البابلى، وقد احتفظت «سلوقية» بطابعها الهلينستى حتى زوالها، رغم أن معظم سكانها إنما كانوا من البابليين، الذين أدخلوا إليها تقاليدهم وعاداتهم.

هذا وقد بدأ سلوقس فى بناء عاصمته «سلوقية» فى عام ٣٠٧ ق.م، ثم أصبحت العاصمة السلوقية الرسمية على أيام «أنطيوخس» الأول (٢٨١ - ٢٦١ ق.م) فى عام ٢٧٤ ق.م، حيث أصدر أوامره إلى السكان بالانتقال إليها، ويقدر بعض الباحثين عددهم بحوالى ٦٠٠ ألف شخص، من بينهم عدد كبير من سكان بابل ممن هجروا إليها، وفى نفس الوقت صدرت التعليمات بإعادة بناء «الإيزاكلا» لتكون قفرا وحيدا ومركزاً دينياً للبابليين.

هذا وقد تم تخطيط «سلوقية» على النمط الإغريقى، فشقت شوارع مستقيمة، تقاطع بزوايا قائمة، ثم سرعان ما أصبحت سلوقية من أوسع وأغنى مدن العراق القديم، كما أصبحت مقراً لجالية أجنبية - شأنها فى ذلك شأن غيرها من المدن الإغريقية فى الشرق القديم - ومن ثم كما أنشأوا «الأجورا» (وهى سوق المدينة، حيث تجرى عمليات البيع والشراء، وتنفذ الاجتماعات العامة، وتسمى عند الرومان «الפורوم» (Forum) وعند اليونان (Agora) (وربما تشبه الساحة أو «الرحبة» أو «البلحاء» عند العرب، خاصة فى تونس). هذا وقد كشفت الحفريات فى سلوقية عن مبان مكشوفة، تحيط بهما ممرات من جنوبها الأربعة، وربما قد أحيطت هذه البيانات بأعمدة، كما عثر أيضاً على شارع ذى أعمدة، فضلاً عن مبنى لحفظ سجلات معبد «أبولو» يتكون من وحدتين، كل واحدة منهما تحتوى على سبع غرف، بها أعمدة فى الوسط، وأبواب على الأضلاع القصيرة، وأما القصر فكان يتكون من عدد من المباني المتشابهة، تتألف الواحدة منها من غرف تحيط بساحة مكشوفة، وكذا قاعات (megaron) مفتوحة من الجانب الجنوبي، يمكن الوصول إليها عن طريق سقيفة تحتوى على عمودين فى مدخلها، وهكذا يعكس قصر سلوقية - وكذا قصر نمر - اندماج فكرتين معماريتين - إغريقية وبابلية - فالقاعدة (megaron) إغريقية، والساحة المكشوفة بابلية.

وعلى أية حال، فإن «سلوقس نيكاتور» سرعان ما يؤسس مدينة أخرى تحمل نفس الاسم (سلوقية) في عام ٣٠٠ ق.م، على نهر العاصي، وعلى مسبعة ٢٤ كيلا من ساحل البحر المتوسط، دعاهما «أنطاكية» نسبة إلى أبيه «أنطيوخس»، وجعلها مقر إقامته المفضل ثم سرعان ما أصبحت عاصمة الدولة السلوقية، ومن ثم فقد أصبحت الدولة السلوقية سورية أكثر منها عراقية، وبالتالي فقد انتقل المركز السياسي والحضاري والاقتصادي لغربي آسيا من ضفاف الفرات إلى ساحل البحر المتوسط (١).

٣- البارثيون أو الفرثيون (١٣٥ ق.م - ٢٢٦ م)

١- بابل: خلف البارثيون أو الفرثيون السلوقيين في حكم العراق القديم، وأكبر الظن أن مركزهم كان في بابل، وقد اهتموا بالسيطرة على الطرق المؤدية إلى شمال العراق والحوضر الآشورية القديمة، فأقاموا حيناً من الدهر في آشور، حيث أقاموا فيها قصراً كبيراً، قلده الملوك الساسانيون في بناء قصرهم في المدائن فيما بعد.

هذا وقد تدهورت بابل كثيراً على أيام البارثيين، حتى أن الامبراطور الروماني «تراجان» (٩٨ - ١١٧ م) عندما احتل بابل في عام ١١٥ م، وجدها خالية من سكانها الذين هربوا منها، الأمر الذي تكرر على أيام الامبراطور الروماني «سبثميوس سينبروس» (١٩٣ - ٢١١ م) عندما دخلها بجيوشه، ورغم أن الفرثيين ظلوا فترة يسيطرون على المنطقة - بما فيها مدينة بابل - غير أن الضعف سرعان ما أصابها بسبب الحروب المستمرة مع الرومان، مما أدى إلى قيام الثورات الداخلية، وبالتالي سقوط دولتهم على أيدي الساسانيين في عام ٢٢٦ م، وفي نفس الوقت قامت دولة عربية هي الحضر، والتي كانت عاصمتها مدينة

(١) محمد يوسى مهران: إسرائيل ١١٣٧ / ٢ (الإسكندرية ١٩٧٨)، المغرب القديم ص ١٩٣

(الإسكندرية ١٩٩٠)، واتن الصالحى: حضارة العراق ١٨٧ / ٣ - ١٩٦.

C. Hopkins, Topography and History of Seleucia on the Tigris, 1973.

C. Hopkins, A bird's eye view of Opis and Seleucid, Antiquity, XIII, 1939, p. 440 - 448.

L. Waterman, Preliminary Report on The Excavations at tell uman, 1933.

الحضر، وقد أسهم الساسانيون في القضاء على بابل وتدميرها نهائياً، قبل أن ينتهى القرن الخامس للميلاد^(١).

٤- الساسانيون (٢٢٦ - ٦٣٧م)

(١) المدائن: وتقع على بعد ٢٥٠ كيلاً جنوب شرق بغداد، وقد عرفت عند الرومان باسم «طيسفون» (Ctesiphon)، وفي نقش (شرف الدين ٤٢) - وربما يرجع إلى عهد سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢م)، وأثناء حصار «أذنيه» ملك تدمر، (حوالى عام ٢٦٥م) للمدينة - دعيت «قط واصف»، وظلت عاصمة الدولة الساسانية طوال عهدهما (٢٢٦ - ٦٣٧م)، منذ أن استولى عليها الملك «أردشير بابل»، وقتل آخر ملوك الفريشيين «أرطبان الخامس» فى عام ٢٢٦م، هذا وقد اتبع فى تخطيط «طيسفون» نفس التخطيط شبه الدائرى، الذى كان سائداً وقت ذلك، وكانت من قبل قرية عسكرية صغيرة، فى مقابل سلوقية على الدجلة، وتشير آثار الفترة اللاحقة أن المدينة كانت دائرية الشكل تقريبا، وأن هناك علاقة واضحة بين التخطيط الدائرى لمدينة «طيسفون» وبين المعسكر الحربى الآشورى، والذى يظهر على المنحوتات الآشورية على شكل دائرى ولعل هذا إنما يفسر لنا التخطيط الدائرى لمدينة «طيسفون» التى أقامها الفريشيون فى الأصل بمشابة معسكر لجنودهم، وكان لهذا النوع من التخطيط عدة فوائد منها سهولة الدفاع عن مدينتهم المدورة، ولأنها بالتالى إنما تحتوى على أسوار أقل من أسوار الشكل المستطيل بحوالى ١١٪ وتلك فائدة اقتصادية دونما ريب.

ولعل الهدف من توسيع «طيسفون» وجعلها مدينة هامة، ثم إحدى عواصم الفريشيين، إنما يرجع إلى أمرين، الواحد دفاعى، وذلك لتكون فى مواجهة سلوقية، المدينة الهامة والمحصنة التى أعلنت الثورة لسنوات سبع، ثم استسلمت تلقائياً، والآخر منافسة سلوقية فى تجارتها النهرية بل إن الفوثيين لم يكتفوا بذلك، وإنما قام «ولجش الأول» (٥١ - ٨٠م) بتأسيس «ولجاشية» على مقربة من سلوقية لتنافسها فى أهميتها، وإن كان موقع «ولجاشية» لم يحدد حتى الآن على وجه اليقين هذا وقد شكلت «طيسفون» (المدائن) أهم مدن العراق فى العصر الساسانى (٢٢٦ - ٦٣٧م) ولعل من أهم مبانيها إنما كان «إيوان كسرى» (طاق

(١) موهب سعيد: العراق فى التاريخ، ص ٢٥٤ - ٢٥٩.

كسرى - أو القصر الأبيض)، وقد نسب بناؤه إلى «كسرى أنوشروان» (٥٣١ - ٥٧٩ م)، أو «كسرى أبريز» (٥٩٠ - ٦٢٨ م)، وذلك لاحتوائه على عناصر معمارية مختلفة نشبه تلك التي سادت إبان القرن السادس الميلادي في العمارة البيزنطية، وإن ذهب فريق من العلماء إلى أن بناءه من عصر «أردشير»، أو عصر «سابور الأول» (٢٤١ - ٢٧٢ م) استناداً على بعض من إشارات تاريخية من مصادر مكتوبة، وأن «كسرى أنوشروان» إنما قد جددّه وأضاف إليه.

وأياً ما كان الأمر فإن «إيوان كسرى» هذا، إنما يواجه الشرق، وأن ارتفاعه ٣٥ متراً، وعرض فتحته ٢٥ متراً، وامتداده الطولي ٥٠ متراً، وقد بنيت أسسه من الآجر والجص، ورصفت بشكل عمودي - على طراز بعض جدران أبيه أنشور، وأراده أصحابه قويا متينا، ومن ثم فقد زيد في سمك الجدران، حتى تتحمل القبو، الذي كان يرتفع حوالى المتر، وقد يصل إلى أربعة، ولم تزين جدرانه بكوات أوحنيات - كما في غيره من القصور - إعتقاداً من المعماريين أن الشكل البسيط هو الأصلح إنشائياً، كما وضعوا بعضاً من خشب في داخل الواجهة لزيادة قوة الجدران، كما احتوى جداره الخلفى على دعائم خشبية، ومن المعروف أن استعمال للخشب في تقوية الجدران، إنما كان من التقاليد المعمارية في العراق، الأمر الذى شاع فى العمائر العربية الإسلامية.

هذا وكان لجدار الإيوان الخلفى مدخل يقع على المحور الطولى، ويغضى إلى مجموعة من الغرف الصغيرة المتصلة ببعضها عبر فتحات الأبواب، ثم منها إلى قاعة واسعة مغلقة بعرض الإيوان، يبدو - كما تشير الدلائل الأثرية - أنها سقفت بقبو، وهناك إلى جانبي الإيوان، غرفة على كل جانب أصغر من القاعة المغلقة الخلفية، يفصلها عن الإيوان دهليز ضيق، وقد أثبتت الحفريات أن القصر أو الإيوان إنما كان يتكون من وحدتين معماريتين، تتكون كل منهما من ثلاثة غرف واسعة تمتد على محور واحد، وتكون الوسطى فى كل منهما أوسع، وقد شكلت القاعة الوسطى فى الوحدة الأمامية الإيوان المفتوح نحو الشرق، الأمر الذى يشير إلى مبدأ التقسيم الثلاثى للمباني فى عمارة العراق القديم، وكان للغرف الصغيرة بين الوجدتين - وقد بنيت على محور مغاير - أهمية خاصة، ذلك لأنها تفصل بينهما، كما أنها إنما تكون حلقة الوصل بين القاعات الكبيرة.

هذا وتشير بعض المصادر إلى أن بعضاً من جدران الإيوان الداخلية إنما كانت مختلفة بالألواح من المرمر الملون، والمنقولة من كنيسة في أنطاكية، وأن بعضاً آخر إنما قد احتوى على مشاهد حربية عملت بالفسيفساء تمثل حصار كسرى لتلك المدينة، وأكبر الظن أن أسرى أنطاكية قد أجبروا على عملها، وتتكون قطع الفسيفساء - كما تشير الحفريات - من أحجار ملونة ومذهبة كانت تشكل وحدات فنية زخرفية معينة، اتصفت بها جدران الإيوان، وطبقاً لما جاء في بعض المصادر، فقد عملت الأرضيات من ألواح مرمرية سميكة، ثم غطيت بسجاد، نقشت عليها مناظر أشجار وحدائق وفنوت مياه، ويروى أن كسرى عندما كان يستقبل زائرة إنما كان يجلس على وسادة ذهبية، وضعت فوق عرشه عن نهاية الإيوان، وأنه كان يرتدى ملابس مزخرفة ذات نسيج ذهبي، وكان يضع فوق رأسه تاجاً عظيماً من الذهب والفضة، وقد طعم باللؤلؤ والأحجار الكريمة، وأن وزن هذا التاج إنما كان يقدر بأكثر من ٩٠ كيلو جرام، ومن ثم فقد كان يعلق في السقف بسلاسل طويلة من ذهب.

هذا وقد ظلت طيسفون (المدائن) - كما أشرنا آنفاً - أهم مدن العراق طوال العهد الساساني، وحتى الاستيلاء عليها عام ١٦ هـ بيد المسلمين بعد حصاد دام شهرين، وقد تعرضت أثناء العصر الساساني لعدة غزوات، وكما حدث في عام ١١٦ م على أيدي «تراجسان» (٩٨ - ١١٧ م)، وفي عام ١٩٧ م على أيام «سبتمميوس سفيروس» (١٩٣ - ٢١١ م)، وفي عام ٦٢٨ م، على أيام «هركل» (٦١٠ - ٦٤١) - وأما الاسم «المدائن» فكان يعنى مدينتي «طيسفون» و «سلوقية» الواقعتين على ضفتي نهر الدجلة المتقابلتين.

بقيت الإشارة إلى مدينتين أخريين ترجعان إلى العهد الساساني، وهما:

١- كوخة: تشير المصادر العربية إلى مدينة سميت «وه - أردشير» (Weh-Ardashir) والتي أسسها الملك «أردشير» (٢٢٦ - ٢٤٠ م) وأطلق عليها اسم «كوخة» (Coche) أو «سلوقية» الجديدة، ويذهب الإمام الطبري (٢٤٤ - ٣١٠ هـ) إلى أن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص إنما قد بقي فيها بعد انتصاره في «القادسية» (١٥ هـ) وقبل عبوره نهر الدجلة، وأن اسمها كان «بهرسير»، وقد أثبتت الحفريات أنها شيدت فوق مقبرة ترجع إلى العصر الفرلي،

وأن سورها وبعض جدرانها وأسلوب تخطيطها إنما يرجع إلى عصر «أردشير الأول»، وأنها كانت مدورة الشكل، وشوارعها غير منتظمة، وبها ساحات تطل عليها مجموعة من الحوانيت والمخازن، مما يشير إلى أهميتها التجارية، كما أن بها «إيوانا» مما يشير إلى العمارة العراقية التي تمثلت في الحضر.

٢- مدينة كسرى أنطاكية: هناك ما يشير إلى أن كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م) عندما استولى على أنطاكية في عام ٥٤٠م، بنى مدينة جديدة على مقربة من «طيفسون» لسكنى أسراه، وقد أسماه «مدينة كسرى أنطاكية»، وقد شيدت على طراز مدينة أنطاكية، وطبقا لرواية الإمام الطبري، (٢٢٤ - ٣١٠هـ / ٨٣٩ - ٩٢٣م) فلقد شيدت بيوت السكان طبقا للتخطيط السوري، وكان بالمدينة ساحة لسباق الخيل، ومرافق عامة لا توجد في المدن الشرقية عادة، وقد أطلق عليها الكتاب العرب اسم «الرومية»، وما تزال آثارها باقية، على مقربة من «طيفسون»، وتسمى «بستان كسرى»، وتقع على مبعدة حوالي ٢٠ كيلا، جنوب شرق إيوان كسرى، وقد كشفت الحفريات عن سورها الضخم، ذي الأبراج المستطيلة، هذا وتجدر الإشارة إلى أن مدينة «أنطاكية» نفسها، إنما قد اشتملت على أبراج مربعة ومن ثم فإن تحصينات المدينة إنما قد اتبعت التخطيط الروماني المتأخر، وربما البيزنطي. ويستدل من الحفريات في «بستان كسرى» على أن للمدينة سورا، ربما كان مستطيلا، أو مربعا، طبقا للتخطيط الروماني كذلك.

وهناك أيضا «أسباتير» أو «أسفايور»، وطبقا لما جاء في المصادر العربية، فلقد كان بها «إيوان»، فضلا عن أنها إحدى المدائن السبع، التي سميت بها «المدائن»^(١).

(١) فرج بصره حي: نبذة تاريخية عن طيفسون - بغداد ١٩٦٤، ولق الصالح: حضارة العراق ٢٤٥/٢-٢٥١، ٣٤٩ - ٣٥٩، صالح أحمد العلي، المدائن في المصادر العربية، سمر ١٩٦٧ من ٤٧ - ٦٥، طارق مظالم، المدائن سمر ١٩٧١/٢٧ من ١٢٩ - ١٤٢.

وكلا J.Fiey. Topography of Al-Mada' in Sumer, 23, p. 3 - 38.

وكلا Antonio Invernizzi, Ten Years Research in THE Al-Mada'in Area, Seleucia and Ctesiphon, Sumer, 32, 1967, p 167 - 175.

الفصل السادس العواصم الإسلامية

١- البصرة:

هي أول مدينة إسلامية أسست في العراق، أسسها القائد العربي «عتبة بن غزوان» في عام ١٦ هـ / ٦٣٧ م^(١)، على أيام الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه وأرضاه (١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤ م)، وذلك لأن المقام لم يطب للعرب في المدائن، قاعدة الفرس، لعدم تمودهم على حياة المدن الكبيرة، كما أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أراد أن لا يحول بينه وبين المسلمين بحر، إذ أراد أن يمددهم بالجنود، ومن ثم فقد شرع العرب في بناء البصرة، ثم الكوفة.

وكانت البصرة - وتقع على مسافة ٢٢ كيلا من «الأبلة» على الخليج العربي - في بادئ أمرها أشبه بالقرية منها بالمدينة فأنشئ بها أولا المسجد، ثم دار الإمارة بجواره، وحولها خطط، لكل قبيلة منها حطة ومسجد ومقبرة، وقد بنيت في البداية بالقصب ثم الطين، ثم بالآجر والحجارة.

وكانت مقاتلة البصرة في أوائل سني تأسيسها أقل عددا من مقاتلة الكوفة، ومواردها قليلة، وقد أنشئت في بقعة بعيدة عن الأنهار، فكان الماء فيها قليلا مجا، وبمرور الأيام تم علاج هذه الأمور، فحفرت لها ترع تصلها بشط العرب وبالبحر، وتزود أهلها بالماء العذب، وبأسباب المواصلات، ثم إن قيام مقاتلتها بفتح أقاليم شرقي وجنوبي شرق الهضبة الإيرانية جلب لها موارد كبيرة في جباية

(١) اختلف المؤرخون في تحديد تمصير البصرة، فمن يجعله في عام ١٤ هـ (ابن الأثير ٣١٩/٢، البلاذري: فتوح البلدان ص ٣١٤، المسعودي: مروج الذهب ٣١٩/٢، ومن يجعله عام ١٥ هـ) المقدسي: أحسن التقاليد ص ١١٧) ومن يجعله عام ١٦ هـ (المسعودي: مروج الذهب ٣٢٠/٢، تاريخ بن خلدون ١٠٣/٢)، ولعل سبب هذا الاختلاف إنما يرجع إلى نزول «عتبة بن غزوان» بها عام ١٤ هـ، وإقامة المسلمين في ثكنات من القصب، ثم بناء المدينة من اللبن والأحجار بعد ذلك، هذا ولعل «جرى زبانه» (التمدن الإسلامي ١٦١/١) إلى أن البصرة كانت خمسة أقسام، نزل في كل منها قبيلة من العرب الفاتحين (أحمد الشامي: الخلفاء الراشدون ص ١٧٤).

هذه الأقاليم، هذا فضلا عن أن قرب البصرة من البحر، إلى جانب صلتها الوثيقة
بخرسان والسند، إنما قد ساعد كثيرا على ازدهار تجارتها.

وهكذا لم يمتز على تأسيس البصرة عقدان من الزمان، حتى أصبحت
واحدة من أهم المراكز التجارية في العالم الإسلامي، وخاصة في التجارة بين الهند
والصين، ومن ثم فقد حلت محل «الأبله» على الخليج العربي، ثم سرعان ما
أصبحت مقصد القوافل، ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى
مفاوز الصحراء الكبرى.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن معظم سكان البصرة، إنما كانوا من ربيعة
ومضر، ثم سرعان ما وفدت إليها جاليات من الهند والسند والصين، كما تردد
عليها كثير من العرب للتجارة، الأمر الذي أدى إلى ظهور حياة أدبية جديدة فيها،
فضلا عن تأثر الحركة الإسلامية بالفلسفة اليونانية القديمة^(١).

٢ - الكوفة:

أدرك الصحابي الجليل «سعد بن أبي وقاص» رضى الله عنه، أن المدائن -
العاصمة الفارسية - لم تكن ملائمة لاتخاذها - بعد أن فتحها في عام ١٦ هـ،
بعد حصار دام شهرين - مقراً له، ومقاما لجيوش الإسلام وذلك لأن المدائن عدداً
كبيراً من أنصار الفرس ومؤيديهم، ولأن أهلها قد تعودوا حياة الترف، هذا فضلا
عن انفصالها عن الصحراء بأرضين قد غطيت بالزروع وأشجار التخييل والترع، هذا
إلى أن مناخها رطب، كما أنها في منطقة موبوءة بالملازما

ومن ثم فقد كتب سعد إلى الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» رضى الله
عنه بكل هذا، وسرعان ما جاءه الرد بالبحث عن مكان آخر له ولجيشه، على أن
يكون على طرف الريف، وعلى ألا يفصله عن بلاد العرب حاجز مائي، وعلى أن
يكون مناخه جافاً، ملائماً لرعى الإبل.

وهكذا بحث سعد الصحابي الجليلين «سلمان الفارسي» و «حذيفة بن
اليمان» رضى الله عنهما - بأمر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - برتادان له
«وضعا تتوافر فيه الشروط التي أشار إليها الخليفة، وثد وقع بإختبارهما على مكان

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ٥١٧/١، صالح أحمد العلي: المرق في التاريخ ص ٣٣٤ -
٣٣٥.

غربي الفرات، ويقع على مبعدة ٤٠ كيلا جنوبي بغداد، ٥ كيلا شمال الحيرة. وأقر الخليفة هذا الاختيار، ونزال «سعد بن أبي وقاص» بجنده في مكان الكوفة، في المحرم عام ١٧ هـ - يناير ٦٣٨ م، بعد أن خلف في المدائن بعض المسلمين الذين رغبوا في البقاء بها، وكان معظمهم من «عبر» وعسكر المسلمون من جنود العرب - وعددهم أربعون ألفا - في الغيام أولا، ثم بنوا بيوتا من القصب، وسرعان ما أنت عليها النار، فأمر الخليفة الراشد أن تبنى الدور بالطين، فاخترت «أبو الهياج بن مالك الأسدي» شوارعها وأزقتها، ثم اختار القوم موقعا وسطا لبناء الجامع، وخصص له رقعة واسعة تكفي لاجتماع خمسين ألفا، وأحاطوه بسياج من القصب، وأقاموا في طرفه الجنوبي الغربي المشجه نحو الكعبة المشرفة، مظلة مقامة على أعمدة من خشب، وقد سقفت بالقصب، لتقى المصلين حر الصيف، وبلل الأمطار، ثم أبدلوا القصب بالطين.

وأقام القوم - بجوار الجامع من ناحية الظلة - بيتا للوالي، وآخر لحفظ السجلات والحسابات، وقد سموه الأول «دار الإمارة» ، والثاني «الديوان» ، وقد شيدت هذه المباني بالطين والقصب، وظلت كذلك حتى عهد «معاوية بن أبي سفيان» (٤٠ - ٦٠ هـ / ٦٦٠ - ٦٨٠ م) فأعاد واليه «زياد» بناءها بالطابوق، وجعل سوارى المسجد من الحجارة.

هذا وقد أحيطت هذه المباني (الجامع ودار الإمارة والديوان) من كافة أطرافها بمساحة واسعة عرضها ٥٠ مترا، تخرج منها عدة سكك، عرض كل منها ٥٠ ذراعا (حوالي ٣٥ مترا)، وتشعب من كل سكة طرق فرعية، عرض كل منها حوالي ١٧ مترا.

ومن المعروف أن المسلمين إنما كانوا يبدأون في بناء المدن بالمسجد، إتباعا لسنة سيدنا ومولانا محمد رسول الله (ﷺ)، عندما بدأ ببناء المسجد النبوي الشريف، عندما هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة في عام ٦٢٢ م، ذلك لأن المسجد، إنما كان المقر الرسمي للدولة، فيه تقام الصلوات، التي تربط المسلم بالله، رب العالمين وتنقي الإنسان من أدوان الأرض، ودسائس الحياة الدنيا، ومنه تصدر القوانين، وفيه تناقش الأمور، ومنه تذاغ البلاغات، وفيه يفصل في الخصومات، وفيه تقام حلقات الدرس حيث يتعلم المسلمون أمور دينهم.

وعلى أية حال، فلقد كان الجامع ودار الإمارة وبيت الديوان، هي الأبنية

العامة الوحيدة في المدينة، وهي أبنية بسيطة في عمارتها، متوسطة في موقعها، تربطها السكك بكل أرجاء المدينة وأطرافها، ومن ثم فقد أصبحت هذه المنطقة قلب المدينة، وأكبر مركز حيوي بها.

وسرعان ما ازدادت أهمية الكوفة حتى أصبحت من أعظم مراكز العلم والسياسة والحروب في البلاد الإسلامية، وغدت الكوفة، قصبة العراق الأعلى، فكان والي الكوفة يمين من قبله الولاء على الباب وأذربيجان وهمدان والرى وأصبهان والموصل وقرقيسيا، وكان أكثر من نزل الكوفة من عرب اليمن.

ولمؤلى سيدنا الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه وكرم الله وجهه في الجنة - للخلافة (٣٥ - ٤٠ هـ / ٦٥٦ - ٦٦١ م)، اتخذ الكوفة حاضرة لخلافته، لأن بها شيعته وأنصاره، ثم لخصوبة أرضها وكثرة خيراتها، ووقعها في مكان متوسط، سهل الإتصال بأجزاء الدولة الإسلامية، هذا إلى أن الإمام على إنما كان يستعد لحرب معاوية بن أبى سفيان، بعد أن امتنع عن البيعة، بل وحشد جنده لحرب الإمام^(١) عليه السلام.

وكانت الكوفة أيضا حاضرة الخلافة على أيام خامس الراشدين، الإمام الحسن بن على بن أبى طالب، (١٧ رمضان ٤٠ هـ - ربيع الأول ٤١ هـ)، والدليل على أن الإمام الحسن بن على، هو خامس الراشدين، فلقد روى الأئمة: أحمد بن حنبل وأبو يعلى وابن حبان، من طريق سفينة مولى سيدنا رسول الله (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) قال: الخلافة بعدى ثلاثون سنة، ثم تكون ملكا، وإنما كملت الثلاثون سنة بخلافة الإمام الحسن بن على، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت سيدنا رسول الله (ﷺ)، فإنه توفي في ربيع الأول، سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة^(٢).

(١) حسن إبراهيم: المرجع السابق ٥١٧١ - ٥١٩، صالح أحمد العلى: العراق في التاريخ ص ٣٣٠ - ٣٣٣، محمد يرمى مهران: السيرة النبوية الشريفة ١٩/٢ - ٢٠ (بيروت ١٩٩٠ م).

(٢) أنظر: محمد يرمى مهران: في رحاب القى وكل بيته الطاهرين - الجزء السابع - الإمام الحسن بن على - بيروت ١٩٩٠ ص ٤٣ - ٦٦.

٣- واسط:

فى أواسط العصر الأموى (٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠م) شهد العراق تأسيس ثالث مدنه الإسلامية - بعد الكوفة والبصرة - وذلك حين طلب الحجاج بن يوسف الثقفى (٦٦٠ - ٧١٤م) - والى العراق، فى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٥-٧٥٠م) من الخليفة، السماح له بتأسيس مدينة جديدة تتوسط العراق، على الضفة الغربية للندجلة.

وهكذا بدأ بناء المدينة الجديدة، وأمر الحجاج أن تتوسط دار الإمارة المكان المختار، وأن يكون المسجد الجامع ملاصقا لها، وأن يكون بينهما وبين خطط الناس خلاء، وأن يكون المسجد مربعاً (طول ضلعه ٢٠٠ ذراعاً)، وكذلك دار الإمارة (طول ضلعها ٤٠٠ ذراعاً)، والى يجب أن تكون هى القلب الذى تتقاطع عندها الشوارع الرئيسية الأربعة، وأما خطط الناس فكانت مهنية من جهة - أى أن يكون أهل كل مهنة فى مكان - وقلية من جهة أخرى، وهكذا كان لأهل الشام والبصرة والكوفة مكان خاص لكل منهم، وقسمت المدينة أربعة أرباع، ثم سورت بخندق وسورين، على رأى، وسورين وخندق، على رأى آخر، وكانت أبواب السورين تغلق ليلاً، ولا يسمح لغير أهل واسط بالمبيت فيها.

وعلى أية حال، فلقد احتفظت «واسط» بمركزها الإدارى فى العهد الأموى، ثم أخذت فى التوسع فى العصر العباسى، ومن ثم فقد امتد البناء خارج السور فى الجهة الغربية حتى الجانب الشرقى منه، مما أدى إلى بناء جسر يربط بين الجانبين، وازدهرت الحياة الاقتصادية والعلمية فى واسط، حتى دخلتها جيوش «هولاكو» (١٢١٧-١٢٦٥م) فى عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، ثم جيوش «تيمورلنك» (١٣٣٦-١٤٠٥م) بعد ذلك بقرن ونصف، فعالت كل منهما فساداً وقتلاً وحرقة وهدماً وتخريباً فى المدينة، ثم كان تغيير نهر الندجلة لمجرأ بمناوبة الفصل الأخير فى حياة «واسط»^(١).

٤- بغداد:

عندما استولى أبو العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـ / ٧٥٠-٧٥٤م) على الكوفة، شيد فى طرفها الغربى مدينة سماها «الهاشمية»، وانتقل إليها مع حاشيته

(١) صالح أحمد العلى، المربع السابق ص ٣٣٦ - ٣٣٨.

وأنصاره، ثم سرعان ما قرر الإبتعاد عن الكوفة، فنقل مقامه إلى مدينة شيدها قرب «ابن هبيرة» - على مبدعة ٤٨ كيلا شمال شرقي الكوفة، وسماها أيضا «الهاشمية»، غير أن القوم ظلوا يطلقون عليها الإسم القديم (مدينة ابن هبيرة)، فلم يرضه ذلك، وربما كانت هناك أسباب أخرى زادت من استيائه من عاصمته الجديدة، ومن ثم فقد انتقل إلى «الأنبار» وشيد على مقربة منها مدينة سماها كذلك - وللمرة الثالثة - «الهاشمية»، فأقام فيها، حتى توفي في عام ١٣٦هـ، كما أقام بها كذلك خليفته «أبو جعفر المنصور» (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥م) في أول ولايته للخلافة.

غير أن المنصور سرعان ما أدرك أن الهاشمية (نسبة إلى هاشم بن عبد مناف جد النبي ﷺ) وكذا بني العباس) أو «هاشمية الأنبار» لاتصلح مقرا للخلافة، ومن ثم فقد أخذ يبحث عن مكان آخر، يقع وسط أرضين خصبة، يرويها ماء دجلة، والجدول التي تأخذ مياهها من الفرات، وفي مكان تسهل فيه المواصلات بين أجزاء دولته، وتتوافر فيه سبل المعيشة، وفي مكان وسط العراق، حيث العواصم القديمة الكبرى - مثل «أكد» عاصمة سرجون الأكدي، و«بابل» العاصمة العتيدة للآموريين والكلدانيين، بل والإخمينيين، فضلا عن الإسكندر المقدوني، و«سلوقية» عاصمة السلوقيين، و«طيفسون» عاصمة الفرثيين والساسانيين - ، وفي أطراف هذه المنطقة كانت الحيرة عاصمة المناذرة، والكوفة المركز الرئيسي الأول للعرب المسلمين-.

وهكذا بعث المنصور روادا يختارون له مكانا لحاضرتهم الجديدة، فدلوه على مكان يقع على مقربة من «بارما» جنوبي الموصل، فخرج إليها في جمع من رجاله بلاطه وبنات فيه، ولما أصبح سأل رجاله عنه، فذكروا له طيب هوائه وجودة غذائه، فقال: ولكن لا مرفق فيه للرعية، ودلهم على مكان تجلب إليها المون من البر والبحر، كان قد مر به، فعاد إليه وأقام فيه يوما وليلة، وكان الوقت صيفا، فأعجب به هوائه، ووجد فيه مايفي بفرضه، ثم حبه إليه أهل النواحي المجاورة، وهكذا اختار المنصور موقع عاصمته الجديدة في رقعة مرتفعة من الأرض على الجانب الغربي لنهر دجلة، عند مصب نهر الرافيل فيه.

وهكذا اختار المنصور موقع «بغداد» في منطقة بها بضغ قرى، ودير للنصارى،

وجسر على دجلة وسوق نقام فو، بعض أيام الأسبوع، فالأرضين التي حول المنطقة المختارة سهلة فسيحة، فيها مزارع تسقيها نزع تخرج من مياه نهر «الرفيل» الواسع الذي يأخذ ماءه من الفرات، ومن نهر «دجيل» الذي يأخذ ماءه من دجلة، هذا إلى أن الأرضيين المزروعة كانت واسعة تنتج محاصيل زراعية بمقادير كبيرة، هذا فضلا عن أرضين منبسطة تقابلها في شرق دجلة، تروى مزارعها عدة أنها وترع أكبرها «هوق».

وبدأ المنصور في بناء عاصمته الجديدة في عام ١٤٥ هـ، وتم بناؤها في عام ١٤٧ هـ، وأطلق عليها اسم «مدينة السلام»، غير أن الناس إنما كانوا يسمونها في الغالب «مدينة المنصور» - نسبة للخليفة المنصور الذي شيدها - كما أطلقوا عليها، وعلى ما شملته من مبان، عند تسميها «بغداد»، وهو الاسم الذي كان يطلق على المنطقة منذ أيام البابليين، و«بغداد» - فيما يرى البعض - مكونة من كلمتين، «باغ» وهي بالفارسية بمعنى «بستان»، و«داد» وهو اسم لرجل كان يملك هناك بستانا، على أن هناك من يرى أن «بغ» اسم صنم، و«داد» وهو اسم لرجل كان يملك هناك بستانا، وهناك من يرى أن «بغ» اسم صنم، و«داد» بمعنى أعطى أو منح، روى أن كسرى أقطع هذه الناحية عبدا من المشرق من عبدة الأصنام، فقال العبد: بغ دادى، أى أن الصنم أعطاني، وروى الإمام النسائي أن رجلا قدم على «عبد العزيز بن أبي رواد»، فقال له: من أين أتيت؟ فقال: من بغداد، فقال: لا تقل بغداد، فإن «بغ» صنم، و«داد» أعطى، ولكن قل: «مدينة السلام».

وأيا ما كان الأمر، فإن المنصور جعل مدينته مدورة، وأحاطها بخندق وسورين، بينهما فسحة واسعة، وكان السور الداخلى أعرض سمكا، وأعلى ارتفاعا، وأحكم بناء، وعليه شرفات كالأبراج، كما جعل للمدينة أبوابا أربعة (باب الشام وباب الكوفة وباب البصرة وباب خراسان)، وفوق كل باب قبة، وحصن كل مدخل بباب ضخمة من حديد يمكن إقفاله، ورسم في داخلها سككا مستقيمة تمتد إلى رحبة واسعة في وسط المدينة المدورة.

هذا وقد شيد الخليفة في وسط الرحبة قصرا كبيرا مربع الشكل (طول كل ضلع منه ٢٤٠ مترا)، وبني في طرف القصر «إيوانا» ضخما، تعلوه قبة سامقة

الإرتفاع، خضراء اللون، ترى من مسافات بعيدة، وجعل سقفه من الساج، وزخرفه بماء الذهب، ومن فقد سمي «قصر الذهب» - حيث كان مقام الخليفة ومقر عمله - ثم بنى شرق القصر جامعاً واسعاً مربع الشكل (طول كل ضلع فيه ١٢٠ متراً).

وظلّت بغداد عاصمة الخلافة العباسية، حتى عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢م)، فبنى عاصمته «سامراء» (سر من رأى) - على بعدة حوالي ١٠٠ كيلاً شمالي بغداد، على الضفة اليسرى للديجلة - وذلك في عام ٢٢١هـ، ثم انتقل إليها مع جيشه وكبار رجال دولته، غير أن بغداد لم تتأثر كثيراً بانتقالهم، وإنما ظلت عامرة مزدهرة، وظل الخلفاء العباسيون يقيمون في «سامراء» قرابة السبعين عاماً، حتى نهاية عهد «المعتضد» (٢٧٩ - ٢٨٩هـ)، ثم عادوا بعدها إلى بغداد، فبقوا بها حتى نهاية الدولة العباسية في عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م على أيدي المغول، بقيادة «هولاكو».

وسرعان ما سارع الخراب إلى «سامراء»، ولم يبق فيها إلا قبر مولانا الإمام علي الهادي (الإمام العاشر)، والسرداب الذي اختفى فيه محمد المنتظر - الإمام الثاني عشر عند الإمامية الإثني عشرية - هذا فضلاً عن قبور الخلفاء العباسيين: الواثق والمتوكل والمعتز والمهدي والمعتصم.

هذا وقد ذكر لنا «ياقوت الحموي» سبعة عشر قصراً، بناها «المعتصم» و«المتوكل» (٢٣٢ - ٢٤٧هـ / ٨٤٧ - ٨٦١م) في «سامراء»، وقد أصبحت هذه القصور نموذجاً للقصور التي بنيت فيما بعد في البلاد الواقعة في بخارى شرقاً، وقرطبة غرباً^(١).

(١) تاريخ الطبري ٢٣٠/٩ - ٢٤١، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢١/١ - ٨٢. ابن طباطبائي: الفهرست في الآداب السلطانية ص ١١٢ - ١١٧، البغدادي: كتاب البلدان ص ٢٣٩ - ٢٥٤، صالح أحمد العلي: المرجع السابق ص ٣٧٣ - ٣٨٦، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ٣٦٠/٢ - ٣٨٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥٥٧/٥ - ٥٦٠، ٥٧٣ - ٥٧٥. ابن كثير: البداية والنهاية ٩٦/١٠ - ١٠٣، محمد الخضري: تاريخ الأم الإسلامية، الدولة العباسية ص ٧٧ - ٧٩، عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول ص ٦٣ - ٦٥.

وكذا - LeStrange, (Guy), Baghdad During The Abbasid Caliphate, Oxford, 1924, p. 9-18.

الباب الثالث

بلاد الشام

الفصل الأول فلسطين

القدس الشريف:

تقع القدس على خط عرض $31^{\circ} 46' 45''$ شمال خط الاستواء، وعلى خط طول $35^{\circ} 13' 25''$ شرق جريتش، وعلى مبددة ٢٤ كيلا إلى الغرب من البحر الميت، و٥٣ كيلا إلى الشرق من البحر الأبيض المتوسط، وثمانية كيلو مترات إلى الشمال للشرقي من «بيت لحم»^(١)، وهي هضبة غير متسوية تماماً، يتراوح ارتفاعها بين ٢١٣٠، ٢٤٦٩ قدماً، وجوها قارى صحراوى إلى حد كبير، فالحرارة فيها قد تتجاوز 30° صيفاً، وقد تنزل إلى خمس درجات تحت الصفر شتاءً، كما أن التفاوت في الحرارة كبير بين الليل والنهار، ومطرها شتوى متوسط، وروطيتها متوسطة أيضاً، ويندر بها الثلج وليس بها أنهار، وإنما تحيط بها عيون كثيرة تتفاوت في غزارة الماء وصلاحيته للشرب وتندفع من بعض هذه العيون جداول مؤقتة عند هطول الأمطار، وكانت المدينة إلى عهد ليس بعيد تعتمد أساساً على جميع مياه الأمطار في صهاريج وآبار أعدت لهذا الغرض^(٢).

وأعلى مرتفعات المدينة يوجد في حافاتها الشرقية والجنوبية الغربية والشمالية ومن ثم فقد اعتبرت منذ القدم موقفاً استراتيجياً قوياً جداً، واشتهرت بأنها لا تظهر عند الزحف عليها من بعيد، بينما تستطيع حاميتها أن تكشف تحركات المهاجمين لها، وهم مايزالون على مسافة طويلة^(٣).

وهذا وقد اشتهرت المدينة بعلية جبال، أولها: جبل الزيتون (جبل الطور) ويقع إلى الشرق من القدس، مواجهاً لأسوار الحرم الشريف (المسجد الأقصى)، ويفصله عنه واد عميق سريع الانحدار هو وادى «قدرون» ويسميه التلمود «جبل المسح» أى جبل التثويج، لأن القوم إنما كانوا يستخدمون زيتونة المقلص في تثويج

(1) M.F.Unger, op.cit., p. 576.

(٢) حسن ظان، القدس، الإسكندرية، ١٩٧٠، ص ١١.

(٣) نفس المرجع السابق ص ١١ - ١٢. وانظر محمد بيومي مهران: إسرائيل ١٩١٧/٢ - ٨٩٦ (الإسكندرية ١٩٧٨) وانظر ضمة ١٩١٩ ص ٧٣١ - ٧٧٠.

ملوكهم من بني إسرائيل، وعليه كانت تحرق بقرة حمراء قرباناً ليهوه رب إسرائيل، ثم يستخدمون رمادها في تطهير الهيكل، وإعادة تكريسه إذا دنس، وهي عادة وثنية كانت منتشرة في هذه المنطقة قبل نزول الديانات السماوية.

وأما لثاني الجبال فهو «جبل بطن الهراء»، وهو امتداد جبل الزيتون في الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس عنها «وادي سلوان» الذي يتصل في هذه النقطة نفسها بوادي قدرون، ويسميه اليهود «الجبل الفاضح» (هارها مشحيت)، ويؤمنون أن سليمان قد أقام عليه المعابد الوثنية لتسائه الأجنيات وأنه المقصود في رواية التوراة في سفر الملوك الأول (١٩ : ١-٨)، وأما ثالث الجبال، فهو «جبل صهيون» والذي سماه داود بعد أن احتل المدينة «جبل داود» ويقع في الجنوب الغربي للقدس القديمة، وهناك «جبل موريا» أو «جبل بيت المقدس»، ويقوم عليه مسجد الصخرة والمسجد الأقصى.

ثم هناك «جبل أكر» حيث توجد كنيسة القيامة، ثم جبل رأس المشارف (سكوبوس)، والذي يسميه التلمود «جبل المراقبين» ويقع شمال شرقي المدينة وهو امتداد لجبل الزيتون من الشمال الشرقي إلى الشمال، ويفصل بينهما منخفض يسمى «عقبة العمران» ثم هناك «جبل رأس أبو عمار» ويقع إلى الغرب من قرية «بتير» وهناك «جبل السناسين»، ويقع إلى الجنوب الغربي من «وادي فوكين» ثم «جبل النبي صموئيل» ويقع شمال غربي المدينة، على بعد قريب من غربي قرية «بيت حنينا»، وشمال قرية «بيت أكسا»

هنا، ويبدو أن هناك جيلاً كان في قديم الزمان، يقوم بين جبل سكوبولس وبين هضبة الحرم الشريف (جبل موريا)، ذكره «يوسف بن متى» في كتابه «حرب اليهود الجزء الأول - الباب الخامس»، وسماه «بيزيتا» (أي بيت الزيتون أو «منبت الزيتون»)، ولما تولى أجريما الأول، (٤١ - ٤٤ م) من أسرة هيرودس الكبير فردم ما بين الجبلين - جبل موريا، وجبل بيزيتا - ومد أسوار المدينة إلى ما وراء هذا الجبل الأخير، بحيث أصبح حياً من أحياء القدس كان يسمى «المدينة الجديدة»^(٤).

(٤) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٢ - ١٥؛ عبد الحميد زليد، القدس الخالدة، القاهرة ١٩٧٤، ص ١٣ - ١٥

هذا ومحاط القدس بعدة تلال، لعل أهمها «تل الفول» ويقع على مبعدة ستة كيلو مترات إلى الشمال من القدس، حيث كانت مدينة جبعة القديمة، والتي كشف «وليم أولبرايت» فيها عن بقايا قلعة شاول، فيما بين ١٩٢٢، ١٩٣٣ م، والتي لم يبق منها في الواقع إلا جزء صغير، يتكون من برج في أحد الأركان وجزء من الاستحكام المسقوف المجاور له^(٥)، ثم هناك تل الكابوس على مبعدة ثمانية كيلو مترات إلى الشمال الشرقي من المدينة المقدسة، وتل النصب على مبعدة اثنين من الكيلو مترات جنوبي «البيرة» في قضاء القدس، وهناك كانت تقع مدينة المصفاة الكنعانية - حيث نودي بشاول ملكا على إسرائيل^(٦) ثم هناك «تل القرين» ويقع شمال شرق المدينة بين «وداي الصويت» شمالا، وقارة جنوبا، وتل صرعة (تل صروع بالعبرية)، ويقع غربي جبال القدس، حيث توجد قرية تسمى باسمه، وإلى الشرق من قرية «دير رافات»، وإلى غرب «عرطوف» وأخيراً فهناك «تل شلتا» (تل شيلات) ويقع في جبال القدس غربي قرية «بلعين» وعلى مقربة من قرية «شلتا»^(٧).

وأما الوديان المحيطة بمدينة القدس، فأهمها وادي قدرون: وهو اسم جدول الماء الذي يجري في قاعه عندما يسقط المطر، وقد اشتهر باسم «يهو شافط»، وطوله نحو كيلو مترين، ويفصل السور الشرقي للقدس عن جبل الزيتون ويعتقد كثير من الطوائف اليهودية والمسيحية أن الحشر يوم القيامة إنما سوف يكون في هذا الوادي، اعتماداً على روايتين في التوراة، تقول الأولى: «احمل كل الأمم وأنزلهم إلى وادي يهو شافط، لأنني هناك أجلس لأحكم جميع الأمم من كل ناحية»^(٨).

(5) W.F.Albright, The Archaeology of Palastine, (penguin Books), 1949, p. 120 - 121.

(٦) صموئيل لول ١١: ١٠ - ٢٧.

(٧) عبد الحميد زاهد، المرجع السابق ص ١٥.

(٨) يوتيل ٢٠: ١٣، حسن ظالما، المرجع السابق ص ١٥ - ١٦.

وهناك وادى سلوان: ويمتد على طول جنوب القدس، حتى الطرف الجنوبي الشرقي من جبل صهيون، وقد أطلق عليه العرب باسم «حقل الدماء»، وكان يسمى قبل مجئ العبرانيين «وادى هنم» نسبة إلى قبيلة «هنم» (بتشديد النون) وقد جاءت كلمة الوادى فى بعض اللغات السامية القديمة تحت اسم «جى» فكان يقال «جيهنهم» - أى هذا الوادى - وكانت قبيلة «هنم» تقدم الضحايا البشرية لإلهها «مولك» يذبحها وإلقائها فى النار، ومن هذه الصورة أطلق اسم «جهنم» على مكان العذاب فى الآخرة، للشبه القائم بينها.

ثم هناك وادى الجبانة أو «التيرويون»، ويفصل جبال صهيون عن غرب القدس، حيث ينتهى وادى سلوان، وكان يسمى فى الجزء الجنوبي الغربى من القدس «وادى الزبالة» أو «وادى الدمن» أو «وادى القمامات»، وهناك كذلك وادى الأرواح (رفائيم، أو العفاريت)، ويدور حول غرب جبل صهيون، وأقصى الجنوب، هذا إلى جانب مجموعة أخرى من الوديان، مثل وادى زيتا ووادى النعامرة ووادى النار ووادى مكلك والوادى الكبير^(٩).

(٢) مكانة القدس الدينية:

تحتل القدس مكانة دينية فريدة بين مدن العالم، القديم منها والحديث، فهى المدينة الوحيدة فى العالم أجمع، التى يجمع أصحاب الديانات السماوية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - على قدسيتها، ومن ثم فقد كانت وما تزال - وستظل أبداً إن شاء الله - رمزاً للبشرية المتدينة على اختلاف مللها ونحلها ومذاهبها، وهكذا رأينا اليهود يقدسونها، لأن لهم فيها «كبريات دينية وسياسية، ففيها كان هيكلمهم المشهور، كما أنها كانت عاصمة لدولتهم حيناً من الدهر.

ويقدسها المسيحيون لأنها موطن المسيح ومبعث هدايته، ومن ثم فقد اتخذوا عادة الحج إليها كما يفعل اليهود، وربما الأرجح لأن المسيح، عليه السلام - طبقاً لرواية إنجيل لوقا - قد حج إليها فى صباه مع أبويه (مرهم العذراء ويوسف خضيتها)، ولما كان فى الثانية عشرة من عمره، بقى فيها حيناً من الدهر يتعلم «...» ويعظ^(١٠) ثم زاد الحجيج من المسيحيين إلى القدس، بعد أن بنت

(٩) عبد الحميد راهد، المرجع السابق، ص ١٥-١٧ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٥-١٧.

(١٠) لوقا، ٢، ٤١-٥٢.

«هيلانة» أم الإمبراطور الروماني قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧م) - الذي لم يعترف بالمسيحية كإيالة فحسب، بل إنه هو نفسه قد اعتنق المسيحية في عام ٣١٢م، على رأى جماعة من المؤرخين، وإن رأت جماعة أخرى أنه بقي وثنياً طوال حياته، ولم يتقبل النصرانية إلا على فراش المرض - بنت في عام ٣٢٦م كنيسة القيامة، فسمى إليها الحجاج من كل حذب وصوب، لأنهم يعتقدون أن جثمانه الطاهر دفن في مكان هذه الكنيسة، ثم رفع إلى السماء^(١١).

ويقدسها المسلمون^(١٢) لأن الله تعالى شاءت إرادته أن يخصها بالعديد من الأنبياء ابتداءً من أبيهم إبراهيم، وحتى عيسى ابن مريم، عليهم السلام - ولأن فيها أولى القبليتين^(١٣)، وثالث الحرمين الشريفين^(١٤)، ولأن بها مسرى جلدنا النبي الأعظم مولانا وسيدنا رسول الله - ﷺ - وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾^(١٥).

(١١) عمر كمال توفيق، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية ١٩٦٧، ص ٣٩، فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٣٨٧، ثم قارن Eusebius, BK, I.Ch. 4; Sozomenus, BK, I.Ch. 4; Eusebius, BK, IX, Ch. 9, 2

(١٢) انظر التفصيلات: محمد يومي مهران، القدس حتى عصر دلود، مؤتمر قسم التاريخ بجامعة الإسكندرية عن القدس - التاريخ والحضارة في الفترة (٢-٥ نوفمبر ١٩٩٦م).

(١٣) انظر: سورة البقرة: آية ١٤٢ - ١٤٤ ك وكنا: تفسير الطبري ١٢٩/٣ - ١٨٤ تفسير ابن كثير ٣٧٢/١ - ٣٨٠ تفسير القرطبي، ص ٥٣١ - ٥٥٠ تفسير التار ٧/٢ - ١٢ - ١٣ صحيح البخاري ٢٥/٦ - ٢٧، (دار الشعب ١٣٧٨م) صحيح مسلم ١٦٠/٢ - ١٦٢، (دار الشعب القاهرة ١٩٧٠)، مستد الإمام أحمد ٢٤٦/٥ - ٢٤٧، (القاهرة، طبعة الحلبي) الهيثمي، مجمع الزوائد ١٢/٢، السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالأنوار ١٤٣/١، ١٤٧، ابن كثير، السيرة النبوية ٣٧٢/٢ - ٣٧٧، ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، ٥٥٠، طبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥.

(١٤) انظر: صحيح مسلم، ٤١/٢، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٢)، الزركشي، كتاب إعلام المساجد، ص ٢٨٧؛ عبد اللطيف مشتهري، المسجد الأقصى، القاهرة ١٩٦٩، ص ٣٣ - ٣٧.

(١٥) سورة الإسراء، آية ١١ وانظر: تفسير ابن كثير ١٣١/٥ - ١٢٧ تفسير القرطبي، ص ٣٨١٩ - ٢٨٢٨، عبد الله محمود شحاتة، تفسير سورة الإسراء، ص ٢١ - ٤٧، (القاهرة ١٩٧٥)، ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، ٣٩٦/١ - ٤٠٣، ابن كثير، السيرة النبوية ٩٣/١ - ١٠٨، صحيح البخاري ٦٩/٥، ١٠٤/٦، صحيح مسلم ٣٧٧/١ - ٤٠٢؛ فتح الباري بشرح صحيح

ويروى أبو الدرداء - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ - قال: «فضلت الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفي مسجدى بألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس بخمسةائة صلاة»^(١٦)، وعن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدى هذا^(١٧).

وعن ابن عباس - رضى الله عنه - قال: «البيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء ما فيه موضع شبر، إلا قد صلى فيه نبي، أو قام ملك»^(١٨).

(٣) أسماء مدينة القدس:

عرفت مدينة القدس الشريف بأسماء كثيرة، غير أن الاشتقاق الأصلى لاسم المدينة غير مؤكدة على وجه التحقيق، وإن كان من الواضح أنه من أصل سامى، وأقدم النقوش التى ورد فيها اسم المدينة المقدسة، هو نقش مصرى يرجع إلى آخريات القرن التاسع عشر قبل الميلاد^(١٩)، على رأى، حيث ذكرت تحت اسم «أورساليوم» Ursalimum^(٢٠)، وإلى أيام الأسرة الثالثة عشرة المصرية (١٧٨٦ - ١٦٥٠ ق.م)^(٢١) فيما عرف بنصوص اللعنة تحت اسم «أوشاميم» Aushamum، على رأى آخر^(٢٢).

=البخارى ١٥٩١٧ - ١٧٢، محمد الفزلى، فقه السيرة، ص ١٣٤ - ١٤٧، (القاهرة: ١٩٦٥)، محمد محمد أبو شهبة، السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، ٤٢١/١ - ٤٤٥، عماد الدين خليل، دراسة فى السيرة، ص ١١٠ - ١٢٤ وانظر عن «الإسراء» (محمد يوسى مهران، السيرة النبوية الشرقية - الجزء الأول ص ٢٥٣ - ٢٤٨، بيروت ١٩٩٠).
(١٦) أبو اليمن مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، الجزء الأول، ص ٢٢٩، محمد محمود القحام، المسلمون واسترداد بيت المقدس، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٢.
(١٧) صحيح البخارى ٧١/٢ - ٧٧، (دار الشعب، القاهرة ١٣٧٨ هـ)، تفسير القرطبي، ص ٣٨٢٧ - ٣٨٢٨، (القاهرة ١٩٧٠).

(١٨) مجير الدين الحنبلى، المرجع السابق، ص ٢١١.
(١٩) هناك من يرى أن النقش إنما يرجع إلى أيام سنوسرت الثالث (١٨٤٠ - ١٨٧٨ ق.م) أو بعده، بقليل وربما قبله بقليل.

(20) M.F.Unger, op.cit., p. 576.

(٢١) أنظر: محمد يوسى مهران، «حركات التحرير فى مصر القديمة»، ص ١٠٤، ١١٦.

(٢٢) أحمد ضمرى، عصر الفرعونية، ص ٢٣٥، وكلا:

J.A.Wilson, ANET, 1966, p. 329; W.Ward, Egypt and The East Mediterranean, in The Second Millennium B.C. Orientalia, Vol. 30, Rome, 1961, p. 32.

ونقرأ في رسائل العمارة من عهد الملكين «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) وولده إخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) في رسالة من «عبد خيبا» أمير القدس - وكانت تدعى، على ما يدور، أوروسالم - من قبل فرعون، يقول فيها «لأبى ولأبى وضمانى فى هذا المكان، بل يد الملك القوية وضعتنى فى بيت أبائى»^(٢٣). وبقيت المدينة كذلك تحت الحكم المصرى، وإن استقل بها «اليبوسيون» بعد فترة الضعف التى انتابت الإمبراطورية المصرية، وسموها «يبوس»^(٢٤)، حتى جاء داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م)، وأخذها منهم، وأطلق عليها اسم «مدينة داود»^(٢٥)، وربما لأن اسمها القديم، إنما كان غريباً على أذان العبريين، وربما لأن فيه تخليداً لللاهوت أجنى. وربما - وهو الأرجح - لأن داود إنما أراد أن يخلد اسمه بإطلاقه على المدينة القديمة، أو حتى على جزء منها، ذلك لأن اليهود أطلقوا على المدينة كذلك اسم «يوروساليم» أو «أوروسالم»، بإضافة لاحقة عبرية، كى تصبح عبرية النطق.

وأياً ما كان الأمر، وسواء أكان داود قد أطلق عليه المدينة اسماً عبرياً أو أنه أراد أن يخلد اسمه، فهو فى ذلك إنما كان مقلداً لغيره من الحكام الذين كانوا - ومايزالون - يطلقون أسماء جديدة على أماكن قديمة، كما أن الاسم الجديد الذى أطلقه داود على المدينة (مدينة داود) لم يحل محل الاسم القديم، ويفسر بعض العلماء ذلك على أنها حالة من حالات كثيرة فى التاريخ القديم والحديث أخفقت فيها الأسماء الجديدة التى فرضتها السلطات الحاكمة فى القضاء على الأسماء القديمة التى لها جذور عميقة فى الوعي الشعبى^(٢٦).

وعلى أى حال، فلقد دعت المدينة فى النقوش الآشورية باسم «أورسالموم»^(٢٧) و «Ursalumum»، وفى النقوش اليونانية الرومانية تحت اسم «هيروسوليماء» Hiero-solyma^(٢٧)، هذا وقد أطلق على المدينة أسماء أخرى كثيرة - شأنها فى ذلك

(23) S.A.B.Mercer, op.cit., II, L. 286 - 289; W.F.Albright, ANET, p. 487 - 489.

(٢٤) قصة ١٩، ١٠ - ١١.

(٢٥) صموئيل ثان ٩:٥

(26) S.Yeivin, JNES, 7, 1947, p. 40.

(27) M.F. Unger, op.cit.p. 576.

شأن غيرها من المدن الهامة في تاريخ العالم - ومن الأسماء التي أطلقتها التوراة اسم «أريئيل» (إشعيا ٢٩: ١) ومدينة العدل (إشعيا ١: ٢٦) والمدينة (مزمو ٧٢ : ١٦) ومدينة الله (مزمو ١٨: ١) ومدينة الحق (زكريا ٨: ٢) ومدينة القدس (إشعيا ٢: ٨؛ نحميا ١: ١١) وجبل القدس (إشعيا ١: ٢٧) والمدينة المقدسة (متى ٥: ٤)، وأما أسماؤها العربية فهي بيت المقدس والقدس الشريف، أما الاسم الغالب فهو «القدس»، والذي يبدو أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها.

هذا ولم يذكر المؤرخ اليوناني «هيرودوت» (٤٨٤ - ٤٣٠ ق.م) في تاريخه اسم «أورشليم» ولكنه ذكر مدينة كبيرة في الجزء الفلسطيني من الشام، وسمها «قديس» مرتين في الجزء الثاني والثالث من تاريخه، ويقول المستشرق اليهودي الفرنسي «سالمون مولك» في كتابه «فلسطين» أن هذا الاسم على الأرجح هو «القدس»، محرفاً في اليونانية عن النطق الآرامي «قدشتا» (٢٨).

وأما معنى أورشليم فقد اختلف فيه، وأرجح الآراء من الناحية العلمية أنها مركبة من «ر» بمعنى موضع أو مدينة، ومن «شالم» وهو إله وثني لسكان فلسطين الأصليين، هو إله السلام، فالمدينة إذن كانت مكرمة لإله السلام، حتى وصل العبرانيون، وهناك من يقول أن كلمة «أور» معنلها «الميراث»، فتكون أورشليم، بمعنى «ميراث السلام»، أما أحبار اليهود فيدعون أن «سام بن نوح» قد سماها «شلم» أي السلام، وأن إبراهيم الخليل عليه السلام، قد سماها «يرأ» وهي بمعنى الخوف باللغة العبرية، فقرر الله أن يسميها بالإسمين جميعاً (يرأ - شلم) أي (أورشليم) بمعنى الخوف والسلام، وبنوا على هذه التخريجات الفلولوجورية عقائد رهيبة حول السلام المتولد عن الرعب، وقيل أيضاً أن (يرو) يمكن أن تكون في اللغات السامية بمعنى «إله» ويكون اسم المدينة بكل بساطة «إله السلام» (٢٩).

وأما ما كان الأمر، فما أن يأتي الرومان وتحدث منبحة هادريان (١١٧ - ١٣٨ م) الرهيبة في عام ١٣٥ م، حتى تكن ختاماً نهائياً لليهود في فلسطين سياسياً وسكانياً، ثم يغير الرومان اسم المدينة إلى «إيليا كائشولينا».

(٢٨) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٨، قاموس الكتاب المقدس، ١٣٩/١.

(٢٩) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٩.

أو «إيليا» فقط، وأصبح لفظ أورشليم لفظاً تاريخياً، يطلق فقط على المدينة التي كانت في هذا المكان على عهد الملوك والأنبياء من بني إسرائيل، وظلت المدينة تسمى «إيليا» ولا يسكنها اليهود حتى القرن السابع الميلادي.

وفي العام الخامس عشر من هجرة المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - يفتح المسلمون المدينة المقدسة، ويعيدون إليها اسمها، وإن اشترط أهلها ألا تسلم مدينتهم إلا للخليفة نفسه، وأن يمنحهم الأمان لدينهم وكنائسهم، وقبل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه (١٣ - ٢٢هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤م) ذلك، ويأتى إلى القدس في عام ١٥هـ / ٦٣٦م فيدخل المدينة التي يسلمها له البطريرك اليوناني «صفر نيوس» ويمنح أهلها النصارى الأمان في دينهم وأموالهم وأعراضهم، لا يضار أحد منهم بسبب دينه، ولا يكره على شيء في أمره، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود^(٣٠)، وبينما كان الخليفة الراشد في كنيسة القيامة مع البطريرك أدركته الصلاة، فطلب إليه أن يصلى بها فرفض حتى لا يتبعه المسلمون إذ يرون أن عمله سنة مستحبة، فإذا فعلوا أخرجوا النصارى من كيستهم وخالفوا عهد الأمان، واعتذر للسبب نفسه عن الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة، وإنما صلى في مكان قريب، عند الصخرة المقدسة، وخط المسجد الذي عرف باسمه^(٣١).

(٣٠) هناك رواية أخرى تذهب إلى أن الفاروق عمر بن الخطاب رفض الموافقة على استمرار القرار الروماني القديم بمنع اليهود من النزول بالمدينة، معتذراً بأن القرآن الكريم قد حدد ما لأهل الكتاب وما عليهم، وليس فيه شيء يسمح بهذا، ولكنه تمهد لى نصارى القدس بالألا يدخل أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن في حارتهم (حسن طاطا، المرجع السابق، ص ٣٠).

(٣١) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك ٦٠٧/٣ - ٦١٣، (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨)، الواقدي، فتوح البلدان، ٢٦٢، ٢٤٤، ٣٥٧، ٣٦٧، محمد الخضرى، تاريخ الأمم الإسلامية ٧-٥/٣، (القاهرة ١٣٧٠هـ)، عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، ١٨٨/١، (القاهرة ١٩٦٧)، محمد حسين عيكل، الفاروق عمر ٢٤٦/١ - ٢٦٣، (القاهرة ١٩٦٢)، على محمد على، ملف وثائق القضية الفلسطينية، ٤/١ - ١٢، (القاهرة ١٩٧٠)، حسن طاطا، المرجع السابق، ص ١٣٠، عبد الحميد زليد، المرجع السابق، ص ١٧٣ - ١٧٥.

الفصل الثاني

المسجد الأقصى

المسجد الأقصى أو بيت المقدس، موطن العديد من الأنبياء والمرسلين، ابتداءً من أبيهم إبراهيم وحتى عيسى ابن مريم عليهم السلام، وثاني مسجد وضع في الأرض بعد الكعبة البيت الحرام^(١) وأولى القبلتين^(٢)، وثالث الحرمين الشريفين^(٣)، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾^(٤)، وليس هناك من شك في أن هذا الإسراء أو هذه الرحلة المباركة من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في القدس الشريف إنما هي رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد ﷺ رسول الله وخاتم النبيين، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أريد بهذه الرحلة المباركة إعلان ورائة النسي الخاتم محمد ﷺ لمقدسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات، وارتباط رسالته بها جميعاً، ولهذا فقد جمعوا له هناك كلهم فأهمهم في محلهم ودارهم، فدل هذا على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن ثم فقد كانت رحلة الإسراء ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان، وتشمل آماداً وآفاقاً أوسع من الزمان والمكان، وتتضمن معاني أكبر من المعاني القرية التي تتكشف عنها للنظرة الأولى^(٥).

(١) صحيح البخارى ١٧٧ / ٤، صحيح مسلم ١ / ٣٧٠، ٢ / ١٥٣ - ١٥٤، مستد الإمام أحمد ٥ /

١٥٠، ١٦٧، تفسير القرطبي ص ١٢٧٩، تفسير المنار ٤ / ٦ - ٧.

(٢) انظر: سورة البقرة: آية ١٤٣ - ١٤٤، صحيح البخارى ٦ / ٢٥ - ٢٧، صحيح مسلم ٢ / ١٦٠ -

١٦٢، مستد الإمام ٥ / ٢٤٦ - ٢٤٧، مجمع الزوائد للهيتمي ٢ / ١٣.

(٣) انظر: صحيح مسلم ١ / ٥٤١ (القاهرة ١٩٨١)، التذكري: إعلام الساجد بأحكام الساجد، ص ٢٨٧.

(٤) سورة الإسراء: آية ١ وانظر: تفسير القرطبي ص ٢٨١٩ - ٢٨٢٨، تفسير ابن كثير ٣ / ٥ -

٤١، فتح البارى ٧ / ١٥٩ - ١٧٣، صحيح البخارى ٥ / ٦٦ - ٦٩.

(٥) في ظلال القرآن ٤ / ٢٢١٢، تفسير ابن كثير ٣ / ٥.

ولعل سائلاً يتساءل: من هذا الذى نال شرف بناء المسجد الأقصى؟

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والنسائي (واللفظ له) بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن سليمان بن داود عليهما السلام، لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خللاً ثلاثة، سأل الله عز وجل حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله ملكاً لا يتبغى لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه، أن يخرج من خطيبته كيوم ولدته أمه^(١).

وروى البخارى ومسلم عن أبى ذر قال: قلت يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول، قال المسجد الحرام، قلت ثم أى، قال المسجد الأقصى، قلت كم كان بينهما، قال أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعدة فصله، فإن الفضل فيه^(٢)، وفى رواية عن أبى ذر أيضاً قال: قلت يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول، قال المسجد ثم قلت أى، قال المسجد الأقصى، قلت كم بينهما، قال أربعون سنة، ثم حينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد^(٣). وفى رواية البخارى: ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله هذا وقد أثار هذا الحديثان الشريفان جدلاً بين العلماء، على أساس أن إبراهيم عليه السلام وهو باني البيت الحرام، وأن سليمان عليه السلام هو باني المسجد الأقصى، وبينهما ما يقرب من ألف عام^(٤)، ومن ثم فقد ذهب أبو جعفر الطحاوى بأن الوضع غير البناء، والسؤال عن مدة ما بين وضعهما، لا عن مدة ما بين بانيهما، فيحتمل أن يكون واضح المسجد الأقصى بعض الأنبياء قبل دلوذ وسليمان، ثم بنياء بعد

(١) سنن النسائي ٤٣/٢، سنن ابن ماجه ١/١، ٤٥١، انظر: جامع الأصول ج ٩ حديث ٦٣٠٧،

صحيح الجامع الصغير: حديث ٢٠٨٦، البداية والنهاية ٢/٢٦، تفسير ابن كثير ٤/٥٨

(٢) صحيح البخارى ١٧٧/٤، صحيح مسلم ٣/٥.

(٣) صحيح مسلم ١٥٣/٢ - ١٥٤ (القاهرة ١٩٨١/٢/٥)، وانظر طبعة بيروت ٢/٥ مسند الإمام

أحمد ١٥٠/٥، ١٦٧، تفسير الطبرى ١٧/٢٢، تفسير ابن كثير ٢/٦٣، تفسير القرطبي ص

١٣٧٩، تفسير المنار ٤/٦ - ٧.

(٤) الواقع أن الفترة بين وفاة إبراهيم وولادة سليمان عليهما السلام، لا تصل أبداً إلى ألف عام،

فإبراهيم عاش فى الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق. م) وسليمان عاش فى الفترة (٩٧٣ -

٩٢٢ ق. م).

ذلك^(١)، ولعل قريباً من هذا ما ذهب إليه ابن الجوزي والقرطبي بأنه ليس المراد أن إبراهيم عليه السلام هو الذي أسس بناء الكعبة المشرفة^(٢)، ولا أن سليمان عليه السلام بنى بناء بيت المقدس، وإنما هما جدداً ما كان قد أسسه غيرهما^(٣)، كما ذهب برهان الدين الزركشي إلى أن سليمان عليه السلام، إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لتأسيسه^(٤) على أن الأستاذ رشيد رضا يذهب إلى أن هذا التفسير ضعيف لأنه سماه بيتاً، ولو جمل المكان مسجداً ولم يبن فيه لما سمي بيتاً، بل مسجد أو قبلة، ثم إن ذلك مبنى على القول بأن إبراهيم هو الذي بنى أول مسجد للمعبادة في أرض بيت المقدس، وذلك معقول، وإن لم يكن عندنا نص صريح^(٥).

هذا ويذهب ابن قيم الجوزية إلى أن الذي أسس بيت المقدس إنما هو يعقوب عليه السلام، وأن سليمان كان مجدداً له، وإلى هذا ذهب ابن كثير أيضاً، حيث يقول: وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى^(٦)، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرقه الله، وهذا متجه ويشهد له ما

(١) صحيح مسلم ١٥٣ / ٢ (هامش / ٢).

(٢) الرأي عندى أن الكعبة المشرفة ترجع في بنائها إلى إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، دون غيرهما من العالمين ويرى ابن كثير وغيره من العلماء أنه لم يجرى في خبر صحيح عن المعصوم عليه السلام أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك في هذا بقوله مكان البيت فليس يناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته، المعظم عند الأنبياء موضحه من لدن آدم إلى زمن إبراهيم (ابن كثير: البداية والنهاية ١ / ١٦٣، ٢ / ٢٩٨، تفسير المنار ١ / ٤٦٦ - ٤٦٧، الكشف ١ / ٤٤٦، تفسير الطبري ٣ / ٧٠، محمد يوسى مهران: دراسات تاريخية في القرآن الكريم ١ / ١٨٢ - ١٨٥).

(٣) فتح الباري ٦ / ٤٠٨، تفسير القرطبي ٤ / ١٣٨.

(٤) الزركشي: إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ٣٠.

(٥) تفسير المنار ٧ / ٤ (القاهرة ١٩٧٣).

(٦) يلعب أهل الكتاب، كما جاء في العهد القديم، إلى أن داود عليه السلام، كان أول من فكر في بناء المسجد الأقصى، بل وقد اشترى مكانه من رجل يوسى يدعى «أرنان» (أرونا أو أرونة) كان قد اتخذ جبراً أو يبر، وكان قد عرض على داود أن يأخذ المكان بلا مقابل، فرفض داود واشتراه منه، بحمصين شافلاً من الفضة، وتذهب الرواية إلى أن داود قد منع من بناء البيت، لأن ذلك سيكون من نصيب ولده سليمان، ولكنها قد سجلت معارضة داود الفعالة لولده سليمان في إقامة البيت، وذلك بتجهيز المواد اللازمة للبناء، فصلاً عن كميات الذهب والفضة والحاس

ذكرناه من الحديث (يعنى حديث أبى ذر المشهور) فعلى هذا يكون بناء يعقوب، وهو إسرائيل عليه السلام، بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء^(١) كما ذهب إلى نفس رأى الزركشى فى إعلام الساحد^(٢)، والحميرى فى الروض المعمار^(٣)، وأخيراً فلقد ربط البعض بناء المسجد الأقصى، كما ربطوا بناء المسجد الحرام من قبل، بالملائكة، وربطه آخرون بآدم عليه السلام، بل إن فريقاً رابعاً ربطه بسام بن نوح عليه السلام^(٤)، وجاء فى تفسير القرطبى أن آدم هو الذى بنى المسجد الأقصى، بعد بنائه للبيت العتيق بأربعين عاماً، وأن يعقوب قد أقام قواعده وجدده فقط، بعد أن رفع جده إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت العتيق^(٥).

ويذهب الدكتور عويد المطرفى إلى أن أقرب الروايات إلى المعقول أن الذى بنى المسجد الأقصى تأسيساً، إنما هو سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، بعد فراغه من بناء الكعبة المشرفة، ورجوعه إلى مستقره بالشام^(٦)، كما استظهر ذلك أبو حيان فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِن أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(٧)، من أن إبراهيم عليه السلام، كما وضع الكعبة، وضع بيت المقدس^(٨).

وفى الواقع فإن كثيراً من المفسرين والمؤرخين إنما يذهبون إلى أن سليمان عليه السلام هو الذى بنى بيت المقدس، ففى تفسير أبى السعود أن سليمان لما أتم

==. والجديد وغيرها (مصر) ٢٤ / ١٦ - ٢٥، أخبار أيام ثان ٢٢ / ١ - ١٩، محمد يوسى مهران: إسرائيل ٢ / ٨٤٣ - ٨٤٤، تاريخ ابن خلدون ٢ / ١١٤ - ١١٧) ثم قارن: تفسير ابن كثير ٤ / ٥٨ (ط بيروت ١٩٨٦).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١ / ١٦٣، ٢ / ٢٩٨.

(٢) الزركشى: المرجع السابق، ص ٣٠.

(٣) الحميرى: الروض المعمار فى سحر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥، ص ٥٥٦.

(٤) سبجى الدين الحنبلى: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل الجف ١٢٨٨ هـ، الجزء الأول، ص ٨، فتح البارى ١ / ٤٠٩، الزركشى: المرجع السابق، ص ٣٠.

(٥) تفسير القرطبى ٤ / ١٣٨، فتح البارى ١ / ٤٠٨ - ٤٠٩.

(٦) عويد المطرفى: المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٧) سورة آل عمران: آية ٩٦.

(٨) تفسير البحر المحيط ٣ / ٦.

بناء بيت المقدس تجهز للحج، وهناك في مكة كان يذبح كل يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة، وخمسة آلاف بقرة، وعشرين ألف شاه^(١)، ويقول الحافظ السهيلي: وبيت المقدس بناه سليمان عليه السلام، وكان داود عليه السلام قد ابتداءً مبناه فأكماله ابنه سليمان عليه السلام، واسمه إيلياء، وتفسيره العربية: بيت الله^(٢)، ذكره البكري، وفي الصحيح أنه وضع للناس بعد البيت الحرام بأربعين سنة، وهذا يدل على أنه قد كان بنى أيضاً في زمن إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ولكن بنيانه على التحام وكمال الهيعة كان على عهد سليمان عليه السلام^(٣)، ويقول الطبري في التاريخ: وأصاب بنى إسرائيل في زمان داود طاعون جارف، فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس يدعون الله ويسألونه كشف ذلك البلاء عنهم، فاستجيب لهم، فاتخذوا ذلك الموضع مسجداً، وكان ذلك فيما قيل، لإحدى عشرة سنة مضت من ملكه، وتوفي قبل أن يستتم بناءه، فأوصى إلى سليمان باستتمامه، وقتل القائد الذي قتل أخاه (يعني يوأب الذي قتل أبشالوم) فلما دفنه سليمان نفذ لأمره في القائد وقتله واستتم بناء المسجد، ثم يتحدث الإمام الطبري بعد ذلك عن التعداد الذي قام به داود في بنى إسرائيل، والبلايا التي حاقت بالقوم بسببه، من قبل، وأن داود استغفر ربه وطلب العفو عن بنى إسرائيل، فاستجاب الله لهم ورفع عنهم الموت، فرأى داود للملائكة سالين سيوفهم يغمدونها، يرتقون في سلم من ذهب على الصخرة إلى السماء، فقال داود: هذا مكان يتبنى أن يبنى فيه مسجد، فأراد داود أن يأخذ في بنائه، فأوحى الله إليه أن هذا بيت مقدس، وأنت قد صبغت يديك في الدماء، فلست بيانية، ولكن ابن لك أملكه بعدك أسميه سليمان أسلمه من الدماء، فلما ملك سليمان بناء وشرفه^(٤): ويتفق ابن الأثير في روايته مع الطبري تماماً^(٥).

(١) تفسير أبي السعود ٢٧٨ / ٦، وانظر تاريخ ابن خلدون ١١٢ / ٢.

(٢) قارن: (محمد يوسى مهران: إسرائيل، الجزء الثاني، ص ١١٥٥ - ١١٥٨، الإسكندرية ١٩٧٩).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣٥٤ / ٢، هامش ١.

(٤) تاريخ الطبري ١ / ٤٨٤ - ٤٨٥، ثم قارن: صموئيل ثان ١٧ / ١ - ١٧، ٢٤ / ١٦ - ٢٤.

(٥) لتكامل لابن الأثير ١ / ١٢٧ - ١٢٨.

ويقول المسعودى: وابتدأ سليمان بينان بيت المقدس، وهو المسجد الأقصى، الذى بارك الله عز وجل حوله^(١)، ويقول اليعقوبى: وابتدأ سليمان فى بيت المقدس وقال: إن الله أمر أبى داود أن يبنى بيتاً، وإن داود شغل بالحروب، فأوحى الله إليه أن ابنك سليمان يبنى البيت باسمى، فأرسل سليمان فى حمل خشب الصنوبر وخشب السرو، ثم بنى بيت المقدس بالحجارة، فأحكمه ولبسه الخشب من الداخل، وجعل الخشب منقوشاً، وجعل له هيكلًا مذهباً، وفيه آلة الذهب ثم أصعد تابوت السكينة فجعله فى الهيكل، وكان فى التابوت اللوحان اللذان وضعهما موسى^(٢)، ويقول ابن خلدون: ولأربع سنين من ملكه (أى سليمان) شرع فى بناء بيت المقدس بمهد أبيه إليه بذلك، وقد تم بناء الهيكل فى سبع سنين^(٣).

هذا وقد أشرنا من قبل إلى الحديث الشريف الذى يقول فيه سيدنا رسول الله ﷺ: «إن سليمان عليه الصلاة والسلام لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خللاً ثلاثاً، سأل الله عز وجل حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله عز وجل ملكاً لا يتبغى لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه»^(٤)، وعن رافع بن عمير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عز وجل لداود عليه الصلاة والسلام ابن لى بيتاً فى الأرض، فبنى داود بيتاً لنفسه قبل البيت الذى أمر به فأوحى الله إليه يا داود نصبت بيتك قبل بيتى، قال يارب هكذا قضيت من ملك استأجر، ثم أخذ فى بناء للمسجد فلما تم السور فسقط ثلاثاً فشكا ذلك إلى الله عز وجل، فقال يا داود إنك لا تصلح أن تبنى لى بيتاً قال ولم يارب، قال لما جرى على يدك من الدماء، قال يارب أو ما كان ذلك فى هواك ومحبتك، قال بلى ولكنهم عبادى وأنا أرحمهم، فشق ذلك عليه فأوحى الله إليه لا تحزن فإنى سأقضى بناءه على يدى ابنك سليمان، فلما مات داود أخذ سليمان فى بنائه، ولما تم قرب القرابين وذبح الذبائح وجمع بنى إسرائيل، فأوحى

(١) مروج الذهب للمسعودى ١/ ٧٠، وانظر ١/ ٦٩.

(٢) تاريخ اليعقوبى، ١/ ٥٨.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١١ - ١١٣، ثم قارن ملوك أول ١/ ٦ - ٢٥/ ٢٥.

(٤) سنن النسائي ٢/ ٤٣، سنن ابن ماجة ١/ ٤٥١، تفسير ابن كثير ٤/ ٥٨.

الله إليه قد رأى سرورك بيننا يتي، فسلني أعطك، قال أسألك ثلاث: خصال، حكماً يصادف حكمك، وملكاً لا ينفي لأحد من بعدى، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، قال رسول الله ﷺ: أما الثنتان فقد أعطيهما، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة^(١).

وانطلاقاً من كل هذا، فإنني أميل، حذساً عن غير يقين، إلى أن إبراهيم عليه السلام، هو الذى وضع الأسس للمسجد الأقصى، على أساس أن رواية مسلم إنما تتحدث عن أول مسجد، وليس أول بيت، وهى العقبة التى احتج بها صاحب تفسير المنار، وعلى أساس ما جاء فى الأحاديث الشريفة من أن سليمان هو الذى بنى المقدس، وعلى أساس ما ذهب إليه جمع كبير من المؤرخين من أن سليمان قد بنى المسجد الأقصى بعهد أبيه إليه بذلك، وعلى أساس أن إبراهيم عليه السلام، طبقاً لرواية العهد القديم^(٢)، إنما قد زار القدس، وأنه قد أقام المحارب لله فى فلسطين، وخاصة فى شكيم وبيت إيل وبلوطات عمرا، ومن ثم فليس هناك ما يمنع من أن يكون أبو الأنبياء قد فعل الشيء نفسه فى القدس، هذا فضلاً عن أنه إذا ما كان صحيحاً ما ذهبنا إليه فى هذه الدراسة وغيرها من أن إبراهيم عليه السلام كان يعيش فى الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م) وأنه قد بنى الكعبة البيت الحرام حوالى عام ١٨٢٤ قبل الميلاد^(٣)، ومن ثم فإن بناءه أو وضعه لأسس المسجد الأقصى بعد ذلك بأربعين عاماً، أى حوالى عام ١٧٨٤ قبل الميلاد، يكون أمراً مقبولاً، وأن ذلك قد تم قبل أن يولد حفيده يعقوب عليه السلام بأربع سنوات ذلك لأنه طبقاً لما جاء فى هذه الدراسة، وكما أشار العهد القديم^(٤)، فإن الخليل عليه السلام قد رزق بولده إسحاق عليه السلام، وقد أكمل المائة من عمره (بعد أن رزق بإسماعيل وهو فى السادسة والثمانين من عمره) وقد عاش إسحاق ١٨٠ عاماً، ومن ثم فهو كان يعيش فى الفترة (١٨٤٠ - ١٦٦٠ ق.م)، وأن يعقوب كان يعيش فى الفترة (١٧٨٠ - ١٦٣٣ ق.م).

(١) تفسير ابن كثير ٥٨ / ١ (ط بيروت ١٩٨٦).

(٢) توكهن ١٢ / ٦ - ١٤، ٩ - ١٩ / ٢٠.

(٣) انظر عن بناء الكعبة المشرفة (محمد يوسى مهراڤ: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١ / ١٨٣

- ١٩٧) نخبة العربية القديمة من ٤٨٥ - ٥١٢.

(٤) توكهن ١٧ / ١٧، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٢٩ / ٢٨.

على أساس أنه ولد لأبيه إسحاق، وهو في الستين من عمره، وأنه عاش ١٤٧ سنة، وأن بني إسرائيل قد دخلوا مصر حوالي عام ١٦٥٠ قبل الميلاد، حين كان يعقوب في الثلاثين بعد المائة من عمره^(١)، وأما سليمان فهو الذي بدأ بناء المسجد الأقصى، الذي وضع إبراهيم أسسه، في عام حكمه الرابع، حوالي عام ٩٥٧ قبل الميلاد^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا بإيجاز إلى رواية العهد القديم عن بناء المسجد الأقصى، والذي تدعوه بيت الرب، حيث تذهب إلى أن مكان البيت إنما كان على جبل المريا في بيدر أرونة اليبوسى، فاشتره منه داود ومعه بقرة للقرابين بخمسين شاقلاً من الفضة^(٣)، هذا وتفسير الرواية بوضوح إلى أن داود عليه السلام إنما كان أول من فكر في إقامة بيت للرب، إلا أن فكرته هذه لم تجد قبولاً حسناً من رب إسرائيل، الذي كان يدخر هذا العمل لولده سليمان^(٤)، ومع ذلك فإن داود عليه السلام، قبل أن يتقل إلى جوار ربه، راضياً مرضياً عنه، أراد أن يسجل معازنته الفعالة لولده سليمان في إقامة بيت الرب، فأخذ يجهز المواد اللازمة للبناء، وكان قومه في عصره ما يزالون في بداءة بدائية، يتندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا، وسنرى أن الاعتماد على الفينيقيين كان الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان حتى يرتفع هيكل الرب، ونقرأ في التوراة أن داود قد «أمر بجميع الأجانب الذين في أرض إسرائيل فاتخذ نحاسين لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله، وهياً داود حديداً كثيراً للمسامير لمصابيع الأبواب والأوصال، ونحاساً كثيراً بلا وزن، وخشب ألرز لم يحدد له عدده،

(١) انظر: محمد يوسى مهران: إسرائيل / ١ - ٨٠ - ٨٢، دراسات تاريخية من القرآن الكريم / ١ - ١٩٤ - ١٩٥.

(٢) انظر: محمد يوسى مهران: إسرائيل / ٢ - ٨٤٠ - ٨٦٠.

(٣) من صعب أن يفسر الروايات العربية التي تسب إلى أبي بن كعب تذهب إلى أن صاحب المكان غلام إسرائيلي، وليس يوسيا كنعانياً، وأن داود أراد أن ينتضبه منه، فنهاه ربه عن ذلك، ومن لم فقد لشتره تسعة قناطير من الذهب (السمهودى): وفاة الوفا بأخبار دار المصطفى / ١ - ٢٤٣ ط القاهرة ١٣٢٠ هـ والتمن جد مثلاً فيه، بل إن رواية التوراة جعلت لثمنه هو والبقرة خمسين شاقلاً من الفضة صموئيل ثان ٢٤ / ٢٤.

(٤) صموئيل ثان ١ / ٧ - ١٧ - ٢٤ / ٢٦ - ٢٤، ملوك جود ٢ / ٢ - ٢ / ٢: وانظر: تفسير ابن كثير / ١ - ٥٨، تاريخ اليعقوبى / ١ - ٥٨، تاريخ ابن خلدون / ١ - ١١١، ابن الأثير / ١ - ١٢٧ - ١٢٨.

هذا فضلاً عن كميات كبيرة من الذهب والفضة والنحاس والحديد والخشب^(١).

وهكذا، وفي ربيع السنة الرابعة من عهد سليمان (حوالي عام ٩٥٧ ق.م) وضع الحجر الأساسي لبناء بيت المقدس الذي استمر العمل فيه قائماً على قدم وساق سبعة أعوام، ثم واصل مهرة الصناعة والفطنة العمل ثلاثة عشر عاماً بعد ذلك ليشيدوا صرحاً أكبر يسكن فيه سليمان ونساؤه^(٢).

هذا ولم يقدم لنا موقع للمعد أي دليل الاعتماد عليه لتحقيق تصميمه، ومن هنا فإن أية محاولة في هذه المجال لا تزيد عن كونها مجرد اجتهاد^(٣)، غير أن المعلومات التي يوفرها سفر حزقيال (٤٠ - ٤٤) للمعد الجديد، ربما تجعل في الإمكان استعادة تخطيطه، كما يمكن قول شيء عن شكله الخارجي وتنظيمه الداخلي^(٤)، ومن ناحية أخرى فإن المعلومات التي جاءت في سفر الملوك الأولي (١/٦ - ٣٨) إنما تشير بوضوح إلى التأثير المصري والعراقي، رغم الإشادة المستمرة بالمساعدة الفينيقية وبضخامة الإنفاق^(٥).

ونقرأ في التوراة أن سليمان عليه السلام، إنما أقام حقلاً كبيراً بمناسبة الانتهاء من بناء المسجد الأقصى، دعا إليه شيوخ إسرائيل وكل رؤوس الأسباط وإصحاد تابوت عهد الرب من مدينة داود، وأن الجميع، وعلى رأسهم سليمان، قد اجتمعوا أمام التابوت يذبحون من الغنم والبقر ما لا يحصى ولا يعد من الكثرة، وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت، في قدس الأقداس، وهنا ملأ الغمام بيت الرب، حتى أن ادخنة، ما كانوا يقادرون على أداء الطقوس الدينية، يعلن سليمان أن الرب إنما يسكن في الضباب^(٦)، ونقرأ في سفر الملوك

(١) أخبار أيام أول ٢/٢٢ - ١٦، أخبار أيام ثان ١٧/٢ - ١٨.

(٢) ملوك أول ١/٦ - ٢، ٣٧، ٢ - ٣٨، ٢/٧، ولطيف: تاريخ ابن خلدون ١١٢/٢ - ١١٣.

(3) J. L. Myres, Reconstructing Solomon's Temple and other Buildings and works of Art, PEQ, 80, 1948, p. 14 F.

P. L., Garlier, Reconstructing Solomon's Temple, BA, ١٩٥١, P. 2 F.

(4) O. Eissfeldt, op. cit., p. 598.

(٥) انظر: إيمان وحائين أبو يوي: المرحع السابق، ص ٢٦٧.

(٦) ملوك أول ١/٨ - ١٣.

الأول (٨ / ٢٢ - ٥٣) دعوات سليمان الحارة إلى الله تعالى، ثم ينهض من أمام المذبح، ويدها مبسوطتان إلى السماء، ليعلن أمام خراف بين إسرائيل الضالة «ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله، وليس آخر، فليكن قلبكم كاملاً لدى الرب إلهنا، إذ تسبرونه في فرائضه، وتحفظون وصاياه»^(١)، ثم يشكر الرب على أنعمه، التي أسبغها عليه وعلى بيت أبيه من قبل، سائلاً إياه سبحانه وتعالى أن يجيب دعوات بني إسرائيل حين يدعونه في هذا البيت، وأن يفسر لهم خطاياهم^(٢)، ثم تنتهي الاحتفالات بتقديم الذبائح لرب إسرائيل، والتي بلغت عدداً كبيراً جداً، وصل إلى «ثنتين وعشرين ألفاً من البقر، ومن الغنم مئة ألف وعشرين ألف، فذبح الملك وجميع بني إسرائيل بيت الرب»^(٣).

وعلى أية حال، فإن المسجد الذي بناه سليمان إنما قد دمر تماماً أثناء غزو «نبوخذ نصر» للقدس عام ٥٨٧ ق.م ونهب الغزاة القدس وأشعلوا فيها الحيران وأحرقوا القصر الملكي والمسجد، وهكذا ضاع كل أثر للمسجد، ومعه البقية الباقية من التابوت الذي كفت الروايات عن ذكره بعد نقله لمعبد سليمان^(٤)، ولم يستطع القوم إعادة البناء إلا عام ٥١٥ ق.م، على أيام الملك الفارسي «دارا الأول»^(٥)، ثم دمر المعبد الثاني هذا عام ٧٠ م على يد القائد الروماني تيتوس، وأضرمت النيران في المدينة، وهدم المعبد وضارعت آثاره تماماً، حتى أن الناس قد

(١) ملوك أول ٨ / ٦٠ - ٦١.

(٢) ملوك أول ٨ / ٢٥ - ٣٤.

(٣) ملوك أول ٨ / ٦٢ - ٦٥، ونظر: تاريخ ابن خلدون ٢ / ١١٣.

(٤) محمد يوسى مهران: إسرائيل ٢ / ٩٩٧ - ١٠٠٤، وكذا:

K. M. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, p. 291.

M. Noth, the History of Israel, London, 1965, p. 287. وكذا:

(٥) محمد يوسى مهران: إسرائيل ٢ / ١٠٣٦ - ١٠٤٩، وكذا: عزرا ٢ / ٧، ٦ / ١٥، قاموس

الكتاب المقدس ٢ / ١٠١٤، وكذا:

C. Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969,

M. Noth, op. cit., S. A. Cook, op. cit., p. 409، وكذا: p. 54 - 55

p. 314.

نسوا فيما بعد، إذا كان هذا المعبد على التل الشرقي أو الغربي من المدينة المقدسة^(١).

وفي عام ١٣٥ م استولى الروم على القدس، ثم أمر الإمبراطور «هديران» (١١٧ - ١٣٨ م) بتدمير المدينة تماماً وبني فوقها مدينة جديدة باسم «إيليا كابتولينا» (Aelia Capitolina) وأبدل المعبد القديم بمعبد آخر كرس للإله الوثني «جوبيتر كابتولينس» (Jupiter Capitolinus) ثم قام الرومان بمذبحة نهائية ختمت مصير اليهود في فلسطين، كدولة وكقومية، وانتهت بذلك علاقة اليهود بفلسطين سياسياً وسكانياً ودينياً^(٢).

(١) محمد يوسى مهران: إسرائيل / ٢ - ١١٥٠ - ١٥٥، وكنا:

C. Roth, op. cit., p. 103 - 107

W. Keller, the Bible as History, 1967, p. 388.

وكنا:

(٢) محمد يوسى مهران: إسرائيل / ٢ - ١١٥٥ - ١١٥٨، وكنا:

H. Strathmann, P JB, 23, 1927. p. 92 F

وكنا:

A. Schulten, ZDPV, 56, 1933, p. 180 F

وكنا:

M. Noth, op. cit., p. 453 - 454.

(٢) السامرة:

كان «عمري» ملك إسرائيل (٨٧٦ - ٨٦٩ ق.م) يحكم من «نرزه» (نرصة)، ولكنه في عام حكمه السادس اشترى تلاً في قلب الهضبة السامرية ممن يدعى «شامر» بوزنتين من فضة، وأقام عليه عاصمته الجديدة وسماها «السامرة» - وهي سبسطية الحالية على مبعده ١٠ كيلاً شمال غرب شكيم - نسبة إلى «شامر» صاحب التل، وإن كان هناك من يرى أن الاسم بمعنى «مركز المراقبة» أو «جبل المراقبة أو الحراسة».

هذا وقد قامت عدة هيئات علمية بحفريات في السامرة، أثبتت أن موقع المدينة إنما قد كشف عن خبرة من اختاره بالاعتبارات الاستراتيجية، فالسامرة تقع على تل منززل يقرب ارتفاعه من ٥٠٣ قدم، ويرتفع تدريجياً من وادٍ متسع حصب، وتحيط به شبه دائرة من الجبال العالية، كما أن هناك ينبوعاً محلياً يجعل المكان مثالياً في حالة الدفاع.

هذا فضلاً عن أن السامرة إنما كانت تقع على الطريق الرئيسي من الشمال إلى الجنوب، وفي حماية من أى هجوم يقع عليها من ناحية يهوذا - الدولة اليهودية الأخرى المعادية لها - وعلى اتصال بسهل فينيقيا، في وقت كان فيه عمري راغباً في إقامة علاقات مع مدن فينيقيا، حتى أنه زوج ولده «أخاب» من «إيزابيل» ابنة أمير صور، كما كانت أيضاً على اتصال بالجزء الغربي من دولته، حيث تقع أغني أراضيها، هذا إلى جانب أن السامر إنما كانت - شأنها في ذلك شأن أورشليم عاصمة يهوذا - تتحكم في الطريق الرئيسي، من الشمال إلى الجنوب، على امتداد خط تقسيم المياه، وأخيراً فهناك ممرات صالحة بدرجة مقبولة تؤدي إلى الأردن من ناحية الشرق، وأخرى تؤدي إلى الساحل والبحر المتوسط من ناحية الغرب.

هذا وقد تم تخطيط السامرة على أن تكون الحي الملكي - وهي سنة جديدة في تخطيط المدن الفلسطينية، وجد لها مثيل دون شك في تخطيط أورشليم على أيام سليمان عليه السلام، غير أن الدليل الأول والمؤكد على ذلك إنما جاء إلينا من السامرة - ويبدو أن الحي الملكي في مدينة عمري هذه، إنما كان منطقة يمكن الدفاع عنها بسهولة، ذلك لأنها إنما قد أحيطت في المرحلة الثانية على

الأقل بسور قوى، كما أن تخطيط الحي لا يجعل منه مركزاً لتجمعات مدنية، بقدر ما يجعل منه منطقة ملكية مقصورة على الملك وحاشيته.

وعلى أية حال، فلقد ظلت السامرة عاصمة لدولة إسرائيل، حتى سقطت في أيدي الآشوريين في أخريات عام ٧٢٢ ق.م، ونقرأ في حوليات العاهل الآشوري «سرجون الثاني» (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) قوله «في بداية حكمي، وفي السنة الأولى حاصرت السامرة واستوليت عليها، ونفيت من أهلها ٢٧, ٢٩٠ مواطناً، واستوليت على خمسين عربة من السلاح الملكي، ثم ملائمتها بـ ١٢٠٠٠ رجل، مما كان بها، فأحللت بها مواطنين جددًا من بلاد كنت قد استوليت عليها، وعينت حاكماً عليها، وفرضت عليها الجزية والضرائب، كما يفعل الآشوريون. وهكذا سقطت السامرة في أوائل السنة الأولى من عهد «سرجون الثاني»، وأن ذلك ربما قد حدث بعد فترة ما من ديسمبر عام ٧٢٢ ق.م، بل إن هناك من يذهب إلى أنها سقطت في عام ٧١٥ ق.م، ومن يذهب إلى أنها سقطت في عام ٧١١ ق.م.

وأياً ما كان الأمر، فإن الآشوريين قد أعادوا تنظيم مملكة السامرة، على أساس أنها إقليم آشوري، يخضع لإمرة حاكم آشوري، وعززوا الحاميات العسكرية الآشورية بجنود مستوطنين، أتواهم من بلاد بعيدة، حدث لها ما حدث لفلسطين من غزو آشوري، غير أن هؤلاء المستوطنين الجدد سرعان ما تزوجوا مع السكان الأصليين، وهجروا عاداتهم وتقاليدهم إلى حد ما، ثم سرعان ما ظهر جنس جديد، عرف في التاريخ اليهودي باسم «السامريين» نسبة إلى السامرة هذه، وهو جنس قريب الشبه بجيراته «اليهوديين». دما وثقافة، وإن اختلفوا عنهم في ميولهم السياسية.

وهكذا بدأت السامرة تفقد أهميتها شيئاً فشيئاً، غير أن «هيرودوس» (٣٧ - ٤ ق.م) حاكم اليهودية من قبل الرومان، إنما بدأ يهتم بالسامرة، بل وجعلها مقره المحبب، ومن ثم فقد زينها بالأبنية وأعاد تسميتها باسم «سبسطية» (Sebaste) أي «مدينة أغسطس» تكريماً لأوغسطس قيصر (٢٧ ق.م - ١٤ م)، ذلك لأن كلمة «سبستوس» (Sebastos) اليونانية، تعني «أوغسطس» (Aguustus) في اللاتينية^(١).

(١) محمد يسوي مهري. إسرائيل ١٩٠٠/٢ - ٩٠٣، ٩٤٥ - ٩٤٨، ١١٤٤. ملوك أول
٢٤-٢٣/١٦، ملوك ثان ٢٤/١٧.

(٣) أريحا:

أريحا، ومعناها مدينة القمر - أو مكان الروائح العطرية - وهي مدينة هامة تقع على مبعدة ٨ كيلا غربى نهر الأردن، ٢٧ كيلا شمال شرقى القدس، أما أريحا التى جاء ذكرها فى التوراة (يشوع ٢-٤) فموضعها «تل السلطان»، على مبعدة كيلو ونصف من أريحا الحديثة، والتى تدعى «الريحا»، وتلطل أبو العليق على مبعدة كيلو ونصف غربى أريحا الحديثة.

وقد أثبتت الحفريات الحديثة التى أجريت فى تل السلطان أن أريحا واحدة من أقدم مدن العالم، فلقد عثر فى أريحا (جريكو - Jericho) على آثار للحضارة النطوفية - نسبة إلى وادى النطوف شمال غربى القدس - بصورة متصلة تؤكد صفة الانتقال الفعلى نحو مرحلة الإستقرار وإنتاج الطعام، ويمكن استخدام اصطلاح «ماقبل النيوليتيه» (Proto- Neolithic) بالنسبة لتلك المرحلة السابقة للعصر الحجرى الحديث.

ولعل من أهم آثار تلك الفترة فى أريحا مبنى محاط بحيطان حجرية تختلف العلماء فى تفسيره، وأغلب الظن أنه يمثل معبداً يقع بجوار نبع أريحا (جريكو)، ومن ثم فقد حاول البعض الربط بين هذا المعبد النطوفى وبين موضوع تقديس الماء، هذا ونظراً لوجود آثار حريق فى ذلك المعبد، فقد استخدمت بعض الآثار

W.F. Albright, BAŞOR, 150, 1958, p. 21- 25.

= ركذا

J.Finegan op, cit, p. 185, 210, 285

ركذا

K.M.Kenyon, Archdeology in The Holy Lond, London, 1970, p. 260-263.

G.E. Wright , Samaria, BA, 27, 1959, ركذا ANET, 1966, p. 284 ركذا
p. 65- 67.

A G.Lie, The Inscriptions of Sergon, II. Part, I, The Annalas, 1929, p. 5

G.A.Reisner, C.S.Fisher and D.G. Lyon, Havard Excavations at Samaria, 1908- 1910 , 2 Vols, 1924

M.Nothe, op.cit, p. 230 ركذا

M.F.Unger, op.cit, p. 470- 474 ركذا

Pliny, V, 14, ركذا

Strab, XVI, 2, 27 ركذا

المتفحمة المتخلفة عن الحريق في التاريخ عن طريق الكربون المشع، وقد نتج عنها التقويم الزمني (٢١٠ ± ٧٨٠٠ ق.م) وإن كان العلماء لا يعتمدون هذا التاريخ بصفة نهائية.

هذا وقد كشف في أريحا عن فخار مزين برسوم، ربما يمكن تأريخه بأواسط الألف الخامسة قبل الميلاد، وهو على أية حال يعتبر أقدم فخار في فلسطين، وطبقا لرواية التوراة، فلقد كانت أريحا أول المدن الكنعانية التي انجذبت صوبها أنظار يهود - بقيادة يوشع بن نون - وأول مدينة وقعت تحت أيديهم^(١).

هذا وكان أول من قام بالحفر في أريحا: إيرنت سيلين، وكارل فزنجر، في الفترة (١٩٠٧ - ١٩٠٩ م) ثم جون جارستانج في الفترة (١٩٣٠ - ١٩٣٦ م) ثم مس كاتلين كتيون، منذ عام ١٩٥٢ م^(٢).

(٤) أشدود:

أشدود إحدى مدن الفلسطينيين (برست - بلستي) الخمس، والتي سمح الفرعون «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) لهم بالإقامة فيها بعد هزيمتهم - مع شعوب البحر - هزيمة منكرة في معركتين، الواحدة برية، والأخرى بحرية، وتقع أشدود - وهي أشدود الحالية - على مبعدة ٢٥ كيلا شمال شرق غزة، وفي منتصف المسافة تقريبا بين غزة ويافا.

وأما بقية المدن الخمس فهي «عقرون»، على مبعدة ١٨ كيلا جنوب يافا

(١) رشيد الناضوري: جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا - بيروت ١٩٦٨ من ١١٧ - ١١٩، ١٢٠، ١٤١، قاموس الكتاب المقدس ٥٩/١.

K.M.Kenyon, op.cit, p. 31-41.

وكنا

K.M.Kenyon, in PEQ, 1952, p. 62 - 82, 1953, p. 18 - 95, 1954, p. 45 - 63, 1955, p. 108-177, 1956, p. 67- 82.

(2) E.Sellin and C.Watzinger, Jericho, 1931.

J. and J B.E. Garstang, The Story of Jericho, 1940.

K.M.Kenyon, Archdeology in The Holy Land, London, 1970, p. 13 - 43.

K.M.Kenyon in PEQ, 1952- 82, p. 62 - 82, 1953, p. 18 - 95, 1954, p. 45- 63, 1955, p. 108 - 117, 1956, p. 67 - 82.

وأما «جت» فأغلب الظن أنها «تل عراق المنشية»، الحالية، على مبعده ١٠ كيلا غرب بيت جبرين، و«عسقلان» (أشقلون)، على مبعده ١٠ كيلا شمال غزة، وأخيرا مدينة «غزة» المشهورة، والتي كانت تمثل التخم الجنوبي لكتعان^(١).

(٥) أفيق:

تقع أفيق الآن في مكان «تل المخيمر» الحديثة، قرب رأس العين عند منبع نهر العوجة، وعلى مبعده ١٥ كيلا شرقي حيفا، وقد عرفت فيما بعد «أنتياتريس»، وفيها كانت أولى المعارك الكبرى بين الفلسطينيين والإسرائيليين، والتي انتصر فيها الفلسطينيون ودمروا معبد شيلوه، وأخذوا تابوت العهد، وكانت هزيمة بني إسرائيل مروعة، حتى أن النبي إرميا يقول - بعد أربعة قرون من حدوث المعركة - «إن معبد شيلوه الذي كان مقر التابوت قد دمر، وأنه حتى عصره (٦٢٦ - ٥٨٠ ق.م) كان يمكن رؤية خرائب المعبد»^(٢).

(٦) أدام المدينة:

وتقع الآن في مكان «تل الدامية»، على مبعده ١/٢ كيلا جنوبي اتصال نهر يبرق بالأردن، وطبقا لرواية التوراة في يشوع (١٦/٣) عبر يشوع الأردن ببني إسرائيل «حيث قامت المياه المنحدرة من فوق، وقامت ندا واحدا، بعيدا جدا عن أدام المدينة»، وإن كان هناك من يذهب إلى وجود جرف من الحجر الجيري، يكون عند الزلزال شقا في النهر يسده تماما لفترة من الوقت، الأمر الذي يمنع تدفق الأردن لمدة تزيد عن عشرين ساعة، وقد حدث ذلك في عام ١٩٣٧ م^(٣).

(٧) قرصة:

تقع قرصة (ترزة) في مكان «تل الفارعة» الحالية، على مبعده ١١ كيلا

(١) محمد بهومي مهران: إسرائيل ٢. ٥٧٨. ٥٩٣ - ٥٩٤.

(٢) إرميا ١٢/٧ - ١٤. ٩. ٦/٢٦.

وكتا: W.F.Albright, Archaeology and The Religion of Israel, Baltimore, 1963, p. 103, F. 202.

(3) J.Garstang, Joshud, Judges, The Foundations of Bible History, 1931, p. 136F.

ركتا: J.Finegan, op.cit, p. 155.

شمال شرق شكيم، وكنا، «يريمام الأول» (٩٢٢ - ٩٠١ ق.م) قد اتخذها عاصمة له، بدلاً من «قنويل» (تلل الذهب) - بعد انفصال إسرائيل عن يهوذا في أعقاب موت سليمان عليه السلام - ثم ظلت «فرصة» عاصمة لإسرائيل، حتى السنة السادسة من حكم «عمري» (حوالي عام ٧٨٠ ق.م) (١).

(٨) تعنك:

تعنك (ناعاناخ - ناعانا) مدينة هامة، تقع على مبعده ٨ كيلاً، جنوب شرق مجدو، على الطرق الجنوبي من سهل يزرعيل.

(٩) بئر سبع:

مدينة تقع في صحراء النقب جنوبي فلسطين، وينسب تأسيسها إلى الكنعانيين، وطبقاً لرواية التوراة فهي تكون الحد الجنوبي لمملكة إسرائيل، حيث كانت تمتد في أقصى اتساع لها «من دان إلى بئر سبع»، كما جاء في أسفار القضاة (١/٢٠) وصموئيل أول (٢٠/٣)، وأخبار أيام أول (٢/٢١).

(١٠) بيت إيل:

اسم عبري معناه «بيت الله»، ومكانها الآن «برج بيتين» على مقربة من بيتين الحالية، على مبعده ١٦ كيلاً شمالاً أورشليم القدس، وطبقاً لرواية التوراة، فقد كان اسمها «لوز»، ثم سماها يعقوب «بيت إيل»، وقد بقي فيها تابوت العهد حيناً من الدهر، وبعد إنقسام المملكة أقام فيها «يريمام الأول» أحد «المجطين الذهبيين»، والثاني في دان، والأرجح أن هذا السبب هو الذي حمل النبي هوشع على أن يسميها «بيت أون» أي بيت الأصنام (تكوين ١٩/٢٨، هوشع ٨، ٥/١٠).

(١١) بيت شان:

وتقع الآن في «تل الحصن» في مجاورات «بيسان»، على مبعده ٨ كيلاً

(١) محمد بهومي مهران: إسرائيل ٧٥٥/٢، ٨٩٣.

وكنّا M.F.Unger, H.Kee and L.Toornlis, BA, 1957, p. 82 - 105
op.cit, p. 843, 1102.

غربى نهر الأردن، وقد عثر فيها على كثير من الآثار المصرية، وخاصة من عهد الدولة الحديثة، (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق م) كما كانت على أقدام سليمان عليه السلام إحدى المدن التى أقام فيها حطائر الغيل، شأنها فى ذلك شأن مجدو وحاصور وتعنك وأورشليم^(١).

(١٢) بيت لحم:

وتقع على مسعدة ٨ كيلا جنوبى القدس، وكانت مدفن راحيل أم يوسف عليه السلام، وهى مسقط رأس داود عليه السلام، ومدفن آل يؤاب، وفيها ولد المسيح عليه السلام، لأن أمه مريم العذراء، والمولودة فى الناصرة، إنما كانت هناك للإكتساب، فحان وقت ولادتها هناك، وقد بنت الإمبراطورة «هيلانة» حوالى عام ٣٣٠ م كنيسة هناك، فرق المغارة التى يظن أن المسيح قد ولد فيها - وهى أقدم كنيسة فى العالم - كما ذهب إلى ذلك كثير من الباحثين، من أمثال المؤرخ أوسبيوس، والفيلسوف جيريوم (٢٤٥ - ٤٢٠ م). غير أن القصة - كما جاءت فى إنجيل لوقا (٧/٢) - إنما تشير صراحة إلى أنه ولد فى «المذود»، كما أن القرآن الكريم إنما يشير إلى أنه ولد عند جذع نخلة (مريم: آية ٢٣)، ومن ثم فالصحيح أنه عليه السلام ولد عند جذع نخلة، ربما عند بيت لحم، وليس فى مغارة^(٢). قال تعالى: «فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة، قالت: ياليتنين مت قبل هذا، وكنت نسيا منسيا»^(٣).

(١) قاموس الكتاب المقدس ٣٠٢/١، وكنا: J.W.Crowfoot, in PEQ, 1940, p. 143 - 147.

W.F.Albright, The Archaeology of Palestine, London, 1949, p. 124.

(٢) محمد يوسى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الثالث - فى بلاد الشام - بيروت ١٩٨٨ ص ٢٨٥ - ٣٠٦ تكوين ١٩/٣٥، صموئيل أول ١٢/١٧، متى ١٢-١٢، لوقا ٤/٢-٣٥، قاموس الكتاب المقدس ٢٠٥/١ - ٢٠٦، صموئيل ثان ٢٢/٢ وكنا: M.F.Unger, op.cit, p. 140 - 141.

(٣) سورة مريم: آية ٢٣، وانظر: تفسير ابن كثير ١٨٧/٣ - ١٨٩، تفسير القرطبي ص ٤١٢٨ - ٤١٣٧، فى ظلال القرآن ٢٣٠٤/٤ - ٢٣٠٨، صورة التفاسير ٢١/٤١٧، تفسير الطبري ١١٦/٧٧-٧٧، التفسير الكبير ٢٠٧/٢١ - ٢٠٨، تفسير النخلى ٣١/٣ - ٣٥.

(١٣) جبع:

تقع جبع على مبعدة ٢ كيلا شرقى الرامة، وقد أصبحت منذ عهد «بعشا» (٨٧٧-٩٠٠) حداً ثابتاً بين دولتى إسرائيل (إسرائيل ويهوذا)، ومن ثم نرى على أيام «يوشيا» (٦٤٠ - ٦٠٩ ق.م) ملك يهوذا، أن جبع سائرال مدينة الحدود الشمالية، حيث نقرأ فى التوراة عن حدود يهوذا أنها «من جبع إلى بحر سبع» (ملوك ثان ٨/٢٣) (١).

(١٤) جبعون:

تعرف جبعون الآن باسم «الجيب»، وتقع على مبعدة ١٢ كيلا شمال غرب القدس، وقد بدأت فيها جامعة بنسلفانيا والمدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية، حفريات منذ عام ١٩٥٦م، وهناك فى الجنوب الشرقى من قرية الجيب نبع ماء يتصل بخزان صناعى، سعى فى التوراة «بركة جبعون»، وطبقاً لرواية التوراة، فلقد حدثت فى بركة جبعون قصة وقوف الشمس عن المغيب، والقمر على وادى أيلون من أجل يشوع (٢).

(١٥) جازر:

وهى تل الجزر الحالية، على مبعدة ٢٨ كيلا شمال غرب القدس، ٨ كيلا شرقى عقرون، ٢٦ كيلا جنوب شرق حيفا، ونقرأ فى التوراة أن فرعون قد أخذ جازر وأعطاهامها مهراً لابنته امرأة سليمان ومن ثم فقد أصبحت الأميرة المصرية السيدة الأولى فى مملكة سليمان، أو الزوجة الرئيسية، كما كانوا يسمونها، على أن المؤرخين إنما يتشككون كثيراً فى قصة التوراة هذه، وذلك لأننا لانتفى بما يؤكدنا من الجانب المصرى، وأما الشك من الناحية التاريخية، فإنه - حتى وإن حصر فى حدود ضيقة نسبياً - إلا أنه يكفى للتشكيك فى أى الفراعين هو المقصود هنا، هذا وقد قام جدل طويل حول الفرعون الذى صاهر سليمان، عليه

(١) محمد يوسى مهران: إسرائيل ٨٩٧/٢ - ٨٩٨، وكنا - M.Noeth, op.cit, p. 235 - 236.

(٢) يشوع ١٢/١٠ - ١٤، صموئيل ثان ١٣/٢، وكنا - J.Finegan, op.cit, p. 160.
J.B.Pritchard, BA, 19, 1956, p. - 75, UMB, 21, 1957, p. 3 - 26,
1958, p. 12 - 24.

السلام، وأعطاه مدينة جازر، مهراً لابنته، فمن قاتل إنه «هوسينس الثاني»، ومن قاتل إنه شيشنق الأول، هذا إلى أن اسم «تجنيس» لا يستطاع مطابقتها على نظير له بالهيريوغليفية، وغازر، على أية حال، هي القلعة الكنعانية القديمة، وواحدة من أهم المراكز التجارية في الشرق الأدنى القديم^(١).

(١٦) حبرون:

تقع حبرون على مبعدة ٣٠ كيلا جنوب غرب القدس، ١٩ كيلا جنوب غرب بيت لحم، وحبرون هي الآن «مدينة الخليل»، وفيها قبر إبراهيم الخليل والسيدة سارة وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وقد أقيمت كنيسة في عصر «جستينان» (٥٢٧ - ٥٦٥ م)، وفي ذلك المكان يقوم اليوم مسجد كبير، هو «الحرم الإبراهيمي» وحبرون تعتبر من أقدم مدن العالم التي ما تزال أهلة بالسكان^(٢).

(١٧) حاصور:

تقع حاصور - وهي تل القدح الحالية - على مبعدة ٥ كيلا جنوب غرب بحيرة الحولة، وقد كشفت الحفائر فيها عن بقايا لمباني سليمان عليه السلام، لم نشر إليها التوراة، فضلا عن حفائر الخيل، وهي على أية حال، مدينة كنعانية هامة^(٣).

(١٨) دان:

تقع دان - وهي تل القاضي الحالية - على مبعدة ٤ كيلا غرب بانياس، عند سفح جبل حرمون، حيث منابع الأردن، وهي تكون الحد الشمالي لإسرائيل، كما تكون «بحر سبع» الحد الجنوبي، وذلك طبقا لرواية التوراة عن أقصى ما وصلت إليه مملكة إسرائيل على أيام داود وسليمان، عليهما السلام^(٤).

(١) وكذا M.F.Unger, op.cit, p. 401, 601 وكذا A.Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 329

وكذا O.Eissfeldt, op.cit, p. 595 وكذا C.Roth, op.cit, p. 21

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٢٨٦/١ - ٢٨٧، وكذا M.F.Unger, op.cit, p. 465- 466

(٣) ملوك أول ١٥/٩، وكذا O.Eissfeldt, op.cit, p. 595

(٤) لقضاة ١/٢٠، صموئيل أول ٢٠/٣، قاموس الكتاب المقدس ٣٥٦/١ - ٣٥٧، وكذا محمد

بيومي مهران: إسرائيل ٧١٨/٢، ٨٠٨، وكذا M.F.Unger, op.cit, p. 236

(١٩) الناصرة:

إسم عبري، ربما بمعنى القضيبي أو الحارسة أو المحروسة أو المحبوسة، وقد ذكرت في أناجيل: متى (٢٣/٢) ولوقا (٢٦/١) وهي مدينة في الجليل (مرقس ٩/١) - أي في النجره الشمالي من فلسطين - وهي تقوم على جبل مرتفع يمكن أن نرى منه جبل الشيخ والكرمل وطابور ومرج ابن عامر.

وتقع على مسبعة. حوالي ٢٣. كيلا. غربي بحيرة طبرية، وحوالي ٣١. كيلا شرقي عكا، وحوالي ١٣٦ كيلا شمالي القدس.

وفي الناصرة ولد يوسف ومريم (لوقا ٣٩/٢) وفيها ظهر الملاك لمريم يشهرها بأنها ستكون أم المسيح (لوقا ٢٦/١-٣٣)، وعاش أكثر عمره فيها، ومن ثم فقد لقب «يسوع الناصري» (متى ١١/٢١، مرقس ١٤/١).

هذا وقد سمي أتباع المسيح عليه السلام «بالنصارى»، وهو إسم أطلقه عليهم اليهود، نسبة إلى «الناصرة» - بلد المسيح عليه السلام - وربما كان للكلمة صلة «بالناصريين»، وهي فرقة يهودية قديمة متصورة.

وبهذا المعنى وردت الكلمة في القرآن الكريم^(١)، ومن فقد أصبحت «النصرانية». علما على ديانة المسيح عند المسلمين^(٢)، وهنا حاول بعض علماء اللغة تفسير الكلمة على أنها نسبة للناصرة التي يتنسب إليها السيد المسيح عليه السلام^(٣)، بينما ذهب آخرون إلى أنها نسبة إلى قرية يقال لها «نصران»، وهكذا قيل نصراني، وجمعه نصاري^(٤).

(١) أنظر: سورة البقرة: آية ١١٣، ١٢٠، ١٣٥، ١٤٠، المائدة: آية ١٤، ١٨، ٥١، ٦٩، ٨٣، التوبة: آية ٣٠، الحج: آية ١٧، وأنظر: تفسير الطبري ١٤٣/٢ - ١٤٥ - ١٥٠/١٠ - ١٥٤، ٣٩٥ - ٤٠٣، ٤٩٨ - ٥٠٦، تفسير ابن كثير ٥٢٨/٢ - ٥٣٠، ٦١٣ - ٦٢٣، تفسير الكشاف ٦٠٢/١ - ٦٣١ - ٦٣٢، ٦٣٧ - ٦٣٨، تفسير القطراني من ٢١١٧ - ٢١١٨، ٢٢١٣، ٢٢٤٣ - ٢٢٤٤، ٢٢٥٢ - ٢٢٥٥، تفسير روح المعاني ٢٠٠/٦ - ٢٠٦، ٢٠٧ - ٢٠٨، تفسير المنار ٢٥٣/٦ - ٢٦٤، ٢٥٤ - ٢٩٤، ٢٩٦، تفسير أبي السعود ٢٥/٢ - ٣٦، ٤٦ - ٤٧.

(٢) جواد على ٥٨٣/٦.

(٣) اللسان ٦٨/٦، جواد على ٥٨٣/٦.

(4) J.Hastings, Dictionary of The Bible, Edinburgh, 1936, p. 192.

وهناك من يرى أنهم سموه «نصارى» أو «أحدهم» «نصران» لنصرة بعضهم البعض، وتناصرهم فيما بينهم، بينما يذهب آخرون إلى أن السبب في التسمية أنهم نزلوا أرضاً يقال لها «ناصر»، ويسمى أصحابها الناصريون بينما يسمى عيسى الناصري (أنظر تفسير الطبري ١٤٣/٢ - ١٤٥، تفسير القرطبي ص ٣٦٩، تفسير النسفي ٥٢/١).

(٢٠) يابيش جلعاد:

تقع على جبال جلعاد، على مسبعة ١٦ كيلاً جنوب شرق «بيت شان» (بيسان)، ويظن أنها «تل أبو خرز» شمال وادي ييش (أنظر: قضاة ٨/٢١، صموئيل أول ١١، عدد ١٤).

(٢١) يافا:

إسم كنعاني معناه «جمال» وتقع على شاطئ البحر المتوسط، على مسبعة ٥٦ كيلاً شمال غرب القدس، وهي من أقدم مدن العالم، وقد تعرضت للإحتلال على مر العصور، وأحتلها المصريون والفلسطينيون من شعوب البحر، والآشوريون والآغاثة والمكايون والرومان وغيرهم.

(٢٢) شعليم - أوسعليتم:

مدينة فلسطينية سكنها الأموريون، وربما هي الآن «سليطة» على مسبعة ٥ كيلاً شمال غربي عجلون، وقد جاء عنها في التوراة «وحصر الأموريون بني دان في الجبل لأنه لم يدعوهم ينزلون إلى الوادي، فعزم الأموريون على السكن في جبل حارس في أيلون، وفي شعليم، وقويت يد بيت يوسف فكانوا تحت الجزية وكان تخم الأموريين من عقبة عقر يوم من سابع فصاحده» (أنظر: قضاة ٣٤/١ - ٣٦، قاموس الكتاب المقدس ٥١١/١).

(٢٣) لخيش:

لخيش: أو لاختيش أو لاكيش: وكان يظن أنها «تل الحصى» (تل الحصى) على مسبعة ٢٥ كيلاً إلى الشمال الشرقي من غزة ١٦ كيلاً إلى الجنوب الغربي من مدينة جبرين، ويرجح الآن أنها «تل الدوير» على مسبعة ٨ كيلاً غرب بيت جبرين (أنظر: W.M.F.Petrie, Tell el - Hesi (Lachish), London, 1891. وكلها M.F.Albright, in ZAW, 6, 1929, p. 3.

الفصل الثاني

لبنان

المدن الفينيقية

تقديم:

تمد فينيقيا واحدة من أصغر دويلات العالم القديم، وهي تشغل من الناحية الجغرافية شريطا ساحليا ضيقا كان يمتد من جبل الاقرع (كاسيوس) شمالا، إلى جبل الكرمل جنوبا، ومن أرواد (وتسمى خرائبها اليوم طرطوس شمال حميرت) إلى عكا (عكو بمعنى الرمال الحارة) ولا يزيد طوله على ٢٢٠ كيلا، كما لا يزيد عرضه على ٥٦ كيلا، وهو غنى بالخلجان، وبه عدد من الثغور، وترتفع إلى جانبيه من ناحية الشرق جبال شامخة تغطيها الغابات من أشجار الأرز والصنوبر والسرو، وتفصل الخلجان الرؤوس البارزة في البحر عن بعضها البعض.

وتظهر بالقرب من الشاطئ بعض الجزر التي كان لها كذلك شأن في تاريخ هذه البقعة، ذلك لأنها كانت عامرة بالقرى والمدائن، شأنها في ذلك شأن الساحل نفسه، بل إن أهميتها تفوق الساحل في أحيان كثيرة^(١).

وعلى أية حالة، فلقد كان الفينيقيون محصورين في شريط من الأرض على شيء كثير من الضيق، ذلك لأن جبال لبنان لا تبعد عن البحر أكثر من ٥٠ كيلا، بل يقترب الجبل من البحر في بعض المواضع فيصير على بعد ما بين ١٩، ٢٤ كيلا، وفي بعض المواضع يلاصق الجبل البحر.

هذا فضلا عن أن هذا الشريط الضيق من الأرض مقسم طولاً إلى عدة أقسام منفصلة بعضها عن بعض بامتدادات جبلية ناتئة من جبال لبنان، ورواصلة إلى ساحل البحر، وهذا الامتداد الفاصل حاجز حقيقي تنشأ عنه أقاليم مختلفة، ثم أكثر هذه الامتدادات الناتئة عند الجبل تنتهي عند البحر بانحدار عمودي لا يدع مكانا لطريق يوصل بين جانبيها، وهكذا كان الحال قديما، أو كان ما وجد على أكثر تقدير، طريق ضيق منحوت في جنب التواء.

(١) نجيب ميخائيل - مصر والشرق الأدنى القديم - الجزء الثالث - سورية - الإسكندرية ١٩٦٦، ص

ولعل من خير الأمثلة على ذلك، رأس الكلب، وهو رأس يقع شمال بيروت (وهي بعرونا في رسائل الممارنة، بمعنى الأبار)، ويوجد قرب قمته آثار طريق ضيق، وفي أسفل الطريق الذى سلكه الفاتحون المصريون والاشوريون والروم، وكل منهم قد ترك على الطريق نقوشا تخلد ذكره. وكان البحر أسهل طريق للمواصلات بين كل بلد وآخر، وهذا الإنقسام انما كان أحد الاسباب التى جعلت فينيقيا لا تصلح أن تكون دولة حقيقية، فصارت عبارة عن دهرلات صغيرة، يسود بعضها البعض الآخر، طبقا للزمان والظروف السياسية والاقتصادية.

هذا وتعتبر فينيقيا بمثابة ممر ضيق بين أفريقيا واسيا، لأن صحراء سورية الكبرى الواقعة وراء جبال لبنان إقليم لا يمكن اجتيازه عمليا، وعكس ذلك من ناحية فلسطين فى الجنوب، إذ تصل فينيقيا بشبه جزيرة سيناء ثم إلى داخل مصر نفسها، أما فى الشمال فالإتصال ممكن بأعلى وادى دجلة والفرات.

ومن هنا الوضع ندرك كيف كانت فينيقيا غير قادرة على أن تبقى منعزلة محايدة لئلا المنافسات التى مجاذبت العالم القديم، وكان عليها أن تصطلى بها، أو أن تتحاز إلى فريق منها، وكان ضمها ضرورة من الضرورات التى تخرص على تأمينها كل إمبراطورية كبيرة، لعظم الموارد التى تنتج من تجارتها، ولمنفعة الأسطول الذى يجده الفاتح بها.

وكان انحيازها إلى فريق من الفريقين المتحاربين ذا فائدة حرية أيضا، فهى لمن ملكها باب مفتوح على أفريقية وعلى أسيا على السواء، وهى تفر يحتوى من وراءه به، ويتخذ فى نفس الوقت قاعدة لما يقدر من الغزو والتوسع^(٢).

وهكذا تآثر الفينيقيون إلى أبعد الحدود بالبيئة التى عاشوا بها، واستجابوا لها استجابة كاملة، فشكلت تاريخهم وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ذلك لأن الوطن الفينيقي الممتد على سواحل الشام على صورة شريط ضيق يقع بين البحر من الغرب، والصحراء من الشرق، أصبح بمثابة قطرة يعبرها الغزاة الآسيويون القادمون من منطقة الجزيرة قبل نزولهم إلى وادى النيل، كما تعبرها القوات المصرية القادمة من الوادى تتعقب الغزاة، وهم فى طريق فرارهم بعد دفعهم عن حدود مصر.

(٢) ج. كوتندو: الحضارة الفينيقية - ترجمة د. محمد عبد الهادى شميرة، ومراجعة د. طه حسين - القاهرة - ص ٢٨ - ٢٩، ٣٤.

وكانت الجيوش المصرية تطرق بلادهم باستمرار، محاصريهم ولذك قلاعهم، وتحملهم أسرى إلى مصر يسخرهم فرعون فى الأعمال التى يريد، وقد سجلت الآثار المصرية والوثائق المصرية هذه الصلة الوثيقة بين فينيقيا ومصر، وما كادت الشعوب السامية النازلة فى وادى الدجلة والفرات نفيق وتتطلع إلى السيادة على الشرق الأدنى حتى اتجهت صوب فلسطين، وكانت جيوشها الغازية تطرق هذه الفتطرة الساحلية، وتفعل بها مثل ما فعله المصريون من قبل.

وهكذا أصبح الوطن الكنعاني الفينيقي فى مهب التيارات العالمية، بين قوى عالمية كبرى، قامت فى وادى النيل، وفى وادى الدجلة والفرات، وفى آسيا الصغرى، ورتب على هذا الوضع نتائج بعيدة الأثر، إذ لم يستطع الكنعانيون أن يقيموا دولة موحدة، تسد هذه التيارات وتضع حدا لهذا النفوذ الاجنبى^(٣).

وهكذا حددت خصائص المنطقة الجغرافية مصيرها التاريخي، فتركز طرق المواصلات الأساسية بين ثلاث قارات فى هذا القطاع الضيق من الأرض إنما كان يعنى أنه قدر لهذا القطاع أن يكون مسرحا لسلسلة من الهجرات والغزوات، دون أية فرصة دائمة لإنشاء نظم سياسية قوية، فقد كانت فينيقيا أرض تجارب للمطامع والمنافسات التجارية والحربية للدول الكبرى والتى كانت تقع بينها، وكانت الشعوب المهاجرة تندفق عليها مرة بعد أخرى، لأنها كانت منطقة جذابة فى حد ذاتها لخصبها، ويمكن دخولها من كل جانب، وكانت مفتوحة أمام مصر وأرض الرافدين وآسيا الصغرى والبحر المتوسط، فضلا عن الصحراء التى جاء منها البدو الساميون^(٤).

وانطلاقا من كل هذا، وتخريجا عليه، لم يستطع الفينيقيون، بل لم يستطع السوريون جميعا، أن يشكلوا وحدة سياسية واحدة، كمصر، وإنما وحدات صغيرة تعيش فى مدن محصنة ذات أسوار عالية، وأبراج كبيرة، يلجأ اليها السكان وقت الخطر، ويحمون بأسوارها، ويتخذونها وقت السلم أسواقا لتجاريتهم.

على أن قيام هذه المدن المحصنة، وإن كان أحسن وسيلة للتجأ اليها الفينيقيون

(٣) حسن محمود وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم - القاهرة من ٢٨٨ - ٣٨٩.

(٤) ستيفر ميسكاتى: الحضارات السامية القديمة - ترجمه وزاد عليه السيد بمقرب بكر، القاهرة ١٩٦٨ ص ١٢٢.

لصد غارات الدول المجاورة أو غارات البدو المجاورين، إلا أن تقسيم البلاد إلى مدن صغيرة يحارب بعضها البعض الآخر، ولا يسود بينها أى نوع من الاستقرار، جعلها تقع فريسة سهلة لعدوان القوى المجاورة، وخاصة الكبرى منها.

هذا ونظراً لأن الفينيقيين لا يميلون بطبيعتهم إلى النواحي السياسية، بقدر اهتمامهم بالشؤون الاقتصادية، فإنهم إنما كانوا يفضلون الأمان، والاستقرار السياسى، حتى يتمكنوا من تسويق تجارتهم والنجاح فى المجالات التجارية بصفة عامة (٥).

وقد أدت هذه الأوضاع مجتمعة إلى ظهور ما يسمى بدويلات المدن حيث كان لكل مدينة حكمونها الخاصة بها، وعلى رأسها حاكم بالوراثة، قد يتقل الملك منه إلى أسرة أخرى، أو تنتزع الإمارة وتسلب، نتيجة ثورة من عناصر تصبح لها الغلبة، ولم يكن سلطان الأمير أو الحاكم أو الملك استبدادياً مطلقاً، ذلك لأن التجارة تتطلب المغامرة والوثاق من النشاط لا يتفق وهذا اللون من الحكم.

وكانت تقوم، إلى جانب الحاكم، هيئة من المشرعين، كما كانت تعقد أحياناً مؤتمرات من المدن الكبرى للتداول فى الشؤون العامة المشتركة، وكانت طرابلس مقر الاجتماع العام للمدن الثلاث الرئيسية. وكان للمدين نصيبه فى الإدارة، فهو يحدد سلطة الحاكم، وللكهنة نفوذ يلى نفوذ الحاكم، أما الموارد المالية فتعتمد على التجارة، وإن كنا لاندى على وجه التحقيق، أكان بيت المال يعتمد على المكوس أو على الاحتكار أو على الأمرين معاً (٦).

وهكذا انتظم الفينيقيون فى جماعات صغيرة يرأس كل منها ملك، ويستقرون حول مدن محصنة تحيط بها مناطق زراعية تابعة لها، وكانت هذه المدن هى العواصم التى يلجأ إليها أهل المناطق الزراعية، ويحتمون داخل أسوارها وقت الخطر.

على أن النزاع كثيراً ما كان يحدث بين هذه المدن، وكانت أكثرها نفوقاً

(٥) فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق - بيروت ١٩٥٨ ص ٨٨، محمد يرمى مهران: تاريخ مصر الفرعونية والشرق الأدنى القديم - القاهرة ١٩٨٥ ص ١٨٣، حسن محمود: المرجع السابق ص ٣٨٩.
(٦) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٥٠ - ٥١.

تلك التي كانت وسائلها الدفاعية أكثر فاعلية، هذا إلى أن بعضاً من تلك المدن إنما كان يشغل موقعين، الواحد: على الساحل، والآخر: يمثل جزراً صغيرة في مواجهته يلجأ إليها النجوم عند اشتداد الخطر، وقد أدى هذا الوضع إلى أن يهيم لكل مدينة مرفأين، أحدهما شمالي، والآخر جنوبي، فتلجأ السفن لهذا المرفأ وذلك بحسب الفصول واتجاه الريح، ومثال ذلك صيدا وصور، فكانت المسافة بينهما ملاحية يوم واحد^(٧).

وبدهى أن المدن المنيعه كانت أقدر من غيرها على البقاء والإزدهار، كما أن هذه المدن الفينيقيّة المتفرقة بسبب مظاهر الطبيعة لم تترك الأمر هكذا، وإنما حاولت جاهدة وإيجاد نوع من الترابط يؤلف بينها، وجمع كلمتها، وبخاصة في وقت الأخطار الخارجيّة، ومن ثم فقد عمدت إلى إنشاء تحالف قوى بين عدة مدن، بزعامة أوفرها قرة، تحالف كان دائماً يمليه الخطر المشترك، وأحياناً المصالح المشتركة.

وكانت مدينة «أوجاريت» في القرن السادس عشر قبل الميلاد، و«جيبيل» في القرن الرابع عشر، و«صور» بعد هذا القرن الأخير، ثم «طرابلس» في القرن الخامس قبل الميلاد، تتزعم هذه الاحلاف^(٨).

ولعل من أخطر هذه التحالفات، ذلك الحلف المشهور الذي قضى عليه فرعون العظيم تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) في «مجدو» حوالي عام ١٤٦٨ ق.م، وقد تجمع هذا الحلف، الذي كان يتزعمه أمير قادش^(٩)، عند مدينة «مجدو» (وهي تل للتسلّم الحالية غربي بحيرة طبرية، وعلى مبعده ٣٢ كيلاً جنوب شرقي حيفا) حيث جمع هذا الأمير حوله «ثلاثمائة وثلاثين أميراً،

(٧) كورتنو: المرجع السابق ص ٢٩، محمد أبو الحسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم - الاسكندرية ١٩٦٩ ص ١٥٩.

(٨) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٩٢.

(٩) قادش: وتقع مكان تل نسي مند، على الشاطئ الأيسر لنهر العاصي عند اتصاله بنهر الموقادة، وعلى مبعده ٧ كيلاً جنوبي بحيرة حمص، وإن رأى البعض أنها «قادش» التي تقع شمال فلسطين، على مبعده ٧ كيلاً شمال بحيرة الحولة. انظر:

J.H.Breasted, The Battle of Kadesh p. 13

وكنا

A H.Gardiner, Onom, I.P. 137 - 141.

كل منهم معه جيشه الخاص^(٩)، لكي يوقفوا تقدم فرعون عند «مجدو»، ويدهي أن عدد الأمراء (٣٣٠ أميراً) إنما يشير بوضوح إلى أن سورية وفلسطين وفينيقياء، إنما كانت مجزأة بصورة غريبة، فهؤلاء الأمراء لم يكونوا في الواقع إلا زعماء لدويلات صغيرة جداً، كما كانوا على درجة من الاستقلال، تحول دون تكوين جيش موحد، بحال من الأحوال.

هذا ويبدو واضحاً من رسائل الممارنة، من عصر الملك أمنحتب الثالث (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) وأمنحتب الرابع (إخناتون ١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) أن القوم لم يفقدوا العمل المشترك بينهم فحسب، وإنما حاول الملوك الفينيقيون جميعاً الحصول على الفوائد من سيدهم المصري، بعضهم على حساب بعض، وكان معظم هؤلاء الملوك يوجهون رسائلهم بصفة شخصية^(١١)، ولعل السبب في ذلك طغيان إحدى المدن، أو حتى إحدى الوحدات، على جاراتها التي تتزعمن، الأمر الذي كان يؤدي أحياناً إلى خروجها عليها، والانضمام إلى أعدائها، كما حدث حين ثارت صيدا وباليتروس وعكا ضد صور، وأعلنت خضوعها لأشور، بل ووجهت جميعاً ضدها أسطولا يستهدف تدميرها فباء بالهزيمة.

وانطلاقاً من كل هذا نستطيع أن نقرر أن نوعاً من الاتحاد قام بين الولايات الفينيقية أحياناً، تزعمته صور، وفينيقيا في أوج مجدها، وأما حين دانت بالسيادة لأشور وفارس إنحلت عرى الرابطة التي ألغت بين الولايات^(١٢).

وأما أهم المدن الفينيقية من الناحيتين السياسية والدينية فكانت مدن: جبيل؛ وكانت مركزاً مقدساً للعبادة، ثم «صيدا» وقد لقيت «بالمدينة الأم في كنعان»، ثم «صور»، وكان لها إلى جانب ازدهارها التجاري دور عظيم في تأسيس العقائد

(١٠) أنظر من معركة مجدو، والمراجع الخاصة بها (محمد بيومي مهران: مصر - الكتاب الثالث - الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٠٣ - ٢١٥ وأنظر عن رسائل الممارنة (محمد بيومي مهران: إخناتون: عصره ودعوته - الإسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٢٣ - ٢٤٥ وكذا.

J.A.Kundtzom, Die El-Amarna Tafeln, 2 Vols., Leizzig, 1908, 1915.

S.A.B.Mercer, The Tell-El-Amarna Tablets, Toronto, 1939.

(١١) فليب حتى: المرجع السابق ص ٩٢.

(١٢) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٥٠.

في الدين الفينيقي، ثم «أوجاريت»، وكانت مع انضمامها في بعض الأوقات إلى «بيروت» تعيش بسبب بعدها عيشة أكثر استقلالاً من مدن فينيقيا الوسطى^(١٣).

وكانت تتوسط هذه الثغور والمدن الكبيرة، قرى أقل شأنًا، تنتشر بينها، ولها شهرتها الخاصة في بعض نواحي الصناعة والفنون.

وقد تخكمت الطبيعة في تحديد مواقع هذه المدن، إذ كان العامل في اختيارها وقوعها على نهر، أو على مقربة من جبل يسهل معه الدفاع عنها، وكانت بعض هذه المدن تقام على البر، وعلى جزر متناثرة قريبة من الساحل، ويتمتعون البر والجزيرة في حماية المدينة والدفاع عنها، ولنشر الآن إلى بعض هذه المدن:

(١) أوجاريت:

كان موقع أوجاريت أهلاً بالسكان قبل ابتداء التاريخ يزمن طويل، ودليل ذلك أن الاستاذ «شيفر» كشف على مبعدة ٧ كيلاً شمالي أوجاريت على الشاطئ الأيمن لنهر العرب عن آثار عمران من العصر الحجري القديم، مع أدوات شيليه، أو أدوات من العصر الشيللي الأول^(١٤).

ويشير تاريخ الأبحاث الأثرية إلى أنه في أبريل من عام ١٩٢٨م، وعلى مقربة من ميناء البيضاء (الميناء الأبيض) على مبعدة ١٦ كيلاً إلى الشمال من ميناء اللاذقية، كان أحد الفلاحين يحرق حقله فاصطدم حد المحراث بشيء صلب في باطن الأرض، فنظر الرجل فرأى جزءاً من قبر خرب، وأخطرت الآثار في بيروت، وعلم أن مخلفات أثرية مختلفة كشفت من قبل، وبدأت الحفائر في بداية عام ١٩٢٩م، واكتشف الباحثون أن تلاً يعد نحو نصف ميل عن الشاطئ ويقوم بين فرعي نهر القند اللذين يلتقيان بعد ذلك ويصبان في البحر، أن هذا التل يغطي بقايا مدينة قديمة، واسمه العربي «رأس الشمرة» (ربما لكثرة ما ينمو عليه من نبات الشمر = الشمار).

ثم لم يلبث علماء الآثار أن اكتشفوا أن هذا التل إنما يغطي مخاراب «أوجاريت»، وهي مدينة قديمة ذكرتها وثائق مصر وأرض الرفدين والحيثيين،

(١٣) ج. كوتشو: المرجع السابق، ص ٣٣.

(١٤) ج. كوتشو: المرجع السابق، ص ٤٤.

وباستمرار الحفائر كشفت قبور وأوان فخارية وتماثيل صغيرة وحلى وعظام حيوانية، ثم ألواح عليها نقوش مسمارية، وكانت التوفيق عظيما إلى حد دعا إلى تنظيم بعثة للحفر عاما بعد عام تحت إدارة الأثرى الفرنسى «شيفر»، وقد توقف العمل عام ١٩٢٩ م لإندلاع الحرب العالمية الثانية، ولكنه استؤنف مرة أخرى عام ١٩٥٠ م.

هذا وقد كشف فى رأس الشجرة عن نصوص مكتوبة بلغات عدة؛ الأكديّة والمصريّة والحيتيّة والحبورية ثم لغات أخرى كانت مجهولة حتى ذلك الوقت، ومن ثم نشأت مشكلة حل رموز هذه اللغة، وقد تم ذلك فى خلال عام واحد، وعلى يد ثلاثة علماء عملوا مستقلين هم: «هانز باور» الألماني، و«ادوارد دورم» و«شارل فيررول» الفرنسيين، وقد شغل ثالثهم بنشر النصوص وترجمتها وشرحها منذ عام ١٩٢٩ م.

وقد كشفت فى رأس الشجرة عدة مئآت من الألواح والكسر، أحدثت ثورة فى معلوماتنا عن الأدب الكنعانى، والمجموعة الأساسية فيها هى مجموعة الملاحم وشعر الاساطير، وإن وصلت إلينا للأسف فى حالة بعيدة عن الكمال، ولهذا كانت فى ترجمتها عدة فجوات، هذا إلى أن ترتيب الألواح ليس أكيدا فى كثير من الأحيان، وكذا ترتيب الأحداث فى دورات الملاحم.

وفى عام ١٩٥٢ م كشفت وثائق ملوك أوجاريت (وهى تشمل على رسائلهم إلى ملوك الحيثيين وغيرهم من الدول، ولا بد أن لهذه الوثائق كتبت كلها قبل تخريب المدينة حوالى عام ١٢٥٠ ق م (وإن كان رأى السائد أن المدينة خربت حوالى عام ١٢٠٠ ق م، على يد شعوب البحر الذين جاءوا من سواحل الأناضول وجزر بحر ايجه، وأغارو على الشرق الأدنى القديم) (١٥) وترجع هذه الوثائق إلى ما بين عامى ١٥٠٠، ١٤٠٠ ق م، على وجه التقريب (١٦).

وعلى أية حال، ففى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد حدث زلزال فى المنطقة أعقبه طغيان البحر، فخربت أوجاريت، ولكنها مع ذلك نهضت من

(١٥) انظر عن شعوب البحر وغزوهم لمصر وإسراطينها فى غربى آسيا (محمد بهيمى مهران: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، الإسكندرية ١٩٦٩ - رسالة دكتوراه).

(١٦) سبتيموسكاني. المرجع السابق، ص ١١٧ - ١١٨، ٢٧٢.

جديد، لم مالبثت أن وقعت سريعا في قبضة الحيثيين في عهد أحد ملوكها ويدعى «نقمان»، وأصبح هذا تابعا لملك الحيثيين «شويلوليوما» (١٣٧٥ - ١٣٣٥ ق.م)، وعند قيام رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م)، ثاني ملوك الأسرة التاسعة عشرة المصرية، بمحاولة إسترداد الإمبراطورية المصرية في غرب آسيا، حدثت بينه وبين ملك الحيثيين «موافيلا» وحلفائه من ملوك وأمراء سورية وفينيقيا معركة «قادش» انضمت أوجاريت لهذه الأقاليم، رغبة أو كراهة، بحكم تبعيتها للحيثيين^(١٧)

وانتهت معركة قادش (حوالي عام ١٢٨٥ ق.م) بنصر شبه مؤزر للفرعون، وإن اضطر الفرعون حوالي عام ١٢٨٢ ق.م إلى أن يخرج مرة أخرى إلى غرب آسيا، للقضاء على الثورات التي قامت فيها بتحريض من الحيثيين، وأن يلتقي مرة ثانية بالحيثيين في «توب»، حيث أوقع بهم هزيمة ثانية، فضلا عن تلقين ملوكها درسا قاسيا أجبرهم على احترام مصر، وعدم التدخل في أمر ولايتها الأسبوية^(١٨).

وفي حوالي عام ١٢٦٩ ق.م، أبرمت معاهدة تحالف بين مصر وحثي^(١٩).

(١٧) انظر عن معركة قادش (محمد بيومي مهران: مصر: الكتاب الثالث، الإسكندرية ١٩٨٨، ص ٣٥٢ - ٣٥٦، وكنا:

A. H. Gardiner, The Kadsh Inscriptions of Ramsess, II, Oxford, 1960, p. 5 - 10.

H. goedick, JEA, 52, 1966, p. 72 - 80.

A. Burn, JEA, 7, 1921, p. 194 - 196.

A. Gotze, LDZ, 32, 1929, p. 832 - 840.

J. Kuentz, BIFAO, 55, 1928, p. 14 F.

(١٨) انظر (محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ٩٠ - ٩٥، وكنا:

K. A. Kitchen, JEA, 50, 1964, p. 68 - 70.

G. Gaballa, JEA, 55, 1969, p. 82 - 88.

(١٩) انظر عن معاهدة التحالف بين مصر وحثي (محمد بيومي مهران: مصر: الكتاب الثالث، ص ٣٥٦ - ٣٦٠، وكنا:

S. Langdon and A. H. Gardiner, JEA, 6, 1920, p. 179 - 205.

M. B. Rowton, JCS, 13, 1959, p. 1 F.

وظل سكان أوجاريت كما كانوا من قبل، وزادت عليهم عناصر جديدة (من أهل مكينى ببلاد اليونان ومن قبرص) لعبت دورا كبيرا فيما بعد، وانتعشت أوجاريت للمرة الأخيرة حيث أنها خربت حوالى عام ١٧٧٤ ق.م، أثناء غزو شعوب البحر لمصر وإمبراطوريتها الآسيوية، بعد أن أسقطت دولة الحيثيين، ولكن رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) نابى ملوك الأسرة العشرين، كتب لها نجحاً بعيد المدى فى هزيمة شعوب البحر فى موقعتين، الواحدة برية، والأخرى بحرية، ومن ثم فقد نجح فى القضاء على الأخطار التى هددت مملكته الآسيوية، فضلا عن مصر نفسها^(٢٠).

وأخيرا فيمكن القول بأن أوجاريت بحكم موقعها، إنما كانت أكثر تأثر بقبرص والحيثيين، فضلا عن الحوريين، أكثر من تأثرها بمصر^(٢١).

(٢) أرود (أرادوس) :

قامت أرود فى شمال فينيقيا على إحدى الجزر، وتقابلها على الشاطئ أرود الداخلية، وقد وصف «إسترابو» هذه الجزيرة التى قامت عليها أرود بأنها كانت (فى العصر اليونانى الرومانى) مغطاة بالمباني بارتفاعات شاهقة ذات طوابق متعددة.

وكانت تسمى أرود فى العصر الهلينستى «أنترادوس» (Antaradus) وقد أطلق عليها الصليبيون (Tortosa) وهى اليوم «طرطوس» شمالي عرمت، حيث لا تزال تشاهد بعض الآثار الفينيقية الهامة، وهى معبد وعدة قبور.

هذا وكان أهل أرود يتجمعون فى جزيرتهم الصخرية - أنكما يفعل الأمريكان الآن فى جزيرة منهاتن فى نيويورك - فى ناطحات سحاب مصغرة، وقد ظهرت مراعتهم فى ضمان التزود بالمياه لأجل جزيرتهم، وكانت تخزن مياه المطر الآتية من سطوح المنازل فى صهاريج، وتضاف إليها مياه ينبوع تحت البحر، يحصلون

(٢٠) انظر عن غزوات شعوب البحر (محمد يوسى مهران: حركات التحرير فى مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٦، ص ٢٥٧ - ٢٦٤، مصر ٣ / ص ٣٧٣ - ٣٨٥، وكلا:

H. Nelson, JNES, 2, 1943, p. 45 F.

W. F. Edgerton and J. A. Wilson, Historical Records of Ramses, III, Chicago, 1936, p. 35 - 55.

عليها بوضع قمع ضخيم مقلوب على ينبوع، بحيث يتصل القمع بأنبوب جلدى، وربما كان هذا أقدم ماسجله التاريخ من وجود نبع مياه عذب تحت البحر (٢٢).

هذا وعلى الرغم من صغر مساحة أرواد، فقد سجل التاريخ أنها كانت تسيطر على كثير من المدن المجاورة، مثل «سيميرا» و«مارثوس»، على أننا لانعرف الكثير عن تفاصيل تخطيطها، وربما كانت جباناتها، وكذا ضواحيها، تمتد إلى الأرض الرئيسية، وقد اشتهر أهل أرواد بأنهم ملاحون مهرة، وكانت لهم فرق كبيرة فى الأسطول الفينيقي، وقد رسم على ظهر عملتهم الأولى «سفينة» وهى شعار المدينة (٢٣).

هذا وقد تعرضت أرواد، شأنها فى ذلك شأن غيرها من المدن الفينيقية الرئيسية، لكثير من أطماع الشعوب المجاورة، وانتهى أمرها بأن دمرها أقوام البحر، كما تشير إلى ذلك مظاهر التخریب التى ترجع إلى القرن الثانى عشر، وإن عادت مرة أخرى إلى الحياة، حيث قاست الكثير من غزوات الآشوريين المتكررة. (٣) جبيل:

تقع جبيل على مبة ٤٠ كيلا إلى الشمال من مدينة بيروت، العاصمة اللبنانية الحالية، ويرجع تخطيطها إلى عصر البرونز، وتقع المدينة على صقع جبل، ومنها طريق يتصل بالمينا، وأمل جبيل يعتبرون مدينتهم أقدم مدن العالم قاطبة، وقد بناها الإله «إيل»، فيما تزعم أساطيرهم، هذا وقد كشفت الحفائر فى جبيل عن آثار ترجع إلى عصر Chalcolithic وربما كانت هناك مخلفات ترجع إلى عصر أقدم، كما أن جبيل ربما كانت كذلك من المراكز الهامة والقديمة لعبادة الإلهة «عشتار» (٢٤).

وعلى أى حال، فلقد ظلت هذه المدينة إلى آخر أيامها القصبية الدينية

(٢١) محمد أبو الحسن عصفور: المدن الفينيقية، بيروت ١٩٨١، ص ٢٧.

(٢٢) فلب حتى: المرجع السابق، وكذا:

Strabo, XVI, 2, 13.

(٢٣) عبد الحميد زاهد: الشرق الخالد، القاهرة: ١٩٦٦، ص ٢٤٧.

(٢٤) نفس المرجع السابق، ص ٢٤٧.

لفينيقياء، وكان البردى من أهم سلعها التجارية، ومن ثم فقد اشتق اليونان، فيما يرى «ول ديورانت» من اسمها اسم الكتاب في لغتهم بيلوس (Biblo)، ومن هذه الكلمة نفسها استقت كلمة (Bible) اسما للكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) (٢٥).

وكان اسم المدينة عند المصريين القدامى يكتب حتى الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ ق م) «كبن»، ولعله تحريف للإسم الفينيقي «جبيل»، ثم أصبح بعد ذلك يكتب «كبين» (Kepen) بالياء الثقيلة، ثم أطلق اليونان عليها اسم «بيلوس»، ثم أصبحت في العربية «جبيل».

هذا وقد أقام المصريون علاقات مع جبيل منذ عصور ما قبل التاريخ، وتشير دراسة الخشب الموجود في مقابر الأسرة الأولى إلى أنه وارد من سورية ولبنان، وأنهم عملوا على إحضار خشب الأرز من هنا، كما يشير إلى ذلك «حجر بالرمو»، منذ عهد «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة، كما سنشير إلى ذلك بالتفصيل في فصل العلاقات الخارجية.

وعلى أية حال، فهناك ما يشير إلى أن «جبيل» إنما كانت آهلة بالسكان منذ أقدم العصور، وكانت بحكم موقعها ذات مركز تجارى هام، فنشأت بينها وبين جاراتها علاقات وثيقة، ويذهب كثير من الباحثين إلى أن جبيل إنما قد خضعت للنفوذ المصرى فى أغلب عهودها.

(٤) صيدا:

كانت صيدا شقيقة صور، بل لعل صيدا إنما كانت فى فترة ما ملكة المدائن الفينيقية وتقع صيدا على مبعدة ٤٥ كيلا إلى الجنوب من بيروت، ٤٠ كيلا شمالي صور (أى فى مكان وسط تقريبا بين بيروت وصور) فى سهل ساحلى شديد الخصوبة، وافر المياه، ولكنه ضيق ينحصر بين السفوح الغربية لجبال لبنان الجنوبية وبين البحر، يصل اتساعه إلى مايقرب من ميلين (٢٦).

(٢٥) ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الثانى، ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٦١، ص ٣١٢ - ٣١٤.

(٢٦) انظرا

F. C. Eislen, a Study in Oriental history, New York, 1907, p. 1.
Dictionnaire de la Bible, Pub. Vigouroux, T. V, Paris, 1928, p. 1704.

هذا وقد أنشئت المدينة، في بادئ أمرها، على رأس جبلى، واختاره القوم، في أكبر الظن، بسبب المرفأ الممتاز الذى يتألف من سلسلة من الجزر الصغرى المتصلة بعضها ببعض الآخر بأرصفة صناعية، وكان هذا المرفأ يقع إلى جهة الشمال، وكان هناك، من ناحية الجنوب، مرفأ آخر يسمى «المرفأ المصرى» وهو أكبر من الشمالى، وإن كان أقل منه أمنا، كما كان هناك، من ناحية البر، سور لحماية المدينة، وأما قلعة صيدا الحالية، وتسمى «قلعة البحر»، فترجع إلى أيام الحروب الصليبية، وتقع على أكبر الجزر التى قامت عليها المدينة^(٢٧).

هذا ويذهب «الأب هنرى لامانس» إلى أن مدينة صيدا القديمة إنما كانت جزيرة^(٢٨)، وهو أمر، فيما يرى أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم، نستبعده اليوم، ذلك لأن كل الآثار القديمة التى تم العثور عليها إنما كشفت عنها فى البر^(٢٩).

ونقوم المدينة الحديثة فى نفس مكان صيدا القديمة على وجه التقريب، أى على قلعة البر الذى أقيمت عليه قلعة المبر الصليبية، مع ملاحظة أن المدينة الحديثة امتدت فى فترة لاحقة للإسترداد الإسلامى نحو الشمال الشرقى بحذاء الساحل، وأصبحت لا تتعمق كثيرا فى الداخل^(٣٠).

هذا وقد اشتق اسم «صيدا» من الصيد، أى صيد السمك، ولها ينتسب الإله الفينيقي الوثني «صيدون»، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أنها كانت محلة صغيرة لصائدى الأسماك، على النحو الذى كانت عليه قرية «راقودة» (راكوتيس) التى أقيمت عليها مدينة الإسكندرية، وقد أشار «هومير» إلى أن السمك فى صيدون أوفر من الرمال، كذلك قرر «جستان» فى القرن الأول إسم صيدا بكثرة السمك فيها، على أساس أن الفينيقيين كانوا يسمون السمك

(٢٧) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ٩١، وكنا؛

Poidebard et Lauffray, Sidon, Amenagements Antiques du Port de Saida, Beyrouth, 1951, p. 84.

(٢٨) هنرى لامانس: السواحل اللبنانية، مجلة الشرق، السنة السابعة، العدد ٢٠، ص ٩٤٨.

(٢٩) السيد عبد العزيز سالم: دراسة فى تاريخ صيدا فى العصر الإسلامى، بيروت ١٩٧٠، ص ١٠.

(٣٠) نفس المرجع السابق، ص ١٠، وكنا؛

D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, p. 28.

Schwarz, Encyclopaedia of Islam, p. 422.

«صيدون»، كما أشار الإدريسي إلى عين في صيدا كان ينشأ فيها في الربيع سمكيات على طول للأصبع، منها ذكور وإناث، وأن لها أيد وأرجل صفار، وعلى أية حال، فما زالت صيدا حتى اليوم تشتهر بأسمائها وما زال القوم يعتبرون صيد الأسماك من أهم حرفهم، بل إن ميناءها الحالي، ما يزال في نظر البعض، لا يعدو أن يكون مرسى لزوارق السفن^(٣١).

هذا وقد عرفت صيدا في الآشورية باسم «صيدونا»، وفي اللاتينية «صيدون» أو «صيدونيا» وفي رسائل تل العمارنة المصرية «صيدونو»، وفي العبرية «صيدون» أو حتى «زهدون»، وعند الصليبيين «ساجينا»^(٣٢).

وأما في العربية فقد عرفت باسم «صيدا»، وكذا باسم «أريل»، يقول ياقوت الحموي في معجمه «أريل إسم لمدينة صيداء التي بالساحل من أرض الشام، ولعلها سميت «أريل» عند العرب من الرها أي كثرة الشجر، وقد أشار ابن فضل الله العمري إلى أن كورقها كثيرة الأشجار، غزيرة الأنهار»^(٣٣).

هذا وتنسب التوراة لمدينة «صيدا» إلى صيدون الابن الأكبر لكنعان بن حام بن نوح، ومن ثم فهي تربط بين تأسيس صيدا وبين الكنعانيين الذين عرفوا باسم الصيدونيين^(٣٤)، وهكذا تنسب التوراة «الكنعانيين - الفينيقيين»، كما أشرنا من قبل، إلى الحاميين، وليس إلى الساميين، مع أنهم يتكلمون لغة سامية، بل هم أنفسهم ساميون، والأمر كذلك بالنسبة إلى المصريين الذين جعلهم التوراة

(٣١) عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٧ - ١٨، منير الخوري: صيدا عبر حقب التاريخ، بيروت ١٩٦٦، ص ٢٤، الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأماني، ج ١، ص ١٥، وكذا:

F. C. Eislen, op. cit., p. 11.

(٣٢) أنيس فريجة: أسماء المدن والقرى اللبنانية، بيروت ١٩٥٦، ص ٢٠٣، منير الخوري: المرجع السابق، ص ٢٤، وكذا:

F. C. Eislen, op. cit., p. 10.

(٣٣) معجم ياقوت ١/ ١٤٠، القلقشندي: صبح الأعيان في صناعة الإنشاء ١١١/٤، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٦.

(٣٤) تكون ١٠/ ١٥، أخبار أيام أول ١٣/ ١٣، يوسف مزهر: تاريخ لبنان العام ١١/ ١١، وكذا: Schulim Ochser, The Jewish Encyclopaedia, N. Y., 1903, Article, Sidon.

حاميين، تقول التوراة^(٣٥) في سفر التكوين «بنوحام: كوش ومصرام وفوط وكتعان»^(٣٦) والمصريون ساميون، ما في ذلك من ريب، وكذا الكنعانيون الفينيقيون.

وهكذا تعتمد العبرانيون في توراتهم، إقصاء الكنعانيين - الفينيقيين عن الانتساب إلى سام بن نوح، لأسباب سياسية ودينية، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية، وقد أرجح الإصحاح العاشر من سفر التكوين نسب الفينيقيين والسبثيين إلى «حام» جد الكوشيين، ذى البشرة السوداء، مع أنهم «أى الفينيقيين والسبثيين» من الساميين، وقد يكون ذلك بسبب وجود جليات فينيقية وسبئية في أفريقية، فعد كتبة التوراة هؤلاء من الحاميين^(٣٧).

ومن عجب أن يأخذ مؤرخو العرب وجغرافيوهم بالتفسير التوراتي لنسب الفينيقيين، ومن ثم فقد أجمعوا على نسبة الصيدونيين إلى «صيدون بن صدقاء بن كتعان بن حام بن نوح»^(٣٨).

هذا ويذهب «ايوستاثيوس» إلى أن صيدون القديمة من بناء «يلوس»، وأنها سميت باسم ابنته «صيد»، ولكن الكتاب الإغريق أجروا تعديلا على هذه الأسطورة، فإبدلوا «صيد» بـ «صيدوس بن ايجيبتوس» الذى بنى صيدون وسماهم باسم «صيدوس»، ويذهب «فردريك كارل ايسلين» إلى أن هذا التفسير الأخير إنما يشبه إلى حد ما تفسير التوراة، وأنه يربط المدينة واسمها باسم «صيدون»، ويعترض وهو على حق في هذا، على الأخذ بهذا التفسير الخيالي^(٣٩).

(٣٥) انظر: من التوراة، ومدى الشك الذى يحيط بوثاقه صها وصحه (محمد بيومي مهران: اسرائيل، الكتاب الثالث، الإسكندرية ١٩٧٩، ص ١، ٣٧٩).

(٣٦) تكوين ١٠ / ١٥.

(٣٧) حواد على: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٦٨، الجزء الأول، ص ٢٢٤، وكذا: R. Nicholson, A Literary History of The Arabs, Cambridge, 1935, p. XV.

(٣٨) انظر: معجم ياقوت ٣ / ٤٣٧، القلقشندي: المرجع السابق، ١١ / ٤، ابن شداد: الأهلان، نصيرة في ذكر أمراء دمشق والجزيرة، دمشق ١٩٥٦، ص ١٨.

(39) F. C. Eislén, op. cit., p. 9.

ومن ثم فإن «إسليين» إنما يرجح أن صيدون القديمة سميت باسم إله يحمل هذا الاسم، ومنه اشتقت التسمية الصليبية «ساجيتا» أو «ساجيت» ، وإن كان يحيل إلى ربط اسم «ساجيتا» باللفظة اللاتينية Sagitta بمعنى السهم بدليل أن السهم كان شعار مدينة صيدا في العهد الصليبي، وكانت العملات التي سكّت في صيدا في ذلك العهد تحمل هذا الشعار^(٤٠).

ويذهب الأستاذ أنيس فريحة إلى أن يكون «صيد» هو الجذر الذي استقت منه صيدون، وصيدا، كان الها ساميا قديما يمثل الصيد، ويعمل تسمية أهل صيدا للمزارع الواقع في الجنوب الشرقي منها، وإلى أن يسميه الأهالي «مزار النبي صيدون»، بأنه مكان هيكل فينيقي قديم للإله السامي «صيد إله الصيد»^(٤١).

ويعتقد أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم أن اسم «صيدا» مشتق من الجذر السامي صيد، ويقصد به صيد السمك، وهو الحرفة الرئيسية لسكان هذه المدينة منذ نشأتها، ولا نستبعد تمجيد الأهالي لهذه الحرفة فأطلقوا على مدينتهم إسمها، بحيث أصبح اسم صيدون يعني مدينة صيد الأسماك، ولعل هذا التمجيد كانت له علاقة بالفكر الديني القديم عند سكان صيدون، أو لعله كان يرتبط بالطوطمية التي كان من مظاهرها أن يتسمى بها الأفراد تعبيرا عن تفاؤلهم بها، كما كان يفعل العربي في العصر الجاهلي عندما كانوا يتفاءلون بالطير كالحمامة مثلا، ومن المعروف أن كثيراً من الأسماء السامية القديمة للمواضع أو للقبائل كانت ذات صلات وثيقة بأسماء الآلهة، وليس ضرورياً أن تكون حرفة الصيد التي كان يمارسها القوم كانت مقصورة على صيد السمك، فمن المعروف أن أهل صيدا احترفوا أيضاً صيد نوع من القواقع أو الأصداف كانوا يستخرجون منها الأصباغ الأرجوانية المشهورة، وكانت هذه الحرفة من أسباب ازدهار التجارة الفينيقية^(٤٢).

(٤٠) عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٨ - ١٩، وكذا:

F. C Eissen, op. cit., p. 14.

(٤١) أنيس فريحة: المرجع السابق، ص ٢٠٣ - ٢٠٤، عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٩

(٤٢) عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٩، تاريخ العرب في العصر الجاهلي، بيروت ١٩٧٠، ص

٤٠٨، وانظر: محمد خلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، بيروت ١٩٦٩،

ص ٣٥٩.

(٥) صور :

تقع «صور» (أى الصخرة) على مبعده ٤٠ كيلا جنوب صيدا، وتعتبر أعظم المدن الفينيقية جميعا، دونما ريب، وطبقا لرواية «هيرودوت» (عن كهنة ملقارت)، فلقد أُنشئت صور قبل قدوم هيرودوت إليها، حوالى ٤٥٠ ق.م، بألفين وثلاثمائة سنة، ومن ثم تكون قد ظهرت إلى الوجود، حوالى عام ٢٧٥٠ ق.م^(٤٣).

هذا وقد بنيت، فى الأصل، على جزيرة تبعد عدة أميال من البر، وقد كانت، فيما يرى استرابو^(٤٤)، «مبنية بنفس الشكل الذى بنيت به أرادوس»، هذا وقد كانت الجزيرة متصلة بالبر بسد طوله نصف ميل، بناه الإسكندر المقدونى (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) أثناء حصاره لها عام ٣٣٢ ق.م، والذى دام سبعة أشهر من البر والبحر^(٤٥).

هذا وقد بدأت المدينة تاريخها، فى بادىء الأمر، كحصن، إلا أن ميناءها الآمن، وسلامتها من الغزو، سرعان ما جعلها حاضرة البلاد الفينيقية كلها، ومأوى لخليط من التجار والعبيد قدموا إليها من جميع بلاد البحر المتوسط^(٤٦)، وهكذا ما أن حل القرن التاسع قبل الميلاد، حتى كانت صور مدينة غنية فى عهد ملكها «حيرام» (٩٨٠ - ٩٣٦ ق.م) الذى عاصر الملك النبتى سيدنا سليمان عليه السلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م)^(٤٧)، وفى أيام زكريا (حوالى عام ٥٢٠

(٤٣) قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٥٥٩، (بيروت ١٩٦٧)، وكذا:

Herodotus, II, 44.

(44) Strabo, XVI, 2, 23.

(٤٥) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ٢٥٤، وكذا:

Arrian, II, 18 - 24.

Diodorus, XVII, 41 - 46.

(٤٦) ول ديورانت: المرجع السابق، ص ٣١٤.

(٤٧) يتفق المؤرخون على أن سليمان عليه السلام قد حكم فى القرن العاشر قبل الميلاد، ولكنه

يختلفون فى تحديد هذه الفترة من هذا القرن العاشر، فهناك من يراها فى الفترة (٩٧٤ - ٩٢٠

ق.م) (فضلو حوراني: المرجع السابق، ص ٣٤)، ومن يراها فى الفترة ٩٧٣ - ٩٣٦

(حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، ص ٨٤)، ومن يراها فى الفترة ٩٦٣ - ٩٢٣ ق.م (فيلب

حتى: المرجع السابق، ص ٢٠٥) ومن يراها فى الفترة ٩٦١ - ٩٢٣ ق.م (موسكاتي: المرجع

==/==

ق.م.)^(٤٨) كانت الفضة التي تجمعت فيها كأنها التراب، وكان الذهب كأنه «وحل الطرقات»^(٤٩)، ويقول عنها «استرابو» أن بيوتها من طبقات كثيرة، بل إنها أكثر طبقات من بيوت روما^(٥٠)، غير أن هذا الرخاء إنما كان قائما في ذلك العصر، وفي جميع العصور، على التجارة والفنى، وليس على الأراضى والفتح^(٥١).

وعلى أية حال، فلقد ظلت صور، نتيجة ثرائها، فضلا عن بسالة أهلها، مستقلة حتى أيام الإسكندر الأكبر والذي رأى في استقلالها تحديا لعظمته وعبقريته الحربية، ومن ثم فقد أخضعها، كما أشرنا آنفا، عام ٣٣٢ ق.م، ثم قضى عليها نهائيا إزدهار مدينة الإسكندرية العظيمة^(٥٢).

وأخيرا، قلنا من الجدير بالإشارة أن الحفائر التي أجريت تحت سطح البحر، فضلا عن الخرائط الجوية، قد أثبتت أن حاجز الماء الذي كان يحمى مدينة صور، إنما يقع اليوم تحت سطح البحر بنحو ٥٠ قدما، وكان طوله ٧٥٠ مترا، وعرضه ثمانية أمتار، وكانت تشرف عليه أسوار المدينة العالية وأبراجها الشامخة، وقد بنيت هذه الحصون في عهد ملك صور «حيرام» (٩٨٠-٩٢٦ ق.م)، وبذلك أصبحت صور من أعظم موانئ حوض البحر الأبيض الشرقى^(٥٣).

السابق، ص ١٤٣، وكذا:

E. W. Heaton, The Old Testament Prophets, 1969, p. 172.

(٣٨) لاريب في أن ذكرها هذا، إنما هو غير ذكرها الذي جاء في التوراة الكريم، والد النبي يحيى عليهما السلام، والذين عاشوا السيد المسيح عليه السلام (أنظر عن ذكرها القرآن: سورة آل عمران: آية ٣٣ - ٥٩، مريم: آية ٢ - ١٥)، وأما ذكرها المذكور هنا فهو صاحب سفر زكريا، وهو السفر قبل الأخير في العهد القديم، وقد عاش في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس ق.م على الأرجح (محمد يوسى مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل، ص ٥٩).

(٤٩) ول ديورانت: المرجع السابق، ص ٣١٤.

(50) Strabo, XV, 2, 23.

(٥١) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ٩١.

(٥٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٥٤، ول ديورانت: المرجع السابق، ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٥٣) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ٩١، حسن أحمد محمود وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم، ص ٢٩٠، وكذا:

A. Poidebard, un Grand port disparu: Tyr, Paris, 1939, p. 25 -

26.

(٦) بيروت:

بيروت: عاصمة لبنان الحالية، وإحدى مدن البحر المتوسط الهامة، وهي مدينة قديمة كانت مركزاً هاماً للتجارة الفينيقية، وقد جاء ذكرها في رسائل العمارنة (من القرن الرابع عشر قبل الميلاد)، عدة مرات.

وقد وصفها «ربعدي» - أمير جبيل - بأنها، هي وصور، أعداء الفرعون، رغم أن ربعدي كان قد ذهب إلى بيروت لمساعدة أميرها «خامونيري» (لعمري - Ammuniru)، ولقد حلف معه.

هذا وقد ازدهرت بيروت على أيام السلوقيين والرومان والبيزنطيين، وقد فتحها العرب في عام ٦٣٥ م، على أيام الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» (١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤ م) - رضوان الله عليه - ثم احتلها الصليبيون في ١١١٠ م، وأصبحت جزءاً من مملكة «بيت المقدس» اللاتينية، حتى عام ١٢٩١ (١).

(٧) سميريا:

سميريا مدينة فينيقية، جاء ذكرها عدة مرات في «رسائل العمارنة»، ففي أول رسائل «ربعدي» - أمير جبيل - إلى إخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق. م) نراه وقد وجد نفسه في مشكلة بسبب هجوم شعب «ساجاز» (Sagaz) لمدينة «سيميريا» وبما أن مدينته «جبيل» كانت على مقربة من «سيميريا»، فإنه قد أصبح في خطر. وفي رسالة من إخناتون - داعية التوحيد - نعرف أن «سيميريا» استولى «عزيرو» - أمير أمور - عليها، ومن ثم فإن الفرعون إنما يصرّ على أن يعيد «عزيرو» المدينة.

وفي رسالة ثالثة من «ربعدي» نراه يوجه اتهاماً إلى «خايب» (خايب) - والذي ربما كان أخو عزيرو - فيقول: «أما بالنسبة لخايب، فلقد جعل والده

(١) محمد بيومي مهران: إخناتون، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٥٩ - ٢٦٢، وكنا:

S. A. B. Mervet, The Tell - El-Amarna Tablets, I, Toronto, 1939, No. 136 - 137.

المدن أكثر عداوة لمدينة «جيبيل»: انظر: لقد وضع هائيب (Haibi) يده على «سيميريا»^(١).

(1) S. A. B. Mercer, op. cit., I, 1939, Nos, 132, 159 - 160.

وانظر من رسائل العمارة (محمد بيومي مهران: إخطرون، ص ٢٣٣ - ٢٤٥)

الفصل الثالث سورية الإمارات الأرامية

(١) في شمال سورية:

توغل الآراميون في شمال سورية، مكونين عدداً من الولايات الصغيرة والتي منها:

١- جرجوم: وعاصمتها «مرفاش»، وهي مرعش الحالية.

٢- سمأل: في كليكيا، وعاصمتها «سنجرلي».

٣- خاتينا: وعاصمتها «كوتالوا».

٤- ياخان: وعاصمتها «أرياد».

٥- يمحده: وعاصمتها «حلب» (حلبو).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذه الولايات إنما قد تعرضت للضغط الآشوري عدة مرات، حدث ذلك على أيام «أشور ناصر بال الثاني» (٨٨٤ - ٨٥٨ ق.م) الذي قام بحملة مظفرة على «خاتينا» وأجبر ملكها على الخضوع ودفع الجزية^(١)، ولكن سرعان ما انتهزت خاتينا - بالاتفاق مع قرقيش وجرجوم وسمأل وبيت أدني - فرصة وفاته، وانتقال العرش الآشوري إلى «سلمنصر الثالث»، فقامت بالثورة ضد آشور، إلا أن المعامل الآشوري الجديد تمكن في عام ٨٥٨ ق.م من القضاء على الثورة واجبار المعصاة على دفع الجزية^(٢) ثم كتب له آخر الأمر - وفي عام ٨٣٢ ق.م - نجحاً بعيد المدى في القضاء نهائياً على الثورة، وتوليه أحد الموالين له عرش «خاتينا»، وسرعان ما إختفت خاتينا من النقوش وضعفت الولاية جداً، واقتصرت على العمق لانطاكية، وأصبحت تسمى «أونقي»^(٣).

(1) E. G. Kraeling, op. cit., p. 66.

(2) Ibid., p. 68 - 71.

(3) Ibid., p. 71 - 72.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد، عادت آشور الهجوم، ففي عام ٧٤٠ ق.م وبعد حصار دام سنوات ثلاث، وقعت في يد «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) مدينة «أرفة»، وتدل النقوش المكتشفة في «سوجين» - وتقع على مسبعة ٢٥ كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من حلب - على أنها كانت مركز المعارضة ضد آشور^(١).

وكانت دولة «سمأل» آخر الولايات الأمورية التي ظلت تكافح من أجل استقلالها حتى القرن الثامن ق.م، حين نجح «شلمنصر الخامس» (٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م) في القضاء على استقلالها وضمها إلى إمبراطوريته الواسعة ثم أقام «إسراحدون» (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م) شاهداً كبيراً عند مدخل المدينة مجد فيها حكمه، وعلى أي حال، فإن ما وجد في «سمأل» من بقايا أثرية لهلاك بالنار، وانقطاع كل ذكر لها في مصادرتنا، يدلان، فيما يبدو، على أنها لقيت نهاية فاجعة قبل مرور زمن طويل^(٢).

(٢) في وسط وجنوب سورية:

١ - حران (حاران):

هي عاصمة دولة آرام النهرين، والتي تسمى في التوراة^(٣) «فدان آرام» أو نهرين في السهول المنبسطة بين الجزيرة والشام، وكان مركزها مدينة «حران» التي أصبحت من مراكز الحضارة الآرامية^(٤)، وفي هذا الإقليم تقع كذلك مدينتا «نصيبين» و«الرها» اللتين اشتهرتا كمركزين للثقافة والآداب السريانية^(٥).

وتعتبر دولة آرام النهرين أقدم الإمارات الآرامية في سورية وشرق الأردن، وأما اصطلاح «أرام النهرين» فقد ظهر - فيما يرى كرينج - في القرن الثالث عشر

(١) موسكاتي: المرجع السابق، ص ١٧٨. وكذا،

H. Schmokel, op. cit., p. 262.

(٢) موسكاتي: المرجع السابق، ص ١٧٩، وكذا

A. Dupont-Sommer, op. cit., p. 68.

(٣) تكوين ٢٤: ١٦.

(٤) فليب حتى: المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٥) قاموس الكتاب المقدس ١/ ٤٣

ق. م، غير أن رولية التوراة^(١)، إنما ترجع به إلى عصر الآباء الأول - عصر إبراهيم وناحور وإسحاق ويعقوب - هذا فضلاً عن أن الإصطلاح إنما استعمل في رسائل العمارة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد^(٢)، وأما النهران فكان المراد بهما من قبل الدجلة والفرات، ولكن الراجع الآن - كما أشرنا من قبل - أنهما الفرات ورافده الخابور - حيث تقع منطقة حاران التي استقر الأراميون فيها في عصر الآباء الأوائل، ومن هنا بدأت القوة الأرامية في الإنتشار، وقد دعا العبرانيون هذه المنطقة «أرام» التي في عبر النهر، واستمرت هذه الدولية حتى القرن التاسع قبل الميلاد^(٣).

وكان الأراميون في فدان أرام قد اتخذوا من «حاران» - وتقع على نهر بلخ على مبعده ٦٩ كيلاً - من اتصاله بنهر الفرات، إلى الغرب من تل حلفا، وعلى مبعده ٤٤٨ كيلاً إلى الشمال الشرقي من دمشق - وكانت المدينة مركزاً تجارياً على طريق القوافل التي تصل نينوى وآشور وبابل بدمشق وصور والمدن المصرية وقد اتخذت القمر إلهاً لها تحت اسم «تارح»^(٤)، ثم اتخذها الآشوريون مركزاً لهم بعد سقوط نينوى في عام ٦١٢ ق. م، تحت أيدي البابليين والميديين ولكن «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق. م) إستطاع الإستيلاء عليها في عام ٦٠٩ ق. م، والقضاء على بقية الجيش الآشوري، قبل وصول مجندات ملك مصر «نخاو» الثاني (٦١٠ - ٥٩٥ ق. م) لإنقاذه^(٥).

٢- دمشق:

تقع دمشق - على مبعده ١٠٤ كيلاً شرقي البحر المتوسط، ٢١٢ كيلاً

(١) تكوين ٢٤، ١٠، ٢٨، ٢، ٥، ٢٩، ٤ - ٥.

(2) Samuel A. B. Mercer, The Tell-Amarna Tablets, Toronto, 1939, Vol. 2, p. 898.

(3) E. G. Kraeling, op. cit., p. 21.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ١ / ٢٨١، وكذا

M. F. Unger, op. cit., p. 455.

(5) M. F. Unger, op. cit., p. 455.

وكذا.

A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, o. 357 - 358.

شمال شرق القدس - في وسط غوطه يسقيها نهر «بردى»، وهي مركز هام لطرق التجارة، وهي من أقدم مدن الشام، وقد ذكرت على أيام سيدنا إبراهيم عليه السلام (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م)^(١)، وكانت على أيام داود عليه السلام (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م)^(٢) موطناً وعاصمة للأراميين.

هذا وقد تأسست «دولة أرام دمشق» في أخريات القرن الحادى عشر قبل الميلاد، على رأى^(٣)، وأخريات القرن العاشر على رأى آخر^(٤)، فكانت معاصرة على وجه التقريب لتأسيس مملكة العبرانيين - طبقاً للرأى الأول، وهذا ما نرجحه ونميل إلى الأخذ به - ثم سرعان ما تطورت حتى غدت دولة كبرى - بالنسبة إلى جيرانها - تمتد إلى الفرات من جهة، وإلى اليرموك من جهة أخرى، وكانت متاخمة لأرض الآشوريين في الشمال، ولأرض العبرانيين في الجنوب، وكانت سورية الداخلية شرقى جبل لبنان، وسورية الشمالية وباشان، تحت سلطانها في حوالى عام ١٠٠٠ ق.م، وظل ملوكها يسيطرون على اثنتى عشرة أمة صغيرة من حولهم أقلحوا في مقاومة ما كان يبذله الآشوريون من جهود لإخضاع سورية لحكمهم^(٥).

وأما علاقة أرام دمشق بالعبرانيين، فكل دارس للتوراة على معرفة بها وهي - على أى حال - قد بدأت أيام «شاول» (١٠٢٠ - ١٠٠٠ ق.م)، وإن كان «داود» (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م) هو الذى استطاع الإستيلاء على المدينة

(١) انظر عن عصر إبراهيم عليه السلام (محمد يونس مهران: إسرائيل، ط ١، ١٩٩٩، ص ٧٥ - ٨٤).

(٢) انظر عن عصر داود عليه السلام (محمد يونس مهران: إسرائيل، ط ٢ - ط ١، ١٩٩٩، ص ٦٤٣).

(٣) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٤) مراد كامل: المرجع السابق، ص ٤.

(٥) نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ٣٢ - ٣٣، فيلب حتى: المرجع السابق، ص ١٨١، مراد كامل، المرجع السابق، ص ٤، أدى شير: تاريخ كلد والفرس، بيروت، ١٩١٢ - الجزء الأول، ص ٦٦، وكذا:

R. H. Pfeiffer, Introduction to the Old Testament, N. Y., 1941, p. 687 JNES, 7, p. 70.

العريقة^(١)، هذا وقد روث الثوراة بالتفصيل قصة الصراع بين الأراميين والإسرائيليين على أيام «آخاب» (٨٦٩ - ٨٥٠ ق. م)، الأمر الذي وصل إلى أن يحاصر الأراميون «السامرة» عاصمة إسرائيل نفسها، وإن استطاع آخاب أن يصون آخر الأمر حدود إسرائيل الشمالية، وأن يشارك في حلف ضد الآشوريين بقوده عدوه القديم ملك دمشق، وأن يشارك معه في حرب ضد آشور في موقعة قرقر في عام ٨٥٣ ق. م^(٢)، الأمر الذي سوف تناقشه بالتفصيل في مكانه من هذه الدراسة.

على أن الصلات بين الأراميين والإسرائيليين لم تكن كلها حربية، وإنما كانت هناك صلات تجارية، وعلى أي حال، فلقد بقيت دولة (أرام دمشق) تقاوم جبروت الآشوريين - على الرغم من أن طول منافستها مع جيرانها من الأراميين والبدو العبرانيين قد أرهقها كثيراً - إلى أن استطاع (تجلات بلاسر الثالث) (٧٤٥ - ٧٢٧ ق. م)، أن يستولى عليها في عام ٧٢٢ ق. م، وأن يقتل ملكها (رصين) وأن يجعلها ولاية آشورية، ذلك أن العاهل الآشوري كان - وقت مطلب أحاز ملك يهوذا للتجدة لانقاده من قوات دمشق والسامرة - في شمال سورية، وربما كان مع جيشه في مكان ما في مجاورات دمشق، ومن ثم فلم يكن في حاجة إلى توسلات (أحاز) اليهودي ليقوم بحملاته ضد سورية وفلسطين، وهكذا استطاع العاهل الآشوري أن يجتاح في عدة حملات إلى الغرب دمشق، بعد حصار دلم عامين، ويسقط دمشق حان الوقت للآشوريين أن يضموا سورية بأكملها، وانتهت قوة الأراميين السياسية وأصبحت السيادة على الدويلات الأرامية لآشور^(٣).

(١) صموئيل ثان ٨: ٥ - ٦، أخبار أيام أول ١٨: ٥ - ٦، قاموس الكتاب المقدس ١/ ٣٧٥، نجيب

ميفائيل: المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) ملوك أول ١: ٢٠ - ٤٢، ٢: ٢٢ - ٣٨، وكذا:

A. Dupont-Sommer, op. cit., p. 35.

A. Lods, op. cit., p. 378.

E. G. Kraeling, op. cit., p. 73, 75.

(٣) ملوك ثان ١٦: ٥ - ١٠، بولس عباد المرجع السابق، ص ١٤، وكذا:

M. Noth, op. cit., p. 259 F.

وعلى أية حال، فلقد خضعت دمشق للبابليين بعد ذلك في عام ٦١٢ ق. م، والفرس في عام ٥٣٩ ق. م، واليونان في عام ٣٣٣ ق. م، والأنباط في عام ٨٥ ق. م، والرومان في عام ٦٦ ق. م، والساسانيون عام ٦١٤ م، وفتحها العرب عام ٦٣٥ م، غير أن أطول فترة خضعت فيها دمشق، إنما كان ذلك للمصريين على أيام الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق. م).

هذا وقد أصبحت دمشق عاصمة الخلافة الأموية (٤١ - ٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م)، وكان أهم أعمالهم فيها بناء مسجدنا الكبير (المسجد الأموي)، وكان أول من اختطه الصحابي الجليل «أبو عبيدة بن الجراح»، حين فتح دمشق (١٣ هـ / ٦٣٥ م) ثم بناء «الوليد بن عبد الملك» (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) في الفترة (٨٨ - ٩٦ هـ) - في مكان كنيسة - وقد تأتى في بنائه، حتى قيل إنه أنفق على عمارته خراج دولته لمدة سبع سنين^(١).

(٣) صوبة:

صوبة: عاصمة مملكة آرام صوبة القوية، وتقع عاصمتها (صوبة) في مكان «صوبة» في مكان بلدة «عنجر» في البقاع جنوبي «زحلة»^(٢)، وإن كنا للأسف - لانعرف شيئاً حتى الآن عن ملوكها الأوائل، فيما قبل عهد «حدد عزرة» وأما مدى اتساعها فقد وصل في عهد ازدهارها إلى حدود حماة في الشمال الغربي^(٣).

وقد وصلت «صوبة» إلى ذروة قوتها في عهد «شاؤل» ملك إسرائيل، والذي كانت العداوة بين الدولات الآرامية وإسرائيل في أيامه على أشدها، ومع ذلك فإن التوراة لم توضح لنا علاقة شاؤل بالدولات الآرامية، مما دفع «كريلنج» إلى

==/== وكذا.

E. G. Kraeling, op. cit., p. 118 - 119.

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢ / ١٥٢، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ١ / ٥٢٥ - ٥٢٧ هجري
عبدى: معجم الحضارات السامية، ص ٣٧٥ - ٣٧٧.

(٢) أحمد فخري: المرحع السابق، ص ١٠٣.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ١ / ٤٣.

القول بأن علاقة صوبة بالعبرانيين في عهد شاول كانت مبهمة^(١)، كما ذهب «ديون - سومير» بأن ملوك الأراميين لهذه المنطقة لم يذكروا لأنهم كانوا تابعين لصوبة^(٢).

وعلى أى حال، فلقد استمرت صوبة في عفران قوتها حتى السنوات الأولى من أيام داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م)، الذي نجح في أن يضمها إليه مؤقتاً، إذ استمر الصراع بين الأراميين والعبرانيين على أيام داود - كما كان على أيام سلفه شاول - وهكذا قامت حروب بين داود و«حدد عزرة» ملك صوبة، ساهمت فيها - إلى جانب حدد عزرة - معظم الولايات التابعة لصوبة، كما اشترك فيها أراميو ما بين النهرين.

هذا وكانت العلاقات بين العمونيين وداود عندما بدأت تسوء إلى الدرجة التي تهدد بدق طبول الحرب بينهما، طلبوا معونة جيرانهم الأراميين في أرام بيت رحوب، وأرام صوبة ومعكة وطوب، وأتى هؤلاء بحشد كامل من الرجال لمساعدة «ربة» عاصمة عمون، ضد الهجوم الإسرائيلي الذي أمر به داود تحت قيادة يوباب، ونجح يوباب في هزيمة هؤلاء الأراميين، ويعلم «حدد عزرة» ملك صوبة بذلك، ويشترك في حرب مع الإسرائيليين - بقيادة داود - ولكنه يتهزم فيها، ثم سرعان ما بدأت صوبة في الإضمحلال وأخذت دمشق مكانها بالتدريج، حتى صارت أعظم الإمارات الأرامية^(٣).

(١) بولس حباد: المرجع السابق، ص ١٠، وكذا:

E. G. Kraeling, op. cit., p. 40.

(2) A. Dupont-Sommer, op. cit., p. 26.

(٣) - موثيل فان: ١٠: ٦ - ١٤، وكذا:

M. Noth, op. cit., p. 194 - 195.

(٤) قادش:

هناك أكثر من قادش في بلاد الشام - وقد تحدثنا عن ذلك من قبل -
ونعني هنا قادش: التي تقع في مكان «تل نبي مند» على الشاطئ الأيسر لنهر
الأورنت (العاصي) داخل الزاوية التي تكونت ناحية الغرب من اتصاله بنهر
الموقادية، على بعد بضعة كيلو مترات، جنوبي النهاية الجنوبية لبحيرة حمص.

وفي قادش هذه حدثت واحدة من أهم المعارك الحربية في التاريخ القديم،
وأعني بها معركة قادش بين ملك الحيثيين «مواتيلا» والفرعون رعمسيس الثاني،
حوالي عام ١٢٨٥ ق.م، وقد كتب فيها النصر للفرعون بعد أن تعرض لكمين
كاد أن يقضى عليه وعلى جيوشه، ولكنه استطاع بفضل مهارته النادرة أن يحول
الهزيمة إلى نصر، وإن كانت النتائج السياسية للمعركة لم تكن في مستوى النصر
العسكري^(٥).

(٥) قرقيش:

مدينة هامة في شمال سورية تقع غربي الفرات عند فريضة في النهر، شمال
مكان التقائه بساجور، وعلى بعد ١٠٠ كيلا شمال شرق حلب، وقد كتبت
في قائمة تحوتمس الثالث «كاركمشا»، ثم حدث تغيير في الهجاء، فتغيرت إلى
«قرقميشا» في سيرة «أمون ام حاب»، وفي عهد أمنحتب الثالث (١٤٠٥ -
١٣٦٧ ق.م).

ولعل أول من وصل إلى قرقميش إنما كان تحوتمس الأول (١٥٢٨ -
١٥١٠ ق.م)، حيث مرق بجيشه من مصر عبر الشام في سرعة غريبة، ودون
مقاومة كبيرة، حتى بلغ أرض «نهرين»، وحيث أقيمت لوحة تذكارية عند
إنحناء الفرات، عند قرقميش.

(١) محمد بيومي مهران: مصر ٣٥٢/٣ - ٣٥٦ (الاسكندرية ١٩٨٨).

A. Burn, JEA, 7, 1921, p. 194 - 195.

وكلا

J.H. Breasted, The Battle of Kadesh, Chicago, 1930, p. 13 - 15.

H. Goedicke, JEA, 52, 1966, p. 72 - 97.

غير أن حفيده العظيم «نخوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) إنما عبر الفرات، ودخل في أرض الميتان وأقام لوحة نصره على الجانب الشرقي للفرات، وذلك في حملته الثامنة (حوالي عام ١٤٥٧ ق.م)، ونقرأ في لوحة نبتة (نباتا) أن جلالته قد أمر بضع السفن في «جبيل»، وأن تنقل برا إلى قرقميش على عربات تجرها الثيران، وهكذا فلكن كان الطريق من جبيل يمر عبر قطنه وتوينب وقرقميش، فإن معنى هذا أن قوات الفرعون قد قطعت ٤٠٠ كيلا، كما أن استخدام عربات تجرها الثيران من دوات الأربع عجالات، ظاهرة غير متوقعة تماما، ولعلها أقدم المرات التي استخدمت فيها السفن الحربية في التاريخ القديم، لعبور جيش كبير على نهر واسع كالفرات.

وقد خضعت قرقميش لآشور على أيام «ناصربال» (٨٨٥ - ٨٦٠ ق.م) ثم استولى عليها الأكديون على أيام «نبرخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م)^(١).

J.H.Breastec, ARE, II, 1906, p. 34 - 35.

(١) وكذا

A.Gardiner, Onom., I, 1947, p. 132,

J.A.Wilson, ANET, 1966, p. 234, The Culture of Ancient Egypt, 1964, p. 180 - 181.

R.O. Faulstich, JEA, 32, 1946, p. 39F.

(٨) ماري:

لاريب في أن مدينة «ماري»^(١) ذات الموقع الهام في حوض الفرات الأوسط، أهم مركز لتجمع العناصر السامية العربية في وادي الفرات، ولم تفقد هذه الأهمية الا بعد سقوط مملكة ماري في أواسط القرن الثامن. عشرين قبل الميلاد، وقد سادتها دائماً هذه العناصر السامية الغربية وأن خضعت في كثير من الأحيان لنفوذ حكام السهل الميزوبوتامي المجاور.

هذا وقد قامت مملكة ماري في حوالي عام ١٨٢٠ ق.م، ولم تستمر أكثر من مئتين عاماً، حيث انتهت على يد حمورابي البابلي حوالي عام ١٧٦٠ ق.م، وحكم في هذه الفترة أربعة من ملوك ماري هم: (١) ياجيد ليم (١٨٢٠ - ١٨١٠ ق.م) - (٢) ياخفون ليم (١٨١٠ - ١٨٩٦ ق.م) - (٣) سومو يامام (١٧٩٦ - ١٧٩٢ ق.م) (٤) ياسماخ أدد الأشوري (١٧٩٢ - ١٧٨٢ ق.م)، ثم الملك «زمرى ليم» (١٧٨٢ - ١٧٦٠ ق.م)^(٢).

(١) ماري: كلمة سومرية من جهة الاشتقاق، شبيهة باسم البلاد «أمورو» و«مارتو» أي بلاد الغرب، وهي الآن «تل الحريري» جنوب مصب نهر الخابور، بالقرب من «دير الرزة» على مبعده ميل واحد غربي الفرات، قرب بلدة «أبو كمال» (أبو كمال) قرب الحدود العراقية السورية، وقد أصبحت ماري والبلاد المحيطة بها خلال القرن العشرين قبل الميلاد أمورية في سكانها وحضارتها وحكوماتها (أنظر: قاموس الكتاب المقدس ١/١١٩)، وكذا

M.Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 46.

W.F.Leemans, Foreign Trade in The Old Babylonian Period, Leiden, 1960, p. 102.

هذا وقد اكتشف «أندريه بارو» في عام ١٩٣٣ م حوالي عشرين ألف لوحة فخارية مكتوبة بالخط المسماري في قصر الملك «زمرى ليم» آخر ملوك ماري، وهي محفوظة الآن بمتحف اللوفر في باريس، وتقسم إلى قسمين، الأول:صوص اقتصادية وإدارية، والثاني رسائل متبادلة بين ملوك ماري وأبائهم وحلفائهم وقد نشرت هذه الوثائق تحت عنوان Archives Royales de Mari وقد ظهر منها حتى الآن ١٦ جزءاً، وقد شارك في هذا العمل العلمي الضخم كثير من الأستاذة المتخصصين.

(2) W.W.Hallo and W.K. Simpson, The Ancient Near East, USA 1971, p. 99.

L.Oppenheim, The Archives of The Palace of Mari, JNES, 11, 1925, p. 130.

على أن هناك من يذهب إلى أن «زمرى ليم» إنما قد حكم عامين آخرين تحت السيادة البابلية التي عمل على التخلص منها، الأمر الذي دعا «حمورابي»^(٣) إلى تدمير «مارى» تدميراً نهائياً، ونهب معبد عشتار والقصر الملكي، واضرام النيران في المدينة التي لم تقم لها بعد ذلك قائمة^(٤).

هذا وكانت مملكة «زمرى ليم» تتكون أساساً من وادي الفرات الأوسط، فيما بين مصب نهر بلخ شمالاً، و«نوتول» (خيت الحالية) جنوباً. وقد عمل «زمرى ليم» على ضم معظم أملاك «شمسي أدو» الآشوري في الغرب، والتي امتدت حتى الشبة الكبرى للفرات غرباً، وشملت الجزء الأكبر من «ميزوبوتاميا العليا». وحوض الخابور وبلغ حتى ثنية الفرات، وربما امتد نفوذه إلى إقليم «إيداماراز» الذي يتاخم أعالي الفرات، كما تشير إلى ذلك نصوص «مارى»^(٥).

ويذهب بعض الباحثين إلى أن نجاح «زمرى ليم» في توسيع ملكه ومجال نفوذه، حتى غدت مملكة «مارى» في عهده من القوى الكبرى في الشرق الأدنى القديم، إنما يرجع إلى أنه كان رجل حرب^(٦)، كثير التنقل والحركة، وغالباً ما كان في معسكر جنده خارج عاصمته «مارى»^(٧). فضلاً عن حشده لأعداد ضخمة من العناصر السامية الغربية وخاصة الخائبيين الذين اعتمد عليهم «زمرى

J.R. Kupper, Les Nomades en Mesopotamie au Temps Les Rois de Mari, 1957, p. 33.

(٣) اختلف العلماء في تاريخ عصر حمورابي، ومن لم فقد قدموا لنا التواريخ التالية: (١٨٤٨ - ١٨٠٦ ق.م)، (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م)، (١٧٩١ - ١٧٤٩ ق.م)، (١٧٤٢ - ١٦٨٦ ق.م)، (١٦٨٦ ق.م)، (١٧٣٠-١٦٨٥ ق.م)، (١٧٢٤-١٦٨٢ ق.م) (انظر: محمد عبد القادر، الساميون في العصور القديمة من ٢٥١).

(4) J.R. Kupper, in BA, 41, p. 153 - 154.

(5) J.R. Kupper, Archives Royal de Mari, Vol. VI, Paris, 1954, No 76.

J.R. Kupper, Northern Mesopotamia and Syria, in CAH, II, Part, 1, 1973, p. 9.

(6) Ibid, p. 9.

(٧) محمد عبد اللطيف، سجلات «مارى».

ليم، بصفة أساسية في تكوين قواته المقاتلة، وقد أسفرت هذه الجهود عن مكانة متميزة للمملكة ماري في عهد «زمرى ليم» كقوى ضاربة كبرى في الشرق الأدنى القديم، حتى قضى عليها «حمورابي» في عام ١٧٦٠ قبل الميلاد^(١).

بقيت الإشارة إلى أن الاكتشافات التي قام بها الفرنسيون في ماري في الفترة (١٩٣٣ - ١٩٣٩) والفترة (١٩٥١ - ١٩٥٥) أظهرت أنه كان بهذه المنطقة حضارة تنقسم إلى عصرين، الواحد: سابق لعصر سرجون الأول الاكدي، وهو يمثل حضارة سومرية، والآخر: أموري في الألف الثاني قبل الميلاد.
(٩) مجلدو:

مجدو: تل المسلم الحالية، ونقع إلى الغرب قليلا من بحيرة طبرية، وعلى بعد ٣٢ كيلا، جنوبي شرق حيفا، في المنطقة الجنوبية من سلسلة الجبال التي تنتهي بجبل الكرمل في الشمال.

وقد حدثت في مجدو أولى معارك جبار الحروب الفرعون تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) ضد أمراء الشام في عام ١٤٦٨ ق.م، وكتب له فيها نجحا بعيد المدى، وانتصارا ساحقا، هذا وفي «مجدو» أحد الثكنات العسكرية الخاصة لفصائل المعجلات الحربية، التي أقامها سليمان عليه السلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م) وطبقا لما جاء في سفر الملوك الأول (١٩/٩، ١٦/١٠) فقد كشف في «مجدو» إسطبلات للخيل، وحظائر للعربات، مع بعضها، وكانت تلك التي في «مجدو» تسع ١٥ حربة، ٤٥٠ حصانا^(٢).

(١) عبد الحميد زاهد: الشرق الخالد ص ٧٣ - ٧٤. محمد بيومي مهران: هو إسرائيل ١٢ / ٦٨١ - ٦٨٢ (الطبعة الرابعة عام ١٩٩٩ م).

(2) W.F.Albright, From Stone Age to Christianity, p. 227, Y.Yadin, New Light on Solomon's Megido, BA, 23, 1960, p. 62 F. C.Watzinger, Denk Maler Palastine, I, 1933, p 67G, Fig. 80 - 81.

الفصل الرابع شرق الأردن المملكة الأردنية الهاشمية (١) الادميون

١- البتراء:

كانت البتراء - عاصمة مملكة أدوم - تعرف باسم «سلع»، ثم تغير اسمها إلى «البتراء»، وهي واحدة من أشهر مدن العالم القديم، وقد أصبحت عاصمة للأنباط - بعد أدوم - وتقع إلى الشرق من وادي عربة في منتصف المسافة تقريبا بين رأس خليج العقبة والبحر الميت، أو على مبعدة ٨٠ كيلا إلى الجنوب من البحر الميت^(١)، والبتراء - على أي حال - كلمة يونانية تعني «الصخر»^(٢) ولعلها ترجمة للكلمة العبرية «سلع» التي جاءت في التوراة^(٣)، كما تعني كذلك «الشق في الصخر» وربما كانت التسمية العبرية أكثر دقة، لأن مدخل البتراء يتسم بوجود أخدود عميق بين جبلين، يعرف اليوم باسم «السيق»، ولعله لفظ نبطي متوارث، حرفة الناس عن «الشق» في السبعية القديمة^(٤)، وأيما ما كان الأمر فلقد عرف العرب هذه التسمية كذلك، وقد ذكر «ياقوت الحموي» (١١٧٨-١٢٢٨م) بأن سلع حصن بوادي موسى عليه السلام، بقرب بيت المقدس^(٥).

وأما الاسم العربي للبتراء فهو «الرقيم» وربما كان هو إسم ثان للبتراء، كان الإغريق يعرفونها به، وهو Arke فحرفه العرب إلى الرقيم، وربما أرادوا بالرقيم «خزانة فرعون» بالذات، وأما اسمها الحديث فوادي موسى^(٦). ونقرأ في التوراة أن «أمصيا» (٨٠٠ - ٧٨٣ ق.م) قد خلف أباه «يهواش»

(١) قاموس الكتاب المقدس ٤٤٥/١ - ٤٤٦، جواد علي ٥١/٣.

(2) Pliny, 2.p. 447.

(٣) اشعيا ١٠: ١٦، ١١: ٤٢.

(٤) لانكستر هاردينج: آثار الأردن، ترجمة سليمان موسى، عمان ١٩٦٥ من ١١٧.

(٥) ياقوت - معجم البلدان ٢: ٦/٣ (بيروت ١١٥٥).

(٦) جرجي زيدان: للرحح السابق من ٧٣، ياقوت ٣٤٦/٥.

(٨٣٧-١٠٠ ق.م) على عرش يهوذا، وأنه حاول أن يسترد أودم وملك وقد نجح في الاستيلاء على الأخيرة، ومن ثم فقد أطلق عليها إسم «بقتليل» بمعنى الخاضع لله^(٧).

وعلى أى حال، فلقد استمرت البتراء مدينة هامة حتى سقطت في أيدي الرومان في عام ١٠٥ م أو (١٠٦ م)، وسرعان ما أخذت أهميتها تتضاءل شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت في ذمة التاريخ^(٨)، إلى أن كشف عنها «بوخاردت» (١٨٦٣ - ١٩٣٨ م) في عام ١٨١٢^(٩).

٢- بصرة:

ومكانها الآن «بصيرة» الحديثة، على مبعدة ٣٢ كيلاً إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت.

٣- تيمان:

على مقربة من البتراء. وتيمان: إسم عبري، بمعنى «اليميني أو الجنوبي»، ونذهب التوراة إلى أنه إسم بكر «إليفاز بن عيسو»، والإقليم الذي تسكنه، شمالي أودم، ويدعى أبناء الشرق، أو «تيمن»، وقد اشتهر أهلهم بالحكمة (تكوين ١١/٣٦، ١٥، ٣٤، إرميا ٧/٤٩، حزقيال ١٣/٢٥).

٤- عصيون جابر:

كان يظن من قبل، أن «عصيون جابر» إنما تقع عند «عين الغديان» في قمر وادي العربية، ثم اكتشفها «نلسون جلوك» في موقع تل الخليفة، على مبعدة ٥٠٠ قدم من ساحل البحر على الطرف الشمالي لخليج العقبة بالقرب من ميناء «إيلات»^(١٠).

(٧) ملوك ثان ١٤-٧.

وكذا F.Altheim and Rstichl, op.cit., p. 283.

وكذا A.B.W. Kennedy, Petra, Its History and Monuments, London, 1925, p. 78.

A.Lods, Israel, From its Beginnings to the middle of the eighth century, London, 1962, p. 385 - 386.

(٨) يليب حتى: المرجع السابق ص ٣٤٢ - ٣٢٤، مكابيون أول ٢٦:٥ - ٢٨.

(٩) J.L. Burckhardt, Travels in Syria and The Holy Land, London, 1822, p. 418 - 434.

(١٠) قديم الكتاب المقدس ١٧١/١، حواد على ٦٣٧/١، موسكاتي: المرجع السابق ص ٢٨٠.

وكذا J Finegan, op.cit. p. 181.

هذا وقد عرفت بلاد أدرم في اليونانية باسم «أدوميا» وأما «برية أدرم» فهي الواقعة جنوب البحر الميت، وقد انتهت حياة الأدرميين في القرن الثاني قبل الميلاد، وذلك حين استولى «يوحنا المكاابي» (١٣٥ - ١٠٤ ق.م) على حبرون وغيرها من المدن التي كان الأدرميون قد استولوا عليها، ثم أجبروهم بعد ذلك على الختان واعتناق اليهودية، في عام ١٢٦ ق.م رغبة منه في إزالة الفوارق الدينية بينهم وبين اليهود، وحيا في نشر اليهودية بينهم^(١١).

(٢) المزايسون

١- ديمون:

في عام ١٩٥٠ / ١٩٥١، قامت المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في أورشليم بحفائر في «ديمون» - عاصمة مؤاب - ألت بتتائج كثيرة، وكشفت عن عدد من المباني والفخار الذي يرجع إلى عصر البرونز المبكر، وحتى العصر العربي المبكر، ولكنها في الغالب لم تكشف شيئا يتصل بعصر البرونز المتأخر، وعلى أي حال فلقد كشف عن عدد من اللوحات الصغيرة التي يمكن أن تؤرخ - مثلها في ذلك مثل الحجر المزاوي - بالقرن التاسع قبل الميلاد^(١٢).

هذا وقد كشفت آثار كثيرة في «مملكة مؤاب»، لعل أشهرها ماكان في مدن: ربة مؤاب، وكرك وماديا ومعين ولم رصاص.

(٣) العمونيسون

١- ربة عمون (عمان):

كانت «ربة عمون» - أو «ربة» - عاصمة مملكة العمونيين، قد سميت في العصر الاغريقي «فيلا دلفيا»، نسبة إلى ملك مصر «بطليموس الثاني فيلا دلفيوس» (٢٨٤ - ٢٤٦ ق.م)، وهي في موقع تشغله حاليا عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية «عمان»، حيث يوجد في اسمها جزء من إسم العمونيين^(١٣).

Nelson Glusck, The Other Side of The Jordan, New Haven, 1945, p. 50 - 133.

(١١) إسرائيل ولفنسون: المرحع السابق ص ١٠٥.

(١٢) M. Noth, op cit., p 157 - 158.

هذا وقد استطاع العمونيون أن يكونوا دولة مستقرة منظمة منذ فترة مبكرة، ومن ثم فقد كانوا يحكمون بملك قبل أن تبرز فكرة الملكية في إسرائيل^(١٤)، هذا وبدل التحالف الذي أقاموه مع جيرانهم الشماليين في عام ٨٥٣ ق.م، - حيث اشترك ملك عمون في حلف يضم اثني عشر ملكا على رأسهم بنحدد ملك دمشق، ضد شمنصر الثالث^(١٥)، - بدل هذا التحالف على أنهم كانوا أقرباء.

(١٣) صموئيل ١٠ - ١٢

(14) S.A. Cook, *op.cit.* p. 363

ركننا 6 - 245 M.Nothe, *op.cit.*, p.

ركننا 27. J.A.Montgomery, *op.cit.*, p.

٤- مملكتا الأموريين في شرق الأردن

(١) مملكة سيبون

١- حشبون:

وتعرف «حشبون» الآن باسم «حسبان»، وهي مدينة خربة قائمة على تل منعزل بين أرنون وبيوق، وتقع حشبون على مبعدة ١٣ كيلا شمال «مادبا» وهي عاصمة «مملكة سيبون»، والتي تقع بجانب نهر الأردن، وتمتد حدودها من أرنون (وادي مؤاب) إلى «بيوق»^(١) (وادي الزرقاء)، ومن الأردن إلى الصحراء^(٢)، وكانت «حشبون»^(٣) عاصمة لها.

٢- باشان:

كانت المملكة الثانية «هي مملكة عوج - ملك باشان»^(٤)، وتمتد من «بيوق»، وحتى جبل حرمون (جبل الشيخ)^(٥)، وقد هزم العبرانيون هذين الملكين (سيحون وعوج) واحتلوا أرضهما^(٦)، وذلك عندما كان بنو إسرائيل يتجولون هنا وهناك في شرق الأردن، دون أن يستطيعوا العبور إلى غربه، محتكين بكل القبائل

(١) بيوق: هو نهر الزرقاء الذي ينبع إلى الغرب من عمان، ثم يسيل شرقاً ثم شمالاً، ماراً بمدينة «الزرقاء» التي حملت اسمه، ثم يصب في الأردن عند نقطة تقع على مبعدة ٧٠ كيلا إلى الشمال من الحجر الميت (قاموس الكتاب المقدس ١٠٥١/٢).

(٢) قضاة ٢٢/١١.

(٣) حشبون: وتعرف الآن باسم «حسبان»، وهي مدينة خربة قائمة على تل منعزل بين أرنون وبيوق، وتقع على مبعدة ١٣ كيلا شمال «مادبا» (قاموس الكتاب المقدس ٣٠٧/١ - ٣٠٨).

(٤) باشان: منطقة في شرق الأردن بين جبلي حرمون وحلماد، وسميت باشان نسبة إلى جبل هاك، وتشمل حوران والجولان واللدجة، ويحدها شمالاً أراضي دمشق، وشرقاً بادية سورية، وجنوباً أرض حلماد، وغرباً غور الأردن، ويخترق جانبها الشرقي جبل الدروز، وهو جبل باشان القديم (قاموس الكتاب المقدس ١٠٥٩/١). M.Unger, op.cit., p. 127.

(٥) ثنية ٤/٣، ٩، وأنظر: M.F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 45 - 46.

(٦) قضاة ١٩/١١ - ٢٣، قاموس الكتاب المقدس ١١٩/١، محمد بيومي مهران، إسرائيل ٤٩١/١ - ٤٩٢. وأنظر طبعة ١٩٩٩ م.

الساکمة هناك، والرافضة أبدا استقبالهم، وأخيرا نجحوا في تحدى «سیحون» في «باهص»^(٧)، كما نجحوا كذلك في تحدى «عوج» ملك بانشان في «أذرعى»^(٨)، وبذلك تمكنوا من الوصول إلى الأردن في مقابل «أريحا»^(٩).

(٧) باهص: وقع على مبعدة كيلو ونصف جوى زرقاء معين، ١٩ كيلو شرقى البحر الميت، وليل انها قرية «أم المواليد» أو «شجرة اسكنبر» (قاموس الكتاب المقدس ١٠٤٩/٢).

(٨) اذرعى: تسمى الآن «درعة» وقع فى وادى زبد، على مبعدة ٤٧، كيلو شرقى الطرف الجنوبى لبحيرة طبرية، وعلى الحدود بين سورية والأردن (قاموس الكتاب المقدس ٤٢/١).

(٩) عدد ٢١/٢١ - ٣٥، تثنى ٢٦/٢ - ١١/٣.

الباب الرابع

السودان والمغرب القديم

الفصل الأول

السودان (النوبة العليا)

تقديم :

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن السودان - أو بلاد النوبة - إنما عرفت بعدة أسماء ربما لأن بلاد النوبة لم تكن محددة تماماً، فتاريخها عبارة عن سجل واسع لتحركات الجيوش، ومن ثم فلم تصل النوبة إلى أن تستقل بنفسها، ومع أن سكانها الحاليين لهم جنسية مميزة. فهم يرتبطون ارتباطاً وثيقاً عن طريق الدم والأسلوب الواحد في الحياة، غير أن الوطن النوبي مقسم بين الشمال والجنوب، فالنوبة السفلى تمتد فيما بين الجندل الأول، وبلدة أدندان، وهي جزء من مصر، وأما النوبة العليا، فتتمتد فيما بين أدندان ودنقلة، وهي جزء من السودان.

هذا فضلاً عن أن النوبيين أنفسهم إنما يختلفون في لغتهم - حتى يوم الناس هذا - ومن ثم فإن الحدود اللغوية لا تتفق مع الحدود الجغرافية للنوبة العليا والسفلى، فبينما يتحدث سكان المنطقة فيما بين أسوان والسبوع حتى اليوم، باللهجة المعروفة باسم «كنوز»، يتحدث سكان المنطقة فيما بين كورسكو، وحتى الجندل الثالث «الحسي»، وفي نفس الوقت يتحدث سكان الجنوب «دنقلى» وأن كانت هذه اللهجة ليست إلا شكلاً آخر للكنوز، وربما أمكن القول أن الدناقلة والكنوز إنما تكون لغتهما مجموعة متشابهة، بينما تكون لغة السكوت والحس والغديجة مجموعة ثانية متشابهة.

وعلى أية حال، فاللغة النوبية - وهي تنتمي إلى نوع خاص من اللسان الأفريقي - لا تكتب، ومن ثم فهي تعتمد على اللغة العربية في الكتابة، فالعربية إذن لغة الكتابة في جميع أنحاء النوبة^(١).

(١) ووالتر امري بمصر وبلاد النوبة ص ١٠ - ١١، وكذا J.A. Hamilton, The Egyptian Sudan, London, 1965.

هذا ونصف «مرى»^(٢) اللغة النوبية بأنها لا تتفق في مفرداتها اتفاقاً كبيراً، مع أية لغة أخرى، بل أن كثيراً جداً من أصول الكلمات النوبية ليس له نظير في جميع اللغات التي قررت بها، وأما اللغات التي تشابه اللغة النوبية في مفرداتها، فأكثرها، دونما ريب، لغات حامية، هذا فضلاً عن أن الصبغة الحامية هي الغالبة على اللغة النوبية، سواء من ناحية المفردات أو النحو والصرف، غير أن هناك اختلافاً كبيراً بينها وبين اللغات الحامية في «النظام الصوتي» (phonetic System)، وإن كان له نظير في اللغات النيلية في جنوب السودان كلغة الباري.

وهكذا يذهب العلماء على أن اللغة النوبية إنما تشتمل على عناصر حامية، وأخرى غير حامية، ولعل مصدر هذا العنصر الغريب إنما هو بعض الشعوب الجنوبية، ومن ثم يذهب البعض إلى أن اللغة النوبية إنما هي لغة حامية، بها مؤثرات أجنبية، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أنها لغة نيلية جنوبية مثل «لغة الباري»، ثم تعرضت لمؤثرات حامية على مدى العصور.

هذا وقد تأثرت اللغة النوبية كذلك بلغات أخرى، كالمصرية القديمة والحبشية والعربية، ومن ثم فقد دخلتها مفردات من الحبشة عن طريق مروي، وقبل ذلك وبعده، مفردات اللغة المصرية القديمة، كما استعارت اللغة النوبية كلمات عربية بما يقرب من ثلث مفرداتها^(٣).

وأما أهم الأسماء التي أطلقت على بلاد النوبة (السودان) :

- ١- تا - ميقى ٢- تا - نحسيو ٣- خنت - حن - نفر ٤- كوش
- ٥- النوبة ٦- الأثيوبيون ٧- دود يكاشينوس ٨- بلاد السودان

(2) G.W.Murry, English - Nubian Dictionary, London, 1923, p.X.p. 168.

(٣) محمد عوض محمد: السودان الشمالي - سكانه وثقافته - القاهرة ١٩٥١ من ٢٨٦ - ٢٨٧، رولتر امري، المرجع السابق ص ١١.

(٤) أنظر عن أسماء النوبة القديمة (محمد يوسى مهران. تاريخ السودان القديم ص ١١١ - ١٢٤).

٩- أرض الزرع^(٤).

وأما أهم مكان النوبة القدامى:

١- الحاي - أو المدجاير ٢- ورات ٤- ستار ٥- إرنث ٦- يام^(٥).

وأما سكان النوبة الحاليين:

١- الكنوز ٢- العليقات ٣- الفديجة ٤- الكشاف ٥- السكوت

٦- المحسى ٧- الدناقلة^(٦).

ولنتحدث الآن عن المدن الكبرى في السودان - أو النوبة العليا، ولنبدأ

بالعاصمة «نباتا» (نبتة):

(١) نباتا:

قامت مدينة «نباتا» - أو نبتة - على أنقاض مدينة أو مستعمرة مصرية تنسب في بدايتها إلى عهد «تحتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م)، على مقربة من الصخرة الضخمة المعروفة باسم «جبل البرقل» (Gebel Barkal) أو «الجبل المقدس» (Holy Mountain) - أو كما يسمى في المصرية القديمة «جور - وعب» أو «دو - واعب» - حيث اعتبرته النصوص المصرية القديمة جبلا طاهرا، وعرشا مقدسا لأمن طيبة، والصخرة، على أية حال، ليست شديدة الارتفاع، ولكنها تلفت النظر بتفردها في وسط السهل، على مبعده ميل من نهر النيل^(٧).

وتقع «نباتا» (Napata) عند خط عرض ٢٥° ١٨'، وخط طول ٤٦° ٣١'، على

(٥) أنظر عن أسماء النوبة القديمة (محمد يوسى مهران: تاريخ السودان القديم من ١٢٥ - ١٢٦).

(٦) أنظر عن سكان النوبة الحاليين (محمد يوسى مهران: تاريخ السودان القديم من ١٣٦ - ١٤٢).

(7) A.J.Arkell, op.cit, p. 112.

وكنّا A.H.Gardiner, op.cit, p. 335.

R.O.Faulkner, A Concise Dictionary of Middle Egyptian, Oxford, 1972, p. 57, 320.

وكنّا B.G.Trigger, op.cit, p. 140.

(8) R.Engelbuch, Index of Egyptain Sudanese Sites from The Cairo Museum, Cairo, 1931, p. 27.

الضفة الشرقية للنيل^(٨)، وعلى مسافة قصيرة إلى الشمال من الجندل الرابع، عند سفح جبل برقل (بركل)، جنوبى «كريمة» (Kareima)، وعلى مبعده ١٠٣٥ كيلا جنوبى وادى حلقا، وفى مقابل مدينة «مروى» الحديثة عبر النيل تقريباً (وهى ليست مروى القديمة التى تشغل قرية البحارابة - على مبعده ٢٣٠ كيلا شمالي الخرطوم - جزءا منها)، وعلى الضفة الأخرى للنيل تقع أهرام «نورى» (٣٥ كيلا شمالي الجندل الثالث) ومجموعة أهرام جبل البرقل.

وكان اختيار «نباتا» (نبته) كعاصمة للدولة (ملكة نباتا) اختيارا موقفا، يقوم على أساس جغرافى سليم، فهناك يمتد السهل الزراعى نسبيا، ويسهل الإتصال ببقية أنحاء السودان القديم، فمدينة نبته تتصل بالجنوب عن طريق النيل، فضلا عن الطريق البرى الذى يبدأ عند «أبودوم»، ويخترق صحراء «بيوضة» حتى يصل إلى «شدى» - على مبعده ٢١٣ كيلا شمالي الخرطوم - ويربطها بالشمال نهر النيل والطريق البرى المحاذى لـ، هذا فضلا عن وجود صناعة الحديد قريبا منها، كما أنها فى منطقة متشعبة بالحضارة المصرية، وبعدة عن مكان الغزو، بحيث نستطيع أن نتصور دون أن نتعرض للغزو، وكانت على أيام «توت عتح آمون» (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق.م) بمثابة الحد الجنوبي لإمارة «نائب الملك فى كوش»، هذا ولتلقى فى عهد الرعامسة بمخلفات فى هذه المنطقة وإشارات كثيرة فى النصوص المصرية، التى تختفى تماما فى عهد الأسرتين الخادية والعشرين والثانية والعشرين.

ومع ذلك فلنا أن تؤكد أن الثقافة المصرية ظلت قائمة هناك فى حالة ركود، مصحوبة بالعاطفة المتأججة نحو «آمون رع»، رب طيبة، حيث اعتنق القوم هناك فى نباتا ديانتهم منذ زمن طويل، حتى غدت مركزاً لعبادة آمون فى السودان، الذى قدس هناك بصفته «سيد القطرين»، «القائم على جبل نبته المقدس»، وبني له معبد ضخم فى حوض جبل البرقل، زين على الطريقة المصرية، حتى أن المناظر التى كانت تزين الجدران هناك، لا تختلف فى شئ عن تلك التى تزين جدران معابد آمون فى مصر نفسها^(٩).

(9) D.Dunham and M.F.L. Macadam, Names and Relationships of The Royal Family of Napata, J.EA, 35, 1949, p. 139 - 149.

ولعل أول ذكر لمدينة «ناباتا» في التاريخ المصري - كمدينة محصنة تقع في أقصى الجنوب - إنما كان على أيام «أمنحيب الثاني» (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م.)، وسرعان ما ازدادت بالمعابد والقصور، ولكنها لم تبلغ ذروة مجدها إلا في القرن الثامن قبل الميلاد، عند أصبحت عاصمة لمملكة كوش، التي استقل بها أبناؤها عن مصر، وظلت كذلك حتى نقلت العاصمة منها إلى «مروي» - على مبعده ٢١٣ كيلا شمالي الخرطوم - وذلك في عام ٥٩١ قبل الميلاد، وأصبحت نبتة عاصمة دينية فحسب، وظل الملوك يدفنون في مقابر «نوري» حتى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد^(١٠).

وهكذا قامت دولة في ناباتا عرفت عند المؤرخ المصري «مانيتو» (٣٢٣ - ٢٤٥ ق.م.) باسم «الأسرة الخامسة والعشرين»، وقد سجل لها أسماء ثلاثة من الملوك هم: سبكون (شيكو) و «سبكوس» (شبتكو) و «تراكوس» (طهرقا)^(١١). هذا ولم يدون «مانيتو» إسم أول وأشهر ملك من هذه الأسرة (يقنخي)، هذا فضلا عن اختياره للملك «سبكون» كمؤسس للأسرة، إنما يعتمد على أسس قوية، ذلك لأنه أول ملوك الأسرة، ولذي حكم دولة تمتد من وراء الجندل الرابع وحتى شمال الدلتا^(١٢)، وعلى أية حال، فإن الآثار إنما تقدم لنا ملوكا آخرين ينسبون

H.Kees, Ancient Egypten, London, 1961, p. 240

وكذا

A.H.Gardiner, op.cit, p. 335.

وكذا

D.M.Dixon, The Origin of The Kingdom of Kush (Napata - Meroe), JEA, 50, 1964, p. 121 - 132.

وكذا W.B.Emery, Nubian Treasure, 1948, p. 24.

J.Leciant, Sur La Nuhle Ancienne, Quelques Publications Recentes exter Revue Hisotrique, 489, 1949, p. 163 - 178.

(١٠) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق ص ٧٧ - ٧٨، جان لكلان: المرجع السابق ص ٢٨٨،

G.A.Wainwright, The Date of The Meroe, JEA, 38, 1952, p. 65 - 77.

(11) W.G.Waddell, Menetho, With an English Translation, London, 1940, p. 167 - 169.

(12) J.Leciant et J.Yoyotte, Notes d'histoire de Civilisation Ethio-piennes, BIFAO, 51, 1952, p. 9.

إلى هذه الأسرة هم : ألارا - كاشتا - بعنقى - ثانوت أماني، وزاد بعض آخر :
أتلانرسا - سنك أماني سكن - أنل أماني - إسبنا (JEA, 35, 1949, p. 149).
وأيا ما كان الأمر، فلقد قامت في نباتا - أثناء غياب السيادة المصرية هناك -
أسرة يرئب جمهرة المؤرخين ملوكه: كالتالي: (١) ألارا (٢) كاشتا (٣) بعنقى
(٧٥٠ - ٧٣٠ ق.م) (٤) شبكر (٧٠٠ - ٦٩٥ ق.م) (٥) شبتكو (٦٩٥ -
٦٩٠ ق.م) (٦) طهرقا (٦٨٩ - ٦٦٤ ق.م) (٧) ثانوت أماني (٦٦٤ - ٦٥٦
ق.م).

(٢) مروى:

تقع مدينة «مروى» - وتدعى حاليا البحراوية - شمالي شندى، وعلى مبعدة
٢١٣ كيلا شمالي الخرطوم، وعلى مبعدة ١٠٨٣ كيلا جنوبي وادى حلفا
(بطريق النهر)، ٨٦٦ كيلا (بطريق حلفا - أبو حمد) - فى المنطقة التى تطابق
تقريبا سهل «البطانة» الحالى، والذى يقع بين نهر العظيرة والنيل الأزرق، وهو
عبارة عن لسان هضبي عريض منبسطة تمتد من الهضبة الحبشية فى اتجاه الشمال
الشرقى، ويقع فوق كتوز ٥٠٠ م، ويحتوى على عدة نقاط مرتفعة، يصل أعلاها
إلى ٨٦٠ م، بالقرب من قلعة النحل، جنوب غربى القضايف (١٣).

هذا وقد انتقلت العاصمة من «نباتا» إلى «مروى» فى عام ٥٩١ ق.م، وأما
سبب انتقال العاصمة من «نباتا» إلى «مروى»، فلقد ذهب البعض إلى أنها على
أيام «بسماتيك الثانى» (٥٩٥ - ٥٨٩ ق.م) من الأسرة السادسة والعشرين، ربما
فكرت أسرة ملوك نباتا فى استعادة نفوذها فى مصر، ذلك النفوذ الذى كان قد
ضاع عقب فرار «ثانوت أماني» من طيبة، ومن لم فقد اضطر «بسماتيك الثانى»
تلافيا للخطر، أن يرسل حملة إلى الجنوب، وصلت إلى «دنقلة» على الأقل،
وتجحت إلى أبعد الحدود فى سحق الجيوش النوبية فى أرضها، وقد سجلت نتائج
هذه الحملة على لوحين عشر عليهما فى الكرنك وتانيس، ولا ريب فى أن هذه
الحملة إنما كانت سببا فى نقل العاصمة من نباتا إلى مروى. فى عام ٥٩١ ق.م،

(١٣) حرة حسين حودة: العالم العربى - دراسة فى الحضارة الإقليمية - الاسكندرية ١٩٨٦ ص
٦٣١، محمد رياض، وكوثر عبد الرسول: أفريقيا - بيروت ١٩٧٣ ص ٣٩٧.

على أيام الملك «إسبلتا» ٥٩٣ - ٥٦٨ ق.م، (١١).

على أن هناك سببا آخر لنقل العاصمة إلى مروي، يستند إلى عوامل مناخية واقتصادية، فالسهوب حول مدينة مروي أفسح منها حول مدينة نباتا، التي تحاصرها الصحراء، ومن ثم فقد قامت حول مروي الزراعة وتربية الماشية، حيث يسقط المطر صيفاً، وقد حفرت أحواض ضخمة للرى حول المواقع الرئيسية، ومن المؤكد أن التجارة كانت نشطة، ذلك لأن مروي إما كانت تتمتع بموقع ممتاز على الطريق بين البحر الأحمر وأعالى النيل ونشاد، هذا فضلاً عن توفر الأشجار التي يمكن الاستفادة منها في صهر الحديد الموجود في الصخور الرملية الموجودة في المنطقة، وتشير أكرولم نقايات الحديد حول مروي إلى ضخامة انتاجه، وإن كانت الاتجاهات الحديثة - كما أشرنا من قبل - لا تقر وصف مروي بأنها «برمنجهام أفريقيا» لأنه وصف ينطوي على كثير من المبالغة (١٥).

وأما من الناحية الدينية فليست هناك في «وثائق التتويج» ما يشير إلى أن مروي بها معبداً للاله آمون، ولكنها - في نهاية القرن الأول قبل الميلاد - حظيت بأحد

(١٤) محمد يوسى مهران: مصر ٦٥٤/٣، جان للكلان: المرجع السابق ص ٢٨٨، محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق ص ١٧٣ - ١٧٤.

وكدنا W.B.Emery, Egypt in Nubia, 1965.

S.Sauneron et J. Yoyotte, La Campagne Nubienne de psammetique, II et sa Signification Historique, BIFAO, 50, 1952, p. 10

H.S.K.Bakry, Psammetichus, II, and His Newly-found Stela at Shellae, Oriens Antiques, 6, 1967, p. 225 224.

وكدنا A.H.Gardiner, op.cit, p. 359

وكدنا Herodotus, II, 161.

(١٥) أنظر G.A.Wainwringy, SNR, 26, 1945, p. 5 - 36.

وكدنا A.H.Sayce, LAAA, 4, 1911, p. 55.

وكدنا A.J.Arkell CA, 7, 1966, p. 45 F.

وكدنا B.G.Trigger, DAHS, II, 1969, p. 23 - 50.

وكدنا H.Amborns, op.cit, p. 71 - 95.

وكدنا R.F.Tylecote, op.cit, p. 67 - 72.

هذه المعابد، وأقيمت لوحة أمامه عليها نقش طويل بالخط المروى، تشير إلى أن أقدم الأسماء التي وجدت بهذا المعبد، إنما ترجع إلى عهد الملك «إمنى خبلى» (Amanithahale) (٦٥ - ٤١ ق.م)، والملكة «إمنى - شختى» (Amanishuthate) (٤١ - ١٢ ق.م)، وربما أصبح هذا المعبد فى الفترة الأخيرة المعبد الرئيسى بالمملكة.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه ابتداء من هذه الفترة بنيت معابد متشابهة لآمون رع، وإن كانت صغيرة الحجم، وذلك فى «مروى» وغيرها، وقد قام معبد آمون فى مروى، بدور معبد آمون فى نباتا، (فى جبل البرقل) ومن المؤكد أن معبد مروى إنما كان منافسا خطيرا، لنظيره فى نباتا، يتازعه الصدارة فى ميدانه، بل إنه فى النهاية يز معابد آمون جميعا، واحتل مكانها.

هذا وقد عاصرت دولة مروى حكم الفرس والبطالمة والرومان فى مصر، وفى عام ٥٢٤/٥٢٥ ق.م، ظهر الخطر الفارسى فى مروى، ونحن نعرف جواب الملك المروى على رسل الملك الفارسى «قمبيز» (٥٢٥ - ٥٢٢ ق.م) فلقد تناول قوسا كبيرا، وأغرق فى نزعته، وناولته إياهم، قائلا «إذا استطعتم أن تنزعوا فى أقواس كهذه، فاقدموا على قتالنا» وعادت البعثة، وقيل أن «قمبيز» عجز عن علاج تلك لقوس، ومع ذلك، فلقد أسرع قمبيز إلى نباتا، على رأس جيش ضخم، عبر كتيبان الصحراء، ومنطقة «بطن الحجر» (وتمتد من وادى جلفا جنوبا على مدى ١٤٤ كيلا)، قففتك العواصف بجيشه، وفشلت الحملة فشلا ذريعا، ومع ذلك، فقد اعتبر الفرس أهل كوش فى عداد الشعوب الخاضعة لهم - كما أشارت إلى ذلك لوحة من سوسة - ومن المؤكد أن جزءا صغيرا من المملكة قد خضع للفرس، وأن فصائل كوشية قد انخرطت فى جيوش «دارا الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) و«أكزركسيس الأول» (٤٨٦ - ٤٦٥ ق.م) (١٦).

(١٦) محمد يوسى مهران: مصر ٦٦٧/٣ - ٦٦٨، جان لكان، المرجع السابق ص ٢٨٨، أحمد

محمد على الحاكم وآخرون: حضارة نباتا ومروى - تاريخ أفريقيا العام - الجزء الثانى ص ٣٢٥.

وكتا A.Rowe, ASAE, 38, 1938, p. 172 - 193

وكتا Herodotus, III, 17 - 21, 114.

وكتا P.Montet, Kemi, 8, 1946, p. 39 - 40.

(٣) الخرطوم:

الخرطوم: عاصمة السودان الحالية، وقد أنشأها المصريون في عام ١٨٢٢م، على أيام «محمد علي باشا» (١٨٠٥ - ١٨٤٩م) على الضفة اليسرى للنيل الأزرق عند التقائه بالنيل الأبيض، وقد خربت عام ١٨٨٥م على أيام الثورة المهدية (١٨٨١ - ١٨٩٩م) بقيادة زعيمها «محمد أحمد المهدي» (١٨٤٤ - ١٨٨٥م) ثم أعيد تعميرها بعد الثورة، هذا وتتكون العاصمة من الخرطوم، وخرطوم بحرى، وأم درمان، ومن ثم فقد عرفت باسم «العاصمة الثلاثة» ويربطها جسران، الواحد على النيل الأبيض، والآخر على النيل الأزرق، ولكل من المدن الثلاث وظائف مميزة، ففي الخرطوم مركز الحكم والتجارة الحديثة، وفي أم درمان التجارة التقليدية والحرف اليدوية، وفي خرطوم بحرى الورش والصناعة. هذا وقد قام «أركل» في الفترة (١٩٤٤ - ١٩٥٠م) بحفائر في الخرطوم وفي منطقة شهيناب، على مبعده ٤٨ كيلا شمالى أم درمان، حيث عثر على آثار تنسب إلى العصر الحجري الحديث، وفي القرن السادس الميلادى قامت في منطقة الخرطوم مملكة «علوة» المسيحية، وعاصمتها «سوبا» ولعللت في كبوشية إلى جنوب الخرطوم (١٧).

(٤) البحراوية:

البحراوية - أو «البقراوية» - وتقع على ضفة النيل الشرقية على مبعده ٢٣٠ كيلا شمالى الخرطوم، وبها أكبر مجموعة من آثار مروى، وهى مجموعتان، شمالية وعدد أهراماتها ٤٣ هрма، وجنوبية وعدد أهراماتها ٥٠ هрма، وهناك مجموعة ثالثة تقع غرب المجموعتين السابقتين وترجع إلى عصر متأخر عنهما، ربما إلى القرن الثانى أو الثالث الميلادى وإن كانت فى حالة سيئة جدا، وهناك فى البحراوية

G.A.Wainwright, The Date of The Rise of Meroe, JEA, 38, ركذا = 1952, p. 75 - 77.

J.Perrot, Une Statue de Darius Decouverte a Suse, J.A., 1972 p. ركذا 235 - 266.

(١٧) أنظر: A.J.Arkell, Shaheinab, Oxford, 1953, p. 105 وركذا L.P.Kirwan, in SNR, XX, Part, 2, 1937, p. 290.

معبد للإله «أسون رع» يرجع إلى حوالي عام ٣٠٠ ق.م، ومازال صرحه قائماً، وبعض نقوشه محفوظة، ولعل أهم ما فيه العرش الحجري الذي كان يجلس عليه الكاهن الذي كان يتلقى وحى أسون، فيجيب على أسئلة السائلين، فضلاً عن قصص لأحد الملوك، وعلى مقربة منهما بركة ماء، كانت درجاتها مزينة بالتمائيل

(٥) إيكين:

هي المحطة التجارية في الدولة القديمة والوسطى، وتقع جنوبى بوهن، وعلى بعد ٤٠ كيلا شمالى حصن سمته، ٢٠ كيلا شمالى «أورونارتى»، وبها حصن طوله ٩٠٠ متراً، ويحيط بمدينة على الضفة الغربية أمام جزيرة «مايانرتى» عند قمة الجندل الثانى، ومن المعروف أن «إيكين» هي حصن «مرجيسية» (مرقيسة) (١٨).

وعلى أية حال، فإن حصن «مرجيسية» (مرجيسيا) إنما يشبه كثيراً حصن بوهن فى الشكل والحجم، لأنه - فيما يرى إمرى - من نفس عمل المهندس العسكرى، وهو، على أية حال، حصن مستطيل الشكل، وله جدار واحد من ناحية النهر، أما الناحيتان الشمالية الغربية والجنوبية، فيحيطيهما جداران، يليهما خندق جاف، كما أن البوابتين موجودتان فى الناحيتين الشمالية والجنوبية من الحصن، وتتصلان بيمضهما بطريق يخترق المدينة ويصل القلعة بالنهر؛ وهناك تحت الجدار الشرقى طريق مغطى ذو باب مائى، وقد كان البناء محمياً بجدران واقية من طرفى الحصن.

وهناك فى السور الثانى، وفى زاوية الشمالية الغربية، بقايا معبد صغير، بناء «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق.م) وربما أضاف إليه «أمنحت الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م)، هذا وتمثل الخرائب القائمة بقايا حجرة متوسطة على جوانب ثلاثة، منها أربع حجرات أخرى توحى بأنها هيكل وبحجرات إضافية، وقد

(١٨) انظر

J. Vercoutter, Excavations at Mirgissa, I, 1964, Jush, XII, p. 62)

بطن الهيكل بالحجر، أما بقايا المعبد فقد بنى باللبن^(١٩).

(٦) الكسرو:

تقع الكرو - جبانة ملوك نباتا - على الجانب الغربى للنيل، جنوبى كريمة، وعلى مسبعة ١٦ كيلا جنوبى جبل البرقل، وقد كشف فيها عن أهرام أربعة من ملوك الأسرة الخامسة والمشرين (بمنجى - شيكو - شيكو - ثانوت أمانى)، وقد بدأ الدفن فيها منذ عام ٨٦٠ ق. م، حيث دفن فيها ستة عشر سلفاً للملك (بمنجى)، وكانت أقدم المقابر فيها تتكون من حفرة تعلوها كومة طينية مستديرة وترقد الجثة بانحناء على جانبها الأيمن، والرأس فى الشمال، وبعد ذلك غطيت الكوة بالحجر ثم تطورت إلى جزء يملو سطح الأرض مبنى بالحجر مستطيل الشكل، ينتهى أخيراً إلى شكل الهرم الكوشى، بينما أصبحت المقابر أكثر إتقاناً، وأخذت شكلاً مصرياً، فتغير توجيه الدفنة من شمال جنوبى إلى شرقى غربى، ومع ذلك فقد تخلفت عادة نوية هى وضع السرير فى المقبرة، يوضع فيه الميت على هيئة النائم، وكانت هذه الطريقة منتشرة فى النوبة العليا والسفلى منذ أقدم العصور، وبقيت حتى العصر المسيحى، غير أن الطبقة الحاكمة منذ عصر الملك كاشتاأ أصبحت مصرية الدفن والفن والعمارة والديانة والثقافة والجنس، إذ نتجت روابط وثيقة بزواج أجيال من المستوطنين المصريين بأهالى المنطقة^(٢٠).

ولا ريب فى أن مقبرة بمنجى إنما كانت - من الناحية التاريخية - أهم مقابر

(١٩) محمد يومى مهران: مصر ٢٠٤٠، والتر امري: المرجع السابق، ص ١٥٢ - ١٥٤، جيمس

بيكى: الآثار المصرية فى وادى النيل ١٤ / ١٧٥، وكلا:

J. Vercoutter, Excavations at Mirgissa, I, Kush, XII, 1964, p. 57 - 62.

T. Save-Soderbergh, op. cit., p. 76. وكلا:

B. G. Trigger, op. cit., p. 72. وكلا:

J. Vercoutter, Mirgissa, Paris, 1970, p. 187. وكلا:

(٢٠) سليم حسن: مصر القديمة ١٠ / ٤٥٢ - ٤٦٦، والتر امري: المرجع السابق، ص ٢١٧ - ٢١٨، وكلا:

D. Dunham, El-Kurru, Boston, 1955.

الكرو، غير أن الهيكل وكل مبنى الهرم قد تهدم، وكان مدخل الهرم خلف الهيكل، ويؤدي إلى نفق محفور في الصخر، فيه تسع عشرة درجة تؤدي إلى باب معقود، جزؤه الأسفل محفور في الصخر، وجزؤه الأعلى، وكذا العقد، مبنيان بكتل الحجر، وطول حجرة الدفن ٥,٠٥ م، وعرضها ٣,١٥ سم، وكان سقفها من الطراز المكربل المتراجع Corbelled، وفي منتصفها تقريباً «صفة» مرتفعة من صخرة الحجرة نفسها، وقد نحت في كل ركن منها نقباً لوضع سرير خشبي - طبقاً لعادة القوم - وأكبر الظن أن هذه «الصفة» إنما كانت أشبه بقاعدة يضعون فوقها التابوت الذي كان يوضع فوق السرير الخشبي - كما نشاهد في النقوش المصرية والمناظر الملونة - وبعبارة أخرى، فقد كانت هذه القاعدة الحجرية هي التي تتحمل ثقل وزن المومياء وتابوتها.

وقد أثبتت حفائر «رايزتر» عام ١٩١٨ م، أن حجرة الدفن قد نهبت، غير أن ما عثر عليه بعد ذلك، إنما يدل على فخامة الأثاث الجنائزى الذى كان مع المومياء، حيث عثر على كثير من أوراق الذهب، وعلى قطع من المرمر، وعلى حلقات اللازورد والفيانس Faience المتعدد الألوان الذى ظل مستخدماً فى تطعيم بعض أشياء المقبرة، فضلاً عن ألوان من المرمر والفخار، وأخرى من البرونز والفضة، كما عثر على تماثم جيدة الصنع، وعلى كثير من تماثيل «الأروشتي»، على منضدة فخمة من البرونز، وبعض الأواني التى كانت تستخدم لتقديم الشراب (٢١).

وهناك جباتان فى الكور، الواحدة فى الجنوب عند قرية «زوما» على الضفة الشرقية للنيل، والأخرى عند «تنقاسى»، على الضفة الغربية للنيل أمام «زوما» (٢٢).

(٢١) أحمد فخرى، الأهرامات المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ص ٢٤٨ - ٢٥٠، وانظر:

J. A. Arkell, op. cit., p. 115 - 121.

B. G. Trigger, op. cit., p. 141 - 143.

وكذا:

D. Dunham and O. Bates, Royal Cemeteries of Kush, I, El-Kurru, 1950, p. 2 f.

(٢٢) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٢٥١. وانظر:

L. Kirwan, Kush, V, 1957, p. 37 F.

P. L. Shinnie, Kush, II, 1954, p. 66 F.

هذا وقد عثر في الكور أيضاً على مقابر الخيل الملكية، بلغ عددها ٢٤ مقبرة، وتقع إلى جوار مقابر الملكات مباشرة، وكان يخص «بعضى» منها ٤ خيول، و «شيكو» ٨ خيول، و «شيتكو» ٨ خيول، و «نانوت أمانى» ٤ خيول وقد عثر على عظام الخيل فى معظمها، كما عثر على زيتنها وسروجها، وكانت تدفن واقفة بعد أن تحفر الأرض من تحت أقدامها، إلى أن تستقر بطونها على الأرض، كما لم يعثر على رأس أى منها، وربما قد فصلت رؤوسها عن أجسادها قبل الدفن لسبب أو لآخر، وأخيراً فلعل مما تجدر الإشارة إليه أنه قد عثر كذلك فى جبانة الكور على قبرين صغيرين لكلبين، رأى صاحبهما أن دفنهما بهذا الوضع تعبيراً عن حبه لهما (٢٢).

هذا وقد دفن «شيكو» فى مقبرته (رقم ١٥) بالكور، وتقع على ميمدة ٢٠ باردة شمالي مقبرة بعضى، وقد عثر فيها على مائدة قرابين من الجرانيت الأنشوب (بمتحف الخرطوم رقم ١٩٠٤) وعلى قطعة من مائدة قرابين أخرى من القيشاني، وعلى كل منهما نصوص، كما عثر على مرآة من البرونز، ذات مقبض من خليط من الذهب والفضة على هيئة النخيل، محاط بتماليل للآلهة بمتحف بوسطن برقم ٢١٣١٨) وبقاليا أخرى (٢٤).

(٢٣) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٥١ - ١٥٤، وكذا:

D. Dunham and O. Bates, op. cit., II, Nuri, p. 85.

(٢٤) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٤٦ - ١٤٨، محمد يونس مهرا، مصر ٦٠٠ / ٣ - ٦٠٢، وكذا:

J. leclant, Recherches sur les Monuments The bains de la XXV Dynastie dite Ethiopienne Ede, 36, 1965, p. 160 - 205.

K. A. Kitchen, op. cit., p. 280 - 282.

وكذا:

A. A. Schulman, JARCE, 5, 1966, p. 40.

وكذا:

A. H. Gardiner, op. cit., p. 342.

وكذا:

G. Burguet, Temple d'Amon-re d'kank, p. 90, 310.

وكذا:

J. Vercoutter, Napatan Kings and Apis Worship, Kush, 8, 1960, p. 66, Note, 27.

وكذا:

F. S. A. Addison, Jebel Moya, I, Oxford, 1949, p. 118.

وكذا:

PM, II p. 7, 101, 165, 192. III, p. 220, 226, V, P. 68, 204, VI. p. 68, 204, VI. p. 68, 204, VI.

وكذا:

=/=

وأما مقبرة «شبتكو» فقد كانت كأسلافه في «الكرو»، حيث دفن هو وخيوله في هرم (رقم ١٨ حسب تقسيم رايزنر)، وقد عثر فيها على تماثيل صغيرة، من ذلك النوع الذي يعرف باسم «انجارين» (الأوشيتي) يحمل اسم «شبتكو»، كما عثر في حجرة الدفن على قطع من الأبنوس المطعم بالماج، وعليها صورة تقليدية لبعض الأجانب (موجودة بمتحف بوسطن برقم ٢١٣٠٨، ٢٤١٠١٨، وفي متحف الخرطوم برقم ١٥٧٥)، وهناك قطعة من الفينانس (بمتحف الخرطوم برقم ٢٧٤٩) تحمل اسم «شبتكو» عثر عليها في الغرفة الغربية بمعبد «كاوا» (A)، وهو المعبد الذي بناه الملك توت غنخ آمون (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق.م) من الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ - ١٣٠٨ ق.م)، وأضاف إليه «طهرقا»، مما يشير إلى أن «شبتكو» قد ترك أثراً في كاوا - وهي الكوة الحالية، على الضفة الشرقية للنيل، وعلى بعد ٤ كيلاً جنوبى دفنة الحديثة، ٣٢ كيلاً جنوبى أرقو (٢٥).

هنا ولم يعثر حتى الآن على مقبرة واحدة من مقابر الخيول لأصحاب المقابر المبكرة في جبانة الكرو، وأرجح الآراء أن «بعضى» (بى) (٧٤٧-٧١٦ ق.م) إنما كان أول من دفن خيوله في الجبانة من ملوك الأسرة النبتوية، وأن دفن الخيول في الجبانة إنما ظهر فجأة في الجيل السادس، وربما السابع، من أصحاب هذه الجبانة.

والمعروف أن الآثاريين لم يعثروا حتى الآن على مدافن للخيول في مصر (٢٦)،

==/==
p. 117, VII, 184, 192, 1196, 273, 334 - 335.

وكلها: A. Fakhry, Baharia Oasis, II, Cairo, 1942, p. 73 - 80.

وكلها: A. J. Arkell, A History of The Sudan, from The Earliest Times to 1821, London, 1955, p. 117, 125 - 126

(٢٥) محمد إبراهيم بكر، المرجع السابق، ص ١٥٥، سليم حسن: مصر القديمة ١٠ / ٤٦٠، وكلها:

P. M, 7, p. 197.

وكلها: S. Wenig, Africa in Antiquity, II, p. 51.

وكلها: A. J. Arkell, op. cit., p. 127.

وكلها: M. F. Laming Macadam, The Temples of Kawa, Oxford, 1949, I, p. 12.

(٢٦) حرف الحصان في وادى النيل، وفي العراق القديم، فرما قبل عصر الهكسوس وبذهب «إمرى» إلى أذ. ذلك إنما كان منذ الدولة الوسطى حيث عثر عام ١٩٦٢م على هياكل خيول في منطقة «و»، دمت في الدولة الوسطى، وإن ذهب البعض إلى أنها ترجع إلى أيام الدولة الحديثة، كما

حتى يمكن القول أن بعنخي إنما قد نقل هذه العادة إلى النوبة - بعد أن استولى على مصر - بصفته أول ملك تنسب إليه مقابل خيول، وقد عرف عنه حبه للخيول - كما تشير إلى ذلك لوحة نصر، فضلاً عن النص الذي يوجه فيه الملوم للمدعو «نمرات» أمير الأشمونيين، عندما وجد الخيول تكاد تهلك (٢٧) جوعاً، ومن ثم فلا يمكن القول أن حب الخيل ظهر فجأة عند «بعنخي» أو أنه ورثه من أسلافه، وربما كان ذلك صفة شخصية في الرجل.

(٧) أورو - نارتي:

يقع حصن «أورو - نارتي» على مبعده ٢٠ كيلاً شمالى سمته وقعة، ٥٠ كيلاً جنوبى وادى حلقاً، وقد أقيم هذا الحصن فى جزيرة «أورو - نارتي» (Uronarti) وسمى «القلعة التى تصد الإينو» أو التى تطرد القبائل، ويقع الآن عند قرية الملك الحالية.

وهناك لوحة عشر عليها فى المنطقة عام ١٨٩٩م، تسجل أن «سنوسرت الثالث» هو الذى قام ببناء هذا الحصن، وإن كان بناؤه يشير إلى أنه قد صمم وبدئ فى بنائه فى عهد «سنوسرت الأول»، ويشبه تصميم الحصن بصفة عامة، مثلثاً يميل إلى الطول، ذا ذيل طويل، مكوناً من جدار ضخم يصل إلى الجزء الشمالى من الجزيرة، ويشير وضع الأبراج فى الناحية الغربية إلى أن خطر الهجوم إنما كان من هذه الجهة، وأما السور الخارجى الذى يحيط بالسور المثلث الصغير، ففيه الأبراج المربعة العادية وفى الركن الجنوبى حائط مستطيل يبرز من جوانبه

=/=

عشر «هترى» على دفات اختلطت فيها هياكل الخيول مع الحمير مع الأدميين فى «تل المعجل» بجنوب فلسطين، غير أنه لم يعثر فى مصر على أية دفنة لحصان واحد، أو حتى لعظام من حصان، والأمر كذلك بالنسبة إلى النقوش التى ترجع إلى عصر الهكسوس - محمد بيومى مهران: حركات التحرير فى مصر القديمة، ص ١٤١ - ١٤٢، عهد العزيز صالح، وكذا:

T. T. Save Soderbergh, op. cit., p. 59.

W. C. Hayes, op. cit., p.

وكذا:

(27) Urk., III, p. 3.

A. H. Grdiner, op. cit., p. 338.

وكذا:

أبراج مربعة، والمداخل الأساسية على شكل بوابة منزل ضخمة توجد في وسط الجدار الجنوبي.

هذا وتنقسم المدينة الصغيرة إلى قسمين بطريق يؤدي بطريقة غير مباشرة إلى سلم طويل ينزل إلى بوابة مائية خارج الحصن، على الضفة الشرقية للجزيرة (٢٧).
(٨) النقعة:

تقع النقعة - أو النجمة - في سهل البطانة، جنوبي شندى، وإلى الشمال قليلاً من الجندل السادس، وعلى بعد ١١٢ كيلاً شمالي الخرطوم، وقد وصلت إليها حدود مصر على أيام «أمنحيب الثاني» (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م) حيث بنى هناك معبدًا، كما وجد له تمثال جاث يحمل آتيتين على يديه، وإن كان من المحتمل كثيراً أن النفوذ المصري قد وصل إلى أبعد من ذلك، هذا وقد عثر أيضاً بالنقعة على بناء فخم باسم الملكة «شاناكدختي» (١٧٠ - ١٦٠ ق.م) وجدت به نقوش مكتوبة بالهيريوغليفية المروية، وهي من أقدم ما عرف (٢٨).

(٩) بوهن:

تقع بوهن إلى الجنوب قليلاً من وادي حلفا - عبر النهر - وكانت منذ «الدولة الوسطى» (٢٠٥٢ - ١٧٨٦ ق.م) أحد مراكز السيادة المصرية في السودان، ومركز نائب الملك في كوش، وفي عام ١٩٦١ / ١٩٦٢م عثر فيها على مستوطنة ترجع إلى أيام الدولة القديمة (٣٢٠٠ - ٢٢٨٠ ق.م)، ألحقت بها مجموعة من أفران صهر النحاس، كما أن بها أكبر حظون النوبة في الدولة الوسطى، وكانت المدينة تتكون من المساكن ولكنات الجيش ومصانع وقصر

(٢٧) والتر إمري: المرجع السابق، ص ١٤٩ - ١٥٢، وكذا:

D. Dunham, Second Caract Forts, II, Uronarti, Shalfook, Mirgisi, Boston,

W. C. Hayes, CAH, I, Part, 2, 1971, p. 507, 1967.

وكذا:

(٢٨) محمد بيومي مهران: مصر ٢٦٢ / ٢٦٣، ج. لكلا: تاريخ أفريقيا، ص ٢٩١، وكذا:

B. G. Haycock, The kingship of Kush in the Sudan, 1954, p. 461 - 480.

الحاكم، وقد أظهرت الحفائر تخطيطاً المدينة مستطيلة، ذات طرق معبدة، ونظام للصرف والمجارى، ومن ناحية النيل وجدت بوابتان كبيرتان فى الجدران، توصلان إلى رصيف حجري لرسو سفن الجزى والمحاصيل التجارية من النوبة، وبوابة ثالثة محصنة فى الجانب الغربى المواجه للصحراء، وقد احتلها الكوشيون على أيام الهكسوس ودمروا بعضاً منها، ثم أصلحها الملك «أحمس الأول» (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق. م) بعد طرد الهكسوس، وجعلها المدينة الرئيسية فى النوبة، وقد بنت «حتشبسوت» (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق. م) فيها معبداً، على أساسات معبد الدولة الوسطى، وقد أعاد «تحتمس الأول» جدران حصون بوهن ورودم السور السفلى والخندق، وغطاهما بطريق معبد من اللبن، يلتف حول البناء كله، ثم حفر خندقاً (٦ × ٢ م) على شكل محيط طوله ميل، ومن وراءه شيدت الجدران التى شملت المدينة الجديدة (ارتفاعها ١٢ م وسمكها ٥ م) وتدخلها أبراج مستطيلة فى الواجهة الخارجية (٢٩).

ويمثل حصن بوهن - أكبر حصون النوبة العليا فى الدولة الوسطى - أفضل تلك الحصون التى قاومت البلى، وصمدت للزمن، فقد كانت تلك القلعة الجبارة تتكون من سلسلة متعقدة من تحصينات داخل تحصينات مبنية على شكل مستطيل (١٧٢ × ١٦٠ م)، ويتكون نظامها الدفاعى من سور من الآجر (سمكه ٨، ٤ م، وارتفاعه ١٠ م)، وله أبراج على مسافات منتظمة، وفى أسفل هذا السور الرئيسى متراس مرصوص بالآجر، تحميه سلسلة معازل مستديرة، بها صفوف مزدوجة من فتحات الرمى (المزاغل)، ويحيط بالقلعة كلها خندق جاف محفور فى الأرض الصخرية الصلدة بعمق ٦، ٥ م، وعرض الخندق ٨، ٤ م، وقد تمت تعلية حافته البعيدة عن القلعة بسور من الآجر.

(٢٩) محمد يرمى مهران : مصر ٢ / ٢٥٧، وكذا:

W. B. Emery, Preliminary Reports on The Excavations at The Egypt Exploration Society at Buhen, Kush, VIII, 1960, 1961, X, 1962.

J. Vercoutter, Kush, 4, 1965, p. 77 - 78.

G. Reisner, JEA, 6, 1920, p. 29.

وكذا:

وقد ظلت هذه القلعة تؤدي دورها - كما سنرى - حتى أخريات الأسرة العشرين (١١٨٤ - ١٠٨٧ ق.م)، بل إن الحفريات قد أظهرت بقايا مستعمرة صغيرة من العصر المروى والمسيحي، فوق الجزء الجنوبي لمدينة من الدولة الحديثة (٣٠). (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م)

هذا وقد بدأ «أحمس الأول» (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق.م) - كما أشرنا آنفاً - في إصلاح قلعة بوهن التي كانت قد تعرضت للتخريب والنهب في عصر الانتقال الثاني، وجعل منها المدينة الرئيسية في مناطق النوبة التي استردها المصريون، هذا وملتقى هنا في عهد أحمس الأول بالوالي المقبل، نائب الملك «نورى» قائد بوهن، والذي كان اسمه الحقيقي «أحمس» (عجموزة) وأن كلمة «نورى» ليست سوى «كنية» له، كما نلتقى كذلك حوالى هذه الفترة في مدينة الكاب - على مبعدة ١٩ كيلا شمالى إدفو، في مقابل البصيلية عبر النهر - بلقب مبههم، هو «أول ابن للملك في الكاب»، وإن كان من العسير علينا أن نربط بين هذا اللقب، وبين تعاقب ولاية النوبة فيما بعد، ولعل مما يشجع على هذا الرأى ما نشهده بعد قرنين فيما يتصل بمدينة «نخن» (البصيلية) - مقابل الكاب عبر النهر - من أنها تعرف بنقطة البدء الشمالية لإداراتهم (٣١).

(٣٠) جيمس بيكى: المرجع السابق، ص ١٧٣ - ١٧٤، والنوهرى: المرجع السابق، ص ١٠٤ - ١٠٦، تاريخ أفريقيا العام ٢ / ٢٣٨، ٢٥٢، ٢٥٩ محمد يوسى بهران: مصر ١٢ / ٤٠٤، ٢٥٧.

وكداء: J. Vercoutter, Kush, 4, 1956, p. 77 - 78.

W. B. Emery, Egypt Exploration Society, Preliminary Report on The Excavations at Buhen, 1962, Kush, II, 1963, p. 116 - 120.

وكداء: W. B. Emery, Kush, 8, 1960, p. 7 - 8.

A. W. Lawrence, Ancient Egyptian Fortifications, JEA, 51, 1965, p. 69 F.

(٣١) جيمس بيكى: المرجع السابق، ص ٢٩٨ - ٢٩٩، محمد يوسى بهران: المرجع السابق، ص ٢٠٨، وكداء:

T. Save-Soderbergh, Aegypten und Nubia, Lund, 1941, p. 141 - 142.

هذا وقد عثر في «فرس» على قطع حجرية لمعبد بناء الفرعون هناك، كما
نسب إليه الترميمات التي تمت في معبد حصن بوهن من عصر حتشبسوت، إلى
جانب لوحة كبيرة مائتزال في فناء معبد بوهن هذا، سجل عليها الحاكم «حى»
انتصارات الفرعون (٣٢).

هذا وهناك لإكتشافات الحديثة في عام ١٩٦٢م في بوهن، والتي تشير -
كما أشرنا من قبل - إلى وجود مستعمرة مصرية هناك على أيام الدولة القديمة،
كان من أهم صناعاتها هناك تشغيل النحاس، كما تشير إلى ذلك أفران الصهر،
ونقايا خام النحاس هناك، الأمر الذى يدل على وجود خام النحاس هناك في مكان
ما من تلك المنطقة، وأنه من نوع متفوق على غيره من الأماكن الأخرى في مصر
والسودان، وقدر الدراسة العلمية لعينات من نحاس بوهن في المدرسة الملكية
للتعدين في لندن، فضلاً عن معلوماتنا عن علم التعدين، أن رواسب النحاس التي
ظهرت في مصر، وفي النوبة السفلى، إنما ترجع وجود مصدر لخام النحاس في
بوهن، وقد عثر «والتر امري» على كميات من نحاس غير مصهور على مقربة من
ثلاثة أفراد لصهر النحاس في بوهن، وأنها تقع على الضفة الشرقية للنيل، ومن
الناحية الكيميائية، فإن أبرز للملامح المميزة لخام نحاس بوهن أن به نسبة عالية من
الذهب (٣٣).

=/=

- A. H. Gardiner, op. cit., p. 170. وكذا؛
T. G. H. James, op. cit., p. 298 - 299. وكذا؛
W. B. Emery, Kush, 7, 1959, p. 7 - 14, 8, 1960, p. 7 - 10. وكذا؛
ASAE, 10, p. 193 F. وكذا؛
J. H. Breasted, op. cit., II, p. 8 - 9. وكذا؛
J. Vercoutter, Kush, 4, 1956, p. 77 - 78. وكذا؛
(٣٢) والتر امري: المرجع السابق، ص ١١٥، جيمس بيكي: المرجع السابق، ص ١٥٢ - ١٥٣،
تاريخ أفريقيا، ص ٢٧٠، وكذا؛

- B. G. Trigger, op. cit., p. 110.
(33) W. B. Emery, Kush, II, 1963, p. 116 - 120.
El-Sayed El-Gayar, JEA, 65, 1989, p. 31 - 32.

وقد عثر على دليل أفضل يقدمه لنا «معبد أحمس في بوهن» حيث يحمل المدخل الباقي منه اسم «أحمس»، واسم أمه «إيبح حوتب»، فضلاً عن نفس نذرى أضفة «تترو» (Tjuroy) حاكم بوهن، وإن لم يبق لنا شيئاً من آثار في منطقة القلعة التي ترجع إلى أيامه. وجه اليقين، وأكبر الظن أن الفرعون لم يعد، أو لم يكن يقادر على أن يمد فتوحاته إلى تيسرب بعيداً عن بوهن، بأكثر من ١٩٠ كيلاً، حيث وجدت آثار تحمل اسمه واسم زوجته^(٣٤).

(١٠) بعصة : (Basa)

تقع في وادي اليهود، رابعا بعد كبير محاط بتماثيل أسود حجرية. وتتميز بأن تخطيطها كان دقيقاً، يتفق وتضاريس الأرض التي كانت مخططة وقت ذلك بالأعشاب والأشجار^(٣٥).

(١١) بناجه = بناقا = وادي بناقا:

يقع على مبعدة ٤٠ كيلاً جنوبي شندى، وهناك ما يشير إلى أنه كان مركزاً هاماً للقوافل، حيث عثر على خزانات للمياه، كما عثر على إطلال معبدين، كما أظهرت الحفائر أخيراً مبنى ضخماً، ربما كان قصراً، وآخر في شكل خلية النحل، ربما كان صومعة كبيرة للقلل، كما يشير موقع المدينة إلى أنها ربما كانت مقراً لسبكني «الكندكات» (الملكات الحاكمات)، كما كان ميناء نهرياً.

(١٢) جبل البرقل:

جبل البرقل أو البركل: يقع على الشاطئ الشرقي للنيل، على مدى بضعة أميال من كريمة، ويقابله على الضفة الغربية للنيل مدينة «تبان» (نبنة) ويسمى

(34) G. A. Reisner, JEA, 6, 1920, p. 29.

J. Vercoutter, Kush, 4, 1956, p. 77 - 78.

T. G. H. Jamer, op. cit., p. 289.

A. H. Gardiner, op. cit., p. 170.

B. G. Trigger, op. cit., p. 107 - 108.

J. Vercoutter, Excavations at Sai, 1955 - 1957, in Kush, 6, 1958, p. 114 - 169.

(٣٥) أحمد محمد الحاكم، تاريخ أفريقيا، ص ٢١٩.

جبل البرقل فى المصرية القديمة «الجبل المقدس» (جو - وعب = دو - واعب) فقد اعتبره نصوص الدولة الحديثة جبلاً طاهراً، وعرشاً لآمون رع، وقد أقيم فيه معبد آمون الكبير، حيث وضعت نواته الأولى على أيام الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م)، ثم قام «بعنخى» بإعادة بنائه وتوسيع قاعاته، ليكون على غرار معابد آمون الكبرى فى شمال الوادى ثم أقيمت على جانبيه المدخل ستة تماثيل جبرائيلية المكباش - رمز آمون المقدس - وهى تحتضن تماثيل صغيرة للملك «أمنحيب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) نقلها «بعنخى» من صولب إلى نبتة، وتكرر البوابات الضخمة التى تصل بين قاعات المعبد المتعددة، قبل الوصول إلى قدس الأقداس، حيث كان يقوم تمثال للمعبود آمون، الذى لم يبق منه سوى قاعدته الحجرية التى كانت تحمل التمثال.

ونظراً لأن القوم قد اعتادوا إقامة النصب الحجرية التى تدون عليها الأحداث الهامة فى المعابد، بغية تخليد أصحابها، ومن ثم فقد عثر فى معبد آمون على عدة ألواح، منها لوح بعنخى (لوح النصر) ولوح «تاتوت أمانى» (لوح الحلم)، ولوح الملك «حور سيوقف»، ولوح الملكة «سخمنخ» (٣٦).

هذا وقد شيد «تخوتمس الثالث» لوحة فى برقل تسجل أن حدوده الجبرية وصلت إلى «قرون الأرض» the Horn of the Earth، وهى منطقة جنوبية الجندل الرابع، مازلنا نجهل مكانها (٣٧).

(36) PM, VII, p. 215 F G. A. Reisner, ZAS, 66, 1931, p. 89 - 100 Urk, III, p. 1 J. H. Breasted, ARE, IV, Parag. 796 - 883, E. Drioton et J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1962, p. 537.

(٣٧) محمد يوسى مهران ٧٣/٣، سليم حسن. مصر القديمة ٤/ ٤٧٠ - ٤٩٨ وكذا:

A. J. Arckell, op.cit, p. 88- 89.

R.A.Camions, Kush, 12, 1964, p. 85.

B.G.Trigger, op.cit, p. 72.

G.A.Reisner, SNR, 12, 1929, p. 143 - 161.

E.A.W.Budge, op.cit, p. 59, 135.

W.M.F.Petrie, A History of Egypt, II, p. 99, 126-128, 137, 140.

J.H.Breasted, ARE, II, P. 249-257.

-

وهناك في «كلايشة» في النوبة السفلى، كان يشاهد تمثال للفرعون على مقربة من المرسى المودى إلى معبد أغسطس، موحيا بأن الفرعون قد شيد جزءا من المعبد القديم، وربما شيد كذلك معبدا في «قورته»، وعلى أية حال، فهناك - حتى منتصف القرن الماضي - كانت توجد في قورته بوابة نقش عليها اسمه، كما أنه نحت في الصخر معبدا في «الليسية» - على مبعدة كيلومتر من أهرام، خصصه لعبادة «حور» و «ددو» و «ستوسرت الثالث» وهو معبد صغير جداً، مكون من حجرة واحدة، بها كوة صغيرة، وقد زينت واجهته بمدة نقوش، فضلاً عن لوح يؤرخ بناء المعبد بالعام الثالث والأربعين، من حكم الفرعون، وقد منحته مصر لإيطاليا، وهو الآن مقام في المتحف المصري في نورين، وهناك في «ميمام» - وهي عنية على مبعدة ٢٢٤ كيلا جنوبى سد أسوان - لوحة من العام الخمسين من الحكم، يظهر الفرعون فيها أمام «حور ميمام» والالهة «ساتيس»، وهناك في قصر أهرام أربع مقصورات منحوتة في الصخر، ثتان منها ترجع إلى عصر تحتمس الثالث، وإن كانتا في الأصل من عهد آخر، أحدهما للحاكم «نحي»، والثانية ترجع إلى عصر «حشيسوت».

هذا وقد عثر في «فرس» على قطع حجرية لمعبد بناء الفرعون هناك، كما تنسب إليه الترميمات التي تمت في معبد حصن بوهن هذا بسجل عليها الحاكم «نحي» انتصارات الفرعون (٣٨).

L.D.III. Pls. 7, 26-28, 37-38, 45, 65

= وكلا

(٣٨) محمد بيومي مهران ٧٢/٢، سليم حسن: مصر القديمة ٤٧٠/٤-٤٩٨، وكلا

A. J. Arckell, op.cit, p. 88- 89.

وكلا

R.A.Camions, Kush, 12, 1964, p. 85.

وكلا

B.G.Trigger, op.cit, p. 72.

وكلا

G.A.Reisener, SNR, 12, 1929, p. 143 - 161.

وكلا

E.A.W.Budge, op.cit, p. 59, 135.

وكلا

W.M.F.Petrie, A History of Egypt, II, p. 99, 126-128, 137, 140.

وكلا

J.H.Breasted, ARE, II, P. 249-257.

وكلا

L.D.III. Pls. 7, 26-28, 37-38, 45, 6

وكلا

هذا وربما كان «سيتى الأول» هو الذى أسس معبد آمون فى جبل البركل - ويسمى فى المصرية «الجبل المقدس» (جو - وعب = دو - واعب)، حيث اعتبرته نصوص الدولة الحديثة جبلاً طاهراً، وعرشاً لآمون طيبة - ويقع هذا الجبل على الضفة الشرقية للنيل، على مدى بضعة أميال من «كريمة»، ويقابله على الضفة الغربية للنيل مدينة «نباتا» (٣٩).

وهناك فى معبد آمون الكبير (ب ٥٠٠) فى جبل البركل، قاعدة من الجرانيت، الأشهب، ما تزال قائمة فى مكانها، كانت مخصصة لحمل تمثال الإله آمون، داخل مقصورته الذهبية، وتحمل القاعدة إسم الملك طهرقا ولقبه بحجم كبير (طهرقا، نفرتم، خورع) وسط نقش يمثل وادى النيل عبارة عن صورتين لإله النيل، الواحدة: تمثل نيل الشمال، والأخرى: تمثل نيل الجنوب، يقومان بشد حمل، لعقد رمز الوحدة، وهو يمثل الرنتين والقصة الهراتية، وكانت النوبة على أيام الرعامسة تتكون من قسمين، الواحد: النوبة السفلى أو «واوات»، وتمتد من جنوب «آبو» (يب - اليقاتين - جزيرة أسوان)، وحتى سمنة، عند الجندل الثانى، وعاصمتها «عنية» (ميمام) - على مبعدة ٢٢٤ كيلا جنوبى سد أسوان - والآخر: النوبة العليا أو «كوش» (كاش)، وعاصمتها «عمارة غرب» - على مبعدة ١٨٠ كيلا جنوبى وادى حلفا - كما كانت مصر قد تجتحت فى توطيد سلطانها تماما فى النوبة منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة (٤٠).

(٣٩) محمد يوسى مهران: مصر ٣/٢٧٠، ٣/٢٨٢ نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق من ٢٧٢، وكذا:

A.J.Arkell, op-cit, p. 112.

B.G.Trigger, op.cit, p. 111, 126, 129.

J.Vercoutter, op.cit, p. 77 - 79.

W.B.Emery, op.cit, p. 95.

H.W.Fariman, JEA, 24, 1938, p. 151 - 156, 25, 1939, p. 139-144, 34, 1948, p. 1-11.

(٤٠) محمد يوسى مهران: مصر ٣/٢٦٩ - ٣٧٠.

A.J.Arkell, op.cit. وكذا:

B.G.Trigger, op.cit, p. 111 وكذا:

هذا وقد عثر في جبل البرقل على لوحة بعنخي (Py = Puya) الأولى، والتي تسمى «لوحة النصر»، ومحفوطة الآن بالمتحف المصري بالقاهرة (برقم ٤٨٨٦٢)، وقد غطيت اللوحة بالنقوش الهيروغليفية من جوانبها الأربعة، وهي من الجرانيت الرمادي، وجزؤها الأعلى مستدير، وارتفاعها ١٨٠ سم وعرضها ١٨٤ سم، وسمكها ٤٣ سم، وقد كشف عنها - مع أربع لوحات أخرى - ضابط مصري غير معروف في عام ١٨٦٢م، كان يعمل في الجيش المصري في السودان على أيام الوالي «سعيد باشا» (١٨٥٤ - ١٨٦٣م).

ويرجع تاريخ لوحة البرقل إلى العام الحادي والعشرين من حكم الملك «بعنخي» (٧٤٧ - ٧١٦ ق.م)، وقد مثل على قممها قرص الشمس غير المنح، يخرج منه صلان، وأسفله المعبود «آمون» قاعدا، وتقف خلفه «موت» ربة «أشروس»، وأمامها يقف «بعنخي» وقد وضع في منطقهته ختجرا، ويرتدي قميصا يصل إلى ركبتيه، وتتقدم امرأة إلى الملك «بعنخي» رافعة يدها اليمنى، وأكبر الظن أنها زوج «نمرات» الذي مثل واضعا اللصل على جبينه، ويقود يده اليسرى جوادا، وتقبض يده اليسرى على صنابه، وقد مثل على قمة اللوحة ثلاثة ملوك آخرون يقبلون الأرض أمام بعنخي.

هذا وقد قام مكتشف اللوحة - الضابط المصري غير المعروف - بنقل نقوشها، ثم أرسل منها نسخة إلى «لوجست فرديناند فرانسوا مارييت» (١٨٢١ - ١٨٨١م) مدير مصلحة الآثار المصرية (١٨٥٨ - ١٨٨١م) في القاهرة، والذي سرعان ما أدرك أهمية اللوحة، ومن ثم فقد أمر بإرسالها إلى القاهرة فوراً، لتكون في ملكية الحكومة المصرية، وهكذا أقلعت سفينة من مدينة «مروي» إلى القاهرة، حاملة اللوحة، فوصلتها في عام ١٨٦٢م ثم عكف «مارييت» على ترجمة النسخة التي أرسلت إليه في عام ١٨٦٣م، ثم أعلن عن هذا الكشف إلى الأكاديمية الفرنسية للفنون والآداب^(٤١).

(41) Letter de M. Auguste Mariette au. Le Vicomte de Rouge sur une Stele Trouvée a Gebel Barkal in Comptes Rendus, Tom., VII, p. 119, F.

هذا وقد أرسل «ماريت» نسخة من النقش إلى «دى روجيه» مع رسالة لخص فيها النتيجة التاريخية التي اعتقد أنه يمكن استخلاصها من فحص سريع، ثم طلب منه أن يقوم بترجمة كاملة لهذا النقش^(٤٢)، وقد حاول «دى روجيه» ترجمة النص - طبقاً لنسخة الضابط المصرى - وإن عاقته بعض الصعوبات التي استلزمت ضرورة اطلاعه على النص الأصلي، الذي كان على درجة كبيرة من الصعوبة، ثم نشر الترجمة في مقال عام ١٨٦٣ م^(٤٣).

ومنذ ذلك الحين، بدأ علماء المصريات في إعادة ترجمة اللوحة وتحليلها قام بذلك «كوك» في عام ١٨٧٣ م^(٤٤)، «جريفث»^(٤٥)، ثم «برسند» عام ١٩٠٧ م^(٤٦)، وكذلك «بج» في نفس العام^(٤٧).

وفي عام ١٩٣٥ م قام «سير ألكسندر هيندرسون جاردينر» (١٨٧٩ - ١٩٦٣ م) بترجمة وتنقيح بعض فقرات نصوص هذه اللوحة^(٤٨)، وفي عام ١٩٥٦ م قام العالم المصرى الدكتور «سليم حسن» (١٨٩١ - ١٩٦١) بترجمة اللوحة إلى اللغة العربية^(٤٩)، وفي عام ١٩٧٩ م قدم «أنتون سبلنجر» تحليلاً عسكرياً للوحة^(٥٠) كما عني بنفس الجوانب العسكرية «ديتركلير» فنشر عنها دراسة

(42) RA, Part, I, 1863, p. 413.

(43) De Rouge, L'Inscription Historique de Roi Piankhi-Meriamoun, in RA, Part, 2, 1863, p. 94F, With a Plate.

(44) S.Cook, The Inscription of Piankhi-Meriamon, King of Egypt in The Eighth Century B.C. London, 1873, p. 79 - 104.

(45) F.L. Griffith, Egyptian Literature (in Specimen Pages of a Library of The World's best Literature) p. 5274-5295.

(46) J.H.Breasted, ARE, IV, Chicago, 1907, Parag. 796 - 883, p. 406 - 444.

(47) E.A.W. Budge, The Egyptian Sudan, Its History and Monuments, II, London, 1907, p. 11- 26.

(48) A.H.Gardiner, in JEA, 21, 1935, p. 219-223.

(٤٩) سليم حسن: مصر القديمة ١٠/١١ - ٣٤

(50) A.Spalingner, The Military Background of The Campaign of Piye (Piankly), SAK, Band, 7, 1979, p. 273 - 301.

عام ١٩٨١م^(٥١).

هذا وقد أكمل «نيكولاس جريمال» جهود السابقين بأن ضمن ترجمته بعض القطع الناقصة من اللوحة، والتي عثر عليها «لوكيانوف» عام ١٩٢٦م، ثم قدم لنا بعد ذلك دراسة وافية عن اللوحة، مع ترجمة كاملة للنص الهيروغليفي^(٥٢).

وعلى أية حال، فلارهب في أن لوحة جبل البرقل هذه إنما هي مصدر تاريخي وجغرافي لهذه الفترة، فهي تحمل واحدا من أطول النصوص، وأكثرها تفصيلا، فهو يحتوى على ١٥٩ سطرا من الخط الهيروغليفي يصف احتفالات الملك بمنخى، واستعداداته ومراحل حروبه مع الليبيين المتحصرين الذين يسيطرون على وسط وشمال مصر.

هذا وقد تحدثت اللوحة عن أغلب مدن مصر - سواء أكانت في الصعيد أو الدلتا - فهي مثلا تقدم لنا ١٩ مدينة محصنة على امتداد ٢٦٦ كيلا، على طول نهر النيل، من مصر الوسطى وحتى الدلتا - أى بمعدل مدينة لكل ١٤ كيلا^(٥٣).

وهناك لوحة بمنخى الثانية، وهي محفوظة الآن بمتحف الخرطوم (رقم ١٨٥١)، وقد عثر عليها «جورج أندرو رايزنر» (١٨٦٧-١٩٤٢م) عام ١٩٢٠م في جبل البرقل أيضا، وذلك في فاعة العمدة (B 501) (عرضها ١٢٣ سم، وطولها ١٣٠ سم)، وإن كان هناك ما يشير إلى أنها كانت أعلى من ذلك، لأن الجزء الأسفل منها قد كسر، ولم يثر عليه للآن، وأكبر الظن أنها قد نصبت أولا أمام البوابة الثانية، قبل بناء القاعة (B 501).

(51) Dieter Kessler, Zu den Feldzogen des Tefnachte, Namlot und Piye in Mittelagypten, SAK, Band, 9, 1981, p. 227 - 250.

(52) G.N.C. Grimal, La Stele Triomphale de Pi, au Meusee du Caire (JE 48862 et 47086-47089), Etudes sur La Propagande Oyale-gyptienne, David O'connor, New Kinkdom and Third Intermediate Period, 1552-664 B.C., in AESH, p. 232.

(53) BIFAO, 105, 1981.

هذا ويتوج قمة اللوحة قرص الشمس المنحني الذي يكتنفه صلان، وقد مثل الإله آمون برأس كيش قاعدا على العرش، وقد مد يده اليسرى إلى الملك مقدما له تاج مصر السفلى، وفي يده اليمنى لباس رأس مزود بعسل، ونقف خلفه المعودة «موت»، وخلفها ولدهما «خونسو» وفي مواجهة آمون تقف شخصية صغيرة تمثل نباتا، على رأسه تاج كوش، ويقدم قلادتان منهما واحدة صدرية إلى آمون، وقد اشتملت اللوحة على ٣٠ سطرا.

ويذهب «رايزنر»^(٥٤) - الذي نشر اللوحة - إلى أن اسم الملك الذي وجد مطموسا، داخل الخرطوش الوحيد في اللوحة، يمكن قراءته - على وجه اليقين - «بمنخي»، وأما تاريخ اللوحة فيرجع إلى فترة ما قبل استيلائه على مصر، ومن ثم فهي تتحدث عن أهداف بمنخي من استيلائه على مصر، فضلا عن أنه اعتبر نفسه مصدر السلطات، وصاحب الحق في تعيين الملوك.

هذا وتصف هذه اللوحة النظام الفيدرالي لإمبراطورية كوش، مع إعلان سيادة آمون، ويقول بمنخي: «لقد منحني آمون نباتا السيادة على كل الناس، فمن أقول له: أنت ملك، يصبح ملكا، ومن أقول له: أنت لست بملك، لا يصبح ملكا، لقد منحني آمون طية السيادة على مصر، فمن أقول له: تتوج ملكا، يتوج ملكا، ومن أقول له: لا تتوج ملكا، لا يتوج ملكا، إن الآلهة تتوج الملوك، كما أن الناس يتوجون الملوك، أما أنا فقد توجني آمون»^(٥٥).

هذا وقد عثر في جبل برقل - مع لوح بمنخي - على لوح ضخم محفوظ الآن بالمتحف المصري برقم ٤٨٨٦٣ يحمل اسم وصورة الملك «تاتوت أمان»، عثر عند الآثاريين باسم «لوح الحلم»^(٥٦)، وقد سجلت عليه نفس الأحداث

(54) G.A.Resner, Inscribed Monuments from Gebel Barkal, The Sandstone Stela of Piankhy, No. 26, in ZAS, 66, 1931, p. 89 - 100, and Plate BV.

(٥٥) ج. لكاي: تاريخ أفريقيا ص ٢٨٢، سليم حسن: مصر القديمة ٦٨/١١ - ٧١، عادل سيد مصطفى: دراسة تاريخية وحضارية للأسرة الرابعة والمشربين في مصر الفرعونية - الاسكندرية ١٩٩٠ ص ١٧-١٨.

(56) J.H. Breasted, ARE, IV, p. 469 - 473.

التي سجلتها الرقم الإسطوانية المسمارية^(٥٧)، ولكننا نجد أنه من الصعوبة بمكان أن نلتقي بتناقض أشد مما نلتقي به عند عرض الإثنتين، فكلاهما عن قصة النصر، ولكن المنتصر في الواحدة «أشوربانيبال» وفي الأخرى «ثانوت أمون»، والذي يروى أن «ثانوت أمون» رأى في السنة الأولى من حكمه حلما جاء فيه أن لعبانين كان أحدهما على يمينه، والآخر عن يساره، وقد فسر له الحكم على الوجه التالي:

«مصر العليا نخسك فخذ لنفسك مصر السفلى، ريتا الصل والمقاب ظهرنا على رأسك، أعطيت لك الأرض طولا وعرضا، وسوف لا يشترك معك أحد فيها».

«وعندئذ اعتلى ثانوت أمون عرش حور في هذه السنة، وخرج من «نخميس» (مكان في وسط مستنقعات الدلتا حيث أمضى حور طقوله) وتقدم إلى تبتة دون أن يعترضه أحد، وأقام هناك عيدا كبيرا لآمون رع، ثم قدم ولاءً مماثلا لخنوم في إليفانتين، ولآمون رع في طيبة، وقوبل بالترحاب في كل مكان في طريقه إلى منف بفرح كبير، وكذا عند وصوله إلى العاصمة الشمالية^(٥٨).

(١٣) دنقله المعجوز:

تقع دنقله المعجوز (دنقلة القديمة) على الضفة الغربية للنيل، قريبا من كريمة في مقابل «مروعا» عبر النهر (وهي غير دنقلة الحديثة أو دنقلة العرضي)، وقد قامت بها مملكة في القرن السادس الميلادي، امتدت رقعتها من الجندل الثاني وحتى «مروى» القديمة (البحرارية الحالية) - على مبعده ٢١٣ كيلا شمالي الخرطوم - وكانت دنقلة هي العاصمة، وسميت هذه المملكة في عصر لاحق «مكوريا» (Makuria) وهي «المقرة» في العربية، وقد كشفت بمئة الآثار البولندية منذ عام ١٩٦٤ م عن أربع كنائس وعن القصر الملكي في دنقلة المعجوز، كما

= ر.كنا. H.Schafer, Urk, III, p. 57 - 77.

ر.كنا. PM, 7, p. 218 - 218.

ر.كنا. A.J.Arckell, op.cit, p. 134 F.

(57) A.L.Oppenheim, ANET, 1966, p. 293

(58) A.H.Gardiner, op.cit, p. 348.

عشر على أقدم كنيسة بنيت بالطوب اللبن، وقد وجد بها - غير الكاندرائية - خمسة صحنون، وهي تتركز على ٦٠ عمودا من الجرانيت.

وفي القرن السادس الميلادي أصبح في النوبة ثلاثة ممالك (مملكة النوبة الشمالية، وعاصمتها فرس، ومملكة النوبة الوسطى وعاصمتها المقررة، والنوبة الجنوبية وعاصمتها سوبا). وفي عهد الملك «مرقوريوس» الذي تولى الحكم عام ٦٩٧ م توحدت الممالك الثلاثة، واتخذت من دنقلة عاصمة لها (٥٩).

(١٤) ساي = صاي:

ساي = صاي: هي «شعاع القديمة» وتقع على بعد ١٩٠ كيلا جنوبي بوهن، وقد عثر فيها على آثار شيلية وأشولية، وعلى تمثال للملك «أحمس الأول» (١٥٧٥-١٥٥٠ ق.م) مما يشير إلى وصوله إليها عندما استرجع النوبة بعد طرد الهكسوس، كما عثر على لوحة بها الألقاب الملكية الكاملة للملك «أمنحتب الأول» (١٥٥٠ - ١٥٢٨ ق.م) وكذا تماثيل ولوحين صغيرين عليهما اسمه، كما بنى بها «تخوتمس الأول» (١٥٢٨ - ١٥١٠ ق.م) حصنا، وبنى «تخوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) معبدا (٦٠).

هنا وقد عثر على تمثال، رأسه محفوظ الآن بمتحف الخرطوم برقم (٣٨٢٨) يحمل إسم «أحدس»، فضلا عن كتلة حجرية تحمل لإسم زوجه «أحمس نفرتاري»، هذا ويفترض أن أحمس الأول بنى أول معابد الدولة الحديثة في «ساي» (صاي - شعاع القديمة)، ومع ذلك فربما كانت هذه القطع الأثرية من معبد يرجع إلى تاريخ متأخر، بناء أحد خلفاء أحمس.

(٥٩) ميخالوفسكي: تاريخ أفريقيا ص ٢٣٦، وكلا: M.Martens, CAMAP, VII, 1973, p. 263 - 271, K.Michalowski, Polish Excavations at Old Dongola, Kush, XIV, p. 189 - 299.

(٦٠) محمد يوسى مهران: مصر، J.Vercoutter, Excavations at Sai, Kush, VI, p. 144 - 169, T.Save-Soderbrgh, Aegypten und Nubia, 1941, p. 145- 146.

(١٥) سدنجيا:

سدنجيا (صادنقة): تقع على مبعدة ٢٠ كيلا شمالي صولب، ١٠٩ كيلا شمالي الجندل الثالث، ٢٤٥ كيلا جنوبي وادي حلفاء، وقد شيد فيها «أمنحوب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) لزوجته الملكة «تي» أجمل معابد السودان، وما تزال بقاياها - رغم تدهورها - تشير الإثبات، ولا بد أنه كان عند بنائه بضارح معابد الأقصر العظيمة، وكان الطريق الموصل من النيل إلى المعبد تحده من جانبيه تماثيل جراتينية لكباش وأسمين يعتبران من الكنوز الفنية في المتحف البريطاني، وقد عثر عليها في «برقل» حيث نقلها ملوك الأسرة الخامسة والعشرين.

(١٦) سرس:

تقع سرس (Saras) شمالي سمعة وقمة، وبها حصن كان يسمى «قارع البلاد» ويعرف الآن باسم «شالفاك» (Shelfak) ويشبه حصن «أورو - نارتى» في الشكل، وإن كان أصغر منه حجما، هذا ويحيط بالمدينة سور يتكون من جدارين، تعلوهما أبراج، وجدار طويل يمتد إلى مسافة بعيدة نحو الشمال الشرقي، وقد كانت واجهة هذا الجدار الطويل للواجهة للصحراء هي الأكثر تحصينا - كما هو الحال في حصن «أورو - نارتى» - ويمتد من الشمال والجنوب جداران آخران صغيران، أما البوابة العظمى فتقع في الواجهة الغربية^(١).

(١٧) صرة:

وتقع «صرة» - أوسيرا - (نخ نخت القديمة) - على مبعدة ١٥ كيلا شمالي وادي حلفاء.

وكان «جحووني - حنب» - ويحمل لقب «با أنيس» حاكم «نخوت - سيرة» على أيام الملكة «حتشبسوت» (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق.م)، وكان والده أيضا حاكما للمنطقة، مما يدل على أن هذا المنصب كان وراثيا، هذا فضلا عن أن كلا من الأب والابن إنما يحمل إسماء محليا، بينما حملت الزوجة وأخو الأمير إسمين

(١) وثائق أمريكية - المرجع السابق ص ١٥٢، محمد بيومي مهران، المرجع السابق ص ٤٠٤

مصريين، الأمر الذى يحمل إشارة ضمنية إلى سرعة الأخذ بأسباب الحضارة المصرية المتقدمة، والتي أصبحت طابع العصر وقت ذاك.

هذا وقد عثر على مقبرة «جحوتى - حتب»، على مبعدة كيلو ونصف شرقى النيل فى قرية «ديرة» - على مبعدة ٢٠ كيلا شمالى وادى حلفا - منحوتة فى تل من الحجر الجيرى، وقد تم تخليطها وزخرفتها بطريقة مصرية تماما^(١)، ونصور مناظرها الأمير «جحوتى - حتب»، وهو يتفقد العمل فى مزرعته، أو يتلقى فروض الطاعة من أقبانه على الطريقة المصرية أو يمارس القنص بالقوس والسهم فى مركبة بجرها حصان، أو هو يستمتع بمأدبة بين ضيوفه، ولم لم يكن قد نقش إسمه النوبى «بأتيس»، بالإضافة إلى اسمه المصرى «جحوتى - حتب»، لاستحالة تمييزه عن أى أمير مصرى من نبلاء الدولة الحديثة - كما أشرنا من قبل - هذا وتوجد على باب المقبرة نقوش تمثل الإله «حور» وربما المعبودة «حاتحور» سيدة فرس و«أنوبيس» إله مدينة للموتى، ذو رأس «لبن آوى»^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن مشاركة الأمراء النوبيين فى إدارة بلادهم على أيام الدولة الحديثة، إنما قد ساعد على استمرار ازدهار بيوتات الإمارة فى كثير من مناطق شمالى السودان، تلك الإمارة التى وصلت فعلا إلى درجة من التقدم الحضارى منذ نهاية الدولة الوسطى، وأخذت تنقل عن الحضارة المصرية طوال أيام الدولة الحديثة، لتعد نفسها للدور قيادى فى حياة هذا الوادى، تنقل فيه الرادى كله من خطر الإنهيار الحضارى، فضلا عن خطر الغزو الذى قدم من الغرب ثم من الشرق.

(1) T.Save-Soderbergh, The Paintings in The Tomb of Djehutyhetep at Debeira, Kush, 8, 1960, p. 25 - 44.

(2) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق ص ٨٤، نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٧٧ - ٢٧٩، وكذا

H.Wild, in Kush, 7, 1959 p. 76F.

T.Save - Soderbergy, op,cit, p. 30.

H.T.Thabit, Tomb of Duchuty- Hetep (Tehuti - Hetep) Prince of Semna, Kush, 5, 1957, p.81 - 86.

JEA, 39, 1953, p. 42.

هذا وتشير أسماء حكام النوبة (نواب الملك فى كوش) إلى أنها مصرية
الجرس، ومن لم فهم مصريون، غير أن هذا لا يمنع من القول بأن منهم من كانوا
من أبناء النوبة، من أولئك الذين استطاعوا - بمهارتهم وصدق ولائهم - أن
يتبوأوا هذا المنصب الخطير (٣).

بقيت الإشارة إلى أن نخوتمس الثالث قد عهد فى سره، بصفته «معبود سره»
(نخ نخت).

وهناك فى «سره» معبد لرعمسيس الثانى أقيم لصورته الحية فى بلاد النوبة،
وأطلق عليه «وسر ماعت رع، مام فى قوته»، مما يشير إلى أن الفرعون نفسه كان
معبودا فى هذا المعبد.

(١٨) سمنة:

سمنة: وتقع على مبعدة ٧٠ كيلا جنوبى وادى حلفاء، ٢٠ كيلا جنوب
حصن «أورو - نارتى»، وفيها حصن يدعى «نخ كا ورع - الميجل - قوى»
على الضفة الغربية للنيل، والحصن يقف مهيمنا على النيل، مع الحصن التوأم
«قحة» (كحة) على الشاطئ الشرقى، فالنيل فى هذه المنطقة يشق طريقه فى
جبل من الصخر القوى فى أضيق منطقة للجندل الثانى، والحصن بدىء فى بنائه
فى عهد الملك «سنوسرت الأول» (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق.م) وأتمه «سنوسرت
الثالث»، كما ينسب إلى «أمنمحات الأول» بناء حصن فى سمنة أيضا، كما بنى
«سنوسرت الثالث» معبدا من الطين فى سمنة، وهو الذى أجاد تشييده «نخوتمس
الثالث» بالحجر لإله النوبى «ديدون» و«خنوم» والملك المؤله «سنوسرت الثالث»،
وهو أكثر المعابد القائمة وحدها صمودا أمام البلى منذ ما قبل البطالمة فى وادى
النيل بأسره.

وهناك نقش فى سمنة من العام الثامن من حكم «سنوسرت الثالث» يتحدث
عن الإحصاءات المشددة التى اتخذت لمنع تسرب التوبيخ نحو الشمال، وقد جاء
فى (المجد الجنوبى) الذى أقيم فى العام الثامن من حكم ملك مصر العليا
والسفلى، «نخو كا ورع»، سنوسرت (الثالث)، الذى يعطى الحياة أبدا، لمنع أى

(١٩) محمد إبراهيم بكار المرجع السابق ص ٨٧.

«نوبى» من المرور شمالا - برا أو بقارب - وكذا قطعان ماشية النوبيين ، ماعدا أولئك الذين يأتون للتجارة فى «ايكن» - على مبعده ٤٠ كيلا شمالى حصن سمعة - أو لعمل مشروع يتفق عليه فسوف يقدم لهم كل شىء طيب ، على ألا يسمح لأية سفينة بأن تعبر «سمعة» (حج) نحو الشمال» .

ولعل من الجدير بالإشارة الى انتشار عبادة الملوك فى النوبة (السودان) - كما وجدت فى مصر على استيحاء، ربما لأسباب سياسية ، على أية حال ، فلقد بدأت منذ أيام «تخوتمس الثالث» (١٤٩٠-١٤٣٦ ق.م) حيث عبد «منوسرت الثالث» (١٨٧٨-١٨٤٣ ق.م) بصفته الإله الحامى للنوبة ، وربما لم يكن تخوتمس الثالث مبتدعا ، فى تأليهه «منوسرت الثالث» ، وإنما كان متبعا ، فلقد عثر على طوابع أختام فى «أورو- نارتى» - على مبعده ٢٠ كيلا شمالى سمعة ، ٥٠ كيلا جنوبى وادى حلقا - باسم الملك «منوسرت الثالث» ، ترجع إلى مابعد الأسرة الثانية عشرة ، ومن ثم فقد ذهب «جورج وايزر» إلى أن «تخوتمس الثالث» لم يعمل أكثر من إحياء الماضى القديم ، الأمر الذى قد يشير إلى أن «سمعة» و «أورو- نارتى» إنما كانتا من أماكن عبادة الملك المؤله «منوسرت الثالث»^(١) .

وعلى أية حال ، فلقد عبد منوسرت الثالث فى عمدا والليسية وجبل الشمس وبوهن وجبل دوشا - أى من عمدا وحتى دوشا (Dosha) .

هذا وقد عبد «تخوتمس الثالث» بصفة معبود «سرة» (غ نخت) ، هذا وقد خطى «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) خطوة أخرى ، فهو لم يبن معابد ضخمة فى «سدنجا» (صدقا) و«صوبل فحسب» ، ولكن «الصورة الحية» له ، إنما كانت تؤدى لها العبادة فى «صوبل» ، كما كانت تؤدى لزوج «نبي» فى «سدنجا» ، وقد وصف فى «صوبل» بأنه «سيد أرض القوس» فى قلعة «خع أم

(1) T.Save - Soderbergh, Agypten und Nubia, Lund, 1941, p. 203

وكذا A.J.Arkell, A History of The Sudan, London, 1955, p. 105.

ماعت، الأمر الذى يشير إلى أنه لم ينظر إليه كمجرد إله محلى، ولكنه الإله الحامى لكل النوبة، كما عبد «نوت عنخ آمون» فى «فرس».

وكان «رعمسيس الثانى» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) المعبود الرئيسى فى «عكنة» - فيما بين فرس ووادى حلفا - وهناك فى «سرة» معبد لرعمسيس الثانى أقيم لصورته الحية فى بلاد النوبة، وأطلق عليه «وسر ماعت رع، سام فى قوته»، مما يشير إلى أن الفرعون نفسه كان معبودا فى هذا المعبد.

هذا وقد عبد رعمسيس الثانى كذلك فى معبد جرف حسين، كواحد من آلهة المعبد (بتاح وسخمت ونفرتم - ثالث متف)، كما عبد فى معبد وادى السبوع - مع آمون وحر أختى - وفى معبد أبو سمبل الكبير، أقام الفرعون تماثيل أربعة - لأمون وبتاح ورعمسيس الثانى المؤله ولرع حر أختى - وقصد من ذلك أن يكون على قدم المساواة مع آلهة مصر العظام، وأن يؤدى له مايؤدى لها من شعائره، هذا فضلا عن أنه إنما أراد فى معبد أبو سمبل - وكذا فى معبدى السبوع وجرف حسين - أن يأخذ مكان «خونسو» بن «أمن» فى ثالث (أمون وموت وخونسو) (٢).

هذا ويسمى حصن سمته «نخ - كار - رع - المسجل قوى» على الضفة الغربية للنيل، وتقف قلعة سمته أمرة على النيل، مع الحصن التوأم (قمة - Kumina) على الشاطئ الشرقى، فالنيل فى هذه المنطقة يشق طريقه فى جبل من الصخر القوى، فى أنبيق منطقة للجندل الثانى.

(٢) محمد بيومي مهران عصر ٢٧٩/٣ - ٢٨٢، وكنا

T.Save- Soderbergh, op.cit, p. 196 - 205

وكنا W B.Emery, Egypt in Nubia, London, 1965, p. 194 - 202

H.T.Thabit, Kush, 5, 1975, p. 81 - 86.

وكنا

A J.Arkell, op.cit, p. 106.

وكنا

هذا ويدل اسم الحصن على أن بناءه إنما تم في عصر الملك «نخع كا رع» (سنوسرت الثالث)، غير أن التنقيبات إنما دلت على أن النصف الشرقي لنباء قد شيد في عصر سابق، ربما في عصر «سنوسرت الأول». (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق.م.) هذا وقد بنى حصن مسنة على قمة صخرية على شكل حرف «L» الأفريقية، على حافة النهر، ومن ثم فتحيطه غير مستقيم، وقد بنى أسوار الخارجى الكبير من اللبن، وأساسه من الحجر، ويحيط به من الجوانب الشمالية والغربية خندق واسع جاف، وأما الجدران فسمكها فيما بين ٦، ٨ مترا، ويتخللها بين مسافة وأخرى أبراج عالية ضخمة، ويمكن الوصول إلى المدينة المزدحمة داخل الأسوار عن طريق بوابتين محصنتين من الشمال والجنوب، وتتصل هاتان البوابتان ببعضهما عن طريق يشق للمدينة^(١).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه كان فى كل قلعة معبد، ربما كان بنى فى الغالب من الطوب اللبن Mud-Brick، كان يستبدل فى الدولة الحديثة بمعبد صغير يبنى بالحجر الرملى^(٢)، وإذا أخذنا مثالا على ذلك من «مسنة» لرأينا «سنوسرت الثالث» يبنى بها معبدا من الطوب اللبن، وهو المعبد الذى أعاد تشييده «تخوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م.) وبناء بالحجر، وكرسه للإله التوبى «ديدون - خنوم» وللملك المؤله «سنوسرت الثالث»^(٣).

(١٨) سيسى:

تقع سيسى جنوب صولب (على مبعده ٢٢٠ كيلا جنوبى وادى حلفا)، وقد أنشأها أمانحسب الرابع (إختاتون ١٣٦٧ - ١٣٠ ق.م) - فى مقابل بلدة

(١) والتر إمري: المرجع السابق ص ١٤٧ - ١٤٩، محمد يوسى مهران: مصر ٤٠٤/٢، وكذا

D.Dunham, Semna - Kumma, Boston, 1960

G.A.Reisner, SNR, 12, 1929, p. 143F.

G.Reisner, The Eyprian Forts form Helfa to Semna, Kush, 8, 1960.

(2) A.J.Arkell, op.cit, p. 64.

A.J.Arkell, op.cit, p. 88.

(٣) جيم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٧٠ وكذا

R.A.Caminos, Surveying Semna Gharbi, Kush. 12, 1964, p. 85.

دلقر (دليجو) - في خلال سوانه الأولى، وقبل أن يغير اسمه إلى إخناتون، شيد مجموعة معابد، تتكون من ثلاثة، وتقوم على أساس مشترك، كونت نواة مدينة صغيرة مسورة، تحوى على مزار ديني للإله الجديد «أتون».

وهناك ما يشير إلى أن كهان آمون - بعد فشل دعوة إخناتون - قد عاد إليهم سلطانهم القديم في مصر، ومن ثم فقد قاموا بتعطيم كل معابد أتون ولم يبق منها إلا «معبد سيسى» في السودان، فقد اكتفوا بتثويته نقوشه.

وعلى أية حال، فلقد كشف عن آثار «سيسى» كل من «هلاكمسان» و«فرمان» في عام ١٩٣٧م، وقد نبين أنها مدينة أنشأها إخناتون لتكون منطلقا للتبشير بـ«عقيدة التوحيد» التي تزعمها^(١).

(٢٠) صنم:

تقع «صنم» على الشاطئ الغربى للنيل، على مبعدة ١٢ كيلا من طرفى «زوما» و«يلال» هذا وقد أقيم «طهراقا» (٦٨٩ - ٦٦٤) فى «صنم» معبداً ضخماً للمعبود «أمون - رع» (ثورتاستى)، كشف عنه «جريفث» (١٨٦٢ - ١٩٣٤م) فى حفائره هناك لحساب «متحف الأشمولين بأكسفورد»، وهو المعبد الوحيد للـ«لوك نياتا» فى صنم^(٢).

(٢١) صولب:

تقع صولب على الضفة الغربية للنيل، وعلى مبعدة ٢٢٠ كيلا جنوب وادى

(١) محمد إبراهيم بكر: المراجع السابق ص ٧٦، نجم الدين محمد شريف: المراجع السابق ص ٢٧٠، وكذا:

W.B.Emery, Egypt in Nubia, London, 1965, p. 95

H.W.Fairman, Preliminary Report on The Excavations at Sesebi and Amarah West, Anglo - Egyptian Sudan, 1937 - 1938, JEA, 21, 1938, p. 151 - 156

B.G.Trigger, op.cit, p. 126 - 127.

A.J.Arkell, op.cit, p. 92 - 93.

(٢) محمد إبراهيم بكر: المراجع السابق ص ١٦٣ - ١٦٤، وكذا
F.L.Griffith, LAAA, IX, p. 74 - 76, PM, 7, p. 198f.

حلقا، ٢٠ كيلا جنوبى سدججا، وقد بنى «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) معبدا فى صولب، بعد أفخم معابد النوبة، وقد كرمه لنفسه ولصورته الحية، ليعبد هناك بجانب الإله آمون رع، وذلك حوالى عام ١٤٠٠ ق.م، من الحجر الرملى، وكان عند بنائه بضارع معابد الأقصر العظيمة، وكان الطريق إلى المعبد يحده من جانبيه تماثيل جرانيتية لكباش وأسدين، يعتبران من الكنوز الفنية فى المتحف البريطانى فى لندن، وقد نقلت هذه التماثيل إلى جبل البرقل - ربما على أيام الملك بعنخى من الأسرة الخامسة والعشرين.

وفى الواقع فإن إقليم النوبة إنما يشهد - فى حقيقة الأمر - بقوة ووضوح على عظمه الفرعون «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م)، فهو لم يبن هناك معابد ضخمة فى «سدججا» - على مبعده ١٠٩ كيلا شمالى الجندل الثالث، ٢٠٠ كيلا جنوبى وادى حلقا، و«صولب» - على مبعده ٢٢٠ كيلا جنوبى وادى حلقا، ٢٠ كيلا جنوبى سدججا (صادقة) - فحسب، ولكن «الصوره الحية» للفرعون إنما كانت تؤدى لها العبادة فى «صولب»، كما كانت تؤدى لزوجه «نى» فى سدججا، التى جعل منها الإلهة الراعية للنوبة.

وعلى أية حال، فلقد شيد «أمنحتب الثالث» فى «صولب» على الضفة الغربية للنيل، أجمل معبد فى السودان وقد بناه بالحجر الرملى، على أساسات غير متقنة. ومع ذلك فما زالت بقاياه مثيرة للإتباه، رغم حالته المتهدمة، ولا بد أنه كان عند بنائه بضارع معابد الأقصر العظيمة، ولا عجب فالتصميم لنفس المهندس، وقد كان الطريق الموصل إلى المعبد يحده من جانبيه تماثيل جرانيتية لكباش وأسدان يعتبران من الكنوز الفنية فى المتحف البريطانى، وقد عثر على هذه التماثيل فى برقل (بركل) حيث نقلت على أيام الأسرة الخامسة والعشرين (٧٥٠ - ٦٥٦ ق.م).

هذا وقد كرم «أمنحتب الثالث» معبده فى «صولب» - أفخم معابد النوبة قاطبة - كرمه لنفسه وصورته الحية، ليعبد هناك، بجانب الإله «أمون رع»، بل

إن الرجل إنما رفع زوجه للملكة «لى» إلى مرتبة التقديس بحيث شيد لها معبد «سدنجا» كذلك، غير أن الفرعون لم يعبد هناك فيما يرى البعض، كما كان يأمل، وأن تعبد بعض الموظفين لتمثاله على أيام حياته.

وعلى أية حال، فلقد شيد «أمنحتب الثالث» معبده فى «صولب» (حوالى عام ١٤٠٠ ق.م) من الحجر الرملى، وكان يتقدمه طريق تحف به تماثيل الكباش، يؤدى من الميناء إلى ردة أمام صرح من خلفه فناء، تحيط به الصفات، وينفضى المصح إلى بهو أساطين، يشتمل على ثمانية وأربعين أسطوانا فى ستة صفوف، وكان من وراء ذلك بهو ثان، ثم بقية أجزاء المعبد، غير أنها تهدمت^(١).
(٢٢) عكاشة:

عكاشة: عشر على آثار خاصة بالمجموعة الثالثة، وكانت الحرفة الرئيسية لأصحابها رعى البقر وغيرها من الحيوان، كما تميزت بنوع خاص من الصناعات اليدوية أهمها الفخار، وخاصة القدور السوداء ذات الخطوط البيضاء المتقاطعة، فضلا عن تلك الدمى الصغيرة من الطين والتي تمثل الحيوان والإنسان، والتي

(١) محمد يومى مهران: مصر ٢٦٣/٣، والقرى: المرجع السابق ص ١٩٦ - ١٩٨، محمد أنور شكرى: العمارة فى مصر القديمة ص ٢٠٤، جيمس بيكى: المرجع السابق ص ١٨١ - ١٨٢، وكنا

A.H. Gardiener, *Égypt of The Pharaohs*, p. 205.

PM, 7. p. 166-169, 169 - 172.

J.Vandier, *Manuel d'archeologie Egyptienne*, Paris, II, p. 968.

A.J.Arkell, *op.cit*, p. 91 - 92.

B.G.Trigger, *op.cit*, p. 118.

I.E.S. Edwards, *The Prudhoe Lions*, AAA, 25, 1939, Pls, I.II.

M Schiff Giorgin, *Report on The Excavations at Soleb, Kush*, 6, 1958, 7, 1959, 8, 1960, 9, 1961, 10; 1962

M.S. Giorgin, *Premiere Campagne de Fouilles Sedeings*, 1963-1964, in *Kush*, 13, 1965, p. 116 - 123.

لا نجد لها مثيلا في حضارة كرما، هذا إلى إن القوم إنما كانوا يتحللون بأقراط مصنوعة من الصدف، كما صنعوا نوعا من الزينة على شكل محابس، إلى جانب استعمالهم لخز الزينة، وقد اتخذت مقابرهم شكلا مستديرا جعلها متشابهة في المنظر، كما عثر على مقابر خاصة لبعض الحيوانات كالكلاب أو الكباش، مدفونة بعناية خاصة، أو مع أصحابها في مقابرهم، مما يشير إلى نوع من التقديس لهذه الحيوانات.

(٢٣) عكشة،

تقع عكشة فيما بين وادي حلفا جنوبا، وقرى شمالا، وقد عثر على معبد يرجع إلى أيام «سيني الأول» (١٣٠٨ - ١٢٩١ ق.م) ورعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م).^(١)

(٢٤) عمارة غرب:

تشير «لوحة كويان» - وكذا الحفريات - أن «سيني الأول» (١٣٠٨ - ١٢٩١ ق.م) هو الذي شيد مدينة «عمارة غرب»، وأن ولده «رعمسيس الثاني» هو الذي بنى معبدها^(٢).

هذا وكانت النوبة على أيام الرعامسة (الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين) تنقسم إلى قسمين، الواحد: النوبة السفلى، وتسمى «ولوات»، وتمتد من جنوب أسوان وحتى «سمنة» - على مبعدة ٧٠ كيلا جنوبي وادي حلفا - وكانت عاصمتها «مبعام» - وهي عنيزة، على مبعدة ٢٢٤ كيلا جنوبي مد أسوان -.

وأما الثانية، فهي النوبة العليا، وتسمى «كاش»، وقد حُفرت فيما بعد إلى «كوش»، وتمتد من الجندل الثاني، عند سمنة، وحتى نهاية النوبة جنوبا،

(1) B.G.Trigger, op.cit, p. 125.

A.J.Arkell, op.cit, p. 96.

(2) H.W.Fairman, Preliminary Report on The Excavations at Amara West, Anglo - Egyptian Sudan, 1938-1939, JEA, 25, 1939, p. 139- 144 and 1947-1948, JEA, 34, 1948.p. 1-11.

وعاصمتها «عمارة غرب» - على مبعدة ١٨٠ كيلا جنوبى وادى حلفا-^(١).

وهناك ما يشير - على أن «سينى الأول» (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق.م) هو الذى شيد مدينة عمارة غرب وأن ولده «رعسيس الثانى» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) هو الذى بنى معبدا وكانت النوبة على أيام الرعامسة قد انقسمت إداريا إلى قسمين، النوبة السفلى، وعاصمتها «عينية» والعليا وعاصمتها «عمارة غرب»، وكانت تشرف على الطريق الصحراوى من نهري النيل إلى واحة سليمة، وقد أجزت فيها حفائر فيما بين عامى ١٩٣٩، ١٩٤٧ م.

ولعل من الجدير بالإشارة أن الأمر فى «عمارة غرب» لم يختلف عنه فى «سيسى» إذ لم يبق الكثير فى المدينة، نتيجة للعوامل الطبيعية وخاصة الرياح، ومع ذلك فقد قدمت حفائر «فرمان» عام ١٩٣٩ م فى الموقع كثيرا من النتائج^(٢)

ولعل من الجدير بالإشارة أن «دونبار» - أحد موظفى الحكومة السودانية وقت ذاك، أى أثناء المسح الأثرى الثانى - استغل وظيفته فأمضى وقتا فى النقل باليد وتصوير النصوص التى لا حصر لها والمناظر التى وجدها على الصخور على شاطئ النيل بإسهاب، ثم سجل ما اكتشفه، وهو جهد قيم، فى سجلات مصلحة الآثار المصرية، مما ظل بعد ذلك أساسا للعمل فى هذا الأمر، بل عملا ممتازا باعتباره إطار لأى أبحاث جديدة فى هذا الفرع من آثار النوبة^(٣)

(٢٥) عينية:

كشف فى عينية (ميعام القديمة) - وتقع على مبعدة ٢٢٤ كيلا، جنوبى

(١) محمد بيومى مهران: مصر ٢٥٩/٣، وكذا

E.Zylhary, The Countries of The Ethiopion Empire of Kash (Kush) and Egyptian Old Ethiopia in The New Kingdom, in Kush, 6, 1958, p. 11.

R.O.Faulkner, A, Concise Dictionary of Middle Egyptian, Oxford, 1972, p. 53, 264.

(٢) روثربرى، للمرجع السابق ص ٩٥ - ٩٦

الجنجل الأول - عن البقايا المارية التي لا تتعدى أساسات الحصون الكبيرة، ونواة القلعة المحصنة التي بناها «سنوسرت الأول»، وتشبه في شكلها وحجمها حصن «بوهن»، فهو مستطيل الشكل، وله جدران ذات أبراج، وحاجز قصير له شرفات نصف دائرية، وخندق جاف، كما في قلعة بوهن، مما يشير إلى أن العمل لنفس المهندس في القلعتين^(١).

هذا وقد كشف عن لوحة ترجع إلى العام الخمسين من حكم «تحتمس الثالث»، يظهر فيها الفرعون أمام «حور ميعام» والإلهة «ساتيس».

وفي عصر الرعامسة نرى «بتوت» أمير ميعام (عنيبة) - عاصمة النوبة السفلى وقت ذلك - قد شيد مقبرته المنقورة في الصخر، والتي تميزت بأنها مقبرة أحد كبار الموظفين، وكان من النادر جدا أن يدفن موظف مصري كبير في النوبة، فالمقابر الصخرية البسيطة غير المنقوشة - كما في بوهن - إنما كانت لموظفين مصريين صغار، أو لتوبيين أغنياء، ذلك لأن فكرة الدفن خارج مصر كانت غير مقبولة للذين كان في وسعهم أن يدفنوا بمصر.

(٢٦) فرس:

فرس: تقع «فرس» (باخوراس Pakhoras القديمة) على مبعده ٢١ كيلا شمالي وادي حلفا، ٤٠ كيلا جنوبي الجنجل الثاني، وقد عثر فيها على آثار مصرية في مقابر المجموعة الأولى، وترجع إلى عهدي الملكين «جر» و«جت» من الأسرة الأولى، كما كشف عن جدارين تحمل اسم «كاموزا» وقد شيدت الملكة «حنتشبوت» معبدا في فرس كرسته للمعبودة «حاحور»، كما بنى «تحتمس الثالث» أيضا معبدا في فرس، أقيم على أطلال معبد من الدولة الوسطى، كما تدل النقوش التي عثر عليها في «تخنوت - سر» على أن هذه المنطقة كانت مقرا لأسرة محلية حاكمة، كما بنى «توت عنخ آمون» (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق.م) معبدا ومستوطنة في فرس، وكانت فرس عاصمة لمقاطعة اسمها «أكين» Akin

(١) والتر إمري: المرجع السابق ص ١٥٥-١٥٧.

G.Steindorff, Aniba, Cairo, 1937, p. 2F

وكذا:

A.J.Arkell, op.cit, p. 62.

وكذا

وتقابل النوبة السفلى حاليا، وقد أظهرت الحفريات بعض المباني الرسمية، كالقصر الغربى، ويرجع إلى القرن الأول الميلادى، هذا فضلا عن حصن شيد على ضفة النهر.

وقامت فى فرس مملكة «النوباديين» (Nobadae) التى أسسها الملك «سلكو» (حوالى عام ٣٥٠م)، وتمتد من أسوان إلى قرب الجندل الثالث، وعاصمتها فرس، وقد كشفت البعثة البولندية (١٩٦٢/٦١) عن عدة مباني مسيحية.

(٢٧) قمة:

تقع فى مقابل سمته - عبر النهر - على مبعدة ٧٠ كيلا جنوب وادى حلفا - ويعرف حصنها باسم «باعد الأقواس»، وتصميمه العام مربع، وهو أصغر من حصن سمته، الذى يكوّن وحدة دفاعية واحدة، ورغم أن تصميمه أبسط، إلا أنه من نفس العصر، وكان له مدخل واحد من الجانب الشمالى الشرقى، غير أن اختفاء هذا الجزء من الحصن، جعل شكل المدخل غير معروف لنا، على أن هناك فى الركن الشمالى الغربى بوابة نهريّة تتصل بالنهر عن طريق ممر مغطى (١).

(٢٨) كاوا:

كاوا: هى الكوة الحالية، على الضفة الشرقية للنيل، وعلى مبعدة ٤ كيلا جنوبى دنقلة الحديثة (دنقلة العرضى)، ٣٢ كيلا جنوبى «أرقوة»، وهى مدينة كبيرة قديمة، بها معابد كثيرة تشير إلى تاريخ طويل.

(١) والتر إمري: المرجع السابق ص ١٤٩، وكنا:

D.Dunham and J.M.A. Janssen, Second Cataract For I, Sem-
١٩٦٠, Boston, na,

وهناك في «كاوا» أسس «إخنتون» (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) مدينة «جم أتون» (وجود أتون)، والتي كانت بمثابة المركز الثالث لدعوة التوحيد - بجانب المركز الرئيسي في مصر في العمارة (أخيتاتون)، ومركز ثان في غربي آسيا - ربما في بيت المقدس أو بيت شمس - وربما كان إسم «جم أتون» نسبة إلى معبد أتون في طيبة (الأقصر الحالية)، كما أقام «توت عنخ آمون» (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق.م) معبدا صغيرا في «كاوا»، وقد عثر «حريفث» في «كاوا» على مجموعة من النقوش تلقى مزيدا من الضوء على سياسة «طهرقا» في إقامة المعابد وتزويدها بالموظفين والسنة، وتقديم القرابين لنفسه، ومنح ثمن الهدايا تقريبا للآلهة.

وعلى أية حال، فمن المؤكد أن داعية التوحيد إنما أسس المركز الثاني لدعوته في هذه المدينة في النوبة، وليس بعيدا أن يكون الفرعون قد أنشأ تلك المستعمرة في وقت متأخر من حكمه، إذ لم يثر على أي بناء قبل عصر «توت عنخ آمون» الذي بنى معبدا هناك، على أن هناك من يرى أن «أمنحتب الثالث» هو الذي أسس مدينة «كاوا»، وأن ولده «إخنتون» سماها «جم أتون»^(١).

هذا وقد شيد «توت عنخ آمون» معبدا صغيرا في «كاوا» إغتصبه فيما بعد «رعمسيس الثاني» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م)^(٢)، كما بنى «حوى» نائب الملك في النوبة على أيام «توت عنخ آمون» معبدا ومستوطنة مسورة في «فرس»^(٣).

(١) محمد يرمى مهران: مصر ٢٦٤/٣.

وكان B.G.Trigger, op cit, p. ١٢٨ - ١٢٩ وكان A.J.Arkeil, op.cit, p.

٩٣

وكان M.F.L.Macadam, The Temples of Kawa, I, Oxford, ١٩٤٩, p p XII

١٢ (2) M.F.L. Macadam, op cit, p

وكان A.J.Arkeil, op cit, p. ٩٣

وكان B.G.Trigger, op cit, p. ١٢٨ - ١٢٩

(3) F.L. Griffith, Oxford Exavations in Nubia, LAAA, 8, 1921. p. 83. C.D.Noblecourt, op.cit, p. 191

(٢٩) كوش:

لعل من الجدير بالإشارة أنه قد ظهر في النصوص المصرية - ولأول مرة - الاسم الجغرافى «كاش» - والذي حرف فيما بعد إلى كوش - ويعنى فى الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م) إقليمًا إداريًا متميزًا عن «واوات» يمتد إلى الجنوب فيما وراء الجندل الثانى، بينما يقصد به فى التوراة «أثيوبيا» عامة، وذلك فى مقابل تسمية النوبة السفلى «واوات»، وتمتد فيما بين الجندل الأول والثانى^(١).

هذا وقد قامت مملكة كوش المستقلة على أيام الهكسوس (١٧٣٠ - ١٥٧٥ ق.م)، ولعل استقلال كوش فى تلك الفترة إنما يفسر لنا سبب انتشار العناصر المميزة لحضارة كرما فى منطقة المجموعة الثالثة فى أخريات مراحلها، مما يدل على سقوط الحواجز السياسية بين أصحاب المجموعة الثالثة فى منطقة النوبة السفلى، وبين أصحاب حضارة كرما من حول الجندل الثالث، والتي امتدت إلى مناطق أخرى، شمالًا وجنوبًا، وذلك بعد أن انضمت الحضارتان تحت لواء أصحاب حضارة كوش^(٢).

وأما وثائق تاريخ دولة كوش، فكلها وثائق مصرية، ومن عجب أن السودان لم يمدنا بمعلومات تاريخية ذات قيمة عن تلك الفترة (١٧٣٠ - ١٥٧٥ ق.م)، ومن ثم فإن عمادنا الأساسى إنما هو للمصادر المصرية. وأهمها:

١- لوح كارنارفون ٢- لوح الكرنك، ثم هناك فى المرتبة الثانية:

١- لوح إياح وسر ٢- لوح سوبد حور^(٣).

وأما عاصمة كوش: فلقد كان رأى التقليدى أن مدينة «بوه» إنما كانت عاصمة إمارة كوش المحلية، غير أن هناك اتجاهًا جديدًا يذهب إلى أن العاصمة إنما

(١) محمد بيومى مهران: مصر ٣٩٨/٢.

(٢) محمد إبراهيم بكري: المرجع السابق ص ٥٩.

(٣) محمد بيومى مهران: تاريخ السودان القديم ص ٤٣ - ٢٤٩.

كانت «كرما»، اعتمادا على أن الاسم الجغرافي «كوش» (كاش) إنما يرتبط بكرما، فضلا عن أن الرموس التي في كرما، إنما تظهر بوضوح أنها مدافن حكام وطنيين أقوياء كانت لهم علاقات تجارية ودبلوماسية مع ملوك الهكسوس في مصر، ومن ثم فإنه يبدو مرجحا أن «كرما» إنما كانت عاصمة مملكة كوش^(١).

وأما حدود مملكة كوش، فقد امتدت شمالا حتى إليفانتين، وجنوبا حتى منطقة الجندل الثاني، غير أن المعلومات التي يمكن استنتاجها من لوحة (Ha'ankhef) - والذي كان في خدمة أمير كوش - أن سلطنة ربما امتد جنوبا حتى «كرما»^(٢).

وأما عن علاقة مصر ومملكة كوش، فمن المعروف أن كوش قد انتهزت فرصة تراخي قبضة الحكام المصريين على أيام الانتقال الثاني لزيادة حجم التجارة التي كانت تعود عليها بالفع بين وادي النيل الأعلى والأدنى، وهكذا وجدت آثار لا تحصى من طين الأختام المستخدم في ختم الرسائل، وعدد من مختلف الأدوات الأخرى المستوردة من الشمال، قد عثر عليها في كرما، وفي الحصون التي لم تهجر أثناء عصر الانتقال الثاني على عكس ما كان شائعا من قبل، أو أنها هجرت في فترة متأخرة نسبيا، ولفترة لم تطل كثيرا، هذا فضلا عن أن الحاميات في عصر الدولة الوسطى كانت تستبدل على فترات منتظمة، أصبح الذين يحتلونهم في عصر الانتقال الثاني قاطنين مستديمين في النوبة، تستقر معهم أسرهم، بل ويدفنون هناك، وربما اتجهوا بالتدريج إلى الاعتراف بسيادة ملك كوش، ولما كان هؤلاء من أصل مصري، فلا بد أنهم قاموا بجهود كبيرة لنشر الثقافة المصرية في مجتمعهم

(١) نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٦٤.

وكنّا A.J. ARKELL, OP.CIT, P. 72

G. POSENER, Pour une Localisation du Pays Koush au Moyen Empire Kush, 6, 1958, p. 39.

(2) B. Gunn, A Middle Kingdom Stela from Edfu, ASAF, 29, 1929, P. 8 - 10.

T. Save - Soderberg, JEA, 35, 1949, p. 57 - 58

G. Posner, Kush, 6, 1958, p. 56. وانظر:

الجديد هذا (١).

وهناك ما يشير إلى أن الصلات بين كوش والهكسوس كانت على أوثقها - كما في رسالة ملك الهكسوس (أبوفيس) إلى أمير كوش (٢) - وقد وجد على طول الممر النوبي جدارين وأختام تحمل أسماء الملوك الأسويين الذين كانوا يحكمون مصر وقت ذاك، وهي في «كرما» نفسها من الكثرة حتى ظن البعض لفترة ما، أن النوبة قد اجتاحتها الهكسوس، بعد أن أخضعوا مصر العليا، غير أننا نعرف الآن أنه كان لأفارقة النيل الأوسط صلات وثيقة جدا مع أسويين الدلتا، لدرجة أن ملوك الأسرة السابعة عشر الطيبية عندما بدأوا حرب التحرير، واسترداد مصر الوسطى والسفلى، إتحدهم مع الهكسوس بصورة طبيعية بطلب العون من حليفه الأفريقي - أمير كوش - والقيام بعمل عسكري مشترك ضد عدوهم المشترك - ملك مصر.

على أن علاقة الكوشيين بحكام طيبة الوطنيين إنما كان يشوبها العداء، ويميزها التكامل في نفس الوقت، فالطيبيون الذين كانوا في خدمة ملك كوش إنما حملوا معهم خدماتهم الفنية إلى النوبة الوسطى، كما أن وجود الكثير من المصريين المرتبطين في قلاع النوبة السفلى، قد كفل بقاء كوش على اتصال بحكام الهكسوس في الشمال، هذا فضلا عن أن أواخر ملوك الأسرة السابعة عشر الطيبية قد استخدموا المرتزقة الجاي (المدجاو) في جيوشهم سواء في كفاحهم لتوحيد مصر العليا، أو في حروبهم ضد الهكسوس، وكان هؤلاء المرتزقة الذين جاءوا من الصحراء النوبية ينتمون، عرقيا وثقافيا، إلى النحسيو المستقرين على ضفاف النهر.

(١) شحاته آدم، جان فركوتير، المرجع السابق ص ٢٤٤.

(٢) أنظر: محمد بيومي مهران، حركات التحرير في مصر القديمة ص ١٩٢ - ١٩٣.

A.H.Gardiner, op.cit, p. 167 - 168

وكذا:

L Habachi, ASAE. 53, 1955, p. 201 - 202.

وكذا:

وهكذا يبدو واضحا أن النوبيين قد وجدوا في مصر، كما وجد المصريون في النوبة، طوال عصر الانتقال الثاني، الأمر الذي ساعد على نشاط العلاقات التجارية والثقافية، وبالتدريج تحول الممر النوبي إلى بؤفة امتزجت فيها العناصر الأفريقية وعناصر البحر المتوسط، وانتجت ثقافة مختلطة، غير أن هذه الصلات القوية إنما قد أسفرت عن نتائج خطيرة بالنسبة لتطور مملكة كوش الأولى في كرماء، ذلك أن ملوك النحاسية في الأسرة الثامنة عشرة المصرية، إنما قد أدركوا بعد طرد الهكسوس أن وجود مملكة قوية على حدود مصر الجنوبية أمر يمكن أن يمثل خطرا على مصر نفسها، وقد رأوا من قبل أن تحالفا عسكريا من الهكسوس والكوشيين، كان من الممكن أن يقضى على آمال طيبة في طرد الهكسوس من مصر، خاصة وأن ذلك التحالف إنما كان إيان حرب التحرير نفسها، هذا فضلا عن أن الخطر الآسيوي كان ما يزال محتملا، حتى بعد تقيفتر الهكسوس إلى فلسطين، ومن ثم فقد لجأت مصر إلى سياسة التدخل العسكري المنظم في الشرق الأدنى القديم^(١).

هذا وتسجل نقوش القائد الكاشي «أحمس بن إيانا» بمقبرته في الكاب ثلاث حملات على النوبة في عهد «أحمس الأول»، استطاع الفرعون بعدها إستعادة سيادة مصر هناك.

وهكذا رأينا أحمس يمد نفوذه إلى الجنوب عن يوهن بأكثر من ١٦٠ كيلوا، حيث وجدت آثار تحمل اسمه واسم زوجته^(٢).

(٣٠) كويان:

تقع كويان وحصنها على الضفة الشرقية للنيل، على مبعدة ١٠٨ كيلوا، جنوبي أسوان، ويعرف حصن كويان باسم «حصن باكى»، وقد كشف عنه

(١) نجم الدين محمد شريف، المرجع السابق ص ٢٤٤.

(٢) محمد يوسف مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ٢٠٤ - ٢٠٨.

T.G.H.James, CAH, II, Canbridge, 1965, p. 11- 13.

وكلا

J.A.Arkel, JEA, 36, 1950. p. 27 - 30.

T.Save- Soderlierg, JEA, 35, 1949, p. 50 - 58.

«إمرى» فى عام ١٩٢٠، وهو يشبه حصن بوهن إلى حد بعيد، وقد غرق تحت مياه خزان أسوان.

هذا وقد عثر على حصن من نفس الطراز على الضفة الغربية للنيل عند «إككور» (IKKur) على مبعدة بضعة أميال إلى الشمال من كويان، وهو يتكون مع حصن كويان وحدة واحدة، ومن ثم فقد حمل نفس الاسم «باكى» على أن الحصنين لم يكونا معسكرين، وإنما كانا محطة تجارية، ومقراً للبعثات إلى مناجم الذهب فى وادى العلاقى، إلى جانب صد أى هجوم لأمة قوة تأخذ طريق وادى العلاقى، عبر الصحراء، من «أبو حمدة» بنية أن تحاشى حصون الحدود الجنوبية عبر النهر.

هذا ويذهب «إمرى» إلى أن «سنوسرت الأول» (١٩٧١ - ٦٩٢٨ ق.م) هو الذى بنى حصون «أكور» و«كويان» و«بوهن» و«سمنة» لحماية الطرق التجارية^(١).

(٣١) كرجوس:

تقع «كرجوس» على مبعدة ٨٠ كيلا جنوبى مدينة «أبو حمدة» الحالية - عند نهاية الطريق الصحراوى الذى يبدأ عند «كورسكو» أو «كويان» - على مبعدة ١٠٨ جنوبى أسوان - فى النوبة السفلى، ويختصر المسافة بتجنب المرور فى منطقة الجنادل - من الثانى وحتى الرابع - وقد صور الفرعون تحوتيمس الأول فى نقش كرجوس هذا، على هيئة أسد أمام الإله «أمون راع»، ومن ثم فأكبر الظن أن قلعة كرجوس إنما قد بنيت فى عهده، كما أقام حولها أسوارا طولها ٧٠٠ مترا^(٢).

(١) أنظر: A.J.Arkell, op.cit, p. 62.

وكذا: W.B. Emery, Nubian Treasure, p. 20.

C.M.Firth, The Archaeological Survey of Nubia Report for 1908 - 1909, Cairo, 1912, p. 22 F.

وكذا: T.Save - Sodenbergh, op.cit, p. 1-3.

(٢) محمد إبراهيم بك المرحوم السابق ص ٦٦، محمد يرمى مهران: المراجع السابق ص ٢٦٠، وكذا:

A.J.Arkell, op cit, p. 36 - 39

=

(٣٢) كرماء:

لعل من الجدير بالإشارة أنه رغم أن هناك من يذهب إلى أن المركز التجاري في «كرماء» إنما قد أنشئ في عهد الدولة القديمة، فمن المرجح أنه أنشئ في عهد «أمنمحات الأول» (١٩٩١ - ١٩٦٢ ق.م) حتى أطلقت النصوص على أسوار «أسوار أمنمحاب المبهجل»، وهي حصن كبير مبنى بالطوب على هيئة حوش كبير، ذي جدران ضخمة عالية، تستطيع صد أية غارة من الصحراء وتجعل جاليتهما التجارية تعيش في أمن وأمان، وقد كان لهذا المركز من الأهمية مما جعل فرعون يولى عليه أحد كبار موظفيه، ومن أشهرهم «حمبي زفاي»، وهو أحد أمراء أسيرط.

وأما «حضارة كرماء» - جنوبي الجندل الثالث بمسافة قصيرة، وعلى مبعدة ٢٤٠ كيلا - في خط مستقيم - إلى الجنوب من «سمنة»، حيث عشر على مخلفاتها - فهي تشبه حضارة المجموعات - الأولى والثانية والثالثة - في أنها لم تترك آثاراً مكتوبة، كعدم معرفة أهلها بالكتابة، ومن ثم فقد انصبت كل مجهودات العلماء على الحفائر، وما تكشفه من مخلفات.

هذا وقد انتشرت حضارة كرماء في منطقة دنقلة العرضي (دنقلة الحديثة) بل من الجندل الثاني في الشمال، حيث لم تكتشف مواقع تحتوي على نماذج من حضارة كرماء في النوبة إلا في أماكن ينتهي امتدادها شمالاً عند مرجيسة (أو مرقيسة)، مما يشير إلى أن منطقة الجندل الثاني كانت هي الحد الفاصل بين حضارة كرماء وحضارة المجموعة الثالثة، وأما في الجنوب فقد وصلت إلى جزيرة «أرقو» على مبعدة ٣٢ كيلا شمالي كاوا^(١).

B.G.Trigger, op.cit, p. 108.

A.J.Arkell, A History of The Sudan from Earliest Times to 1821, 1955, p. 84 - 85.

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٤٤، نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق، ص ٢٦٤، وكلا؛

J. Vercoutter, Excavations at Mirgissa, I, Kush, XII, 1964, p. 59.

هذا وقد بدأت أولى مراحل حضارة كرما بنهاية الدولة القديمة، وانتهت آخر مراحلها بقيام الدولة الحديثة، وبداية تمصير النوبة، أى فى الفترة (حوالى ٢٢٨٠ - ١٥٧٥ ق.م)، وكانت سماتها المميزة أوعية فخارية رقيقة على درجة رفيعة من الصقل، لونها أحمر، وجوانها العليا سوداء، وقد شكلت على عجلة صانع الفخار، هذا فضلاً عن ألوان من فخار على هيئة حيوانات، وأخرى محلاة بزخارف حيوانية، وخناجر نحاسية خاصة ومصنوعات خشبية مطعمة بالعاج والميكا فى أشكال زخرفية، وحلى مخططة على فلانس جلدية^(١).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه رغم أن كثيراً من الأواني الفخارية المكتشفة فى كرما، إنما تشير، دونما ريب، إلى تراث محلى، غير أن تأثير التقنيات الصناعية، والنصميمات المصرية، إنما هو جد واضح^(٢)، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أن كثير من هذه المخلوقات إنما هو من إنتاج صناع مصريين، وإن كنا نستطيع القول بأنها ربما صنعت استجابة للذوق المحلى بأيدى صناع محليين تدرّبوا على التقنيات المصرية^(٣).

وعلى أية حال، فلقد وجدت أيضاً فى مخلفات القوم صناعات خشبية مطعمة بالميك (المايكا) أو العاج، فى هيئة صور لحيوانات وطيور، هذا فضلاً عن مساند للرأس، تتميز عن مثيلاتها المصرية بأن قاعدتها طويلة نسبياً، وعلى عكس المساند المصرية ذات القاعدة القصيرة، وذلك لأنها إنما كانت تستعمل داخل توابيت الدفن، التى لا يسمح اتساع عرضها بقواعد طويلة لمساند الرأس^(٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن السمة المميزة لثقافة كرما هى شعائر الدفن حيث تتسم المذبرة برمس ترابى مقبب تحيط به حلقة من الحجارة السوداء، مشور عليها حصى أبيض، هذا ويتكوّن أحد الرموس الكبيرة فى مقبرة كرما (ك٣)

(١) نجم الدين محمد شريف المرجع السابق، ص ٢٦٤.

(2) B. G. Trigger, History and Settlement in Lower Nubia, New Haven, 1965, p. 103.

(3) A. J. Arkell op. cit., p. 74.

(٤) محمد إبراهيم بكر المرجع السابق، ص ٤٤ - ٤٧.

من جدران دائرية من الآجر، قضيها ٩٠ متراً، ولم يستعد ارتفاعها ٣ متراً، وهناك جدران متوازيان يمتدان عبر القبة من الشرق إلى الغرب، مكرنان ممراً وسطحاً يشطر القبر شطرين، بينما تمتد إلى الخارج جدران أخرى متوازية، ومتعامدة على جانبي هذا الممر، متجهة إلى محيط الدائرة شمالاً وجنوباً، وفي منتصف الجدار الجنوبي للممر، باب يفضي إلى بهو يؤدي إلى غرفة الدفن الرئيسية في الجانب الشرقي منه، وكان جثمان صاحب الرمس يسجى على سرير على الجانب الأيمن، توضع فوقه وسادة رأس خشبية، ومروحة من ريش النعام وزملاء، كما يوضع عدد كبير من الأواني الفخارية بجانب السرير، وحول جدران الغرفة، وقد عثر في منطقة الدفن في كرما على مقاصير مبنية من الطوب، وتحمل صوراً مرسومة، وكانت بمثابة أماكن لإقامة الطقوس الخاصة بجميع مقابر الجبانة^(١).

هذا وتمثل المقابر الصغيرة في حضارة كرمة، تلك المقبرة التي عثر فيها على «خنجر» (بمتحف الخرطوم رقم ١٢٢٨)^(٢)، وقد دفن صاحبها على سرير (عنقريب) على جانبه الأيمن، والرأس إلى الشرق، واليد اليمنى أسفل الرأس، وأما الخنجر فقد وجد ملقى بين الساقين مما يشير إلى أنه كان في الأصل متصلاً بحزام الوسط، كما عثر في المقبرة على بعض القدور الفخارية، ومروحة من ريش النعام، وبعض حبات الخرز، فضلاً عن زوجين من القرون كل منهما من قرني الحيوان المتصلين بعظام الجبهة وعادة ما كانت تلون بالجير، ويرسم فوقها بعض الزخارف البسيطة، والتي ربما أعدت لفرض دينوى، هذا وقد دفن مع الميت شخصان ضحى بهما، ومعهما كبشان، وأما الخنجر فقد صنع من البرونز (النحاس والقصدير) بطريقة الضرب على المعدن الساخن، وله مقبض من العاج مثبت

(١) نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق، ص ٢٦٦، محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٤٧، وكذا:

J. Vercoutter, Excavations at Sai, 1955 - 1957, Kush, VI, 1958, p. 144 - 169.

(2) J. Vercoutter, A Daggar from Kerma, Kush, VIII, 1960, p. 265, (X- Group)

بالسلاح بأريمة مسامير، تدخل في تقوُّب السلاح والمقبض معا^(١).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن طريقة الدفن في حضارة كرما، وما عثر عليه من صناعات يدوية متقنة، إنما تشير إلى أن حضارة كرما، إنما قد امتازت عن حضارة المجموعة النائية في الشمال، بنظام مركزي قوى، ونظام داخلي متقدم، فقد كان يتزعم أهلها أمير، تحت إمرته جهاز إداري، غير أن عدم وجود وثائق مكتوبة، - بسبب عدم معرفة القوم للكتابة - إنما كان سبباً في عدم تحديد أسماء وأنسب أولئك الحكام أصحاب تلك المقابر الضخمة في كرما، فضلاً عن معرفة الكثير عن طريقة تفكيرهم ومستوى حضارة قومهم.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن أصحاب حضارة كرما، إنما قد مارسوا عادة «الضحية البشرية»، وإن اختلف عدد المضحى بهم من الخدم والأتباع والحيوانات الأليفة من شخص لآخر، ففي المقابر الكبيرة بلغ عدد من دفنوا مع سيدهم عنوة، ما بين ٢٠٠، ٣٠٠ شخصاً من الرجال والنساء والأطفال، وأما المقابر الأصغر شأنًا، فقد تفاوت عدد الضحايا فيما بين ١، ١٢ شخصاً، وعلى أية حال، فلقد كان الضحايا يتركون في أرضية غرفة الدفن الرئيسية، وفي الدهليز الكبير داخل المقبرة، في غير نظام، وربما كانوا يعطون مخدراً قوياً، ثم يترج بهم عنوة، ويعلق عليهم القبر^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن أصحاب حضارة كرما، إنما هم الأصل في قيام الحضارات المستقلة في شمال السودان في الفترة فيما بين سقوط الدولة الوسطى وقيام الدولة الحديثة في مصر، أي أنه ليس بمستبعد أن أهل سهل كرما والمنطقة المحيطة به، هم أصحاب «دولة كوش» التي عاصرت حكم الهكسوس في شمال مصر^(٣)، والتي حاول «أبو فيس» ملك الهكسوس أن يعقد معهم حلفاً ضد أمراء طيبة^(٤).

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٤٨ - ٤٩.

(٣) انظر عن الهكسوس (محمد بيومي مهراي: حركات التحرير في مصر القديمة، دار المعارف،

القاهرة ١٩٧٦، ص ١٠ - ٢٢٣)

(٤) محمد بيومي مهراي: المرجع السابق، ص ١٩٢ - ١٩٣، وكذا.

L. Habachi, ASAE, 53, 1955, p. 201 - 202.

وعلى أية حال، فهناك مبنيان من الطين في الدفوفة، ينتميان إلى حضارة كرماء، أحدهما يمثل قصر أمير كرماء، وهو مبنى ضخم من اللبن، ونشير نتائج الحفريات إلى أن المدينة في إقليم كرماء، كانت أثني ما تكون بالمدينة المصرية، فقد كانت هناك مثلاً صناعة محلية لأدوات مصرية، كانت تجد سوقاً رائجة في الجنوب، وقد أثرت الثقافة المصرية في هذا الإقليم، كما تأثر الوافدون من الشمال بثقافة وعادات الأهلين، وأن هذا التأثير امتد إلى المعتقدات الدينية ومراسيم الدفن، كما حدث في دفن «حمى زفاى»^(١).

وأما أصل أصحاب حضارة كرماء، فهو موضع خلاف بين الباحثين، فلقد ذهب «رايزنر» إلى أنهم مجموعة بشرية استوطنت البلاد منذ أيام الدولة القديمة، وربما قبل ذلك، وأنهم - مثل أصحاب المجموعة الثالثة - لم يطرأ عليهم إلا مسحة قليلة من العنصر النوبي^(٢)، ويذهب «جورج شتايندورف» (١٨٦١ - ١٩٥١ م) إلى أن أصحاب حضارة كرماء من طائفة شعوب شمال إفريقيا، شأنهم في ذلك شأن الليبيين، وأما أصحاب المجموعة الثالثة فهم وافدون من منطقة منابع النيل الأزرق وعطبرة، أو من منطقة كردفان^(٣)، وأما «هرمان يونكر» فالرأى عنده أن كليهما - أصحاب حضارة كرماء والمجموعة الثالثة - من العنصر الحامى، اختلط بهما الزواج إلى حد ما، ثم يؤكد أنهما قبيلتان لشعب واحد^(٤)، ويذهب «أركل» إلى أن أصحاب المجموعة الثالثة لبييون جنوبيون^(٥).

=/=

وكذا:

A. H. Gardiner, op. cit., p. 167 - 168.

T. Save-Soderbergh, The Nuobian Kingdom of The Socond Intermediate Period, Kush, 4, 1956, 54 - 61.

G. Reisner, Excavatiopns at Kerma, I, 1926, p. 30.

(١) انظر:

(2) Ibid., V, p. 555 F.

(3) G. Steindorff, Anilia, I, 1935, p. 13.

(4) H. Junker, Kubanieh Nord, p. IV, V.

(5) A. J. Arkell, op. cit., p. 46 F.

والرأى عند الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم بكر، أن الدراسة المستفيضة لخلفات الحضارتين إنما توضح العلة الحضارية بينهما، وخاصة في طريقة الدفن على سرير، وعادة التضحية بدفن الحيوان مع صاحبه، وربما في شكل القبر المستدير، فضلاً عن بعض الصناعات المتشابهة، وأما ما يظهر من اختلاف كبير في حجم المقابر ربما يعزى إلى النظام المركزى الذى تمتعت به حضارة كرما، على عكس حضارة المجموعة الثالثة، وليس بغير أن أقصى الحدود التى بلغها المصريون على أيام الدولة الوسطى إنما تنتهى عند الحدود التى تفصل جغرافياً بين هاتين الحضارتين، أى عند الجندل الثانى^(١).

(٣٣) مرجسية (مرقيسة):

وتقع على الضفة الغربية للنيل، عند الجندل الثانى، وعلى مبعدة ٢٠ كيلا جنوبى وادى حلفا، ٣ كيلا جنوب «مايانارتى»، وفيها قلعة من الدولة الوسطى تدعى «التي تكيج الصحراوات» وتشبه قلعة «بوهن» فى الشكل والحجم، وهى مستطيلة ولها جدار من ناحية النهر، ويحميها من الناحيتين الشمالية الغربية والجنوبية جداران يليهما خندق جاف، وقد عثر فيها على بقايا معبد من عهد «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق. م)، أضاف إليه «أمنتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق. م).

(٣٤) نورى :

تقع على مبعدة ٣٥ كيلا جنوبى الشلال الثالث، ٨ كيلا جنوبى جبل البرقل، على الشاطئ الأيسر للنيل، وقد أقام بها «طهرقا» مقبرته، وهى أعظم بناء جنازى فى جبانة نورى الملكية، التى أقيمت بعد ازدحام الجبانة القديمة فى «الكرو» - على مبعدة ١٢ كيلا من كريمة - وقد سار على نهج «طهرقا» عدد كبير من ملوك نباتا، فبنوا مقابرهم فى نورى - على مبعدة ٢,٥ كيلا من النيل - هذا وقد بقيت الصبغة المصرية غالبية على الملوك الأوائل الذين دفنوا فى جبانة

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٥٠ - ٥١، وكذا:

M. Bakr, The Relationship between The C-Group, Kerma, Napatan and Meroitic Cultures, Kush, XIII, 1965, p. 261 - 264.

نورى، حيث دفنوا فى مقابر تعلوها أهرامات ذات طراز مصرى، كذلك التى عرفها كبار الشخصيات فى أخريات الدولة الحديثة، وليس كالأهرامات الملكية للأسرة الرابعة، هذا وقد تميزت أهرام نورى بأبها من طراز واحد، وتميزها خواص ثلاثة هى: أولاً: الهرم الذى تتبعه مقصورة خارجية بنيت فى جهة منه، ثانياً: لكل هرم سور يحيط به وبالمقصورة، ثالثاً: كان لحجرة الدفن سلم مفتوح ينحدر من الغرب، ويأدى إلى سلسلة حجرات، تتكون من حجرتين أو ثلاث حجرات للدفن.

هذا وكان الزخرف فى حجرات الدفن والشوايت المنحوتة من الجرانيت يتشبه مع الأسلوب المصرى فى كل التفاصيل، فالنقوش الدينية التى تغطى جوانبها تتبع تقليداً ترجع إلى أهرامات مصر، كما أن بعض أدوات الأثاث الجازى التى نجت من نابشى القبور، كجرار سكب القرايين وتمائيل الأوشابتي والتماثيل الصغيرة، تماثل تماماً تلك التى وجدت فى مصر.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى «مرسوم نورى» الذى أصدره الفرعون «سيسى الأول» (١٣٠٨ - ١٢٩١ ق.م) فى عام حكمه الرابع، وذلك لمخصصات معبد أوزير فى أيديوس (مركز البليتا - سوهاج)، ووجهه إلى جميع المسؤولين طالباً الحفاظ على ممتلكات المعبد فى التوبة، وعدم التدخل فى شئونه.

هذا وهناك فى «نورى» أقال «طهرقا» مقبرته، وهى أول وأعظم بناء جنازى فى جبانة نورى الملكية، التى أقيمت بعد ازدحام الجبانة القديمة فى «الكرو» - على مبعدة ١٢ كيلا من كريمة - وقد سار على نهج «طهرقا» عدد كبير من ملوك نباتا، فبنوا مقابرهم فى «نورى»، على مبعدة ٢,٥ كيلا من النيل، خاصة وقد أصبح حكم مملكة نباتا - بعد تانوت أمانى - مقصوراً على السودان، دون مصر، وهناك أكثر من ٢٢ هرمًا للملوك فى نورى^(١).

ولارهب فى أن هرم «طهرقا» فى نورى، من أعظم ما أبقت عليه الأيام من أهرام السودان، ويمكن الوصول إلى حجرة الدفن فيه عن طريق سلم ذى درجات تؤدى إلى دهليز، وبعد حجرة الدفن الواسعة التى يحمل سقفها ستة أعمدة مربعة منحوتة فى صخرة الجبل نفسه، وهى تقسم الحجرة إلى ثلاثة أقسام، فى الوسط

(١) محمد إبراهيم بكركى للرجع سابق، ص ١٦٠ - ١٦٢.

منها صفة حجرية ليستقر عليها السرير الخشبي المعد لوضع التابوت فوقه، وفي آخر
حجرة الدفن يوجد باب وراءه بضع درجات تؤدي إلى دهليز يسير حول هذه
الحجرة^(١).

هذا وقد عثر داخل الهرم وحوله على أكثر من مستماتة تمثال مجيب
(أوشابتي) كتب عليها «أوزير، الملك طهرقا»، وكانت هذه التماثيل ترتدى لباس
الرأس الملكي، ومنحوتة في الحجر، وتشبه التماثيل الجيبة المصرية، كما وجدت
أثنتان من أواني الأحشاء باسم طهرقا، وقد نقشت عليها الصيغة التي سادت في
عصر الأسرة الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين، وهي: «حماية الملك طهرقا
المبرأ، إن حابي يحمي أوزير طهرقا المبرأ»^(٢).

على أن هناك أمراً مثيراً بالنسبة لمدفن الملك طهرقا، فالرجل قد أقام لنفسه
مقبرة وهرما في نوري، ذلك أن الهرم الذي لم يعثر بداخله - كما ذكر مكتشفه
راينزر - على أية آثار للدفن، بل إن هناك من يذهب إلى أنه قد تخلى عن المقبرة
التقليدية في «الكرو»، وبني ما يبدو وكأنه مقبرة تقليدية وهمية في نوري شبيهة
بمقبرة أوزير في أييدوس، كذلك هناك مقبرة في «سدنجا» (صدفقا) - على
مبعدة ١٠٩ كيلاً شمالي الجندل الثالث، ٢٤٥ كيلاً جنوب وادي حلفا -
تحتوي بعض ألقاب طهرقا، وهي بعيدة نسبياً عن مراكز الثقل السياسي في كل من
مصر ونيابا، ومع ذلك فإن «جيورجيني» إنما يرجح أن طهرقا قد دفن فيها فعلاً،
بدليل العظام الأدمية التي عثر عليها داخل هذا المدفن^(٣).

والرأى عند الأستاذ الدكتور بكر، أن «جيورجيني» مصيب في رأيه وأن هناك
أمثلة في التاريخ المصري لا تختلف عن ذلك، فلقد أقام بعض ملوك الأسرة الأولى
والثانية مقابر رمزية لأنفسهم في أييدوس، بينما كانت مقابرهم الحقيقية في

(١) أحمد فخري: الأهرامات المصرية، ص ٣٥٦.

(٢) سليم حسن: مصر القديمة، ١١ / ٢٦٦.

(٣) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٥٧، جان لكلاين: المرجع السابق، ص ٢٨٣، وكذا،
M. S. Giorgini, *Kush*, XIII, 1965, p. 116 - 123.

سقارة، كما أقام زوسر في الأسرة الثالثة، مقبرة في سقارة أيضاً، وهكذا فعل «طهرقا» فالخلفية الدينية عند ملوك نباتا، لا تختلف عن ذلك، فلقد أقام بعض ملوك الأسرة الأولى الثانية مقابر رمزية لأنفسهم في أبيدوس، بينما كانت مقابرهم الحقيقية في سقارة. فقد أقام زوسر مقبرة لنفسه في «بيت خلاف»، وفي نفس الوقت أقام هرمه المدرج في سقارة ليدفن فيه، وهذا الذي في كريبما لا يختلف كثيراً عما كان سائداً في مصر^(١).

٢٠/٢١

D. Dunham and O. Bates, op. cit., II, 1955, p. 6 - 16.

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٥٧، وانظر عن المقابر الحقيقية والرمزية (محمد يونس مهران: مصر ٣/ ٣٣ - ٤٤، ١١٣ - ١١٨، محمد أنور شكري: العمارة في مصر القديمة، ص ٢٧٦ - ٢٧٧، وكلاهما).

W. B. Emery, *Archaic Egypt*, 1963, p. 65 - 68, 74 - 80, 84 - 90.

W. M. F. Petrie, *The Royal Tombs of The First Dynasty*, I, London, 1900, p. 19 - 20.

الفصل الثاني

المغرب القديم

(١) المدن الفينيقية والمراكز الأثرية

تقديم:

لا ريب في أن الفينيقين قد تأثروا إلى أبعد الحدود بالبيئة التي عاشوا فيها، وامتنعوا لها استجابة كاملة، فشكلت مجازتهم وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، على أن أبرز النواحي التي ظهرت فيها آثار البيئة في الحياة الفينيقية هي النشاط البحري، فقد كانت جبال لبنان التي تقع خلف الوطن الفينيقي تعرق صلصلة السهول الساحلية بالأقاليم الداخلية، وتجبر السكان على أن يلتصقوا لأنفسهم مخرجاً آخر، وذلك بأن يتجهوا إلى البحر، هذا فضلاً عن أن البيئة المحلية لم تعد قادرة على إعالة عدد من السكان يتزايد عددهم عاماً بعد عام، ولم تكد الزراعة بقيادة على إطعام آلاف الأفواه التي تعيش في المدن الساحلية.

وانطلاقاً من كل هذا، فقد كان على الفينيقين أن يلتصقوا لهم سبلاً أخرى، أو أن يتطلقوا إلى ميدان التجارة، وأن يتصلوا بالأمم الكبرى من وراء البحر، هذا فضلاً عن أن سفوح جبال لبنان إنما تزخر بالخشب الجيد الصالح لبناء السفن، وهكذا فإذا اقترنت الرغبة في المخاطرة، والبحث عن لقمة العيش، بتوفر المواد الصالحة، والمواد الخام اللازمة، لم يكن شيباً غريباً أن يستجيب هؤلاء الساميون القادمون من شبه الجزيرة العربية لنداء البيئة، ويتركوا حياة البداوة التي ألفوها، ويقبلون على البحر فيركبون ممتة.

هذا وقد بدأ القوم برحلات بحرية قصيرة لصيد الأسماك أو البحث عن الزجاج أو الصلصال، ثم بيع هذه الأشياء وغيرها من المنتجات المحلية الأخرى، ثم زاد هذا النشاط بعد القرن الثالث عشر أو الثاني عشر قبل الميلاد، حينما ضنط الأراميون عليهم في وسط سورية، وأحاط بهم الإسرائيليون والفلسطينيون من

الجنوب، ومن ثم فلم يجدوا مقراً من أن يتجهوا إلى البحر بكليتهم، فقد كان هو المخرج الوحيد^(١).

وقد أدى هذا الوضع الجديد إلى إنشاء محطات ومراكز مستقرة في المناطق التي تتجه إليها سفنهم لتكون محطات استقرار، أو على الأقل، محطات يستريحون فيها أياماً معدودات، في أول الأمر، على الأقل، وقد أدى ذلك إلى تنابع هجراتهم بالتدرج، وعلى مرات معدودات، تحقيق هذا النشاط التجاري في هذه الأسواق والمناطق الجديدة في غربي البحر المتوسط^(٢).

وليس هناك من ريب في أن الدوافع الأساسية وراء إرسال التجار الفينيقيين إلى غربي البحر المتوسط، وهو البحث عن موارد معدنية - وخاصة الذهب والفضة والنحاس والقصدير، وقد قادهم هذا البحث - في تاريخ مبكر - إلى أسبانيا التي ظلت أحد المصادر الرئيسية في عالم البحر المتوسط، حتى في العصر الروماني^(٣).

ونقدم لنا التوراة - في سفر حزقيال - وصفا مفصلاً لتجارة الفينيقيين البرية والبحرية في مظاهرها المختلفة، وهو يذكر من بين وارداتهم، الفضة والحديد والقصدير والرصاص من أسبانيا، والرقيق وأواني النحاس الأصفر من إيوانيا، والكتان من مصر، والخراف والماعز من شبه الجزيرة العربية، ويشير «هيروdot» إلى أن توابل بلاد العرب كانت تنقل عن طريق التجار الفينيقيين^(٤)، ونقرأ في التوراة أيضاً عن أسطول «حيرلم» ملك صور، الذي أبحر مع أسطول سليمان إلى «أوفير»^(٥)، ولقي من هناك بالذهب والأخشاب النادرة والأحجار النفيسة، وكل ما هو نادر وغريب^(٦).

(١) حسن محمود: المرجع السابق، ص ٣٩٢.

(٢) محمد يومي مهران: تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم، القاهرة ١٩٨٥، ص ١٨٤.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ٤٥٤.

(٤) حزقيال ١ / ٢٧ - ٣٦، نجيب ميخائيل. المرجع السابق، ص ١١٦، فيليب حبي المرجع السابق، ص ١٠٧ - ١٠٨، وكذا Strabo, XVI, 3 - 4.

(٥) أنظر عن «أوفير» والآراء التي دارت حول موقعها (محمد يومي مهران: إسرائيل، التاريخ، الجزء الثاني، الإسكندرية، ١٩٧٨، ص ٧٨٢ - ٧٩٢).

(٦) ملوك أول ١١ / ١٠ - ١٢، محمد يومي مهران المرجع السابق، ص ٧٨١.

وبقسول «ديودور الصقلي» (٨٠ - ٣٠ ق.م) أن الوطنيين (أي في أسبانيا) إنما كانوا يحولون استخدام الفضة حتى حصل عليها الفينيقيون في رحلاتهم التجارية في مقابل كمية قليلة من السلع، وحملوها إلى بلاد الإغريق وآسيا والبلاد الأخرى، وحصلوا على ثروات كبيرة، كما زادت قوتهم عن طريق هذه التجارة التي مارسوها لوقت طويل، وكانوا قادرين على إرسال أعداد من المهاجرين إلى صقلية والجزر البعيدة وأفريقيا وسردينيا، وإلى أسبانيا ذاتها^(٧).

وعلى أية حال فلم يكن الفينيقيون يكتفون بمجرد التجارة والعودة من حيث أتوا، وإنما كانوا يستقرون ويستعمرون وينشئون منها فينيقيا جديدة، أما إذا كانت البلاد التي ينزلها الفينيقيون ذات حكومات قوية وقادرة على حماية نفسها، فإن ملاحى فينيقيا لا يؤسسون مستعمرة حقيقية، وإنما يكتفون بوكالات تجارية وبشراء حق حرية التجارة، كما فعلوا في مصر، حيث استقروا عند مصبي الدلتا، وطبقا لرواية هيرودوت، فلقد اتخذوا لأنفسهم في «منف» - العاصمة المصرية القديمة - حيا خاصا بهم سمي «معسكر الصوريين»، كمحات أقاموا معبدا هناك كانوا يتعبدون فيه للمعبودة «إفروديت الأجنبية»، وهي عشتار على الأرجح^(٨).

٢- المستعمرات الفينيقية في الشمال الأفريقي:

لعل من الأهمية يمكن الإشارة هنا - وقبل أن نتحدث عن المستعمرات الفينيقية في الشمال الأفريقي - إلى عدة نقاط، لعل من أهمها (أولا) أن تأسيس المراكز الفينيقية في المغرب، إنما قد تم في حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، ومن ثم فإن العصر الفينيقي إنما قد استمر فيما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، حيث بدأت الدولة القرطاجية في الوجود على قدميها، كقوة ذاتية مستقلة سياسيا عن المشرق.

ومنها (ثانيا) أن العصر الفينيقي في المغرب إنما كان عصر استكشاف

(٧) ب. هـ. ورامنجنون: المرجع السابق، ص ٤٥٤.

(٨) ج. كوتنتو: المرجع السابق، ص ٩٥، محمد بيومي مهران: تاريخ مصر الفرعونية والمشرق القديم،

ص ١٨٤، نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ١١٦.

اقتصادي، أكثر منه عصرًا سياسيًا، ذلك لأن المدن الفينيقية في الشمال الأفريقي إنما كانت تابعة سياسيًا لمدينة «صور» في فينيقيا، بل يمكننا القول أن الارتباط السياسي - فضلًا عن الالتزام الضريبي، وربما الحضاري - إنما ظل قائمًا حتى بعد استقلال المدن الفينيقية الإفريقية عن أصولها الأولى في فينيقيا. ومنْها (ثالثًا) أن الانتقال من المرحلة الفينيقية إلى المرحلة القرطاجية، إنما قد تم في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، حيث أسس «ماقون» أو «ماجوه» Mago أسرة حاكمة في «قرطاج» (الأسرة الماجونية)^(٩).

وأما أهم المدن أو المستعمرات الفينيقية في الشمال الأفريقي (المغرب) فهي:

١- قرطاج:

لا ريب في أن أعظم المدن الفينيقية عبر البحر قاطبة إنما هي مدينة «قرطاج»^(١٠)، وتقع على مقربة من مدينة «تونس» الحالية، فيما بين «بورسعيد» و«لاجويت»، ويرجع تأسيسها إلى عام ٨١٤ ق.م، حتى وإن زعم البعض أنه يرجع إلى ما قبل ذلك - إلى القرن الثامن قبل الميلاد - حيث ثبت حتى الآن عدم وجود أية آثار فينيقية الأصل في تلك المناطق قبل منتصف القرن الثامن (أي حوالي عام ٧٥٠ ق.م)^(١١)، وهو لا يعد كثيرًا عن التاريخ المتعارف عليه، أي عام ٨١٤ ق.م، وعلى أية حال، فلا يمكن أن نستنتج شيئًا ذا قيمة تاريخية من أسطورة تأسيس قرطاج التي وصلت إلينا في مختلف كتابات المؤلفين الإغريق والرومان^(١٢).

هذا ويذهب البعض إلى أن اسم «قرطاج» (قرطاجة) (Carthago) رُفِيَ

(٩) رشيد الناضوي. المرجع السابق، ص ١٦٧ - ١٧٣، هـ ب وارمنجتون. المرجع السابق، ص ٤٥٦.

(١٠) قرطاج: حرت. عادةً بعض المؤرخين أن يكتبوها «قرطاجة»، وهو خطأ شائع، والصحيح كتابتها «قرطاجة» أو «قرطاج»، كما يسميها أهل تونس أنفسهم، أما «قرطاجة» فهي مدينة في أسبانيا. معالم تاريخ الإنسانية ١٢ / ٥٥٥.

(11) B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, p. 22.

D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, p. 54.

(١٢) ب هـ وارمنجتون. المرجع السابق، ص ٤٥٥.

اللاتينية Carthage) إنما هو صورة محرفة من الإسم الفينيقي «قرت حدثت» بمعنى «المدينة الجديدة»، ويدل هذا ضمناً على أن المكان قدر له منذ البداية أن يكون المستوطنة الرئيسية للفينيقيين في الغرب، وطبقاً لقصة إنشائها، أو بعبارة أصح أسطورة إنشائها^(١٣)، فقد أسستها الأميرة «إلياء» (Eliasa) ابنة «متان» ملك صور، عندما هربت من ظلم أخيها «بيجماليون» (Pygmalion) - الذي خلف أباه في حكم صور، وكانت إيليا ترغب في الزواج من خالها «أشرباس» (Echerbas) - أحد كهنة المعبود ملقارت - وقد أغضب ذلك أخوها «بيجماليون» فأمر بقتل هذا الكاهن، مما دفع إيليا إلى الهجرة إلى جزيرة قبرص - مع عدد من المعارضين لأخيها - وهناك أنضم إليها أحد كهنة المعبود «عشتارت» Astarte الذي اشترط أن تكون له ولعائلته أولوية في كهنوت المراكز الفينيقية الجديدة، وأن يكون ذلك وراثياً في أسرته، وسرعان ما انضمت إليها ثمانون عذراء كانوا أصلاً للبقاء المقدس، ثم اتجهوا جميعاً إلى منطقة الساحل الأفريقي المغربي، غير أن «إلياء» سرعان ما انتحرت عندما أراد رئيس البربر أن

(١٣) لعل مما تجدر الإشارة إليه أن هناك الكثير من الأساطير التي ترتبط بالشخصيات الهامة - وربما الأسطورية - بتأسيس المدن الهامة، فضلاً عن الأحداث الرئيسية، وذلك لأن الكتاب المقدس أرادوا لفت الأنظار إلى أهميتها - للدين والأحداث - فقاموا بتسجيلها بصورة شعبية وبإسهاب وتفصّل، قد يترى في كثير من الأحيان عوالم طائف العامة وخیالهم، أكثر مما يرضى عقول العلماء، فقدموا لنا أحداثاً أقرب إلى الأساطير منها إلى التاريخ الحقيقي.

وهناك في تاريخ العرب القديم - على سبيل المثال - مدينة «هاتل» - وهي مركز ديني هام في دولة معين - وتسمى «براقش» (وكانت قديماً تسمى «طليل»)، وهي نفسها مدينة (Athluba) (Athrula) = - آخر موضع وصلته حملة «إليوس حاليوس» الروماني على اليمن في عام ٢٤ ق.م - وعلى أية حال فإن «براقش» عند الإغباريين مدينة قديمة جداً، كان يسكنها عند ظهور الإسلام «هو الأبر» من بلحارث بن كعب ومراده، وقد اختلفوا في سبب تسميتها «براقش»، فرواية تذهب إلى أنها إنما سميت كذلك نسبة إلى كلبية عرفت باسم «براقش» ورواية أخرى نسبها إلى امرأة تدعى «براقش» عهد إليها أبرها بتصرف شؤون الدولة أثناء غيابها في واحدة من غزواته، فما كان من «براقش» إلا أن اعتجبت الفرصة، فبست مدينتي «براقش» ومعين لتعيداً لذكراها، غير أن ذلك قد أغضب والدها الملك، ومن ثم فقد أمر بهدم المدينة، على أن رواة ثالثة نسبها إلى «براقش» امرأة لقمان بن عاد (نظرو: البكري ١/ ٢٣٨، اليلاني ١٤ / ٢ - ١٥، البيان والنبين للجاحظ ١/ ٢٢٢، القاموس المحيط ٢/ ٢٧٢، وكنا محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم ص ٣٣٢).

يتبعها زريعة له، هذا يسمى الرواة الأميرة «إليا» هذه باسم «ديدون» بمعنى «الهارية»، وهو اسم غير فينيقي، وليست لدينا أية وثائق تسوغ لنا قبول هذه الرواية أو حتى رفضها^(١٤).

غير أن هناك مصدرا آخر يتحدث عن تأسيس «إليا» (ديدون) لمدينة «قرطاج» حيث يحددنا المؤرخ البهردي «يوسف بن متى» (يوسفوس فيلافيوس = ٣٧ - ٩٨ أو ١٠٠ م)^(١٥) - نقلا عن آخرين - أنه في السنة السابعة من حكم «بيجامبون» أسست إليا مدينة قرطاج، ومن ثم فهناك عنصر تاريخي سليم - إذا ما صدقت رواية يوسف اليهودي - يتعلق بارتباط هذه الأميرة الصورية بتأسيس مدينة قرطاج^(١٦).

وعلى أية حال، فإن المستوطنات الفينيقية جميعا، بما فيها قرطاج نفسها - على عكس المستوطنات التي أقامها الإغريق في صقلية وإيطاليا وغيرهما في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد - إنما ظلت (أي المستوطنات الفينيقية) محدودة المساحة، وربما لم يسكنها، لدى بضعة أجيال، غير مئات قليلة من المستوطنين على الأكثر^(١٧).

ولاريب في أن المؤرخ الروماني «إبيات» (القرن الثاني الميلادي) إنما كان موفقاً إلى حد كبير في وصفه لمدينة قرطاج عندما وصفها بأنها أشبه ما تكون بالسفينة الراسية، فهي بنيت في شب الجزيرة المحاطة بالبحر من ناحية، وبالبحيرتين من ناحية أخرى، الأمر الذي جعل رجنيتها بحرية، أكثر منها برية أفريقية، وعلى أية حال فمدينة قرطاج إنما تعتبر نموذجا للمدينة القرطاجية التي تعبر عن التفكير والحياة القرطاجية، فضلا عن النشاط السياسي والاقتصادي في العصر القرطاجي^(١٨).

(١٤) ج. كوتشور: المرجع السابق، ص ٩٨، ب. هـ. ولونجتون: المرجع السابق، ص ٤٥٥، رشيد
المرجعي السابق، ص ١٦٢ - ١٦٣.

(١٥) أنظر عن يوسف بن متى (محمد بن مهران: تاريخ العرب القديم، ص ٣١ - ٣٢)

(١٦) رشيد الناصري: المرجع السابق، ص ١٦٣

(١٧) ر. هـ. ولونجتون: المرجع السابق، ص ٤٥٥ - ٤٥٦

(١٨) رشيد الناصري: المرجع السابق، ص ١٧٧ - ١٧٨ وكذا

Gilbert and Collette Charles - Picard, Daily Life in Carthage,
London, 1961, 26

هذا وقد كان لقرطاج ميناء صناعي أُعد إعداداً جيداً، فأما الميناء الخارجي فكان لا يستخدم السفن التجارية، وإن كما لا نعرف عدد السفن التي كان يمكنها استخدامه في وقت واحد، وما الداخلي فكانت به أرصفة وأحواص تتسع لمائتين وعشرين سفينة حربية، هذا فضلاً عن مبنى للمراقبة يصل ارتفاعه إلى درجة تكفي للرؤية - رغم المباني المتفرقة - إلى مسافة بعيدة في البحر.

وكانت أسوار المدينة - والتي ترجع إلى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد - هائلة الحجم، الأمر الذي مكنها من الصمود لكل هجوم - بما في ذلك الهجوم الروماني الأخير في عام ١٤٦ ق.م - وكان طول الأسوار - بما في ذلك المسافة المطلة على البحر - حوالي ٣٥ كيلاً، وكان ارتفاع القطاع الحاسم - لمسافة ٤ كيلاً عبر برزخ قرطاج - أربعين قدماً، وسمكه ثلاثين قدماً، ولم تقتصر مهمة تلك الأسوار، وإنما كانت جدران الأسوار الضخمة تستخدم بعد تجهيزها بالاحتياجات الأساسية - كشحنات واسطوانات ذات أسوار سفلية وعلوية، وكان الدور السفلي يسع ٣٠٠ فيلاً، ويسع العلوي ٤٠٠٠٠ حصاناً، وقد جهزت الأرضيات المنحدرة بحيث تساعد على نزول وصعود هذه الحيوانات، وتوسع الشكنات لحوالي عشرين ألف جندي من المشاة، وأربعة آلاف من الفرسان، هذا فضلاً عن حفر خندق كبير يبلغ عرضه عشرين متراً لزيادة تحصين المدينة، الأمر الذي جعل وسائل الدفاع عن قرطاج في غاية القوة.

ولم تقتصر وسائل التحصين على ذلك، وإنما أقيمت أيضاً قلعة داخلية، مكانها الآن كنيسة لويس التاسع، ويحيط بها سور كبير طوله حوالي ٣ كيلاً، وهو بلا شك أقدم جزء في المدينة.

وهناك أيضاً آثار المباني ذات الصبغة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كالساحات - أو كما تسمى عند المواطنين العرب في تونس بالرحبة أو البطحاء - وتشبه الساحة اليونانية (Agora) واللاتينية (Forum)^(١٩)، وتقع في مكان

(١٩) الاجوراء (Agora) عند اليونان، والفسوروم (Forum) عند الرومان، هو سوق المدينة، وكانت تجرى فيه أعمال البيع والشراء، وهو ملتقى الاجتماعات العامة، ولما اتسعت روما زاد عدد الأسواق بها، وكانت تقوم به للنشأت والأهنية العامة.

متوسط بين الميناء والقلعة، وهكذا وجد بين الميناء وتل بيرصة ساحة عامة مكشوفة، تشبه «الأجوراء» الأغريقية، و«الفروروم» الروماني، وإن كان يبدو أن ساحة قرطاج إنما قد خططت تخطيطاً منتظماً، أو اتخذت مظهر الفخامة الذي تميزت به ميادين المدن الأغريقية، هذا فضلاً عن مبان أخرى لها وظيفتها السياسية مثل مبنى مجلس الشيوخ وقاعات القضاء^(٢٠).

وعلى أية حال، فإن مدينة قرطاج - في أكبر الظن - قد نمت دون تخطيط، فكانت شوارعها ضيقة ملتوية، وإن كانت مرتفعة بالنسبة لعصرها، حتى وصل ارتفاع بعضها إلى ستة طوابق، شأنها في ذلك شأن تلك المباني التي وجدت في صور - المدينة الفينيقية الأم - وفي موتيا في صقلية، وقد استمر القرطاجيون في تلك المباني ذات الأدوار المتعددة، بصورة تقليدية لما كان في مدينة صور، رغم عدم الحاجة إليها في المغرب، وعلى أية حال، فلقد وضحت في تلك الدور القرطاجية بعض التأثيرات المعمارية اليونانية، وخاصة الأعمدة الإيونية^(٢١).

وأياً ما كان الأمر، فلقد استكملت قرطاج جوانبها الدينية بيناء المعابد، غير أن معابد قرطاج - رغم ما قيل عن كثرتها، - فليس هناك ما يشير إلى أنها كانت ضخمة، حتى المراحل الأخيرة من التاريخ القرطاجي، حين وضع التأثير الثقافي الإغريقي، وذلك لأن الأدلة إنما تشير إلى أن القرطاجيين إنما كانوا قوماً محافظين في المسائل العقدية، ومن ثم فقد ظلوا طويلاً مخلصين بساطة الأماكن المقدسة الخالية من أية أبنية أو أنصاب فخمة^(٢٢).

بقيت الإشارة إلى أن ما يقدمه لنا المؤرخون عن عدد السكان في قرطاج، إنما هو مجرد افتراضات، لا تقوم على إحصائيات رسمية، وعلى أية حال، فلقد قدر «سترابون» عدد السكان بسبعمائة ألف، وهذا يعني ببساطة كشافة سكانية مستحالة، فضلاً عن أن مدن العالم القديم لم تكن تعرف هذه الأرقام في عدد

(٢٠) ب. هـ. ولرمسجنون: المرجع السابق، ص ٤٦٢، أحمد صقر: مدينة المغرب العربي في التاريخ، تونس ١٩٥٩، ص ٩٧، ١٠٢، رشيد الناصري: المرجع السابق، ص ١٧٩ - ١٨٠

(٢١) ب. هـ. ولرمسجنون: المرجع السابق، ص ٤٦٢. رشيد الناصري: المرجع السابق، ص ١٨٠

(٢٢) ب. هـ. ولرمسجنون: المرجع السابق، ص ٤٦٣

السكان، وإن كان هناك من يذهب إلى أن «سترايو» كان يعنى بهذا العدد الذى ذكره (سبعمئة ألف) كل سكان قرطاج وكل منطقة أذار، وربما كان التقدير الأكثر قبولا هى أربعمئة ألف، بما فى ذلك العبيد، وهو، على أية حال، رقم يجعل عدد سكان قرطاج مساويا لعدد سكان أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد (٢٣).

وأما ما كان الأمر، فإن التاريخ الحقيقى لقرطاج لم يبدأ إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد، عندما بدأت صور تضمحل ويقال شأنها تحت ضربات الإمبراطور الكلدانى «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م)، كما أشرنا من قبل، ثم خضوعها له وضمها إلى الإمبراطورية البابلية الكلدانية، غير أن العامل الأهم - فيما يرى وارمنجتون - إنما كان ازدياد ضغط المستوطنات الإغريقية فى صقلية، مثل «مقرقوسة» التى نبت ثروتها وسكانها بسرعة كبيرة، والتى تأسست أصلا - هى وغيرها من المستوطنات هناك - نتيجة للضغط السكانى فى بلاد اليونان ذاتها.

وسرعان ما ازدهرت قرطاج حتى غدت زعيمة المدن الفينيقية فى أواسط البحر المتوسط، ثم صارت قرطاج على نفس سياسة صور وصيدا، فأظلت المدن الفينيقية بحمايتها، وأسست مستعمرات جديدة، من ذلك تلك المستعمرات التجارية فى جزيرة «إليا» - بين سردينيا وأسبانيا - حوالى عام ٦٥٠ ق.م، فضلا عن مستعمرات أخرى على شواطئ «مينوركا» فى جزر البليارد، وغيرها من المستعمرات على شواطئ البحر المتوسط الأوربية والأفريقية (٢٤) - كما سنرى -.

هذا وكان المظهر الوحيد فى قرطاج (قرطاجنة) الذى حظى بإطراء ومديح أباطره الإغريق والرومان هو دستورها السياسى الذى يبدو أنه كان يكفل لها الإستقرار، وهو مطلب عزيز كانت تشده المدن فى العصور القديمة، إن كانت التفاصيل عن هذا الدستور غامضة، كما أنه ليس من المؤكد أن هؤلاء الكتاب

(٢٣) نفس المرجع السابق، ص ٤٦٣ - ٤٦٤.

(٢٤) محمد يرمى مهراب: المرجع السابق، ص ١٨٥ - ١٨٦، وكنا:

D. Harden, the Phoenicians, London, 1963, p. 54.

القدامى قد أدركوا الحقائق، كما ينبغي أن تدرك (٢٥)، وعلى أية حال، فإن التنظيم الساسى فى قرطاج قد مر بمراحل رئيسية ثلاثة:

١ - المرحلة الأولى: مرحلة الملكية، والتي استمرت حتى العصر الهلينستى، وذلك النظام استمرارا لما كان موجودا فى حكومات المدن الفينيقية فى المشرق - كما تشير إلى ذلك النظام الفينيقى الوثائق المصرية والآشورية - فقد كانت الملكية الفينيقية وراثية فى الغالب، مع انقطاع أحيانا فى التسلسل الملكى - ومع ذلك، ففى الإمكان عمل قوائم بأسرات ملكية حكمت فى عدة مدن، وإن كانت غير كاملة، فهناك مثلا أسرة حيرام فى صور، وكذا (لولى) (البلو ايلى) فى صور أيضا، وقد ظهر الأول كأهم شخصية فى منطقة الساحل فى عهد داود وسليمان عليهما السلام، وظهر الثانى كأهم شخصية فى نفس المنطقة على أيام سرجون الثانى (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م)، بل إنه إنما قد فرض شخصيته على قسم كبير من فينيقيا، حتى أنه حاول إخضاع قبرص (٢٦).

غير أن الملكية القرطاجية - رغم ذلك - إنما كانت إلى حد ما فريدة فى نوعها، فهى ليست كالمملكة المصرية القديمة ذات الطابع الإلهى (٢٧). أو الملكية السومرية (٢٨)، ذلك لأن الملكية القرطاجية إنما كانت فى بداية أمرها تتم عن طريق الانتخاب - وليس الوراثة - فكان الملك القرطاجى يختار من الطبقة

(٢٥) ب. هـ. وارتيجون: للرجع السابق، ص ٤٦٤.

(٢٦) أنظر: (محمد بيومى مهران: إسرائيل، الكتاب الثانى ص ٧٨ - ٧٨٤، ص ٨٤٣ - ٨٤٧، ٩٠٤، ٩١٠ - ٩١٢، ٩٦٣).

(٢٧) أنظر: سورة الشعراء: آية ٢٩، القصص: آية ٣٨، النازعات آية ٢٢: ٢٤، محمد بيومى مهران: الحضارة المصرية القديمة، الجزء الثانى، الطعة الرابعة، الإسكندرية ١٩٨٩ ص ١١٩ - ١٥١.

(٢٨) هاك ما يشير إلى مبادئ ديمقراطية بدأت فى العراق القديم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، تشير إلى تواجد التفكير الديمقراطى فى بداية العصر التاريخى، وانتخاب الحاكم الذى يرأس حكومة المدينة، بناء على قرارات الجمعية الصومية، والتي تتكون من جميع المواطنين، ربما بما فيهم النساء (أنظر: رشيد الناصورى: جوى غرب آسيا وشمال أفريقيا، محمد عبد اللطيف: تاريخ العراق القديم، ص ١٧٨ - ١٨٠).

T. Jacobson, Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia, in JNES. II. 1843, p. 165, No. 35.

الإرستقراطية، ذات المال والجاه المورثين، ومن ثم فإن النظام السياسى القرطاجى يتفق مع الهدف الفينيقي الأول، وهو الإستحواذ على الثروة الاقتصادية، حتى أن العمليات السياسية والحربية القرطاجية إنما كانت تهدف إلى تدعيم الجانب الإقتصادى، كما أن عمليات الإستكشاف البرى والبحرى القرطاجى، فضلاً عن التدخل فى أسبانيا وغيرها، إنما كانت لتثبيت هذا الهدف الإقتصادى الذى احتل مكان الصدارة فى التاريخ الفينيقي والقرطاجى، ومن ثم فقد كان أصحاب الثروة فى المكانة الأولى فى السلطات السياسية.

وعلى أية حال، فلقد تولى منصب الملك فى قرطاج خلال القرنين، السادس والخامس قبل الميلاد، أفراد من «الأسرة الماجونية»، والتي ظهر من أفرادها المبرزين «هميلكار» (حملقرت = Hamilcar) الذى قاد حملة فى عام ٤٨٠ ق.م، والمستكشف «حنون» (هنو = Hanno) الذى ربما كان ابناً للملك «هميلكار»، وذلك لأن النصوص تشير اليهما بوصفهما ملكين، وقد شغل ملوك أسرة «ماجون» (ماجون) خلال هذين القرنين (السادس والخامس قبل الميلاد) منصب القادة العسكريين للدولة كذلك، عندما تطلبت ذلك تلك القيادة، ومن المحتمل أن الكتاب القدامى فى تلقيبهم لهؤلاء بالملوك قد أخذوا فى الإعتبار سلطنتهم الدينية والقضائية، فضلاً عن سلطاتهم السياسية.

٢- وفى أثناء القرن الخامس قبل الميلاد حدث تطور أدى فى النهاية إلى تناقض قوة الملوك نتيجة لتغير النظم الإقتصادية، فلقد نشأت طبقة جديدة فى المجتمع القرطاجى، وهى طبقة ملاك الأراضى الزراعية، وبذلك بدأت عوامل التنافس الإقتصادى على الثروة، والتنافس السياسى على الحكم، وقد نجحت طبقة ملاك الأراضى فى النهاية من الإستحواذ على تلك السلطة، وانتزاعها من الأسرة الماجونية، وذلك فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ومن ثم فقد بدأت مرحلة جديدة هى أقرب إلى النظام الجمهورى، منها إلى النظام الملكى، رغم الإستمرار فى استخدام تعبير «الملك» الحاكم للبلاد، وقد استمرت هذه المرحلة الثانية من التنظيم السياسى فى قرطاج من حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، إلى حوالى بداية القرن الثالث قبل الميلاد.

هذا وقد صاحب هذا التطور الجديد نشأة «الشفطان» (Sufetes)، وهو الإصطلاح السياسي القرطاجي الوحيد الذي نقله لنا الكتاب الرومان، وكلمة «الشفطان» أو السبطان، تعادل الرقباء (المناسرة) عند الرومان، كما كان لقبها باللغة السامية يعادل لقب «القضاة»^(٢٩) عند بني إسرائيل، ومنذ القرن الثالث كان ينتخب منها اثنان - وربما أكثر - سنويا، وقد ظل اصطلاح «الشفيط» (Selinus) مستخدما في شمال أفريقيا في مناطق الثقافة القرطاجية لمدة قرن على الأقل بعد الغزو الروماني، ليشار به إلى الحكام الرئيسيين للمدينة، وكان تقلص سلطة الملك سببا بالتطورات في المدن الإغريقية وروما، وفي نفس الوقت إزادات قوة الإمبراطورية الثرية، حتى أصبح لهم - إلى جانب عضويتهم الجماعية في مجلس للدولة يشبه السناتو الروماني (مجلس الشيوخ) - مجلسان آخران منتخبان - مجلس المائة والأربعة ومجلس الثلاثين - وهما يكونان في الحقيقة «أوليجركية» ضيقة وثيقة البنيان، مكونة من أغنى الرجال، وأوسعهم نفوذا، ويتحكمون في كل إدارات الحكومة.

هذا ورغم أن جماعة المواطنين كان لها بعض الرأي في انتخابات الملوك والشفطان وغيرهم من المواطنين فإنه من المؤكد أن السياسات القرطاجية كانت تحكمها الثروة دائما، ويختبر الفيلسوف اليوناني «أرسطو» (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) أن الدور الذي لعبته الثروة في قرطاجة كان مظهرا سيئا، فليقد كان شرف المولد وتوفير الثروة شرطين أساسيين للانتخاب، فكل الأمور يقررها الملوك أو الشفطان والمجلس بالتشاور معا، وفي حالة اختلافهم فقط تتم استشارة الجمعيات الشعبية (الوطنية).

٢- وكانت المرحلة الثانية في عملي أيام القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، وتركزت فيها السيادة السياسية لأسرة بركة (برقا) وإن انتقلت عن المرحلة الأولى، إلا أنها حسعت هذه المرحلة الثالثة بين سلطة بركة وسلطات مجلس الشيوخ وانحسار الآخرين الخاصة بالمئون المالية والدينية كالمجلس الثلاثيني ومجلس الشورى.

(٢٩) أنظر عن القضاة عند بني إسرائيل (محمد بيومي مهران، إسرائيل، الجزء الثاني، ص ٦٢٣ - ٦٥٧).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه هنا أن قرطاج لم تخضع لانقلاب عسكري يقوده قائد طموح أو مغامر، مثلما تكرر هذا المصير في المدن الإغريقية، وخاصة في صقلية، وربما كان السبب أن أجهزة الرقابة والسيطرة كانت فعالة (٣٠).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن «قرطاج» إنما قد انتهت إلى تدعيم كياناتها العسكرية بإنشاء قوة حربية برية وبحرية للدفاع عن الدولة القرطاجية، وفي القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد فصلت قيادة القوات المسلحة فصلا تاما عن الوظائف الأخرى، وكان القواد يعينون فقط في حالة الضرورة، ولحسابات محددة الجهة والهدف، حيث لم يكن للدولة جيش ثابت يتطلب قائدا دائما، وقد انتهجت العديد من الأسر نهجا عسكريا، مثل «آل ماقون» (ماجورن) في أوائل التاريخ القرطاجي، وأسرة برق (Barcids) فيما بعد ذلك.

وكان عبء قيادة الفينيقيين في الغرب - فيما يبدو - ثقيلًا على القوة البشرية المتاحة لقرطاج، وقد ظلت قرطاج حتى القرن السادس قبل الميلاد، تعتمد على مواطنيها - شأنها في ذلك شأن المدن الحرة الإغريقية - غير أنها منذ منتصف هذا القرن السادس، وتحت قيادة «ماقون» (ماجورن) = (Mago) - الذي أسس أسرة حاكمة في قرطاج - إنما اتبعت سياسة «إستخدام القوات المرتزقة» على نطاق واسع، وهي نفس السياسة التي تبعت حتى نهاية التاريخ القرطاجي.

هذا وكانت العبادة في قرطاج تشبه تلك التي في فينيقيا، وأهم المعابدات

١- بعل حمون ٢- تانيت ٣- عشتارت ٤- أشمون ٥- ملقارت

هذا وقد اعتمدت قرطاج على التجارة، أكثر من أية مدينة أخرى، وأن الرجل القرطاجي الأصيل، إنما كان في أذهان الناس وقت ذلك - وخاصة عند اليونان والرومان - تاجراً بطبعه، كما كانت قرطاج تمثل أغنى مدينة في عالم البحر المتوسط، ومع ذلك فإن الثروة التجارية لم تترك آثارا تنفق، وما اشتهرت به قرطاج من غنى وجاء، فضلا عن أنها - (أي الآثار) - أقل بكثير من آثار المدن الكبرى

(٣٠) - هـ. وليمسون المرحوم السابق، ص ٤٦٤، رشيد الناصري. المرحوم السابق، ص ١٨٠ - ١٨٤، هـ. ج. ويلر: معالم تاريخ الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق حابدة، القاهرة ١٩٦٩، ص ٥٣١

- الإغريقية والإثروية - التي ترجع إلى نفس الفترة، وليس هناك من رهب في أن أحد الأسباب الرئيسية في حالة قرطاج، أن أغلب تجارتها إنما كانت في سلع لا تترك أثراً، فأغلبها معادن غير مصنعة - وهي الهدف الرئيسي من حركة الاستكشاف، الفينيقية - ثم المنسوجات والرقيق والمواد الغذائية التي تزايدت نتيجة لاستغلال أراضيها الخصبة، وكانت تجني الأرباح من التجارة مع القبائل الداخلية التي جلبت منها الذهب والفضة والقصدير، وربما الحديد أيضاً، ذلك لأن قرطاج - كما هو معروف - إنما كانت تصنع أسلحتها بنفسها - .

وليس من شك في أن قرطاج إنما قد حصلت على تلك المعادن في مقابل مصنوعات رخيصة، ومن ثم فقد جنت أرباحاً طائلة، وليس أدل على وفرة الأرباح من تلك الجيوش الضخمة التي استطاعت قرطاج تجنيدها من المرتزقة في القرنين - الرابع والثالث قبل الميلاد - هذا فضلاً عن سك العملة من الذهب، على نحو ما فعلته المدن المتقدمة الأخرى وقت ذلك (٣١).

هذا وقد مارست قرطاج احتكار التجارة داخل إمبراطوريتها - سواء بإغراق أية سفينة تخرق هذا الاحتكار، أو بعقد معاهدات تجارية مع المنافسين المحتملين مثل المدن الأثروية وروما - وكان طبيعياً أن لا يسمح للتجار بالتجارة في غربي قرطاج، وهذا يعني ببساطة أن السلع التي كانوا يحضرونها إلى هذه المدينة كانت تنقل إلى السفن التجارية القرطاجية، ومن ثم فقد كانت المنتجات الواردة من أثرويا وكامبانيا ومصر ومختلف المدن الإغريقية إنما تصل إلى عدد كبير من الأماكن في شمال أفريقيا.

وبدهي أن ذلك كله إنما كان مصدر قوة اقتصادية لقرطاج، خاصة بعد التغييرات الاقتصادية والسياسية الضخمة التي حدثت في غربي البحر المتوسط بسبب فتوحات الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م.)، فلقد أوجدت هذه الفتوحات أسواقاً كبرى عالمية للمصنوعات الرخيصة التي كان القرطاجيون في موقع متميز يمكنهم من ترويحها، فضلاً عن الأرباح منها (٣٢).

(٣١) ب. هـ. وارمنجتون، المرجع السابق، ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

(٣٢) ب. هـ. وارمنجتون، المرجع السابق، ص ٤٦١ - ٤٦٢.

عذرا وكان القرطاجيون يقومون برحلات تجارية برية، عبر الصحراء إلى منطقة نهر النيجر والسنغال، وربما كانت عن طريق «لبدة» و «صبراتة»، وهما المدينتان الواقعتان في منطقة تكاد تخلو من عوائق التضاريس الوعرة، وعلى أية حال، فإن اهتمام قرطاج بإبعاد الإغريق عن المنطقة دليل على وجود تجارة هامة مع الداخل، حيث أن الأرض الزراعية المناسبة للإستيطان نادرة، وفي القرن الخامس قبل الميلاد يحدثننا هيرودوت عن مجموعتين قبليتين هما: الجرمانيون والناسامونيون في أقاليم «جنوب سرت»، وأن المسافة بين الساحل ومنطقة الجرمانيتين - المركز السكاني لجرمة - تستغرق ثلاثين يوما، وأن الرومان قد حصلوا - عن طريق الجرمانيتين - على مزيد من المعلومات عن المراكز الداخلية في القرون التالية.

ورغم أن اليونان قد استخدموا العملة في القرن السابع قبل الميلاد - وربما منذ أيام ملك ليديا «كرويسوس» (٦٥٠ - ٥٤٦ ق.م)، واستخدم الفرس العملة على أيام «دار الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) عند نهاية القرن السادس، ورغم أن فينيقيا كانت وقت ذاك خاضعة للفرس، غير أن دارا لم يحاول أن يضرب العملة باسمهم، وأما أقدم عملة شرقية فينيقية فقد ضربت في صور عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ثم تبعتها صيدا وأرواد، وجبيل في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد (٣٣).

وأما «قرطاج» فقد بدأت في إصدار عملتها في القرن الرابع قبل الميلاد، حيث تزايدت تجارتها مع الدول المتقدمة، وحيث أصبح من الضروري - نتيجة للتغيير في الوضع الاقتصادي - أن تدفع للمرتزقة أجورهم نقدا (٣٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى الصراع القرطاجي الروماني، والذي عرف باسم «الحرب البونية» (٣٥) المشهورة في التاريخ الروماني القرطاجي بأدوارها الثلاثة، كانت الحرب الأولى في الفترة (٢٦٤ - ٢٤١)، وكانت الثانية في

(٣٣) عبد الحميد الشرق الخالدة، ص ٣٣٠ - ٣٣١، سبتيز موسكاني، المرجع السابق، ص ١٣٦.

(٣٤) ب. هـ. وارميجون، المرجع السابق، ص ٤٦٢.

(٣٥) كلمة «البونية» (Punic) مشتقة من الكلمة اللاتينية «بونيكوس» (punicus) أي القرطاجية - أعني الفينيقية - ومن هنا سميت الحرب بين روما وقرطاج بالحرب البونية أو الحرب الفينيقية.

الفترة (٢١٨ - ١٠٢ ق.م)، وكانت الثالثة في الفترة (١٤٩ - ١٤٦ ق.م) وذلك من أجل السيادة على غربي حوض البحر المتوسط.

وقد انتهت الثانية منها بانتصار الرومان على «قرطاج»، وكانت الشروط قاسية، بيد أنها تركت لها المجال في أن تأمل في مستقبل كريم، فأجبرت عن التخلي عن أسبانيا لروما، وأن تتنازل عن أسطولها الحربي، إلا عشر سفائن، وأن تدفع عشرة آلاف نالتوم، وأن تتخلي عن سلاح القبيلة، وثمة شرط آخر هو أصعب شروط الحرب قاطية، وبه توافق قرطاج على أن لا تخوض غمار حرب، دون إذن من روما، ثم أضيف آخر الأمر شرط يقضي بتسليم هانيبال - عدو روما اللدود - بيد أن البطل القرطاجي كفى موطنه هذا الإذلال، بأن فر إلى آسيا، وعندما أبرمت روما الصلح مع «أنطيوخس الثالث» (٢٤١ - ١٨٧ ق.م) بعد هزيمته في «مجنيزيا» (مجنيسيا Magnesia) في عام ١٩٠ ق.م، كان تسليم هانيبال أحد شروط هذا الصلح، وسرعان ما قبض عليه في «يشينيا» في مخبأ له، فاعتقله ملكها لكي يرسله إلى الروم، بيد أن هانيبال إنما كان يحمل منذ أمد طويل في خاتمه السم اللازم له، وبه قضى على نفسه في عام ١٨٣ قبل الميلاد، وأما «سكيپو» فقد عاد إلى روما، وأقيمت له مواكب النصر، ومنح لقب «الإفريقي»، وأصبح يعرف باسم «سكيپو الإفريقي» (Scipie Africanus)، تخليداً لانتصاره على هانيبال (٣٦).

وانتهت الحرب البونية الثالثة بتدمير العاصمة «قرطاج»، ومن ثم فقد توقفت هذه القوة السياسية الهامة في المغرب، وحوض البحر المتوسط، وانفردت القوة الرومانية بالسيادة الكاملة على هذه المنطقة، فضلاً عن مناطق حوض البحر المتوسط الشرقية والغربية جميعها (٣٧).

(٣٦) هـ. ج. ويلز: المرجع السابق، ص ٥٤٩ - ٥٥٠، أحمد صقر: المرجع السابق، ص ٢٣١، رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ٢٧٢ - ٢٧٥، عبد اللطيف أحمد علي: المرجع السابق، ص ١٢٧ - ١٢٩، مصطفى الهادي: المرجع السابق، ص ٥٤ - ٥٥، وكذا:

H. G. Wells, op. cit., p. 117.

B. H. Warmington, op. cit., p. 190 - 191.

(٣٧) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٢) أوتيكا:

كانت أوتيكا (Utica) - أو عتيقة - بمعنى القديمة، تميزها لها عن «قرطاج» بمعنى الجديدة أو الحديثة، وقد سماها ابن خلدون (١٣٣٢) - (١٤٠٦ م) «وطاقة»، وتقع إلى الغرب من قرطاج، وتلي قرطاج في الأهمية، وتعتبر أقدم مستعمرة فينيقية في شمال أفريقيا، على الأرجح، وقد أسستها صور حوالي عام ١١٠٠ ق.م، أو ١١٠١ ق.م، وقد عثر على آثار ترجع إلى حوالي هذا التاريخ.

وتقع أوتيكا على مرتفع من الأرض عند مصب نهر «بجراداس»، أهم أنهار تونس، الذي يجري في أخصب بقاعها، ومن ثم فهي - كقرطاج - ميناء، رغم أنها تقع الآن على مبعده ١١ كيلا في الداخل، ذلك لأن معالم الموقع تغيرت اليوم عنها في العصور القديمة، فغطى الغرين المجري الأدنى للنهر، ويمكن التعرف على القلعة القديمة عند تل كان يوما ما في داخل البحر، مع جزيرة إلى شرقه، يفصلها عنه عمر مائي ضيق.

هذا وما تزال هناك - كما هي الحال في قرطاج - خرائب رومانية كثيرة، وإن كان من العسير التعرف على آثار يونانية (٢٨)، وقد ترجع أقدم المقابر هنا إلى القرن الثامن قبل الميلاد، ومكانها على جانبي الممر المائي، أما المقابر من العصر المتأخر، فبعيدة إلى الغرب والشمال.

هذا وقد ظلت «أوتيكا» مستقلة - على الأقل إسميا - عن قرطاج، حتى مرحلة متأخرة، ووراءها على الساحل حتى مضيق جبل طارق عدة مواقع لمراس، ولكن قلة منها هي التي تعصرت إلى نفس الدرجة التي وصلت إليها مراكز الساحل التونسي، وليس هناك من ريب في أن هذا إنما يرجع أساسا إلى الصعوبة الكبرى في الوصول إلى الداخل (٢٩).

(٢٨) كلمة «يونانية» (Punic) مشتقة من الكلمة اللاتينية «بيويكوس» (Punicus) - أي قرطاجية، أعني فينيقية (معالم تاريخ الإنسانية، ١٢ / ٥١٤).

(٢٩) ج. كوشو: المرجع السابق، ص ٩٧، محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٨٥، نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ١٦٤.

(٣) هيبو:

هيبو - أو «هيبو أكر» (Hippo Acra) هي «بنزرت» الحالية، وكان لها مرفأً عظيم في بحيرة بنزرت، وكانت مقراً ملكياً، ومن ثم فقد أعطيت «هيبو» لقب (Regius)، وأما كلمة «هيبو» فهي كلمة ليبية، وتذهب الأساطير أن «ليبيا» - وهو الاسم اليوناني لشمال أفريقيا - كان في الأصل إسم زوجة المعبود «بوسيدون» إله البحر، ووالدة «أجينور» ملك فينيقيا.

(٤) ليهس:

وهي المدينة الوحيدة التي أختيرت في موقع غير مناسب، في مجاورات خليج «سرت»، ولم يكن لها مرفأ، غير مصب نهر.

(٥) موجادو:

كانت أبعد مكان فينيقي أمكن الكشف عنه على الساحل الإفريقي غرب إنما يقع إلى الجنوب من مدينة «موجادو» مباشرة، على الشاطئ المغربي، فيما بين الدار البيضاء وأجاديو، حيث يصب نهر «كسوب» في خليج صغير تدور عنه أمواه المحيط، جزيرة صغيرة، طولها ٣ كيلا، وعرضها نصف كيلو متراً، وتبعد عن الشاطئ بمسافة تتراوح فيما بين كيلو ونصف، وثلاثة كيلو مترات، وقد عثر هناك على ما يؤكد قيام مستعمرة فينيقية بها (٤٠).

(٤٠) فلان حتى: المرجع السابق، ص ١١٠، ج. كوئنتو: المرجع السابق، ص ٩٧، نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٣) المدن المغربية والمراكز الأثرية

(١) أشكار:

يقع موقع أشكار فى أقصى شمال غرب «طنجة» على سواحل المحيط الأطلسى، ويمثل هذا الموقع العصر الحجري الحديث الخالص من كل تقليد، فلا وجود للأدوات الميكروليثية به. إلى جانب المحرفة والمعلول، مما يشير إلى اكتشاف الزراعة، خاصة وقد عرفت هذه المنطقة الاستقرار والنظام الاجتماعى، وقد كتف «رولمان» فى «وادي بات» على مقربة من طنجة، عن ثلاث مجتمعات سكنية، لا يعد الواحد منها عن الآخر، بأكثر من خمس كيلو مترات (١).

ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن «فوفري» إنما يذهب إلى أن مصر إنما كانت وراء التنويرات التى مر بها العصر الحجري الحديث فى المغرب القديم، من التفصيص فى مرحلتها العليا الحديثة إلى العصر الحجري الحديث ذى التقليد القفصى، والذى امتد من حوالى ٥٢٠٠ ق.م إلى ٣٥٠٠ ق.م، ويبدو أن العصر النيوليتى فى المغرب إنما قد تأخر عنه فى مصر، فلقد أرخ «كربون ١٤» لموقع جاعتشة بحوالى ٣٠٥٠ ق.م + ١٥٠ سنة ق.م، وهو تاريخ قد يوافق الأسرة الثانية فى مصر (٢).

(٢) المقطع:

ويقع فى مجاورات مدينة قفصة، ويتكون من ثلاث مرتفعات، الأول شمال غرب قفصة، والثانى على مبعده كيلو متر شمال شرق قفصة، والثالث على الضفة الغربية لوادي يياش، على مبعده كيلو مترين جنوب شرق قفصة.

(٣) أكاكاس:

وهى جبال تقع فى أقصى الجنوب الغربى للجماهيرية الليبية، قرب حدود الجزائر وفيها استؤنثت الماشية.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك - فيما يرى فيرون - ما يشير

(1) A. Rhubman, op. cit., p. 105 - 106.

(2) L. Balout, op. cit., p. 481.

إلى أن الصحراء وتمتد إلى أفريقيا، إنما كانت في العصر الحجري الحديث مسكونة بمسوم من الرعاة قدموا من الشرق، مع قطعان لهم^(١)، من الخراف والماعز^(٢) والثيران ذات القرون، والبقرة^(٣) والكباش، فضلاً عن الحصان المستأنس (حوالي ١٥٠٠ ق.م) والجمال المستأنس (ربما قبل القرن الثالث أو الرابع قبل

(١) يذهب بعض العلماء إلى أن استئناس الحيوان واستغلال الزراعة، إنما كان موطنهما الأصلي في مكان ما في الشرق الأدنى القديم، وطبقاً لرأي «مالك بيرز» فإنه في غربى آسيا، على أن هناك طريقاً آخر يميل إلى أنها قد ظهرت في أماكن مختلفة، ومستقلة عن أي تأثير أو اتصال، على أن «ريمو» موري، إنما يقترح طريقين أو صيول التهجرات المستأنسة من الشرق الأدنى القديم إلى الشمال الأفريقي، من طريق مصر، أولهما، على طول سواحل البحر المتوسط، وحتى المغرب القديم، ومنه اجتاز الأطلس الصحراوي بحثاً عن الماء، حتى وصل التاسيلي والهوفار، بينما يمتد الطريق الثاني مباشرة من مصر العليا (الصعيد) إلى الصحراء على طول خط عرض ٢٠ (عشرين درجة).

ولكن يتفق ذلك أمران: الواحد: عدم وجود آثار استئناس الحيوان في مصر، أقدم من وجوده في الصحراء الوسطى (الصحراء الجزائرية)، كما أن «الغبر» أو «الحملات» (وتقع جنوب جبال الهوفار في الجزائر، وتشمل مناطق عظيمة الاتساع تغطيها صحور شديدة الصلابة، عارية من الرواسب والخصوبة، بسبب فعل الرياح) إنما تعتبر طريق مرور من مصر العليا إلى الصحراء الوسطى، ومع ذلك، فلا أثر لائنة مستأنسة هناك (أنظر: أم الخير العقون: المرجع السابق، ص ٧٥ - ٧٦، C. B. M. Mc Burney, op. cit., p. 248).

A. R. Wilcox, *Rock Art of Africa*, New York, 1948, p. 35).

(٢) ليس هناك ما يميز الهياكل العظمية للماعز عن تلك التي للإنسان، وإن استؤنس الماعز أولاً، وهناك من يرجع أصل الماعز إلى النوبة، فهو أن حفريات «أوكلي» في «شبينات» (٤٨ كيلاً شمال أم دومان) أثبتت أن الماعز لم يستأنس محلياً، وإنما وجدت من الخارج، وعلى أية حال، فلقد وجدت آثارها في كهف «دوارف» في الصحراء الجزائرية وفي جنوب السودان، وهناك احتمال دخول الماعز من كهف دولوف إلى شبينات، كما وصلت وادي النيل عن طريق التبت، ومن ثم فنيك من مذهب إلى أن الإنسان في شمال أفريقيا قد استأنس الحيوانات الثلاثة، وفي وقت مبكر، وكان هذا إنتاجاً فرضته الظروف الطبيعية عليه، أما الزراعة فقد وصلتهم من طريق آخر، أقدم شرقاً، أنظر: A. J. Arkell, *Shahrinab*, p. 15 - 16.

وكذا،

R. Vaufray, *L'Art Rupestre Nord Africain*, 1939, p. 65.

(٣) هناك بعض من المثير في المغرب القديم، الأولى كبير الحجم، وهو بيليل الأبقار البرية، والثاني صغير الحجم، يذهب العلماء إلى أنه من إصبعها.

هذا العصر موضوع الحديث)، وكذا الفيل والخرتيت والجاموس الضخم^(٤)، ومن المؤكد أن الثور قد تم استئثانه حوالي عام ٤٠٠ ق.م، على الأقل.
(٤) برقة:

من المعروف أن شعوب البحر - بعد أن أنضموا كرت - فكروا في الإجماع جنوباً، وكان الشاطئ الأفريقي عند برقة Cyrenaica أقرب اليهم من أية نقطة أخرى (٢٨٨ كيلاً)، ذلك لأن أقرب ميناء مصرى كان ضعف تلك المسافة تقريباً، ومن هنا نشأت علاقات ودية بين شعوب البحر وبين ريو برقة، وفضلاً عن ذلك فإنه من المحتمل أن التجارة المصرية البحرية قد حملت في تلك الفترة، ومن هنا ربما كان النضال بين شعوب البحر ومصر من أجل تجارة البحر الأبيض المتوسط وربما كان ذلك هو نفس السبب الذي جعلهم يتضمون إلى الليبيين ضد مصر في هذه الحرب^(٥).

هذا وقد عقد الفرعون «أحمس الثاني» (٥٧٠ - ٥٢٦ ق.م) حلفاً في الغرب مع «برقة» وتزوج من سيدة - وربما أميرة - من هناك تدعى «لاديكة»، كما عمل على تحسين حدوده الغربية، فأنشأ حاميات كثيرة على الشاطئ، وفي الواحات، وشجع إقامة الناس فيها، وبني المعابد في سيوه والبحرية والخارجة، ليجمع من الواحات الحصون الأمامية، إذا جد خطر، وحدث هجوم على مصر من يوناني ليبيا^(٦).

(٥) بحر العاتر (الحضارة العاترية):

موقع حضارى في وادى جبانة قريبا من قسطنطينة في الجزائر، على الحدود بينها وبين تونس - وكان «فردريك مورو» أول من أشار إلى الصناعة العاترية في عام ١٨٨٨ م، وذلك عندما التقط «أدوات ملنبة» في وادى سليحة (جنوب غرب

(4) H. Alimen, op. cit., p. 422.

R. Furon, Manuel de Prehistoire generale, Paris, 1958, p. 311.

(5) W. Resch, Das Rind in den Felsbilddarstellungen Nordafrikas, P. 5, 2. P. Beck et P. Huard, Tihesti, Carrefour de la Prehistoire Saharienne, Paris, 1969.

(٦) انظر: محمد يومى مهران: مصر ٦٥٧/٢ - ٦٥٨.

قديمة، وإن كان أكبر، قد سبقه إلى ذلك، عندما نشر عام ١٨٨٦م من مواقع ما قبل التاريخ في «جزيرة» ووصفها بأنها «مستيرية» وإن كانت انحصارة العاترة - رغم تشابهها مع الحضارة المستيرية في كثير من الوجوه - إنما تختص بالآدوات المذنية^(٦).

وفي عام ١٩١٩ نشر «بيجاس»^(٧) دراسة عن التقنيات الحجرية القديمة في شمال أفريقيا، كما أشار إلى اكتشاف الموقع المستيري النموذجي (الأبيزة) ثم اكتشف موقع «بئر العاتر» وعثر فيه على الصناعة العاترية تحت عتق ثلاثة أمتار في نفس الطبقة، مع الصناعة المستيرية، ومنذ ذلك التاريخ دأب «بيجاس» على استخدام مصطلح العاترية، بدلا من الأبيزة، ثم أقر «مؤتمر مونبيلييه» عام ١٩٢٩م هذا المصطلح، ويعني التقنيات المستيرية ذات الأدوات المذنية^(٨).

وعلى أية حال، فلقد وجدت العاترية بمظهرها الصميم في كثير من المواقع والطبقات الأثرية في جميع أنحاء المغرب، فوجدت في الرسومات السطحية لوادي جبانة وروادي جوف الجمل وكاف الأحمر وروادي سرديس، وفي رمال جبل عواش، وفي عقلة شعاشع، وفي كل رسومات مقاطعة قسطنطينة، وفي رواسب الرمل الأحمر على طول الساحل الجزائري في كازويه وضواحي بتزوت وغيرها، وفي كهوف المملكة المغربية، في الحنزيرة، وفي الروايب السطحية لوادي جوربا وكهوف دار السلطان وتافغورال، وبيت مليل والحنك^(٩).

هذا ويبدو أن الإنسان في هذا العصر، قد استعمل - بجانب الحجر - الأخشاب والجلود والعظام وبعض النعام أو قشوره، كما بدأ يدرك حقيقة وجود قوى خفية تتحكم في الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية والطبيعية، وأراد تجسيم

(6) A. Balout, Prehistoire de L'Afrique du Nord, Arts, et Metiers Graphiques, Paris, 1955, p. 269.

(٧) انظر:

M. Reggasse, Etudes de Palethnologie Maghrebine (Nouvelle Serie), L'Anthropologie, 25, 1919-1920.

(٨) أم العبر المقون. العلاقات الحضارية والسياسية بين مصر وشمال أفريقيا منذ أقدم العصور حتى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد - الاسكندرية ١٩٨٦ ص ٧

(9) R. Vouffrey, op.cit. p. 106

هذه القوى فى أماكن معينة لكى يحاول استرضاءها ضمانا لحياته ومصيره^(١٠).

هذا وقد اختلف الباحثون حول المناخ الذى ساد الشمال الأفرىقى إبان عصر الحضارة العاترية، فمن يرى أن المناخ كان رطباً حاراً (أى آخر فترة مطيرة)، ومن يرى أنه كان جافاً، ومن يحاول التوفيق بين الاتجاهين، فيذهب إلى أن المناخ إنما كان وقت ذاك يتميز بالترطوبة الشديدة، مع انخفاض قليل فى درجة الحرارة^(١١). وعلى أية حال، فالرأى عند «كاتون طمسون» أن موقع الخزيرة (طبقة أ) فى المغرب الأقصى، إنما يمثل أقدم مرحلة للعاترية فى الشمال الأفرىقى^(١٢)، ثم انتشرت جنوب الأطلس الصحراوى فى العصر العاترى الوسيط، ثم إلى الشرق حيث وجدت بعض المواقع العاترية فى ليبيا، كما فى وادى ما صودا، ووادى درنة، اللذين اكتشفهما «ماك برنى» عام ١٩٤٩م، ووصفهما بالفلوازيه الموستيرية، ومن ثم فقد أصبحت منطقة الجبل الأخضر فى ليبيا بمثابة جسر انتقال الحضارة العاترية من الشرق إلى الغرب أو العكس، وتذهب «كاتون طمسون» إلى أن العاترية سرعان ما انتقلت إلى الواحات المصرية - سيوه والداخلة والخارجة - حوالى العصر الحجري القديم الأعلى المبكر، بدليل وجودها فى واحة الخارجة فوق طبقة الفلوازيه مباشرة^(١٣).

ويذهب أستاذنا الدكتور أحمد فخري - طيب الله نراه - إلى أن «ستون كان» (H.W. Seton Ken) و «كومنجتون» (C.W. Cummington) إنما قد عثرا فى واحة سيوه على بعض الأدوات التى نسيها إلى تأثيرات غربية (شمال أفريقيا)، ووصلت مصر أثناء العصر الحجري القديم الأعلى^(١٤).

(١٠) رشيد الناضورى، المرجع السابق ص ١٠٥.

(١١) H. Alime, Prehistoire de L'Afrique, Ed. N. Boubee, VI, Paris, 1955, p. 63 - 64.

(١٢) Caton - Thompson, The Aterian Industry, Its Place and Significance in The Paleolithic World, in JRAI, V. 1946, p. 115.

(١٣) G. Caton - Thompson and E. W. Gardiner, Kharga Oasis in Prehistory, London, 1952, p. 31.

(١٤) A. Fakhry, Siwa Oasis, Cairo, 1944, p. 71.

وعلى أية حال، فهناك من يذهب إلى أن الصناعة العاترية (الماطرية) قد وصلت إلى مصر في العصر الحجري القديم الأوسط، ولعل أهم مواقعها إنما كانت تلك التي كشف عنها «ساندفورد» على مقربة من تفادة، وفيما بين دندرة والمراسدة، فضلا عن تلك التي على مقربة من نجع حمادى (بمحافظة قنا) وأسيوط، إلى جانب ما كشف عنه «سليجمان» في ضواحي طيبة «الأقصر»، وفي العراة المدفونة «مركز البلينا - بمحافظة سوهاج»، وأخيرا فلقد كشفت «كاتون - طلمسون» عن وفرة من الصناعة الماطرية في واحة الخارجة (١٥)، بل إن هناك ما يشير إلى وصول النماذج الماطرية التي وجدت في مصر إلى المملكة العربية السعودية (١٦).

هذا وقد اختلف الباحثون حول أصل هذه الحضارة الماطرية، فهناك من ينسبها إلى الشمال الأفريقي، ويرى أنها ظهرت في غرب الجزائر، وفي المغرب الأقصى، ثم بعد ذلك في شرق الجزائر وتونس (١٧)، على أن هناك وجها آخر للنظر تذهب صاحبه - كاتون طلمسون (١٨) - إلى احتمال أصل أسيوط لصناعة النصال العاترية انتقل إلى شمال أفريقيا باعتبار الحضارة السبيلية مرحلة انتقال (١٩).

(15) C.Seligman, The Older Paleolithic Age in Egypt, JRAI, 1921, Fig, 31-35, p. 13-35, p. 128 - 129.

K.S.Sandford and W.J.Arkell, Paleolithis Man and The Nile Fayum Divid Chicago, 1933, p. 116 - 118, Fig, 47-52.

G.Caton - Thompson and E.W. Gardiner, in GL, LXXX, 1932, p. 404.

(16) R.M. Gramly, Neolithic Flin Implement Assemblages from Suadia Arabia, in JNES, 30, 1971, p. 177 - 185.

G.Caton - Thompson, in JRAI, LXXVI, 1946, p. 89.

(17) L.Balout, op.cit., p. 334.

(18) G.Caton- Thompson, The Aterian Industry, its Place and Signetiance in The Palealitic World, in JRAI, V, 1946, p. 119.

(١٩) أنظر عن الحضارة السبيلية (محمد بيومي مهران - مصر - الجزء الأول - الإسكندرية ١٩٨٨ م ٢٠١ - ٢٠٦).

وإن شئت، أستأذن الدكتور الناصوري إلى أن أتناول أعماراً مثيرة - مستأينة
 من سائر التفلوازية الموشورية الفلسطينية - طيب لك الرد - في الإنتاج
 الصناعي ونرى انتهاء كل منهما لفترة زمنية واحدة، وقد طبقت طريقة كاريون
 ١٤ المادي، على بعض البقايا المنفحجة التي عثر عليها في مواقع في طبقات
 من هوامش في منطقة وادي درنة، فأدى إلى تقدير عمر هذه البقايا بحوالي
 ١٠٠٠ سنة، كما أن هناك شياً بين البقايا العظمية الإنسانية من هذه المرحلة
 وبين البقايا التي أتت من الفيلسطيني، وقد أدى ذلك كله إلى وجود صلات
 - متبادلة - بين شمالي آسيا - وخاصة فلسطين - وبين المغرب - وخاصة
 برقة (شمال شرق ليبيا)، الأمر الذي يدل على وجود جانب شرقي - فضلاً عن
 العناصر المحلية - في حضارة العصر الحجري القديم الأوسط في المغرب (٢٠).

(٦) تونس:

وتقع على بعد ١٦ كيلاً من قرطاج، وهي الآن عاصمة جمهورية تونس
 العربية.

(٧) دار السلطان:

هي مغارة تقع على بعد ٦ كيلاً جنوب غرب الرباط، وتتكون من بقايا
 مواقع نيوليتية ذات تقليد قصبي ثم مجموعة من النصال والحكات، وأما فخار
 فهو - فيما يرى رومان - أكثر تطوراً من موقع فخار رديف، كما أن زخرفته جد
 متفوقة، وهي التي تسمى تقنية مسحة المشط التي تغطي مساحة الإناء بأكمله،
 وقد يكون له في بعض الأحيان نتوءات (مثل أذنين)، ربما لرفع الإناء (٢١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه قد عثر على عدد من البقايا
 العظمية الإنسانية في الكهوف والمغارات الساسية المواجهة للمحيط الأطلسي.
 والتي تمتد على طول الساحل المغربي مثل كورف: مغارة العالية وأشقر في.

(٢٠) رشيد الناصوري المرجع السابق ص ٩٦ - ٩٨ ولنا.

(٢١) G.M. Mc Burney, 'The Stone Age of The Northern Africa',
 London, 1960, p. 168.

(21) A.Rhubman. op.cit., p. 68.

منه من، ويعمل بينهما نهر «ملوية» (مونوكا - Mulucha) وكانت مدينة
«شروشال» عاصمة لورينانيا القيسرية، ومدينة «شجة» عاصمة لورينانيا
القسطنطينية (١١٠).

(١٠٠) قفصة:

هي المدينة الرومانية القديمة (Capsa) في جنوب تونس وهي «قفصة» الحالية
في إقليم «قسنطينة» شمالي سط الجريد.

هذا وقد نسب إلى مدينة «قفصة» «الحضارة القفصية»، ويذهب العلماء إلى
أن الموقع النموذجي لهذه الحضارة، هو «حقل الجازون» أو «الرماديان».

وكان «دي مورجان» أول من حدد سماتها الصناعية (٢٥)، معتمداً على المادة
الأثرية من موقع «المقطع» (على بعد ١٤ كيلا شمال غرب قفصة)، وقد قام
كل من «فوفري» و «جوير» بحفائر في هذا الموقع.

هذه وقد ظهر أصحاب هذه الحضارة حوالي سبعة آلاف سنة قبل الميلاد،
وهي تقوم ذو قوام طويل رشيق، من جنس البحر المتوسط، وإن لم يخلو من
الصناعات، شبه الزجاجية، وقد ازدهروا في منطقة غير محددة تماماً، وإن كانت على
الحدود الشرقية في الجزء الداخلي، دون الإمتداد - على ما يظهر - إلى أقصى
الحدود الغربية لشمال أفريقيا، أو إلى الصحراء الجنوبية، وقد انتهت هذه الحضارة
القفصية حوالي عام ٤٥٠٠ ق م (٢٦).

هذا وقد أطلق العلماء الفرنسيون على مواقع الحضارة القفصية «الحلزونات»
أو الرماح (Escargotieres)، وهي ركام من الرماح أو الحجارة التي استعملت
كأواني الفخار لنوع من القواقع، ويبلغ أبعادها أحيانا ٢٠٠ مترا طولا، ٥٠ مترا
عرضا، أما ارتفاعها، هذا فضلا عن الأدوات الحجرية التي كان يستعملونها
الإست.

٢٤٠ - راجع «فوفري» للمرجع السابق من ٢٢٢، ٢٢٥.

(٢٥) J. De Morgan, Les Premières Civilisations, Paris, 1901.

(٢٦) جيهان مبراهيم، تاريخ أفريقيا العام من ٤٢٢.

G.Camps, op.cit., p. 159, 262, 1961.

يرد: نهيا لكل العظمية التي عشر عليها في الرماديات على أن الإنسان
النفصى - والذي استمر وجوده حتى العصر الحجري الحديث - مختلف عن
إنسان «مشتا العربي» (حامل الحضارة الإيبرو مغربية)، وأنه من جنس البحر
المتوسط، وإن كان يحمل ملامح زنجية، وقد مارس هذا الإنسان عادة صقل
العتجارة في صنع الكرات المثقوبة - والتي ربما كان يستخدمها لدق وطحن
الحبوب البرية، وإن لم يثبت عدم معرفته للزراعة -، كما استخدم الفخار، ومارس
عادة قلع الأسنان، بطرق تختلف عند الرجل عنها عند المرأة، فبعضهم تعلق أسنانه
العلوية، وبعضهم تعلق أسنانه السفلية، وإن لم يعرف الهدف من هذه العادة حتى
الآن (٢٧).

وهناك ما يشير إلى بداية التعبير الفكري: عند إنسان الحضارة القفصية، الأمر
الذي سوف تتحدد ملامحه بصورة واضحة في العصر الحجري الحديث، هذا
فضلا عن ممارسة النقش على قشور بيض النعام ثم صياغتها في حبات لنظم
عقود الزيتة، ومن المعروف أن استعمال قشور بيض النعام إنما كانت من مظاهر
الصناعات الأصلية في الشمال الأفريقي في المرحلة التي أعقبت العاترية (٢٨).

هذا وقد انتشرت الحضارة القفصية حول موارد المياه والأماكن الصعبة المال
في تونس وشرق الجزائر، وخاصة في منطقة «تبسة»، حيث وجدت بها ما يزيد
عن تسعين «رمادية»، ولعل من أهم مواقعها: عين جترشلم وشر أم على وعين
در كازة وشر حميرة وعين غيلان وواد مدفون وكف ركنية وخنقة موحاد وفم
السلجة وفج إبراهيم والمقطع ووديغ، وتشير مواقع سكنى القفصيين هذه - فيما
نرى، بالوه - إلى أن القوم إنما كانوا غزاة، لا يحسون بأمان فردي أو جماعي،
ومن هنا كانت سكتهم في مواقع صعبة المال، فضلا عن سيطرتهم على موارد

(27) R.Fauvrey, La Préhistoire de L'Afrique, I, La Maghreb,
Paris, 1955, p. 127, 257.

L.Balout, op.cit., p. 100.

(28) H.Alimen, op.cit., p. 78.

(29) L.Balout, op.cit., p. 399.

على أن القفصية الصميمة لم تمتد إلا في الجزء القاري من جنوب تونس، وتتفنن حدودها مع قاطعة قسطنطينية الجزائرية، ولا تصل إلى الساحل الشرقي، كما أنه في الغرب لا تمتد الكتل الجبلية لجبال أطلس، ولا تتجاوز شمالها، ثم هي بعد ذلك لا وجود لها في الصحراء أو مقاطعات الجزائر وهران، فضلا عن المغرب الأقصى، ومن ثم فقد اعتبر البعض مرحلة القفصية الصميمة مرحلة حضارية قصيرة الأجل (٣٠).

وأما القفصية العليا، فقد شملت كل منطقة القفصية الصميمة، فضلا عن أنها زحفت إلى الشمال، ولكن دون الاتجاه نحو الشرق، ووصلت إلى الحد الشمالي للهضاب العليا، ولكن دون بلوغ البحر، أما من جهة الغرب فهي لم تتجاوز خط التنصيف لمدينة الجزائر، الذي يرى فيه «فوفري» الحد الغربي بقفصية العليا، وعلى أية حال، فلقد ارتبط انتشار الحضارة القفصية بأماكن رفرة المظران (٣١).

هذا وقد قسم «بالوه» الصناعة القفصية إلى مرحلتين، مرحلة القفصية النموذجية، وتشمل أدوات كبيرة من نصال وأزاميل، ثم تطورت إلى القفصية الحديثة التي تتميز باتجاه صناعتها إلى الأدوات القزمية واتخاذ الأشكال الهندسية، وقد أרך «كربون ١٤» للمرحلة النموذجية في موقع «المقطع» (٣٢) بفترة تتراوح فيما بين ٦٦٥٠ + ٤٠٠ سنة قبل الميلاد، وللفترة الحديثة في موقع «الماء الأبيض» في تبسة بالجزائر، بحوالي ٥٠٥٠ + ٢٠٠ سنة قبل الميلاد (٣٣).

هذا وقد ظهرت القفصية في «كهف هوايتيج» في الطبقة (E) والتي امتدت زمنيا فيما بين عامي ٩٠٠٠، ٧٠٠٠ ق.م، وفي هذا الكهف تبدأ الحضارة

(30) R.Vaufrey, op.cit., p. 195.

(31) Ibid., p. 241.

(٣٢) المقطع: للموقع الأثرى النموذجي للحضارة القفصية، ويقع في مجاورات مدينة قفصة، ويتكون من ثلاث مرتفعات، الأولى شمال غرب قفصة، والثاني على بعدة كيلو متر شمال شرق قفصة، والثالث على الضفة الغربية لوادي بياش، على بعدة كيلو مترين جنوب شرق قفصة.

(33) H.Alimen, op.cit. p. 82.

القفصية في الانخفاض في عدد الأزاميل والمحكات في الطبقة «الإبيرو مغربية» ثم ظهور اللون الأحمر على النصال الكبيرة، ووجود قشور بيض النعام مزخرفة بأشكال هندسية، ووصف عقود من هذه القشور (٣٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن عددا من الباحثين إنما ينسبون آثار بعض المواقع الأثرية المصرية إلى الصناعة القفصية (نسبة إلى قفصة في اقليم قسطلية، شمالي شط الجريد في تونس) - بما في ذلك المستوى الثالث لقرية السيل (في مجاورات مدينة كوم امبو بمحافظة أسوان)، وصناعة حلوان القزمية، وكل ما نسبته «ساندفورد» و«أركل» إلى الصناعة السيلية الحديثة - معتمدين في ذلك على أن الصناعة القفصية إنما قد وجدت في الشمال الأفريقي وفي سورية وفلسطين - أي في غرب مصر وشرقها - ومن ثم فمن الصعوبة بمكان، أن لا توجد هذه الصناعة في مصر، ثم يمللون قلة المواقع القفصية في مصر، بأن القوم في أرض الكنانة إنما كانوا يقتربون في السكنى من شواطئ النيل، وأن العظمى الحديث للنيل، ربما قد طمر بقايا الصناعة القفصية في تلك المواقع (٣٥).

ولعل أهم المواقع التي نسبها بعض الباحثين إلى الحضارة القفصية، إنما هي ستة مواقع اكتشفها الأمير كمال الدين حسين في منخفض عين دالة وشمال الفرافرة في الصحراء الغربية، وتبعد هذه المواقع الستة عن ينابيع المياه بما لا يزيد عن أربع كيلو مترات، ومن أدواتها شظايا، بعض منها طويل، وآخر قزمي، وكذا مكاشط ومحكات مقعرة، ونصال مثلثة، ومواقد صغيرة، مع كسرات من قشور بيض النعام (٣٦).

هذا وقد عثر «جبرودي كوتفيل» على مواقع للصناعة القفصية في منطقتين، الواحدة: حول طيبة (الأقصر)، وتنتشر حول وادي المدامود، بين الأقصر وخزام

(34) G.B.M. Mc Burney, op.cit., p. 333.

(35) R.P. Bovier - Lapierre, L'Egypte Prehistorique, Percis de L'Histoire de L'Egypte, Le Caire, 1932, p. 34.

(36) Kamel El Din Hussein et R.P. Bovier - Lapierre, Recentes Explorations dans Le Desert Libyque-BIE, 1929 - 1930, XII, Le Caire, P. 123- 126

(على ميمدة ١٥ كيلا شمال الأقصر)، فضلا عن مواقع أخرى في مصر العليا (السميد)، على مقربة من الصحراء الشرقية، وأما المنطقة الثانية فكانت في الفيوم، عند قناة هواره (على مقربة من مدينة غراب) وفي عزبة جورج، وجنوب جبال الروسى، وقد وجدت أدوات هذه المواقع على السطح، ويذهب الأثرى «جيرودى كوتفيل» إلى أن هذه الصناعة القفصية الوافدة متقنة الصنع ومتفرقة على سابقة، (السبيلية)، ومن ثم فهو يستبعد احتمال أن تكون الحضارة القفصية قد تطورت من الصناعة السبيلية، وإلى هذا القول يذهب «أدموند فينيار» (٣٧) أيضا، أضف إلى ذلك أن بعضا من الباحثين إنما قد نسبوا آثارا لهذه الحضارة «المستيرة» - قفصية، في شمال مدينة حلوان، بين خط السكة الحديد وعزبة الوالدة (٣٨)، ويعتقد «جيرودى كوتفيل» أن مصر قد شاركت في تطور صناعة قفصية في مصر، مشابهة للإبيرو مغربية، وذلك بوجود الآلات الميكروليثية في موقع حلوان عند فتحة وادى حوف، وفي كوم امبو بمحافظة أسوان (٣٩).

وعلى أية حال، فرغم إمكانية وصول مؤثرات قفصية إلى مصر في هذه الفترة من خواتيم العصر الحجري القديم الأعلى، فإلّا من الأفضل التمسك بشأن هذه الآراء - وخاصة تلك التي ترى في كل صناعة وجدت في مصر تمسك بالمستيرية، إنما هي صناعة قفصية أو قفصية متطورة (٤٠) - إذ أن كل ما عثر عليه إنما هو لقيمة سطحية لبعض القطع والآلات الحجرية، زعم مكتشفوها أنها قفصية - كما في نواحي أسوان والمناود وحلوان في الوادى، وعين دالة في الصحراء الغربية، ومنخفض الخارجة (٤١).

(37) G.Cotteville, L'Egypte avant L'Histoire, BI FAO, 33, 1933, p. 28 - 34.

(38) A.J.Arell and K.S. Sandford, Paleolithic Man and The Valley in Upper and Middle Egypt, p. 116 - 118.

(39) Giraude Cotteville, op.cit., p. 40.

(40) Ibid., p. 28.

(41) G.Caton - Thompson, Man, 32, 1932, p. 131 - 133.

K.Hussein et R.P. Bovier - Lapierre, op.cit., p. 126.

E.Massoulard, Prehistoire et Protohistoire de L'egypte, Paris, 1949, p. 23.

C. Seligman, The Older Paleolithic Age in Egypt, JRAI, 1921, p. 129 - 130.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى موقع نقاية قصب السكر، على مقربة من مصنع السكر في نجع حمادى (بمحافظة قنا)، وعلى مقربة من المدينة الرومانية «ديوسبوليس بارفا»^(٤٢)، حيث كشف «أدموند فينيار» عن مجموعة من الآلات الحجرية، تتميز بوجود مجموعة كبيرة من الأزاميل - فضلا عن بعض الهككات، وقطع أخرى مشذبة ذات نمط خاص - ونظرا لأن الأزميل هو آلة الصناعة «الأورنياسية» المميزة - إلى جانب اعتبارات تقنية أخرى - فقد نسب «أدموند فينيار» هذا الموقع إلى «الأورنياسية الأوربية»، وأن مكان هذا الموقع إنما جاءوا إلى مصر من سورية أو من تونس^(٤٣).

وقد أثار رأى «فينيار» هذا جدلا بين العلماء، فذهب «هرمان يونكر» إلى أن هناك شبهة بين موقع نجع حمادى هذا، وبين المستوى الثانى للسبيلية، وأنهما ربما كانا متعاصرين، ويصلان إلى بداية «القضية»، بينما المستوى الثالث - والأكثر تطوراً - ما هو إلا «القضية» ذاتها^(٤٤)، وأما «دى مورجان» فقد عثر فى مواقع سطحية تنتمى إلى هذه المرحلة على فؤوس صنعت بنفس التقنية التى

(٤٢) ديوسبوليس بارفا: مكانها الآن قرية «هرو»، وتقع على مبعدة ٥ كيلو جنوب غرب مدينة نجع حمادى، وربما كانت «هو» هذه تصحيفا للاسم للمصرى القديم «حور» أو «حات» (والتي كان اسمها الكامل «حوت سخم نوت») عاصمة الاقليم السابع من أقاليم الصعيد، ويسمى «حوت سخم» بمعنى «قصر الصاجات»، هذا وقد سميت «هرو» كذلك «تختت» بمعنى «الكروم»، وهو اسم واحة الخارجة المعروفة بخمرها، وكانت تتبع الاقليم السابع هذا من الناحية الادارية (محمد يوسى مهران - الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٨٤ ص ١٦٠ - ١٦١ وكذا).

P.Lacau et H.Chevrier, Une Chapelle de Sesostris Ier a Karnk, Cairo, 1956, p. 225,

H.Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographiques, IV, p. 45, 129, 130.

(43) E.Vignard, une Station Aurignacienne A Nag - Hammadi, (Haute Egypte), Station du Champ de Bagasse, BIFAO, XVIII, 1921, p. 1- 20.

(44) H.Junker, Bericht über die Bon der Akademie de Wissenschaften in Wien Nach dem Westdelta Entsendete Expedition, Wien, 1928, p. 14.

صنعت بها قووس تجمع حمادى (٤٥).

ويذهب الدكتور سليمان حنين إلى أن الأزميل لا تعتبر دليلا مميزا للعصر البابليولىنى الأعلى، فقد وجدت فى فلسطين فى زمن الآشولية العليا، كما عثر فى أرمنت، (٤٦) على أزميل، بعضها يشبه تلك التى عثر عليها الأثرى الفرنسى «أدموند فينيار» فى نجع حمادى. ثم يحلص - بعد عدة مقارنات بين بعض الآلات الحجرية من الموقعين - إلى أن الواحد منهما إنما كان بهامصر الآخر، وأنهما يتن إلى عصر العصر والنحاس (٤٧).

على أن هناك افتراضا عكسيا يذهب أصحابه إلى أن السبيلة فى مصر العليا هى المهد الذى ولدت فيه الحضارة القفصية، وكل صناعة ميكروليثية أخرى، غير أن «بالر» إنما ذهب إلى أن تقويم السبيلة لا يعتمد على تسلسل الطبقات، وأن انقطاع الصلة بين إنسان «نياند رثال» (حامل الصناعة المستيرية) وإنسان الصناعة القفصية، لا يتفق مع وجود صلة تطور، ومن ثم فإن البعض إنما يرى أن السبيلة والقفصية حضارتان ميكروليثيان متشابهتان إلى حد كبير، من حيث التقنية والشكل، وخاصة فى المرحلة الأخيرة من تطورهما (٤٨)، غير أن هذا الاتجاه لم

(45) J.De Morgan, La Prehistoire Orientale, II. L'Egypte et L'Afrique de Nord, Paris, 1926, fig. 86, 88, p. 31, 82.

(٤٦) أرمنت: كانت واحدة من المدن الأربعة التى تكون الإقليم الرابع من أقاليم الصعيد (طيبة والمدامود وطول)، قبل أن ينتقل مركز الثقل إلى طيبة (الأقصر) لتصبح العاصمة، وقنع أرمنت على بعد ١٥ كيلا جنوبى الأقصر ٧٤٧ كيلا جنوبى القاهرة، وكان معبرهما «موتوا»، وقد سميت فى العهد الاغريقى «هرموتيس»، وأصبحت منذ الأسرة التاسعة والعشرين تحوى جبانة العسل المقدس «بوحيس» (الموسوعة المصرية ٩٠/١، وكذا، محمد يونس مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية من ١٣٥ - ١٣٦، وكذا؛

A.H Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 116.

(47) S.A. Huzayyin, The Place of Egypt in Prehistory, A Correlated Study of Climates and Cultures of The Old World, MIE, 43, 1941, p. 292.

R.Mond, O H.Mayers, Cemeteries of Amant, London, 1937, p. 198-199.

(٤٨) أم الخير العنود المرجع السابق ص ٥٢، وكذا L.Balou, op.cit., p 416.

بعد أن يكون مجرد فرض، وليس نظرية علمية، فضلاً عن أن تكون حقيقة تاريخية.

هذا وقد استمر الإنسان في تشكيل بعض القطع على هيئة معينة كما في كهف Marhsal و كهف أشكاره، هذا إلى جانب المجموعة التي اكتشفها Bu-cher والتي رأى فيها Kochler رموزاً قفصية مرتبطة بالمعبودات النسائية التي سادت رموزها حوض البحر المتوسط، وقد عرفت بمعبودات أشكار (٤٩).

وهناك أيضاً إمكانية وجود غاية سحرية في هذه الرسوم، على أساس تصور الإنسان وإظهار تحكمه فيها، ليحمل في طياته معنى تجسيم هذه الفكرة في الواقع، ذلك لأن الإنسان - رغم تقدمه الحضارى بالمقارنة بالمراحل السابقة الطويلة أثناء العصر الحجري القديم - فهو لا يزال يبحث عن الأمان والطمأنينة، فضلاً عن الانتصار على القوى الشريرة الضارة بحياته ومستقبله.

هذا وتؤرخ هذه الرسوم بالفترة التي تمتد من حوالى منتصف الألف الثالث وحتى منتصف الأول قبل الميلاد، وهى فترة تقابل فترات هامة من صميم العصر التاريخى في مصر الفرعونية، الأمر الذى يؤكد أن هذه الرسوم إنما تعبر عن أفكار حضارية متأثرة بالحضارة المصرية القديمة، مما يعد استمراراً للصلات المصرية ببلاد المغرب، وإن كان هناك اتجاه إلى أن هذه الرسوم إنما قد جاءت من غربى أوروبا وأسبانيا، أو هى تطوّر من الحضارة القفصية، وإن كان هذا الاتجاه يصعب الاعتماد، إذا ما قورن بالأدلة الأثرية الأنفة الذكر (٥٠).

وعلى أية حال، فلقد كشف في المستويات السفلى من «تل سوس» على مجموعة من التماثيل الصغيرة - الحيوانية والإنسانية - والمصنوعة من الحجر أو الطين أو العاج (٥١)، وقد كشف في مصر عن تماثيل من الصلصال في مقابر

(49) H.Camps - Febrer, op.cit., p. 401.

H.Kochler, La grotte d'Achakar au Cap Spertel, Bull. de Inst. d'Et des Reliy. de Eveleche de Rabat, 1931.

R.Vaufrey, op.cit., p. 365.

(٥٠) رشيد الناضورى: الرجوع السابق من ١٣٩ - ١٤٤

البدارى ونقادة - وكذا فى العالم الإيجى - تمثل إلى حد ما تلك التى وجدت
«أشكار» (٥٢)، مما يشير إلى انتشار هذا النوع فى إقليم البحر المتوسط، وعلى أية
حال، فرغم اختلاف التفسيرات من حول هذه الأشكال، فأكبر الظن أنها ترتبط
بمجموعات البحر المتوسط، كرمز أثنوى لشعائر الخصوبة.

(١١) قورين: (قورينة)

أنشأ الدوريون فى عام ٦١٣ ق.م، مستعمرة «قورينة» على الشاطئ الشمالى
البعيد فى أفريقيا، أخذت تهتد استقلال القبائل الليبية، فضلا عن اغتصاب
مساحات واسعة من أملاك الأهالى، إلى جانب الإضرار بالمصالح المصرية، بل
وربما بتجارة اليونانيين فى أفريقيا عموما.

وهكذا نشأ نزاع مرير بين القبائل الليبية الممتدة حتى تونس الحالية، وبين
هذه الجماعات الدورية الإغريقية التى استعمرت «برقة» وما حولها، استعمارا
تجاريا تحول إلى استعمار سياسى، أصبحوا به سادة البلد، واتخذوا من مدينة
«قورينة» (Cyrene) عاصمة، وشيئا فشيئا ازدادت أعداد المهاجرين، وفى نفس
الوقت ازداد ضيق الليبيين بمنافستهم لهم فى أرزاقهم وأرضهم، فضلا عن
تعاليمهم عليهم، ومن ثم فقد لجأ «إديكرات» - أحد رؤساء الليبيين إلى الفرعون
«إيريس» بطلب حمايته.

وهكذا وجه الفرعون «واح إيب رع» (إيريس ٥٩٥ - ٥٨٩ ق.م) جيشا
إلى هذه الناحية، غير أن هذا الجيش المصرى إنما لقى هزيمة منكرة، حين وقع
فى كمين بسبب خيانة بعض ضباطه من اليونانيين، وكاد أن يبيده يونانيو ليبيا،
ولم يمد منه غير القليل، الأمر الذى أدى إلى ثورة المواطنين فى مصر ضد
الفرعون وأعلن من نجوا المصيان، واتهم الجميع - المواطنين والجنود المصريون -
الفرعون بأنه دبر هذه الحملة ليتخلص من المصريين فى الجيش، حتى يزداد
تسلطا، وأنه قد أسرف فى احتضان الإغريق على حساب المواطنين المصريين،
وكان لكل من الإتهامين نصيب من المصحة.

(51) H.Camps- Febrer, op.cit., p. 402.

(52) A. Jodin, Les grottes de Khrl a Achakar, (Province de
Tanger), Bull d'Archeol. Neroac, III, 1959, p. 249 - 331.

وانتهت الأمور بقتل الفرعون إيريس عند «مومفيس» (كوم الحصن - مركز كوم حمادة - بمحافظة البحيرة)، أو على مقربة من «الطرانة» على الفرع الكانوي للنيل، أو كما كانت تسمى قديماً «سخت مافكا» (٥٣).

(١٢) كهف جعفة الطرة: (حكفت الطير):

يقع على مبعدة ٢٤ كيلاً من بنى غازى، عند تقابل الصحراء مع الوادى الساحلى، حيث عثر على آثار مرحلة الانتقال فى أرضية الكهف، فضلاً عن الصناعات النصليّة، وخاصة الأسلحة الميكروليثية والأزاميل الدقيقة.

(١٣) كهف جعفة الضبع: (حكفت الضبعة):

وهو فى «برقة» حيث عثر على أسلحة كثيرة مختلفة الأحجام، مما يؤكد اعتبارها منطقة انتقال حضارى، ذلك لأن التوصل إلى صناعة حجرية جديدة لا يعنى أبداً الإنقطاع الفجائى عن التقاليد الحضارية السابقة، وإنما المفروض منطقياً أن يسير التقليدان جنباً إلى جنب، حتى يحل القديم محل الجديد.

(١٤) كهف هوافتيح:

وثالثهما «كهف هوافتيح» (٥٤)، والذي تعتبر طبقاته الأثرية بمثابة سجل حى

(٥٣) محمد يوسى مهران: مصر، الجزء الثالث، ص ٦٥٦-٦٥٨، عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٢٨٠-٢٨٢، وكذا:

A. A. H. Gardiner, op. cit., p. 361 - 362.

S. A. Cook, CAH, III, 1965, p. 401.

W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 281 - 284.

Herodotus, II, 169. W. J. Wiseman, op. cit., p. 94 - 95.

(٥٤) كهف هوافتيح (Haua Fteah): كشفت عنه بعثة كمبريدج فيما بين عامى ١٩٥١،

١٩٥٥م، على مقربة من سوسة فى ليبيا (إلى الشرق قليلاً من مرسى سوسة، وهى أبو لونا القديمة، بمنطقة الجبل الأخضر) وأرخ له «كرومر» ١٤ ما بين ٩٠٠٠، ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ويعد هذا الكهف من أكبر وأوسع كهوف عصور ما قبل التاريخ، ربما فى كل حوض البحر المتوسط، وشكله نصف دائرى بقطر ٨٠ متراً، ويعد عن ساحل البحر بوضعة مئات من الأمتار، وتوجد فى سطح الكهف آثار من عهد الإشتيطان الإغريقى (القرن ٧ ق. م)، ثم آثار اللوبيين القدامى، ثم أدوات من العصر الحجري الحديث، ومع أن عمق الحفريات وصل إلى ١٣,٥ متراً، غير أن عمق الترسبات غير معروف (أنظر عن كهف هوافتيح:

C. B. M. Mc Burney, the Hawa Fteah (Cyrenatca) and the Stone Age of The South-East Mediterranean, Cambridge, 1967).

لتاريخ الإنسان في هذه المرحلة، وما تلاها حتى العصر التاريخي، حيث عشر على كميات كبيرة من الأسلحة الحجرية المشابهة لصناعة حجفة الطيرة، ولتحدث الآن عن الحضارتين الوهرانية والقفصية.

هذا فضلاً عن آثار العصر الحجري الحديث في موقع «هوافتيح» بمنطقة الجبل الأخضر في برقة، وعلى رأسها الفخار، إنما ثبت توصل الإنسان هناك إلى الاستقرار والزراعة، وقد طبقت طريقة «كربون ١٤» المشع على آثار الطبقة الأخيرة في موقع هوافتيح، وأرخت نتيجة لذلك بحوالي النصف الثاني من الألف الخامس قبل الميلاد (٥٥).

وعلى أية حال، فهناك ما يشير إلى مؤثرات مصرية واضحة في هذه الآثار الليبية، فهناك وجه شبه كبير بين فخار الفيوم وبين موقع هوافتيح، والأمر كذلك في الصناعات الحجرية، كرؤوس السهام، والتي لم يثر على جذور لها في المواقع الليبية، الأمر الذي يؤكد وجود التأثيرات المصرية، خاصة وأن حضارة الفيوم، فيما يرى كثير من الباحثين - ومنهم سليمان حزين، وكاتون طمسون، وبورتر، وجاك فاندبييه، ووليم هيز - إنما كانت أسبق من حضارة مرمدة (٥٦)، ذلك لأن مجتمع الفيوم، رغم أنه كان مجتمعاً مستقراً، ولكن دون أن يقيم أكواخاً، أو يتخذ له مأوى ثابتاً - كما فعل أهل مرمدة وحلوان العمرى - هنا فضلاً عن أن أدوات أهل الفيوم إنما كانت أقل تطوراً، وفخارهم أكثر خشونة، وربما يرجع إلى منتصف الألف السادس قبل الميلاد (٥٧).

(55) L. Balout, op. cit., p. 481.

وانظر عن الآراء المختلفة حول التواريخ المقترحة لمصر التأسيس (الأسرتين الأولى والثانية في مصر الفرعونية): محمد يوسى مهران: مصر، الجزء الثاني، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٩ - ١٢.

(56) W. C. Hayes, Most Ancient Egypt, Chicago, 1962, p. 70.

G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, The Fayum, I, 1943, p. 295 - 296.

S. A. Huzayyin, op. cit., p. 295 - 296.

(٥٧) اختلف العلماء حول بداية العصر الحجري الحديث في مصر ونهايته، فهناك من يقترح البداية في الألف المائتين أو الثمانين من قبل الميلاد، ومن يقترح حوالي ٦٥٠٠ ق. م، كبنية بالنسبة للفيوم (د)، وحوالي ٥٠٠٠ ق. م بالنسبة للزراعة، وأنه استمر حوالي ٨٠٠ عام، على أن فريقاً
==/==

وعلى أية حال، فهناك صلات حضارية بين حضارة الفيوم أ، وبين مواقع سيوه والخارجة وغيرها من مواقع الصحراء الغربية المصرية، مما يؤكد وجود سير خط حضارى بين منطقة شرقى ليبيا وبين وادى النيل الأدنى وخاصة منطقة الفيوم، فى ذلك الوقت المبكر من مرحلة استقرار الإنسان.

على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب إلى أن الجذور الأولى لحضارة العصر الحجري الحديث فى شمال أفريقيا، بوجه عام، إنما ترجع فى الحقيقة إلى جهود الإنسان وقت ذاك فى منطقة الصحراء الكبرى - وهى منطقة فسيحة تمتد من البحر الأحمر وحتى المحيط الأطلسى - وكانت مسرحاً ضخماً لتجول الإنسان وتنقله بين الأودية والعيون والواحات والآبار، خلال المراحل الجوية المناسبة التى تخللت تاريخ هذه المنطقة الصحراوية، وقد عثر الآثاريون على عدد كبير من المواقع الأثرية فى أجزاء من هذه المنطقة، وقد أكدت أبحاث «كاتون طمسون» وجود صلات حضارية فى التقاليد الصناعية بين هذه المواقع الأثرية.

وقرب نهاية العصر الحجري القديم الأعلى، وبداية الانتقال للعصر الحجري الحديث، أى بعد ظهور مراحل الجفاف الأخيرة، اضطر الإنسان فى هذه المنطقة الصحراوية إلى الرحيل نحو الأودية والمناطق التى يجتد فيها مأكله ومشربه، ومن ثم فقد اتجهت مجموعات من هذا الإنسان نحو الشمال - نحو برقة وتونس - واتجه بعضها نحو الشرق - نحو الواحات المصرية وبحيرة قارون ووادى النيل الأدنى - وقد تمكن هؤلاء الذين انتقلوا إلى المنطقة الأخيرة من أسبقية التوصل إلى الاستقرار، وإنشاء القرى، وعلى ذلك يمكن تفسير وجود هذه الصلات الحضارية

==/==

رأياً يرى أن العصر الحجري الحديث يبدأ فى الربع الأول من الألف الخامسة، أو حوالى منتصفها فى الوجه البحرى، وانتهى فهناك من يراه فيما بين منتصف الألف الخامسة وبداية الألف الرابعة قبل الميلاد (أنظر: محمد يوسى مهران: مصر، الجزء الأول، ص ٢١٥ - ٢١٦، وكلا؛

W. C. Hayes, op. cit., p. 113 - 116.

E. Massoulard, op. cit., p. 48.

G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, op. cit., p. 93.

K. W. Butzer, BSRGE, 32, 1959, p. 43.

G. Clark, op. cit., p. 227.

J. Vandier, op. cit., p. 188.

الآفة الذكر، بين حضارة الفيوم أ، وبين حضارة منطقة شرقي ليبيا، على أساس إمكانية انتماء كلتا الحضارتين أصلاً، إلى جذور وتقاليد حضارية واحدة في منطقة الصحراء الكبرى (٥٨).

هذا ويذهب الدكتور يسرى الجوهري إلى أن تفسير بعض التشابه بين مواقع سيوه والخارجة والفيوم وكهف هوافتيح، إنما وجد عن طريق افتراض إمكانية انتماء حضارة الفيوم وشرقي ليبيا، إلى جذور وتقاليد حضارية واحدة في الصحراء (٥٩).

بقيت الإشارة إلى أنه قد عثر - من مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط - على فك إنسانى فى «كهف هوافتيح» - إلى الشرق قليلاً من مرسى سوسة (أبولونا القديمة) فى غرب درنة بمنطقة الجبل الأخضر فى ليبيا - وطبقاً لتأريخ «كربون ١٤»، فلقَدْ أُرْخَ الفحم الخشبي الذى عثر عليه فى الموقع بحوالى ٤٣,٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٦٠)، وقد أكدت الدراسات الدقيقة لإنسان «هوافتيح» أنه قريب الشبه بإنسان «الطابون» و«الكرومل» فى فلسطين (٦١)، فضلاً عن التشابه فى الصناعة الحجرية، مما يؤكد وجود نوع من الصلات الحضارية والبشرية بين جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، مما دفع البعض إلى القول بأن هذا الإنسان قد دخل هذه المنطقة من الجنوب أثر هجرة جنوبية - شمالية، ظهرت آثارها كذلك فى وادى النيل، ثم تطور بعد استقراره فى هذه المنطقة (٦٢).

بقيت الإشارة إلى وجود صلات حضارية بين شرقي البحر المتوسط - وخاصة فلسطين، وعلى الأخص مدينة أريحا (٦٣) - وبين المواقع الليبية (حكفت

(٥٨) رشيد الناضورى: المغرب الكبير ١/ ١٢٦ - ١٢٧.

(٥٩) يسرى الجوهري: جغرافية المغرب العربى، منفعة المعارف، الإسكندرية ١٩٨١، ص ٥٤.

(60) C. B. M. Mc Burney, The Haua-Fteah (Cyrenaica) and The Stone Age of The South-East Mediterranean, Cambridge, 1961, p. 168.

(61) Ibid., p. 349.

(٦٢) رشيد الناضورى: المرجع السابق، ص ٦١ - ٦٢.

(٦٣) أريحا (جرىكو = Jericho): ومنعتها مدينة القصر، أو مكان الروائع العظيمة، وهى مدينة هامة

الطيرة، وحكفت الضبعة، وكهف هوافتيح) أثناء العصر الحجري القديم الأعلى، وأن هذه التأثيرات أو الصلات نمب عن طريق دلتا النيل، غير أنه لم يثر على آثار هذه الحضارة في المنطقة ما بين دلتا النيل وخليج سرت في ليبيا، بينما وجدت في هذه المنطقة أدوات الحضارة العاترية، واستمرت حتى العصر الحجري الحديث بدون انقطاع، ومن ثم فقد بدأ العلماء في البحث عن طريق آخر لمرور هذه الحضارة من غربي آسيا إلى ليبيا.

هذا وقد أصدر «فيلب جيمس» (٦٤) عام ١٩٨٣ م دراسة عن ٢٧ موقعا أثريا، تقع في المنطقة ما بين أسوان والأقصر، وتنتمي جميعها إلى العصر الحجري القديم الأعلى، وكان من بينها موقعان يقمان على مبعده ٨ كيلا شمال غرب إسنا (ربما غرب مدينة «حسفت القديمة، وهي المطاعنة الحالية»)، وقد عثر فيها

=/=

تقع على مبعده ٨ كيلا غربي نهر الأردن، ٢٧ كيلا شمال شرق القدس، أما «أريحا» التي جاء ذكرها في التوراة فمكتبتها «تل السلطان»، على مبعده ميل واحد من مدينة «أريحا» الحديثة، وقد أثبتت الحفريات التي أجريت في «تل السلطان»، على أن أريحا واحدة من أقدم مدن العالم، وقد اكتشف فيها فخار من أقدم فخار العالم، كما عثر في أريحا على آثار الحضارة النطوفية بصورة متصلة حضاريا، تؤكد الانتقال الفعلي نحو مرحلة الاستقرار وإنتاج الطعام (أي مرحلة ما قبل النيوليتية، كما عثر على آثار مرحلة العصر الحجري الحديث الصميم ابتداء من الطبقة التاسعة، وكان أول من قام بالحفر في أريحا «أرنست سيلين» و «كلود فتنجر» في الفترة (١٩٠٧ - ١٩٠٩ م)، ثم «جون جارسناخ» في الفترة (١٩٣٠ - ١٩٣٦) ثم «س كاتلين كينيون» منذ عام ١٩٥٧ م (انظر: رشيد الناضوري: جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا ١/ ١١٧ - ١١٩، ٢٤٠، محمد يرمي مهران: إسرائيل ٢٠٠٤، قلموس الكتاب المقدس ١/ ٥٩، وكلنا؛

E. Sellin and C. Watzinger Jericho, 1913.

J. and J. B. E. Garstang, The Story of Jericho, 1940.

K. M. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, London, 1970, p. 13 - 43.

K. M. Kenyon, in PEQ, 1952, p. 62 - 82, 1953, p. 18 - 95, 1954, p. 45 - 63, 1955, p. 108 - 117, 1956, p. 67 - 82 and in Scientific American, 90, 1954, p. 76 - 82.

(64) Phillips James The Nile Valley Final Paleolithic and External Relations, University Microfilms International, Ann Arbor, Michigan, U.S.A., 1983.

على كميات ضخمة من النصال، بلغت في الموقع الأول ١٠١٩٤، وفي الثاني ٢١٥٠٢ نصلاً، وأن أحد الموقعين يشبه تشذيب أدوات «أوشتاتا» في تونس، كما اتبع في صنع أدواته نفس التقنيات التي اتبعها إنسان موقع «أوشتاتا» Ouchtata، وأن الموقع الثاني (وقد انتقل إليه أصحابه من الموقع الأول) يشبه كثيراً من حيث التقنية والشكل موقع «الهامل»، والذي يبعد عن الساحل الجزائري بحوالى ٥٢٠ كيلاً، كما أشرنا من قبل، وقد خضع الموقعان لعملية التأريخ بواسطة «كربون ١٤» (٦٥)، فأرخ لها بفترة لا تقل عن ١٤٠٠٠ أو ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وبالتالي فهما سابقان لموقعي شمال أفريقيا (٦٦).

وانطلاقاً من هذا، فإن «فيلب جيمس» - وكذا «بالوه» - يتفقان على أن التأثير الذي وقع على شمال أفريقيا إنما قدم من الشرق - من السواحل الليبية أو وادي النيل - وليس من الصحراء، وأنه لم يكن مقصوراً على الأداة فقط، وإنما امتد كذلك إلى الملامح الجسمانية، خاصة وأن إنسان النوبة وقت ذاك إنما كان يشبه رجل «مشتا العربي» (٦٧)، وبالتالي فإن أصل الحضارة الإيسرو مغربية (الوهرانية) من وادي حلفا (السودان) وليس من مصر، خاصة وقد كشف «فاربردج» فيما بين عام ١٩٦١، ١٩٦٢م عن ستة مواقع ذات أدوات ميكروليثية ميزتها اتصال ذات القاعدة في منطقة شمال وادي حلفا (٣٤٠) كيلاً جنوب أسوان)، وأطلق عليها «حضارة حلفا»، وتظهر أهمية هذا الكشف الأثرى في أمرين، الواحد: أنه يكشف لنا عن أول صناعة ميكروليثية في أفريقيا، والآخر: أنه

(٦٥) أنظر عن التقويم بكربون ١٤ (محمد بيومي مهران: مصر، الجزء الأول، الإسكندرية ١٩٨٨، ص ٢٧٠ - ٢٧٤، وكذا:

W. F. Libby, Radiocarbon Dating, Chicago, 1952.

R. M. Derricourt, Radio Carbon Chronology for Egypt and North Africa, in JNES, 1971.

H. S. Smith, Egypt and C 14 Dating, Anliguity, 1964.

C. Flight, A Surjeiy of Recent Results in The Radiocarbon Charonology Northern and Western Africa, JAH, 14, 1937.

(٦٦) Phillips James, op. cit., p. 35, 130, 202.

(٦٧) Fred Wendorf, The prehistory of Nubia, I, Dallas-Texas, U.S.A., 1968, p. 32.

تم فى هذه المواقع الستة تطور الصناعة من التشظية إلى النصال (وهى تقنية جديدة).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن هذه الصناعة ميكروليثية تماماً، ومبكرة جداً فى أفريقيا، ولا علاقة لها بالحضارة السبيلية (نسبة إلى قرية السبيل، فى مجاورات مدينة كوم، بمحافظة أسوان)، وتمثل صناعة نصال قزمية فى وادى النيل، ومبكرة عن باقى مناطق أفريقيا، ولقد أُرُخ لها «كربون ١٤» بحوالى ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وتمثل النصال فيها نسبة ٢٩٢,٧٪ من مجموع أدواتها^(٦٨).

هذا وقد نزلت هذه الحضارة شمالاً إلى «إسنا» (بمحافظة قنا)، وسكن أصحابها فى غربى «حسفت» (المطاعة الحالية - مركز إسنا)، كما وجدت فى «بلانة» (٣٠ كيلاً شمالى وادى حلفا) بالنوبة المصرية القديمة (النوبة السفلى)، ويؤرخ لموقع بلانة هذا بحوالى ١٤,٠٠٠ سنة ق. م (طبقاً لكربون ١٤)، ويؤكد «وندورف» أن الحضارة الإيبرو مغربية ظهرت فى شمال أفريقيا حوالى ١٢,٥٠٠ سنة ق. م، وقد نزلت من مصر - وليس من أوروبا - وأن أصحابها إنما كانوا يعيشون على طول نهر النيل، قبل أن تنتقل إلى شمال أفريقيا، وبالتالي فإن موقعى «وادى حلفا» و «بلانة» إنما هما سابقان زمنياً، ومن ثم فهما يمثلان السلف المباشر للحضارة «الإيبرو مغربية»^(٦٩).

(١٥) محجر سيدى عبد الرحمن:

هو أحد المحاجر الكثيرة المنتشرة فى نواحي مدينة «المدار البيضاء» بالمملكة المغربية، نتيجة تجمع الرسوبات البحرية والحجر الرملى والجص طوال العصور الجيولوجية، وقد تخللت طبقات هذه المحاجر بقايا عظمية لحيوانات فقيرة - كفرس النهر ووحيد القرن - وحيوانات لافقرية، فضلاً عن البقايا الأثرية - التى خلفها الإنسان من تلك المرحلة، وتندرج هذه المواقع من ارتفاع يزيد عن مائة متر، وإلى مسافة ٥ كيلاً، تجاه المحيط الأطلسى، كما تمتد

(٦٨) لم الخمر الفنون: للرجع السابق، ص ٣٨ - ٤١، وكذا:

F. Wendorf, op. cit., p. 457.

(69) Fred Wendorf, The Prehistory of Nubia. II, 1968, p. 1050, 1057.

نحو الجنوب الغربى، حيث عثر على «كهف الدية» (Grotte des Ours)، و «كهف ليتورين» (Grotte des Littorines) وقد كشف فى الكهف الأخير (ليتورين) فى عام ١٩٥٥م عن فك سفلى إنسانى من قطعتين، وفى حالة جيدة، ينتمى إلى مجموعة إنسان «باليكاو»، أى «مجموعة أتلانثروبوس»، التى ترتبط بمجموعة الشرق الأقصى (إنسان جاره، وإنسان بكين)، وإن كان حجم الأسنان فى كهف «ليتورين» (Littorines) يقل عن نظيره فى «باليكاو».

وفى شهر فبراير عام ١٩٣٣م، عثر فى نواحي «الرباط» على بقايا إنسان، عرف باسم «إنسان الرباط»، وأغلب الظن أنه ينتمى إلى مجموعة إنسان «باليكاو»، وميدى عبد الرحمن (مجموعة أتلانثروبوس). كما يؤكد التشابه الجيولوجى بين طبقات محجرى ميدى عبد الرحمن والرباط، تشابه البيئة المحيطة بحياة الإنسان الأول فى كلا الموقعين^(٧٠).

(١٦) أهم المواقع الصحراوية فى العصر الحجري الحديث:

(١) موقع عبد العظيم: يقع فى أقصى الجنوب الغربى، على حافة وادى الساوره.

(٢) موقع زميلة بركة: ويعد من أغنى المواقع، ويقع على مبعده ٢ كيلا، جنوب غرب واحة ألوغرطة، وعلى مبعده ١٥٠ كيلا شمال موقع عبد العظيم.

(٣) موقع زفان: ويقع على مبعده ٢٥ كيلا، جنوب شرق مدينة زفان.

(٤) موقع تلبلة: ويقع غرب الساوره، ويتميز برؤوس سهام وفؤوس ومدى ذات تأثير مصرى.

(٥) موقع أمكين: ويقع فى أقصى الجنوب الشرقى للصحراء الجزائرية، وعلى مبعده ٤٠ كيلا شمال غرب «تمتراس»، وهو تل مرتفع يشرف على السهل، حيث يجرى عند السفح مجرى مائى كبير يمد السكان بالماء والأسماك، كما

(٧٠) رشيد الناصري، المغرب الكبير، ص ٥٤ - ٦١، وانظر:

H. V. Vallois, L'homme de Rabat, BAM, III, 1958 - 1959, p. 89

C. B. M. Mc Burney, The Stone Age of Northern Africa, London, 1960, p. 118.

وجدت آثار لمساكن متناثرة بين الكتل الصخرية، وقد وجدت بجانبها أحواض الطحين محفورة في الصخر، وتعتمد الصناعة في هذه المواقع على الكوارتز، ومن أدواتها نصيلات مسننة وؤوس سهام.

هذا ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن المواقع الأثرية الصحراوية إنما وجدت في الهضاب أيضاً - كما وجدت في الجبال - وقد عثر على أدوات على السطح، وقد كشف «فور لامى» في عام ١٩٠٥ م في العرق الشرقي الكبير عن أكثر من ٢٣٢ موقعا، في مساحة لا يتعدى طولها ٤٨٥ كيلا، وعرضها ٣٢٠ كيلا، وقد عثر فيها على نصال عادية، وأخرى متنوعة قزمية، وفؤوس وسهام موسمية، وأخرى حائرة، كما عثر على ما يدل على استخدام القوم هناك في العرق الشرقي لقشور بيض النعام والفخار^(٧١).

(١٧) مخبأ رديف:

هناك ما يشير إلى وجود أدوات العصر الحجري الحديث، ذات التقليد القفصى في عدة مواقع تمتد من تونس شرقا، وحتى المغرب الأقصى غربا، ومن أهمها مواقع: الصفصاف والكف الأحمر والكيفان وجاعتشة، ثم مخبأ رديف، وهو أهمها جميعا، (ويقع على سفح جبل رديف غربي قفصة بحوالي ٥٥ كيلا، وعلى مبةلة كيلو متر واحد من بلدة رديف على الشاطئ الشمالي لخور ينزل من جبل رديف)، وينهب «جوبار» إلى أن موقع «مخبأ رديف» هذا، إنما يمثل حداً مشتركاً بين العصر الحجري الحديث في المغرب القديم والصحراء، أو هو - فيما يرى فوفري - نقطة عبور من السمة الصحراوية إلى سمة العصر الحجري الحديث ذي التقليد القفصى^(٧٢).

(٧١) أم الخير المقون: المرجع السابق، ص ٧١ - ٧٤، طاهر المدونى: دراسة للحضارة في عصور ما قبل التاريخ بالصحراء الجزائرية، وخاصة أثناء العصر الحجري الحديث، الإسكندرية ١٩٧٥، ص ١٦٠ - ٩٦١، وكذا:

Foureau Lamy, Documents Scientifiques De La Mission Saharhennne, II, Publications De La Societe Geographique De Paris, 1905, p. 1100 - 1125.

(72) R. Vaufer, op. cit., p. 291 - 306.

(١٨) موقع برزينة.

ويقع جنوب «وهران» في الجزائر، ويمثل مرحلة انتقال من العصر الحجري الحديث (١) (موقع رديف) إلى العصر الحجري الحديث (٢) (دار السلطان)، فيما يرى «بالوه»^(٧٣)، وإن ذهب «فوفري» إلى أن الموقع متأخر زمنياً عن مواقع أخرى وجدت في وهران، وذلك لقلة الأدوات الفخفية، وزيادة الأدوات النيوليتية الخالصة في الموقع، وأما الفخار فلم يعثر منه على أية كاملة، وإنما عثر على كسور ذات زخرفة بمسحة المشط أو بالأصابع، فضلاً عن كسور ذات لون واحد، أحمر وأسود، بدون زخرفة، على أن هناك نوعاً أحمر ذا قمة سوداء يشبه فخار عصر ما قبل الأسرات في مصر، وآخر بلون أحمر يشبه فخار المعادى، والفخار جميعه أما ذو قاع محروطي أو دائري^(٧٤).

(١٩) مشتا العربي:

كان مشتا العربي مكنأ لأقوام طوال القامة (١٧٢ سم في المتوسط) ومستطيلي الرؤوس، لهم جبهة ضيقة، وشفاة طويلة، وربما كانوا أول سلالة تتخذ لها موطناً في المغرب، وكانوا يمارسون عادة خلع الأسنان القاطعة، ثم بدأ يظهر تحول نحو قصر الرأس، وشحافة الجسم في أماكن متعينة أظهرتها «كولومناطة» (Columnata) في غرب الجزائر، وذلك حوالي عام ٦٠٠٠ ق.م^(٧٥).

(73) A. Rhulman, La Grotte Prehistorique De Dar-Essoltan, Paris, 1951, p. 88.

(74) R. Vaufrey, op. cit., p. 360.

(٧٥) جيهان ديزاج: تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو ١٩٨٥، ص ٤٣١ - ٤٣٢.

L. Balout, op. cit., p. 346, 349 - 351. وكلا،

G. Camps, op. cit., p. 81 - 88. وكلا،

M. C. Chamla, Les Hommes epipaleolitiques de Columnata (Algerie Occidentale) Mem. C R. A. P. E, XV, 1970, p. 113 - 114).

ولعل من الجدير بالإشارة إلى أن هناك من يذهب إلى أن إنسان «مشتا العربى» من أصل غربى لوجود شبه بينه وبين إنسان كرومانيون، وكذا إنسان جزر كناريا، والتي كانت بحثاً ملجأ بشرى تصل إليه العناصر البشرية من المغرب، غير أن هناك فريقاً من العلماء إنما يرى أن ذلك أمراً بعيد الاحتمال، ذلك لأن «الجوانشيين» (Guanches) رغم أنهم مشابهُون أنثروبولوجياً لرجال «مشتا العربى»، فإنهم لا يماثلونهم فى الحرف والصناعات والمعدات، كما أن الحضارة الوهرانية لم تأت من أوربا، ذلك لأنها إنما ظهرت قبل بداية الملاحة عبر المضائق (حوالى الألف الرابع قبل الميلاد)، ومن وإلى صقلية، وهناك ما يحمل على الظن بأن أصولها شرقية، ومن المحتمل أيضاً أنها أتت من شمال السودان وادى النيل - فيما يرى تكسير - ومن ثم فما داموا قد أتوا تحت ضغط من الشعوب المهاجرة، فلا شك أن «الإيبيريين - الموريتانيين» قد اتخذوا ملاجئ فى التلال، ويمكن أن يعتبروا أحد العناصر الإنثروبولوجية لسكان الجبال (٧٥).

(٢٠) وهران:

ميناء جزائرى على البحر المتوسط، وكانت أهم القواعد البحرية الفرنسية بشمال أفريقيا، هذا وينسب تأسيسها إلى تجار من عرب الأندلس فى القرن العاشر الميلادى، وقد تداولها الأسبان والأتراك (القرن ١٦ - ١٨م) واحتلها الفرنسيون فى الفترة (١٨٣١ - ١٩٦٤م) (٧٦).

هذا وينسب العلماء إلى «وهران» الحضارة الوهرانية وقد كشف عنها «بول بالارى» (Paul Pallary) فى عام ١٨٩٩م فى وادى موبلج، على مقربة من مدينة مغنية فى غرب الجزائر، وأطلق عليها اسم «إيرو - مغربية»، اعتقاداً منه

(٧٥) جيهان ديزانج: المرجع السابق، ص ٤٣١ - ٤٣٢، وكذا:

M. C. Chamle, Les home epipaleolithiques de Columnata (Algerie Occidentale) Mem. C.R.A.P.E, XV, 1970, p. 113 - 114.

(٧٦) جيهان ديزانج: المرجع السابق، ص ٤٣٢.

أن هناك صلة تربطها بحضارة العصر الحجري القديم الأعلى في شرق أسبانيا، وإن أثبتت المقارنة بين المواقع المختلفة عدم وجود هذه العلاقة، ومن ثم فقد أطلق عليها «فوفري» اسم «الحضارة الوهرانية»^(٧٧)، غير أن موقع موهلج إنما كان متوسط الأهمية، وأقل شأنًا من موقع «أفلوريمال» بين جيجل وبجاية في شرق الجزائر، هذا فضلاً عن انتشار مصطلح «إيرر - مغربية» في الأبحاث الأثرية، الأمر الذي أدى إلى الإبقاء على هذا المصطلح، رغم عدم دقته.

وعلى أية حال، فالحضارة الوهرانية حضارة ساحلية، وصناعاتها غير دقيقة، ومن مادة رديئة، بل وبهذا الباحثون من أنقر صناعات عصور ما قبل التاريخ، ويقسمها الباحثون إلى ثلاث مراحل: الأولى سابقة للحضارة القفصية، وتوجد في موقع واحد قرب مدينة قفصة في تونس حيث الأدوات الكبيرة وعدم وجود أدوات ميكروليثية، ثم تتجه شمالاً إلى موقع سيدي منصور في تونس أيضاً، حيث وجدت الأزاميل القزمية. والثانية والثالثة معاصرة لها، وإن تميزت للمرحلة الثانية بالأدوات الميكروليثية، فضلاً عن تلك التي صنعت من عظم، وقد وجدت في مواقع عميقة في المغرب الأقصى ككهف الخزيرة ودار السلطان ومغارة تافورالت، وأما المرحلة الثالثة فقد وجدت في مغارة «كلومنا» في الجزائر، وقد تميزت بأدواتها الميكروليثية، وأنها تمثل أوج «الحضارة الأيرومغربية»^(٧٨).

هذا وقد اختلف الباحثون في تحديد مكان هذه الحضارة الوهرانية في سلم التطور الحضاري في هذا العصر، فهناك من يراها متأخرة زمنياً، أي أنها معاصرة للمرحلة الأخيرة من الحضارة القفصية، ومن يرى لها أسبقية في الصناعة النصلية على أساس أن بعض المواقع الأثرية في نواحي الدار البيضاء إنما تحوى خليطاً من

(٧٧) قارن: رشيد الناصوري: للمرجع السابق، ص ١١٦ - ١١٧.

(٧٨) أم الخير العقون: للمرجع السابق، ص ٣٠ - ٣١، وكذا:

R. Vaufray, Prehistoire de L'Afrique, I, Le Maghreb Ed-Masson, Paris, 1955, p. 88 - 89.

L. Balout, op. cit., [304.

الآثار الوهرانية، وبالتالي فإن للحضارة الوهرانية أولوية في النصلية في المغرب، على أن هناك وجها ثالثا للنظر يذهب إلى وجود صلات حضارية بين حضارة «هوافتيح» في بركة، والحضارة الوهرانية، وأخيرا فهناك اتجاه رابع يذهب أصحابه إلى لإعتقاد في وجود صلات حضارية بين المواقع الساحلية الأسبانية والمواقع الوهرانية والمغربية، وإن اختلفت الآراء في أيهما المصدر الأصلي لهذه الحضارة، هل هو الجانب الأروبي أم المغربي^(٧٩).

وعلى أية حال، فلقد انتشرت الحضارة الوهرانية في تونس والجزائر والمغرب، وإن اختلفت مواقعها من الساحل قربا أو بعدا، ففي تونس: وجدت مواقع: أكاريت، وأدواته مطابقة لأدوات كحفط الطيرة في ليبيا، و«أوشنتا»، وقد كشف عنه عام ١٩٥٢م، ويعتبره البعض من أقدم مواقع الحضارة الوهرانية في الشمال الأفريقي، وفي «قلعة الصنم» على الحدود بين تونس والجزائر^(٨٠).

وأما مواقع الحضارة الوهرانية في الجزائر، فهي مواقع ساحلية تمتد من عنابة وحتى أقصى الغرب الجزائري، وقد وجدت في عنابة وسوق وهران وبجاية، وأما في الوسط الجزائري، فتبعد المواقع عن الساحل، ويتمثل ذلك في اختراق إنسان «مشتا العربي»^(٨١) (حامل الإيبرو مغربية) للهضاب العليا، كما في موقع «الهامل» على مبعدة ٢٥٠ كيلا من الساحل، وتشير القواقع البحرية في هذه المواقع على اتصال بالمواقع الساحلية.

(٧٩) رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص ١١٥ - ١١٧.

(80) L. Balout, op. cit., p. 375 - 377.

(٨١) كان مشتا العربي سكنا لأقوام طوال القامة (١٧٢ سم في المتوسط) ومستطلي الرؤوس، لهم جبهة ضيقة، وشفاة طويلة، وربما كانوا أول سلالة تتخذ لها موطنها في المغرب، وكانوا يمارسون عادة خلع الأسنان القاطمة، ثم بدأ يظهر تحول نحو قصر الرأس، ونحافة الجسم في أماكن معينة أظهرها «كولومنا» (Columnata) في غرب الجزائر، وذلك حوالي عام ٦٠٠٠ ق.م (أنظر: جيهان ديوانج، تاريخ أفريقيا المدم - اليونسكو ١٩٨٥ ص ٤٣١ - ٤٣٢، وكذا:

L. Balout, op. cit., p. 346, 349-351.

G. Camps, op. cit., p. 71- 88

وكذا

M.C. Chamla, Les Hommes Epipaleolitiques de Columnata (Algerie Occidentale) Mem. C.R.A.P. E, XV, 1970, p. 113 - 114).

هذا وبعد موقع «أفلوهريمال» (Aflou bou Rhumel)، على مقربة من بجاية في الجزائر من أكثر الشواقع أهمية لهذه الحضارة، فلقد عثر «أمهورج» في حفائر عام ١٩٢٨م على حوالي ٦٠ هكيلا عظيما، إلى جانب مجموعة من الآلات الحجرية وغيرها، وهناك موقع «كولومنانا» - على بعد ٢٠ كيلا شمال يياره، ١٢٠ كيلا من الساحل - وقد قدم لنا تنابعا طبقيا لثلاث مستوطنات حضارية من أسفل إلى أعلى (وهرثية ثم قفصية عليا ثم عصر حجري حديث)، كما أن صناعته ذات سمة وسطى للتحول نحو القفصية، وقد أطلق عليها «الكولومانية».

(٢١) نوهديا؛

كان سكان المغرب القديم - أثناء حكم القرطاجيين - من البربر، وقد كثرنا بممالك نوميديّة، وفي أثناء الصراع بين روما وقرطاج - الذي انتهى بانتصار روما نهائيا في موقعة «زاما» (Zama) في عام ٢٠٢ ق.م.

وتقع «زاما» أو «جاما» : السبع ييار، على مقربة من قرطاج نفسها - (وهي ساقية سيدى يوسف على مقربة من تاراجرا (Naraggara) فيما يرى وارمنجتون وهي قرب الضريح القائم بقصر طوال الزمامل، وفي أعلى نقطة من المعبّر المفتوح بين جبل ماحبوح شمالا، والجبال الملاصقة لصرد مكتر من جهته الشمالية جنوبا، والذي يصل فيما بين سهل سليانة وسهل السرس، فيما يرى أحمد صقر) وقد ساهم في معركة «زاما» هذه «ماسينيسا» بأربعة آلاف فارس، فأكسب ذلك الروم ولأول مرة تفوقا عظيما على هانيبال في الفرسان، فتزحزح جناح هانيبال من الفرسان عن مراكزهما، على حين استطاع مشاة «سكيبيو الأفريقي» بما لهم من نظام أصلب وأسلم، أن يفسحوا بين صفوفهم دروبا تهجم خلالها فيلة الحرب القرطاجية، دون أن يضطرب نظام هؤلاء المشاة.

هذا وقد استغل «ماسينيسا» - حليف روما - ذلك الشرط الجائر الذي يقضى بتقيّد حرية قرطاج العسكرية، وألا تثن حربا - داخل أو خارج أفريقيا - إلا بأذن من روما، في توسيع رقعة بلاده، على حساب جوارحه المهزومة قرطاج، وكثيرا ماهاجم الأراضي القرطاجية بهذه الدهوى، وفي كل مرة كانت قرطاج

لاستطيع رد المدوان، وكل ما كان فى إمكانها أن تتقدم بشكوى إلى مجلس السيناتو فى روما، الذى كان يجد عادة مايير به اعتداءات ماسينيسا.

على أن هذا لا يمنع من القول بأن «ماسينيسا» (Masinissa) - فيما يرى البعض - إنما كان شخصية قوية البنيان، جمة النشاط، متعددة المواهب، وقد تلقى تعليمه فى قرطاج، وقدر - تقديرًا سليما - أهمية الإفادة بما يمكنه من الحضارة القرطاجية فى اقليمه الخاص (مملكة نوميديا)، وفى الواقع، فلقد كانت شخصيته فى مستقبل الأيام، أكبر من كونه رجلا خرج على قومه، ليعمل فى صفوف أعدائهم الرومان، وهكذا بدأ منذ عام ٢٠٦ ق.م، بمقعد أواصر صداقة متينة مع عدد من أبرز السياسيين الرومان، وقد كوفىء بعد معركة «زاما» فى عام ٢٠٢ ق.م بالأجزاء الشرقية، والتي تمثل أنصبأ أراضي «سيفاكس» وهكذا امتد حكمه من «قسنطينة» (قرطه Cirta) فى منطقة تمتد إلى الغرب من هذه المدينة، وحتى الحدود القرطاجية الجديدة - فى نفس الوقت الذى تركت فيه المنطقة الأقل تقدما بين مملكة ماسينيسا وحتى وادى ملوية، لابن سيفاكس -.

هذا ويذهب بعض الكتاب القدامى إلى أن «ماسينيسا» إنما قد زاد الانتاج الزراعى فى نوميديا زيادة كبيرة، حتى أن «سترابو» إنما يحاول أن يوهمنا أنه قد حول الرعاة إلى مزارعين، ورغم ما فى هذا القول من مبالغة، فالذى لاشك فيه أن هناك زيادة فعلية فى المنطقة المزروعة بالحبوب، حتى أصبح هناك فائض للتصدير، وإن ظلت الماشية سائدة دونما رعب، كما أن هذا يبشر، دونما ريب أيضا، بمزيد من التطور الزراعى فى العصر الرومانى، ورغم أن التجارة كانت محدودة، فلقد سكنت العملة من البرونز والنحاس.

هذا وقد أصبحت «قرطه» (قسنطينة) عاصمة «ماسينيسا» مدينة حقيقية، وإن كان تقدير عدد السكان بما يقرب ألف نسمة فى عهد ابن ماسينيسا، مبالغ فيه كثيرا، ورغم أننا لانعرف عن آثارها الكثير، فإن شكلها العمرانى إنما كان قرطاجيا صميما، وقد عثر فيها على لوحات حجرية بونية، أكثر مما عثر فى أى موقع أفريقى آخر - عدا قرطاج نفسها - كما أن لغة قرطاج إنما قد استخدمت بكشل متزايد فى نوميديا وموريتانيا.

وعلى أية حال، فلقد ظل «ماسينيسا»، وعلى مدى نصف قرن من الزمان، يمارس ضغطا متزايدا لانتزاع أراضي قرطاج، وربما ساروره أمل في أن تكون قرطاج نفسها في النهاية من نصيبه بموافقة الرومان، وعلى أية حال، فلقد ظلت مكاسب «ماسينيسا» حتى عام ١٧٠ ق.م، صغيرة في الأرض، غير أن روما إنما بدأت منذ عام ١٦٧ ق.م، تنتهج سياسة تتسم بالخشونة والقسوة، سواء أكان ذلك في أفريقيا، أو في خارجها، مع استمرار تعاطفها مع ماسينيسا الذي يهذى شكوكها نحو قرطاج^(٨٢)، وفي كل هذا لم تكن قرطاج تملك غير الشكوى لمجلس السيناتور في روما، وكانت روما - كالعادة - ترد بإرسال وفد من مجلس السيناتور Senato للتحقيق في الأمر.

على أن روما إنما قد أرسلت في إحدى المرات «ماركوس بوركيوس كاتو» (٢٣٤ - ١٢٩ ق.م) لتسوية الخلاف بين نوميديا وقرطاج، وكان «ماركوس بوركيوس كاتو» هذا، محاربا قديما، وسياسيا ضيق النظر، وقد شاهد برأس عينيه أن قرطاج إنما قد بدأت تستعيد شيئا من تجارتها ورخاتها، فهاله ذلك، بل أربه ما في قرطاج من بعض دلالات الرخاء، بل وإمارات السعادة، ومنذ تلك الزيارة أصبح «كاتو» هذا، يختم كل خطاب يلقيه في مجلس السيناتور، بأن يتفق قائلا: «يجب أن تدمر قرطاج» Delenda est Carthago^(٨٣).

هذا وقد أدى موت «ماسينيسا» في عام ١٤٨ ق.م - أثناء الحرب البونية الثالثة ١٤٩ - ١٤٦ ق.م - إلى عودة البربر إلى «الفرقة السياسية - مرة أخرى، بعد أن نجح «ماسينيسا» إلى حد كبير في جمع شملهم، فضلا عن الخلافات الأسرية بين أبناء «ماسينيسا» الثلاثة (ميسبا ومستعجل وغولومة)، فيمن يخلف الأب على عرش نوميديا، ولعل في تدخل القائد الروماني «سكيبيو» في هذه الشؤون الداخلية، بل في شؤون الأسرة البربرية، ما يدل على وثاقه العلاقات بين الروم والقرطاجيين، وعلى أية حال، فلقد انفرد «ميسبسا» (Micipsa) الأخ

(٨٢) ب. هـ. ولارنتجون: المرجع له، ص ٤٧٠ - ٤٧١.

(٨٣) هـ. ج. ولز: المرجع السابق ص ٥٤٢، وكلا B.H. Warmington, op.cit., p. 202.

الأكبر، بعرض نوميديا فى الفترة (١٤٨ - ١١٨ ق.م) كما صاحب الأخ الثالث (غولوسة) الفاتلة الرومانى فى حملته على قرطاج.

وهكذا انتهت مشكلة «نوميديا» بانضمامها نهائيا مع الروم ضد قرطاج، غير أن قبائل البربر الموريثانية إنما قد انضمت إلى قرطاج ضد روما وبربر نوميديا، الأمر الذى يؤكد أنه - على الرغم من نجاح الرومان فى توطيد صلاتهم بالبربر، وتقوية روح الكراهية بينهم ضد القرطاجيين، على الأقل فى المجال الحربى - فإن هناك فريقا من البربر مايزال فى جانب القرطاجيين، هذا فضلا عن تقبل البربر للتراث القرطاجى - الأدبى والدين - والذى يتمثل فى استمرار اللغة البونية الجديدة، بعد اندحار القرطاجيين فى أعقاب الحرب البونية الثالثة - إلى جانب التأثير الكبير بالعقيدة القرطاجية^(٨٤).

هذا ويتميز عهد «ميسپسا» (Micipsa) (١٤٨ - ١١٨ ق.م) بن ماسينيسيا: بازدياد حجم التبادل بين روما وإيطاليا، وبين النوميديين، ومن ثم فقد أصبحنا نسمع كثيرا عن العديد من التجار فى العاصمة «قرطة»، وعندما توفى انتقل حكم نوميديا إلى اثنين من أخوته، فضلا عن ابن أخ لهما يدعى «يوجورثا» (يوغرطه - Jugurtha)، حفيد «ماسينيسا»، والذى كان يحظى بتأييد رجل الدولة الرومانى «سكيبىو إيميليانوس» (Scipio Aemellanus) - كما كان جده «ماسينسا» يحظى بتأييد سكيبىو الأفريقى^(٨٥).

وانتهت الأمور فى عام ١٦ قبل الميلاد، بأن قسمت روما «مملكة نوميديا» إلى مملكتين، الواحدة: شرقية يحكمها «أدهربال»، وتمتد من حدود الدولة القرطاجية القديمة - والتي أصبحت الولاية الأفريقية الرومانية - وحتى حدود «قرته»، والأخرى: غربية، وتمتد حتى الحدود الشرقية للمغرب الأقصى أى وادى ملوية، ويحكمها «يوجورثا».

غير أن «يوجورثا» سرعان ماثار على هذا الوضع، واستولى على «قرطة»، وأعاد الوحدة السياسية مرة أخرى لنوميدية - المملكة البربرية - تحت رياسته، وهو

(٨٤) رشيد الناضورى: المرجع السابق ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٨٥) ب. هـ. ولرمجنون: المرجع السابق ص ٤٧١ - ٤٧٢.

أمر، لاشك في أنه يتعارض تماما مع السياسة الرومية، وقد يؤدي - في نفس الوقت - إلى تكوين قوة بربرية جديدة لها شأنها في المغرب، يمكن أن تخل محل القوة القرطاجية القديمة، ومن ثم فقد انتهز الروم قتل «يوجورثا» لأفراد الجالية الإيطالية هناك، فأعلنوا عليه الحرب، وهكذا بدأ صراع عنيف بين يوجورثا والروم في الفترة (١١١ - ١٠٥ ق.م)، حقق فيها الرجل عدة انتصارات على الروم، بعد أن ألحق بهجوشهم هزائم منكرة، فخير أن روما سرعان ما لجأت إلى الخداع والمؤامرات حتى أمكنها الإيقاع به، وأخيرا غرر به حموه «يوخوس» (Bocchu) - ملك موريتانيا، وسلمه للرومان، بناء على اتفاق بين يوخوس والقائد الروماني «سلا» (Sulla)، وهكذا تحقق للرومان مايريدون من تقوية نفوذهم في المغرب، وقتل «يوجورثا» في عام ١٠٤ ق.م، ونال «يوخوس» ثمن غنمه بصهره إقليما كبيرا شرقى ملوية.

وسرعان ما نصبت روما عضوا آخر من أسرة «ماسينيسا» ملكا يدعى «غودة» أو «جوده» (Gauda)، ثم خلفه ولده «هيمبال» (Heimpsal) الذي خلعه أحد منافسيه قرابة أعوام خمسة (٨٨ - ٨٣ ق.م)، غير أنه أعيد مرة أخرى إلى الحكم لمدة تقرب من ثلاثة وعشرين عاما (٨٣ - ٦٠ ق.م)، ومن المعروف عنه أنه ألف كتابا عن أفريقيا باللغة اليونانية، وفي أكبر الظن أنه استمر في الخط الحضاري الذي بدأه أسرته.

هذا وقد تورطت نوميديا - في أخريات أيامها كدولة مستقلة - في الحرب الأهلية التي دمرت الجمهورية الرومانية، وذلك بسبب إهانة تلقاها «يوباء» (Juba) بن «هيمبال» (٦٠ - ٤٦ ق.م) على يد «يوليوس قيصر» باعتباره فتى صغيرا، الأمر الذي دفع «يوباء» إلى الانضمام إلى معسكر «بومبي» في عام ٤٩ قبل الميلاد، وقدم له قادرا كبيرا من المساعدة في أفريقيا، حتى قيل أن «يوباء» قد وعد بأن يتولى إمارة الاقليم الروماني في أفريقيا، إذ ما قدر لأنصار «بومبي» (١٠٦ - ٤٨ ق.م) أن يكسرو الحرب، غير أن النصر إنما كان من نصيب «يوليوس قيصر» (١٢٠ - ٤٤ ق.م) في معركة «نابسوس» (رأس الديماس على الساحل التونسي)، في عام ٤٦ ق.م، الأمر الذي أدى إلى انتحار «يوباء»، وفرض الحكم

الرومانى المباشر على نوميديا، فضلا عن تكوين ولاية جديدة - إلى جانب ولاية أفريقيا التى حلت محل الدولة القرطاجية - وقد دعيّت الولاية الجديدة، ولاية «أفريقيا الجديدة»، وهكذا بدأ الرومان يشبّتون أقدامهم فى المغرب، مما مهد فى السنوات التالية إلى احتلال كامل للمنطقة، واعتبارها جزءا من الإمبراطورية الرومانية (٨٦).

(٢٢) موريتانيا:

يذهب المؤرخون إلى أن تقدم المملكة الموريتانية - بصغة عامة - أكثر بطئا من نوميديا، وربما كان هذا التصور بسبب نقص المعلومات، غير أنه من الواضح أن الجزء الرئيسى لجبال أطلس إنما ظل حصنا للحضارة الفينيقية - مثلما كان فيما بعد حصنا للحضارة الرومانية - ومع ذلك، فلاريب فى أن هناك بعض التقدم فى حياة الاستقرار فى المناطق الخصبة مثل «وادي ملوية»، وعلى طول ساحل الاطلنطى، وفى المناطق الجبلية احتفظت القبائل المستقلة بشخصيتها خلال العصر الرومانى، وحتى بعد ذلك.

ومرت البلاد بفترة نزوح داخلى، حتى أصبحت فى عام ٣٣ قبل الميلاد، ومقتل «يوجود» فى عام ٣١ ق.م، خلوا من أى حاكم وطنى، وكان فى إمكان روما ضمها إليها مباشرة، غير أن القيصر «جايوس أوكتافوس» - ابن أخ يوليوس قيصر، والذي صار إمبراطورا يحمل لقب «أغسطس» (٢٧ ق.م - ١٤ م) - إنما رأى أن الوقت لم يعد بعد متاسبا، لكى تتولى روما الحكم المباشر، ربما خوفا من المشاكل العسكرية الكبيرة من جانب القبائل الجبلية.

وأيا ما كان الامر، ففي عام ٢٥ قبل الميلاد، نصب «يوبا» الثانى - ابن الملك النومي الأخير - ملكا، وهو الذى قضى طفولته منذ الرابعة من عمره فى ايطاليا، والذي أعاد تنظيم المملكة النوميديه مؤقتا فى الفترة (٣٠ - ٢٥ ق.م)، وقد استمر هذا الملك «يوبا الثانى» فى الحكم أكثر من أربعين سنة (٢٥ ق.م - ١٥ م)، كان خلال دونما ريب عميلا مخلصا للروم، وقد قام فى موريتانيا -

(٨٦) ب. هـ. وارمنجتون، المرجع السابق ص ٤٧١ - ٤٧٢، رشيد الناضورى، المرجع السابق ص ٣١١ - ٣١٢.

والى حد ما - بنفس الدور الذى قام به «ماسينسيا» فى توميديا، وإن كان الأمر الذى لاشك فيه أن عاصمته «إبول» Iol أمكن آخر الأمر من إخضاعها فى عام ٢١٢ ق.م قد صارت متحضرة فى عصره، كما صارت كذلك العاصمة البديلة «وليلى» (فولوبيليس - Volubillis) متحضرة أيضا (٨٧).

وعلى أية حال، فهناك من يذهب إلى أن «يوبيا الثانى» هذا، إنما كان يمد مواطني رومانيا، وأنه قد ارتبط بالزواج بالأميرة «كليوبترا» ابنة الملكة الشهيرة «كليوبترا» آخر ملوك البطالمة وأن عصره إنما يمد - من الناحية الحضارية - أقرب إلى الصفة الدولية، فقد كان يعتمد على كافة الثقافات الرومانية والقرطاجية واليونانية والمصرية، وقد دعم هذا الإجماع بتكوين مكتبة شاملة لمختلفة هذه الثقافات فى ذلك العصر، وأنه هو شخصيا على جانب من العلم والأدب، حتى نسب إليه تأليف عدد من الكتب بالإغريقية، وإن لم يوجد منها شيء الآن.

على أن تأثره بالثقافة الرومانية كان أكثر وضوحا من غيره، ربما بسبب نشأته الرومانية، ومن ثم فقد اتجه إلى النظام السياسى الرومانى، فضلا عن العقيدة نفسها، ومن هنا فإنه - على الرغم من أن البربر إنما كانوا يتمسكون بالمعبودات البرية الأصل، والتي أمن بها الفينيقيون والقرطاجيون سواء بسواء - غير أن «يوبيا الثانى»، إنما اعتنق عبادة الإمبراطور الرومانى «أوغسطس»، بل وشيد فى عاصمته «شرشال» معبدا للإمبراطور أوغسطس (٢٧ ق.م - ١٤ م) (٨٨).

وكانت الأسباب الرئيسية للثورة، مقاومة السكان الأصليين للإستيطان الرومانى، فلقد حمل الثائر التومدى (تكفاريناس) السلاح لإرغام أقوى إمبراطور وقت ذاك، على الإعتراف بحق شعبه فى أرضه، ذلك لأن الغز الرومانى إنما قد أدى إلى مصادر كل الأرضين الخصبة فى الحال، وخربت حقول التوميديين المستقرين، كما تقلصت، وأحيانا حددت المناطق التى تعارف التوميدون على

(٨٧) ب. هـ. ولرمنجتون؛ المرجع السابق ص ٤٧٣.

(٨٨) رشيد الناضوى؛ المرجع السابق ص ٣٢١ - ٣٢٣.

التجوال فيها، ووطأ المحاربون القدماء وغيرهم من الايطاليين والرومان بأقدامهم فى كل مكان، بادئين بأغنى أجزاء البلاد، واقتطعت شركات التزام جبائية الضرائب، وأعضاء الإرسطراطية الرومانية، وأعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ممتلكات ضخمة لأنفسهم، وبينما كانت بلادهم تستغل بهذه الطريقة، فإن الرعاة الأصليين، وكل السكان المقيمين الذين لم يسكنوا المدن القليلة الباقية بعد الحروب المتتالية، أو إجراءات المصادرة للملكية الشخصية، فهم إما تحولوا إلى فقر مدقع، أو طردوا إلى السهوب غير المشجرة، وإلى الصحراء، وصار أملهم الوحيد فى المقاومة المسلحة، وكان هدفهم الرئيسى من الحرب، هو استعادة أراضيهم^(٨٩).

وعلى أية حال، فلقد تبادل «تكفاريناس» مع الروم، النصر والهزيمة، طوال سنوات الثورة الثمانية، حتى تمكن الروم آخر الأمر من استخدام طريقة الكمائن المفاجئة ضد قوات «تكفاريناس»، وضاعفوا من مهاجمتهم لقواته، حتى تمكنوا آخر الأمر من التحكم فى الموقف، وقتل «تكفاريناس» عام ٢٤ م.

وجاء بعد «يوما الثانى» ولده «بعليموس»، الذى ظل يحكم موريتانيا فى الفترة (٢٣ - ٤٠ م) ثم استدعاه الإمبراطور «جايوس كاليجولا» (٣٧ - ٤١ م) وأعدمه لسبب غير معروف، على وجه اليقين، على رأى، ولأنه اجتذب انتباه الحاضرين بزيه الأرجوانى اللون فى حفل رسمى فى عام ٤٠ بعد الميلاد، على رأى ثان، غير أن السبب الحقيقى إنما يرجع، دونما ريب - إلى أن الرومان إنما كانوا يرغبون فى الإستيلاء على المناطق شبه المستقلة فى الغرب، ثم ضمها إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية، وقد تحقق لهم هذا الأمر، ومن ثم فقد أنشئت ولايتى موريتانيا القيصرية والطنجية، داخل نطاق المغرب الرومانى.

وهكذا أصبح المغرب يتكون من أربع ولايات رئيسية هى: أفريقيا ونوميديا وموريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية، وقد امتدت الولاية الإفريقية فى جانبها

(٨٩) حمار مجسمى: العصر الرومانى وما بعده فى شمال أفريقيا - كتاب تاريخ أفريقيا العام - نورينو ١٩٨٥ ص ٤٧٦.

الشرقي حتى مدينة طرابلس، وفي جانبها الغربي حتى مدينة عنابة، بينما تركزت ولاية نوميديا في شرقي الجزائر، ولما ولايتا موريتانيا - القيصرية والطنجية - فتحتل مناطق غربي الجزائر والمغرب الأقصى، ويفصل بينهما نهر «ملوية» (مولوكا - Mulucha) وكانت مدينة «شرشال» عاصمة لموريتانيا القيصرية، ومدينة «طنجة» عاصمة لموريتانيا الطنجية»^(٩٠).

(٩٠) رشيد الخاضوري، المرجع السابق ص ٣٢٥، ٣٢٢.

الباب الخامس

إيران وآسيا الصغرى

الفصل الأول

إيران

(١) فيما قبل العصر الإخميني

تقديم:

لعل من الجدير بالإشارة أن الباحثين إنما يستخدمون تعبيرين للإشارة إلى منطقة جغرافية واحدة، وإن كانا ليسا مترادفين تماما، وأعني بهما: إيران وفارس:

١- إيران: وهي التسمية الأقدم، وقد جاءت في الأوستا «إيربانا فيجا»، بمعنى «موطن الآريين» و«الإيرانيين»، ثم تطورت إلى «بلاد إيران»، هذا وقد استخدم الجغرافي مصطلح «بلاد إيران» (إيرانا)^(١).

والآرى: بمعنى «نبيل أوسيد» وهي تسمية عامة لهؤلاء القوم الذين قدموا إلى هذه المنطقة - فيما بين نهري الجايج والفرات، عند نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى قبل الميلاد^(٢).

٢- فارس: وأول من أطلق هذا الاسم هم الأغارقة، ولعل اشتق من إقليم «بارسا» (Parsa)، ثم حُرف إلى «برسيس» (Persis)، ثم أسماه العرب «فارس»، وربما استبعد إقليم «بارسا» شهرته من أنه مسقط رأس الملوك الهخامنشيين الذين أسسوا البيت الفارسي الحاكم، ثم أطلق الأغارقة هذا الاسم على الإمبراطورية الإيرانية، ومن ثم فقد عرفت باسم «الإمبراطورية الفارسية»^(٣).

وعلى أية حال ففي عام ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م، طلبت الحكومة الإيرانية من الدول الأجنبية أن تطلق على بلادها رسميا إسم «إيران»^(٤).

(١) أحمد أمين سليم: إيران من ٧-٨ (وسترجع إليه بعد ذلك عدة مرات)، عبد الحميد حسيني: الإيرانيون القدماء - القاهرة ١٩٧٤ ص ١١، طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ٣٧٣/٢ (بغداد ١٩٥٦).

وكنّا: E.Herzfeld, Iran in The Ancient East, Oxford, 1941, p. 192.

وكنّا: R.N.Frye, The Heritage of Persia, London, 1963, p. 2.

(٢) طه باقر: المرجع السابق ص ٣٧٣.

(٣) أحمد سليم: المرجع السابق ص ٨.

وكنّا: B.Dicks, The Ancient Persia.. London, 1979, p. 14.

(٤) دونالد ديكس: إيران ماضيها وحاضرها ص ١ (مترجم - القاهرة ١٩٥٨).

وأما أهم المدن والمواقع الأثرية في إيران فهي:

(١) بهستون: قرية بين همدان وحلوان، وعلى مسبعة ٤٨ كيلا شرق «كرمنشاه» وقامت بالحفر في الموقع بعثة انجليزية في الفترة (١٨٣٦ - ١٨٤١م) برئاسة «سير هنري رولنسون» وقد تمكنت من الكشف عن نقش للملك الفارسي «داريوش» (دارا الأول ٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م). وقد نحت في صخرة عالية هناك.

ثم قامت بالحفر هناك بعثة أمريكية في الفترة (١٩٤٨ - ١٩٤٩م)، وقد عثر «كارلتون كورن» في «كهف بهستون» هذا في عام ١٩٤٩م، على بقايا عظام إنسانية مثل «عظمة الزند» وأحد الأسنان، فضلا عن بعض الأدوات الموشية، إلى جانب كمية كبيرة من السكاكين ذات التقنية التي تفوق مثيلاتها في المناطق الأخرى^(٥).

(٢) تبة جيان:

تقع جنوب غرب مدينة «نهابوند»، شرق «كرمنشاه» بمنطقة «لورستان» وعلى ارتفاع حوالي ١٨٠٠ م فوق سطح البحر، في آخر الأودية التي تتناخم شمال جبال لورستان، وكانت تقع على الطريق الذي يصل ما بين «حارسين» و«دلفان» و«على أشتار».

وهناك على مسبعة ٤٠ كيلا إلى الشمال الغربي منها، الطريق الذي يصل ما بين «حمدان» و«طهران»، حيث يسهل الوصول إلى «بلاد النهرين» (العراق) عن طريق «قصرى شيرين»، فضلا عن الوصول إلى «سوسة» عن طريق أودية لورستان، الأمر الذي أدى إلى اتصال «حضارة جيان» بـ «حصارات عصور ما قبل التاريخ» في العراق القديم من ناحية، و«سوسيانا» من ناحية أخرى، وقد ظهر أثر ذلك في إنتاج حضارة جيان في عصور ما قبل التاريخ.

هذا ويقع الموقع الأثرى شمال «قرية جيان» مباشرة، ويصل لارتفاعه إلى حوالي ١٩م، وطوله يزيد عن ٣٥٠ م، وتشغل الجبانة معظم التل الأثرى.

(٥) أنظر عن «بهستون» (أحمد سليم، المرجع السابق ص ٣٨، ٨٨، أحمد ضوى: دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ٢١٩، جواد على: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٧/١ «بيروت» ١٩٦٨).

هذا وقد قامت بعثة فرنسية - برئاسة جورج كوتنيو، ورومان جرشمان - بعمل حفائر في موقع «تبه جيان» في عام ١٩٣١/١٩٣٢، بإشراف متحف اللوفر بباريس.

وقد عثر على نوعين من الفخار في الطبقة الخامسة - من العصر الحجري الحديث - أولهما: صنع من عجينة خشنة ومسامية، وجدرانها سمكية، وحوافه غليظة، والثاني: صنع من عجينة جيدة وخالية من الشوائب.

وأما التتبع للزمن لعصر حضارة جيان الخامسة (أ) فيذهب «ديسو» إلى تحديدها بالفترة فيما بين عامي ٤٨٠٠، ٤٥٠٠ ق.م^(٦).

(٣) تبه حصار:

وتقع بالقرب من «دمغان» - والتي على مبعدة ٣٦١ كيلا شرق طهران - وقامت بعثة أميركية مشتركة من «متحف بنسلفانيا للفن»، والمعهد الأمريكي للفنون والآثار الفارسية - تحت إشراف إريش ف. شميدت (Erich. F. Schmidt) - في عام ١٩٣١/١٩٣٢ م.

هذا وقد تميز موقع تبه حصار - على مبعدة ٣ كيلا من مدينة دمغان - بأهميته طوال العصور التاريخية لموقعه على الطريق التجاري الذي يمر بشمال إيران.

ولعل من الجدير بالإشارة أن «عادة وأد البنيات» ربما وجدت في «تبه حصار»، اعتماداً على ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال، وأن ذلك بسبب «وأد البنات» في سن الطفولة - كنوع من التضحية البشرية^(٧).

هذا فضلاً عن انتشار عادة الزواج بين الأخ وأخته، وقد كانت منتشرة في

(٦) أحمد سليم: المرجع السابق ص ٤٠، ٤١ - ١٥٨ - ١٦١.

وكذا G. Contenau et E. Ghirshman, Fouilles du Tepe- Giyon Pres de Nehavend (1931- 1932), Paris, 1935, p. 1 - 3, 62-63.

(٧) أنظر عن التضحية البشرية في مجتمعات الشرق الأدنى القديم (محمد يرمي مهرا، بنو إسرائيل ١٥٢/١ - ١٦٣ (ط ١٩٩٩)، مصر ٤٠١/٢ - ٤٠٢، المدن الفينيقية ص ٣٤٥ - ٣٥٣، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١٧٧/١ - ١٨٠ (ط الرياض ١٩٨٠، ط بيروت ١٩٩٠، ط الإسكندرية ١٩٩٥).

غربي آسيا، ثم ظلت بين الفرس، فضلا عن عادة زواج المرأة بأكثر من زوج، ورغم عدم وجود أدلة مقنعة على ذلك، غير أن هذا الزواج قد وجد له شبيه في بعض مناطق الشرق الأدنى القديم^(٨).

(٤) تبة جانجي داره:

وتقع على مبعدة ١٤ كيلا جنوب بهستون، وعلى ارتفاع يصل فيما بين ١٣٠٠، ١٤٠٠ م ويصل عمق المخلفات الأثرية إلى ٧ م، ويمكن تأريخها بأواسط الألف التاسعة قبل الميلاد.

هذا وقد كشف فيها عن بقايا معمارية صلبة يصل سمكها إلى ٢٠ قدما، وكانت مساكنها بهدف الاستقرار الدائم، وإن لم يعثر على أية مخلفات فخارية في هذا الموقع لم يتوصلوا، بينما عثر على كميات كبيرة من العظام الحيوانية. وكان حجر الصوان هو المادة الرئيسية التي صنعت منها الأدوات الحجرية، ولم يعثر على أية أدوات مصنوعة من حجر الأوبسيدان، كما أن سكان هذا الموقع إلى مرحلة إنتاج الطعام.

هذا ويرجع بعض الباحثين إلى أن هذا الموقع (تبة جانجي داره) يرجع إلى فترة ما قبل العصر الحجري الحديث، والذي كان في هذه المنطقة في الفترة (١٠٠٠٠ - ٨٠٠٠ ق م)^(٩).

(٥) تبة جوران:

وتقع على نهر الكرخة، على مبعدة ٦٧ كيلا جنوبا كرمينشاه، ويصل ارتفاعها إلى حوالي ٩٥٠ قدما فوق مستوى سطح البحر، وتغطي بقايا الموقع الأثرية مساحة (١١٠ × ٨٠ م) وسمات الطبقات الأثرية حوالي ٨ م. هذا وتمتد زمنيا من حوالي منتصف الألف السابعة، وحتى منتصف الألف

(٨) أحمد سليم: المرجع السابق ص ٤١، ٢٣٤، ٢٥٢.

E.F.Schmidt, Excavations at Tep - Hissar Damghhan, Philadelphia, 1937, p. 25 - 29.

(٩) أحمد سليم: إيران ص ١٠٤ - ١٠٥.

T.C.Young and P.E.L. Smith, Research in The Prehistory of Central Western Iran, in Science, Vol, 153, No 3731, 1966, p. 387 - 388.

السادسة قبل الميلاد، وتعاصر حضارة جرمو في العراق القديم^(١٠)، وهي من أولى المواقع الإيرانية التي تدل بقاياها الأثرية على بداية الاستقرار البشري في الهضبة الإيرانية.

وتشير الحفائر إلى أن المساكن التي شيدت في الطبقة الأولى إنما كانت أكواخا بسيطة من الخشب، وكان سكانها من الرعاة، كما اشتغلوا بصيد بعض الحيوانات الضخمة، كالماشية البرية.

وقد كشف في الطبقات الأثرية الوسطى من «تبة جوران» - في بداية الألف السادسة قبل الميلاد - عن بعض أدوات الإنتاج الزراعي - كالرحى والمناجل - كما عثر على بعض حبوب الشعير المتكرنة، وقد عرف الإنسان إستئناس الحيوان - كالماعز - هذا وقد جمع الإنسان هنا بين الرعي والصيد، وبداية الزراعة المستقرة، وبالتالي فقد بدأت الأكواخ الخشبية تختفي، وأخذت المنازل تبنى بقوالب اللبن، فوق أساس من الحجر، ثم غطيت أرضية الحجرات بملاحق من الجص الأبيض والأحمر، واستخدم القوم أفران مقببة - كالتي في حضارة جرمو في العراق -.

هذا وقد بدأ الفخار يظهر في الموقع بعد الطبقات الثلاث الأولى، وهو عبارة عن أوان ذات لون رمادي داكن، غير مزينة، وبشكل خشن، وجدوان الأواني سميكة، وجوانبها أفقية أو مقوسة، ثم أصبح الفخار مصقولا، ثم الفخار الملون، ثم المزين باللون الأحمر، وفوق أرضية صفراء أو برتقالية، ثم الفخار الأحمر المصقول، وعليه طبقة لامعة، ويشبه فخار «سيالك الأولى»، وهو يعاصر «حضارة حسونة»^(١١) - سامراء في شمال العراق.

هذا وقد عرف إنسان هذا الموقع الصناعات الحجرية والعظمية، كما صنع من العظام بعض المخارز والدهابيس، وكان حجر الصوان، هو الحجر الرئيسي، كما عرف حجر الأوبسيدان، واستخدم الأصداق والطين المجفف في عمل أدوات الزينة، فضلا عن تماثيل النساء والحيوانات، وقد يشير إلى أهمية المرأة كأم.

وأما عن دفن الموتى، فقد عثر على دفنة واحدة في الطبقات الأولى، في قبر

(١٠) أنظر من حضارة جرمو (محمد بيومي مهران، تاريخ العراق القديم ص ١١ - ١٤).

(١١) أنظر من حضارة حسونة (محمد بيومي مهران، تاريخ العراق القديم ص ١٤ - ٢٠).

بيضاوى، وقد وضعت النجدة فى هيئة مفرقة (١٢).

(٦) تل باكون:

يقع تل باكون على مبعدة ٢ كيلا جنوب «برسيبوليس» فى إقليم فارس، شرق إقليم خوزستان، فى سهل «ميرف داشت»، ويتكون من تلين أ، ب، وتشير الأدلة الأثرية إلى أن الاستقرار البشرى إنما بدأ فى «تل باكون ب» منذ العصر الحجري الحديث.

وتتميز الموقع بأنه منطقة مراعى، وقد اعتمد الاستقرار البشرى فيه، فضلا عن الزراعة، على مياه الأمطار، هذا وتعتبر مرحلة «باكون ب» من أقدم مواقع العصر الحجري الحديث فى منطقة فارس، ويؤرخ - عن طريق كربون ١٤ - بحوالى الفترة ٤٢٢٠ ± ٨٣ ق.م - وكان الفخار فيه غير ملون، وخال من الزينة، وإن ظهر الفخار الملون فى الطبقات العليا (مرحلة باكون ب ٢)، وأما «باكون أ ١» فهى المرحلة التالية من عصور ما قبل التاريخ فى إيران (١٣).

(٧) تبة سيالك:

تقع تبة سيالك على مبعدة ٣ كيلا، جنوب غرب كاشان، فى واد مرتفع يصل إلى حوالى ١٠٠٠ م فوق سطح الأرض، على الحافة الغربية للصحراء الإيرانية الكبرى، على مقربة من سلسلة الجبال التى تمتد المنطقة بالمياه من الأمطار التى تسقط عليها.

وموقع «تبة سيالك» مهيئ جغرافيا لأن يكون محطة هامة على الطريق التجارى، الذى تشعب منه الصحراء، وتتصل بالمركز المزدهر فى «جبال البرز» وغيره من مراكز غربى وجنوب غربى إيران، وكشفت الطبقات الأثرية فى الموقع عن اتجاه السكان للتبادل التجارى مع المناطق الواقعة إلى الغرب منها، فى المرحلة الأولى والثانية من سيالك، ومع المناطق الواقعة إلى الشرق منها فى المرحلة الثالثة،

(١٢) أحمد سليم: إيران من ١١٥ - ١١٩.

(١٣) نفس المرجع السابق ص ١٦٦ - ١٧٩.

M.Mallowan, The Development of Cities from Al- Uleaid to The End of Urjk, 5, in CAH, I. Part, I, Camleridge, 1976, p. 441 - 442.

ثم إلى المناطق الواقعة إلى الغرب منها في المرحلة الرابعة^(١٤).

ويتكون الموقع من تلين، يفصل بينهما ٦٠٠ م، أقدمها التل الشمالى، إذ كشف عن إتباع للمرحلة الأولى والثانية، ثم التل الجنوبى حيث كشف عن المرحلتين الثالثة والرابعة، ويبلغ ارتفاع المخلفات الإنسانية فيهما حوالى ١٤ م.

وتسمى حضارة «سيالك» إلى نهاية العصر الحجري القديم، لم يعرف فيها القوم بناء المنازل، وإنما كانت «دورة» من المواد الخفيفة، ثم تطورت إلى جدران من الطين، ورغم استمرار الفرد فيها صياداً، فقد استأنس بعض الحيوانات - كالماشية والأغنام - كما بدأ مرحلة الزراعة، وصنع الفخار (أسود أو أحمر)، وزخرف أوانيه التلى كانت محاكاة للسلال، وكانت الآلة من الحجر، وقد عثر على سكاكين وفؤوس.

واستعمل أدوات الزينة - كالدلايات والأساور والخواتم - كما استعمل «الوشم»، كما بدأ الحفر والنقش فى العظام، وقد عثر على مقابض بعض الأدوات مزينة بما يمثل غزال أو أرنب، فضلاً عن مقبض سكين فى هيئة إنسان يلبس قلنسوة، ويغطى عورته لزلز، مثبت بحزم، وهى تعد من أقدم تماثيل الشرق الأدنى القديم.

وكان القوم يدفنون موتاهم تحت أرضية المنازل فى وضع «مقرفص»، وربما اعتقدوا فى البعث لوجود بعض الأثاث الجنائزى، والتقدمت مع الموتى.

ويرجح بعض الآثاريين توصل القوم إلى معرفة النحاس واستخدمه فى بعض الأغراض كحمل الدبابيس، ومن ثم تصيح إيران - إن صح ذلك - أول من استخدم النحاس فى العالم القديم، وبالتالي لا تصيح «سيالك» من العصر الحجري الحديث.

وأما «سيالك ٢» فتعاصر حضارة البندارى فى مصر^(١٥)، وحضارة العمق

(١٤) أحمد سليم : المرجع السابق ص ١٤٢ - ١٤٥.

V.G.Child, New Light on The Most Ancient East, London, 1964, p. 191.

R.Ghirshman, Fouilles de Sialk, Pres de Kashan, 1933, 1934, 1937, Vol. I, Paris, 1938, p. 5, 9, 34.

(١٥) أنظر عن حضارة البندارى (محميد موسى مهرافز، مصر ٢٤٧/١ - ٢٥٧ (الإسكندرية ١٩٨٨).

(ج) فى سوربة؁ وفبهما بدأ القوم يستعملون اللبن؁ بدلاً من الكتل الطينية التى كان يستعملها فى بناء المنازل؁ والتى كان شكلها بيضاويا؁ وكانت متسعة؁ ومغطاة باللون الأحمر؁ وتزود بالأبواب أو بمنافذ تغطيها ستائر؁ وكان الموتى يدفنون فيها؁ كالحضارة السابقة.

وتقدمت صناعة الفخار؁ وزينت بمنابر حيوانات وطيور رسمت بلون أسود على أرضية حمراء؁ وكثر استخدام النحاس؁ وأزدوات الزينة؁ واستخدم فيها مواد جديدة كالعقيق؁ وغيره من الأحجار البراقة؁ واستأنس القوم كلاب الصيد؁ والخيول الصغيرة الحجم؁ فضلا عن الماشية والأغنام التى استأنسها القوم من الحضارة السابقة.

وفى حضارة سيالك ٣: ظهر تطور معمارى؁ وأصبح شكل اللبن منتظما؁ بعد أن صار يصب فى قوالب؁ وأصبحت القرى تكثر فيها ممرات طويلة ضيقة ومتعرجة؁ وزودت المنازل بأبواب ونوافذ صغيرة ضيقة؁ وساعد على زيادة إضاءتها أنها كانت ذات مداخل ومخارج أو فجوات؁ على أعماد منتظمة؁ وكانت تزينها من الخارج قطع من الأواني الفخارية الكبيرة؁ يرجع أنها لبيت فى الجدران لحمايتها من الرطوبة؁ كما كانت تطلّى باللون الأحمر أو الأبيض؁ وظل الموتى يدفنون تحت أرضية المنازل؁ وفى الوضع المرفص؁ وزادت كمية الأثاث الجنزى؁ وكثرة التقدّمات.

هذا وينسب لهذا العصر «عجلة الفخار» التى ساعدت على إنتاج أشكال مختلفة من الأواني؁ كما أدخلت أنواع عديدة من الزخارف؁ مرت بمراحل ثلاثة؁ وترجع هذه المرحلة إلى العصر الذى ظهرت فيه الكتابة فى العراق؁ كما أنتجت هذه الفترة تماثيل صغيرة؁ تمثل إلهة الأمومة؁ فضلا عن أنواع مختلفة من الحيوانات ولعب الأطفال.

وأصبح النحاس فى هذه الحضارة يصهر ويصب فى قوالب لعمل أدوات مختلفة؁ وإن ظلت الآلات الحجرية مستعملة كذلك؁ وتعددت أدوات الزينة؁ وزاد استعمال الأحجار شبه الكريمة؁ هذا وكان اتساع التجارة سببا فى أن يميز الصناع صناعتهم بعلامات مميزة؁ فاستخدموا ختما من الحجر؁ على شكل مخروط؁ كان فى بداية الأمر ينقش بزخارف هندسية الشكل؁ ثم وضعت بعد ذلك رموز أخرى من الكائنات الحية؁ والنباتات التى كانت تستوحى من رسوم الفخار.

هذا وقد انتظمت الجماعات المختلفة فى مدن كبيرة فى مناطق السهول - وخاصة فى «سوسة» فقد ظهر أول حكومة مدينة فى عيلاام، غير أن قلة السكان وتفرقهم فى المناطق الأخرى من الهضبة، وفى أماكن متباعدة، إنما كان سببا فى تأخر نمو هذه الجماعات، وانتظامها فى مدينة كبيرة.

ثم أخذت صناعة الفخار والمعادن تخطو فى تقدمها خطوات موحدة تقريبا، وإن وجدت مميزات خاصة بكل منطقة، الأمر الذى أدى إلى تطور الحضارة فى منطقة عيلاام، قبل دخولها فى العصر التاريخى.

ولعل من الجدير بالإشارة أنه وجد فى «سيالك» آثار حريق وتدمير بعض المساكن التى تنسب إلى «سيالك ٢» وإقامة مساكن أخرى فى مكانها، اختفى الفخار الملون منها وحل مكانه فخار أحمر أو رمادى، يشبه فخار سوسة، هذا وقد أصبح الختم للإسطوانتى يستعمل بدلا من الختم المخروطى، مما يدل على إدخال الكتابة على الألواح الطينية، ثم ظهرت «الكتابة قبل العيلامية» فى ألواح وأثار، وجدت مع هذه الأختام.

هذا وقد دخلت هذه العناصر - التى أتت بالكتابة «قبل العيلامية» إلى سوسة - إلى منطقة «سيالك» فى غزوة وحشية، ومن المرجح أنها كانت أقوى وأغنى من سكان المنطقة الأصليين، ذلك لأن وجود مظاهر حضارية - من تلك التى أحدثوها فى سوسة - بمنطقة سيالك، مع ماصاحبها من آثار تدمير وحريق، إنما يشير إلى أن هذه الحضارة قد فرضت بالقوة، خلافا لما حدث فى المنطقة الشمالية، حيث تسالت إلى هذه الأخيرة العناصر المسالمة التى يحتمل مجيئها من التركستان أو من السهول البعيدة فى وسط آسيا، وقد أتت معها بالفخار الأسود والرمادى، وانددمجت مع السكان الأصليين.

وتتميز منازل هذا العصر بأنها بنيت بعناية، وقد زوّدت عند مدخلها بموقد، قسم إلى قسمين: أحدهما للطعام، والآخر للخبز، وإلى جانبه إناء للماء، وقد عثر فيها على أثاث خشن الصنع.

وكان الموتى يدفنون تحت أرضية الحجرات، وتوضع معهم مهمات جنزبه، وتقدمات مختلفة، كأدوات الزينة من اللرايا النحاسية، وأواني من المرمر وغيرها، وقد زين الموتى أنفسهم بحلى كثيرة، كالدلايات المطعمة بالذهب أو الفضة، وأقراط مزينة بقطع من الذهب، وأساور من فضة، وعقود طويلة خمرزا من أحجار بيضاء،

ومن الذهب والفضة، ويوحى تعدد المواد، ورقى الصناعة، بأن هذه الحلى قد صنعت في «سوسة» أو بلاد العراق، حيث عثر على شبيهة لها في مقابر أور الملكية.

هذا وقد ظهرت الكتابة في حضارة سوسة، والتي توغلت إلى وسط هضبة إيران، وهي كتابة متقدمة عن الكتابة التصويرية البهتة، وقد وجدت وثائق مكتوبة - قبل عصر الإخمينيين - في داخل الهضبة، والتي تأثر بحضارة عيلام، وربما كان هذا التأثير أرى عن طريق توسع سياسى عيلامى، ربما لخدمة أغراض تجارية، على أن هذه التأثيرات الحضارية التي أتت إلى إيران لم تأت من منطقة واحدة، أو في وقت واحد، أو بدرجة واحدة، ومع ذلك فقد امتصتها، بل ونشرت ثقافتها في جيرانها، ومثلنا ذلك النوع من الفخار المزخرف الذى انتقل إلى العراق، وكان شائعاً في إيران - في ميالك وحمار - (١٦).

(٢) العواصم الإيرانية (الفارسية)

كانت العاصمة الإيرانية - أو الفارسية - شأنها شأن غيرها في كثير من الدول - قد تغيرت أكثر من مرة، بل ربما كانت توجد أحياناً أكثر من عاصمة في وقت واحد.

وعلى أية حال، فلقد كان مقر الحكومة المركزية في «إقليم فارس»، حيث كان يوجد الملك - كرئيس للجهاز الإدارى - وكان يوجهه في سرعة ودقة إلى الهدف المقصود، وهو السيطرة على الولايات، حتى لا يخرج عن طاعته، وكان يستعين في ذلك بقوة وشجاعته، وسلطانه، وأما عواصم الإمبراطورية الفارسية فهي:

١- سوسة:

إختار «كبيروش» مدينة «سوسة» (سوما) عاصمة عيلام، لتكون مركز إدارته، عندما كان حاكماً لإقليم «أنشان» - وربما كانت مدينة «مسجيدى سليمان» الحالية - والتي أصبح يحكم منها حتى أسس عاصمته «بازار جاده» (Pasargadiae).

(١٦) محمد أبو الحسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم - الإسكندرية ١٩٦٨ ص ٣٩٩ - ٤٠٧.

R.Ghirshman, Iran, p. 48 F. وانظر:

ومدينة «سوسة» هذه، إنما هي واحدة من المدن القديمة، وقد جاء اسمها في سجلات الملك الآشوري «أشوربانيبال» (٦٦٨ - ٦٢٧ ق.م)، وذلك عندما استولى عليهما في عام ٦٥٠ قبل الميلاد.

ثم صارت للبابليين، بعد اقتسام المملكة الآشورية بين البابليين والميديين، حيث استولى الميديون على قسمها الشرقي، وأخذ البابليون جنوبها، واضطرت الحكومة الآشورية - بقيادة الملك «أشور - أو بلط الثاني» (٦١٠ - ٦٠٩ ق.م) - أن تجعل من «حران» - وتقع على نهر بلخ، على بعد ٩٦ كيلا من اتصاله بالفرات - عاصمة لها، بعد سقوط «نينوى» - على بعد ٤٠ كيلا، من التواء الدجلة بالزباب الأعلى، قبالة الموصل - في أغسطس من عام ٦١١ ق.م، ثم أعقبها «حران»، في عام ٦٠٩ قبل الميلاد^(١٧).

هنا وقد ذكرت «سوسة» في التوراة باسم «شوشن القصر»^(١٨)، و«شوشان القصر»^(١٩).

وتشغل «سوسة» هذه الأيام موضع قرية «شوش أو سوس» بين نهري الخرجة وأولاي، وتشغل خرائبها مسافة محيطها حوالي ٥ كيلا، وتتكون من أربعة أكوام. هذا وقد كشفت الحفريات عن «قصر دارا العظيم»، هذا فضلا عن النص الحالي لقانون «حمورابي»، إنما كشف عنه في هذه العاصمة العيلامية (سوسة) في شتاء عام ١٩٠٢/١٩٠١ م، بعثة فرنسية برئاسة «جاك دي مورجان»، ثم نقل إلى متحف اللوفر في باريس، وكان قد نقله الملك العيلامي «شترك نخخته»، ربما حوالي عام ١١٥٠ قبل الميلاد^(٢٠).

(١٧) محمد بيومي مهران: الحرب وعلاقتهم الدولية في العصور القديمة - الرياض ١٩٧٦ ص ٣٤٩، تاريخ المشرق القديم - الاسكندرية ١٩٩٠ ص ٤٣١، وكذا A.H.Gardiner, op.cit, p. 258

وكذا G.Roux, op.cit, p. 346-347 وكذا A.L.Oppenheim, ANET, p. 303-305

وكذا C.J.Gadd, The Fall of Nineveh, London, 1923.

(١٨) نحميا ١/١، استرا ١/٢.

(١٩) دانها ٢/٨، وكذا A.Poebel, The Name of Elam in Sumerian Akkadian and Hebrew, AJSL, 48, p. 20F

(20) H.Schmoker, Geschichte des Alten Vorderasien, Leiden, 1957, P.III.

وكذا J.Meek, ANET, p. 163-164.

ولعل من الجدير بالإشارة أن «كيروش» - بعد أن أسس عاصمته الجديدة «بازارجادة»، وبنى فيها قصرًا له، إنما كان يقضى معظم وقته في «سوسة».

(٢) أكباتانا:

إنخذ «كيروش» مدينة أكباتانا (أكباتانا - Ecbatana) ومكانها الآن مدينة همدان الحالية - عاصمة لمملكته، ثم أصبحت بعد ذلك عاصمة صيفية.

(٣) بازارجادة:

أسس «كيروش» الثاني (٥٥٨ - ٥٣٠ ق.م) عاصمته «بازارجادة» (Pasargadae) والتي أصبحت - ولأول مرة - عاصمة بلاد فارس الموحدة (٢١)، بعد أن أصبح لها حاكم واحد، هو «كيروش» - أو «قورش».

وتقع «بازارجادة» أو «باسارجادي» (Pasargadae) إلى الشمال من مدينة «پرسوپوليس» (Persopolis) بحوالى ٨٠ كيلاً، ومعنى اسمها في الفارسية «مخيم القوس»، ومكانها - على وجه التحديد - الخرائب المعروفة في الوقت الحاضر باسم «مشهدى مرغاب».

وهناك رواية تذهب إلى أن «قورش» قد اختار مكانها، لأنها في مكان الموقعة الحاسمة التي انتصر فيها على «إستياجز» - آخر ملوك الميديين -.

وظلت سوسة - كما أشرنا من قبل - على أهميتها، بعد تأسيس العاصمة الجديدة (بازارجادة) وبنى فيها قصرًا، كما عمر أيضًا في بابل، في قصر «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) في الجزء الشمالي من المدينة.

(٤) پرسوپوليس:

لم يقتنع «دارا الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) بهذه العواصم القديمة، وقد بلغ نفوذ الفرس غايته في عهده، فامتدت دولته من البحر الأبيض إلى نهر السند، وأواسط آسيا، وشملت مصر وسورية وفينيقيا وليبيا وأرمينيا والقوقاز، وأشور وبابل، وميديا وفارس، وأفغانستان وبلوخستان، وجزءًا من الهند.

(٢١) سميت إيران باسم «فارس»، نسبة إلى الإقليم الذي كانت فيه عواصم الدولتين الأخمينية، (الهيخامنشية عند الفرس، والإكمنية عند اليونان) والساسانية، وأطلق الجزء على الكل، كما سميت اللغة التي يتحدث بها الإيرانيون باسم «اللغة الفارسية» نسبة إلى هذا الإقليم أيضًا، ويحتل الدولتان - الإكسية والساسانية - مكانه كبيرة في نفوس الفرس أو الإيرانيين، لأنهما الدولتان اللتان تحقق فيهما الاستقلال الفارسي، ويبلغ مجد إيران فيهما ذروته (عبد المعصم حسنين، المرجع السابق ص ٤١٨ هامش ١).

وعلى أية حال، فلقد استقر رأى «دارا» على إنشاء عاصمة جديدة فى موطن قومه - أى فى فارس - و«برسيبوليس» هى نفسها البلد المعروف باسم «إصطخر» (Stakhra) - أى الحصن - والتي عرفت فى أيام العرب باسم «إصطخر».

ومن عجب أن بعض المؤرخين العرب إنما يذهب إلى أن ملك «سليمان» عليه السلام، إنما وصل إلى اليمن، بل إن الخيال ليذهب بالبعض الآخر، إلى أن يجعل عاصمة سليمان بعيداً - فى «إيران»، حيث اتخذ من «إصطخر» التى ينسبون إليه - أو إلى جده - أمراً بناتها، مقراً لحكمة، وعاصمة لبلاد^(٢٢).

وليت الذين ذهب بهم الخيال إلى هذا الحد، يعرفون أن المدينة الفارسية (برسيبولس = إصطخر Stakhra) إنما قد بدىء فى بنائها حوالى عام ٥٢٠ قبل الميلاد، على أيام الملك الفارسى «دارا الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م)، ولكن البناء لم يتم إلا فى عهد الملك «أرتاكزركسيس الأول» (أرتخششا الأول ٤٦٤ - ٤٢٤ ق.م) حوالى عام ٤٦٠ قبل الميلاد.

وإذا تذكرنا أن سليمان عليه السلام، إنما كان يحكم فى الفترة (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م)^(٢٣)، نتبين لنا أن للمدينة إنما قد بدىء فى بنائها، بعد وفاة النبي الكريم، بحوالى أربعة قرون^(٢٤)، بقيت الإشارة إلى أن مدينة «برسيبوليس» إنما تعرف فى الفارسية باسم «تخت جمشيد»، كما تعرف «بازار جادة» - فى الفارسية أيضاً - باسم «تخت مادر سليمان».

هذا فضلاً عن أن الملك الفارسى، إنما كان يدبر شئون ولايات إمبراطوريته من أية واحدة من عواصمه - الآنف الذكر^(٢٥).

بقوت الإشارة إلى أن ما عثر عليه من خرائب مدينة «بزر جادة» إنما يثبت أنها مدينة فارسية أصيلة، لم تدخل عليه عناصر غريبة، ذات أهمية.

(٢٢) على إمام عطية: الصهيونية المالية وأرض اليعازر ص ٧١، ٧٢، وانظر: معجم باقوت الحموى ٢١١/١ (هروت ٢١٩٥٥)، محمد يوسى مهران: إسرائيل ٨٠٣/٢.

(٢٣) أنظر من فترة حكم سليمان عليه السلام (محمد يوسى مهران: إسرائيل ١٤٥/٢، تاريخ العرب القديم ٥٢٠/٢).

(٢٤) محمد يوسى مهران: إسرائيل ٨٠٣/٢ - ٨٠٤ (الإسكندرية ١٩٧٨).

(٢٥) عبد النعم وأخرون: حضارة مصر والشرق القديم ص ٤٣٥.

وأما مدينة «هرسوبوليس» = «هرسيبوليس» ففيها عناصر مختلفة من العمارة والزخرفة، وفيما عثر عليه من تماثيل ولوحات وحلى وغيرها، نرى فيها آثاراً من فنون أواسط آسيا، وهلاذ الراقدين وآسيا الصغرى وسورية، ومصر، على الأخص. هذا ورغم ما تعرضت له بقايا القصور والدور الحكومية والمعابد في «هرسيبوليس» فإن هذه البقايا إنما تشهد بمقمة وفخامة تلك المباني. على أن الذي يحز في النفس، ويسجله بالعار على الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) أنه أقام وليمة كبيرة، أفرط فيها الجميع في الشراب، ثم قام الإسكندر بحرق المدينة، ليرضاء لإحدى محظياته، التي كانت تكره الفرس (٢٦).

(٢٦) أحمد فخري المرجع السابق ص ٢٢٩،
E.Herzfeld, Archaeological History of Iran, 1935. وانظر،

الفصل الثاني آسيا الصغرى

تقديم:

آسيا الصغرى: شبه جزيرة بأقصى غرب آسيا، تدعى «الأناضول»، يحدها البحر الأسود شمالا، والبحر المتوسط جنوبا، وبحر إيجه غربا، ويصل البحر الأسود وبحر إيجه، بحر مرمرة، ومضيق البوسفور والدردنيل.

هذا وغرب الحد الجنوبي لآسيا الصغرى تمتد جبال طوروس، بينما يتكون باقى شبه الجزيرة من هضبة تعلوها الجبال، وتكثر بها البحيرات.

وكانت آسيا الصغرى ملتقى الحضارتين الشرقية والغربية فى العصور القديمة، إذ يربطها نهرا دجلة والفرات بالعراق، وتربطها سواحلها باليونان، وبعد تدهور «الدولة الحيثية» ظهرت للمستعمرات اليونانية على السواحل، وبهذا اتصل اليونانيون بليديا وفريجيا وطروادة، وأدى غزو الفرس لآسيا الصغرى للحروب الفارسية، وأدمج الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) الإقليم فى إمبراطوريته، وبعد وفاته قسمت إلى ولايات صغيرة، ثم وحدها الرومان من جديد ولكنها كانت موضع مستمر من الغزاة فى ظل الإمبراطورية البيزنطية، وسقطت بيد العرب والأتراك السلاجقة، واستعادها الغرب مؤقتا على أيدي الصليبيين، واستولى عليها الأتراك العثمانيون فيما بين القرنين ١٣، ١٥ م، ودخلت بعد ذلك ضمن الإمبراطورية العثمانية، وكانت عاصمتها «القسطنطينية» وفى عام ١٩٢٣ م، أصبحت «أنقرة» عاصمة لتركيا.

وأما أهم المدن والمواقع الأثرية فى آسيا الصغرى فهى كالتالى:

١- أرثو (أرزاوا):

أرثو: هى «أرزاوا» بالبابلية، وهى معروفة من رسائل المماونة، وسجلات «بوغازكوى» وهى ليست مدينة، وإنما هى بلد - أو عدة بلاد - وهناك شبه اتفاق بين العلماء على أن «أرزاوا» إنما تقع على ساحل البحر المتوسط، فى الجهة الغربية من الجنوب الغربى من بلاد «خاني»، وتشغل المنطقة التى احتلتها أعيرا «بامفيليا» (Pamphylia).

وأما لغة أرزوا، فقد عرفت - للمرة الأولى - من خطابين من العمارنة، وتنتمي إلى «اللغة الهندو - أوروبية» ، وتنسب إلى اللغة الحيثية، وتعرف الآن باسم «اللغة اللوية» (Luwian).

هذا ونظهر «أرزوا»، وكأنها تحتل مركزا بارزا بين حلفاء الحيثيين في معركة قادش (حوالي عام ١٢٨٥ ق.م) بين رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) والحيثيين^(١).

وفي قائمة رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) - بمدينة هابو في طيبة الغربية - فإن «أرزوا» هي «أرثو»، وعلى أية حال، فهي قد ذكرت مرة - على الأقل، في عهد رعمسيس الثالث - في حملة السنة الثامنة^(٢) - إذ يرى رعمسيس الثالث، وهو يهاجم مدينتين حيثيين، أحدهما «أرزوا»^(٣).

٢- إيسوس:

مدينة في قلب آسيا الصغرى، تقع في عمق الخليج الذي يحمل اسمها، وفيها وقعت معركة إيسوس في عام ٣٣٣ ق.م، بين الإسكندر الأكبر، والملك الفارسي، «دارا الثالث» (٣٣٥ - ٣٣٢ ق.م)، وانتهت بانتصار الإسكندر، وفرار الملك الفارسي، تاركا والدته وزوجته في الأسر^(٤).

٣- بوغازكوي:

تقع «بوغازكوي» (Boghazkoy) على مبعدة ١٤٤ كيلا، شرق العاصمة التركية الحالية «أنقرة» ، على الهضبة المرتفعة التي في أواسط آسيا الصغرى، شرق نهر «هاليس» (Halys)^(٥).

(١) أنظر عن معركة قادش (محمد بيومي مهران: مصر ٢٥٢/٣ - ٣٥٦).

(٢) أنظر عن حملة السنة الثامنة من عهد رعمسيس الثالث (محمد بيومي مهران: مصر ٣٧٤/٣ - ٣٨٠).

(٣) A.H.Gardiner, *Onom.*, I, p. 129 - 132.

W.Edgerton and J.Wilson, *Historical Records of Ramassess, III*, Chicago, 1936, p. 53.

(٤) أنظر (محمد بيومي مهران: مصر ٦٩٤/٣، وولتارن: الإسكندري الأكبر - ترجمة زكي على - القاهرة ١٩٦٣ ص ٥٥ - ٦١).

(٥) محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص ١٩١ - ١٩٢ الإسكندرية ١٩٦٩. وكذا A.H.Gardiner, *Onom.*, I, p. 126.

هذا وقد قام «هوجوفنكلر» (Hugo Winckler) بعمل حفائر لحساب «جمعية الشرق الألمانية» (The German Orient Society)، وبدأت الحفائر - تحت إشرافه - عام ١٩٠٦م، وقد حققت النتائج كل الآمال، بل وأكثر، فقد كشف عن حوالي عشرة آلاف لوح مسماري، ووضح للمتقنين أنهم قد عثروا على سجلات ملكية، هذا فضلا عن أن معظم هذه الألواح مكتوبة بلغة أرزوا، ولا يمكن فهمها، وإن كتب بعضها بلغة بابل الأكدي المعروفة.

وقد كشفت الدراسة الأولية لهذه الخطابات أن هذه المدينة (الخرائب) إنما هي في الواقع «عاصمة بلاد حثي» (حثي)^(٦)، وأن «لغة أرزوارا» إنما كانت

(٦) «حثي» أو «حثي» - بلاد الحثيين - ورد ذكرها في النصوص المصرية من عهد الفراعنة العظيم «حموتب الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) لأول مرة - حيث الهنديا - وليست الجزية - أرسلت من أمير حثي إلى فرعون، وتشير «لوحة منف» التي أتمها «ألتحتب الثاني» (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م) إلى أمراء نهرين وحثي وسنجر - أي أعظم ثلاثة ملوك شماليين وقت ذلك - جاءوا إلى مصر، لوضع أسس الصداقة مع الفرعون، إثر سماعهم بانتصاره في سورية. وفي عهد «حمسيس الثاني» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) ظلت بلاد «حثي» تسمى «حثي» لأن معظم التغيير إلى «حثي» إنما حدث في عهد الفرعون «حمسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م).

هذا وتقع بلاد حثي (الحثيين) في آسيا الصغرى، وأما العاصمة فهي «بوغاز كوي»، ويقع على الهضبة المرتفعة بوسط آسيا الصغرى، شرقي نهر هاليس Halys. وكانت علاقة «حثي» بمصر - في معظمها - علاقة حتى عقدت معاهدة السلام بين البلدين، في السنة الحادية والعشرين من عهد «حمسيس الثاني» (حوالي عام ١٢٦٩ ق.م) لم توجت بزواج «حمسيس» من ابنة ملك الحثيين «خافوسيل» حوالي عام ١٢٥٦ ق.م. غير أن القوة الحثيين إنما بدأت في الانهيار السريع تحت ضربات الآشوريين، ثم بدأت الاضطرابات وحمت القوضى، وكثرت المعاهدات، مما اضطر الفرعون «مرنبتاح» (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م) أن يرسل إلى «حثي» القصح، حوالي عام ١٢٢٠ ق.م بل وأن يرسل إمدادات عسكرية إلى غربي آسيا، غير أن ذلك لم يكن ديمًا، إذ سرعان ما نهارت دولة الحثيين، تحت ضربات «شموب البحر» التي كان القضاء عليها من نصيب فرعون «مصر العظيم» «حمسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م).

بقيت الإشارة إلى أن الملك «خافوسيل الأول» (١٤٢٠ - ١٤٠٠ ق.م) إنما تولى الحكم في العاصمة «كيشار» ثم نقل العاصمة إلى «خافوشاش»، وقد نسب إلى هذا الملك عقد معاهدة سلام مع مصر، حوالي عام ١٢٧٠ ق.م (محمد بيومي مهران، مصر والعالم الخارجي في عصر «حمسيس الثالث»، رسالة دكتوراه، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ١٩٢، أحمد سليم، تاريخ العراق،

اللغة الرسمية لمملكة حاتى، وكما حدث فى الماضى، إذ أصبحت كلمة «حاتى» (Hattite) وصفا للخط الهيروغليفى فى «حماة»، فهكذا حل هذا الاسم محل «أرزاورى» للدلالة على النصوص المسماة (The Cuneiform Texts) وما كلمة «حاتى» (Hittite) إلا النطق الإنجليزى للأصل «حاتى» (Hatti).

وأما عن تاريخ الألواح، فلقد عثر على وثيقة تبين أنها النسخة العيشية للمعاهدة التى عقدت بين الفرعون رعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) وملك حاتى فى السنة الحادية والعشرين من حكم فرعون (١٢٦٩ ق.م) (٧).

وهكذا تبين لنا أنه هنا - فى حاتى - وليس فى سورية - كانت عاصمة «خيما العظمى» (Great Kheta) التى دفعت إتاوة للفرعون «خوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م)، والتى حاربت «رعمسيس الثانى» ثم هادته.

وفى عام ١٩٠٧م قدم «هوجوفنكلر» قائمة من اللوحات بأسماء ملوك حاتى - من «شوبيلوليو ماش» (١٣٧٥ - ١٣٨٥ ق.م) فى النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، إلى «أرنووانداس» فى آخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد - ثم تنقطع السجلات فجأة.

وقد دل ذلك على أن المملكة الحثيثة فى كابا دوكيا (The Cappado- cian Hittite Kingdom) سالت مدة هذه المائتين من السنين جميع ممالك الاتحاد الحشى الأخرى، مثل قرقيش وميليد وحماة، والتى ذكرت السلجات الآشورية أن الغزاة للموشكيين (Mushki)، الذين وحدهم الآشوريون يحتلون هذا الجزء من البلاد فى القرن الثامن، قد تغلبوا عليها حوالى عام ١٢٠٠ ق.م، وأن الممالك الحثيثة الأخرى قد استقلت عنده من جديد تحت زعامة «قرقيش»

سهران، آسيا الصغرى، الإسكندرية ١٩٩٨، ص ٤٨٧، ٥١١ - ٥١٢، وكذا: O.R.Gurney, The Hittites, 1969, p. 5F; A.H.Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, I, Oxford, 1947, p. 127.

(٧) أنظر عن المعاهدة (محمد بيومى مهران: مصر ٢٥٦٣ - ٣٦٠، وكذا K.A.Kitchen, JEA, 50, 1964, p. 68 - 69. G.G.aballa, JEA, 55, 1969, p. 82 - 88. J.Kuentz, BIFAO, 55, 1928, p. 14. L.D. III, 156.

(Carchemish) (٨).

وعلى أية حال، فإن الممالك الحثية - فيما عدا قرقيش - سوف تكون في الألف الأولى قبل الميلاد، دولا جديدة، بعد سقوط مملكة كبادوكيا (The Capadocian kingdom Fall)

هذا وقد ظل «الخط الهيروغليفي» مستعملاً في الصخر المنقوش في «نشان تاش» (Nishan Tash) في وسط منطقة بوغازكوي، فضلاً عن العلامات الهيروغليفية في طابع خاتم على لوح من الألواح المسارية^(٩).
(٤) طرسوس؛

مدينة في آسيا الصغرى تقع على نهر طرسوس (قره صو) - وهي كدشوس القديمة، التي كانت ثغرا لبلاد كيليكيا (قيليقيا) - في جنوب تركيا، كانت حوالي ١٢٠٠ ق.م تحت حكم الحيثيين، ثم تعرضت لغزوات شعوب البحر، واستولى الآشوريون عليها في الفترة فيما بين القرنين التاسع والسابع قبل الميلاد، ثم جاء من بعدهم الفرس، فالإسكندر الأكبر (عام ٣٣٣ ق.م) فالسلوقيون.

هذا وقد تحزبت المدينة لقيصر ضد «بومبي»، وأطلقت على نفسها اسم «يوليس يوليس»، وقد نهبها «كاسيوس»، غير أنها سرعان ما استعادت امتيازاتها على أيام أنطونيوس.

وقد حاولت «طرطوس» في ظل الإمبراطورية الرومانية أن تنافس الإسكندرية وأثينا على صعيد مدارس الفلسفة وعلم البيان، ولكن يبدو أنها لم تنجح، وأن تفوقت في الميدان التجاري.

وكانت تقيم في طرسوس جالية يهودية كبيرة، اشتهر من أفرادها القديس بولس الرسول، وقد ولد فيها، وقد توفي ودفن فيها الخليفة العباسي المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٢٣ م) في آخر غزواته في بلاد الدولة البيزنطية^(١٠).

(٨) أ.ر. جرنى: الحثيون - ترجمة: حمد عبد القادر محمد - القاهرة: ١٩٦٣ ص ٢٦، ٢٧، وانظر الأصل

O.R.Gurney, The Hittites, 1969, p. 5-7.

(٩) أ.ر. جرنى: الحثيون ص ٢٦، ٢٧، وانظر الأصل.

O.R.Gurney, The Hittites, p. 7.

(١٠) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ٧٤/٢، فاسوس الكتاب المقدس ١٩٦/١ - ١٩٩، هنري

٥- طروادة:

وتقع على مبعده ٦ كيلا، شرقي مدخل الدردنيل - من ناحية بحر إيجه - ويعرف موقعها اليوم باسم «حصار ليناب»، هذا وقد تكونت أول محلة في طروادة في «عصر البرونز القديم» والذي استغرق الجزء الأكبر من الألف الثالثة قبل الميلاد، وإن لم يستخدم النحاس في داخل الهضبة إلا في وقت متأخر عن ذلك.

هذا وقد قام «شليمان» (Shliemann) بحفائر في الفترة (١٨٧١ - ١٨٨٢م) كشف فيها عن بقايا تسع مدن، أقيمت كل منها فوق أطلال الأخرى - منذ أوائل عصر البرونز، وحتى العصر الروماني.

هذا وقد أثبت حفائر جامعة سنيناني أن للمدينة السابعة كانت مدينة «برام» لأنحريقا لحرب هذه المدينة وقع حوالي التاريخ التقليدي لحرب طروادة، وتدل مخلفات طروادة على أنها كانت من أهم مراكز الحضارة الإيجية.

هذا وتشير مخلفات الحضارات التالية من عصر النحاس في طروادة، والتي تتمثل في طبقاتها الأثرية - ابتداء من الطبقة الثانية، وحتى الطبقة الخامسة - والتي تعد نموذجا لكل المنطقة المحيطة ببحر إيجه، إلى اقتصاد زراعي متواضع، غير أن بعض الآثار إنما تدل على غنى عظيم، يوحي بوجود مستوى أعلى للحياة بين الطبقات العليا، والتي تتمثل في وجود بعض حلى من الذهب والفضة، عثر عليها «شليمان» في الطبقة الثانية من حفائره في طروادة، غير أن شواهد أخرى من هذه الطبقة الثانية إنما تدل على تغييرات واضحة فيما بعد، حيث توجد آثار حريق كبير في هذه الطبقة الثانية يرجع تاريخه إلى نهاية القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد^(١١).

٦- قدي:

منطقة تقع بين قرقيش والبحر المتوسط، وكانت في عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) تغطي منطقة واسعة، وفي عهد رمسيس الثاني

«عبودي» حجم الحضارات السامية من ٥٦٣ (بيروت ١٩٨٨)، الموسوعة العربية الميسرة من ١١٥٧.

(١١) محمد أبو المحسن مصفر. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم من ٢٠١ - ٢٠٢، الموسوعة العربية الميسرة من ١١٥٨.

(١٢٩١ - ١٢٢٤ ق.م) كانت بين حلفاء حاثي ضد مصر، وفي نقوش
رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) بمدينة هابو، قائمة بالشعوب التي
اجتاحتها شعوب البحر - ومن بينها «قدي» - مما يشير إلى أنها قد نظرت إليها
وقت ذاك، على أنها قوة عظيمة، ولكنها أثبتت عدم القدرة على مقاومة شعوب
البحر الذي هزمهم رعمسيس الثالث.

وفي أكبر الظن أن «قدي» إنما كانت تمتد حتى البحر، وقد وصفت في
نصوص مصرية متأخرة لنا خشب أمور^(١٢)، مما يشير إلى أن قدي وأمور كانتا
مختلفتين، وأن «قدي» يجب أن تكون إلى الشمال الأقصى، وإن كانت -
دونما ريب- لا تصل إلى الخليج لموس (إسوس)، ولكنها تمتد إلى مسافة بعيدة
إلى الشرق من «كزوفانا»، كما عين موقعها - فيما يذكر جاردنر - كل من
«سيدني سميث» و«جوتز»^(١٣).

٧- قرية تبه:

موقع أقرى في «قليقيا» (تركيا)، شمال شرق «كادرلي»، عثر فيه عام
١٩٤٦ م على «حصن حثي» يحيط به سور، ذو أحجار ضخمة، يتخلله بابا
مزخرفتان على الطريقة الفينيقية، يرسم مآدب وصيد وحرب، ترجع إلى القرنين
- التاسع والثامن قبل الميلاد، كما عثر كذلك على تمثال نصفى ملكى، من
البازلت، عليه كتابة فينيقية، كما عثر على كتابات أخرى، ساعدت على قراءة
الكتابة الهيروغليفية الحثية.

هذا وقد استولى «إسرحدون» الآشوري (٦٨١-٦٦٩ ق.م) على المدينة،
ودمرها عام ٦٨٠ ق.م^(١٤).

٨- قليقيا:

قليقيا: بلاد في آسيا الصغرى، تقع على شاطئ البحر المتوسط في القسم
الجنوبى من الأناضولى، وكانت قليقيا (كليشيا) منذ العصور الحثية ممراً للجيش
المتجه لغزو سورية.

(١٢) أنظر من «أمور» (محمد بيومى مهرا: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث من
١٩٥، ١٩٦، مصر ٣/٣٧٣ - ٣٧٤).

(١٣) محمد بيومى مهرا: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث من ١٩٢، ١٩٣
وكتا. A.H.Gardiner, Onom., I, p. 136.

(١٤) هنرى هيردى: المرجع السابق ص ٦٨٣.

وفي القرن التاسع قبل الميلاد، دخلت قليقيا (كليكيا) في الفلك الآشوري، فقد اجتاحتها «شلمنصر الثالث» (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) وكانت تابعة للملك «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) تدفع له الجزية، هذا وقد قام «سرجون الثاني» (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) بضم «قليقيا» إلى الإمبراطورية الآشورية، وعين عليها حاكماً^(١٥)، ثم هجر إليها إسرائيلى السامرة - عاصمة دولة إسرائيل وهي سبسطية الحالية على ميدة ١٠ كيلا شمال غرب شكيم^(١٦) - بعد أن استولى عليها عام ٧٢٢ ق.م^(١٧).

هذا وقد استعمل الجيش الآشورى قليقيا قاعدة لغزو جبال طوروس، غير أن غزواته قد أخفقت، مما أدى إلى حروب كثيرة، كان من نتائجها تهجير جديد، فلقد أرسل كثيرا من الحثيين والإسرائيليين إلى بابل.

ثم وقعت قليقيا تحت الاحتلال الفارسى، ثم استعمالها الإغريق ممراً للجيش، ومن ثم فقد أصبحت مسرحاً للمعارك بين البيزنطيين والفرس، ثم بين البيزنطيين والعرب^(١٨).

٩ - قبادوقيا:

قبادوقيا - أو كبادوكيا Cappadocia - منطقة في آسيا الصغرى على نهر هاليس الأعلى، شمال قليقيا، كانت عاصمتها «مازاقا»، وقد دعت «قيصرية»^(١٩)، وهي «قيصرى» الحالية، وتقع المنطقة كلها غربى الفرات الأعلى.

(١٥) أنظر: محمد يوسى مهران: العراق القديم من ٣٧٢، ٣٩٤، ٣٩٧، عبودي: المرجع السابق ص ٦٩٨.

(١٦) أنظر عن السامرة (محمد يوسى مهران: إسرائيل ٩٠٠/٢ - ٩٠٢ وأنظر طبعة ١٩٩٩ م).

(١٧) محمد يوسى مهران: إسرائيل ٩٤٠/٢ - ٩٥٠.

(١٨) عبودي: المرجع السابق ص ٦٩٨.

(١٩) قيصرية: هناك أكثر من مدينة تحمل هذا الاسم، فهناك: ١ - قيصرية فلسطين، وقد بناها الملك «هيرودس» (٣٧ - ٤ ق.م) - والتي قدر لها أن تكون عاصمة فلسطين الرومانية، وتقع على ميدة ٧٢ كيلا جنوبى عكا، ٧٥ كيلا شمالى غرب القدس، وذلك فى عام ١٠ ق.م، وسماها «قيصرية» تكريماً للإمبراطور «أوغسطس قيصر» (٢٧ ق.م - ١٤ م)، ٢ - قيصرية باناس، بلدة فى سورية على جبل حرمون، على مقربة من الحدود اللبنانية الفلسطينية الحالية، وفى عام ٣٠٢ م قام فيليبس بن هيرودس بتوسيعها وتجميلها، ثم أطلق عليها إسم «قيصرية باناس»، وسميت أيضاً «قيصرية فيلبس»، ٣ - قيصر، لبنان، وهو اسم أطلقه الرومان على مدينة «عرقه» اللبنانية، ٤ -

وكان يعيش فيها قبل الألف الثالثة قبل الميلاد، قوم من الساميين، هذا وقد عثر في كل تبة - شمالي شرق قيصرية - على ألواح مسمارية تمثل أقدم أشكال اللغة الآشورية - القريية من البابلية القديمة - وتتمثل هذه الألواح بأسود اقتصادية.

هذا وتشير الوثائق إلى أن التجارة البرية - عن طريق القوافل - إنما كانت مزدهرة في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد - قبل اجتياح الهكسوس والكاشيين (٢٠).

وقد تبعت قبادوقيا (كبادوكيا) الإسكندر المقدوني، ومن بعده السلوقيين فالرومان (٢١).

١٠ - كانش:

أشارت النصوص المسمارية المكتشفة في «كانش» - وهي كول تبة الحالية، على الضفة اليسرى لنهر هاليس، شمالي قيصرية - بمنطقة قبادوقيا إلى وجود جماعات من التجار الآشوريين كانت تقطن في شرقي بلاد الاناضول في مراكز تجارية ذات تنظيمات إدارية وقانونية خاصة بها.

ورغم أننا لانعرف على وجه اليقين متى بدأ اتصال الآشوريين التجاري بآسيا الصغرى؟ وكيف حدث هذا الاتصال؟ وهل تم سلماً أم عنوة؟ غير أن أكبر الظن إنما قد تم منذ ظهور الكيان السياسي للآشوريين، وأنه كان في بدايته - على الأقل - اتصالاً سلمياً، وأنه كان نشاطاً تجارياً واسعاً، وآية ذلك إقامة هذه المراكز التجارية الآشورية لمتعددة بمنطقة وسط الاناضول، والتي يمكن تحديدها

=قيصرية الجزائر، وهو اسم أطلق في العصر الروماني على مدينة «بول» الفرطاجية (محمد بيومي مهران: إسرائيل ١٤٤٢، فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٣١٢/١، قاموس الكتاب، المقدس ٧٥٥/٢، ١٠٠٩، وهذا M.F.Unger, Unger's Bible Dictionary, p. 470.

وكنّا Strabo, XVI, 2, 27 وكنّا Josepus, Antiquities, XV, 9, 6

وكنّا Pliny, V, 14، ونظري هنري هودي: المرجع السابق ص ٦٩٧ - ٦٩٨.

(٢٠) أنظر عن الهكسوس والكاشيين (محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ١٠٣، ٢٢٣، تاريخ العراق القديم ص ٢٩٨ - ٣١٥.

(٢١) هنري هودي: المرجع السابق ص ٧٠٩، ٧١٠.

بحوض نهر هاليس وتخومه المباشرة، وما وراء هذا الحوض جنوباً حتى سهل قونيا وأقاليم قليقيا، وشرقاً حتى مشارف أعالي الفرات، وأنه كان لاستغلال ثروات هذه البلاد، وممارسة نشاط تجارى كبير بها، دون أن يتكبدوا فى ذلك جهداً حريماً يذكر، حيث خلت نصوصهم من الإشارة إلى توجيه حملات حربية إلى هذه البلاد.

على أن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن هذه المراكز التجارية إنما قد مارست نشاطها من خلال كونها مستعمرات أقامها الآشوريون للسيادة وفرض النفوذ على آسيا الصغرى، وكانت «كانش» بمثابة مركز للإدارة الآشورية الحاكمة، وقد اعتمد أصحاب هذا الاتجاه على أنه من الصعب أن يحقق الآشوريون هناك استقلالاً اقتصادياً كاملاً، دون سيطرة سياسية، فضلاً عن عبادة الإله آشور فى هذه المراكز التجارية بآسيا الصغرى، وتشابه بعض التنظيمات الإدارية بهذه المراكز التجارية مع مثيلات لها فى آشور^(٢٢).

وأكبر الظن أن هذه المراكز التجارية إنما كان خاضعة سياسياً لأمراء الدويلات المحلية، مع تمتعها بتنوع من الاستقلال الذاتى والحماية العسكرية، مقابل ضرائب معينة كانت تدفع للأفراد المحليين، وأما علاقة هذه المراكز بالدولة الآشورية، فربما كانت من نوع علاقة الفرع بالأصل، ولية ذلك أنها كانت تدبى بالديانة الآشورية، وتعيش الحياة الآشورية، مع بعض التأثيرات المحلية، ومن ثم فقد تشابهت العقود التجارية والقوانين الآشورية التى كشف عنها فى «كانش» بتلك التى كانت فى بلاد آشور نفسها.

وعلى أية حال، فلقد كانت هذه المراكز التجارية الآشورية فى آسيا الصغرى (وتسمى كاروم)^(٢٣) تقوم بدور الوسيط بين الدولة الآشورية الأم، وبين الدويلات

(٢٢) محمد عبد اللطيف: المراكز التجارية الآشورية فى وسط آسيا الصغرى فى العصر الآشورى القديم، الإسكندرية ١٩٨٤، ص ١٨، ٤، ٣.

CAH, I, Part, 2, Maps, 9 - 10, p. 373,

J. Lewy, on Some Institutions of The old Assyrian Empire, in HUCA, 27, 1956, p. 13 - 21.

(٢٣) أطلق الآشوريون على كل مركز من مراكزهم التجارية اسم «كاروم» (Karum)، وتعنى فى الأكدية رصيف أو حائط ميناء يقع على نهر أو قناة، تجمع عنده ضرائب الدخل على الوارد، ثم

=/=

الغلبة في بلاد الاناضول، وهكذا كانت القوافل التجارية الآشورية تذهب محملة بالمنسوجات والملابس الآشورية والبابلية وخامات القصدير - وهي مستوردة أصلاً - وتعود إلى بلاد آشور بالذهب والفضة والنحاس - وربما الرصاص - والأحجار الكريمة (٢٤).

وأياً ما كان الأمر، فلقد زاد هذا النشاط التجارى على أيام «إيلو شوما»، وهناك نص من عهد ولده «إريشوم الأول» (١٩٠٦ - ١٨٦٧ ق.م) يشير إلى أنه أقام حرية الحركة للفضة والذهب والنحاس والرصاص، فضلاً عن القمح والصوف، إلى جانب سلعتين أو ثلاث من السلع المرغوبة - وكان أرخصها البن - وأن هذا الامتياز قد منح للتجار الآشوريين، الأمر الذى يشير إلى دعم النشاط التجارى مع آسيا الصغرى التى أقيم فيها عدد كبير من المراكز التجارية الآشورية التى نالت اهتمام هذا الملك، كما نالت اهتمام خليفته «إيكونوم» (١٨٦٦ -

=/=

انسح مفهومه ليعنى السوق على جانب الرصيف، ثم مجموعة تجار المدينة، ولم يقصد الآشوريون بتعبير «كاروم» فى نصوص الألواح القبادوشية ميناء نهرياً غالباً، إذ لم يقع كاروم كانش أو «خاتوش» (بوغازكوى) أو غيرهما، على نهر، وإنما يعنى غالباً مجموعة الرجال الذين تولوا إدارة المركز التجارى، وهم من التجار وأصحاب رؤوس الأموال الآشوريين، وقد شيدت «الكاروم» غالباً فى الأماكن الملازمة على طرق القوافل، كمركز تجارى للسلع المتبادلة بين آشور وآسيا الصغرى، فضلاً عن جبلة للكوس التى كانت تحصل من القوافل التجارية، مثل ضريبة الطريق وضريبة البشر وضريبة الخمسة فى المائة التى كان الكاروم يقوم بحصيلها، ربما لحساب الدولة الآشورية، وقد استخدم القوة فى تحصيلها أحياناً، كما كان للكاروم سلطة قضائية، وجهاز إدارى على رأسه «حاكم الكاروم» الذى تتصل لقب (Rubaum)، والذى كان يمثل السلطة التنفيذية للكاروم ورأسها، وغير خاضع غالباً لحكام آشور، كما كان للكاروم مقر مركزى يسمى «بيت الكاروم» (بيت كاريم - Bit-Karim) وكان بمثابة غرفة تجارية وبيت مخلص للتجارة، ووكيلاً للقصر (أنظر: محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٧٢ - ٨٨، وكذا:

J. Bottero and Others, op. cit., p. 196.

J. Lewy, CAH, I, Part, 2, p. 37, 47, 709, 722, 760 F.

(٢٤) عامر سليمان: المرجع السابق، ص ١٢٥ - ١٢٦، وكذا:

J. Lewy, op. cit., p. 24 - 28.

١٨٥٥ ق.م) و«سرجون الأول الآشوري» (١٨٥٥ - ١٨٤٠ ق.م) (٢٥)

ولعل من الأهمية بمكان أن الوثائق الآشورية إنما تشير إلى أن العصر
الأموري إنما قد شارك في مجتمعات المراكز التجارية الآشورية القديمة في آسيا
الصغرى، وأن الاختلاط بين الأسماء الآشورية والأمورية في هذه المجتمعات،
ما يشهد بامتزاج هذه العناصر كسكان يتعايشون معاً في نطاق المركز التجاري
الواحد.

وكان الأموريون أقرب العناصر للآشوريين، وأكثرهم ارتباطاً بهم اجتماعياً
ودينياً، وقد اعتمدوا عليهم بدرجة كبيرة في مزولة نشاطهم التجاري، أما السكان
الوطنيون وخاصة العناصر (الهنشو - أوربية) فقد نظر إليهم الآشوريون بازدراء،
وأطلقوا عليهم صفة «برابرة» (٢٦).

وليس هنا من ريب في أن الوجود الأموري في هذه المجتمعات إنما كان
سبباً في التقارب بين الأموريين والآشوريين في آسيا الصغرى، وطبقاً لدراسة عقود
الزواج والطلاق، فإن معظم زيجات الآشوريين بالأناضول إنما كانت من هؤلاء
الأموريين، كما كان رجال الأعمال الآشوريين كثيراً ما يستعينون بهؤلاء
الأموريين، وكثيراً ما كانوا يعهدون إليهم بتولى أمر قوافلهم التجارية (٢٧).

(١١) واشوكاني:

واشوكاني عاصمة دولة ميتاني، التي عاصرت الإمبراطورية المصرية (١٥٧٥ -
١٠٨٧ ق.م)، والكاشيين (١٥٩٥ - ١١٥٧ ق.م) في جنوب العراق، وقد
أثرت هذه القوة الجديدة (الحوريين) في بلاد آشور.
والحوريون قوم من منطقة القوقاز، إنتشروا في بلاد الأناضول وسوريا وأعلى

(25) CAH, I, Part, 2, p. 1001.

J. Lewy, in JAOS, 78, 1958, p. 99 - 101.

J. Lewy, in HUCA, 27, 1956, p. 40, 65, 66.

A. Goetze, in JLSA, 30, 1954, p. 350.

(26) H. Lewy, Anatolia in The Old Assyrian Period, in CAH, 2,
1971.

(٢٧) محمد يوسى مهران: بلاد الشام، الإسكندرية ١٩٩٠، ص ٦٨ - ٧٠، وكلا:

J. Lewy, Amurritica, in HUCA, 32, 1961, p. 65.

ما بين النهرين وشرقي بلاد آشور، وأقاموا دولة قوية هي «دولة الميتان»، واتخذوا من مدينة «واشوكاني» (Washukkanni) عاصمة لهم، وهي «تل الفخارية» (Tell - Fekheriya) الحالية، وقد استغلت الدولة الميتانية ضعف الإمبراطورية الحيثية وانقساماتها الداخلية، فمدت نفوذها على المناطق الواقعة فيما بين بحيرة «وان» (Lake Van) وأواسط الفرات، ومن جبال زاغروس وحتى الساحل السوري، وكانت بلاد آشور من المناطق التي وقعت تحت نفوذها وسيطرتها المباشرة، ومع ذلك فلقد ذكرت قوائم الملوك الآشوريين أسماء عدد من الملوك الذين حكموا في بلاد آشور في فترة السيطرة الميتانية، وربما كانوا ملوكاً محليين تابعين للملوك الميتانيين المحتلين.

غير أن قوة الدولة سرعان ما اتابها الضعف، وانقسمت إلى دولتين، الواحدة تسيطر على منطقة بحيرة وان، والأخرى تسيطر على بلاد آشور وأجزاء من سورية، وقد استغلت آشور هذا الضعف واستقلت عن الميتانيين، ثم تمكنوا بعد فترة من القضاء على الدولة الميتانية وضم أراضيها إلى الدولة الآشورية، وقد تم ذلك على يد الملك «أشور أوبلاط» (١٣٦٥ - ١٣٣٠ ق.م) الذي انتصر على الملك «أرتاتاما الثاني» (١٣٦٦ - ١٣٥٩ ق.م)، كما أعاد بناء الدولة الآشورية (٢٧).

هذا وكان الميتانيون على علاقة مصاهرة بفراعنة مصر، فلقد تزوج «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) من «جبلوخيبا» أخت «توشراتا» ملك ميتاني، فضلاً عن ابنته «تادوخيبا»، وكان أبوه «تخوتمس الرابع» (١٤١٣ - ١٤٠٥ ق.م) قد تزوج من ابنته ملك الميتان، التي أعطيت الاسم المصري «موت إم ربا».

ولعل سبب هذه المصاهرات أن دولة الميتان إنما كانت تتجاوز حدود الإمبراطورية المصرية في غربي آسيا، وربما لأن الفرعون قد أخطأ التقدير في معرفة قوة الحيثيين - أعداء الميتان.

(٢٧) عامر سليمان، المرجع السابق ص ١٢٩ - ١٣١، عبد العزيز صالح، المرجع السابق ص ٤٩٠،

٤٩٩، نجيب ميخائيل، المرجع السابق ص ٢٤٣ - ٢٤٥، طه باقر، المرجع السابق ص ١٧٣ -

١٧٥، ل. ديلات، المرجع السابق ص ٢٩٦ - ٢٩٧، محمد عبد القادر، المرجع السابق ص

٢١٣، وكنا - G.Roux, op.cit., p. 229, 233, J.Laessoe, op.cit., p. 82.

92, Delaporte, Les Hittites, p. 93F.

وأما ما كان السبب، فلقد كان من نتائج هذه الصداقة - أو المصاهرة
- المصرية الميتانية، أن امتنع الفرعون عن التفكير في مدّ نفوذ مصر إلى الشرق من
الفرات، وإلى أن ينشأ نوع من العداء، لدولة «حاثي» التي مدت يد الصداقة لمصر،
فأغفلها الفرعون (٢٨).

(٢٨) محمد يوسفي مهران: مصر ٢٣١١/٣، ٢٣٤، ٢٣٨، نجيب ميخائيل: مصر الشرق الأدنى القديم
٢٤٤، ٥/٢، وكذا

S.A.B.Mercer, The Tell - Amarna Tablets , I,p. 162.

H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypt, II, 1908, p. 301.

المراجع المختارة أولاً: المراجع العربية

- ١- القرآن الكريم
- ٢- الحديث الشريف
- أ- صحيح البخارى (٩ أجزاء) القاهرة: ١٣٨٦ هـ
- ب- صحيح مسلم (١٨ جزءاً) بيروت ٨١-١٩٨٣
- ج- متن أبى داود القاهرة: ١٩٥٢
- د- فتح البارى - بشرح صحيح البخارى القاهرة: ١٩٥٩
- هـ- مستند الإمام أحمد بن حنبل بيروت: ١٩٦٩
- ٣- كتب التفسير
- ٤- التوراة
- ٥- ابن بطهيد: صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الآثار (٥) القاهرة ٥١-١٩٥٣ (أجزاء)
- ٦- ابن ظهيرة: الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها، وبناء البيت بيروت: ١٩٧٩ الشريف
- ٧- ابن عساكر: تاريخ دمشق - تحقيق صلاح المنجد دمشق ٥١-١٩٥٣
- ٨- ابن عتبة: عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب بيروت -
- ٩- ابن عبد ربه: العقد الفريد (٩ أجزاء) بيروت: ١٩٨٣
- ١٠- ابن فهد القرشى: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام مكة المكرمة: ١٩٨٦
- ١١- الدكتور أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول القاهرة: ١٩٦٥
- ١٢- الدكتور أحمد إبراهيم الشريف: دولة الرسول فى المدينة الكويت: ١٩٧٢
- ١٣- أحمد السباعى: تاريخ مكة مكة المكرمة ١٣٨٧ هـ
- ١٤- الدكتور أحمد أمين سليم: سوريا وبلاد العرب الإسكندرية: ١٩٩١
- ١٥- الدكتور أحمد أمين سليم: لهران بيروت: ١٩٨٨

- ١٦- الدكتور أحمد أمين سليم: دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم بيروت ١٩٨٩
- ١٧- أحمد حسين شرف الدين: مسالك القوافل التجارية فى شمال الجزيرة العربية وجنوبها الرياض ١٩٨٤
- ١٨- الدكتور أحمد سوسة: تاريخ حضارة وادى الرافدين (جزءان) بغداد ١٩٨٦
- ١٩- الدكتور أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ دمشق ١٩٨٢
- ٢٠- الدكتور أحمد فخرى: اليمن ماضيها وحاضرها القاهرة ١٩٥٧
- ٢١- الدكتور أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم القاهرة ١٩٦٣
- ٢٢- الدكتور أحمد فخرى: معبد المساجد ببلاد مره القاهرة ١٩٦١
- ٢٣- الدكتور أحمد ضياء - محمد يرمى مهران: العلاقات بين مصر وبنى اسرائيل أثناء الألف الأول قبل الميلاد الإسكندرية ١٩٨٨
- ٢٤- الدكتور إسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود فى بلاد العرب القاهرة ١٩٢٧
- ٢٥- البكرى: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (٤ أجزاء) القاهرة ١٩٥١-٤٥
- ٢٦- البلاغرى: أنساب الأشراف القاهرة ١٩٥٩
- ٢٧- البلاغرى: قروح البلدان (٣ أجزاء) القاهرة ١٩٥٧
- ٢٨- الحرى: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة الرياض ١٩٦٩
- ٢٩- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (٥ الساعات) القاهرة ١٣٤٩ هـ
- ٣٠- السهمودى: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (٤ أجزاء فى مجلدين) بيروت ١٩٧١
- ٣١- السهيلى: الروض الأنف (٧ أجزاء) القاهرة ١٩٧١
- ٣٢- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب - الإسكندرية ١٩٦٧
- الجزء الأول
- ٣٣- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب - الإسكندرية ١٩٨٢
- تاريخ الدولة العربية
- ٣٤- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب - الإسكندرية ١٣٩٨ هـ
- المصر العباسى الأول

- ٣٥- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ مدينة صيدا بيروت ١٩٧٠
في مصر الإسلامي
- ٣٦- الطبري: تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) القاهرة ١٩٦٩ / ٥٧
- ٣٧- العمري: مسالك الأبطال في ممالك الأماص القاهرة ١٩٢٤
- ٣٨- الفاسي: العهد الحسن في تاريخ بلد الأمين بيروت ١٩٨٦
- ٣٩- الفاسي: القنع من أخبار الملوك والخلفاء وولاة مكة الشرفاء بيروت ١٩٨٦
- ٤٠- الفلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب القاهرة ١٩٥٩
- ٤١- المقرئ: النزاع والخلاص فيما بين بني أمية وبني هاشم القاهرة ١٩٨٨
- ٤٢- الدكتور أمل محمد يوسى مهران: دراسة تاريخية للعلاقات بين الجزيرة العربية، وبلاد الشرق الأدنى القديم، خلال الألف الأول قبل الميلاد الإسكندرية ١٩٩٦
- ٤٣- النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري بأخبار أم القرى (٣ أجزاء) مكة المكرمة ١٩٨٣
- ٤٤- الهمداني: حفة جزيرة العرب الرياض ١٩٧٤
- ٤٥- الدكتور تقي الدين الدباغ: العراق في عصور ما قبل التاريخ - العراق في التاريخ بغداد ١٩٨٣
- ٤٦- الدكتور جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام بيروت ١٩٧١/٦٨ (١٠ أجزاء)
- ٤٧- حامد إبراهيم أبو دوك: مقدمة في آثار تيماء الرياض ١٩٨٦
- ٤٨- الدكتور حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام القاهرة ١٩٦٧ / ٦٤
- ٤٩- حسن عبد الله باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة القاهرة ١٩٦٤
- ٥٠- الدكتور رشاد بغدادى: العلاقات بين الجزيرة العربية وفلسطين مكة المكرمة ١٩٨٧
- ٥١- الدكتور رشيد الناضوري: حول أرض مدين: موقعها ودورها الرياض ١٩٨٤
- التاريخ المبكر
- ٥٢- الدكتور رشيد الناضوري: جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا بيروت ١٩٦٩ (جزءان)
- ٥٣- الدكتور رشيد الناضوري: المغرب الكبير - الجزء الأول - الإسكندرية ١٩٦٦
المصور القديمة

٥٤- الدكتور رشيد بورية: مسجد المدينة في حقائق الكتب القديمة الرياض ١٩٧٩

٥٥- الدكتور رضا الهاشمي: تجارة القوافل في التاريخ العربي القديم بغداد ١٩٨٤

٥٦- الدكتور سامي سعيد الأحمدى: نظرة في جغرافية شبه جزيرة العرب الرياض ١٩٦٩

٥٧- الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام بيروت ١٩٧٥

٥٨- سعيد الأفغاني: أسواق العرب بيروت ١٣٧٩ هـ

٥٩- الدكتور صالح أحمد العلي: محاضرات في تاريخ العرب - الجزء الأول بغداد ١٩٥٩

٦٠- الدكتور صبحي أنور رشيد: العلاقات بين وادي الرافدين ونيماه الرياض ١٩٨٤

٦١- صلاح البكري: تاريخ حضرموت السياسي - الجزء الأول القاهرة ١٣٥٤ هـ

٦٢- الدكتور صلاح الشامي: الملوانى السودانية القاهرة ١٩٦١

٦٣- الدكتور طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - (جزءان) بغداد ١٩٥٥

٦٤- الدكتور عامر سليمان: العصر الآشوري - العراق في التاريخ القديم بغداد ١٩٨٣

٦٥- الدكتور عبد الرحمن الأنصاري: شحات من القبائل البائدة في الجزيرة العربية - مجلة كلية الآداب الرياض ١٩٧٥

٦٦- الدكتور عبد الرحمن الأنصاري: شحات من بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة - مجلة الدارة الرياض ١٩٧٥

٦٧- الدكتور عبد الرحمن الأنصاري: أعضاء جديدة على دولة كتنة من خلال آثار قرية الفاو الرياض ١٩٧٩

٦٨- الدكتور عبد الرحمن الأنصاري: الأحوال العامة للجزيرة العربية عند البعثة النبوية الرياض ١٩٨٩

٦٩- الدكتور عبد الرحمن الأنصاري: الموسم الرابع لحضرات قرية الفاو الرياض ١٩٨٤

٧٠- الدكتور عبد العزيز الدوري: كتب الأنساب وتاريخ الجزيرة العربية الرياض ١٩٧٩

- ٧١- الدكتور عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول القاهرة ١٩٧٣
- ٧٢- الدكتور عبد العزيز صالح: تاريخ شبه الجزيرة العربية في القاهرة -
عصورها القديمة
- ٧٣- عبد القدوس الأنصارى: آثار المدينة للنزرة المدينة المنورة ١٩٧٣
- ٧٤- عبد القدوس الأنصارى: الكعبة الرياض ١٩٨٤
- ٧٥- الدكتور عبد الله مصرى: آثار الجزيرة العربية، ودورها في نشأة حضارة سومر الرياض ١٩٧٦
- ٧٦- الدكتور عبد الله مصرى: ما قبل التاريخ في شرق المملكة العربية السعودية وشمالها الرياض ١٩٨٤
- ٧٧- الدكتور عبد الله الوهيبي: تحديد الشجراء العرب للمواقع الجغرافية الرياض ١٩٧٩
- ٧٨- الدكتور عبد المنعم عبد الحليم ميد: البحر الأحمر وظهيره في الإسكندرية ١٩٩٣
العصور القديمة
- ٧٩- الدكتور عبد التيمم محمد حسنين: الإيرانيون القدماء القاهرة ١٩٧٤
- ٨٠- عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة (٥) بيروت ١٩٨٥
أجزاء
- ٨١- الدكتور عويد المطرفي: دلود وسليمان عليهما السلام في القرآن والسنة مكة المكرمة ١٩٧٩
- ٨٢- غالى محمد الأمين الشقيطي: كتاب الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين مكة المكرمة ١٩٨٨
- ٨٣- الدكتور فؤاد سفر: الحضر - مجلة سومر - العدد ٨ بغداد ١٩٥٢
- ٨٤- الدكتور فؤاد سفر، ومحمد علي مصطفى: الحضر مدينة الشمس بغداد ١٩٧٢
- ٨٥- الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة بيروت ١٩٧٨
- ٨٦- الدكتور محمد إبراهيم بكر: تاريخ السودان القديم القاهرة ١٩٨٣
- ٨٧- الدكتور محمد أبو الحسن عصمور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم الإسكندرية ١٩٦٨

- ٨٨- الدكتور محمد العبد الخطراوي: المدينة في العصر الجاهلي دمشق ١٩٨٤
- ٨٩- الدكتور محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة القاهرة ١٩٧٦
- ٩٠- الدكتور محمد بيومي مهران: بنو اسرائيل (٥ أجزاء - طبعة الإسكندرية ١٩٩٩
ثالثة)
- ٩١- الدكتور محمد بيومي مهران: بلاد الشام الإسكندرية ١٩٩٠
- ٩٢- الدكتور محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم (جزءان) الإسكندرية ١٩٩٥
- ٩٣- الدكتور محمد بيومي مهران: الحضارة العربية القديمة الإسكندرية ١٩٨٨
- ٩٤- الدكتور محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم الإسكندرية ١٩٩٠
- ٩٥- الدكتور محمد بيومي مهران: المغرب القديم الإسكندرية ١٩٩٠
- ٩٦- الدكتور محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية (تاريخ لبنان بيروت ١٩٩٤
القديم)
- ٩٧- الدكتور محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الإسكندرية ١٩٩٥
الكريم (٤ أجزاء) (طبعة رابعة)
- ٩٨- الدكتور محمد بيومي مهران: تاريخ السودان القديم الإسكندرية ١٩٩٤
- ٩٩- الدكتور محمد بيومي مهران: المدن الكبرى في مصر والشرق القديم - الجزء الأول - مصر - الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٠٠- الدكتور محمد بيومي مهران: حضارة الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول - الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٠١- الدكتور محمد بيومي مهران: قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة الرياض ١٩٧٥
- ١٠٢- الدكتور محمد عوض: السودان الشمالي القاهرة ١٩٥١
- ١٠٣- محمد عبد القادر قتيه: تاريخ اليمن القديم بيروت ١٩٧٣
- ١٠٤- محمد لييب البتانوني: الرحلة الحجازية القاهرة ١٣٢٩ هـ
- ١٠٥- الدكتور محمد عبد الحليم نور الدين: مقدمة في الآثار صنعاء ١٩٨٤
اليمنية

- ١٠٦- الدكتور محمد عبد الحلهم نور الدين: مواقع ومناخف الآثار القاهرة ١٩٩٨
المصرية
- ١٠٧- الدكتور محمود طه أبو العلا: جغرافية شبه الجزيرة العربية (٤ القاهرة ٦٥ / ١٩٧٢
أجزاء)
- ١٠٨- الدكتور محمود عمر: التأثير للمصري في آثار ليماء القاهرة ١٩٩٣
- ١٠٩- مير خوري: صيدا عقب عقب التاريخ بيروت ١٩٦٦
- ١١٠- هنري عيودي: معجم الحضارات السلية بيروت ١٩٨٨
- ١١١- الدكتور نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم (٦ الإسكندرية ١٩٦٣
أجزاء) - ١٩٦٦
- ١١٢- ياقوت اله موى: معجم البلدان (٥ أجزاء) بيروت ١٩٥٧ / ٥٥
- ١١٣- يوسف رزق الله غنيمه: الحيرة: المدينة والملكة بغداد ١٩٣٦
- ١١٤- يوسف محمد عبد الله: أوراق في تاريخ اليمس وأثاره بيروت ١٩٨٥
- ١١٥- الدكتور يوسف مزهر: تاريخ لبنان القديم - الجزء الأول بيروت -
- ١١٦- قاموس الكتاب المقدس (جزءان) بيروت ١٩٦٧ / ٦٤

ثانياً: المراجع المترجمة إلى اللغة العربية

- ١١٧- الدكتور أحمد فحري رحلة أثرية إلى اليمن - ترجمة صنعاء ١٩٨٨
الدكتور هنري رياض، الدكتور يوسف محمد، ومراجعة الدكتور
محمد عبد الحلهم نور الدين
- ١١٨- أحمد محمد علي الحاكم وأ. هريك وج فركوثير: حضارة
نباتا ومروى (تاريخ أفريقيا العام - الجزء الثاني) اليونسكو ١٩٨٥
- ١١٩- إليوس موسل: شمال الحجاز، ترجمة الدكتور عبد المحسن الإسكندرية ١٩٥٢
الحسيني
- ١٢٠- أندريه بارو: بلاد آشور - ترجمة عيسى سلمان وسليم بغداد ١٩٨٠
الشكري

- ١٢١- آرثر كريستس: إيران في عهد الساسانيين - ترجمة الدكتور القاهرة ١٩٥٧
يحيى الخشاب
- ١٢٢- أرزولك ولسون: الخليج العربي - ترجمة الدكتور عبد القادر الكويت -
يوسف
- ١٢٣- ألبرايث مونرو: الجزيرة العربية بين البحور والبترول - ترجمة الرياض ١٩٧٦
محمود محمود
- ١٢٤- أ. ر. جرنى: الحثيون - ترجمة الدكتور محمد عبد القادر القاهرة ١٩٦٣
والدكتور فيصل الرائلى
- ١٢٥- ب. هـ. ولرمنجون: العصر القرطاجى - تاريخ أفريقيا العام تورين ١٩٨٥
- ١٢٦- برنارد لويس: العرب فى التاريخ - ترجمة نبيه فارس ومحمود بيروت ١٩٥٤
يوسف
- ١٢٧- تيودر تولدكه: أمراء غسان من آل جفنة - ترجمة قسطنطين بيروت ١٩٣٣
رزق وبشلى خورى
- ١٢٨- جاكولين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب - ترجمة قدرى بيروت ١٩٦٣
قلمجى
- ١٢٩- جورج فضلر حوراني: العرب والملاحة فى المحيط الهندى -
ترجمة وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر القاهرة ١٩٥٨
- ١٣٠- جورج كوتيتو: الحياة اليومية فى بلاد بابل وأشور - ترجمة
طه التكريتى، وهران عبد التكريتى بغداد ١٩٨٦
- ١٣١- ج. كوتيتو: الحضارة الفينيقية - ترجمة الدكتور محمد
عبدالهادهى شميره، ومراجعة الدكتور طه حسين القاهرة ١٩٦٥
- ١٣٢- جيهان ديزاخ: البربر الأصليون - تاريخ أفريقيا العام تورين ١٩٨٥
- ١٣٣- حسن يبرنا: تاريخ إيران القديم - ترجمة محمد نور الدين القاهرة ١٩٧٩
عبد النعيم، والسباعى محمد السباعى - مراجعة وتقديم
الدكتور يحيى الخشاب
- ١٣٤- دونالد دولير: إيران، ماضيها وحاضرها - ترجمة عبد النعيم القاهرة ١٩٥٨
محمد حسنى - مراجعة وتقديم إبراهيم الشواربى

- ١٣٥- ديتلف نلسن وآخرون التاريخ العربى القديم - ترجمة وزاد القاهرة: ١٩٥٨
عليه الدكتور فؤاد حنين
- ١٣٦- رينيه ديسو: العرب فى سورية قبل الإسلام - ترجمة القاهرة: ١٩٥٩
عبد الحميد الدواخلى
- ١٣٧- مبيتزو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة - ترجمة وزاد القاهرة: ١٩٦٨
عليه الدكتور السيد مطوب بكر
- ١٣٨- فيليب حشى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - (جزءان) - بيروت: ١٩٥٨
ترجمة جورج حنّاد، وعبد الكريم رافق
- ١٣٩- فيليب حشى: تاريخ العرب - الجزء الأول - (مطول) - بيروت: ١٩٦٥
ترجمة إدوارد جرجس، وجيرائيل جبور
- ١٤٠- فيسرو مورى: حول تاريخ الرسوم الصخرية فى الصحارى ليبيا ١٩٧٩
الكبرى - ترجمة مكاتيل محرز - كتاب الصحراء الكبرى -
- ١٤١- لويس أميل سديو: تاريخ العرب العالم - ترجمة عادل زعبيتر القاهرة: ١٩٤٨
- ١٤٢- لانكستر هاردنج: آثار الأردن ترجمة سليمان موسى عمان: ١٩٦٥
- ١٤٣- مانفرد فيبر: المصريون القدماء والصحراء الكبرى - ترجمة ليبيا ١٩٧٩
عماد الدين غانم - كتاب الصحراء الكبرى
- ١٤٤- هيريت جورج ويلز: معالم تاريخ الإنسانية (جزءان) - ترجمة القاهرة: ١٩٦٩
عبد العزيز توفيق جاويد
- ١٤٥- ول ديورانت: قصة الحضارة - الجزء الثانى - ترجمة محمد القاهرة: ١٩٦١
بدران
- ١٤٦- ونيل فيليبس: كتوز ملحة بلغمى - قصة اكتشاف ملحة سبأ القاهرة: ١٩٦١
الأكرية فى اليمن - ترجمة عمر النورادى
- ١٤٧- و. و. تارن: الإسكندرية الأكبر - ترجمة زكى على ومراجعة القاهرة: ١٩٦٣
محمد سليم سالم
- ١٤٨- ولهم فولبرايث: آثار فلسطين - ترجمة زكى اسكندري ومحمد القاهرة: ١٩٧١
عبد القادر

- ١٤٩- يوسف القيسري: تاريخ الكنيسة - ترجمة مرقس داود القاهرة ١٩٦٠
 ١٥٠- يوسف يوسف: تاريخ يوسف - دار صادر بيروت
 ١٥١- دائرة المعارف الإسلامية - دار الشعب - القاهرة ١٩٦٩

ثالثاً: المراجع الأجنبية

- 152- Abbot, (n.), The Rise of the North Araba, Chicago, 1939.
 153- Abbot, (n.), Pre - Islamic Arab Queens, AJSL, 1944.
 154- Al-Adami, (K.A.), Excavations at Tell-Es-Sawwan, in Sumer, 24, 1968.
 155- Arkell, (J. A.), Early Kharton, Oxford, 1949.
 156- Arkell, (J. A.), A History of the Sudan from the Earliest Time to 1821, London, 1961.
 157- Amer, (M.), The Ancient Trans - Peninsular Routes of Arabia, Cairo, 1926.
 158- Bates (H.), The Eastern Lilyans, London, 1914.
 159- Baker, (M.), The Relationship Between The C-Group, Kerma, Napatan and Meroitic Cultures, in Kush, XIII, 1965.
 160- Beeston (A. F.L.), The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, New Havan, 1924.
 161- Beeston, (A. F. L.), Sculptures and Inscriptions from Shabwa, in JRAS, 1954.
 162- Belgrave, (J. H. D.), Welcome to Bahrain, London, 1965.
 163- Bent (T.) and Mrs. Bent, Southern Arabia, Sudan and Socotra, London, 1900.

- 214- Save - Soderlergh, (T.), Aegypten und Nubia, Luna, 1941.
- 215- Shata, (A.), The Lower Nubia Area, Egypt, in BSGE, 35, 1962.
- 216- Smith (W.), Adictionary of The Bible, 3 Vols, London.
- 217- Shahid (I.), Pre-Islamic Arabia, in CAH, I, Cambridge, 1970.
- 218- Stark, (R. F.), An Exploration in The Hadhramut and Journey to Coast, in GJ, XCIII, 1939.
- 219- Shanidar Cave, Northern Iraq, Smithsonian Report Publication (1959 - 1960).
- 220- Woolley (L.), Excavations at Ur, London, 1963.
- 221- Woolley (L.), Ur of The Chaldees, London, 1965.
- 222- Woolley (L.), The Beginnings of Civilization, N. Y., 1965.
- 223- Steindroff, (G.), Inibia, I, 1935.
- 224- Smith, (H. S.), The Nubian B-Group, Kush, 14, 1966.
- 225- Trigger, (B. G.), Nubia under th Pharaohs, London, 1976.
- 226- Vercoutter (J.), Excavations at Mirgissa, I, Kush, XII, 1964.
- 227- Vercoutter, (J.), Excavations at Sai, 1955 - 1957, Kush, 1968.
- 228- Vercoutter (J.), ADaggar from Kerma, Kush, VIII, 1960.
- 229- Vercoutter (J.), Upper Egyptian Settlers in Middle Kingdom, Nubia, Kush, V, 1967.
- 230- Vercoutter (J.), Mirgissa, I, Paris, 1970
- 231- Young (T. C.), Smith, (P. E. L.), Research in Prehistory of Central Western Iran, in Science, 153, 1966
- 232- Enceyclopaedia Billica.
- 233- Enceyclopaedia Britannica.
- 234- Enceyclopaedia of Islam
- 235- Enceyclopaedia of Religion and Ethics.
- 236- The Jewish Enceyclopaedia, N Y , 1903

المؤلف في سطور

دكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



- ١- ولد في البصيلة - مركز إدفو - محافظة أسيوط.
- ٢- حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمعهد المعلمين بقاء، حيث تخرج فيه عام ١٩٤٩ م
- ٣- عمل مدرساً بوزارة التربية والتعليم (١٩٤٩ - ١٩٦٠ م).
- ٤- حصل على ليسانس الآداب بمرتبة الشرف من قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٠.
- ٥- عين معيداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم، بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦١ م.
- ٦- حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف في التاريخ القديم من كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩ م.
- ٧- عين مدرساً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩ م.
- ٨- عين أستاذاً مساعداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٤ م.
- ٩- عين أستاذاً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٩ م.
- ١٠- أعيير إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في الفترة ١٩٧٣ - ١٩٧٧ م.
- ١١- عين عضواً في مجلس إدارة هيئة الآثار المصرية في عام ١٩٨٢ م.

- ١٢- عين عضواً بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة فى عام ١٩٨٢م.
- ١٣- أغير إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة فى الفترة ١٩٨٣ - ١٩٨٧م.
- ١٤- عين رئيساً لقسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية فى كلية الآداب جامعة الإسكندرية (١٩٨٧ - ١٩٨٨م).
- ١٥- أختير مقررًا للجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم (١٩٨٨ - ١٩٨٩م).
- ١٦- عين أستاذًا متفرغاً فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية فى عام ١٩٨٨م.
- ١٧- عضو لجنة التراث الحضارى والأثرى بالمجالس القومية المتخصصة.
- ١٨- عضو اللجنة الدائمة للآثار المصرية فى هيئة الآثار.
- ١٩- عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.
- ٢٠- عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.
- ٢١- عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى التاريخ.
- ٢٢- أشرف وشارك فى مناقشة أكثر من ٥٥ رسالة دكتوراه ومجستير فى تاريخ وآثار وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم فى الجامعات المصرية والعربية.
- ٢٣- أسس وأشرف على شعبة الآثار المصرية بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية منذ عام ١٩٨٢م.
- ٢٤- شارك فى حفائر كلية الآداب - جامعة الإسكندرية فى الوقف - مركز دشنا - محافظة فاء، وفى عام ١٩٨٠ / ١٩٨١م، وفى «تل الفراعين» مركز دسوق - محافظة كفر الشيخ (فى عام ١٩٨٣ / ٨٢م).
- ٢٥- عضو اتحاد المؤرخين العرب.
- ٢٦- عضو مجلس إدارة إتحاد الآثاريين العرب.
- ٢٧- عضو نقابة السادة الأشراف، بجمهورية مصر العربية

مؤلفات

الأستاذ الدكتور: محمد بيومي مهران
أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

أولاً: في التاريخ المصري القديم

- ١- الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية مصر رسالة ماجستير الإسكندرية ١٩٦٦
- ٢- والعالم الخارجى في عصر رمسيس الثالث رسالة دكتوراه الإسكندرية ١٩٦٩
- ٣- حركات التحرر في مصر القديمة
- ٤- إخناتون - عصره ودعوه

ثانياً: في تاريخ اليهود القديم

- ٥- التوراه (١) مجلة الأسطول - العدد ٦٣ الإسكندرية ١٩٧٠
- ٦- التوراه (٢) مجلة الأسطول - العدد ٦٤ الإسكندرية ١٩٧٠
- ٧- التوراه (٣) مجلة الأسطول - العدد ٦٥ الإسكندرية ١٩٧٠
- ٨- قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة مجلة الأسطول - العدد ٦٦ الإسكندرية ١٩٧١
- ٩- التفاهة الجنسية عند اليهود مجلة الأسطول - العدد ٦٧ الإسكندرية ١٩٧١
- ١٠- التفاهة الجنسية عند اليهود مجلة الأسطول - العدد ٦٨ الإسكندرية ١٩٧١
- ١١- أخلاقيات الحرب عند اليهود مجلة الأسطول - العدد ٦٩ الإسكندرية ١٩٧١
- ١٢- التلمود مجلة الأسطول - العدد ٧٠ الإسكندرية ١٩٧٢
- ١٣- بنو إسرائيل - الجزء الأول - طبعة ثالثة، منقحة مريدة الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٤- بنو إسرائيل - الجزء الثانى - طبعة ثالثة، منقحة مريدة الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٥- بنو إسرائيل - الجزء الثالث - طبعة ثالثة، منقحة مريدة الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٦- بنو إسرائيل - الجزء الرابع - طبعة ثالثة، منقحة مريدة الإسكندرية ١٩٩٩

- ١٧- بنو إسرائيل - الجزء الخامس - طبعة ثالثة، منقحة مزيطة الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٨- أرض الموعد - طبعة ثالثة، منقحة مزيطة الإسكندرية ١٩٩٩

ثالثاً: في تاريخ العرب القديم

- ١٩- الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي الرياض ١٩٧٤
- ٢٠- مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة الرياض ١٩٧٧
- ٢١- العرب وعلاقتهم الدولية في المصور القديمة الرياض ١٩٧٦
- ٢٢- الديانة العربية القديمة الإسكندرية ١٩٧٨
- ٢٣- العرب والعرب في المصور القديمة الإسكندرية ١٩٧٩
- ٢٤- الفكر الجاهلي القاهرة ١٩٨٢

رابعاً: في تاريخ العراق القديم

- ٢٥- قصة العلوقة بين الآثار والكتب المقدسة الرياض ١٩٧٦
- ٢٦- قانون حمورابي، وأثره في التوراة الإسكندرية ١٩٧٩
- خامساً: سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم
- ٢٧- الجزء الأول - في بلاد العرب طبعة ثالثة الإسكندرية ١٩٩٥
- ٢٨- الجزء الثاني - في مصر طبعة ثالثة الإسكندرية ١٩٩٥
- ٢٩- الجزء الثالث - في بلاد الشام طبعة ثالثة الإسكندرية ١٩٩٥
- ٣٠- الجزء الرابع - في العراق طبعة ثالثة الإسكندرية ١٩٩٥

ملحوظة: الطبعة الأولى في الرياض ١٩٧٧ والثانية في بيروت ١٩٨٨

سادساً: سلسلة: تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم

- ٣١- مصر - الجزء الأول طبعة سادسة الإسكندرية ١٩٩٥
- ٣٢- مصر - الجزء الثاني طبعة سادسة الإسكندرية ١٩٩٥
- ٣٣- مصر - الجزء الثالث طبعة سادسة الإسكندرية ١٩٩٥

٣٤-	الحصار للمصرى القديمة - الجزء الأول	طبعة رابعة	الإسكندرية ١٩٩٠
٣٥-	الحصار للمصرى القديمة - الجزء الثاني	طبعة رابعة	الإسكندرية ١٩٩٠
٣٦-	تاريخ العرب القديم - الجزء الأول	طبعة سادسة عشرة	الإسكندرية ١٩٩٤
٣٧-	تاريخ العرب القديم - الجزء الثاني	طبعة سادسة عشرة	الإسكندرية ١٩٩٤
٣٨-	بلاد الشام	طبعة ثانية	الإسكندرية ١٩٩٠
٣٩-	المغرب القديم	طبعة ثانية	الإسكندرية ١٩٩٠
٤٠-	المرات القديم	طبعة ثانية	الإسكندرية ١٩٩٠
٤١-	التاريخ والتاريخ	طبعة ثانية	الإسكندرية ١٩٩٤
٤٢-	السودان القديم	طبعة ثانية	الإسكندرية ١٩٩٤
٤٣-	المدن الفينيقية (تاريخ لبنان القديم)	طبعة أولى	بيروت ١٩٩٤
٤٤-	الحضارة العربية القديمة	طبعة ثالثة	الإسكندرية ١٩٩٦
٤٥-	الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية	طبعة ثانية مفعلة مزينة	الإسكندرية ١٩٩٩
٤٦-	حضارة الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول	طبعة أولى	الإسكندرية ١٩٩٩
٤٧-	حضارة الشرق الأدنى القديم - الجزء الثاني	طبعة أولى	تحت الطبع

سابعاً: المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم

٤٨-	الجزء الأول - مصر	طبعة أولى	الإسكندرية ١٩٩٩
٤٩-	الجزء الثاني - الشرق الأدنى القديم	طبعة أولى	تحت الطبع
ثامناً: سلسلة في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين،			
٥٠-	السيرة النبوية الشريفة - الجزء الأول		بيروت ١٩٩٠
٥١-	السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثاني		بيروت ١٩٩٠
٥٢-	السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثالث		بيروت ١٩٩٠
٥٣-	السيدة فاطمة الزهراء		بيروت ١٩٩٠
٥٤-	الإمام علي من أبي طالب - الجزء الأول		بيروت ١٩٩٠

- ٥٥- الإمام علي بن أبي طالب - أثير ص ٧٠ بيروت ١٩٩٠
 ٥٦- الإمام الحسن بن علي بيروت ١٩٩٠
 ٥٧- الإمام الحسين بن علي بيروت ١٩٩٠
 ٥٨- الإمام علي زين العابدين بيروت ١٩٩٠
 ٥٩- الإمام جعفر الصادق تحت الطبع

تاسعاً: سلسلة الإمامة وأهل البيت

- ٦٠- الإمامة بيروت ١٩٩٣
 ٦١- الإمامة والإمام علي بيروت ١٩٩٣
 ٦٢- الإمامة وخلفاء الإمام علي بيروت ١٩٩٣
 عاشرًا: مقالات في مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
 ٦٣- دراسة حول التأريخ للأشياء العدد ٢٩ الإسكندرية ١٩٩٢
 الإعجاز في القرآن - دراسة في الإعجاز التاريخي
 النقاوة الجنسية عند اليهود - دراسة جديدة العدد ٤٠ الإسكندرية ١٩٩٣
 منقحة مزيدة العدد ٤٦ الإسكندرية ١٩٩٧

محتويات الكتاب

الباب الأول

بلاد العرب

١٧٦-١

٥٢-١

٥٢-١

٣-١

٦-٣

١٩-٦

٢٣-١٩

٢٥-٢٣

٢٦-٢٥

٢٨-٢٦

٣٥-٢٨

٤٢-٣٥

٥٢-٤٣

٩٠-٥٣

٥٧-٥٣

٥٩-٥٧

٦٠-٥٩

٧٩-٦٠

٨٣-٧٩

٨٤

الفصل الأول: في شمال بلاد العرب

١- مكة المكرمة :

١- موقع مكة المكرمة الجغرافي وأهميته

٢- أسماء مكة المكرمة

٣- نشأة مكة المكرمة

٤- تحريم مكة المكرمة

٥- حدود الحرم المكي

٦- أمان مكة المكرمة

٧- مكة في عهد إسماعيل وولده

٨- مكة في عصر قصي

٩- بنو هاشم

١٠- مكانة مكة المكرمة

٢- المدينة المنورة

١- موقع المدينة الجغرافي وأهميته

٢- بين مكة وبثرب

٣- أسماء المدينة المنورة

٤- سكان المدينة المنورة

١- اليهود ص ١١ - ٧٢

٢- العرب ص ٧٢ - ٧٩

٥- فضائل المدينة المنورة

٦- المجد النبوي الشريف

٩٠-٨٤	٧- البروضة الشريفة
١٠٠-٩١	٣- الطائف
١١١-١٠١	٤- تيماء
١١٧-١١٢	٥- دومة الجندل
١٢٣-١١٨	٦- مدائن صالح (الحجر)
١٢٨-١٢٤	٧- العلا (دبلان)
١٤٨-١٢٩	الفصل الثاني: في جنوب بلاد العرب
١٣٠-١٢٩	١- في دولة معين
١٢٩	١- قرناو
١٢٩	٢- يراش
١٣٠	٣- نشق
١٣٠	٤- نشان
١٣٠	٥- لوق
١٣٤-١٣١	٢- في دولة حضرموت
١٣١	١- شبوه
١٣١	٢- ميفعة
١٣٢	٣- قا
١٣٢	٤- مذنب
١٣٣	٥- منا
١٣٥-١٣٤	٣- في دولة قتيان
١٣٤	١- تمنع
١٣٤	٢- حرب
١٤٨-١٣٥	٤- في دولة سبأ
١٣٥	١- صرواح
١٤٠-١٣٦	٢- مأرب

١٤٤-١٤١

٣- سد مأرب

١٤٦-١٤٥

٤- نجران (رجمت)

١٤٦

٥- ظفار

١٤٨-١٤٦

٦- صنعاء

١٥٢-١٤٩

الفصل الثالث: فى شرق بلاد العرب

١٤٩

١- دلمون

١٥٠

٢- جرما

١٥١

٣- ميجان

-١٥٣

الفصل الرابع: فى الممالك والإمارات العربية فى العراق والشام

١٦٣-١٥٣

١- تدمر

١٦٤

٢- الحجابة - جلق

١٦٨-١٦٥

٣- الحيرة

١٧١-١٦٩

٤- الحضر

١٧٤-١٧٢

٥- الرها

-١٧٥

٦- حمص

-١٧٦

٧- ملين

الباب الثانى

العراق

-١٧٧

-١٧٧

الفصل الأول: المدن والمراكز الأثرية فيما قبل العصر التاريخى

١٧٨-١٧٧

تقديم

١٧٨

١- فى شمال العراق

١٧٩-١٧٨

١- تل الصوان

١٧٩

٢- تل حسونة

١٨٠

٣- تل حلف

١٨٠

٤- حرمر

١٨١

٥- سامراء

١٨٦-١٨٢	٢- في جنوب العراق
١٨٢	١- أريدو
١٨٣	الوركاء
١٨٤	٣- جمدة نصر
١٨٥	٤- سيار
١٨٥	٥- الحاج محمد
١٨٦	٦- المنيد
١٨٧-١٩١	الفصل الثاني: المدن والمراكز الأثرية منذ العصر السومري وحتى
	قيام الدولة البابلية
١٨٨-١٨٧	١- العصر السومري
١٨٧	١- تقديم
١٨٨	٢- ليجش
١٨٩	٣- أوما
١٨٩	٤- نيبور
١٩٠-١٩١	٥- كيش
١٩١-١٩٢	٢- العصر الأكدي
١٩٢-١٩١	١- أكد
١٩٢-١٩٤	٣- أسرة أور الثالثة
١٩٢-١٩٤	١- أور
١٩٤-١٩٥	٤- إيسين ولارسا
١٩٤-١٩٥	١- إيسين
١٩٥	٢- لارسا
١٩٥-١٩٦	٥- مملكة أشنونا
١٩٥-١٩٦	١- أشنونا

الفصل الثالث: منذ قيام الدولة البابلية وحتى قيام الدولة ١٩٧-٢٠٦
الآشورية

١٩٧-٢٠٤	١- بابل
٢٠٤	٢- كوث
٢٠٤	٣- مغروهم
٢٠٦-٢٠٤	٤- دوركو ريجالز
٢١٦-٢٠٧	الفصل الرابع: الدولة الآشورية
٢٠٧	تقديم

٢٠٩-٢٠٨	١- آشور
٢١٠-٢٠٩	٢- كالح
٢١١	٣- كار - نوكلتي - ننورتا
٢١٣-٢١١	٤- دور شاروكتين
٢١٥-٢١٣	٥- نينوى

الفصل الخامس: منذ العصر الإخميني وحتى الفتح الإسلامي ٢١٧-٢٢٣

٢١٧	١- الإخمينيون
٢١٧	١- بابل
٢١٩-٢١٧	٢- السلوقيون
٢١٩-٢١٧	١- سلوقية
٢٢٠-٢١٩	٣- البارثيون
٢٢٠-٢١٩	١- بابل
٢٢٣-٢٢٠	٤- الساسانيون
٢٢٢-٢٢٠	١- المداين (طيسفون)
٢٢٣-٢٢٢	٢- كوخة
٢٢٣	٣- مدينة كسرى أنطاكية

٢٢٤-٢٣٢	الفصل السادس: العواصم الإسلامية
٢٢٤-٢٢٥	١- البصرة
٢٢٥-٢٢٧	٢- الكوفة
٢٢٨	٣- واسط
٢٢٨-٢٣١	٤- بغداد

الباب الثالث

بلاد الشام

٢٢٣-٢٤٤	الفصل الأول: فلسطين
٢٣٥-٢٦٨	١- القدس الشريف
٢٣٥-٢٤٤	١- موقع القدس
٢٣٥	٢- مكانة القدس الدينية
٢٣٨	٣- أسماء القدس
٢٤٠	الفصل الثاني: المسجد الأقصى
٢٤٥-٢٥٥	٢- السامرة
٢٥٦-٢٥٨	٣- أريحا
٢٥٩-٢٦٠	٤- أشدود
٢٦٠-٢٦١	٥- أفيق
٢٦١	٦- أدام المدينة
٢٦١	٧- ترصة
٢٦٢	٨- تعنك
٢٦٢	٩- يتر سبع
٢٦٢	١٠- بيت إيل
٢٦٢	١- بيت شان
٢٦٣	١٢- بيت لحم
٢٦٤	١٣- جبع

٢٦٤	١٤- جيمون
٢٦٤	١٥- جازر
٢٦٥	١٦- حبرون
٢٦٥	١٧- حاصور
٢٦٥	١٨- دان
٢٦٦-٢٦٧	١٩- الناصرة
٢٦٧	٢٠- يابيش جلعاد
٢٦٧	٢١- يافا
٢٦٧	٢٢- شعليم
٢٦٧	٢٣- غيش
٢٦٩-٢٩٠	الفصل الثاني: لبنان - المدن الفينيقية
٢٦٩-٢٧٥	تقديم
٢٧٥-٢٧٨	١- أوجاريت
٢٧٨-٢٧٩	٢- أرود
٢٧٩-٢٨٠	٣- جبيل
٢٨٠-٢٨٤	٤- صيدا
٢٨٥-٢٨٨	٥- صور
٢٨٩	٦- بيروت
٢٨٩-٢٩٠	٧- سميريا
٢٩١-٢٩٢	الفصل الثالث: سورية
٢٩١	١- في شمال سورية
٢٩١	١- مرعش
٢٩١	٢- منجرلي
٢٩١	٣- كوتالوا
٢٩١	٤- أرباد

١٩٢-٢٩١	٥- حلب
٣٠٢-٢٩٢	٢- في وسط وجنوب سورية
٢٩٣-٢٩٢	١- حران (حاران)
٢٩٦-٢٩٣	٢- دمشق
-٢٩٦	٣- صوبة
٣٠٢-٣٠٠	٤- ماري
٣٠٢	٥- مجلو
٣٠٩-٣٠٣	الفصل الرابع: شرق الأردن
٣٠٤-٣٠٣	١- الادوميون
٣٠٤-٣٠٣	١- البتراء
٣٠٤	٢- بصره
٣٠٤	٣- تيمان
٣٠٥-٣٠٤	٤- عصيون جابر
	٢- المزابيون
٣٠٥	١- ديبون
	٣- العمونيون
٣٠٦-٣٠٥	١- ربة عمون (عمان)
	٤- مملكة الأموريين في شرق الأردن
٣٠٧	١- حشبون
٣٠٨-٣٠٧	٢- باشان
	الباب الرابع
-٣٠٩	السودان والمغرب القديم
-٣١١	الفصل الأول: السودان (التربة العليا)
٣١٣-٣١١	تقديم
٣١٦-٣١٣	١- نباتا

٢١٨-٢١٦	٢- مروني
٢١٩	٣- الخرطوم
٢٢٠-٢١٩	٤- البحراوية
٢٢١-٢٢٠	٥- ليكن
٢٢٥-٢٢١	٦- الكرو
٢٢٦-٢٢٥	٧- أورد - نارني
٢٢٦	٨- النقة
٢٣٠-٢٢٦	٩- برهن
٢٣٠	١٠- بعممة
٢٣٠	١١- بناجة
٢٣٨-٢٣٠	١٢- جبل البرقل
٢٣٩-٢٣٨	١٣- دنقلة المعجوز
٢٣٩	١٤- ساي - صاي
٢٣٩	١٥- سدحجا
٢٤٠	١٦- سرس
٢٤٢-٢٤٠	١٧- سره
٢٤٥-٢٤٢	١٨- سمعة
٢٤٦-٢٤٥	١٩- سيسي
٢٤٦	٢٠- صنم
٢٤٨-٢٤٦	٢١- صولب
٢٤٩-٢٤٨	٢٢- عكاشة
٢٤٩	٢٣- عكشة
٢٥٠-٢٤٩	٢٤- عمارة غرب
٢٥١-٢٥٠	٢٥- عنيبة (ميعام)
٢٥٢-٢٥١	٢٦- فرس

٢٥٢	٢٧- قمة
٢٥٣-٢٥٢	٢٨- كارا
٢٥٧-٢٥٤	٢٩- كوش
٢٥٨-٢٥٧	٣٠- كويان
٢٥٨	٣١- كرجوس
٢٦٤-٢٥٩	٣٢- كرما
٢٦٤	٣٣- مرجسيه
٢٦٧-٢٦٤	٣٤- نوري
-٢٦٧	الفصل الثاني: المغرب القديم
٢٦٧	المدن الفينيقية والمراكز الأثرية
٢٦٧	١- تقديم
٢٦٩	٢- المستعمرات الفينيقية في الشمال الأفريقي
٢٧٠-٢٨٢	١- قرطاج
٢٨٣	٢- أوتيكا
٢٨٤	٣- هيو
٢٨٤	٣- المدن المغربية والمراكز الأثرية
٢٨٥	١- أشكار
٢٨٥	٢- المقطع
٢٨٥	٣- أمكاكاس
٢٨٧	٤- برقة
٢٨٧	٥- بحر العاتر
٢٩١	٦- تونس
٢٩١	٧- دار السلطان
٢٩٢	٨- سرته
٢٩٢	٩- شرشال

٣٩٣	١٠- قصة
٤٠١	١١- قورينه
٤٠٢	١٢- كهف حجلة الطرة
٤٠٢	١٣- كهف حجلة الضبع
٤٠٢	١٤- كهف هوافتيج
٤٠٨	١٥- محجر سيدى عبد الرحمن
٤٠٩	١٦- أهم المواقع الصحراوية فى العصر الحجري
٤٠٩	الحديث
٤٠٩	١- موقع عبد العظيم
٤٠٩	٢- موقع فيلة بركة
٤٠٩	٣- موقع زفان
٤٠٩	٤- موقع تيليلة
٤٠٩	٥- موقع أمكين
٤١٠	١٧- مخيا رديف
٤١١	١٨- موقع برزينة
٤١١	١٩- مشتا العربى
٤١٢	٢٠- وهران
٤١٥	٢١- نوميليا
٤٢٠	٢٢- موريتانيا

الباب الخامس

إيران وآسيا الصغرى

٤٢٥	الفصل الأول: إيران
٤٢٧-٤٤٠	١- تقديم
٤٢٨	٢- أهم المدن والمواقع الأثرية فى إيران
٤٢٨	١- بهستون

٤٢٨	٢- تبة جيان
٤٢٩	٣- تبة حصار
٤٣٠	٤- تبة جائجي داره
٤٣٠	٥- تبة حوران
٤٣٢	٦- تل هاكون
٤٣٢	٧- تبة سيالك
٤٣٦	٣- المواسم الإيرانية (الفارسية)
٤٣٦	١- سوسة
٤٣٨	٢- اكبتانا
٤٣٨	٣- يازار جادة
٤٣٨	٤- يرسوبوليس
٤٤١-٤٥٤	الفصل الثاني: آسيا الصغرى
٤٤١	١- تقديم
٤٤١	٢- أهم المدن والمواقع الأثرية في آسيا الصغرى
٤٤١	١- أرثو (أرزاوا)
٤٤٢	٢- إيسوس
٤٤٢	٣- بوغازكوى
٤٤٥	٤- طرسوس
٤٤٦	٥- طروادة
٤٤٦	٦- قدى
٤٤٧	٧- قره تبة
٤٤٧	٨- قلقيا
٤٤٨	٩- قادوقيا
٤٤٩	١٠- كانش
٤٥٣	١١- واشوكامى
٤٥٥	المراجع المختارة

